القيصر الجديد

بزوغ عهد فلاديمير بوتين

تأليف : ستيفن لي مايرز

نقله إلى العربية

تيسير نظمي خليل

راجعه

محمد إبراهيم العبدالله

العبيكان
Obeikan

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti
www.kitabsawti.com

دار ضاد للنشر الإلكتروني
WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية

أجهزة amazon kindle

Google Play

Original Title
The New Tsar
The Rise and Reign of Vladimir Putin

Author:
Steven Lee Myers

Copyright © 2015 by Steven Lee Myers
ISBN-10: 0307961613 **ISBN-13**: 978-0307961617
All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by arrangement with : **Alfred A. Knopf, a division of Penguin Random House LLC, New York, (USA)**

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع ألفريد أ. نوبف، الولايات المتحدة الأمريكية.

© العبيكان 2015 ـ 1436

شركة العبيكان للتعليم، 1438 هـ

ح فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مايرز، ستيفن لي

القيصر الجديد بزوغ عهد فلاديمير بوتين./ ستيفن لي مايرز؛ تيسير نظمي – الرياض 1438 هـ

720 ص؛ 16.5×24 سم ردمك: 2-003-509-603-978

1- روسيا – تاريخ. أ. نظمي، تيسير (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 947 رقم الإيداع: 1590 / 1438

الطبعة العربية الأولى 1439هـ – 2018م

نشر وتوزيع العبيكان

المملكة العربية السعودية – الرياض –

طريق الملك فهد – مقابل برج المملكة

هاتف: 4808654 966+ فاكس: 4808095 966+

ص.ب: 67622 الرياض 11517

www.obeikanpublishing.com

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

الجزء الأول

الفصل الأول: إنسان العصر السوفييتي 7

الفصل الثاني: قلب دافئ.. ورأس بارد.. ويدان نظيفتان 29

الفصل الثالث: موظف مخلص في إمبراطورية تحتضر 47

الفصل الرابع: الديموقراطية تواجه مجاعة الشتاء 69

الجزء الثاني

الفصل الخامس: الجواسيس يأتون من البرد 95

الفصل السادس: سوء إدارة الديموقراطية 119

الفصل السابع: مسار غير متوقع إلى السلطة 141

الفصل الثامن: السباحة في النهر نفسه مرتين 161

الفصل التاسع: التسوية 183

الفصل العاشر: في المرحاض الخارجي 205

الجزء الثالث

الفصل الحادي عشر: لتصبح كما البرتغال 233

الفصل الثاني عشر: روح بوتين 267

الفصل الثالث عشر: الآلهة نامت على رؤوسهم 293
الفصل الرابع عشر: السنة المروعة 319
الفصل الخامس عشر: العدوى البرتقالية 345
الفصل السادس عشر: شركة الكرملين 369
الفصل السابع عشر: السُّم 399
الفصل الثامن عشر: مشكلة 2008م 423

الجزء الرابع

الفصل التاسع عشر: الريجنسي 451
الفصل العشرون: رجل أفعال 471
الفصل الواحد والعشرون: العودة 497

الجزء الخامس

الفصل الثاني والعشرون: الاستعادة 525
الفصل الثالث والعشرون: وحيدًا على أوليمبوس 545
الفصل الرابع والعشرون: بوتينغراد 567
الفصل الخامس والعشرون: روسيا لنا 597

شكر وتقدير 629

ملاحظات 633

الألبوم 711

الجزء الأول

الفصل الأول

إنسان العصر السوفييتي

كان فوز فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين، وإحرازه تقدمًا في ساحة معركة متداعية، أشبه ببركان بجانب نهر النيفا، على ما يقرب ثلاثين ميلًا من لينينجراد، يكاد ينفجر، وقد بدت أوامره انتحارية، وكان عليه أن يستطلع المواقف الألمانية، إذا كان ذلك ممكنًا، ويأسر جنديًّا لاستجوابه.

كان ذلك يوم 17 من نوفمبر/تشرين الثاني 1941م[1]، وكان يومًا شديد البرودة، وجيش الاتحاد السوفييتي الذي تعرض لحالة إذلال، يقاتل يائسًا ليتجنب تدميره التام على يد ألمانيا النازية. آخر الدبابات الاحتياط في المدينة كانت قد عبرت نهر نيفا قبل أسبوع، وقادة بوتين كانوا يصدرون الأوامر لاختراق مواقع معززةٍ دفاعيًّا على نحو كبير من خلال 54000 من المشاة الألمان[2]، ثم لم يكن هناك خيار سوى الانصياع.

اقترب هو وجندي آخر من حفرة بجانب خنادق على طول الجبهة الأمامية دمرتها القذائف وتلطخت بالدماء، وإذا بجندي ألماني يظهر فجأة، فذهل الجنود الثلاثة وجمدوا للحظة، لم يتحرك خلالها ساكن، ثم كان رد فعل الجندي الألماني أسبق إذ نزع فتيل أمان قنبلة يدوية وقذف بها، فسقطت قرب بوتين، فقُتل رفيقه واستقرت شظاياها في ساقيه، أما الجندي الألماني ففر هاربًا، تاركًا بوتين للميت. «الحياة مجرد شيء بسيط حقًّا»، يقول الرجل الذي سرد في وقت لاحق القصة بعد عقود من زمن الواقعة، بفرادتها العجيبة[3].

كان بوتين- ابن الثلاثين عامًا حينها- يستلقي جريحًا على جسر في الضفة الشرقية لنهر نيفا، وكان قادة الجيش الأحمر قد دفعوا بالقوات المتدفقة خلال النهر على أمل كسر الحصار حول لينينجراد الذي بدأ قبل شهرين عندما استولى الألمان على شليسلبورغ، لكن القلعة القديمة عند مصب نهر نيفا لم تصمد، وخابت كل جهودهم.

كان الألمان قد فرضوا حصارًا استمر 872 يومًا، وقتلوا مليون مدني بالقصف والتجويع، أو المرض، وقتها «قرر الفوهرر القضاء على مدينة بطرسبورج، ومسحها من على وجه الأرض»، وكان هذا هو القرار السري الألماني الذي كُشف عنه في 29 سبتمبر/ أيلول، ولن يكون بعدها الاستسلام مقبولًا، وسوف تكون الغارات الجوية والقصف المدفعي أداة دمار المدينة، يرافقها التجويع؛ لأن «إطعام السكان يجب ألَّا يكون على يدينا، بل ولا يمكن أن يكون»[4]. لم يحدث من قبل أن عانت مدينة في العصر الحديث من مثل ذلك الحصار.

«هل هذه هي نهاية خسائركم؟» بتلك الكلمات أبرق جوزيف ستالين بشراسة للمدافعين عن المدينة بعد يوم من بدء الحصار، وتابع: «لعل لديكم حقًّا قرارًا بالتخلي عن لينينجراد؟»، ووقع على البرقية التي كتبها كامل القيادة السوفييتية، ومن بينهم فياتشيسلاف مولوتوف، الذي وقَّع في عام 1939م على معاهدة عدم الاعتداء سيئة السمعة مع نظيره النازي، يواكيم فون ريبنتروب، الذي نقض المعاهدة الآن[5]. لم تكن هذه بأي حال من الأحوال نهاية الخسائر، فقد تزامن سقوط شليسلبورغ مع غارات جوية شرسة على لينينجراد نفسها، أشعل بعض حممها المستودع الرئيس للمواد الغذائية في المدينة، وكانت القوات السوفييتية التي تدافع عن المدينة في حالة من الفوضى، كما هي حالتها في كل مكان في الاتحاد السوفييتي.

كانت عملية بربروسا هي الغزو النازي الذي بدأ يوم 22 من يونيو/حزيران 1941م، وسحق الدفاعات السوفييتية على طول جبهة ألف ميل، من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، حتى بدت موسكو نفسها تواجه خطر السقوط. لكن ستالين لم يفكر قطُّ في استسلام لينينجراد، فأوفد رئيس هيئة الأركان العامة، جيورجي جوكوف، لدعم دفاعات المدينة، وهو ما فعله بوحشية

كبيرة؛ ففي ليلة 19 من سبتمبر/أيلول- بناء على أوامر جوكوف- شنت القوات السوفييتية الهجوم الأول بطول 600 متر عبر نهر نيفا لكسر الحصار، ولكن صَدَّتها قوة نارية ألمانية ساحقة. وفي أكتوبر/تشرين الأول، حاولوا مرة أخرى، وألقوا بالشعبة السادسة والثمانين في أتون المعركة، التي كانت تضم وحدة بوتين (الفوج 330) من حَمَلة البنادق الذين بنوا جسر العبور على الضفة الشرقية لنهر نيفا، الذي أصبح معروفًا- بسبب حجمه- باسم **نيفسكي بياتاتشوك**، من كلمة لعملة الكوبيك المكونة من خمسة كوبيكات أو قطعة صغيرة.

لم تكد ساحة المعركة- في أكبر اتساع لها- تبلغ ميلًا عرضًا، ونصف ميل أو أقلَّ طولًا، ومن ثم فقد كانت بالنسبة إلى الجنود المقدَّر لهم القتال هناك، مصيدةً وحشية لموت بلا معنى.

كان بوتين عاملًا غير متعلم، وأحد أربعة أبناء لسبيريدون بوتين، الطباخ الذي كان يعمل ذات مرة في فندق أستوريا المشهور قبل الثورة في المدينة. سبيريدون، على الرغم أنه من مؤيدي البلاشفة، كان قد فرَّ من العاصمة خلال الحرب الأهلية والمجاعة التي تلت ثورة أكتوبر/تشرين الأول في عام 1917م، واستقر في قرية أجداده (بومينوفو) في التلال غربي موسكو، وبعد ذلك انتقل إلى المدينة نفسها، حيث عمل طباخًا لأرملة فلاديمير لينين، ناديا كروبسكايا، في مسكنها الرسمي الريفي السوفييتي في منطقة جوركي على أطراف موسكو[6]، ثم عمل بعد وفاتها، في عام 1939م، لدى لجنة الحزب الشيوعي في موسكو، وقيل إنه طبخ مرة واحدة لجريجوري راسبوتين في أستوريا، وأحيانًا لستالين عندما زار أرملة لينين، في بداية تقليد عائلي من العبودية للنخبة السياسية.

قربُه من السلطة لم ينفعه شيئًا في حماية أبنائه من النازيين؛ فالأمة كلها كانت تقاتل من أجل البقاء، وكان فلاديمير بوتين قد اكتسب حقًّا خبرة عندما غزا النازيون الاتحاد السوفييتي في يونيو/حزيران عام 1941م، وكان في الثلاثينيات من القرن الماضي أحد

طواقم الغواصات، قبل أن يستقر غير بعيد عن لينينجراد، في قرية بيترودفوريتس، حيث كان بطرس الأكبر قد بنى قصره على خليج فنلندا.

في أيام الفوضى التي أعقبت الغزو، سارع- مثل كثير من المواطنين- للتطوع للدفاع عن الوطن، فعُيِّن في البداية في مفرزة التدمير الخاصة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية، أو (NKVD)، وكالة الشرطة السرية اللعينة، التي أصبحت في وقت لاحق جهاز الاستخبارات المعروف باسم الكي جي بي. أنشئت الـ (NKVD 2222) من هذه المفارز مشاغلة النازيين وراء الجبهة، وكانت في حينها تتقدم بسرعة[7]، وكانت إحدى المهمات التي ينفذها بوتين للمرة الأولى في الحرب كارثيةً؛ فقد هبط هو وسبعة وعشرون من مقاتلي الحزب الآخرين بالمظلات وراء قوات الألمان التي كانت تتقدم نحو لينينجراد، بالقرب من بلدة كينغيسيب، وكان حينها قريبًا من الحدود مع أستونيا، التي احتلها الاتحاد السوفييتي قبل سنة واحدة، جنبًا إلى جنب مع لاتفيا وليتوانيا، في جزء من الاتفاق سيئ السمعة مع هتلر قبل الحرب. تمكنت مفرزة بوتين من تفجير أحد مستودعات الأسلحة، كما تقول الرواية، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم من دون ذخيرة وتموين، فجلب لهم السكان المحليون في أستونيا الطعام، ولكنهم أيضًا وشوا بهم عند الألمان، الذين استقبلهم كثيرون في دول البلطيق- في البداية على الأقل- على أنهم محرِّرون لهم من الاحتلال السوفييتي، فأطبقت القوات الألمانية على الوحدة من جميع الاتجاهات، وشرعوا يطلقون النار عليهم وهم يتسابقون على طول طريق العودة إلى خطوط الاتحاد السوفييتي. انفصل بوتين عن المجموعة، مطاردًا من قبل الألمان مع الكلاب، واختبأ في المستنقعات، وغاص تحت الماء، وأخذ يتنفس عن طريق قصبة إلى أن تجاوزته الدورية الألمانية[8]. أما كيف تدبر أمر العودة سالمًا بدقة فقد ظل أمرًا غامضًا، ولكنه هو فقط وثلاثةٌ آخرين من المفرزة نجوا من الغارة.

استجوبته الـ (NKVD) بعد هروبه، لكنه نجح في تجنب شبهة الفرار أو الجبن، وسرعان ما أعيد إلى الجبهة[9]، قد تكون الشجاعة وحدها ما ساقته لفعل ذلك، وربما يكون الخوف؛ إذ

كان ستالين قد أصدر القرار رقم 270، في 16 أغسطس/آب، بحق الجنود الفارين، بتنفيذ حكم الإعدام فيهم وباعتقال أفراد أسرهم.

داخل لينينجراد تدهورت الأوضاع بسرعة، على الرغم من الجهود التي بذلتها السلطات للحفاظ على الشعور بالحياة الطبيعية؛ فقد فتحت المدارس- كما هو الحال دائمًا- في 1 سبتمبر/أيلول، ولكن بعد ثلاثة أيام سقطت القذائف الألمانية الأولى داخل المدينة[10]، ومع اكتمال الحصار أصبحت المدينة تحت رحمة الهجمات الجوية المنتظمة، ومن ثم كثفت السلطات تقنين المواد الغذائية، فأخذت حصص التموين بالانخفاض تدريجيًّا، ما أدى إلى حالة من اليأس، والجوع، وأخيرًا الموت.

بينما كان فلاديمير بوتين خارج المدينة يقاتل، كانت زوجته ماريا محاصرة مع طفلها الرضيع داخل المدينة. ولد كلٌّ من فلاديمير وماريا في عام 1911م، وكانا من أطفال القرن العشرين المضطرب في روسيا، الذي عانى من الحرب العالمية الأولى، والثورة البلشفية، والحرب الأهلية التي أعقبت ذلك. التقيا أول مرة في بومينوفو، التي كان والده قد انتقل إليها بعد الثورة، وتزوجا في عام 1928م، عندما كانا في سن السابعة عشرة فقط، وانتقلا إلى لينينجراد وهما متزوجان حديثًا، ليستقرا في بيترودفوريتس مع أقارب زوجته في عام 1932م. وبعد تجنيد بوتين في البحرية أصبح لديهما صبي يدعى أوليغ، لكنه توفي وهو رضيع، ثم قبل عام من بداية الحرب وُلِد الابن الثاني، فيكتور.

نجحت ماريا وفيكتور بصعوبة في الخروج من المناطق التي تعرضت للاحتلال النازي وسيطرته، وكانت رفضت في البداية مغادرة بيترودفوريتس، ولكن عندما أحكم الألمان السيطرة عليها أجبرها شقيقها، إيفان شيلوموف، على الخروج، إذ كان في الخدمة نقيبًا أول في مقر أسطول بحر البلطيق، ومن ثَم كان له سلطة عسكرية في الجيش، وامتيازات لا تزال موجودة في مدينة تحت الحصار[11]، وقد استطاع الكابتن شيلوموف إنقاذهما تحت

وابل من (إطلاق النار والقنابل)، ليستقر بهما الحال في مدينة كانت قد أصبحت محفوفة بالأخطار[12].

مع حلول فصل الشتاء أصبحت الأوضاع وخيمة ومصيرية، فقد كان شتاء تلك السنة باردًا وأكثر مرارة من المعتاد. تنقلت ماريا وفيكتور بين عشرات الملاجئ التي فتحتها السلطات لإيواء اللاجئين المتدفقين من الضواحي المحتلة، وساعدها شقيقها حتى بحصصه هو من الطعام، ولكن صحتها مع ذلك تدهورت. لاحقًا وُضعت جثتها مع جثث المارة المجمدة التي بدأت تتراكم في الشوارع تمهيدًا لجمعها، وكان زوجها آنذاك على الجبهة، وفي تلك المشرحة المفتوحة سُمعت- بطريقة ما- وهي تشتكي وتتأوه، وهو ما جذب إليها الانتباه، أما متى حدث ذلك بالضبط فغير معروف[13].

مع ذلك فقد بدا أن بقاء فلاديمير على قيد الحياة أقل احتمالًا؛ إذ كان يرقد جريحًا بجانب نهر نيفا منذ عدة ساعات قبل أن تعثر عليه القوات السوفييتية الأخرى التي نقلته إلى مقر الفوج على ضفة النهر، وبذلك كان أحد الذين لم يلقوا حتفهم من بين أكثر من 300 ألف جندي قتلوا في معركة بياتاتشوك، ثم أنقذه جار قديم له وجده ملقى على حمَّالة في مستشفى ميداني بدائي، فحمله على كتفه عبر النهر المتجمد إلى المستشفى على الجانب الآخر.

كما اتضح فيما بعد، فقد كانت إصابة بوتين هي التي أنقذت حياته، فوحدته (فوج الرماة 330)، قاتلت لكونها نقطة عبور طيلة فصل شتاء 1941- 1942م في معركة فاقت في نطاقها والمذابح التي وقعت فيها، الحصار الرهيب الذي ستتعرض له ستالينغراد في العام المقبل، وهو ما سمي بـ(مفرمة اللحم الوحشية)[14]؛ فالقوات هناك تحملت قصفًا لا هوادة فيه من قبل الألمان، وأصبحت ضفة النهر متصحرة وميتة ولا شيء من شأنه أن ينمو فيها حتى سنوات عدَّة.

عبرت أفواج جديدة من المجندين الجدد نهر نيفا لتحل محل الذين قتلوا أو جرحوا، بنسبة مذهلة تقدر بالمئات يوميًّا، حتى ربيع عام 1942م، عندما انهارت نقطة عبور الجسر،

واستعاد الألمان الأرض في يوم 27 من أبريل/نيسان، فقُضي على فوج الرماة 330 تمامًا، باستثناء ضابط برتبة رائد هو ألكسندر سوكولوف، الذي تمكن من السباحة إلى بر الأمان، على الرغم من الجروح الخطرة التي أصيب بها[15].

كانت تلك واحدة من أعنف المعارك المميتة في الحرب كلها، وكانت بالنسبة إلى قيادات الجيش السوفييتي حماقة أودت بحياة عشرات الآلاف من الجنود، وهو أمر ربما أطال مدة الحصار بدلًا من تقصيرها[16].

قضى بوتين أشهرًا في المستشفى العسكري يتعافى في مدينة كانت تموت من حوله، وفي الوقت الذي قُطع فيه الطريق الوحيد للخروج من المدينة، ظل ثلاثة ملايين من المدنيين والجنود محاصرين. وقد وجدت ماريا، التي رفضت الخروج عندما كان ذلك لا يزال ممكنًا، في نهاية المطاف زوجها في المستشفى، الذي راح- مخالفًا للنظام- يتقاسم حصته من الطعام في المشفى معها، ويخفي حصته من المواد الغذائية عن أعين الممرضين والممرضات، إلى أن لاحظ ذلك الطبيب، وأوقف زيارات ماريا اليومية له بعض الوقت[17].

استسلمت المدينة بعد أن انهارت المقاومة الأولية أمام الدمار والتجويع، وما هو أسوأ من ذلك؛ فالخدمات الأساسية تدهورت جنبًا إلى جنب مع الإمدادات الغذائية، وتناثرت الجثث التي لم تجمع في أكوام في الشوارع. وفي يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط 1942م قتل أكثر من مئة ألف شخص في كل شهر[18]. وكان الاتصال الوحيد مع الأراضي غير المحتلة من قبل الألمان طريقًا مؤقتة تسمى (طريق الحياة)، وهي سلسلة من الطرق غير المستقرة فوق المياه المجمدة لبحيرة لادوغا التي كانت توفر الحد الأدنى من الإغاثة للمدينة.

ظلت الأرض محاصرة حتى يناير/كانون الثاني 1943م، عندما اخترق الجيش السوفييتي الطوق إلى الشرق، واستغرق الأمر سنة أخرى لتحرير كامل المدينة من قبضة النازية، وبدء مسيرة لا هوادة فيها إلى برلين.

أما فلاديمير وماريا فقد نجيا بطريقة ما، على الرغم من إصاباته التي جعلته يعرج بألم بقية حياته. وفي أبريل/نيسان 1942م أُطلق سراحه من المستشفى، وأُرسل للعمل في مصنع للأسلحة لإنتاج قذائف المدفعية المضادة للدبابات[19]. وأما ابنهما (فيكتور) فقد توفي بالدفتيريا في يونيو/حزيران 1942م ودفن في مقبرة جماعية في مقبرة بسكاريوفسكي، ضمت 470 ألفًا من المدنيين والجنود الآخرين، ولم يعرف فلاديمير ولا ماريا أين دفن بالضبط، ومن الواضح أنهما لم يبذلا جهدًا كبيرًا ليعرفا، ولم يتحدثا أبدًا عن ذلك بالتفصيل لاحقًا[20].

كانت حصيلة عدد القتلى في الحرب من المدنيين هائلة، وكان من بينهم والدة ماريا، إليزابيث شيلوموفا، التي ماتت على الخطوط الأمامية غربي موسكو، في أكتوبر/تشرين الأول 1941م، ولم يكن واضحًا هل القذيفة السوفييتية هي التي قتلتها أو القذيفة الألمانية، وإذا كان شقيق ماريا إيفان قد نجا من الموت، فإن شقيقًا آخر لها، اسمه **بيوتر**، دانته محكمة عسكرية في الجبهة في الأيام الأولى من الحرب، بسبب التقصير في أداء الواجب، ولم يُعرف مصيره أبدًا. وتوفي اثنان من أشقاء فلاديمير أيضًا خلال الحرب: ميخائيل في يوليو/تموز 1942م، وأيضًا في أوضاع غامضة، وألكسي على جبهة فورونيج في فبراير/شباط 1943م[21].

كانت هذه القصصُ من حكايات الحرب الوطنية العظمى قصصًا من البطولة والمعاناة التي شب على سماعها فلاديمير والابن الثالث لماريا، وكان من شأنها أن تترك أثرًا لا يمحى من ذاكرته طوال حياته. ومن (بعض نُتف) من الأحاديث التي سمعها مرارًا وتكرارًا على طاولة المطبخ في شقة مزدحمة في لينينجراد المدمرة، صاغ قصة العائلة، وهي قصة أعاد الزمن والذاكرة صياغتها؛ قصة قد يُشك في صحتها، وغير مكتملة. كانت عائلة بوتين من الناس البسطاء، ومن غير المرجح أنهم كانوا يعرفون كثيرًا عن الجوانب المظلمة من الحرب: حملة التطهير التي قادها ستالين ضد المشكوك في ولائهم في الإرهاب العظيم الذي حطم الجيش وأنهكه قبل الحرب، والتواطؤ مع خطط هتلر لغزو أوروبا، وتقسيم بولندا في عام

1939م، وضم دول البلطيق بالقوة، والدفاع الفوضوي في مواجهة غزو النازيين، والمخالفات الرسمية التي أسهمت في مجاعة لينينجراد، والفظائع الانتقامية من قبل القوات السوفييتية الزاحفة إلى برلين. وحتى ذلك الحين، وبعد وفاة ستالين في عام 1953م، كان الحديث عنها أو التحدث بأعلى من الهمس بما يسيء للدولة، يمثل خطرًا. كان النصر- ومساهمة بوتين المتواضعة فيه- ينبوعًا لا ينضب من الفخر. لكن ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ لم يفكر ذلك الصغير في الأخطاء التي ارتكبت، بل كان يفكر في شيء واحد فقط هو الفوز.

هذا الابن الثالث، فلاديمير فلاديميروفتش بوتين[22]، وُلِدَ في 7 أكتوبر/تشرين الأول عام 1952م، في مدينة كانت لا تزال تعاني من الحصار والحرمان، ومنهكة من الخوف؛ ذلك أن جنون العظمة عند ستالين، حتى في النصر، قاده إلى مرض الشك والقصاص، ومن ثَم ففي أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، تعرضت نخبة زمنِ الحرب في المدينة، سواء المدنيون أو العسكريون، لعملية تطهير عرفت باسم **قضية لينينجراد**؛ إذ ألقي القبض على عشرات من مسؤولي الحزب وأقاربهم، وسجنوا، أو نُفوا، أو قتلوا رميًا بالرصاص[23]. في حين أن المواطنين الموالين للدولة امتنعوا عن الحديث، إما بدافع الخوف أو التواطؤ على الجرائم التي ارتُكبت، حتى أحفاد رجل موثوق به بما فيه الكفاية لطهي الطعام لستالين في المناسبات. قليل من الناس الذين عاصروا ستالين، ولو مدة وجيزة، (حظوا بالسلامة)، هذا ما يتذكره فلاديمير بوتين في وقت لاحق؛ «وكان جدي واحدًا منهم»[24]، «ظل جدي حريصًا إلى حد ما في التحدث عن حياته الماضية، ووالداي، والناس عمومًا، لم يتحدثوا كثيرًا عن الماضي». كان والد فلاديمير من ذوي الياقات الزرقاء، صارمًا وقاسيًا ومخيفًا حتى للناس الذين عرفوه جيدًا، وتركت تجربته في الحرب- العرج الذي عانى بسببه طوال حياته والذي كان يزداد سوءًا في أيام البرد الشديد- أثرًا كبيرًا في حياة الابن.

بعد الحرب، استمر الأب يعمل في مصنع يوغوروف في ضاحية موسكوفسكي الذي كان يُصنِّع العربات للقطارات، وعندما صار عضوًا في الحزب الشيوعي أصبح ممثل الحزب في

المصنع؛ لما كان عليه من الدقة والإخلاص والانضباط، والأهم من ذلك كله الحذر. وقد أهَّله عمله أن يستحق غرفة يبلغ اتساعها 180 قدمًا مربعة، في الطابق الخامس من شقة متهالكة، كانت في يوم ما من القرن التاسع عشر مجمعًا سكنيًّا فاخرًا في شارع باسكوف، ليس بعيدًا عن الشارع الرئيس في لينينجراد، شارع نيفسكي بروسبكت، وقناة غريبويدوف.

في عام 1944م بعد الحرب كان على عائلة بوتين أن تشارك اثنتين من الأسر الأخرى في المكان الضيق، لتعيش فيه لأكثر من عقدين من الزمن. كانت الشقة بلا ماء ساخن، وبلا حوض للاستحمام، وكان الممر الذي لا نوافذ له يستخدم مطبخًا مشتركًا، مع موقد غازي واحد قبالة المغسلة، وكان المرحاض في خزانة ملصقة بالحائط مقابل الدرج، وأما التدفئة في الشقة فكانت تعتمد على موقد للحطب.

كان تعليم ماريا، مثل زوجها، محدودًا، وإذ ولدت فلاديمير في الحادية والأربعين من عمرها فقد بقيت كانت تشعر بالخجل، ولكنها بعد تلك المعاناة والخسائر التي مرت بها كانت تنظر إلى ابنها على أنه معجزة[25]، فكدحت في مختلف الأعمال الوضيعة؛ مثل تنظيف المباني، وغسل أنابيب الاختبار في المختبر، وإيصال الخبز؛ التي تمنحها مزيدًا من الوقت لتعتني به.

شغل زوجان مسنان غرفة واحدة في الشقة، وفي الغرفة الثانية سكنت عائلة يهودية متدينة، مع ابنتهما الكبيرة هافا. وقد أحبَّ فلاديمير- وهو الأصغر سنًّا والطفل الوحيد في المنزل المشترك- الزوجين المسنين كثيرًا، وكان يقضي كثيرًا من الوقت معهما، كما هو الحال مع والديه، حتى باتا جدَّيه البديلين، وكان ينادي المرأة بابا آنيا، التي كانت، مثل والدته، شديدة التدين.

سُمح للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، التي قمعها النظام السوفييتي، أن تعمل علنًا خلال الحرب للمساعدة في حشد الأمة، على الرغم من أنها ستُقمَع بشدة مرة أخرى بعد أن تسكت المدافع. ووفق ما سيروي فلاديمير لاحقًا، ففي 21 نوفمبر/تشرين الثاني، حين كان

عمره سبعة أسابيع فقط، حملته بابا آنيا وماريا من خلال ثلاثة مجمعات سكنية خلال البرد القارس إلى كاتدرائية التجلي، وهي مبنى أصفر من القرن الثامن عشر، بنيت على الطراز الكلاسيكي الجديد لعدد من كنائس المدينة؛ لتعميده سرًّا هناك[26]. ليس واضحًا هل كانت قد احتفظت بسر التعميد خوفًا من زوجها الصارم أو خوفًا من التوبيخ الرسمي، لكن ابنها قال في وقت لاحق إن ما جرى لم يظل سرًّا مثلما تمنت؛ لأن الأسرار في الاتحاد السوفييتي كانت قليلة.

كانت تأخذ الطفل معها إلى أماكن عملها في بعض الأحيان، لكنها أبقت الشقة خالية من أي خصوصية، ومن أي رموز أو إشارات تدل على ممارسة خارجية[27]، فضلًا عن أنها- كما هو واضح- لم تناقش معتقداتها معه حينذاك، وبالتأكيد ليس بعمق. وبعد أربعين سنة أعطته ماريا صليب المعمودية، وطلبت منه أن يباركه في كنيسة القيامة في القدس عندما زارها للمرة الأولى، ومن ثم فقد ظل الصبي يتمتع بأرضية إيمانية لا تفارقه. وعلى الرغم من العقيدة العلمانية الشيوعية التي التزم بها والده، فإنه لم يبد تفضيلًا لأي منهما، مع أن بعض من عرفوه أكدوا في سنوات لاحقة أن علاقته بالجيران اليهود غرست في شخصيته تسامحًا عالميًّا غير عادي، وازدراء لمحاربة السامية التي عانت منها الثقافة الروسية منذ مدة طويلة[28].

كان المبنى في باسكوف لين هو عالم فلاديمير بوتين في صباه؛ المعالم المذهبة لروسيا القيصرية- الأرميتاج، والأميرالية، وكاتدرائية بيتر وبول التي كانت قريبة ولكن أكثر قليلًا من المعالم الأثرية البعيدة الواقعة ضمن المشهد العام للمدينة. وكان في صباه سليل طبقة البروليتاريا، وليس سليل الطبقة المثقفة من السوفييت أو النخبة السياسية. لم يعِ الحرمان في طفولته إلا في وقت لاحق وبعد فوات الأوان؛ إذ يتذكر ذلك الدرج المحطَّم الذي يقود إلى الطابق الخامس، بثقوب نتنة، وإضاءة خافتة، يُشتم منها رائحة العرق والملفوف المغلي، في المبنى الذي كان يعج بالجرذان، التي يطاردها هو وأصدقاؤه بالعصي، وهي إحدى لعبهم،

ويتذكر حينما حُشر أحد الجرذان في نهاية أحد الممرات؛ «وفجأة حام حولي أحدهم وقذف بنفسه في وجهي، ففوجئت وارتعبت»[29].

كان صبيًّا مهلهلًا، فمن ذكرياته التي تعود إلى أحد أيام مايو/أيار لعام 1959م أو 1960م- وكان حينها في طفولته الأولى- أنه خرج مع بعض أقرانه في مغامرة، فأصابه الرعب من صخب (الركن الكبير) في شارع ماياكوفسكايا. وبعد سنوات قليلة، ركب هو وأصدقاؤه قطارًا إلى جزء غير معروف من المدينة بحثًا عن مغامرة، وكان الجو باردًا، ولم يكن لديهم شيء يقتاتون به، ومع ذلك أوقدوا نارًا ليدفئوا أنفسهم ولكنهم عادوا مكتئبين، ويومها ضربه بوتين الأب بحزام عقابًا له.

كان المبنى السكني يحيط بساحة داخلية ترتبط بساحة بناء مجاور ليكوِّنا حيِّزًا مهملًا خاليًا من الأشجار وكان أفضل قليلًا من الجزء السفلي من داخل المبنى، لكنه جذب إليه السكارى والبلطجية، والمدخنين ومتعاطي المخدرات، ومن يريد الهروب من همومه ومعاناته. بحساباته وحسابات أصدقائه، جعلت منه تلك الساحة، والمدرسة في وقت لاحق، صبيًّا خشنًا، شجاعًا، سرعان ما يدافع عن نفسه من أي ازدراء أو تهديدات، إذ يبدو أن صغر حجمه تسبب له غالبًا بالمضايقات.

كان والداه يخافان عليه، حتى إنهما منعاه- عندما كان شابًّا- من مغادرة الساحة دون إذن، ومن ثم فقد ترعرع في حماية مفرطة، على الرغم من أنه لم يكن يلقى محبة وعناقًا ظاهريًّا من والدين نجيا بأعجوبة، وعملا كل ما بوسعهما ليضمنا نجاة ولدهما أيضًا، «فلا قبلات هناك»، تذكرت فيرا جورفيتش، المدرِّسة التي أصبحت مقربة من الأسرة: «لم يكن هناك شيء من ذلك الحب الحمائمي في منزلهم»[30].

في 1 سبتمبر/أيلول 1960م بدأ فلاديمير الذهاب إلى المدرسة رقم 193، التي لا تبعد كثيرًا عن الشارع الذي يعيش فيه، وكان في سن الثامنة تقريبًا، ولفرط حذر ماريا لم ترسله إلى رياض الأطفال، ومن ثم فقد كان يفتقر إلى المهارة الاجتماعية التي يمكن أن يكتسبها

لو نشأ وحوله مزيد من الأطفال؛ فقد ظهر في اليوم الأول لا يحمل أي أزهار لأستاذه، كما تملي التقاليد، وإنما يحمل أصيصًا من النبات[31] في المدرسة، وكان طالبًا غير مبال، وفظًّا ومتسرعًا، وربما مُفسدًا قليلًا، حتى إن فيرا جورفيتش أسمته الدوامة؛ لأنه يسير في الصف ويدور في حلقة مفرغة، وكان عامل تخريب داخل الصف وخارجه[32]، وكان ينزع إلى التسكع مع طلاب أثَّروا فيه سلبيًّا، ومن بينهم اثنان من الإخوة الكبار يدعيان كوفشوف، كذلك قُبض عليه في المدرسة يحمل سكينًا، ووبِّخ ذات مرة من قبل لجنة الحزب لإهماله، وهددته بإرساله إلى دار الأيتام[33].

أبعده سلوكه في البداية خارج دائرة الرواد في منظمة شباب الحزب الشيوعي، التي تتطلب عضويتها إبداء قدر من الالتزام. وفي الصف الثالث كان واحدًا من الطلاب القلائل في الصف، البالغ عددهم 40 طالبًا، الذين لم ينتسبوا إلى المنظمة. وقد يكون والده الذي عمل وكيلًا للحزب، هو الوحيد الذي يمكن أن يشعر بالفزع لإخفاقه، وقد وصف فلاديمير لاحقًا ما فعله بالتمرد على والده وما يحيط به من نظام؛ قال: «كنت مشاغبًا ولم أكن رائدًا»[34]. فيرا جورفيتش، التي درَّسته في الصف الرابع، اشتكت في النهاية إلى والده بأن ابنه ذكي لكنه غير منظم ومهمل، وأضافت: «إنه لا يعمل بكامل طاقاته»، قالت هذا لفلاديمير الكبير في شقة باسكوف لين، التي وصفتها بأنها «باردة جدًّا، وفظيعة».

أجاب فلاديمير سبيريدونوفيتش: «حسنًا، ماذا يمكنني أن أفعل؟ أأقتله أم ماذا؟»[35]. مع ذلك وعد فلاديمير وماريا جورفيتش بلجم ابنهما. حاول والده إجباره على ممارسة الملاكمة، لكن سرعان ما أقلع عنها الصبي حين كسرت لَكمةٌ أنفه، وانصرف- بدلًا من ذلك- إلى الفنون القتالية، التي كانت- كما يبدو- ضد رغبات والديه، فمارس السامبو على النمط السوفييتي الذي هو خليط من الجودو والمصارعة، وكانت أكثر ملاءمة لصغر قامته «وطبيعته المشاكسة»[36]، وأصبح أحدُ مدربيه ذا تأثير حاسم في حياته.

عملت أناتولي راخلين في نادي ترود (نادي العمل)، ليس بعيدًا عن باسكوف لين، وكان بوتين عام 1965م في الصف الخامس حين انضم إليه. وكان على راخلين أن تطمئن أبوَي فلاديمير «أننا لا نعلِّم الأطفال أي شيء سيئ»[37].

الانضباط والصرامة في لعبة السامبو، والجودو في وقت لاحق، استحوذت على اهتمامات الصبي، حتى إنه لم يفكر في شيء غيرها، ويمكن القول إن فنون القتال غيَّرت حياته، وأتاحت له الوسائل لتأكيد ثقته بنفسه، ومواجهة الصبيان الأكثر خشونة منه، وكان يقول: «كانت أداة لأفرض نفسي في المجموعة»[38]، إضافة إلى أنها جلبت له مجموعة جديدة من الأصدقاء، خصوصًا الشقيقين أركادي وبوريس روتنبرغ، اللذين التصقا به طوال حياته. وقدمت له فنون القتال أيضًا العقيدة التي لم يجدها في الدين ولا في السياسة؛ فقد كان يعتقد أنها أكثر من مجرد رياضة؛ إنها فلسفة. قال ذات مرة: «الرياضة هي التي سحبتني من الشوارع، وحتى أكون صادقًا في قولي؛ فإن ساحة المنزل لم تكن البيئة المناسبة لطفل مثلي»[39].

قد يكون هذا سببًا في كثير من تحولاته، ولكن مزاعمه أنه قد عاش حياة الغابة تبدو أشبه بتبجح، فربما استحوذت عليه ذات مرة قذارة الساحة، واستضعاف شاغلي أهلها، لكنها غرست فيه أيضًا ازدراءه للشرب والتدخين، والكسل والفوضى. ومع ذلك، ما إن اكتشف حبه لفنون القتال حتى بات لديه تصميم فولاذي لتحقيق النجاح. ولأن (ترود) يتطلب درجات عالية لعضويته، فقد بذل مزيدًا من الجهود في المدرسة، وفي الصف السادس، وبذلك بدأت درجاته تتحسن.

قررت فيرا جورفيتش ورفاقه في المدرسة إلحاقه بالرواد، وفي وقت متأخر التمسوا من ممثل المدرسة الحصول على استثناء بحقه عن هفواته السابقة، فأقيم له حفل تعارف في أوليانوفكا، وهي قرية ريفية كانت تعرف سابقًا باسم **سابلينو**، عاشت بها شقيقة لينين ذات مرة[40]، وفي غضون أسابيع أصبح زعيم فرع الرواد في مدرسته، وكان هذا أول موضع قيادي

له. وفي الصف الثامن كان من بين الأوائل الذين اختيروا للانضمام إلى الكومسومول، وهي المنظمة الشبابية للحزب الشيوعي، فكانت نقطة انطلاق ضرورية إلى ما اكتشف بعدها أنه هو ما يبحث عنه ويطمح إليه.

في عام 1965م، في الذكرى العشرين للانتصار على النازية، ظهرت موجة جديدة من الحنين إلى الماضي والاحتفال الرسمي، وكانت إحدى أهم الروايات الشعبية لذلك الزمن الرواية التي تحكي قصة التجسس، وتحمل عنوان **الدرع والسيف**، وقد ظهرت أول مرة مسلسلًا في المجلة الأدبية زناميا (اللافتة)، الصادرة عن اتحاد الكتاب، وكان مؤلفها فاديم كوزينيكوف، الذي عمل مراسلًا حربيًّا لبرافدا، وقد قدمت تجربته للقصة بعدًا واقعيًّا، مع أنها تتفق تمامًا مع الشكل السردي للدعاية السوفييتية (كوزينيكوف، بصفته رئيسًا لاتحاد الكتاب، شارك في حظر الرواية الأكثر وصفًا واقعيًّا للحرب، الحياة والمصير لمؤلفها فاسيلي غروسمان). بطل الرواية، الرائد ألكسندر بيلوف، كان عميلًا سريًّا سوفييتيًّا، يدعي أنه ألماني من ألمانيا النازية قبل اندلاع الحرب الوطنية العظمى، وبعد أن يستعمل اسمًا مستعارًا هو **يوهان فايس**، يترقّى في صفوف الأبهر (Abwehr)، ومنظمة الاستخبارات العسكرية النازية، وفيما بعد سكهوتزستفل، أو (SS). ويبدي فايس شجاعة في تلك المغامرة، وكان رواقيًّا عنيدًا جدًّا حتى حينما عُذب. وعلى الرغم من أن النازي الذي كان يخدمه على نحو ظاهري قد اشمأز منه، فإنه كان مجبرًا على تحمل التجربة لتخريب جهد العدو الألماني. كتب كوزينيكوف: «لم يعتقد يومًا أن الجزء الأكثر صعوبة من التعذيب في مهمته التي اختارها بنفسه هو هذا الانشطار في شخصيته ووعيه»، مع أنه كان في البداية مأسورًا بهذه اللعبة؛ لكونه يخلع جلده ويرتدي جلد شخص ما، ويتقمص أفكاره، ويسعد حين تتلاقى هذه الأفكار مع ما يمكن أن يتوقعه الناس من هذه الشخصية المصطنعة[41].

لم تكن شخصية من تأليف تولستوي بكل تأكيد، إنما كانت لصبي مراهق حساس، بل أكثر من هذا بكثير. وبعد ثلاث سنوات من نشره، أصبح الكتاب فيلمًا مدته ساعة، ولكنه من فئة خمسة نجوم، وكان الفضل في كتابة السناريو لكوزينيكوف. وكان الفيلم الأكثر شعبية

في الاتحاد السوفييتي في عام 1968م، وكان يُعرَض بالأبيض والأسود، حين أصبحت الخدمة السريَّة تعرف بـ(كي جي بي).

في ذلك الوقت كان فلاديمير بوتين قد بلغ السادسة عشرة تقريبًا من عمره، وقد سحره هذا الفيلم الذي شاهده هو وأصدقاؤه مرات عديدة، حتى إنه بعد مرور أكثر من أربعة عقود كان لا يزال يتذكر كلمات أغنية عاطفية في الفيلم «عندما يبدأ الوطن الأم، عبق الطيور والبتولا في قلب روسيا»[42]. وسرعان ما كف فلاديمير عن أحلام طفولته بأن يصبح بحارًا، كما كان والده، أو طيارًا، إذ قرر أن يصبح جاسوسًا، وتخيل نفسه الرائد بيلوف (يوهان فايس): الرجل الوسيم، المناسب، القادر بمفرده على تغيير التاريخ، «ما أذهلني أنه كيف لرجل واحد أن يحقق ما لا تستطيع تحقيقه جيوش برمتها»، وذكر في سنوات لاحقة، وبنفس الطابع الرومانسي الذي سيطر عليه حين كان شابًّا: «إن جاسوسًا واحدًا يمكنه أن يقرر مصير الآلاف من الناس»[43].

وقتها كانت معرفته عن الـ(كي جي بي) أو عن أعماله الداخلية ضئيلة، وقد خدم والد أحد زملائه في المخابرات، وسبق له أن تقاعد.

كان عرض الفيلم جزءًا من جهود التحديث التي بذلها المدير الجديد للـ(كي جي بي)، يوري أندروبوف الذي رأسه عام 1967م، والذي أراد أن يعيد تأسيس صورة هذا الجهاز، لا بصفته قوة شرطة سرية لعينة مسؤولة عن القمع والإرهاب، وإنما بوصفها المدافع عن الأمة السوفييتية الكبيرة. وفي حالة فلاديمير على الأقل، حققت الدعاية أهدافها؛ فإذا كانت الأنشطة الرياضية قد سحبته من الشوارع، فإن الفيلم ألهمه مسيرته؛ ففي اليوم التالي لمشاهدته الجزء الأول من الفيلم، أخبر زميله أنه سيصبح جاسوسًا[44]، وبعد ذلك بقليل- كما تذكر الحكاية- أقدم على عمل جريء وساذج؛ فقد مشى خفية إلى مكتب الـ(كي جي بي) المحلي في لايتني بروسبكت، ليس بعيدًا عن شقته، وتطوع في الخدمة.

كانت مقرات الـ(كي جي بي) في لينينجراد تعرف بالبيت الكبير، لا لكبر حجمه فقط؛ فهناك نكتة ساخرة منتشرة حول تسلطه، تتداولها مدن سوفييتية عديدة مع شيء من الاختلاف: من كاتدرائية القديس إسحاق يمكنك أن ترى كل لينينجراد، ومن البيت الكبير يمكنك أن ترى الطريق بكامله لجزر سولوفيتسكي؛ في الأرخبيلِ في البحر الأبيض الذي يمتد مئات الأميال إلى الشمال، وذي السمعة السيئة عن معسكرات العمل لغولاغ.

حاول فلاديمير ثلاث مرات قبل أن يجد المدخل المناسب إلى البيت الكبير، وإلى الضابط الذي سيقابله. تساهل الضابط مع الصبي، ولكنه قال له على نحو قاطع إن الـ (كي جي بي) (KGB) لا يقبل المتطوعين مطلقًا، ولا يوظف إلا من يعدُّهم جديرين، ممن خدموا في الجيش أو تخرجوا في الجامعة، عندها أصيب فلاديمير بالإحباط، وحاول أن يعرف نوع الدراسة التي من شأنها أن تخدم هذا الطموح الجديد له، وإذ كان الضابط على ما يبدو يتوق إلى التخلص منه، فقد اقترح عليه كلية الحقوق، فهي التي توصله إلى مبتغاه.

كانت دراسة القانون الجامعية مخالفة لرغبات والديه، اللذين اعتقدا أن علاماته ومزاجه تؤهلانه أكثر للدراسة التقنية؛ مثل أكاديمية الطيران المدني، التي كان يرغب في البداية في الانتساب إليها. قد يكون فلاديمير متسرعًا، ولكنه- على الرغم من ذلك- عنيد لا يتزعزع. أصابت الحيرة والديه ومدربيه من هدفه الجديد، فهو لم يخبرهم عن رحلته إلى البيت الكبير، ومن ثم الدافع الحقيقي للدراسة في كلية الحقوق. وعندما وبخه أحد المدربين في ترود بعد أن علم باختياره، مفترضًا أنه سيصبح مدعيًا عامًّا أو ضابط شرطة، رد فلاديمير غاضبًا: «أنا لا أريد أن أكون شرطيًّا!»[45].

جاء قراره بالانتساب إلى الـ (كي جي بي) وسط الاضطراب الدولي عام 1968م؛ فقبل أيام فقط من بدء المدرسة الثانوية في لينينجراد، غزا الاتحاد السوفييتي تشيكوسلوفاكيا لسحق إصلاحات ربيع براغ. بدا فلاديمير متكدرًا من حملة القمع ضد المعارضة، سواء في الداخل أو في الخارج. ومثل كثيرين، كان له اطلاع على الثقافة الغربية الممنوعة؛

كالاستماع إلى البيتلز على التسجيلات المهربة التي يتداولها الأصدقاء؛ «كانت الموسيقى نسمة من الهواء المنعش»، كما قال في وقت لاحق، «وكأنها نافذة على العالم الخارجي»[46]. عزف فلاديمير على الأكورديون مدة من الوقت، ثم على الغيتار الذي أعطاه إياه والده، وتعلم الأغاني الشعبية لفلاديمير فيسوتسكي وغيره من الشعراء في تلك الحقبة.

وإذا كان ينظر إلى أواخر الستينيات في الاتحاد السوفييتي على أنها عصر القمع، ثم الركود، فإن سنوات مراهقته كانت تحمل له الهم أكثر مما حمل جيل والديه، فلم تكن عائلة بوتين من النخبة المرفهة، ولكن مستويات المعيشة ارتفعت بعد الحرب، وأصبحت الأسرة، في حالة أكثر ارتياحًا، حتى إن فلاديمير وماريا كان لديهما هاتف أسود كبير في الشقة، وكان اقتناؤه نادرًا، وكان يجري فلاديمير وأصدقاؤه المكالمات من خلاله[47] في ذلك الوقت، كانا ثريين بما يكفي لشراء منزل ريفي لهما من ثلاث غرف في توسنو، وهي قرية صغيرة خارج لينينجراد، حيث أمضى العديد من سنوات مراهقته مع مجموعة من الأصدقاء، وخارج البيئة الخانقة للشقة المشتركة. وعلّق على الجدار فوق الطاولة في منزله الريفي صورة مطبوعة لم يميزها صديقه فيكتور بوريسنكو، وحين سأله عنها، أوضح له فلاديمير أنها لجان كارلوفيتش بيرزين، مؤسس فرع المخابرات العسكرية للبلاشفة. وكان قد اعتقل إبان الرعب العظيم في عام 1937م، وأعدم بعد عام على اعتقاله، لكن أعيد له اعتباره بعد وفاته[48].

دخل فلاديمير المدرسة الثانوية في المدرسة رقم 281، وهي أكاديمية علمية نخبوية متخصصة، تؤهل الطلاب لدخول الجامعة. لم يكن طالبًا ذا شعبية كبيرة، وإنما كان طالبًا متهورًا، تستهويه الرياضة، إضافة إلى ولعه الشديد بالدراسة[49]. ومع أن دراسة العلوم قد تضمن له مكانًا في إحدى الجامعات التقنية المرموقة، فإنه تابع العلوم الإنسانية والأدب والتاريخ، وتابع أيضًا دروسًا في اللغة الألمانية، التي درسها في الصف الرابع بتشجيع من فيرا جورفيتش، ولكن هذه المرة كانت أستاذته مينا يوديتسكاي، التي وصفته بأنه متواضع، مع أنه طالب جاد، وكان لها تأثير عميق فيه، وظل يتذكرها لعقود بسبب ولعه الشديد بها.

كانت المدرسة رقم 281 تتسامح- ضمن حدود- مع الانفتاح الفكري والنقاش، إذ كان المدرس ذو الحظوة الشعبية، ميخائيل ديمينكوف، قد وزع ساميزدات (الأدب المحظور) في نسخ كربونية، وأجرت مدرسة التاريخ، تمارا ستيلماكوفا، مناقشات حول كون نيكيتا خروتشوف قد أوفى في النهاية بوعده لبناء دولة شيوعية حقًّا في غضون عشرين سنة[50].

وعلى الرغم من أنه انضم إلى الكومسومول في عام 1967م، فإنه نادرًا ما شارك في أنشطته، إذ وقف نفسه بدلًا من ذلك على الرياضة والواجبات المدرسية، مستبعدًا انشغاله بأشياء أخرى غالبًا ما ترافق سن المراهقة. أما فيرا بريليفا، الفتاة الشابة التي تصغره بعامين، فقد تذكرته حين كان منكبًّا على طاولته التي وضعت في غرفة المعيشة المشتركة بجانب أريكة وبوفيه، وقد التقت به في المنزل الريفي بتوسنو في عام 1969م، وقد سُحر بها، واستذكرت القبلة السريعة منه خلال لعبة (دوران الزجاجة)؛ «شعرت بالحرارة تجتاحني فجأة»؛ لكنها سرعان ما أدركت أن اهتمامه بالفتيات قليل، وهو ما لاحظته أستاذاته[51]، وانتهت علاقتها به حينما قطعت عليه دراسته ذات يوم في الشقة لتسأله هل يتذكر شيئًا ما، فلم تنهِ الجملة عندما قاطعها: «أتذكر فقط الأشياء التي أنا بحاجة إلى أن أتذكرها»، فكانت بمنزلة صفعة لها[52]، وبعد سنوات عديدة تقابلا، وتذكرت «يديه القويتين الصغيرتين»، وشعرت بالحزن من صده لها.

مثل هذه الاجتهادات آتت أُكُلَها، ففي سنواته الأخيرة من التعليم الثانوي- وكان التعليم السوفييتي يتألف من عشر سنوات فقط- حصل على تقدير جيد، ومع أنها ليست درجات مثيرة للإعجاب، فقد كان جيدًا في التاريخ واللغة الألمانية، وأقل من ذلك في مادتي الرياضيات والعلوم. في سنته الأخيرة، لم يلتفت كثيرًا إلى النشاطات الصيفية، بل انكب على امتحانات القبول التي تمكنه من اكتساب مكان متميز في جامعة لينينجراد، إحدى أهم الجامعات المرموقة في الاتحاد السوفييتي. وأعربت فيرا جورفيتش عن شكوكها في أن يتمكن من الحصول على التأهيل اللازم، فلم تكن تعرف السبب الحقيقي من وراء ذلك قطعًا، لكنه أخبرها قائلًا: «سأحل هذه المشكلة بنفسي»[53]. كانت فرص دخوله جامعة لينينجراد ضئيلة

جدًّا، ضمن إمكانية قبول متقدم واحد من بين أربعين متقدمًا. وهناك تكهنات بأنه قُبِل إما بسبب خلفيات عمله الصفي، أو بسبب اليد الصامتة لـ (كي جي بي) التي توجه خلسة مسيرته حتى دون علمه[54]، ومع ذلك، حقق درجات جيدة في امتحاناته، وقُبل في قسم القانون في الجامعة في خريف عام 1970م، كما اقترح عليه ضابط الـ(كي جي بي) قبل عامين.

حين أصبح طالبًا جامعيًّا واظب على دراسته بدقة، وخصص كثيرًا من وقته لمسابقات لعبة الجودو، مقلعًا عن التدخين والشرب حفاظًا على لياقته البدنية، ورفض عروضًا للانضمام إلى فريق الجودو في جامعة لينينجراد، ليبقى وفيًّا لمدربيه في ترود، ثم نال درجة الماجستير في هذه الرياضة في عام 1973م، وشارك في عدد من المدن بالبطولات الإقليمية.

كان لا يزال يعيش في الشقة المشتركة، لكنه جاب معظم الأراضي السوفييتية، وحضر منافسات الجودو في أماكن بعيدة مثل مولدوفا، وفي الصيف قطع الأخشاب في كومي في الشمال، وأمضى أسبوعين في مخيم إعداد الطالب في أبخازيا، ثم في منطقة من الجمهورية السوفييتية في جورجيا. وقد حصل على 800 روبل، أو ما يقارب الـ 600 دولار أمريكي في ذلك الوقت، وتمكن بذلك من شراء معطف ظل يرتديه طوال خمس عشرة سنة قادمة، وصرف ما تبقى في غاغرا؛ المنتجع المشجر والمعشوشب على ساحل البحر الأسود[55]، بعد أن تمكن هو وأصدقاؤه من التسلل إلى عبَّارة متجهة إلى أوديسا، يحملون معهم قليلًا من المال واللحوم المعلبة يقتاتون بها، وقد نام ليلتين في قارب نجاة، يحسد الركاب في كبائنهم، لكن السماء ليلًا فتنته، ويتذكر كيف «بدت النجوم كأنها معلقة هناك»، «قد يكون البحارة اعتادوا على ذلك، ولكن بالنسبة إلي كان اكتشافًا خارقًا للعادة»[56].

في عام 1972م فازت والدته بسيارة بعد شرائها لتذكرة يانصيب فئة 30 كوبك، وكان يمكنها أن تبيع السيارة بـ 3500 روبل، ولكن قدمتها لابنها بكل بساطة، إلا أنها كانت سيارة صغيرة، تشبه الصندوق من نوع زابروزشتس، وتتسع لعدد قليل نسبيًّا من البالغين، من طلاب

الكلية فقط، الذين يقتنون سياراتهم الخاصة في الاتحاد السوفييتي في عقد السبعينيات من القرن العشرين، وبالنسبة إلى فلاديمير كانت رمزًا للمكانة، وتحولًا جديدًا.

كان يقود سيارته في كل مكان، ويذهب بها إلى مبارياته، ينقل بها أصدقاءه فقط من أجل قيادتها، وكان سائقًا شرسًا ومتهورًا، حتى إنه ضرب ذات مرة رجلًا يتمايل في الطريق، وادعى أن الرجل كان يحاول الانتحار، وفي بعض الروايات أنه طارده بعد أن هرب منه مسافة بعيدة، لكن فلاديمير نفى ذلك، مصرًّا: «أنا لست وحشًا»[57].

أمضى أربع سنوات في الجامعة قبل أن يتقرب منه رجل غامض، علم في وقت لاحق أنه من قسم الـ(كي جي بي) الذي يشرف على الجامعات. في ذلك الوقت كان كل شيء بين يديه، إنما لم تعد تشغله طموحات المراهقة، وعمل في صيف إحدى السنوات مع شعبة الأمن الجنائي التابعة لوزارة النقل المحلية، ليشارك في تحقيقٍ في حادث تحطم طائرة، وكان يبدو وكأنه سيصبح ضابطًا مع المدعي العام المحلي، تمامًا كما سبق للمدرب أن حذره مما سيحدث معه. وأصبح القانون بالنسبة إلى فلاديمير مثل فنون القتال؛ إذ يفرض القواعد والنظام، وهو ما يحترمه أكثر من أي إيديولوجية. وقد ادعى أنه لم يعمل أو حتى يسمع عن الـ(كي جي بي) حين كان طالبًا، مع أن التعاون مع المخابرات كان شائعًا بين طلبة الجامعات.

وهكذا عندما حان وقت تجنيده أخيرًا في عام 1974م، خلال سنته الرابعة، كان ذلك مفاجأة له؛ فالرجل الذي هاتفه لم يعرِّف بنفسه، وقال له: «أريد أن أتحدث معك بخصوص عملك المستقبلي»، رافضًا التحدث معه بالتفصيل. لمس فلاديمير أهمية اللقاء، واتفقا على الاجتماع في وقت لاحق في صالة الكلية في الجامعة، وقد وصل فلاديمير في الوقت المحدد، وانتظره عشرين دقيقة، وكان يشعر بالغضب من هذا الانتظار؛ إذ كان يخشى من أنه وقع ضحية مزحة، ثم جاء الرجل لاهثًا معتذرًا عن التأخر، وهذا ما أعجب الشاب كثيرًا[58].

خضع فلاديمير لفحص للتحقق من خلفيته، وتضمنت آخر خطوة في ذلك الفحص لقاء مع والده، وفي يناير/ كانون الثاني عام 1975م زار ضابط في منتصف العمر، يدعى

ديمتري غانتسيروف، فلاديمير سبيريدونوفيتش. لم يكن بوتين الكبير طويل القامة، كما يعتقد غانتسيروف، كان رجلًا بسيطًا وصادقًا، ومجدًّا، وكان فخورًا بدخول ابنه إلى الجامعة، والتحاقه اليوم بالأجهزة الأمنية، وقد عرف المسؤولية وصعوبة المهام الملقاة على عاتق ابنه، ثم تحدث بتشوق وتوسل تقربيًا لهذا الغريب، وقال له مستخدمًا صيغة التصغير لاسم ابنه:

> «فولوديا هو كل شيء بالنسبة إلينا، ترتبط كل آمالنا به. فقد قُتل- كما تعلم- اثنان من أبنائنا، وبعد الحرب قررنا أن يكون لدينا هذا الطفل، والآن نحن نعيش حياة فولوديا فقط؛ فقد عشنا حياتنا نحن بالفعل»[59].

على الرغم من أن فولودياه يجب أن يعي ما تفعله الـ(كي جي بي)، فإن الشاب لم يكن متكدرًا من تاريخها في الحفاظ على الأمن ضد أعداء الدولة، سواء في الداخل أو في الخارج، بل على العكس من ذلك؛ فقد رأى أن من واجب المواطن السوفييتي السليم التعاون مع الـ(كي جي بي)؛ لا من أجل المال، وإنما لأمن الدولة، وقال: «إن تعاون المواطنين العاديين كان أداة مهمة لعمل الدولة القابلة للحياة»[60]، قد يكون هناك تجاوزات، وهو يفهمها، ولكن عبادة شخصية ستالين كانت قد فُكِّكت بعد وقت قصير من ولادته، وأُطلق أسر ضحايا الإرهاب والرعب منه تدريجيًّا من معسكرات العمل من الغولاغ، ولم يول ذلك كثيرًا من التفكير.

وبقدر ما كان يشعر بالقلق، فإن جرائم الماضي التي قتلت أو دمرت الملايين ظلت بالنسبة إليه شيئًا من التاريخ القديم، ولم يستغرب حدوثها. وبالنسبة إلى كثير من الروس، حتى أولئك الذين عانوا من طغيانه، ظل ستالين بالنسبة إليهم أبا الأمة المبجل، الذي قاد البلاد إلى النصر على النازيين. والجوانب المظلمة من حكمه قمعت، إما بالخوف والتواطؤ، أو الشعور بالذنب، تاركة إرثًا متناقضًا وخلافيًّا سيعاني منه المجتمع السوفييتي على مدى عقود. وقد أشار في وقت لاحق إلى أنه نفسه كان «نتاجًا ناجحًا لتربية وطنية للإنسان السوفييتي»[61].

الفصل الثاني

قلب دافئ.. ورأس بارد.. ويدان نظيفتان

حقق فلاديمير بوتين حلمه بالانضمام إلى الـ(كي جي بي) في صيف عام 1975م، لكنه لم يصبح عميلًا سريًّا مثلما كان يتخيل في طفولته، فقد كان تجنيده روتينيًّا، وبصرف النظر عن سوء الفهم الهزلي الذي وقع عندما قابل في ذلك الربيع لجنة التوظيف الجامعي التي تعين الخريجين وفقًا لمؤهلاتهم المهنية في النظام السوفييتي، فقد أعلن مسؤول في قسم القانون في الجامعة أن عليه الالتحاق بمحكمة لينينجراد، عندها تدخل ضابط الـ(كي جي بي) الذي كان يرصد التعيينات في ركن من الغرفة: «أوه، لا. هذه المسألة سبق لها أن حسمت»، قال الضابط[1].

لم يكن حتى فلاديمير نفسه يعرف مهمته، لكنه كان في منتهى السعادة، وقال لصديق طفولته، فيكتور بوريسنكو: «دعنا نذهب»، وكان قد اصطحبه معه في سيارته. وكان واضحًا لبوريسنكو أن ثمة شيئًا مهمًّا، ولكن فلاديمير لن يلمح حتى ولو بإشارة إلى ما قد حدث. ذهبا إلى مطعم جورجي بالقرب من كاتدرائية كازان، المَعْلَمِ ذي الأعمدة الممتدة على شارع نيفسكي بروسبكت، وهناك أكلا الدجاج بصلصة الجوز، وكانت مفاجأة لبوريسنكو؛ فصديقه لم يسمح له من قبل بالانغماس في شرب بيكات قليلة من المسكرات المحلاة[2]، ولم يعلم إلا في وقت لاحق أنهما كانا يحتفلان بقبول صديقه في الـ(كي جي بي).

وفي الوقت الذي التحق فيه فلاديمير بالـ(كي جي بي) كانت قد نمت لتصبح بيروقراطية هائلة، فلم تعد تشرف على المسائل الاستخباراتية الداخلية والخارجية فحسب، وإنما على مكافحة التجسس في الداخل والخارج، ومكافحة التجسس العسكرية، وضبط الحدود والجمارك، والحماية الجسدية للقيادة السياسية والمرافق الحكومية مثل المواقع النووية في البلاد. وكان لها مديريات تشرف على الاتصالات والتشفير، وترصد المكالمات الهاتفية، وكانت المديرية السادسة فيها ترصد (الأمن الاقتصادي) من خلال ضبط المضاربات وتصريف العملات، وغيرها من علامات نشاط السوق الحرة والمنحرفين. أما المديرية الخامسة، التي أنشئت في عام 1969م، فمهمتها (حماية الدستور)، وفرض الولاء الحزبي، ومضايقة المعارضين في جميع مناحي الحياة.

كانت الـ(كي جي بي) أكثر من مجرد وكالة الأمن؛ كانت دولة داخل الدولة، تبحث عن أعداء دائمًا، سواء وجدوا أم لم يوجدوا، فهي تخدم ظاهريًّا مصالح الحزب الشيوعي، وتتصرف بناء على أوامره، ولكن سلطاتها الواسعة كانت تمثل رقابة على سلطة الحزب[3].

ذهب فلاديمير للعمل في الأمانة العامة للمديرية، مكتب شؤون الموظفين في مقر الـ(كي جي بي) في لينينجراد، الذي يضم في المبنى نفسه في شارع لايتيني بروسبكت الذي زاره أول مرة عندما كان مراهقًا، ولكنه ليس يوهان فايس الذي اخترق صفوف قوة أجنبية. كان الاتحاد السوفييتي يعيش مرحلة من السلام النسبي، ولم يكن في ذلك الوقت في حالة حرب إلا مع نفسه، ومن ثم فقد كان بوتين أحدَ الموظفين المبتدئين، في الثالثة والعشرين من عمره، يدفع بأوراق ويعالج أخرى في العمل، ولا يزال يعيش في المنزل مع والديه دون غرفة خاصة به. وفي عمله كان له مكتب بسيط، مع المحاربين القدامى الصلع من أيام ستالين الذين بلغوا من العمر ما يكفي لأن يتذكروا معسكرات العمل (الغولاغ)، إن لم يتذكروا أيام الرعب من عام 1937م. ادعى هذا الوكيل الشاب ضرورة مراجعة الطرائق القديمة في العمل، لكنه لم يتمرد على الـ(كي جي بي)، وبالتأكيد ليس بطريقة يمكن أن تقوض مسيرته في مهدها وقبل أن تبدأ، كما يقول المثل: «يخرج أذنيه»[4].

بعد مباشرته العمل في المكتب، حضر دورة تدريبية للضباط في الكلية رقم 401 في لينينجراد، وهي واحدة من الأكاديميات التدريبية الإقليمية في الـ(كي جي بي)، تقع داخل مبنى مكوَّن من ستة طوابق، وله حراسة مشددة عند التقاء نهر أوختا بنهر نيفا، وكانت الأكاديمية أشبه بـ(الغواصة) التي تزخر بالطلاب العسكريين المنشغلين في الفصول الدراسية والتدريب البدني، والمنقطعين تمامًا عن بقية المجتمع[5]. وخلال ستة أشهر تعلم تكتيكات المخابرات الأساسية، ومن ضمنها أساليب التحقيق.

كانت جميع فروع جهاز الـ(كي جي بي) وأفرادها تحت إمرة يوري أندروبوف، الذي تولى منصب رئيس مجلس إدارتها، من عام 1967م حتى عام 1982م، حين أصبح القائدَ الأعلى للاتحاد السوفييتي، وقد بات أحد الأبطال الذين يعتز بهم فلاديمير، وهو الزعيم البعيد، المبجَّل.

فهِم أندروبوف ماهية النظام السوفييتي، وسعى إلى تحديثه حتى يتمكن من اللحاق بالغرب، خصوصًا في الشؤون الاقتصادية، وسعت الـ(كي جي بي) (KGB) إلى تجنيد كل من له علم بالاقتصاد الكلي، والتجارة، والعلاقات الدولية، ويبدو أن فلاديمير توقع هذا في أثناء دراسته في جامعة لينينجراد، إذ كتب أطروحة حول المبدأ الأولى بالاهتمام في التجارة الدولية[6]. إضافة إلى ذلك أراد أندروبوف أن يحول الـ (كي جي بي) إلى فريق نخبة، وكان فلاديمير مؤمنًا بذلك، فقد مثَّل الجيل الجديد في الـ(كي جي بي)، وجيل ما بعد ستالين من المجندين الذين يُعتقد أنهم من ذوي الأدلجة الضعيفة، وفي سنٍّ صغيرة بحيث لا يمكن أن يتذكروا أهوال نظام ستالين.

كان يُنظر إلى أندروبوف، في السياق السوفييتي، على أنه مصلح، على الرغم من تورطه في القمع في الداخل والخارج، فقد كان سفيرًا للاتحاد السوفييتي في بودابست خلال الانتفاضة المجرية في عام 1956م، وكان يسكنه رعب من اندلاع العنف السريع الذي يمكن أن يهدد حكم الحزب الواحد، وظلت تلك الأفكار تلازمه في السنوات الأخيرة من حياته؛

فقد «شاهد- برعب- من نوافذ سفارته ضبَّاطًا من جهاز الأمن المجري المكروه علَّقوا على أعمدة الكهرباء»[7]، وهذه (العقدة المجرية) هي التي خلقت الاعتقاد لدى أندروبوف بأن القوة التي تدار بحكمة هي الوحيدة التي يمكن أن تضمن بقاء الدولة السوفييتية والإمبراطورية.

وهكذا فإن أندروبوف في الوقت الذي أراد فيه تحديث النظام السوفييتي، وقف بكل قسوة ضد معارضيه، وهو من أنشأ المديرية الخامسة سيئة السمعة لمكافحة المعارضة الأيديولوجية، التي أدت إلى الاضطهاد الجسدي لأندريه ساخاروف، والمؤلف والكاتب ألكسندر سولجينتسين، وهو أيضًا من أوجد شبكة من المستشفيات النفسية في عام 1969م، لاضطهاد المنشقين عن الدولة وتصنيف معارضيها على أنهم يعانون مرضًا عقليًّا.

فلاديمير الذي تمسك بقوة بالدعاية الرسمية أو كان يعيش حالة اللامبالاة، كان يسوِّغ عمل الـ(كي جي بي) ويسبغ عليه طابعًا رومانسيًّا؛ فهو يعتقد أن ضابط المخابرات هو المدافع عن القانون والنظام.

في صيف عام 1976م تخرج في أكاديمية الـ(كي جي بي) ملازمًا أول، ولم يرجع إلى قسم شؤون الموظفين، بل عمل بدلًا من ذلك في قسم مكافحة التجسس، في المديرية الثانية في الـ(كي جي بي)، وشارك في العمليات التي لا تستهدف العدو في الخارج، وإنما العدو في الداخل. وأصبح المنضبط الذي يسعى- قبل كل شيء- للحفاظ على النظام الاجتماعي والسيطرة السياسية، على الرغم من معرفة القليل عن نشاطاته في ذلك الوقت. لم يعرف أصدقاؤه، ولا زملاؤه، ما الذي يفعله بالضبط، وظل سنوات طويلة يحتفظ بتفاصيل عمله السري، وقد صرَّح الضابط الذي عمل معه في وقت لاحق، أن فلاديمير عمل في المديرية الرئيسة الخامسة، لكن يصعب على المرء التيقن من ذلك[8]، وعلى الرغم من أن فلاديمير ينكر ذلك، فإن زميله يعتقد أنه كان على دراية وثيقة بتكتيكات الـ (كي جي بي) التي طبقت ضد منتقدي السلطة السوفييتية، ومن بينهم سولجينتسين، وفي وقت لاحق ساخاروف، مع أن

فيكتور شيركيسوف، أحد المقربين منه في لينينجراد، قد تلوثت سمعته لعمله في المديرية الرئيسة الخامسة ضد المنشقين عن النظام، ومن بينهم المتدينون[9].

لم يشعر بوتين بأي ندم أو تحفظ على اعتماد الـ (كي جي بي) على المخبرين أو المتعاونين، على الرغم من أنها زرعت نوعًا من انعدام الثقة في المجتمع السوفييتي؛ فهو يعتقد أن التواطؤ مع دولة بوليسية مرعبة ليس خطأ، وإنما ضرورة للحفاظ على النظام. وادعى ذات مرة أن تسعين في المئة من المعلومات الاستخباراتية للـ (كي جي بي) مستمدة من المواطنين السوفييت العاديين عن طيب خاطر، أو بإبلاغ بعضهم عن بعض؛ عن زملاء العمل، وعن أصدقائهم، وعن أقاربهم، وأضاف: «أنت لا تستطيع أن تفعل أي شيء دون عملاء سريين»[10].

من الواضح أن فلاديمير كان يجمع العملاء ويوجههم خلال المدة التي قضاها في مكافحة التجسس في لينينجراد، وخاصة رجال الأعمال والصحفيين والرياضيين الذين سافروا إلى الخارج، أو اجتمعوا مع الزوار الأجانب. ومع أن نشاطاته بقيت محاطة بالسرية حتى الآن، فإنه أصبح أقرب إلى (الشرطي) الذي حذره منه مدربه إن التحق بكلية الحقوق. كان يعيش حياة مزدوجة، لكنها أقل مأساوية وخطورة من تلك التي في الدرع والسيف، وأقام الصداقات مع رجال عملوا معه في الظل، واستمر على ذلك طوال سنوات قادمة، وكان منهم: فيكتور شيركيسوف، ألكسندر بورتنيكوف، فيكتور إيفانوف، سيرجي إيفانوف، ونيكولاي باتروشيف. في هذه الدائرة المغلقة من الأصدقاء- وجميعهم من الرجال- أقام صداقة حميمة مع الضباط المقربين الذين يشاطرونه التفكير ذاته، وهو ما عزز نظرته الصارخة البيضاء أو السوداء إلى هذا العالم.

بعد ستة أشهر في مكافحة التجسس، نُقل فلاديمير إلى المديرية الرئيسة الأولى في الـ(كي جي بي)، المسؤولة عن العمليات الاستخبارية خارج حدود الاتحاد السوفييتي، التي كانت تعد فرع النخبة في الـ(كي جي بي)، ومن أصل ما يقارب ثلاث مئة ألف من العاملين

في الأجهزة الأمنية، خدم ما يقارب خمسة آلاف في هذا القسم[11]. ما من شك في أن دراسته الألمانية ساعدته على تبوئه هذا المنصب، ومكنته الـ(كي جي بي) من مواصلة دراسته ساعتين في اليوم، ثلاث مرات في الأسبوع[12]، ومع ذلك لم يصبح جاسوسًا، ولم يذهب إلى الخارج، بل بقي في البيت الكبير في لايتيني بروسبكت، يتعقب الزوار والدبلوماسيين الأجانب العاملين في قنصليات المدينة. وكان كثيرٌ من العمل تحليليًّا، يتطلب العمل الشاق، ولما كانت لينينجراد ثاني مدينة في الاتحاد السوفييتي، فإنها لم تكن مدينة معزولة، لكنها تفتقر إلى مكائد العباءة والخنجر التي تلف العاصمة موسكو.

بدأ جهاز (كي جي بي) نفسه يعاني التضخم والتصلب، وهذا التضخم في صفوفه نتج عنه انخفاض الكفاءة، وبالنسبة إلى عديد من العملاء، تحول الحماس الشبابي عندهم للعمل في عالم التجسس إلى ملل وجمود بيروقراطي، فقد كتب المعاصر يوري شفيتس عن هذا العصر: «فقط في الخيال يمكن أن يتحدى رجل واحد العالم كله»[13].

بدا فلاديمير راضيًا أن يبقى كادحًا في الرتب الدنيا، على الرغم من وصف أحد رؤسائه له بأنه دقيق في عمله[14]، ولم يبد أي طموح إلى الصعود إلى القيادة من خلال المنظمة. وبعد أن تقاعد والده من مصنع القطارات في عام 1977م، ونتيجة لكونه من قدامى المحاربين المعوقين، فقد تسلَّم شقة صغيرة بغرفتي نوم، بمساحة لا تصل إلى ثلاث مئة قدم مربعة، في ستاتشك بروسبكت في آفتوفو، الحي الذي أعيد بناؤه حديثًا إلى الجنوب من المنطقة التاريخية للينينجراد. وكانت أزمة السكن التي نشأت بعد الحرب في هذه المدينة قد دفعت عديدًا من الأسر إلى أن تظل تعيش في مساكن مشتركة، وحتى ضباط المخابرات لم يتأهلوا تلقائيًّا للحصول على شقة، ولكن اليوم، وقد بلغ فلاديمير الخامسة والعشرين، أصبح له للمرة الأولى في حياته غرفة نوم خاصة، و(ركن صغير) خاص به، كما كانت تسميه فيرا جورفيتش.

كان يتجول- في أوقات فراغه الوفيرة- في كل أنحاء المدينة، بالسيارة التي أعطته إياها والدته، وكان يورط نفسه بمعارك في شوارع المدينة، بحسب ما نقل عنه أصدقاؤه، وعلى الرغم مما يمكن أن يسببه له هذا الطيش من أخطار على حياته المهنية، فقد كان غير مبال بالمخاطرة والخطر- وكان يذكر بكل فخر التقييم الضعيف لأدائه- غالبًا بسبب خدمته في الـ(كي جي بي)، التي وفرت له بعض الحماية من الشرطة العادية.

كان يكيِّف القوانين على هواه؛ لأنه يستطيع ذلك، ففي عيد الفصح في إحدى السنوات اصطحب سيرجي رولدغن، الموسيقي الكلاسيكي الذي أصبح صديقًا حميمًا له، اصطحبه في موكب ديني كُلف بمراقبته، ضمن مهمة مراقبة المؤمنين ومن كانوا مثل أمه، وقد أُعجب به صديقه حينما أخذه إلى مذبح الكنيسة، ودخل أمكنة حُظرت على الأشخاص العاديين، وهذا يشير إلى أن بوتين الصغير ليس لديه كثير من التوقير لحرمة الكنيسة، ووقتها قال لصديقه: «لا أحد يمكنه أن يذهب هناك، ولكننا نستطيع». كان متهورًا ومزاجيًّا، ففي طريق عودتهما من الكنيسة إلى البيت، صادفا- كما يذكر رولدغن- مجموعة من الطلاب ثمالى في محطة الحافلات، اقتربوا منهما يطلبون سيجارة، فنهرهم فلاديمير بوقاحة فجة، فضربه أحدهم، فألقى به بوتين على كتفه كأنه يخوض مباراة في نادي الجودو[15].

أخبر أصدقاءه بأنه كان ضابطًا في الشرطة في وزارة الداخلية، وقد صدَّقه- على ما يبدو- كثيرون منهم، لكن سرعان ما صَعب عليه إخفاء موقعه الفعلي، وعندما علم رولدغن، الذي التقى به في عام 1977م، بالحقيقة بات يشعر بالحذر منه؛ ذلك أنه كان قد سافر إلى الخارج لكونه موسيقيًّا، فلحقت به شرطة الـ(كي جي بي) السريَّة لتراقبه، متنكرين بقناع المسؤولين في وزارة الثقافة، وكان يشعر بالكره تجاه مرافقيه الفكريين ذوي العقول المؤدلجة، وتعلم ألا يتحدث بحرية أمامهم، ولكنه مع ذلك أصبح لاحقًا صديقًا لأحدهم. وقد استرضاه فلاديمير حين أقرَّ له بمهنته الحقيقية، لكن رولدغن شعر أنه من المحال تقبُّل ذلك. قال لصديقه مرة: «أنا أعزف التشيلو، ولا يمكنني أن كون جرَّاحًا، ولا أزال عازف تشيلو جيدًا، ولكن ما مهنتك أنت؟ أعرف أنك ضابط مخابرات، وأعرف ماذا يعني ذلك»، فأجابه

فلاديمير بشيء من الملاطفة: «أنا متخصص في العلاقات الإنسانية»، قالها على نحو مبهم، ثم رفض التحدث عن هذا الموضوع مطلقًا[16].

بحلول عام 1979م رُفِّع فلاديمير إلى رتبة نقيب، وكان قد أُرسل إلى موسكو للدراسة في الأكاديمية العليا لـ(كي جي بي) التي سميت باسم **فيليكس دزيرجينسكي**، مؤسس الشرطة السرية السوفييتية الذي بقي الشخصية الموقرة الآسرة في الـ(كي جي بي)، وكان أعد كرَّاسًا ضمنه الميزات الأساسية لضابط المخابرات: «قلب دافئ، وعقل بارد، وأيدٍ نظيفة»[17].

وأخيرًا، بدأ قائد المديرية الأولى الرئيسة باستمالته للخدمة في الخارج، ثم رجع بعد مدة قصيرة إلى لينينجراد، واستأنف مهمة مراقبة الأجانب، لكن بنجاح غير مؤكد، وقد أثنى أحد المشرفين على عمله ووصفه بأنه «مثمر للغاية»، غير أن أوليج كالوجين، كبير الموظفين في الـ(كي جي بي) في لينينجراد قال عنه في أثناء عمله هناك: إن الوكالة أخفقت في الكشف عن جاسوس أجنبي واحد في تلك المدينة المنفلتة الواسعة.

أخذت حياته المهنية بالترهل تمامًا كحقبة السلام النسبي والانفراج في الاتحاد السوفييتي الذي بدأ يواجه تزايدًا في الاضطرابات في الداخل والخارج، وكانت ضمنيًّا أولى علامات ضعف للاتحاد السوفييتي وانهياره المدوي. في ديسمبر/ كانون الأول من عام 1979م، غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان بعد انقلاب دموي دبرته مخابرات أندروبوف ونفذته قوات النخبة في الجيش، وكانوا يرتدون الزي الأفغاني. بدأ الغزو بعملية عبثية ترمي إلى دعم الحكومة الشيوعية في كابول، وأزهقت فيها حياة آلاف الجنود، الذين عادوا بصناديق الزنك، وعرفت باسمها المشفر (**شحن 200**) وظلت محاطة بالسرية.

وجاء انتخاب رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة في نوفمبر/تشرين الثاني 1980م ليزيد من توترات الحرب الباردة بين القوتين العظميين أكثر من أي وقت مضى، حتى كانت أقرب إلى المواجهة، وسرعان ما أصبح هاجس الكرملين والـ (كي جي بي) ما يفكر فيه القادة السوفييت، من أن يتبنى ريغان توجيه ضربة نووية استباقية ضد الاتحاد السوفييتي.

في مؤتمر مايو/أيار 1981م، ندد ليونيد بريجنيف برونالد ريغان لكونه يمثل تهديدًا للسلام العالمي، في حين أعلن أندروبوف أنه من الآن فصاعدًا ستكون الأولوية المطلقة لأجهزة الأمن هي الكشف عن أدلة على خطة ريغان بتدمير البلاد[18]. كانت تلك عملية حملت اسم **RYAN**، حيث استعد فيها الروس لـ(هجوم صاروخي نووي)، وأصبحت الشغل الاستخباراتي الشاغل لمكاتب الـ(كي جي بي) في جميع أنحاء العالم، واستمر هاجس جنون العظمة حتى نهاية العقد، وجاء فلاديمير بوتين على الفور ليمارس دورًا مهمًّا فيه.

في عام 1980م، بعد عودته إلى لينينجراد، شهدت الحياة الشخصية والوظيفية لفلاديمير منعطفًا مهمًّا؛ فقد ظل عازبًا حتى أصبح في الثامنة والعشرين، خلافًا للعادة في المجتمع السوفييتي، وكانت العزوبية لا تناسب شخصًا محافظًا في كي جي بي؛ فقد رفضت المديرية الأولى الرئيسة إرسال عازبين إلى الخارج، خوفًا من الوقوع في علاقات جنسية خارج إطار الزواج تعرضهم لخطر الفضيحة والابتزاز[19]. وكان فلاديمير جذابًا؛ بعينين زرقاوين داكنتين، ورشيقًا، وسريع البديهة، وكان يسخر من ذلك عندما يتعلق الأمر بالنساء، على الرغم من أنه بدا متحفظًا عاطفيًّا، وكان يشعر بالراحة مع دائرة الأصدقاء الذكور من سنه ومن الـ(كي جي بي). قال رولدغن: «كثيرًا ما كنت أقول له إنه فظيع في حواره»[20].

في أواخر السنوات التي قضاها في الجامعة، أقام فلاديمير أول علاقة جادة له مع طالبة في كلية الطب، وكان اسمها **ليودميلا كامارينا**، التي كان شقيقها فيكتور كامارينا صديقًا مقربًا له، وكانت- على وفق ما وصفها رولدغن- جميلة وعنيدة، لا تسأل كيف يشعر فلاديمير حتى حين يكون مريضًا. التقيا في المنزل الريفي لعائلته في توسنو، واتفقا على الزواج حين التخرج وانطلاق مسيرته المهنية. وفي عام 1979م أعلنا خطوبتهما، وتقدما بطلب للحصول على رخصة الزواج، واشترى لهما ذووهما الخواتم واللباس وفستان الزفاف، ثم فجأة قطع العلاقة معها، وقرر أن «من الأفضل أن أعاني بمفردي بدلًا من أن نعاني نحن الاثنان في وقت لاحق»، لكنه لم يوضح ما حدث بينهما بتاتًا، ولم يوضح حتى لرولدغن، إلا أنه ألمح فقط إلى

(بعض المكائد)، ولم تنشأ عداوة بينهما؛ إذ إنه أبقى على صداقة شقيقها فيكتور سنوات عديدة. وهكذا اعتاد فلاديمير على حياة العزوبية، بل ربما كان يفضلها، كابن مدلل لا يزال يعيش في المنزل، وافترض أنه لن يتزوج مُطلقًا[21].

لكنه، في مارس/آذار 1980م، التقى ليودميلا أخرى؛ ليودميلا شكربنيفا، وهي مضيفة زرقاء العينين، تعمل في إيروفلوت، وتعيش في كالينينجراد، المقاطعة البروسية السابقة التي استولى عليها الاتحاد السوفييتي بعد هزيمة النازية، وكانت في الثانية والعشرين، شعرها الأشقر يتطاير لاهثًا خلف كتفيها، وقد زارت هي ومضيفة أخرى، تدعى غالينا، لينينجراد ثلاثة أيام.

في الليلة الأولى في المدينة حرصت على زيارة أكبر عدد من المعالم السياحية للمدينة، وذهبت هي وغالينا وأندريه إلى مسرح لينسوفيت ليشاهدوا عرضًا قدمه الممثل الساخر العجوز أركادي رايكن، فدعت غالينا ليودميلا، ودعا أندريه صديقه فلاديمير. لم تعجب ليودميلا في البداية بفلاديمير؛ بسبب ملابسه الرثة وسلوكه غير الجذَّاب، حتى إنها لو التقت به في الشارع- كما قالت- «فلن توليه أي اهتمام»[22]. وخلال الاستراحة تجرأت وطلبت منه أن يساعدهم في الحصول على تذاكر للأمسية الموسيقية في الليلة التالية، فاستجاب لها، وجلب لهم التذاكر، وفي نهاية الليلة الثانية أعطاها رقم هاتفه. صُدم أندريه، وسأل صديقه في وقت لاحق: «أأنت مجنون؟»، ذلك أنه لم يسبق له أن أعطى رقم هاتفه شخصًا لا يعرفه جيدًا[23].

التقيا مرة أخرى في الليلة الثالثة، وعندما عادت إلى كالينينجراد اتصلت به على ذلك الرقم.

عندما سافرت مرة أخرى إلى لينينجراد في يوليو/تموز، بدأت العلاقة بينهما، وقالت مازحة عن ذلك: إن الفتيات الأخريات يأخذن الحافلة أو الباص إلى مواعيدهن، أما هي فتستقل الطائرة لموعدها[24]. ثم عزمت على الانتقال إلى لينينجراد. وحثها فلاديمير على

العودة إلى الجامعة- وكانت تسربت من الكلية التقنية لتصبح مضيفة- فالتحقت بقسم فقه اللغة في جامعة لينينجراد التي تخرج هو فيها. على إثر مشقة تلك الانتقالات والدراسة تمزقت العلاقة بينهما في البداية، فانقطعت عن الدراسة إلى أن سافر إلى كالينينجراد حيث أقنعها بالعودة. وفي أكتوبر/تشرين الأول استقرت في شقة مشتركة تعيش فيها امرأة التحق ابنها بخدمة العلم[25]، وحينها أثبت فلاديمير اهتمامه بها، وغيرة المحب لها، وشعرت أنه كان يراقبها دائمًا، ويختبرها، ويكوِّن رأيه عنها؛ فسوف يتخذ قراره- سواء في الذهاب إلى التزلج، مثلًا، أو في اتباعها دورة في الطباعة- دون أن يترك لها أي مجال للنقاش، وكانت- خلافًا ليودميلا الأولى- أكثر طواعية. وعندما التقت بها أم فلاديمير لم تكترث بها، والأسوأ من ذلك أنها أخبرته بذلك، وكان لدى ابنها- حقًّا- ليودميلا أخرى، وقالت عنها ماريا إنها «فتاة جيدة».

لم تكن ليودميلا تعرف أن فلاديمير يعمل لحساب المخابرات الروسية (كي جي بي)، وكان قد أخبرها، أيضًا، أنه يعمل في فرع التحقيقات الجنائية في وزارة الداخلية؛ وهو الغطاء المشترك لعملاء المخابرات، وقد صدرت له بطاقة مزورة بذلك[26]. وكانت كلما سألته عن عمله خلال اليوم يتهرب من أسئلتها مازحًا؛ فقد قال لها ذات مرة: «قبل الغداء ألقينا القبض عليهم»، وكأنما أمضى اليوم هو وزملاؤه بالصيد، «وبعد الغداء أفرجنا عنهم»[27]. لم تكن حتى عام 1981م- وكان قد مضى على تعارفهما سنة ونصف سنة- قد عرفت وظيفته الحقيقية؛ ولكنها عرفت ذلك من زوجة صديق له. شعرت برعشة الدهشة والفخر، وعلى عكس رولدغن، لم يكن لديها مسوغ للخوف من الـ(كي جي بي)، أو من هذا الشاب؛ وبدت قلة كلامه، اليوم، مفهومة، وبات واضحًا ما كان غامضًا.

كان إخبار صديقتها لها بالخبر أشبه بالبشرى، ولكن كان أيضًا شيئًا مقلقًا؛ فأن تكون معه يعني أنها ستقبل أن يكون جزءٌ منه خارج قبضتها[28]. وقد خُيِّل إليها أن المرأة التي باحت لها بسره قد تكون مكلفة بذلك، لكنها لم تكن متأكدة. وحينها تذكرت اللقاء الاستثنائي الذي حدث قبل بضعة شهور.

كانت وافقت وقتها على مهاتفة بوتين في ذلك المساء في الساعة السابعة، كعادتها على الغالب؛ لأن شقتها المشتركة ليس فيها هاتف، فذهبت إلى هاتف عمومي في فناء قريب، وبحلول الظلام اتصلت برقم هاتفه، لكنه لم يرد، وتخلت عن معاودة الاتصال؛ لعلمها بميله إلى العمل في هذا الوقت، وعند مغادرتها اقترب شاب منها، في مكان فارغ وهادئ، فقررت العودة إلى شقتها من خلال مدخل الساحة ذي الأعمدة، لكنه ظل يتابعها، وكلما سارعت من وتيرة مشيها سارع للحاق بها، «أيتها السيدة الشابة، من فضلك، أنا لا أفعل أي شيء سيئ؛ أريد فقط أن أتحدث إليك لثانيتين فقط»، ولأنه بدا صادقًا يتحدث من كل قلبه توقفت. «أيتها السيدة الشابة، إنها مسألة مصير. إنها مصير! كيف لي أن ألتقي بك؟»، «ما الذي تتحدث عنه؟»، أجابته بالرفض. «ليس هذا مصيرًا»، «حسنًا، من فضلك، أتوسل إليك أن تعطيني رقم هاتفك»، «ليس لدي هاتف». أجابها: «إذن اكتبي رقم هاتفي». وكان يقدِّم رقمه بنفس الطريقة التي كان يقدم بها بوتين في الموعد الثاني لهما، فقالت له وهي تتركه وتمضي: «لا حاجة لي برقمك»[29].

تداعت إلى ذهنها القصة شبه المنسية بلحظة محيرة خاطفة؛ أكانت الـ(كي جي بي)- أو فلاديمير- يختبرونها في شارع مظلم هل هي من صنف النساء اللواتي يُقِمن علاقة مع أي رجل يصادفنه في الشارع، وهو ما قد يثير غيرة الزوج، ويعرضها أو يعرضه للابتزاز أو التجسس المضاد؟ أم أنه كان مجرد شاب متهور يأمل في الحصول على معرفتها؟ لم تكن متأكدة، لكنها فهمت اليوم نوع الحياة التي ستعيشها مع هذا الرجل. كانت متيقنة أن بعضهم قد يخاف من اختبار كهذا، إلا أنه من السخف أن ينغص عليها، فليس لديها ما تخفيه، بعد كل شيء. لم تكن مستاءة من عمله؛ «فالعمل هو العمل»، كما قالت، ولكن عندما سألته عن اللقاء أكثر من مرة، رفض الإجابة، وهذا ما أزعجها؛ فهي تعرف أنه لن يقول لها شيئًا عن العالم الآخر الذي يعمل فيه، ولن يريح بالها بشرح سبب عودته إلى البيت في منتصف الليل بدلًا من التاسعة مساء، وهو ما يقلقها ويدخلها في نوبة غضب، ولكن عليها الانتظار دائمًا وحيدة لا تعرف شيئًا. لا بد أن يترك عمله في الـ(كي جي بي) بصماته عليها؛ فلا يمكنها

الحديث عن وظيفته، أو أن تتحدث للناس عن حياتها أو حياتهما معًا؛ من ثم فقد كانت تدرك أن الزواج من بوتين سيكون بمنزلة (حظر للخاص) في حياتها، وتعرف أنها وقعت في غرام شخص يحس أنه رجل قمعي لكن ليس بهذه السرعة[30].

فلاديمير يمكن أن يكون جريئًا ومتهورًا، ولكنه متأنٍ في علاقته بالجنس اللطيف، وقد استخدم منصبه- وراتبه- للسفر معها؛ فذهبا مرتين إلى البحر الأسود، الذي أحبه منذ رحلته عندما كان طالبا شابًّا يحدق في النجوم. وذات مرة توجها مع أصدقاء لهما بالسيارة إلى سوتشي، منتجع على مسافة أكثر من ألف ميل إلى الجنوب، ومكثوا هناك في شقة من غرفتين مخصصة لحراس بوشاروف روشي، وقصر ساحل البحر الذي بني في الخمسينيات بتوجيه من نيكيتا خروتشوف للنخبة السوفييتية، وأصبح في يوم ما منتجعًا لرؤساء روسيا الجديدة، كما استخدمه ليونيد بريجنيف في السنوات الأخيرة الفاترة من حكمه. ومن شرفة غرفتهما كان يمكنهما أن يشاهدا الشاطئ، ولكن الدخول إليه كان ممنوعًا.

في عام 1981م عادا إلى البحر الأسود، وهذه المرة بقيا أسبوعين في سوداك في شبه جزيرة القرم، وهي الرحلة الأولى التي يخرجان فيها وحدهما[31]، ومع ذلك كادت أن تكون زوبعة غرامية. وحين طلب منها الزواج في شهر أبريل/نيسان من عام 1983م، ظنت أنه يريد فسخ العلاقة؛ فقد قال لها في شقته: «بعد ثلاث سنوات ونصف يمكنك أن تحسمي أمرك»، فقالت له مترددة وخائفة من العواقب: «نعم؛ لقد حسمتُ أمري»، بدا مشككًا وأجابها: «نعم؟»، ثم أضاف: «حسنًا إذًا، إذا كان الأمر كذلك فأنا أحبك، وأقترح عليك الزواج»[32].

واستقر بالفعل على تاريخ محدد هو: 28 يوليو/تموز، وبعد ثلاثة أشهر فقط، أقاما حفلًا مدنيًّا لا دينيًّا، إذ لا يسمح به لضابط في الـ(كي جي بي)، وبعد ذلك أقيمت حفلتا زفاف. حضر الحفل اثنان وعشرون صديقًا وقريبًا لأول مرة في مطعم عائم يرسو على جسر بجانب جامعة لينينجراد الحكومية. وفي الليلة الثانية أقاما حفلًا آخر حضره أصدقاء آخرون، وبمزيد من الأجواء الخاصة، في قاعة الاحتفالات في فندق موسكو. بالنسبة إلى ليودميلا،

كانت الحفلة الأولى حارة وممتعة، أما الثانية فكانت أكثر احتفالية، ولطيفة بما فيه الكفاية، ولكن (مختلفة قليلًا)، وقد حضر الحفلة الثانية زملاء فلاديمير من الـ(كي جي بي) الذين لم يخاطروا بعرض خصوصيتهم، حتى للأقارب والأصدقاء المقربين لأحد رفاقهم.

أما شهر العسل فقد أمضياه في أوكرانيا، في البداية انطلقا بسيارتهما إلى كييف، حيث التقيا الأصدقاء الذين سافروا معهم، وتقاسموا معهما الغرفة، وطافوا أنحاء مولدوفا، ثم جالوا لفيف في غرب أوكرانيا، ونيكولاييف، وأخيرًا شبه جزيرة القرم، ثم أقاما في يالطا التي تجمع كل معالم الإمبراطورية السوفييتية العظمى.

في يالطا، كان للعروسين غرفة خاصة بهما، فمكثا اثني عشر يومًا، يقضيان أوقاتهما في السباحة وحمامات الشمس على الشاطئ الصخري[33]، وبدت شبه جزيرة القرم مكانًا مقدسًا وسحريًّا لهما، ثم عادا مرورًا بموسكو لكي يتمكن من المرور بمقر الـ(كي جي بي)- المركز، كما هو معروف- وبعد ذلك انتقلا إلى شقة والديه؛ ذات غرفتي النوم في ستاشك لين.

كان في الثلاثين من عمره، وهي في الخامسة والعشرين، واستقرا معًا بحياة زوجية سعيدة، وإن كانت مقيدة.

أحد زملائه، إيجور أنتونوف، كان يعتقد أن فلاديمير تزوج للمضي قدمًا في حياته المهنية، مدركًا أن العزوبية تحد من تطوره المهني[34]، ومن غير شك أنه فكر في كل ذلك بعناية، وقد شهدت سيرته المهنية انفراجًا بعد ذلك بعام؛ إذ منحته الـ(كي جي بي) ترقية إلى رائد بعد تسع سنوات من الخدمة، وأرسلته للدراسة في موسكو في كلية النخبة في المخابرات الخارجية، ومعهد الراية الحمراء الذي أُسس عام 1938م، وكان معسكرًا للجواسيس الخارجيين في الاتحاد السوفييتي، ولم يكن للمعهد خصوصية فكرية وحسب، بل كان يمارس تمييزًا في المعايير العرقية والإثنية؛ فقد منع منه اليهود، كما منع منه التتار والقرم والشيشان، والكالميك، وكانت ممارسة الشعائر الدينية فيه من أي نوع ممنوعة. وكان دخوله ربما نتيجة التقرير الذي قدمته وكالة الـ(كي جي بي) عن عمله الإيجابي.

بحلول عقد الثمانينيات، بدأت المديرية الأولى الرئيسة تشتكي من كثرة الطلاب الذين كانوا «أطفالًا مدللين لآبائهم المتميزين» والذين استخدموا نفوذهم واتصالاتهم في موسكو لدخول أبنائهم فيها، في حين أنها كانت تريد- بدلًا من ذلك- مرشحين أقوياء لديهم الكفاءة لتعلم اللغات الأجنبية، والتفاني المطلق لقضية الاتحاد السوفييتي. حاولت المديرية توسيع التجنيد عن طريق زيادة نسبة الطلبة القادمين من المحافظات، فطُلب من المقرات الإقليمية ترشيح الضباط الشباب[35]، فأرسلت لينينجراد فلاديمير بوتين.

المعهد اليوم يحمل اسمه بعد أندروبوف؛ الذي رَأَس جهاز الـ(كي جي بي) مدة طويلة، ثم تولى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي بعد وفاة بريجنيف عام 1982م، وبهذا ارتفعت آمال أولئك الذين يريدون تحديث الدولة تحت القبضة الحديدية للأجهزة الأمنية، ولكن أندروبوف استمر رئيسًا لمجلس السوفييت الأعلى خمسة عشر شهرًا فقط، قبل وفاته فجأة في فبراير/شباط 1984م، وكانت بداية سلسلة صاخبة من تسلُّم القادة السوفييت كبار السن؛ وحلَّ قسطنطين تشيرنينكو محل أندروبوف لأشهر فقط، قبل أن يبدأ فلاديمير الدوام في معهد الراية الحمراء، وبقي عامًا قبل أن يموت في مارس/آذار 1985م.

الأمة السوفييتية العظيمة بدت فجأة غير قادرة على توليد قادة جدد، وفي مرحلة مثقلة بالركود الاقتصادي والسياسي الذي بدا متخلفًا أكثر من أي وقت مضى عن الغرب، وعن (العدو الرئيس) الولايات المتحدة؛ فالحرب السوفييتية في أفغانستان أسقطته في مستنقع، وقد أبدى العاملون في دوائر فلاديمير الاستخباراتية استعدادهم المطلق لمناقشة الحقائق بشأن هذا الموضوع الذي لم يسبق أن تحدث عنه أحد علانية، وقد ذُهل مما كُشف عنه، بعد أن كان يعتقد بالغريزة بعدالة التدخل[36].

كان المعهد منشأة سرية تقبع في غابة خارج موسكو، حيث لا يزال قائمًا حتى اليوم لكن تحت اسم جديد: **أكاديمية الاستخبارات الخارجية**، ويقدم الدورات التي تستغرق من سنة

إلى ثلاث سنوات؛ تبعًا للحالة التعليمية للمتدربين، وخبرتهم، والمهمة التي يمكن أن توكل إليهم[37].

ليودميلا اليوم حامل، بقيت في لينينجراد، تعيش مع والديه، وكان فلاديمير حينها قد تعلم حرفة التجسس؛ كيفية تجنيد العملاء، والتواصل في التعليمات البرمجية، والاضطلاع بأعمال المراقبة، وكيف تضلل عنصرًا يتعقب شخصًا ما، وكيف تستخدم صناديق البريد الميت، وفوق هذا كله تعلم فن الاختباء الذكي.

في أثناء التدريب اعتمد الطلاب أسماء حركية، مستمدة من الحرف الأول من أسمائهم، وأصبح بوتين الرفيق بلاتوف؛ لحماية هويته الحقيقية حتى من الطلاب الآخرين. وكانوا يرتدون الملابس المدنية، لا الزي الرسمي، ويحضِّرون لمستقبلهم بالتظاهر أنهم صحفيون ودبلوماسيون، أو مندوبون تجاريون في البلدان التي يتوقع أن يعرفوها من كثب، قبل زيارتهم لها.

ظهر فلاديمير في سبتمبر/أيلول 1984م مرتديًا بذلة جديدة من ثلاث قطع، بغية تحقيق أكبر قدر من الثقة، على الرغم من أنه كان يومًا دافئًا، فقال المدرب العقيد ميخائيل فرولوف للطلاب الآخرين: «انظروا إلى الرفيق بلاتوف، الآن!»، مستشهدًا بهذا الشاب النحيل نموذجًا[38].

أخيرًا، بعد ما يقارب العقد من الملل في مراقبة الأجانب والمعارضين في لينينجراد، تعلم الحرفة التي كان يتصورها في شبابه. كانت الأقسام الثلاثة الرئيسة في المعهد في ذلك الوقت يرأسها قدامى المحاربين من (العصر الذهبي) للتجسس في الـ(كي جي بي)؛ في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وبعدها: يوري مودين في الذكاء السياسي، وإيفان شيشكين في مكافحة التجسس، وفلاديمير.ب أركوفسكي في الاستخبارات العلمية والتقنية، وجاءت شهرتهم من عملهم جواسيسَ في لندن، وكان مودين آخر قائد للمجموعة التي أصبحت تعرف باسم المجموعة (**الخامسة الرائعة**)، وهي من خريجي كامبريدج

الشباب، ومن بينهم كيم فيلبي، الذي جُنِّد خلال عقد الثلاثينيات عميلًا للاتحاد السوفييتي، حتى وصل إلى أعلى المستويات في السلطة البريطانية، ومع أن تلك العملية اكتشفت منذ مدة طويلة، فإنها ظلت «نموذجًا لضباط المخابرات الصغار» في المعهد[39]، وكان الرفيق بلاتوف يتعلم من نجوم كي جي بي.

في 28 أبريل/نيسان 1985م ولدت ليودميلا ابنتها البكر وهي لا تزال في طور استكمال دراستها الجامعية، وكانت تريد أن تسميها ناتاشا، ولكن فلاديمير كان قد اتخذ قراره سابقًا وسماها ماريا، أو ماشا، على اسم والدته. وحين ولدت ابنته كان غائبًا، ولكنه حصل على إجازة- بعد أن خرجت الأم وطفلتها من المستشفى- لزيارة عائلته الجديدة والاحتفال معها، ومعهم سيرجي رولدغن، الذي أصبح عرابًا لماريا، في المنزل الريفي لوالد رولدغن قرب فيبورغ، على الحدود الفنلندية. كانت ليودميلا- من غير أن تدري- هي نفسها تخضع للفحص والتدقيق في خلفيتها وصحتها ومزاجها، علمت بذلك فقط حين استدعاها مكتب إدارة الجامعة، وأُبلغت أنها قد بُرِّئت من أي شبهة[40].

أصبح فلاديمير اليوم ربًّا لعائلة في مرحلة حرجة وأكثر أهمية في حياته، فآماله في السفر إلى الخارج، والانتقال إلى عمل النخبة في الاستخبارات الخارجية، كانت تعتمد على نجاحه في معهد الراية الحمراء، وهذا أمر شائك بلا شك. وقد بدا من التركيز على تعلمه اللغة الألمانية أنه سيخدم في بلد ناطق باللغة الألمانية، والسؤال الوحيد هو: هل سيعيّن في الغرب الرأسمالي- أي في ألمانيا الغربية أو النمسا أو سويسرا- أو في دول أوروبا الشرقية التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، مثل جمهورية ألمانيا الديموقراطية؟ فالخدمة السرية في الغرب تتطلب عامًا آخر أو عامين في المعهد، مع تدريب أعمق وأعمق في العادات والتقاليد المحلية- التي يسقط ذوو الأصول الأجنبية في كثير من الأحيان في براثنها- والجوانب الأساسية للحياة الرأسمالية، كالرهون العقارية التي قد تخون رجل الاستخبارات السوفييتي[41]. ادعى فلاديمير في وقت لاحق أنه كان يفضل الخدمة في ألمانيا الشرقية، ولكن القرار في هذا الخيار ليس له، إذ تتخذ لجنة التخرج في المعهد قرارات التعيين على حسب

الأداء والسلوك الشخصي. وعلى الرغم من كل الرهانات، أدخله سلوكه في أخطار كثيرة؛ كان قادرًا على العودة إلى لينينجراد مددًا قصيرة، وفي إحدى المرات دخل في عراك، خلال مواجهة على المترو مع مجموعة من مثيري الشغب، هذا ما رواه لسيرجي رولدغن، وفي هذه المرة- كما قال- عانى بقدر معاناة الطرف الآخر في تلك المواجهة، وكسرت ذراعه في المعركة. أخبر رولدغن أنه ستكون هناك عواقب هذه المرة، وحقًّا وُجِّه له توبيخ، مع أنه لم يفصح عن العقوبة لصديقه. قال رولدغن: «لديه نقطة ضعف وهي لا تخدم المهام الخاصة؛ فهو مُخاطر وينبغي للمرء أن يكون أكثر حذرًا، وهو ليس كذلك»[42].

كان تقييمه في نهاية سنة التدريب دون المتوسط، فليس عنده طموح كبير، لكن العقيد فرولوف لاحظ عددًا من الخصائص السلبية لديه؛ منها أنه كان «انطوائيًّا وصموتًا»، في حين أنه «حاد الذكاء»، ويمتلك أيضًا «ميلًا أكاديميًّا معينًا»، كانت تلك طريقة مهذبة لوصف أسلوبه المتحذلق[43]، وليس لديه صلات عائلية أو خلفية تمهد له الطريق لتسنَد إليه وظيفة مرموقة.

أسهمت المعركة على المترو في لينينجراد على نحو شبه مؤكد في نهاية مفاجئة لدراسته في معهد الراية الحمراء؛ فبدلًا من الاستمرار عامين آخرين تؤهله لصفوف النخبة في التجسس الاحترافي، غادر في نهاية سنته الأولى. وعندما تسلم مهمته، لم تكن لألمانيا الغربية، ولكن إلى الشرقية، ولم تكن حتى إلى برلين، مركز التجسس في الحرب الباردة منذ هزيمة النازيين، وإنما لدريسدن، عاصمة مقاطعة سكسونيا، بالقرب من الحدود مع تشيكوسلوفاكيا. ولأول مرة يحصل على جواز سفر أجنبي، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره تقريبًا، ولم يكن قد غادر الاتحاد السوفييتي في حياته من قبل.

الفصل الثالث

موظف مخلص في إمبراطورية تحتضر

من بين كل الدول الاشتراكية التي أنشأها الاتحاد السوفييتي المنتصر بعد الحرب، بدا أن جمهورية ألمانيا الديموقراطية قد بنت الجنة للعمال التي وعدت بها الشيوعية، وهي فقط التي يديرها القمع والإرهاب بقدر ما تديرها الإيديولوجية. حافظت على شبكة مكونة من 91 ألف موظف، و173 ألفًا على الأقل من المخبرين، وربما أكثر من ذلك، في أمة بلغ تعدادها نحو سبعة عشر مليون نسمة. كتب أحد المؤرخين عن انتشار وزارة أمن الدولة وشموليتها: «لا يستطيع أحد أن يضع مزيدًا من الحدود حول ستاسي أكثر من تطويق رائحة في غرفة»[1]. بالنسبة إلى فلاديمير بوتين، الذي رُقِّي حديثًا إلى رتبة رائد، يبدو أن الزمن عاد به إلى الوراء؛ فقد عدَّ ألمانيا الشرقية «بلدًا شموليًّا قاسيًا تحكمها الديكتاتورية بقسوة»[2]، ولكن ذلك ليس بكثير على الأمة لكونه الجهاز الأمني السائد؛ وكان يحب ذلك كثيرًا.

حافظت وكالة الـ(كي جي بي) على حضور هائل لها في ألمانيا الشرقية، في قاعدتها في كارلشورست في برلين، حيث مقر الجيش السوفييتي أيضًا، فكانت توظف مئات العمال خلال الحرب الباردة. ضباط ستاسي الذين كانوا ينادون نظراءهم السوفييت بـ(الأصدقاء الأعزاء)، كانوا يعملان معًا كحلفاء ويتنافسان كخصوم؛ فأنجزت ستاسي كثيرًا من الأعمال السياسية لـ(كي جي بي)، ووفرت لها معظم التقارير الاستخباراتية التي تنقل إلى المركز في موسكو، لا من ألمانيا فقط، وإنما من كل الكتلة السوفييتية.

تعاملت الـ(كي جي بي) أيضًا مع (الأصدقاء الأعزاء) بشيء من الحذر الذي استاء منه الألمان؛ فواحدة من أكبر عمليات الـ(كي جي بي)، التي بدأت في السبعينيات في وقت بريجنيف، والتي سميت تشفيرًا باسم **LUCH**، أو (الشعاع)، جندت خلسة عملاء ألمانًا للرصد ولتقديم تقارير عن قادتهم في الحزب والمسؤولين الحكوميين، وعن الناس العاديين غير الموالين للقضية السوفييتية[3].

وجود الـ(كي جي بي) في برلين هو الأكبر في العالم، وعلى النقيض من ذلك، كان المكتب في دريسدن مركزًا صغيرًا وقاعدة متقدمة لتدبير المكائد في جميع أنحاء العالم. المدينة تقبع على جانبي نهر الإلبي، ولم يكن بها أكثر من ستة موظفين من ضباط المخابرات أو ثمانية، يقع مكتبهم في أنجليكاستراسي رقم 4، في مبنى رمادي اللون، مكون من طابقين وسقف قرميدي أحمر في نودستادت، عبر جسور دريسدن الشهيرة في المركز التاريخي للمدينة. هنا، في مكتب الزاوية في الطابق الثاني، سيعمل الرائد بوتين أربع سنوات ونصف سنة قادمة.

دريسدن واحدة من المدن الأوروبية الجميلة، ولا تزال تشوهها أنقاض كنيسة السيدة العذراء المدمرة، وظلت كنيسة الباروك دون ترميم أربعةَ عقود بعد إلقاء القنابل الحارقة على دريسدن في فبراير/شباط 1945م بوصفها رمزًا لأهوال الحرب، ولمزيد من الأغراض الدعائية المعاصرة عن الهمجية الغربية في أنجليكاستراسي.

عبر النهر، وعلى بعد مسافة قصيرة ثمة شارع جميل، تصطف على جانبيه الأشجار والحدائق التي تزدهر كل ربيع بنسيج من الألوان، خلافًا للأبنية الأثرية المنهارة في لينينجراد. في التقاطع الذي يلتقي بالطريق الرئيس، يقبع هناك في باوتزنرستراسي مجمع كبير يمتد إلى جرف يطل على مصب النهر المعشوشب الواسع. بعد الحرب، حولت الشرطة السرية السوفييتية، وNKVD، المبنى الصغير هناك على الجرف إلى محكمة عسكرية، حيث لا يحاكم بقايا النظام النازي فقط بل والمعارضون للدولة الشيوعية الجديدة[4]. جهاز أمن

الدولة (ستاسي)، بعد تأسيسه، تسلَّم المجمع ووسَّعه على نحو مطَّرد. في عام 1953م، بنى سجنًا بأربع وأربعين زنزانة، اعتقل فيه خلال هذه السنين أكثر من اثني عشر ألف سجين ينتظرون التحقيق والسجن.

في الوقت الذي وصل فيه الرائد بوتين، كان مقر جهاز أمن الدولة قد أصبح مدينة سرية داخل المدينة، وفي الداخل كانت المكاتب الإدارية، من ضمنها دار ضيافة كبار الشخصيات، ومبان سكنية تكفي لاستيعاب ثلاثة آلاف شخص، وهناك أيضًا بناء منعزل، يضع فيه الضباط سماعات ضخمة على آذانهم ويستمعون ساعات عديدة لمحادثات سجلتها أجهزة تنصت مخبأة في جميع أنحاء المدينة. وكان لرئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، هورست بوم، مكتب في الطابق الثاني من المبنى الرئيس، يطل على ساحة معبَّدة يلعب بها ضباط جهاز أمن الدولة كرة الطائرة وكرة القدم، ويؤدون هذه الألعاب أحيانًا مع ضباط الـ (كي جي بي) في الطرف الآخر من الطريق.

في ذلك الوقت كانت الحياة في الاتحاد السوفييتي راكدة، حتى إن النظام الاشتراكي المتصلب، كما في ألمانيا الشرقية مثلًا، بدا مزدهرًا مقارنة به، وكانت مليئة بالإغراءات الخطيرة، وبخاصة للضباط الشباب من الـ(كي جي بي) والجيش الأحمر: النساء، والمال، والخمر، وكانت جميعها مسارات خطيرة إلى الانحطاط الإيديولوجي[5]؛ فالضباط السوفييت والجنود المنتشرون في ألمانيا يحاولون الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه؛ من الجينز الأزرق، والمواد الخلاعية، وحتى الأسلحة، كل شيء للبيع أو المقايضة في السوق السوداء مقابل الفودكا، التي حظرها قادة الجيش الأحمر. ومن بين فريق النخبة في الـ(كي جي بي)، تجد الضباط وزوجاتهم قد انهمكوا في شراء المواد الغذائية والملابس والإلكترونيات- الكماليات التي يعاني الاتحاد السوفييتي نقصًا حادًّا فيها- يشحنونها إلى بلدهم ويبيعونها في السوق السوداء النهمة.

بوصوله إلى دريسدن في أغسطس/آب 1985م، يكون فلاديمير قد حقق الحلم الذي راوده في طفولته: أصبح ضابط استخبارات أجنبية، وأُرسل إلى الخارج لمحاربة أعداء الدولة. خبرته السينمائية حتى ذلك الوقت كانت أقل مما كان يتخيَّل ذات مرة. لم يكن حتى ضابطًا سريًّا؛ بل كان ضابط حالة، يلتحق بموظفين ساخرين مبذرين في مخفر مقاطعة من إمبراطورية الـ(كي جي بي). وسرعان ما لقبه زملاؤه (فولوديا الصغير)؛ فقد كان هناك اثنان آخران يحملان اسم فلاديمير في القصر في أنجليكاستراسي، وهما (فولوديا الكبير) و(فولوديا ذو الشوارب)[6]. فولوديا الكبير كان فلاديمير يسولتسيف، الذي وصل قبل عامين، وقد تدرب وعمل في المكاتب الإقليمية للـ(كي جي بي) في روسيا البيضاء وكراسنويارسك، وهو اليوم منهك للغاية.

عندما توفي قسطنطين تشيرنينكو في وقت مبكر من هذا العام، وقبل أن يصل فولوديا الصغير، كان يسولتسيف وزملاؤه قد شربوا نخب المرض الذي اختطفه بسرعة وأعفى البلد من تحمل مدة طويلة أخرى من عدم اليقين. سخر يسولتسيف من البيروقراطية، ومطالب المركز الذي لا يشبع، ومن خوفه الزائد من تهديداتٍ، هي من وجهة نظره وهمية، قال مازحًا: إن «أخطر سلاح» لتجسس الـ(كي جي بي) في دريسدن هو المسمار الذي يفتح به الثقوب في رزم التقارير المكتوبة بإخلاص، والتي ترسل دون جدوى إلى موسكو، وكثير منها لا يزيد على ملخص الأحداث السياسية التي أعلنتها الصحف المحلية[7]. «جاء فولوديا بوتين إلى الـ(كي جي بي) برومانسية بطولية»، كما كتب، «ولكن في دريسدن لا يمكن أن يكون هناك أي رومانسية بأي حال من الأحوال، وقد فَهِم ذلك تمامًا»[8].

كان لا يزال فولوديا الصغير مناسبًا لوظيفته، وتليق به، وقد تزلف على الفور متقربًا من رئيس محطة دريسدن، العقيد لازار ماتفييف، الذي يخدم هناك منذ عام 1982م، وهو رجل قصير القامة، أقصر من بوتين، نحيل في الوسط، وأصلع تقريبًا باستثناء مصدتين ناعمتين من الشعر الأبيض، وهو من مواليد عام 1927م، وهو من المدرسة القديمة، ومن

ضباط المخابرات السوفييت المخلصين الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم في الحرب الوطنية العظمى. وقد جعل الرائد الشاب مقربًا منه وتحت جناحه، مبديًا إعجابه بأخلاقيات العمل الهادف عنده ونزاهته أيضًا.

قبل عام من وصول بوتين إلى دريسدن، بدأت الـ (كي جي بي) تدفع راتبًا يعادل 100 دولار- أي من العملة الصعبة- وهو مبلغ ضخم يوزع بالدولار والماركات، من وجهة نظر يسولتسيف، هناك فترة في ألمانيا الشرقية كانت بالنسبة إلى معظم ضباط الـ(كي جي بي) «فرصة فريدة لضمان أن تكون شيخوختهم هانئة»[9]، لكنها ليست لبوتين ولا لزوجته. ماتفييف كان معجبًا لحد العشق بليودميلا؛ الأم الشابة الجميلة، التي لا تشبه الأمهات الأخريات؛ (الامرأة التجارية)، ولم يخف سرًّا بين بقية الفريق في الـ(كي جي بي) أن فولوديا الصغير هو المفضل لديه؛ لأن هذا الرائد الشاب المحترف لم يظهر أي علامة تظهر عزمه على التفوق على رؤسائه؛ كان «شخصًا واضحًا وضوح الشمس»، و«رجلَ عمل» حقيقيًّا، وإن لم يكن من نوع المرؤوسين الذين يبالغون في عملهم ويصلون الليل بالنهار[10].

في البداية، كانت ليودميلا لا تزال في لينينجراد للانتهاء من دراستها، أما فولوديا الصغير فانتقل مع زميل له للإقامة مدة وجيزة في الطابق العلوي في شقة من المبنى المشيد حديثًا، في 101 رادييرغرستراسي على مسافة قصيرة لا تتجاوز خمس دقائق سيرًا على الأقدام من قصر الـ(كي جي بي). المبنى يحتوي على ثكنات عسكرية سوفييتية في جانب منه، وعلى حديقة غابات من الجهة الأخرى، في الطرف الشمالي الشرقي من مدينة دريسدن.

وكحال معظم المباني في الحي، يضم جهاز أمن الدولة والضباط السوفييت وأسرهم، وكان مجتمعًا صغيرًا مكتفيًا بذاته من الشرطة والجواسيس السريين. شمل الحي تبادلًا عسكريًّا، ومتجرًا لبيع المنتجات الروسية، ومدارس للأطفال، وسينما لعرض الأفلام السوفييتية، وبانيا (النسخة الروسية من الساونا). انتقل الرائد بوتين في وقت لاحق إلى

شقة في الطابق الرابع عند أول مدخل من المداخل الاثني عشر المنفصلة للمبنى، التي جُعل لكل منها درج خاص بها، على الرغم من عدم وجود المصاعد. كانت الشقة مكونة من أربع غرف تغطي مساحة سبع مئة قدم مربعة، ومع أنها لم تكن فاخرة، فقد كانت أول منزل مستقل له.

عندما وصلت ليودميلا في خريف عام 1985م، محتضنة ماشا، وجدت في الانتظار على طاولة المطبخ سلة من الموز قلما تجدها في بلادها، فشعرت في البداية أنها قد استفاقت من حلم. كان الحي ساحرًا، والشوارع نظيفة، وتُغسل النوافذ في الشقة مرة في الأسبوع، وكانت الزوجات الألمانيات ينشرن ملابسهن في صفوف على أعمدة معدنية زرعت في الحديقة العشبية في الخارج، ورتبت جميعها في صفوف جميلة[11]. القاعدة الأمامية لعمل (كي جي بي) في دريسدن كانت تشرف على أربع مقاطعات جنوبية لألمانيا الشرقية؛ وهي دريسدن، ولايبزغ، وغيرا، وكارل ماركس ستاد. انخرط الرائد بوتين وزملاؤه في العمليات الاستخباراتية، وفي التجسس والتحليل، وهواجس أخرى للمركز؛ من تجسس تقني وعلمي، وكانت تركز جميعها على العدو خارج الحدود وليس بعيدًا عنهم. جلس في مكتب في الطابق الثاني يشاطره فيه يسولتسيف الذي كان يسمي مكانهما بالزنزانة، وفولوديا الصغير بصديق الزنزانة. كان في الغرفة طاولتان، وخزانة للأوراق السرية، وهاتفان بخط واحد، وكان فولوديا الصغير يخاف من الرد على الهاتف، إذ يرتبك من لغته الألمانية المهشمة، مع أنه أتقنها فيما بعد حتى أصبح يحاكي بها اللهجة الساكسونية[12]، إذ لطالما أحب الثقافة والتاريخ والأدب الألماني حين كان طالبًا، واليوم انغمس فيه. يقول هورست جيهمليتش، كبير مساعدي بوم، رئيس ستاسي في دريسدن: «كان الروس يسألون جمليتش شرح بعض المصطلحات في الألمانية، ويطمح دائمًا إلى تحسين قدراته اللغوية»[13].

كان يسولتسيف مفتونًا بزميله الجديد، وبحس النكتة لديه، وبجذوره المتواضعة، فجده كان يعمل في مطبخ نبلاء ثورة أكتوبر/تشرين الأول، وفوق ذلك لم يكن لفولوديا الصغير أي أقارب في مراتب (عالية) يمكنهم مساعدته على تعزيز مسيرته المهنية. كان بالنسبة إلى

قائده أشبه بالحيوانات المدللة لدى مقتنيها، ثم أصبح ممثل الحزب الشيوعي للمكتب؛ يلقي المحاضرات، ويدير المناقشات الأسبوعية حول الأحداث السياسية، ولكن ذلك كله كان- كما يعتقد يسولتسيف- اختلاقًا، أو حتى عملًا ساخرًا. كان يستمتع ببرامج المنوعات ذي الثقافة المتوسطة في التلفزيون الألماني، وأحب أيضًا قراءة الأدب الروسي الكلاسيكي الساخر؛ لأمثال نيكولاي جوجول، وميخائيل سالتيكوف-شيدرين الذي هاجم البيروقراطية القيصرية الفاسدة للقرن التاسع عشر في روايته النفوس الميتة، تحفة جوجول هذه التي تنتقد الفساد والاستجداء في المقاطعات أصبحت الرواية المفضلة لديه. وكان يمزح دون كلال، متناولًا الصفات الكريهة لعملاء الجاسوسية، الذين كان منهم، بعضَ الوقت على الأقل، وسخر أيضًا من معاداة ماتفييف لـ(السامية)، التي كانت منتشرة في الـ(كي جي بي)، على الرغم من أنه لم يفعل ذلك أمامه مباشرة.

يعتقد يسولتسيف أن فولوديا كانت لديه قدرة متميِّزة على تكييف شخصيته مع الوضع ومع رؤسائه، وقدرة ساحرة على كسب ثقتهم، وهي السمة المميزة له التي لاحظها الآخرون. في ساعات النقاش الطويلة- وكانت تدور غالبًا في بانيا قبو القصر- كان فولوديا يظهر لمحات من الفردانية والتفكير الحر الذي قد يتسبب له بمشكلات.

في 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1985م، كانوا يشاهدون البث السوفييتي للجولة النهائية المثيرة لبطولة العالم في الشطرنج بين أناتولي كاربوف وغاري كاسباروف، التي كان يُنظر إليها على أنها صراع أيديولوجي بين الحرس القديم والجديد. حينها كان فريق الـ (كي جي بي) كله مؤيدًا لكاربوف، حائز لقب البطل الذي أشاد به الاتحاد السوفييتي، وكانوا ينظرون إلى كاسباروف، البطل الذي نددت به الصحف الرسمية كما كشفت المباراة، على أنه «مغرور ووقح للغاية»، لكن فولوديا الصغير، من ناحية أخرى، أظهر (تعاطفًا خطيرًا) مع كاسباروف، وقال إنه استمتع بانتصاره النهائي، من غير أن يخشى قول ذلك.

ما أثار يسولتسيف كثيرًا كان إيمان زميله المعلن بالله؛ مع أنه في الـ(كي جي بي) كان «أمرًا لا يمكن تصوره»، وكان يسولتسيف شيوعيًّا ملحدًا، وكان هو نفسه غير متقبل لفكرة الاعتراف بأي دين، على الرغم من أن الشاب كان حريصًا على عدم التباهي به، وكان متحفظًا جدًّا، ولم يكن يسولتسيف يومًا متأكدًا من أن استعانته بالله كانت إيمانًا أم مجرد تكتيك استخباراتي آخر[14].

استقر الرائد بوتين في الحياة في ألمانيا بأريحية أكبر، ولأول مرة في شبابه يتوقف عن ممارسة الجودو، ويتخلى عن ممارسة الرياضة بانتظام، ومع أنه لا يشرب كثيرًا، فإنه استطاب طعم البيرة، وخاصة الراديبيرغر بيلسنر التي تصنع في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة دريسدن. صادَقَ النادل الذي كان يملأ له حصته بانتظام؛ وهي برميل صغير، وسرعان ما أضاف خمسة وعشرين رطلًا لجسده النحيل. أما ليودميلا فما إن وصلت حتى أصبحت حاملًا على الفور مرة أخرى، وولدت ابنته الثانية، كاترينا، أو كاتيا، في 31 أغسطس/آب 1986م، وقد لمس صديقه يسولتسيف أنه «شعر بالإحباط قليلًا» لأنهما لم يرزقا بذكر.

أثبت بوتين الزوج والأب أن لديه شيئًا من الشوفينية، إذ رفض مساعدة الزوجة في التسوق والطبخ، أو أي شيء آخر من أعمال التدبير المنزلي، وكان يعتقد بالتقسيم التقليدي للأدوار الزوجية، حتى إنه خلال علاج زوجته في المستشفيات مدة وجيزة، عندما كانت حاملًا في دريسدن، بقي وحده ثلاثة أيام، فضاق ذرعًا من الجهد الذي بذله في العمل المنزلي، وكان- حسب وصف ليودميلا- «المقدم والمدافع»، ومن ثم كان عليها أن تتعامل مع ما لم يفعله. وكان- كذلك- الآكل الذي يصعب إرضاؤه، يرفض أن يلمس الأطباق التي لا يحبها، فلم تعد تطيق أن تطبخ له، وعندما اشتكت، استعان بالقول الروسي المأثور: «لا تمتدح امرأة فإنك بذلك تفسدها»، كما أنه لم يحتفل مرة واحدة بمناسبة زفافهما[15].

كانت متطلبات عمل الرائد بوتين في المكتب مرهقة، حتى إنها كانت تفسد عطلة نهاية الأسبوع للزوجين، ولكن كانت تحت تصرفهما سيارة تشيجولي سوفييتية الصنع، فقضوا عدة سفرات بها مع جيرانهم الروس، الذين كانوا جميعًا من رجال الأمن وأزواجهم.

انضم إلى نادي الصيد، وزار مع ليودميلا الغابات والحدائق العامة في ولاية سكسونيا، وزار مرتين على الأقل تشيكوسلوفاكيا ودولًا أخرى تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، وسافرا مرة مع العقيد ماتفييف وزوجته يفجنيا، واشتريا إستيريو من الغرب في وقت لاحق، واشتريا في وقت مبكر لعبة فيديو الأتاري.

لم يسافر الزوجان إلى ألمانيا الغربية، ومع أنهما كانا يستضيفان بانتظام الأصدقاء الروس والألمان في شقتهما، فإن حياتهما الاجتماعية كانت تقتصر على دائرة ضيقة من وكلاء الاستخبارات الألمانية والسوفييتية، وكانت أقرب صلتهما مع الزوجين بورخاردس، اللذين لديهما طفل معاق، وحين انفصل الزوجان في وقت لاحق- يقول هورست جيهمليتش- ساعد الرائد بوتين زوجته على العثور على عمل في برلين.

عاش الزوجان (البوتينيان) حياة مريحة وموسرة مقارنة بالأشخاص الذين عرفوهما في الاتحاد السوفييتي، لكنها كانت حياة مقيدة، فقد كانت الزوجة ممنوعة من عقد صداقات خارج دائرتها المباشرة، ومن ثم فقد كانت حياتها في مجتمع انعزالي يوتر الأعصاب ويغذي القلاقل والخلافات التافهة، وهذا ما جعل سنواتهم في دريسدن «موزونة ومستقرة وعادية ورتيبة»[16]، وأصبحت الحياة هادئة، ولكنها بالنسبة إلى ليودميلا خانقة؛ فزوجها لا يتحدث عن عمله في المنزل، مع أنها كانت على اطلاع على كل شيء. وكان كثيرًا ما يحذِّر ليودميلا لتتجنب معارفها (غير المرغوب فيهم)، حتى من الإخوة الألمان؛ فلا يمكن أن تثق بأحد منهم؛ فهُوياتهم ونياتهم الحقيقية قد لا تصبح واضحة لسنوات، وهذا كان صحيحًا؛ وتأكد للبوتينيَّين لاحقًا؛ حينما زُعِم أن وكالة الاستخبارات الخارجية الألمانية الغربية؛ الـ BND، تسللوا إلى القصر في أنجليكاستراسي من خلال عميلة مفعمة بالحيوية وجذابة عملت

مترجمةً، واستلهمت شخصيتها من الرمز الذي أطلق عليها (بالكوني) (الشرفة)، وقيل إنها صادقت البوتينيين، وليودميلا على وجه الخصوص، ووَثِقت ليودميلا بها فأخبرتها أن زواجهما كان عاصفًا، وأن فلاديمير كان يسيء معاملتها، وهو زير نساء على الدوام[17]. بقي أمر هذه المترجمة خفيًّا، وإثبات كونها جاسوسة أو لا مستحيل؛ فربما كانت مجرد جزء من حرب التضليل بين وكالات الاستخبارات المتنافسة، ففي حرفة التجسس تبقى الحقيقة ليست هي القضية قطعًا.

كان الهدف من الـ(كي جي بي) في ألمانيا الشرقية جمع المعلومات الاستخبارية، وتجنيد العملاء الذين لديهم إمكانية الوصول إلى الغرب، وكان جزء كبير من عمل بوتين في هذه المهمة رتيبًا ومملًّا. أعار الألمان الشرقيون مكتب الـ(كي جي بي) ضابطين، فكانوا يفتشون معًا استمارات أولئك الذين يرغبون في السفر إلى ألمانيا الغربية، وكان الهدفُ تحديدَ الذين لهم أقارب بالقرب من القواعد العسكرية الأمريكية وحلف شمال الأطلسي في باد تولز، ووايلدفلكن، وسيلي، ومحاولة جس نبضهم بإمكانية تعاونهم مع الـ(كي جي بي) مقابل الحصول على التأشيرة، بالإبلاغ عن أي شيء غير عادي يرونه؟

بعد عام 1986م ركَّز قادة الـ(كي جي بي) جلَّ اهتمامهم على الخطر الذي يمثله حلف شمال الأطلسي، مع أن التغييرات التي أحدثتها الشخصية الكاريزمية للزعيم السوفييتي الجديد، ميخائيل جورباتشوف، كانت توحي بخفض توترات الحرب الباردة. كان هاجسهم على نحو خاص مكان تموضع القبعات الخضر في ألمانيا، التي رأى يسولتسيف أنها مثيرة للسخرية. كانت القوائم المملة للمجندين المحتملين (المهمة الأولى) لمكتب دريسدن، ولكن في نهاية المطاف تخلوا عنها لأنها مضيعة للوقت[18].

كان الرائد بوتين يظهر بالزي الرسمي في بعض الأيام، ويرتدي ملابس مدنية في الأيام الأخرى، وهذا يتوقف على المهام الموكلة إليه. وكان يدير المخبرين الذين جنَّدهم، أو جندهم غيره، أملًا في جمع المعلومات عن التطورات الاقتصادية والسياسية، أو العسكرية،

في الغرب، وكذلك في ألمانيا الشرقية، وكان العملاء هم الجواسيس الحقيقيين، يخفون هوياتهم ونشاطاتهم، ويعيشون في خوف من الخيانة. وكان هو المسؤول الإداري؛ يتعقب رجال الأعمال، أو غيرهم من الأجانب الذين يمرون بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية والوحيدة في المدينة، سانت سيمون، المتربعة في الجبال الرائعة، أو يبدون اهتمامًا خاصًّا بها، ويعمل على تجميع ملف عن رجل الدين بها، القمص جريجوري دافيدوف، والمجموعة الصغيرة من المؤمنين[19].

أشار هورست جيهمليتش، مساعد رئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، هورست بوهم، إلى أن بوتين ركز جهوده على تجنيد الطلاب «الذين قد يصبحون ذوي أهمية في وطنهم يومًا ما»، وهم من سينهضون بالصناعة أو بالحكومة، وتلك هي الطريقة التي جندت بها الـ (كي جي بي) فيلبي وغيرهم في كامبريدج، وانتهت بضرر هائل، ولكن نجاح بوتين، الذي عرفه الجميع، كان باهتًا بالمقارنة. كان الناس يساعدون الاتحاد السوفييتي لقناعتهم الأيديولوجية، ولكن معظمهم اليوم خانوا شعوبهم من أجل المال، كما فعل الدريتش إيمز وروبرت هانسن في الولايات المتحدة. فماذا كان بوسع الاتحاد السوفييتي في تلك المرحلة أن يقدم لهم؟

تولى الرائد بوتين إعداد الأوراق عن كل مجند محتمل، وتقديمها إلى مكتب بوهم للموافقة عليه؛ وقد أوضح جيهمليتش طريقة العمل بقوله: «كان علينا ضمان أن الناس الذين سُجلوا من قبل أصدقائنا لن نتصل نحن بهم أيضًا من قبلنا» وأردف: حتى ذلك الحين لم تعرف ستاسي (جهاز أمن الدولة) كل ما تقوم به الـ(كي جي بي).

كذلك حللت قاعدة دريسدن التطورات السياسية، وشخصيات قادة الأحزاب في ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية، وبحثت عن أدلة على معارضة السياسات السوفييتية في ظل جورباتشوف التي تتعرض لتغيير عميق. وكانت جهود الـ (كي جي بي) من خلال عملية

LUCH، التي ترمي إلى مراقبة الألمان الشرقيين، تغذي المركز باستمرار بالتقارير عن (الأصدقاء الأعزاء)، حتى في جهاز أمن الدولة.

بعد عام 1987م رُقِّي بوتين إلى عقيد، وأصبح أحد مساعدي ماتفييف، ثم أصبح كبير مساعديه، ثم أصبح نائب رئيس قاعدة دريسدن. كثرت واجباته الإدارية مع الترقيات التي نالها، ولكنها أيضًا أبعدته أكثر عن العمل النشط للعملاء والجواسيس الحقيقيين. وكان- كما في لينينجراد- المنفذ، أي ما يعادل ضابط الشؤون الداخلية، وكان دائم الحذر من أعداء الداخل كحذره من أعداء الخارج، حتى إن سيجفريد داناث، وهو أحد الجيران في أنجليكاستراسي،، وكان يسير مع كلبه، توقف أمام مكتب (كي جي بي) وانخرط في نقاش صغير مع أحد زملاء بوتين، وعندما صورت زوجة داناث الرجلين معًا، وخلفهما القصر، صرخ الحارس الروسي منبهًا، ووبخ الألماني والروسي على حد سواء، وهو يهتف أن التصوير ممنوع منعًا باتًّا، فمع أن داناث نسي بسرعة هذا اللقاء، فإن المقدَّم بوتين أرسل رسالة إلى جهاز أمن الدولة، طالبًا أن يوضع داناث تحت المراقبة المشددة في إجراء احترازي[20].

بصفته الرسمية، كان بوتين يلتقي مصادفة بالقيادة الألمانية الشرقية في دريسدن، ومنهم هورست بوهم، وهانز مودرو سكرتير الحزب الشيوعي في المدينة، لكن كانت رتبته أقل من أن تكون معرفته بهم طبيعية وبلا رسميات، فقد اقتصرت مهامه على الأمور المطلبية الدنيوية؛ مثل إمكانية أن يقيم ثلاثة من المسؤولين في الـ (كي جي بي) في فندق دون أي تكلفة (كانت موسكو تعاني عجزًا واضحًا في السيولة المالية)، أو توفير تذاكر مجانية للجنود السوفييت لمشاهدة مباراة كرة القدم بين فريق دريسدن وسبارتاك موسكو. وكانت المراسلة الوحيدة له مع بوهم رسالة يطلب فيها المساعدة في عودة الخدمة الهاتفية لمخبِر داخل شركة لتجارة الجملة في ألمانيا الشرقية، وهكذا فقد بدا أن بوتين محكوم عليه أن يظل شخصية مغمورة في خلفية المشهد[21].

في عام 1987م وقع رئيس جهاز أمن الدولة، إريك ميلكي، مرسومًا يمنح فيه المقدَّم بوتين الميدالية الذهبية؛ بمناسبة الذكرى السبعين للثورة الروسية، وفي تلك الليلة، 7 نوفمبر/تشرين الثاني، التحق هو واثنا عشر ضابطًا في المخابرات بزملاء آخرين من ستاسي في مقر القيادة العامة في باوتزنيرستراسي- وهو المبنى نفسه الذي يضم السجن- للاستماع إلى خطاب هورست بوهم. هورست هذا كان عنيفًا سيئ السمعة، وكانت لهجته متعمدة، حزينة، ومرعبة في اليقين الأيديولوجي. ولما كان الزعيم السوفييتي حينها يسعى لبناء علاقة أقل عدائية مع الغرب، فإن هورست حذر تلك الليلة من أن وكالات الاستخبارات المعادية للاشتراكية لن يخضعوا على الإطلاق، «وكثفت المخابرات الإمبريالية نشاطاتها للحصول على أي معلومات من شأنها أن تساعد على اتخاذ مزيد من الإجراءات» ضد ألمانيا الشرقية والدول الاشتراكية الأخرى، قال هذا وهو يرعد. وفي وقت لاحق، بعد شهر، وقع جورباتشوف ورونالد ريغان معاهدة السلاح النووي المتوسط المدى في واشنطن؛ للقضاء على بعض أخطر الأسلحة في أوروبا.

الحرب الباردة لم تنته بعد، إلا أن ذوبان الجليد كان في المنظور؛ ليس لقادة ألمانيا الشرقية فقط، الذين أصبحوا نقادًا شرسين لبيريسترويكا جورباتشوف والجلاسنوست، وملأت استنكاراتهم تقارير الـ (كي جي بي) المبرقة إلى المركز، فتأكيد إيمان قادتها بمستقبل ألمانيا الشرقية لم يتزعزع إلا بعد فوات الأوان. جورباتشوف عرف أن الاتحاد السوفييتي قد تخلَّف عن الغرب ويتهاوى؛ اقتصاديًّا وعلميًّا وعسكريًّا.

أظهرت إصلاحات جورباتشوف الأولى للنظام الاقتصادي السوفييتي، التي صادقت عليها القيادة (الإصلاحية) الجديدة لـ(كي جي بي)، أظهرت الشروخ الخطيرة في جسم الدولة- حتى داخل الـ(كي جي بي) نفسها- التي لا يمكن تداركها. وفي حين ظلت دعواته لتحديث الإنتاج الصناعي والزراعي ذات أثر قليل في سلطة الـ(كي جي بي) أو في مكتسباته، فإن سياسة البيروسترويكا التي أعلنها في مؤتمر الحزب الـ27 لعام 1986م، وعدت بحق

المبادرة والإبداع في الحكومة، والتسامح في النقد، وكانت هذه هي بداية النهاية للعقيدة الجامدة من سنوات بريجنيف.

شاهد الفريق في أنجليكاستراسي هذه التطورات من بعيد، وكان رده حذرًا؛ فالعقيد ماتفييف لم يرق له ما شاهده من حراك في موسكو تحت حكم جورباتشوف، ولكن الآخرين- ربما لخبرتهم من التجارب السابقة- سوف يقولون لاحقًا إنهم كانوا يعرفون أن النظام السوفييتي بدأ يتحطم تحت الضغط الصادر عن البيروسترويكا والجلاسنوست. «كنا جيل الشباب في الخدمة الأمنية»، أشار يسولتسوف متذكرًا، «وكان من الواضح لنا أن السلطة السوفييتية تسير حتمًا إلى الهاوية»[22]، وقد قاسمهم المقدَّم بوتين أيضًا وجهة النظر القاتمة عن حال الاتحاد السوفييتي، وكان يعتقد أن الحرب في أفغانستان أصبحت «لا معنى لها، بل وحربًا إجرامية»[23].

لقد شاهد بنفسه الثروة النسبية للغرب (المنحط)، وكان يتابع قوائم (كتالوجات) المتاجر الألمانية التي كانت مطْمَعًا في مكتب الـ(كي جي بي)، إذ كانت ترسل مقايضة إلى بلادهم لتكون بمنزلة نماذج لأزياء الخياطات هناك[24]. وكانت الصحف مثل **دير شبيغل**، أو المجلات مثل **شتيرن**، تجوب لجمع الأخبار، لملء التقارير الاستخباراتية إلى المركز، وكان هو وزملاؤه يرون بأنفسهم التقارير الفاضحة عن الكوارث، مثل **الحادث الذي وقع في محطة تشيرنوبيل للطاقة النووية** في أوكرانيا في عام 1986م، ويعرفون أن الرواية الرسمية بالغت في الكذب. وبطريقة ما، فقد طبقت الجلاسنوست على قوات الأمن أولًا، التي كان بإمكان أفرادها الوصول إلى أماكن ممنوعة يصعب على الآخرين الوصول إليها، ولكنها سرعان ما تؤثر في الرأي العام.

إن القاعدة الصغيرة في دريسدن تعكس الانقسامات الحاصلة داخل الـ (كي جي بي) على خلفية التغييرات البنائية الجارية في الوطن، والفجوة بين المتشددين والإصلاحيين، وبين الحرس القديم والجيل الجديد، ففي نهاية عام 1986م أُفرج عن أندريه ساخاروف

من منفاه في جوركي، وهو ما دفع العقيد ماتفييف ليلقي خطبة عصماء، لم تلق تعاطفًا من مرؤوسه المفضل، فقد كان المقدَّم بوتين يعبر عن إعجابه بالمنشقين بين الحين والآخر، مثل ساخاروف أو سولجينتسين، وفي مساء اليوم الذي أفرج فيه عن ساخاروف من المنفى، فاجأ يسولتسيف مرة أخرى قائلًا له: «لا تنسَ»، وأضاف: «أن التفوق العسكري الواضح للغرب هو وحده الذي يمكنه أن يعيد السادة الأحرار في الكرملين إلى رشدهم»[25]. وثمة حالة أخرى مشابهة؛ ففي وقت مبكر من 1987م ذكر لطبيب الجيش الأحمر الذي عرفه في دريسدن أنه يؤيد فكرة إجراء انتخابات للرئيس الجديد للاتحاد السوفييتي[26] قبل ثلاث سنوات مما حدث.

كانت ازدواجيته واضحة حقًّا، فقد استشعر الحاجة إلى التغيير السياسي والاقتصادي، ولكن- مثل جورباتشوف وكثيرين غيره من الروس- كان يفضل التغيير التطوري، لا الإصلاح الجذري، ومثل عديدين غيره، لم يكن يريد للدولة أن تنهار.

رئيس المديرية الأولى الرئيسة في موسكو، فلاديمير كريوتشكوف، تكيف بسرعة مع تفكير جورباتشوف الجديد، ظاهريًّا على الأقل. كان كريوتشكوف مثلَ بوتين في نواح كثيرة؛ متعصبًا، وبلياقة بدنية، ومخلصًا في عمله، ممتنعًا عن المسكرات الذي «يسبب فزعًا لمدمني الخمرة التقليديين» إذ كان يحظر الشرب في حفلات الوداع لضباط يتأهبون للسفر خارج البلاد[27]. وأصبح أحد أقرب مستشاري جورباتشوف، الذين تبنوا الانفتاح الجديد في شؤون الاستخبارات، وفي عام 1988م أصبح رئيسًا للـ(كي جي بي). وفي ذلك الوقت، بدأت الـ(كي جي بي) تشعر حقيقة أن الكتلة التي أنشئت في أوروبا الشرقية أصبح مصيرها محتومًا.

من موقع دريسدن شاهد بوتين وزملاؤه أيضًا أن حكومة إريك هونيكر، الماركسي القديم العنيد، بدأت تفقد الدعم الشعبي. هونيكر ورئيس جهاز أمن الدولة، ميلكي، رفضا بقوة تكرار بيريسترويكا جورباتشوف ودعايتها، ولكن الألمان الشرقيين العاديين لمسوا التغيير في الهواء؛ فالرغبة الكامنة في الحريات الأساسية بدأت تصحو، كما صحت في أماكن أخرى

من أوروبا الشرقية، وكان انسحاب البلاد أمرًا محتومًا، كما يعتقد بوتين، لكنه لا يدري هل بات وشيكًا[28].

في أغسطس/آب 1989م فتحت المجر حدودها مع النمسا، وسُمح للمواطنين بالعبور بحرية، فتوجه الألمان الشرقيون، الذين يستطيعون التنقل داخل الكتلة السوفييتية، إلى هناك أملًا في الهجرة. وظهرت الاحتجاجات داخل المدن وفي مختلف أنحاء ألمانيا الشرقية، ونشط بها الناس يطالبون، على الأقل، بما أقر به الزعيم السوفييتي لمواطنيه: الانتخابات، والحرية في انتقاد حكم الحزب الواحد، وإصلاحات السوق التي يمكن أن تأتي بمزيد من الرخاء المادي، ومع أن الخوف من جهاز أمن الدولة بقي حاضرًا، لكن في عام شهد حماسة عارمة للثورة- من ليتوانيا إلى ساحة تيانانمين- لم يعد كافيًا لإبقاء الناس صامتين وخائفين في بيوتهم.

في لايبزغ يوم 4 من سبتمبر/أيلول، شُكلت حركة معارضة داخل كنيسة القديس نيكولاس، وخرجت في احتجاج صغير ما بعد خدمات تلك الليلة من يوم الاثنين، ثم تنامت احتجاجات يوم الاثنين مع مرور كل أسبوع، وامتدت إلى مدن أخرى، من بينها دريسدن. وبحلول أكتوبر/تشرين الأول انضم عشرات الآلاف إلى حركة المعارضة، في حين اندفع الآلاف نحو الغرب. وفي 2 أكتوبر/تشرين الأول أصدر هونيكر الأوامر بإخماد الاحتجاجات بالقوة، ولكن وحدة المظليين التي أُرسلت إلى لايبزغ لم تنفذ الأوامر، وفي اليوم التالي حاولت حكومة هونيكر الحد من تدفق المهاجرين بحظر السفر إلى تشيكوسلوفاكيا. وحين وصل جورباتشوف إلى برلين الشرقية في 6 أكتوبر/تشرين الأول، للاحتفال ظاهريًّا بالذكرى الأربعين لتأسيس جمهورية ألمانيا الديموقراطية، كانت النهاية اقتربت منه حقًّا. ضغط هونيكر لمعالجة مطالب المحتجين، قائلًا: «الحياة تعاقب الذين يتأخرون»، ولكن بقي هذا الأخير متحديًا، ثم أعلن في خطابه الذي كان فيه جورباتشوف إلى جانبه: «سوف نحل مشكلاتنا بأنفسنا بالوسائل الاشتراكية، والمقترحات التي ترمي إلى إضعاف الاشتراكية لن تزهر هنا»[29].

وبعد أقل من أسبوعين أُطيح به، وحل محله نائبه، إيغون كرينز، على أمل إيقاف الاضطرابات السياسية، لكن كان الأوان قد فات؛ إذ لم يعد بالإمكان إيقاف زخم الاحتجاجات، وسرَّعت الإجراءات العشوائية المتزايدة من قبل الحكومة في انهيارها. وفي 9 نوفمبر/تشرين الثاني أعلن متحدث باسم الحكومة أن المكتب السياسي قد أذن للألمان الشرقيين بالسفر بحرية إلى الغرب، وقال- ردًّا على سؤال- إنه عرف أن التغيير سيكون له آثار فورية.

وصل عشرات الآلاف من الناس إلى جدار برلين، مجتاحين حرس الحدود، ومع عدم وجود تعليمات واضحة من أعلى، سمح لهم الحراس بالمرور، وقد استقبلوا على الجانب الآخر من ألمانيا الغربية بابتهاج، وجنبًا إلى جنب بدؤوا بتدمير الجدار سيئ السمعة ورمز الحرب الباردة.

في دريسدن طالت الاضطرابات مكتب الـ(كي جي بي)، وكان المقدَّم بوتين مرتبكًا بشدة، أو- كما سيدعي لاحقًا- كان مضطربًا؛ فقد كان- كما يذكر- يتعاطف مع مطالب المحتجين الواسعة، ولكن قلبه كان أيضًا مع أصدقائه في ستاسي، وهو يعتقد أن ستاسي «أيضًا جزء من المجتمع، ومصاب بالمرض نفسه»، ولن تكون هناك قوة غريبة ستطيح بالقيادة السياسية البالية. ما كان يزدريه ويخشاه هو حكم الغوغاء، وهذا ما كان يشاهده يتكشف من حوله، والأسوأ من ذلك أنه لا أحد في موسكو أبدى أي اهتمام، وساءه أن الـ(كي جي بي) استهلكت بالصراعات الداخلية الجارية في البلاد، وتجاهلت التحذيرات والتوصيات التي أرسلها هو وزملاؤه.

لم يكن الاتحاد السوفييتي وحده تحت الضغط، إذ أصبحت مهنته اليوم خارجة عن الحسابات، وبنهاية مسدودة، تذكر ذلك في وقت لاحق وقال: «العمل الذي أنجزناه لم يعد ضروريًا؛ ما الفائدة من الكتابة، والتجنيد، والحصول على معلومات؟ لا أحد في مركز موسكو كان يقرأ تقاريرنا»[30].

سقوط جدار برلين في نوفمبر/ تشرين الثاني لم يضع حدًّا للاحتجاجات، وكذلك لم تسقط الحكومة على الفور؛ فقد ظلت شبكة الأمن (ستاسي) في المكان ذاته، مع أن سلطتها بدأت تتلاشى. بعد النشوة في برلين، جمعت الجماعات المعارضة نفسها وضغطت لتحقيق مطالبها في إجراء انتخابات حرة، فحُوِّلت المطالب إلى جهاز أمن الدولة نفسه. وفي دريسدن نظمت الجماعة المعارضة احتجاجًا خارج مقر جهاز أمن الدولة في 5 من ديسمبر/ كانون الأول، كانوا بضع مئات في البداية، ولكن سرعان ما انضم إليهم الآلاف، وكان يمكن من شرفة جانب القصر في أنجليكاستراسي، أن يشاهد فريق الـ(كي جي بي) بسهولة الحشد الزاحف على مجمع ستاسي، وقد غامر المقدَّم بوتين بالخروج إلى طرفها للمراقبة من كثب.

وفي الساعة الخامسة، بعد أن غص المكان بالحشود، وبدا الخوف وحده غير قادر على تهدئة الوضع، خضع بوهم وأمر بفتح البوابة، فاقتحم المتظاهرون المجمع، ودخلوا المباني التي كانت لا تزرع سوى الرهبة حتى ذلك المساء، وكان بوهم حينها في حالة ذهول وشاحب اللون، وقد توسل إليهم أن يهدؤوا إلا أنهم اقتحموا مقره.

كان الانقلاب سلميًّا إلى حد كبير، ولكن في نظر بوتين كان الحشد مختلًّا، يستهلكه الجنون، ويتذكر امرأة كانت تصرخ: «ابحثوا عن الممر تحت الألب! فهناك السجناء يتعرضون للتعذيب بالماء الذي يصل إلى ركبهم»، كان يعرف أن ذلك هراء! لأنه فقط من يعرف جيدًا أين كانت زنازين السجون.

كان الليل قد أرخى سدوله حين عاد متقهقرًا إلى القصر، وكان اللواء الجديد فلاديمير شيروكوف، من كبار ضباط المخابرات، قد حل محل ماتفييف في وقت سابق من العام، أما ماتفييف فغادر القصر في تلك الليلة عند الساعة التاسعة إلى مكان ما في المدينة. وبينما كانت الحشود منهمكة بالتفتيش في مباني ستاسي، انفصلت عنهم مجموعة صغيرة، انتقلت إلى أنجليكاستراسي، وتجمعوا خارج محطة الـ(كي جي بي)، والغرض من ذلك لا يخفى على المحتجين. سارع حارس الأمن المتمركز في منزل حرسيٍّ صغير إلى الداخل لإبلاغ

المقدَّم بوتين، الذي كان كبير الضباط في هذا المشهد، مع أربعة آخرين فقط في الداخل، وكان غاضبًا وقلقًا؛ فهو المسؤول عن ممتلكات الـ(كي جي بي)؛ ملفاتها، وأسرارها، فأمر الحراس بالتحضير لشن هجوم[31]، ثم اتصل هاتفيًّا بالآمر العسكري السوفييتي في دريسدن، وطلب إليه أن يرسل تعزيزات لحماية المبنى، فأخبره ضابط في الخدمة أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا؛ لأنه «لا توجد أوامر من موسكو»، ولكنه مع ذلك وعد بالاستفسار. وعندما لم يرد الضابط بجواب اتصل به بوتين مرة أخرى، كلمه محاولاً الضغط عليه: «حسنًا، هكذا؟»، فأجاب الضابط: «سألت موسكو، لكن موسكو صامتة»، فسأله: «وماذا علينا أن نفعل؟»، «في الوقت الراهن لا يوجد شيء يمكنني فعله للمساعدة»[32]، فذهل؛ إذ لطالما كان الضابط المخلص للدولة، على الرغم من كل الشكوك التي تصدر حول مصير النظام الشيوعي، ولكن ها هي ذي الدولة تخذله اليوم في لحظة الأزمة. ويتذكر تلك اللحظات: «كان لدي شعور بأن الدولة لم تعد موجودة»، فالمرارة لا يزال طعمها فظًّا لسنوات لاحقة، «لقد اختفت، وأصبح واضحًا أن الاتحاد (السوفييتي) مريض بمرض قاتل، مرض عضال يسمى الشلل؛ شلل السلطة»[33].

كانت حيرته في اختيار ما يجب فعله عذابًا أليمًا، فقد بدا واضحًا- حتى من دون صدور أي تصريح واضح بهذا- أن القيادة السوفييتية لم تعد لديها النية لدعم حكومة ألمانيا الشرقية، كما فعلت في عام 1953م، وكما فعلت بالقوة في المجر عام 1956م، ومرة أخرى في تشيكوسلوفاكيا في عام 1968م. وبوتين لا يمكنه استخدام القوة ضد الغوغاء في الخارج، والواقع أنه لم يكن لديه القوة النارية لأن يفعل كثيرًا على أي حال. كان يفكر بالملفات في الداخل- التقارير الاستخبارية للمركز- وعواقب لا يمكن تصورها تقريبًا إذا وقعت في أيدي الرعاع؛ فالوثائق لا تفضح فقط عمل الـ(كي جي بي)، وإنما تؤثر أيضًا في «مصائر ناس من لحم ودم»؛ أولئك الذين تعاونوا معه ومع زملائه على مر السنين، الناس «الذين وثقوا ذات مرة بالأجهزة الأمنية» للاتحاد السوفييتي. وكان على يقين أنه سيواجه محكمة عسكرية لو انكشفت الملفات، وعلى الرغم من ذلك لا يملك أوامر وتفاصيل لما يمكن فعله لحمايتها،

وفكر أيضًا في سيرته المهنية في الـ(كي جي بي)، وعائلته التي اعتمدت على ذلك، واستشعر من ثم أن الاتحاد السوفييتي سينهار ومعه الحياة الوحيدة التي عرفها: خدمته بصفته ضابط استخبارات[34].

عندما اقتربت عقارب الساعة من منتصف الليل، أقدم المقدَّم بوتين على تنفيذ أكثر أفعاله خطورة، والأكثر حسمًا في عمله المهني في (كي جي بي)؛ إذ ارتدى بزته العسكرية، وترك مسدسه من طراز كي جي بي في المكتب ولم يحمله، وخرج وحيدًا إلى بوابة القصر، من دون قبعته ومن دون أوامر، فقط اعتمد على التحايل.

لم يكن المزاج العام في أنجليكاستراسي عدوانيًّا بقدر ما كان بهيجًا؛ وحدث أن احتشدت مجموعة من عشرين رجلًا في الشارع خارج البوابة يتحدثون بحماس بينهم، وعن دهشتهم من انهيار جهاز أمن الدولة اللعين دون قتال، وكان يقف بينهم سيجفريد داناث، الذي وقف منذ سنتين مع كلبه خارج قصر الـ (كي جي بي). تحدى أحد أفراد تلك المجموعة الحارس المناوب، وطلب السماح له بالدخول، فلم يقل الحارس شيئًا، وبعد أن توارى في المنزل لم يكونوا متأكدين بالضبط ما الذي يجب عمله، ثم شاهد داناث ضابطًا قصيرًا يخرج من الباب الأمامي، وقد نزل خطوات قليلة واقترب منه، لم يتكلم أي كلمة في البداية، ثم تحدث بعد ذلك ببطء وهدوء.

قال بلغة ألمانية فصيحة: «يخضع هذا البيت للحراسة المشددة»، ففوجئ داناث، «جنودي مسلحون، وقد أعطيتهم الأوامر أن يطلقوا النار على أي شخص يدخل المجمع»، قال دون صراخ أو تهديد، وبعد أن تحدث بهذه الكلمات القليلة بكل بساطة، توقف، والتفت ورجع عائدًا إلى المنزل، واكتفى الرجال في الشارع بالرد عليه غمغمة. تغير مزاج داناث، وفكر المحتجون في محاولة أفضل من اقتحام البوابات؛ فلا أحد يريد العنف، ومع أنهم كانوا قد أطاحوا بستاسي حقًّا، فإن التعامل مع الـ(كي جي بي) شيء آخر تمامًا، وهكذا تفرقوا من حول أنجليكاستراسي للانضمام إلى حشد زاحف حول مجمع ستاسي[35]، وبعد ساعات قليلة

تلقت القاعدة السوفييتية بعض الأوامر أخيرًا، فأرسل القادة آليتين عسكريتين مع الجنود الذين لم تعد هناك حاجة إليهم.

كثرت الأساطير عن هذه الليلة، تُنمَّق وفقًا للمؤلف وجدول أعماله، إذ يروي بعض تلك الأساطير أن (مئات) المتظاهرين (اقتحموا) المبنى، وبعضها الآخر يروي أن الحراس تترسوا على النافذة مشهرين الـ AK-47 على الحشد، وعلى استعداد لإطلاق النار والقتل. وفي إحدى الروايات أن الضابط الروسي لوَّح بمسدس في الخارج، أو في أعلى الدرج إلى الطابق الثاني، يحدق بالحشد المندفع ليصل نحوه.

لم يحدث شيء مثير في تلك الليلة، وكل ما حدث طغت عليه أحداث أكثر أهمية بكثير بدأت تتكشف في برلين، ومن ذلك استقالة اللجنة الأمنية في الحزب الشيوعي، واعتقال إريك هونيكر، واستقالة إيغون كرينز في اليوم التالي، ليفسح المجال لأول الزعماء غير الشيوعيين في تاريخ ألمانيا الشرقية.

كان دور المقدَّم بوتين في الأحداث المحيطة التي حلت بألمانيا الشرقية عملًا صغيرًا في وجه الشكوك، إن لم يكن الخطر. للحظة عابرة، كان في الواقع ضابط مخابرات يقف وحده في الدفاع عن بلاده، رجلًا واحدًا يستطيع أن يؤثر في مسار التاريخ- في ألمانيا، لا أقل- تمامًا كما تخيَّل حين كان شابًّا قبل عقدين من الزمن؛ لقد تصرف بهدوء وعزيمة رواقية، وتجنب الخرق الأمني وسفك الدماء أيضًا، ومع ذلك لم يعترف أحد بما فعل في تلك الليلة، لا ثناء، ولا أية ميدالية؛ موسكو صامتة، تلك العبارة التي ظلت تطارده سنوات بعد ذلك. أحس في تلك الليلة أن حياته المهنية كانت على وشك الانتهاء، وكذلك بلاده.

الفصل الرابع

الديموقراطية تواجه مجاعة الشتاء

كانت تجربة مريرة بما فيه الكفاية لفلاديمير بوتين أن يشهد انهيار المثل الأعلى السوفييتي في أوروبا، عاجزًا عن إيقاف الخسائر. كان يعلم أن ألمانيا المقسمة لا يمكن أن تدوم، على الرغم من تعهد إريك هونيكر في وقت مبكر من عام 1989م أن جدار برلين سيقف «خمسين عامًا بل مئة عام». كان أكثر ما أرَّق بوتين هو ما عدَّه استسلامًا سوفييتيًّا دون قيد أو شرط، يعقبه- قبل انسحاب مهين- فوضى وكارثة. قال: «هذا ما يؤلم، أسقطوا كل شيء، وذهبوا بعيدًا»[1].

الرجال والنساء الذين عملوا معه ما يقرب من خمس سنوات أُلقي بهم جانبًا، وهجرهم أنصارهم السوفييت، وتركوهم تحت رحمة ألمانيا الغربية ومواطنيهم الحاقدين، ووجد جيران بوتين وأصدقاؤه أنفسهم فجأة بلا عمل، منبوذين؛ لعملهم في جهاز أمن الدولة، ومُنع معلم ما قبل المدرسة لكاتيا، وكان ضابطًا في جهاز أمن الدولة، من العمل مع الأطفال، وتذكر ليودميلا إحدى صديقات وقد «بكت لفقد المثل العليا عندها، إذ انهار كل شيء تؤمن به في حياتها، فبالنسبة إليهم كان انهيارَ كل شيء؛ حياتهم ووظيفتهم»[2].

شعر ضباط المخابرات على نحو خاص بالخيانة؛ فماركوس وولف، رئيس الاستخبارات الخارجية في ألمانيا الشرقية حتى عام 1986م، استاء من لامبالاة جورباتشوف بعد عام 1989م، على الرغم من أنه حصل على لجوء لمدة وجيزة في روسيا، وكتب: «لم يكن هناك

اندفاع كبير لدعمنا من قبل أصدقائنا في موسكو خلال الشهور العصيبة الماضية، فلم نكن مهيئين تمامًا لما حدث؛ فالأخوة الأبدية المفترضة التي رفعنا لها الكؤوس طوال السنين غدت اليوم كما الخرق البالية»[3]، أما هورست بوهم، رئيس جهاز أمن الدولة في دريسدن، فانتحر في منزله يوم 21 فبراير/شباط 1990م، قبل وقت قصير من الإدلاء بشهادته أمام لجنة عن مستقبل الدولة المنهارة، مع أن ثمة شائعات أكدت اغتياله؛ لمنعه من الظهور أمام محاكمة جنائية لرئيسه المستبد في دريسدن، هانز مودرو[4]. وقد علم الألمان الشرقيون بحقيقة عملية (LUCH) لـ(كي جي بي)، وجهودها التي استمرت عقودًا طويلة للتجسس عليهم. وشعر هورست جيهمليتش، مساعد بوهم، بخيانة بوتين شخصيًّا، وقال: «خدعونا وكذبوا علينا»[5].

كانت الـ(كي جي بي) في ألمانيا الشرقية في حالة من الفوضى، تسعى جاهدة إلى تدمير ملفات المخابرات أو إزالتها، في حين تُقاطِع أو تتستر على شبكات عملائها، وتضع الأسس لبناء شبكات جديدة. أمر الرئيس الأخير في دريسدن، الجنرال شيركوف، بإزالة اثنتي عشرة شاحنة من الوثائق في مقرات الفرقة المدرعة السوفييتية وتدميرها. أحرقوا كثيرًا من الوثائق حتى إن الفرن المصمم لهذه المهمة تحطم، وبعد ذلك حفر قائد الكتيبة حفرة في الأرض، وألقى بأكوام من الأوراق بها، وأمر بصب البنزين فوقها. وكذلك أقدم المقدم بوتين على حرق ملفات «كل اتصالاتنا، وقوائم اتصالاتنا، وشبكات عملائنا»، ولكن سارع هو وزملاءه إلى إعادة أهم الملفات إلى أرشيف الـ (كي جي بي) في موسكو. كان الخطر الحقيقي الكامن هو أن تنكشف أسرار الـ(كي جي بي) في الغرب وحلف شمال الأطلسي، مع أن ما سيفعله هو أو أي شخص آخر في مقر القيادة في دريسدن لِوَقف ذلك كان قليلًا.

مع بداية العقد الجديد، استُدعي المقدَّم بوتين وفريقه للعودة إلى أرض الوطن، ولكن بقيت لديه مهمة أخيرة لكونه ناشطًا في الاستخبارات السوفييتية؛ وهي متابعة تجنيد المخبرين، على أمل إنشاء شبكة جديدة من عملاء الاستخبارات تكون بمنزلة الحارس الخلفي في ألمانيا الشرقية الديموقراطية. فاتجه إلى أصدقائه القدامى وتواصل معهم، ومن

بينهم مفتش في قسم شرطة دريسدن، وضابط جهاز أمن دولة يدعى كلاوس زوتشولد، الذي التقى به أول مرة قبل أربع سنوات. وكان زوتشولد قد أخذه في إحدى جولاته المبكرة في ولاية سكسونيا، قبل وصول ليودميلا، وكان يزوره كل حين. يبدو أن زوتشولد لم يعمل قط لحساب الـ(كي جي بي) حتى بعد أحداث عام 1989م. وفي يناير/ كانون الثاني من عام 1990م جنَّده المقدَّم بوتين رسميًّا، وكان ذلك من الأعمال الأخيرة التي أنجزها، وأرسل ملفه بصفته ضابطًا في وزارة أمن الدولة (ستاسي) للمركز في موسكو للحصول على الموافقة. وهو من أملى على زوتشولد رسالة ولائه للـ(كي جي بي)، وقدم لابنته كتاب **حكايات شعبية من روسيا**، وشربا البراندي السوفييتي على نخب المناسبة[6]، ولكن هذا النجاح لم يدم طويلًا؛ فبعد عام واحد توحدت ألمانيا في أكتوبر/تشرين الأول عام 1990م، وقَبِل زوتشولد عرضًا لمنظمة العفو الدولية، ولم يكشف فقط عن تجنيد نفسه، ولكنه عرَّض خمسة عشر عميلًا آخرين للخطر كانوا يعملون في شبكة دريسدن في الـ(كي جي بي)[7].

خيانة العملاء أغضبت المقدَّم بوتين، كما أغضبه الاستيلاء على مجموعة هائلة من ملفات جهاز أمن الدولة من قبل المخابرات الألمانية الغربية، ونشرها على الملأ، لتُكشَف من ثَم أنشطة الـ(كي جي بي). وقد قال- في وقت لاحق- لصديقه القديم سيرجي رولدغن إن جهاز أمن الدولة ما كان له أن يسلم أرشيفه؛ لأن في ذلك خيانة لأولئك الذين عملوا معه مخبرين. نادرًا ما سمعه رولدغن يتحدث عن عمله، ونادرًا ما شاهده عاطفيًّا، استذكر رولدغن: «قال إن ذلك يساوي الخيانة، وكان مستاء جدًّا جدًّا، وأحس كذلك بالخجل والندم؛ فقد كان عاجزًا عن مساعدة رفاقه الألمان مع تهاوي عالمهم السري الخاص بهم». وقال لرولدغن: «شعرت وكأنها غلطتي أنا»[8].

في فبراير/شباط 1990م، ازدحمت شقة بوتين المتواضعة بالصناديق المعبأة؛ كل صندوق كتب عليه اسمه ورقمه، حتى بدت الشقة مثل غرفة تخزين. كان الـ(كي جي بي) قد انسحب، وتلاه انسحاب الجيش السوفييتي، وفجأة أخليت المساكن في دريسدن، وإذ كان لزوجة الشاب جورج هوفمان اتصالات بإدارة المدينة، فقد تمكن من الحصول على عقد

إيجار الشقة. وقف المستأجر ينظر إلى الشقة في حين انتظر بوتين وعائلته عمال الإخلاء. كانت الجدران مغطاة بورق المونيوم، وزينت النوافذ بقواطع من دمى التعشيش الروسية التي صنعتها الفتيات.

أظهر بوتين التهذيب والود، ولم يبد أي إحساس بالخذلان أو بمرارة المنسحب، أو غيرها من المشاعر، واكتفى بأن قال لهوفمان إنه عائد إلى بلاده[9]. وفي 1 مارس/آذار انتقلت أسرة هوفمان إلى الشقة.

في السنوات الأربع والنصف تمكن بوتين من توفير بعض العملة الصعبة التي حصل عليها، وكان جارهم أعطاهم غسالة مضى عليها عشرون عامًا، لكنها عملت خمس سنوات أخرى[10]، وهذا كل ما كسبه من مهنته بصفته ضابط استخبارات أجنبية. عُبئت ممتلكاتهم في حاوية شحن لإرسالها إلى موسكو، في حين ركب الزوجان وابنتاهما الصغيرتان القطار، واتجهوا أيضًا إلى موسكو، وفي رحلة العودة سرق لص معطف ليودميلا وما تحمله من روبلات وماركات[11].

كان بوتين وأسرته يتابعون عن بعد الاضطراب في عهد جورباتشوف، والاهتياج العام الذي خلَّفته البيروسترويكا والجلاسنوست، ولكن كل سوء توقعوه لم يجدوه لدى عودتهم، وكان ذلك محبطًا بالنسبة إليهم؛ فبعد الراحة النسبية التي تمتعوا بها في ألمانيا الشرقية، بدت الحياة في المنزل صادمة لهم، وقد أشارت ليودميلا إلى ذلك بقولها: «عدنا إلى المنوال الرهيب نفسه؛ البطاقة التموينية، والكوبونات، والرفوف الفارغة»[12]، كانت تخشى الذهاب إلى المتجر، وغير قادرة على «سماع المساومات، والوقوف في جميع الخطوط. كنت أتجه إلى أقرب متجر، وأشتري ما هو ضروري، وأعود إلى البيت، لقد كان أمرًا مروعًا». افتقدوا الروح الفكرية والسياسية التحررية في ذلك العهد، ونشر الأفلام المحظورة والروايات المراقبة سابقًا مثل المعلم ومارغريتا، تحفة ميخائيل بولجاكوف التي يتخيل فيها زيارة الشيطان لموسكو، أو بوريس باسترناك في كتابه **الدكتور جيفاكو**. الحرية الجديدة في القراءة،

والحوار، والتفكير العلني، تملكت عقول كثيرين، لكنهم عادوا إلى روسيا في اللحظة التي بدأت تتكشف فيها الإصلاحات واللبرلة التي دعا إليها جورباتشوف[13].

شعرت ليودميلا أن زوجها «فقد الاتصال بالهدف الحقيقي لحياته»[14]، وأصبحت مهنته ضابطًا في الـ(كي جي بي) على مفترق طرق. ولاحقًا انضم إلى تجمع رجال الاستخبارات الخارجية العائدين إلى الوطن، ليسوا العائدين فقط من ألمانيا، ولكن من كل أوروبا الشرقية وغيرها من ساحات القتال النائية والبعيدة في الحرب الباردة؛ مثل أفغانستان وأنغولا ومنغوليا وفيتنام ونيكاراغوا واليمن؛ فقد هزموا، واكتأبوا، وأصبحوا بلا عمل فعليًّا، وباتوا لاجئين نازحين من الإمبراطورية المتداعية. وكان المركز في موسكو الوجهة النموذجية للضباط العائدين من مراكزهم في الخارج، مع أنه لم يعد أي شيء نموذجيًّا بعد الآن.

في بداية عام 1990م، ومدة ثلاثة أشهر، لم يتقاضَ بوتين راتبه الشهري. عرضت الـ(كي جي بي) في البداية وظيفة له في مقر رئيس المديرية الأولى في ياسينيفو المكتظة بالأشجار، والمجمع الذي يخضع لحراسة مشددة جنوب غربي موسكو؛ فرتبته وتعيينه تؤهله لتسلم شقة في موسكو، لكن الشقة غير متوافرة بسبب العدد الكبير من قدامى الاستخبارات الباحثين عن منازل، وكان عليه أن ينتظر، ربما سنوات.

ليودميلا تحب موسكو، وتريد الانتقال إلى هناك، وهو يعي أن جميع الفرص لترقيته موجودة في العاصمة وليس في لينينجراد، ولكن شكوكه الغامضة حول مستقبل الاتحاد السوفييتي أخذت بالتعاظم، وبعد خمسة عشر عامًا، أصبحت سيرته المهنية غير منظورة، ولم تعد ملهمة له. في سنته الأخيرة في دريسدن لمس الفوضى في أجهزة السلطة، وانهيار الانضباط، وانتشرت السرقة والفوضى داخل صفوف حزبه.

التقى المدير القديم للقاعدة ومعلمه، العقيد لازار ماتفييف، الذي حطَّت به الرحال في ذلك الوقت في ياسينيفو، وفي شقة ذلك العقيد الأشيب في موسكو قال له: «لا أعرف ما يجب فعله»، فلم يفعل ماتفييف- بكل ما يحمله من حب لتلميذه السابق- شيئًا لإقناعه بالبقاء في

موسكو، أو حتى في الـ(كي جي بي)، ولكنه قاله له بإخلاص: «تحدث مع ليوديا في الأمر. اذهبوا إلى لينينجراد»[15]؛ فهناك على الأقل شقة يمكنهم العيش بها مع والديه. وكان بوتين الأب وزوجته قد انتقلا إلى مكان أكبر، وهذه المرة في سريدنيوختنسكي بروسبكت، غير بعيدة عن الأكاديمية التي تدرب بها فلاديمير أول مرة بعد التحاقه بـ (كي جي بي). لذلك قبل وظيفة مساعد رئيس الجامعة للشؤون الدولية في جامعته القديمة، وهو موقع في الـ (كي جي بي) يهدف إلى إبقاء العين على الطلاب والزوار، وهو ذو طابع (تجسسي) في نهاية المطاف، مع أن هوية المسؤولين الحقيقية في مواقع كهذه لم تعد سوى سر مفضوح ومعروف؛ فليس صعبًا أن يعرف الناس الأماكن التي تتربص بها الـ (كي جي بي) في كل مكان.

ثم التحق بما كان أوليج كالوجين، النائب السابق لمدير الـ(كي جي بي) في لينينجراد، قد وصفه بأنه «الهيكل الهرمي الهائل السخيف، هذا الجهاز المركزي المخيف، هذا الدين الذي سعى إلى السيطرة على جميع جوانب الحياة في بلادنا الشاسعة»[16].

رئيس الجامعة، ستانيسلاف ميركورييف، هو عالم الفيزياء النظرية الذي عُيِّن في وقت مبكر من ولاية جورباتشوف، ويتحدث الإنجليزية والألمانية والفرنسية، كان مصممًا على فتح النظام الخانق للتعليم العالي، وقبل وفاته بوقت قصير في عام 1993م كان قد حصل على استحسان لجعل الجامعة إحدى أفضل الجامعات في أوروبا[17]، وأحاط نفسه بمحترفين من أمثاله، وكما يعرف بكل تأكيد أنه بات آخر مفكر من الـ(كي جي بي). بالنسبة إلى الهرم في مثل سنه المخضرم الذي أمضى حياته في الـ (كي جي بي)، قد تكون الوظيفة الجامعية مريحة وسهلة، ولكنها بالنسبة إلى مقدَّم في السابعة والثلاثين من العمر لا تزال تنتظره سنوات من الخدمة، تبدو طريقًا مسدودًا، والاحتمال ضئيل اليوم بتأمين وظيفة أخرى له في الخارج؛ فالـ(كي جي بي) بدأت تتقلص في حجمها، وإنجازاته لا تكاد تستحق هذا المنصب، وسيرته في الاستخبارات الأجنبية من ثم وصلت إلى خاتمتها، ولا يمكن حتى لماتفييف أن يمد يد العون لينتشله.

أخبر سيرجي رولدغن أنه يعتزم ترك الـ(كي جي بي) تمامًا، ولكن رولدغن راودته الشكوك، وقال: «ما من شيء يسمى وكيل مخابرات سابقًا». فقد تعاطف مع غضب صديقه وارتباكه، لكنه يفهم عقليته أيضًا؛ «يمكنك التوقف عن العمل في هذه المنظمة، ولكن نظرتها إلى العالم، وطريقة تفكيرها، ستبقى عالقة في رأسك»[18].

كانت لينينجراد قد تغيرت ظاهريًّا قليلًا، لكن البيروسترويكا نفخت حياة جديدة في السياسة في المدينة، ففي مارس/آذار 1989م، حين كان بوتين وأسرته لا يزالون في دريسدن، عقدت المدن في مختلف أنحاء الاتحاد السوفييتي أول انتخابات تنافسية في تاريخ البلاد لاختيار ممثلين لشبه البرلمان الجديد: مؤتمر نواب الشعب، وبدلًا من المصادقة تلقائيًّا على قادة الحزب الشيوعي، كما كانت الانتخابات السوفييتية دائمًا، تمرَّد الناخبون في لينينجراد، ورفضوا المرشحين الخمسة الكبار، ومن ضمنهم زعيم الحزب في المدينة، يوري سولوفييف. وبدلًا منه اُنتُخب أستاذ طويل القامة، ذو شخصية كاريزمية، وأستاذ في القانون في الجامعة التي تخرج فيها فلاديمير بوتين: أناتولي سوبتشاك، المولود في أعماق سيبيريا، والذي تلقى تعليمه في لينينجراد، واكتسب مكانته من كونه ناقدًا للنظام السوفييتي، وكتب كثيرًا داعيًا إلى إصلاحات السوق، وسيادة القانون، وقد رُفضت أطروحته في الدكتوراه لكونها غير صحيحة سياسيًّا، وقد رشحه زملاؤه في كلية الحقوق على نحو غير متوقع ليكون واحدًا من أربعة مرشحين من منطقة الجامعة في جزيرة فاسيليفسكي التي تضم حوضًا لبناء السفن في منطقة البلطيق المترامية الأطراف، وآلاف الشركات لبناء السفن وتحميلها وتفريغها.

وعلى الرغم من جهود الحزب الشيوعي لحجب مرشحي المعارضة، فإن سوبتشاك تمكن من الحصول على المركز الثاني في التجمع السياسي الذي أقيم في قصر الثقافة الواقع في حوض بناء السفن، وذلك بعد إلقائه الخطاب الارتجالي في وقت متأخر من الليل، مستحضرًا كلمة الملك مارتن لوثر: «حلمت بالوقت الذي تصبح فيه دولتنا محكومة بالقانون؛ الدولة التي

لا تسمح بمنح الحقوق والامتيازات لبعض الناس على حساب الآخرين»، كما كتب في وقت لاحق[19].

على الرغم من أنه ليس لديه خبرة انتخابية، فقد ألقى سوبتشاك بنفسه في السياسة، وكان يعتقد- مثل جورباتشوف- أن النظام السوفييتي قد يتغير مع الإصلاحات، لكنه وجد نفسه والبلد غير مستعدين للحداثة الديموقراطية بعد عقود من الخوف والشك التي كان المجتمع السوفييتي قد خرج منها. خصوصيات النظام- فرض الحكومة، والإسكان، وحتى الإجازات- تعني أن معظم الناس يعيشون ويعملون داخل دائرة اجتماعية ضيقة، ويضمرون التشكيك بأي شخص خارج هذه الدائرة؛ حتى كانت عبارة: «لا تتحدث إلى الغرباء مطلقًا»، العبارة الشهيرة التي وردت في **المعلم ومارغريتا**، هي شعارَ الإخلاص في الاتحاد السوفييتي.

عاش سوبتشاك- باعترافه- حياة مريحة في أوساط المثقفين، و«مقيدة على نحو متزايد»، وعندما انطلق بحملته الانتخابية خارج محيطه، اكتشف قلة المعرفة لديه عن كيفية عيش الناس العاديين[20]. وما إن فاز في الانتخابات حتى خلق انطباعًا جيدًا عنه؛ إذ عقد الكونغرس لنواب الشعب في ربيع عام 1989م، فانضم إلى كتلة من المشرعين الإصلاحيين شملت: الفيزيائي المنشق أندريه ساخاروف، وبوريس يلتسين مسؤول الحزب الذي أصبح السكرتير الأول في موسكو، وأرهب القيادة السوفييتية والجيش والـ(كي جي بي) بحماسته وغطرسته، في جلسات الاستماع العلنية التي تبث في أرجاء البلاد الشاسعة.

رَأَس سوبتشاك التحقيق في مقتل عشرين شخصًا خلال مظاهرة ضد السوفييت في 9 أبريل/نيسان في تبليسي، عاصمة جورجيا، وفضح كذب الرواية الرسمية للحملة العسكرية هناك، وكانت اضطرابات عام 1989م قد امتدت لتشمل الاتحاد السوفييتي نفسه، مع اضطرابات ليتوانيا، وأذربيجان، وأرمينيا، وعلى الرغم من جهوده المضنية لاحتواء الوضع فإن السلطات السوفييتية لم يعد لديها عمليًّا ما يكفي من القوة للإبقاء على تماسك النظام[21].

وبعد شهر من عودة بوتين وأسرته انتخبت لينينجراد مجلس مدينة جديدًا، وفاز الإصلاحيون والمستقلون فوزًا كان كافيًا لكسر احتكار الحزب الشيوعي للسلطة البلدية. كان المشرعون الجدد جادين، ولكنهم لم يكونوا متمرسين، وكانوا غير منظمين، وتنقصهم مواصفات القادة، وقد ناشدت كتلة منهم سوبتشاك لشغل أحد المقاعد الخمسة والعشرين المتبقية، وفي حال فوزه ينافس على منصب رئيس المجلس. كانت أهمية سوبتشاك في الكونغرس لنواب الشعب في موسكو نابعة من الآمال بأنه سيكون الزعيم الذي سيوحد المدينة. وقد فاز بانتخابه، وفي مايو/أيار أصبح رئيس المجلس، والمسؤول الكبير المنتخب في المدينة.

سوبتشاك «جسد الانتقال إلى صورة جديدة من الحكومة»، على حد وصف أحد المؤرخين ذلك، حيث انتصر الأمل على المنطق[22]، فقد كان باحثًا قانونيًا، وليس مسؤولًا سياسيًا، ومن ثم فمهما تمتع بشخصية كاريزمية فإن الخبرة تنقصه ليحكم مدينة يقطنها خمسة ملايين نسمة، ولا سيما في وقت تشهد فيه اضطرابات سياسية، وتحكمها بيروقراطية عاتية يسيطر عليها الشيوعيون.وعليه؛ كان سوبتشاك بحاجة إلى الحلفاء والخبرة، ولذلك التفت إلى مؤسسة واحدة كان يعتقد أنه يمكن أن يجد فيها المساعدين الأكفياء القادرين على قيادة ما أصبح يعرف بالانتقال السياسي المفاجئ؛ التفت إلى المؤسسة التي ندد بها من منصة مؤتمر نواب الشعب؛ إلى الـ(كي جي بي).

بعد وقت قصير من توليه منصبه الجديد، اتصل أوليج كالوجين هاتفيًا بسوبتشاك، وهو مسؤول التجسس السابق الذي تعرض لدسيسة من (كي جي بي) بعد خدمته في الاستخبارات الخارجية، وتُرك على إثرها في (المنفى الداخلي) في لينينجراد، وكان كالوجين قد انضم إلى صفوف الإصلاحيين الديموقراطيين، وأصبح واحدًا من أبرز المنتقدين لوكالته السابقة، وبذلك فقد وجد سوبتشاك من يبحث عنه، فهل يمكن أن يوصي بشخص داخل الـ(كي جي بي) ويثق به فيعينه مستشارًا؟

كان متشككًا من البيروقراطية، وبحاجة إلى اتصال مع قوات الأمن، فاقترح كالوجين ضابطًا كبيرًا، برتبة ملازم عام يثق به، لكن سوبتشاك استبعد هذه الفكرة؛ إذ كان يساوره القلق من أن تحالفًا مع الـ (كي جي بي) الخارجية قد يشوه مؤهلاته الديموقراطية، ومن ثم أراد شخصًا أقل بروزًا. وبعد أيام قليلة، اتصل به سوبتشاك مرة أخرى، وسأله كالوجين هل سمع عن ضابط شاب يدعى فلاديمير بوتين[23].

يرى بعضهم أن للـ(كي جي بي) يدًا في توجيه الضابط الشاب إلى مكتب سوبتشاك، ولكن وفقًا لكالوجين فإن سوبتشاك هو الذي جنَّده. أما فلاديمير بوتين فيتذكر سوبتشاك من محاضراته في كلية الحقوق، ولكن لا يعرفه جيدًا. وفق تفسيره الخاص، فقد كان له صديق في كلية الحقوق اقترح عليه أن يذهب ويرى سوبتشاك، وهو ما فعله بقلق؛ فمن الصعوبة أن يتفق مع بعض انتقادات سوبتشاك الكثيرة للـ(كي جي بي)، كما أن المستقبل السياسي لسوبتشاك ضعيف في أحسن الأحوال، مثل أي شيء في الاتحاد السوفييتي في عام 1990م، وعلى الرغم من ذلك ذهب، في شهر مايو/أيار، إلى مكتب سوبتشاك الجديد في قصر ماريانسكي، ووظفه سوبتشاك على الفور، وأخبره أنه سيرتب نقله للعمل مع ميركورييف، وأن يباشر عمله يوم الاثنين المقبل. هناك وجد بوتين نفسه مضطرًا إلى أن يكشف عن مهنته الفعلية؛ فقال لسوبتشاك: «لا بد لي أن أقول لكم إنني لست مجرد مساعد لرئيس الجامعة، فأنا ضابط منتظم في الـ(كي جي بي)».

وحسب ما يذكر بوتين، فإن سوبتشاك تردد وقتها، وكانت مفاجأة لبوتين حين صرف النظر عن هذه المسألة، قائلًا له: «لا ضير في ذلك!»[24].

أصر بوتين أن عليه أن يبلغ رؤساءه، وإذا لزم الأمر فإنه سيستقيل من الـ(كي جي بي)، ويذكر أصدقاؤه أن اتخاذ هذا القرار تسبب له بألم كبير؛ فالـ (كي جي بي) هي المؤسسة التي خدمها بإخلاص، ولكن ظنه خاب؛ فكل تلك المخاوف التي كانت تجول في صدره من

رد فعل المركز بدت في النهاية في غير محلها؛ إذ كانت الـ (كي جي بي) سعيدة أن ترى أحد ضباطها يعمل على نحو سري في مكتب النجم السياسي الصاعد في لينينجراد.

مثلت هذه التجربة الديموقراطية الجديدة- بعد كل شيء- شيئًا خطيرًا يتطلب اليقظة الدائمة؛ وهكذا بقي المقدَّم بوتين في الخدمة بمباركة من الـ(كي جي بي)، وربما بإصرار منها، يتسلم راتبه الضئيل والثابت، وهو أكثر مما حصل عليه من عمله مستشارًا لسوبتشاك، وبات يعيش اليوم حياة مزدوجة؛ حياة عميل سري لكن داخل بلده، وبدأ بتقديم المشورة لسوبتشاك، واستمر في العمل في مكتب صغير في الطابق الأول من مبنى الاثنا عشر في الكلية الحمراء والبيضاء في الجامعة؛ مهمته هناك مراقبة الطلاب والزوار الأجانب الذين يصلون بأعداد متزايدة، بعد أن خففت الجلاسنوست القيود المفروضة على السفر. ولم يعد يعمل في البيت الكبير في لايتيني بروسبكت، لكنه ظل يزوره في بعض الأحيان، ولأغراض يمكن أن تنحصر فقط في الحفاظ على علاقته برؤسائه، وإخبارهم بالسياسة المتغيرة يوميًّا في الجامعة ومكتب سوبتشاك.

عندما وصل وفد من سانت بطرسبورغ من كلية المجتمع في ولاية فلوريدا في خريف عام 1990م للتبادل التعليمي، كان العقيد هو الذي استضافهم، واستضاف رئيس الكلية الموثوق به، كارل كوتلر.

التقى كوتلر مستشار بوتين في الجامعة، فاليري موسين، عندما زار ولاية فلوريدا، واقترح إقامة روابط بين المدينتين والجامعتين. وعندما وصل كوتلر والوفد المرافق له، اجتمع بوتين بهم في المطار، وأمضى عشرة أيام يرسم جميع الترتيبات لاجتماعاتهم؛ من وجبات الطعام، إلى الحفلات الموسيقية السيمفونية والباليه، وقد فعل ذلك بدقة في المواعيد والكفاءة التي فاجأت كوتلر، على الرغم من تدهور الأوضاع الاقتصادية في المدينة، ولا سيما النقص الحاد في البنزين، الذي أنتج طوابير طويلة تبعث على الإحباط، وعندما ذهب كوتلر في رحلة

خارج المدينة، كادت السيارة الحكومية الليموزين تقع في خطر نفاد الوقود، فتدخل بوتين بتوجيه السيارة إلى قسم الصرف الصحي في المدينة، حيث يمكن تزويدها بالوقود اللازم.

بدأت حياته المهنية المزدوجة تتقاطع على نحو متزايد، وقد عرف كوتلر بسوبتشاك، وخلال مأدبة في الليلة الأخيرة طلب سوبتشاك من كوتلر أن يقدم له خدمة قائلًا: «كارل، هل لك أن تسدي لي خدمة؟ ليس لدينا كثير من المال للسفر»، وكان سوبتشاك حينها قد بدأ يفكر في السفر خارج البلاد ويريد العودة مرة أخرى إلى الولايات المتحدة، «هل تدفع ثمنها؟»[25].

قدم كوتلر المال لسوبتشاك الذي سافر بعد شهر، وفي واشنطن التقى الرئيس جورج إتش دبليو بوش، وكبار قادة الكونغرس، ونقلت شركة بروكتر وغامبل وفد سوبتشاك إلى كليفلاند ليوم واحد، ومكث في ولاية فلوريدا في منزل كوتلر على الخليج، حيث تعجب من القيود البيئية التي تمنع قطع شجرة واحدة دون الحصول على إذن من السلطات البلدية[26]. استفاد بوتين من رحلة أمريكا إذ قرر سوبتشاك ترقيته ليصبح موظفًا دائمًا في عام 1991م. وقد تذكر سلوك كوتلر في المأدبة؛ فعندما جاء وقت الرد بالمثل على النُّخَب، طلب كوتلر من الضيوف المدهوشين عقد اليدين، وتلا صلاة: «صلوا لجامعتنا»، فذكَّره بوتين أنه حين التقيا قبل عقد من الزمان: «صليتم لجامعتنا، وصليتم لمدينتنا، وصليتم لبلدنا، وصليتم لي»، وشكك كوتلر أن يكون مساعد الجامعة الشاب قد سمع صلاة من ناحيته، ولم يتصور أن مضيفه ضابط في الـ(كي جي بي)[27].

أصبح مستقبل المقدَّم بوتين اليوم مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا برجل يميل إلى الاقتباس من الشعراء الكلاسيكيين، وبما نطقوا به ذات مرة من إبداع. «نحن جميعًا مصابون بعدوى النظام إلى حد ما»، هذا ما كتبه سوبتشاك بعد عام واحد، وبعد أن أصبح لديه مستشار، مستذكرًا كتاب **الفارس البرونزي** لبوشكين، وما أسماه (متلازمة النظام): «منذ ولادتنا تعلمنا التعصب والشك والخوف الشديد من الجواسيس». كان سوبتشاك يتصور اتحادًا

سوفييتيًّا جديدًا يقدم العدالة والأمل والديموقراطية، «دولة طبيعية وحضارية لا تحتاج أن تذبح نصف سكانها لجعل النصف الآخر سعيدًا»[28].

الرجلان كانا ثنائيًّا غريبًا؛ فهما يختلفان في العمر، وفي المزاج، وفي الفلسفة؛ فقد كان سوبتشاك شخصية كاريزمية وثابة، وكان بوتين محافظًا، شكاكًا بطبيعته، وكتومًا ملتزمًا السرية، وهو مع أنه لا يشارك سوبتشاك العداء للاتحاد السوفييتي، فإنه اشتغل لرئيسه الجديد بإخلاص كما لو كان أحد قادة الـ (كي جي بي)، ومع الزمن بدأ استيعاب بعض من آرائه.

وعلى الرغم من استقالة ضباط آخرين في المخابرات، من حيث المبدأ، أو سعيًا وراء طرق جديدة لكسب المال، ظل بوتين محافظًا على رهاناته؛ لم يقطع الطرق مع الوكالة كما فعل كالوجين، ولم يندم على خدمته، ولن يندم أبدًا. قال أحد رؤسائه في لينينجراد الذين خدموا أيضًا في ألمانيا الشرقية، يوري ليشتشيف، إن خدمة الـ(كي جي بي) بالنسبة إلى بوتين كانت «عملًا مقدسًا»[29]. وقد سحبه سوبتشاك عميقًا للانخراط في السياسة الجديدة للعصر، فكان يعمل لحساب النظام السابق، ومع أولئك الذين انقلبوا عليه.

أثبتت الديموقراطية في مجلس مدينة لينينجراد أنها ما تزال غير ناضجة؛ إذ لم يتوقف أعضاؤه عن التشاجر بعضهم مع بعض، ومع سوبتشاك، على صلاحيات الرئيس، ولم يقدموا إلا قليلًا لتلبية الاحتياجات الملحة للمدينة؛ من إسكان وإطعام ونقل.

وفي صيف عام 1990م كان الاقتصاد السوفييتي يترنح على حافة الانهيار، ولينينجراد ومدن أخرى بدأت تنفد فيها المواد الغذائية الأساسية؛ وأفرغت رفوف مخازنها الضئيلة الأولى من الشاي والصابون، ثم السكر والسجائر، حتى الفودكا. وبعد عودة سوبتشاك من الولايات المتحدة بمدة وجيزة، حيث زار مخزن كمارت المتميز بتخزينه الجيد في إسكندرية فيرجينيا، أَجْبَر المجلس على إدخال البطاقات التموينية، ولم تكن المجاعة قاسية بسبب السوق السوداء المزدهرة، وإنما بسبب التقنين الذي استحضر الذكريات المرعبة للحصار،

وقد قال سوبتشاك دفاعًا عن الخطة: «الديموقراطية تواجه شتاء جائعًا، ومن المهم أن تبقى الديموقراطية على قيد الحياة في هذا الشتاء»[30].

بحلول ذلك الوقت بدأت الـ(كي جي بي) والقادة العسكريون السوفييت بوضع خطط طوارئ لفرض الأحكام العرفية، وفي يناير/كانون الثاني 1991م، أمر جورباتشوف الجيش باستعادة الحكم الشيوعي في ليتوانيا بعد أيام من الاحتجاجات، ناقضًا إعلان الجمهورية الاستقلال في العام قبل الماضي، وقد ترافق الهجوم بهجوم الدبابات على برج التلفاز في العاصمة فيلنيوس، وقتل أربعة عشر شخصًا، لكن ظل قادة ليتوانيا يتحدَّون موسكو مع الضغط قدمًا لإجراء استفتاء على الاستقلال في فبراير/شباط، الذي أعلن جورباتشوف أنه غير قانوني.

في يونيو/حزيران أجرت روسيا الانتخابات الرئاسية الخاصة بها، وأصبح بوريس يلتسين المنتخب شرعيًّا للحكم الثقل الموازي لحكم جورباتشوف الذي يعاني على نحو متزايد من عدم الانتظام وعدم الشعبية. وفي الشهر نفسه، استفاد سوبتشاك من الانتخابات الوطنية ليفوز بانتخابات السلطة التنفيذية المنشأة حديثًا التي ستمارس السلطة على مجلس المدينة التشريعي غير الفاعل، وكان المجلس، قبل شهر من ذلك، قد اضطر إلى استحداث منصب رئيس البلدية، وكان هو الوحيدَ المؤهل للفوز به. وكان أعضاء المجلس على نحو متزايد يرفضون أن يكون سوبتشاك رئيسًا لهم، وكانوا يأملون أنهم بإنشاء فروع منفصلة للحكومة، يمكن أن يقيدوا صلاحياته بصفته قائدًا في المدينة. أجرت لينينجراد أيضًا استفتاء غير ملزم لاستعادة اسم المدينة قبل الثورة؛ سانت بطرسبورغ، ومع أن سوبتشاك قد عارض التغيير في البداية، لكنه قاد حملة لاستعادة اسم المدينة بدهاء وكياسة، ووصف التغيير بأنه التطور الطبيعي لرؤية بطرس الأكبر في المدينة لكونها «نافذة على أوروبا»، وعرض إزالة جثة لينين من الساحة الحمراء ودفنه مع أقاربه في لينينجراد، وذلك تماشيًا مع آخر رغبة ووصية للثورة، وقد لاقى عرضه قبولًا واحترامًا من أولئك الذين ما زالوا يبجلون لينين، واسترضى أولئك الذين يريدون وضع حد لعبادة الفرد التي لا تزال تحيط به[31]، ولما جاءت الانتخابات،

فاز سوبتشاك بـ 66 في المئة من الأصوات، في حين صوتت الأغلبية الأقل 54 بالمئة لتغيير اسم المدينة[32].

لم يمارس فلاديمير بوتين أي دور في سياسة انهيار الاتحاد السوفييتي، فلم يستحق أي ظهور في المذكرات المعاصرة وتاريخ الأحداث الجسام لعام 1991م، ولا حتى في مذكرات سوبتشاك التي كتبت في العام الذي بدأ فيه بوتين العمل معه. ظل الموظف الشاب، الذين اعتاد على العمل على قدر رتبته، وفي الظل، على ولاءاته وتوكله على القدر، على الرغم من أنه بات الآن برفقة زعيم المدينة السياسي بلا منازع، الذي يذكره كثيرًا بأنه سيكون على الأغلب الرئيس المستقبلي لكل روسيا.

بعد انتخابات سوبتشاك أنهى بوتين عمله في الجامعة، وفي يونيو/حزيران 1991م التحق بفريق البلدية بصفته رئيسًا للجنة الجديدة للعلاقات الخارجية في المدينة، جاعلًا من نفسه الشخص الذي لا يستغنى عنه؛ فهو هادئ، وحصيف، وشديد الحضور، ويعمل في مكتب قليل التأثيث، وكان يعمل بلا كلال، وبكفاءة و«تصميم لا يلين»، كما وصفه أحد زملائه، وحصل على لقب غير مؤثر (ستاسي) فقط لخدمته في ألمانيا الشرقية[33].

لم تنس الـ (كي جي بي) ضابطها في صفوف سوبتشاك، وفي إحدى الأمسيات شوهد زملاء بوتين في مكتبه بعد أن ذهب سوبتشاك في رحلة، وترك لمساعديه ثلاثة أوراق فارغة، كل منها موقعة وممهورة بتوقيعه، لاستكمال أعمال البلدية المتنوعة، وقد يكون هذا اللقاء محض مصادفة وربما غير ذلك. الضباط الذين جاؤوا إليه أرادوا أحدهم لفعل شائن، وهذ الشخص لم يعرف، أو ربما لم يخبره أحد؛ «ألا ترون أن هذا الرجل يثق بي؟» ذلك ما ادعى بوتين في وقت لاحق أنه أجابهم به، وأراهم الملف وبداخله الأوراق[34]، وكان رفض بوتين لطلبهم قطعيًّا، لكنهم هم أيضًا لم يصروا، بل ببساطة اعتذروا وغادروا.

في 17 أغسطس/آب 1991م ذهب بوتين وعائلته في إجازة، متجهًا بسيارته إلى كالينينجراد للبقاء في منتجع على كورونيان سبت، وهو هلال ضيق من الشواطئ والكثبان

والغابات على بحر البلطيق[35]، في حين كان سوبتشاك يقضي عطلة نهاية الأسبوع في ليتوانيا لمناقشة رؤيته لاتفاقية التجارة الحرة، ثم انتقل جوًّا إلى موسكو، ليلة 18 أغسطس/آب، للمشاركة بعد يومين في التوقيع على معاهدة الاتحاد الجديدة التي ستحل على نحو فعال الدولة السوفييتية المركزية. وكان ميخائيل جورباتشوف، وبوريس يلتسين، وزعيم الحزب في كازاخستان، نور سلطان نزارباييف، قد تفاوضوا سرًّا على اتفاق لنقل مهام الحكومة المركزية إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الفردية، وهو ما يضعف إلى حد كبير من السلطة المركزية للكرملين.

لكن الحفل لم يجر قط؛ ففي تلك الليلة، وداخل الكرملين، كانت مجموعة من المتشددين قد بدأت بالفعل بحركة انقلاب، ووضع جورباتشوف تحت الإقامة الجبرية في منزله المخصص للعطل والإجازات في شبه جزيرة القرم، وأنشئت لجنة الدولة لحالة الطوارئ، شملت قادة الانقلاب ونائب الرئيس جورباتشوف جينادي ياناييف، والوزير الأول، ووزراء الدفاع والداخلية، وفلاديمير كريوتشكوف الرئيس السابق للاستخبارات الأجنبية واليوم رئيس الـ(كي جي بي). وصدرت الأوامر الرسمية للجيش والمخابرات بالتحرك والسيطرة في الساعة الرابعة من صباح 19 أغسطس/آب.

استمع بوتين وعائلته إلى الأخبار بالطريقة نفسها التي استمعت بها معظم البلاد، أولًا من خلال سلسلة من الإعلانات الإذاعية، وبعد ذلك في النشرات الخاصة على التلفاز الرسمي حيث توقف بث **بحيرة البجع**. أما سوبتشاك فقد استيقظ في غرفة فندقه في موسكو عندما اتصل به هاتفيًّا صديق من كازاخستان ليعلمه بالخبر، وقد تدفقت الدبابات وقوات المظليين في عربات مدرعة إلى شوارع موسكو. ذهب سوبتشاك، ومعه الحرس والسائق، إلى منزل يلتسين الريفي، للانضمام إلى قيادة البرلمان الروسي المنتخب حديثًا لتنظيم المقاومة، وكان اسم سوبتشاك، ومثله يلتسين، على لائحة مذكرة الـ(كي جي بي) لتوقيفهم، ولكن الاعتقالات لن تبدأ بتاتًا. حث يلتسين سوبتشاك على العودة إلى لينينجراد وقيادة المعارضة

للانقلاب من هناك، فوصل سوبتشاك مع حارس وحيد إلى مطار شيريميتيفو وحجز على الرحلة المقبلة المقررة إلى لينينجراد. مدبرو الانقلاب، على الرغم من إعلانهم حالة الطوارئ، سمحوا للحياة أن تسير كالمعتاد أو أقل قليلًا، ومن ذلك السفر الجوي الروتيني، وكان الضباط الثلاثة في المخابرات الذين التقوا به في صالة المطار ولديهم أوامر لإلقاء القبض عليه، عصوا الأوامر وانتظروا معه حتى استقل رحلته، هذا ما ذكره سوبتشاك، معقبًا: «وهكذا أصبح لدي اليوم أربعة حراس، ثلاثة منهم بمدافع رشاشة»[36]، وتحول الانقلاب الذي خشي الإصلاحيون من حدوثه منذ مدة طويلة إلى مهزلة.

في لينينجراد تلقى القائد العسكري في المدينة، العقيد الجنرال فيكتور سامسونوف، أيضًا أوامر لنشر القوات، وذهب إلى التلفاز في الساعة العاشرة من صباح يوم الإعلان عن حالة الطوارئ، وحظر أي تظاهرات وتجمعات عامة، وحل جميع الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية التي ظهرت مثل الفطر في العامين السابقين، وأعلن تشكيل لجنة طوارئ تحل محل حكومة المدينة المنتخبة حديثًا، وضمت اللجنة العسكرية المحلية قادة الـ(كي جي بي)، وزعيم الحزب الشيوعي الجديد، بوريس غيداسبوف، وكان اسم سوبتشاك غائبًا بوضوح، ولكن ليس هذا من الأدميرال البحري فياتشيسلاف شيشرباكوف الذي اختاره سوبتشاك نائبًا له، ومن ثم نائب عمدة لاحقًا؛ فهو أيضًا كان في منتجع على البحر الأسود، وبعد عودته إلى لينينجراد تنصل من أي تورط له في الانقلاب. وفي الوقت الذي كان فيه سوبتشاك على متن رحلته مغادرًا موسكو ليصل في الساعة الثانية، لم تكن أي قوات قد دخلت المدينة، ولم ينفذ قرار الجنرال سامسونوف.

أرسل قائد شرطة المدينة، أركادي كراماريف، سيارة أقلّت سوبتشاك مباشرة إلى مقر قيادة الجيش في ساحة القصر، مقابل الأرميتاج، حيث تجتمع لجنة الطوارئ في لينينجراد. كان كراماريف هناك حقًّا، يرفض علنًا أوامر سامسونوف بإخلاء الشوارع من المحتجين الذين بدؤوا يتجمعون أمام مقر مجلس المدينة في قصر ماريانسكي.

انفجر غضب سوبتشاك، واتهمهم بتدبير مؤامرة غير قانونية ستؤدي إلى «نورمبيرغ خاصة بهم»، متجاهلًا غيداسبوف، رئيس الحزب الذي أراد أن يحل محله قائدًا للمدينة، وركز غضبه- بدلًا من ذلك- على الجنرال سامسونوف، وأشار إلى جرائم بعض القادة العسكريين الذين استخدمهم قادة حزبيون فاسدون أو مجرمون في الحزب، من ذلك عمليات القتل في جورجيا التي حقق بها.

بصفته رجل قانون، رفض شرعية أوامر الجنرالات حول الشيء التقني الذي اتخذوه، والذي لا يخوِّل بوضوح فرض حالة الطوارئ في لينينجراد، وقال كراماريف في وقت لاحق، إن سوبتشاك وبخ الجنرال بكلمات من المؤكد لم يسمعها طوال سنوات خدمته[37]، قال له سوبتشاك: «إذا كنت تتخذ خطوة مصيرية اليوم، فالجميع سيتذكرون أنك كنت خائنًا وجلادًا»[38]، وسواء بسبب غضب سوبتشاك أو بسبب منطقه، فقد وعد الجنرال بإعادة النظر في نشر القوات، وتوقفت لساعات حاسمة.

ثم سارع سوبتشاك إلى محطة التلفاز في المدينة، وتحدث مباشرة على الهواء مساء ذلك اليوم، حيث ظهر مع ششيرباكوف ويوري ياروف زعيم المنطقة التشريعية، اللذين أُعلن أنهما قائدان محليان للجنة الطوارئ، ولكن الآن أصبح واضحًا للجمهور أنهما لم يؤيدا الانقلاب. القنوات التلفازية الوطنية في موسكو تم الاستيلاء عليها، ولكن القنوات في لينينجراد ظلت تبث في معظم أنحاء الاتحاد السوفييتي، وترك مدير المحطة البث متواصلًا كالمعتاد ما دام ششيرباكوف هناك، لكونه اليوم مسؤولًا[39]. الملايين سمعوا تصريحات سوبتشاك، وبدا واضحًا لهم أن الانقلاب يواجه مقاومة؛ «مرة أخرى، هناك محاولة لعرقلة مسار شعبنا في الحرية والديموقراطية والاستقلال الحقيقي»، هكذا بدأ سوبتشاك، وحثَّ السكان على التجمع في صباح اليوم التالي في ساحة القصر، وأشار إلى أن قادة الانقلاب وزراء (سابقون)، ومن ثم أصبحوا ببساطة (مواطنين) استُدعوا بصفتهم مدعى عليهم في المحكمة[40].

طوال ذلك اليوم الأول الحاسم، بقي فلاديمير بوتين في منتجع على الشاطئ يبعد أكثر من خمس مئة ميل، واتصل بسوبتشاك بالهاتف ليلة 19 أغسطس/آب، ولكنه لم يعد فورًا، وكان حريًّا به أن يعود، وانتظر- بدلًا من ذلك- حتى اليوم التالي، حيث التحق برحلة منتظمة من كالينينجراد[41]، كان- بكل المقاييس- مترددًا جدًّا؛ فمنذ سنة ونصف عاد من الإمبراطورية السوفييتية المنهارة في أوروبا الشرقية مستاء مما عدَّه التخلي عن دولها الرفيقة، ومن الانسحاب المهين لقواتها وضباط المخابرات، وانتصار حلف شمال الأطلسي والغرب، والرأسمالية. اليوم الاتحاد السوفييتي نفسه يختفي في طبقات وجمهوريات، حتى روسيا، وينتقل بتدهور حتمي نحو الاستقلال، وذلك يعني تمزيق بلاده وتفكيكها، وقادة الانقلاب- كما سيقول في وقت لاحق- يهدفون ببساطة لوقف ذلك، وقد عدَّ أن هذا هدفهم النبيل. وقد عدَّ رئيسَ الـ(كي جي بي) كريوتشكوف، رجلًا مغرورًا وثقيل الظل متواطئًا، وكان سابقًا يرى فيه «رجلًا محترمًا جدًّا»[42]، ومع أن نيات كريوتشكوف كانت واضحة، فإن ولاءاته لـ (كي جي بي) لم تكن ذلك؛ فكثير من الضباط الموالين للحكومة الروسية الجديدة ساعدوا بوريس يلتسين والمعارضين للانقلاب بالمخابرات وحتى بالصحافة، وحتى بعض الضباط من رتب أصغر صاغوا بيان استنكار للانقلاب[43]، أما المقدَّم بوتين، فلأنه يعمل اليوم مع أحد الديموقراطيين البارزين في البلاد، فيجب عليه تحديد موقف.

بعد مدة وجيزة من فجر يوم 20 أغسطس/آب، ذهب سوبتشاك إلى مصنع كيروف المترامي الأطراف، الذي ينتج الدبابات، والجرارات، والتوربينات المستخدمة في الغواصات النووية في الاتحاد السوفييتي وكاسحات الثلوج. المصنع الأكبر في المدينة كان هو الأسطورة في الميثولوجيا السوفييتية، بسبب دوره في الحرب الوطنية العظمى، حين ظل مفتوحًا طوال الحصار، على الرغم من كونه على مسافة ميل فقط من الجبهة. سعى سوبتشاك إلى أن يصل قبل انتهاء النوبة الصباحية؛ لحشد المصنع المؤلف من ثلاثين ألف عامل، وعندما وصل تحدث من أمام سيارة مزودة بمكبر صوت، وبعد ذلك عرض مديرو المصنع السماح للعمال بالانضمام إلى المسيرة التي دعا إليها في ساحة القصر، وبذلك بات المصنع، والشرطة،

ومعظم المسؤولين المنتخبين في المدينة، يتحدون علنًا الانقلاب. تظاهر آلاف العمال في كيروف في صفوف منتظمة تصل من أعالي ستاتشك بروسبكت إلى وسط المدينة، وقد قال ميكانيكي من بينهم: «إنهم يعرفون عواقب هذا»، وأضاف: «لقد شعروا بأنهم شعب وبشر، وقد وضعوا الخوف خلف ظهورهم»[44].

كان الحشد الذي تجمع في ذلك اليوم أكبر ما شهدته لينينجراد منذ عقود؛ فأكثر من 130 ألف شخص تجمهروا في ميدان القصر والشوارع المجاورة والكتل من حولها، وعلقت خارج متحف الأرميتاج لافتة كتب عليها: (لا للانقلاب العسكري!)، وعلى خلاف الجو المتوتر في موسكو، حيث استعد المحتجون لتحركات تقودها وحدات مدرعة في المدينة، كانت التظاهرة منظمة ومأمونة، يشرف عليها ضباط الشرطة وجهاز المخابرات الذين يفترض أن يحولوا دون حدوث ذلك.

ووفقًا لتقرير إحدى الصحف، فقد ناقش سوبتشاك خطط التظاهرة حتى مع رئيس (كي جي بي) المحلي، وقد وافق كوركوف على أن يكون هذا الحشد هادئًا[45]. تحدث سوبتشاك باختصار، تلاه ديمتري ليخاشيف، اللغوي المبجل، والمحافظ، والمؤرخ الذي نجا من الغولاغ والنفي، الذي قال للمتظاهرين: إن الشعب «لن يجبر بعد اليوم على الركوع». في مساء ذلك اليوم، ظهر سوبتشاك في الدورة الاستثنائية لمجلس المدينة في قصر ماريانسكي، وقال: إن «الوضع في لينينجراد تحت سيطرة هيئات السلطة الشرعية كليًّا»، وأعلن أن الانقلاب قد انهار في لينينجراد قبل أن ينهار في أي مكان آخر.

وصل بوتين من كالينينجراد بعد ظهر ذلك اليوم، ولكنه لم يحضر التظاهرة الحاشدة في ساحة القصر، وانضم إلى سوبتشاك في قصر ماريانسكي وبقي هناك. كان قد شاهد أداء (القائم بأعمال الرئيس الجديد) للاتحاد السوفييتي، غينادي ياناييف، الذي عقد مؤتمرًا صحفيًّا في الليلة السابقة؛ شاهده وهو يكرر أكاذيب لجنة الطوارئ حول صحة جورباتشوف، وتعهد بوضع حد لـ«متاعب الوقت الحالي»، مشيرًا إلى الاحتلال، والحرب،

والمجاعة التي أعقبت وفاة بوريس غودونوف في مطلع القرن السابع عشر، «وبعد أن شرعنا في مسار الإصلاحات العميقة، وقطعنا شوطًا كبيرًا في هذا الاتجاه، وصل الاتحاد السوفييتي اليوم إلى النقطة التي وجد فيها نفسه في مواجهة أزمة عميقة، تفاقمها قد يضع مسار الإصلاحات نفسها موضع تساؤل، وقد تؤدي إلى كوارث خطيرة في الحياة الدولية»، قال هذا ياناييف بصوت مضطرب ويداه تهتزان، وبدأ الصحفيون الحاضرون بطرح الأسئلة الفاحصة، حتى إنهم ضحكوا من إجاباته غير المتوقعة.

عرف بوتين وقتها أن مصير الانقلاب الإخفاق، وبغض النظر عن عمق ولائه للـ(كي جي بي)، فإنه لم يتبع أوامر لجنة الطوارئ، حتى وإن أيَّد نيتها بالحفاظ على الاتحاد، فجهودهم لتأكيد السلطة السوفييتية تعني نهاية هذه السلطة، يقول: «حتى ذلك الوقت لم أكن أفهم التحول الذي يجري في روسيا». تذكر عودته من ألمانيا الشرقية «كل المثل العليا، وكل الأهداف التي وضعتها عندما ذهبت للعمل في الـ(كي جي بي)، انهارت»، واليوم سيكون تضامنه مع سوبتشاك بمنزلة انتهاك لأدائه اليمين. وهكذا، وبعد ستة عشر عامًا من الخدمة في الـ(كي جي بي)، يعلن استقالته.

كانت- كما ادعى- استقالته الثانية، إذ كان قد بعث برسالة مماثلة قبل عام، وإن كانت في أوضاع أقل خطورة بكثير. خلال الاضطرابات السياسية المحيطة بمجلس المدينة، ثم مكتب رئيس البلدية، واجه بوتين الغمز حول خلفيته الاستخباراتية؛ إذ رأى بعض الناس أن ذلك قد يساعدهم، في حين هدد آخرون بفضح ذلك، وفي كلتا الحالتين أرادوا شيئًا من بوتين؛ وكان «متألمًا ومتعبًا من الابتزاز الوقح»[46]. أراد حماية سوبتشاك وسمعته، وكان قد حذره قبل أن يصبح مستشارًا له، وذكر أن هذا كان أصعب قرار في حياته، لكن كتب استقالته وأرسلها. وقتئذ، لم يحدث شيء، ولم يسمع أي شيء عن رسالته التي اختفت في التسلسل البيروقراطي، إن كانت قد وصلت أصلًا، ولم يبذل هو أي جهد للمتابعة، في تناقض لم يقدم تفسيرًا كافيًا له. وهذه المرة، في وسط الانقلاب المضطرب، أخبر سوبتشاك بقرار استقالته، وهو ما يبدو واضحًا لرئيسه ومعلمه أنه انحاز له.

على الرغم من الاحتجاج الشعبي الكبير ضد الانقلاب، فقد ظل الوضع غير مستقر في لينينجراد، وأصدر يلتسين، بصفته رئيسًا لروسيا، قرارًا بتعيين ششيرباكوف القائد العسكري لمنطقة لينينجراد، ليحل محل الجنرال سامسونوف، الذي خضع بهدوء لتحذيرات سوبتشاك بالبقاء على الهامش. نظم بوتين الدفاعات في ماريانسكي، مسلِّمًا المسدسات لمستشاري سوبتشاك، مع أنه ادعى في وقت لاحق أنه احتفظ بمسدس الـ (كي جي بي) في خزانته، كما كان في دريسدن. وبقي بضعة آلاف من المتظاهرين خارج الساحة، للحفاظ على الوقفة الاحتجاجية المتوترة وراء متاريس بحيث يكون لها ولو أثر صغير في صد الهجوم العسكري المحدد، ومن ثم وجد نفسه مرة أخرى داخل مبنى تحيط به مجموعة غوغائية متوترة تطالب بالحرية، ولكن هذه المرة كان إلى جانبها عند الحاجز.

انتشرت شائعات عن عمل عسكري وشيك، وشاع تقرير قرابة الساعة الثالثة صباحًا بأن نخبة من قوات العمليات الخاصة انتشرت من مكان سري داخل المدينة، وسوف تزحف على مكتب سوبتشاك، قال ششيرباكوف لسوبتشاك: «يمكنهم كنسنا في خمس دقائق»، وللحفاظ على سلامتهما، فرَّ سوبتشاك وبوتين، وأمضيا ليلتهما في مصنع كيروف.

قبل فجر يوم 21 أغسطس/آب، كان الانقلاب قد سُحِق، وتحرر جورباتشوف من الإقامة الجبرية وعاد إلى موسكو، وبدا أن بوريس يلتسين، الوجه العلني للمقاومة، سيصبح زعيمًا للأمة الروسية الجديدة التي ظهرت، وأصبح سوبتشاك، الذي قاد المقاومة في لينينجراد، واحدًا من الديموقراطيين الجدد وأبرزهم في البلاد. أما فلاديمير بوتين فقد انحاز- من غير إرادة منه هو- إلى الجانب المنتصر من انهيار الاتحاد السوفييتي، ومع ذلك لم يشارك في النشوة التي شعر بها كثير من الروس؛ بل على العكس، كانت التجربة بالنسبة إليه تجربة صعبة، وقد وصفت ليودميلا وأصدقاؤه تلك المرحلة بأنها أحلك أيام حياته، وقال عنها: «في الواقع لقد مزقت حياتي أيما تمزيق»[47].

العقيد ليشتشيف، الذي كان أعلى منه رتبة في مقر الـ(كي جي بي) في لينينجراد، قال إن استقالة بوتين فيها من الواقعية أكثر مما فيها من المثالية؛ «فالمستقبل غير واضح على الإطلاق، مثلما أن الغموض يكتنف ما سيؤول إليه جهاز المخابرات»[48]، لقد كانت مخاطرة محسوبة؛ فلو نجح الانقلاب كان سيواجه الاعتقال، وفي الحد أدنى سيظل عاطلًا عن العمل بعد أن استقال من منصبه. وكما حدث، انتظر حتى خفتت قوة الدفع التي تحولت ضد الانقلاب.

كان ليونيد بولوخوف، الذي درس القانون معه في جامعة لينينجراد الحكومية، والذي أصبح في وقت لاحق مدعيًا عسكريًّا يفرض عقوبات شديدة في الجيش السوفييتي في عهد الجلاسنوست، قد أصيب بالذهول عندما علم أن صديقه ترك الخدمة، وقال عن ذلك: «فلوديا أدهشني مرتين؛ مرة عندما انضم إلى الـ (كي جي بي)، والثانية عندما ترك الخدمة فيها»[49].

الجزء الثاني

الفصل الخامس

الجواسيس يأتون من البرد

أمضى إيجور شادخان أربعة أشهر عام 1991م بتصوير فيلم وثائقي في نوريلسك، المدينة الصناعية قارسة البرد في أقصى شمالي سيبيريا. هذا المكان، فوق الدائرة القطبية الشمالية، الذي لا يكاد يصلح للسكن، وتكمن تحته بعض المعادن الأكثر قيمة على الأرض: النيكل والنحاس والمعادن الأخرى، وبدءًا من الثلاثينيات شيد الاتحاد السوفييتي معسكر اعتقال، ومن ثم مدينة لاستخراج الثروات من المناجم التي امتدت لأميال تحت سطح الأرض، وكان شادخان هناك لتوثيق الحقيقة المظلمة التي ما كان لها أن تُكشف قبل الجلاسنوست: لم تكن نوريلسك فتحًا سوفييتيًّا مجيدًا للطبيعة؛ كانت جزيرة مجمدة مهجورة من معسكرات العمل في أرخبيل الغولاغ، بنيت على عظام أولئك الذين فقدوا حياتهم هناك.

يبلغ شادخان الواحدة والخمسين من العمر، ولا ينقصه شيء سوى أنه أصلع، وهو مواطن بسيط من لينينجراد، حقق شهرة من إخراجه لمسلسل تلفازي (اختبار للكبار)، الذي بدأ في عام 1979م وظل مستمرًّا حتى عام 1991م. في ذلك المسلسل، صوَّر مقابلات مع مجموعة من عشرة أطفال وأولياء أمورهم، يرسمون تطور حياتهم على مر السنين. كانت موهبة شادخان تتمثل في قدرته على التحدث؛ فقد أثار آمال من التفاهم في المقابلات اللطيفة التي تجنبت الموضوعات التي تغضب جهاز الرقابة خلال سنوات بريجنيف، ولكن بدت مقابلات مضيئة على الرغم من ذلك، وكان يعتزم تحويل مقابلاته مع الناجين من معسكرات العمل في نوريلسك إلى مسلسل جديد سُمي (الثلج: قدري)، ولكن المدير العام لقناته، ديمتري

روجديستفينسكي، كان في ذهنه شيء آخر له أولًا؛ فطلب من شادخان تصوير لمحة عن موظفي عمدة بلدية لينينجراد، إذ كان روجديستفينسكي، الذي استمر ليؤسس شركة إنتاج تلفزيوني تدعى (الفيديو الروسي)، يعتقد أن هذا العمل سيكون جيدًا ما دام أن العمدة يمتلك المحطة فعليًّا، وقد اقترح على شادخان أن يبدأ العمل مع مساعد يشغل منصبًا مهمًّا، وقد سأله شادخان: «من بوتين هذا؟»[1].

عندما عاد شادخان من نوريلسك في ذلك الخريف، كان مسقط رأسه قد أصبح فجأة مدينة مختلفة، إذ لم تعد تحت سيطرة الحزب الشيوعي، وإنما تحت سيطرة الديموقراطيين، وقد عجَّل انهيار انقلاب أغسطس/آب بانهيار الاتحاد السوفييتي، وكان في الأسابيع الأخيرة من وجوده، وألقي القبض على المتآمرين، ومن ضمنهم فلاديمير كريوتشكوف، رئيس الـ(كي جي بي)، التي تشظت بعد ذلك إلى إدارات وأقسام مختلفة تحت السيطرة السياسية لزعماء روسيا الجدد، وأُلغيت المديرية الرئيسة الخامسة، التي كانت تصطاد المنشقين عن النظام. وعاد جورباتشوف إلى منصبه، ولكن رئيسًا لبلد انشطر إلى خمس عشرة دولة. وبات البرلمان الروسي في موسكو الذي يضم مجلس النواب ومجلس السوفييت الأعلى المصغر، ويتألف من 252 عضوًا، هو اليوم السلطة التشريعية على الأرض بلا منازع، وقد صادق في 6 سبتمبر/أيلول رسميًّا على نتائج الاستفتاء الذي أجرته لينينجراد قبل ثلاثة أشهر، وعاد اسم المدينة مرة أخرى سانت بطرسبورغ، حيث عمَّدها بطرس الأكبر قبل ثلاثة قرون تقريبًا. ورَأَس سوبتشاك احتفال إعادة التعميد الرسمي يوم 7 نوفمبر/تشرين الثاني، وهو اختيار مدروس إذ يوافق الذكرى الرابعة والسبعين للثورة الروسية.

بعد الانقلاب حظر بوريس يلتسين، بصفته رئيسًا لروسيا الجديدة، الحزب الشيوعي، فاستغل سوبتشاك الفرصة لدفن الحزب في مدينته أيضًا، فأوعز بالاستيلاء على سلطة الحزب، وأصوله، وبنيته التحتية، ومن ضمن ذلك مقره في معهد سمولني، الذي كان ديرًا في القرن الثامن عشر، ثم أكاديمية الفتيات التي أسس فيها لينين حكومته البلشفية، وأصبح هذا المَعلَم الباروكي اليوم مكتبه، ويرمز هذا التحرك لـ(انتصار القوى الديموقراطية) في

روسيا الجديدة، لكنه يشير أيضًا إلى «نية سوبتشاك الاستئثار بالسلطة الحقيقية في بداية العصر ما بعد الشيوعي»[2].

عيّن سوبتشاك بوتين رئيسًا للّجنة الجديدة في المدينة للشؤون الاقتصادية الخارجية، واستقر بوتين في مكتب جديد في سمولني، وعلى خُطا سوبتشاك، استبدل بصورة لينين التي كانت تزين مكاتب الرفاق نقشًا لبطرس الأكبر. في منصبه الجديد، انضم بوتين لسوبتشاك في محاربة جهود المواقع الخلفية للحزب الشيوعي لخنق السلطات الجديدة في المدينة، منفِّذًا مراسيم سوبتشاك التي أوقفت الموارد الإضافية للحزب.

بيت التنوير السياسي، ذلك الصرح الحديث الذي يكسوه الرخام والذي يمر من ديكتاتورية شارع البروليتاريا من سمولني، ظلت ملكيته تعود للحزب الشيوعي مدة طويلة، لكن قرر سوبتشاك تحويله إلى مركز الأعمال التجارية الدولية، والذي بدأ في وقت قريب بجذب رجال الأعمال السوفييت الدهاة الذين شاهدوا حقًّا إمكانية التجارة والأعمال في روسيا الجديدة. وكان من بينهم رجال مثل ديمتري روجديستفينسكي من القناة التلفازية الحكومية، وفلاديمير يانكونين الدبلوماسي التجاري السابق في الأمم المتحدة. فالتواصل معهم من خلال أروقة السلطة سيدفع سوبتشاك لتعيين ضابط المخابرات السابق غير المتحيِّز؛ وهو أونبريبوسيسينج في الموقع.

استمر فصيل من الحزب الشيوعي في المدينة في احتلال جناح من المركز التجاري الجديد، ورفع أعضاؤه بتحدٍّ مطرقة الاتحاد السوفييتي الحمراء والمنجل فوق سطح العمارة، وكان ذلك فعلًا رمزيًّا لا أكثر ولا أقل، لكن بوتين أمر بإزالة ذلك العلم، إلا أن الشيوعيين رفعوا علمًا آخر في اليوم التالي، ومرة أخرى أمر بوتين بإزالته. سارت الأمور على هذا المنوال وقتًا طويلًا حتى نفدت الأعلام المناسبة التي بحوزة الشيوعيين وبدؤوا بتعليق تلك المصنوعة يدويًّا، وكان أحدها يحمل اللون البني الداكن بدلًا من اللون الأحمر. في نهاية

المطاف، طفح كيل بوتين، فأمر العمال بإزالة سارية العلم بأكملها[3]، وردد بوتين ما قاله سوبتشاك، من أنه لم يعد عنده كثير من الصبر على المعارضة.

فكرة الفيلم الوثائقي التلفازي عن موظفي البلدية كانت فكرة سوبتشاك، الذي فهم الدور الذي يمارسه التلفاز في صعوده إلى مكانة بارزة في كونغرس نواب الشعب، وكان يعتقد سوبتشاك أن ظهور مديريه في العمل سيرسخ فكرة أنه هو، لا مجلس المدينة، الشخصية المحورية للسلطة في سان بطرسبورغ الجديدة. لكن شادخان لم يكن متحمسًا، فقد انتهى من فوره من تصوير المقابلات مع الناس الذين أمضوا سنوات يعانون من الغولاغ (معسكرات العمل) بسبب إساءة استعمال السلطة، وأُرسل اليوم إلى المبنى الذي كان منذ أسابيع قليلة مقرًّا للحزب الشيوعي المسؤول عن محنتهم. وقال إنه ذهب إلى هناك ذات مرة، ووجد أروقته عقيمة تقشعر منها الأبدان، واليوم وجده يعج بمجموعات من الناس لا يتكلمون اللغة الروسية وحسب، وإنما اللغات الأجنبية أيضًا، ومن مختلف المواقع السياسية.

الرجل الذي استقبله في مكتب بوتين في الطابق الأول في سمولني كان إيجور سيتشين، الذي كانت منزلته المتواضعة وسلوكه يناقضان أسفاره حول العالم وفصاحته بالبرتغالية[4]. كان زميل بوتين في الجامعة، وعمل في موزمبيق ثم في أنجولا في الثمانينيات مترجمًا للمستشارين العسكريين السوفييت، على الرغم من أن كثيرين منهم يشتبهون في أنه يعمل لحساب المخابرات أو الاستخبارات العسكرية. أصبح مساعدًا مخلصًا لبوتين الذي كان مكتبه- ومن ثم مكتب سوبتشاك- ممتلئًا بالرجال مثل سيتشين، وقدامى المحاربين في الحرب الباردة، ومن هاموا على وجههم بعد أن انهارت الإمبراطورية السوفييتية. أوضح بوتين فكرة سوبتشاك عن الفيلم الوثائقي لشادخان، وأطرى عليه مشيدًا بعمله عن (اختبار الكبار)، لكنه حاول أيضًا أن يضع شروطًا، طالبًا منه أن يطلع على الأسئلة مسبقًا. رفض شادخان ذلك وقال له: «هناك قاعدة واحدة: يجب ألا تعرف الأسئلة، وأنا لا أعرف الأجوبة»، فخضع بوتين[5].

استمرت المقابلات أيامًا عدة في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1991م، وكان بوتين يبدو أصغر من التاسعة والثلاثين التي بلغها، فشعره لا يزال أشقر ناعمًا وغير كثيف، وكان قصير القامة ونحيفًا، ومن ثم فضعف بنيته لا يتناسب وقاعات اللجان الكبرى التي كان يصور فيها شادخان فيلمه، ولذلك حاول شادخان في مكتبه- ما أمكن- أن يتفادى ذلك بتقريب كاميرته منه، وتركيز عدستها على عمق عينيه الزرقاوين وشفتيه الناعمتين، ووجنتيه اللتين يتغيَّر لونهما بشعر ذقنه الخشنة.

بدأ معه بأسئلة عادية عن عمره وعائلته، وتعليمه، وبرجه؛ («الميزان، أعتقد بأنه برج الميزان»، قال بوتين، «ولكني لست متأكدًا»)، وسأله عن كلبه، وعمله، وسياسة روسيا الجديدة، ولن يتأخر كثيرًا السؤال البديهي الذي يتناول سيرته المهنية قبل الحكومة.

ادعى بوتين، بعد سنوات، بأنه رتب هذه المقابلة بنفسه، ليكشف عن علاقته بمنظمة مكروهة فككت فيما بعد، وعلى الرغم من أن نقاد سوبتشاك وغيرهم حذَّروا بوتين من أن الكشف عن خلفيته السرية وعمله بـ (كي جي بي) قد ينقلب عليه أو على رئيس البلدية، فقد كان يعتقد أن الكشف عن حقيقة عمله الأساسي قد ينزع فتيل المسألة برمتها. ربما كان شادخان مجبرًا أكثر مما كان يتوقع بأن يكون (عبد الاستعارة)، فقد صور مساعد العمدة الشاب يقود سيارته الفولغا، مضيفًا إلى المشهد سوناتا البيانو من (سبع عشرة دقيقة من الربيع)، المسلسل التلفازي المحبوب من عام 1973م، المقتبس من رواية مكتوبة، مثل الدرع والسيف، بالتعاون مع الـ (كي جي بي)[6]، وكان بطله عميلًا مزدوجًا في ألمانيا النازية اسمه **ماكس أوتوفون سترلتز**، وكان هذا المسلسل من مسلسلات الرعب والتجسس التي عشقها بوتين إبان العصر السوفييتي[7]. وعندما سأله شادخان عن مهنته أمام الكاميرا، بدا دفاعيًّا وفظًّا.

قال بوتين: «يبدو أننا لا نستطيع ترك هذا الموضوع».
أجابه شادخان: «سوف توافقني الرأي بأن المرء لا يمكن أن يلتقي بضابط مخابرات بكل تلك السهولة في كثير من الأحيان، حسنًا، على الأقل مع شخص يعترف أنه واحد منهم».

قال بوتين بغموض: «أنت لا تعرف بتاتًا، قد تستطيع مقابلتهم في كثير من الأحيان، ولكنه يعرف ذلك، وأنت لا»[8].

استمر ظهوره في مقابلة مطولة معه نشرت يوم 25 نوفمبر/تشرين الثاني في صحيفة شاس بيك، أو راش أور[9]. لم يمح ماضيه، لكنه أراد أن يميز حياته عن جرائم الـ(كي جي بي)، وعن الحروب الصليبية على المعارضين للانقلاب الفاشل، وقال في المقابلة إن الـ (كي جي بي) قد أصبحت (وحشًا)، ولم تعد تنفذ «المهام التي أنشئت من أجلها»؛ وهي حماية الدولة من أعدائها الخارجيين. وأصرَّ على أن عمله ينحصر في الاستخبارات الأجنبية، ولا علاقة له بالقمع الداخلي الذي تنفذه الـ(كي جي بي). وأكد أيضًا أنه لا توجد وكالة مخابرات في العالم تستطيع أن تعمل من دون عملاء سريين، «هذا ما كان، وهكذا هو الأمر، وهكذا سيكون». وذكر أن الماضي أصبح وراء ظهره، لكن لم يشعر بأي ندم حول مهنته التي اختارها بنفسه.

سألته الصحفية ناتاليا نكيفوروفا: «ألا تتوب عن ماضيك؟».
أجابها: «لا، لن أتوب. أتوب عن الجرائم، وأنا لم أرتكب أي جرائم. أنا لا أسوِّغ، وإن كان التسويغ أسهل من اتخاذ قرار حاسم»، وكان يعني بـ(القرار الحاسم) استقالته من الـ(كي جي بي)، التي أكدها مرارًا وتكرارًا.

بعيدًا عن عدم أهليته في الخدمة العامة، فقد أعلن أن خلفيته، وتجربته، وطلاقته في اللغة الألمانية، واطلاعه على الاقتصاد الدولي، ستخدم احتياجات الديموقراطية الجديدة لمدينته وروسيا. وعندما سألته نكيفوروفا عن أن (الشركاء الدوليين) في المدينة سينظرون بارتياب لوجود جواسيس الـ (كي جي بي) بين موظفي سوبتشاك، أجاب ببساطة أن الرئيس الأمريكي، جورج بوش الأب، قد شغل سابقًا منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، ولم يجرده أحد من أهليته لتولي المنصب.

هكذا كانت الأيام العنيفة التي أعقبت أحداث أغسطس/آب؛ اختلط كل شيء، وأي شيء يبدو ممكنًا، حتى الحديث عن الأسرار التي بقيت طي الكتمان مدة طويلة، وصدَّ الناس

الانقلاب دون عنف- ما عدا ثلاث حالات وفاة في موسكو- حين رفضت الصفوف الأولى من التسلسل الهرمي السوفييتي قبول نتيجة الصراع على السلطة؛ وبذلك سنحت الفرصة لروسيا الجديدة لتكون حرة، وتعيش دون خوف، وتكون صادقة وخاضعة للمساءلة، لتعد نفسها لحقبة جديدة.

تواجه روسيا صعوبات اقتصادية، ولكن الوريث الضعيف للاتحاد السوفييتي يمكنه اليوم أن يقيم حكومة ديموقراطية، وينهي عزلة الحرب الباردة، ويفتح نفسه على أوروبا وبقية العالم. وفي أول اقتحام له لدائرة الضوء العام، والذي لم يكن يخطر ببال أحد قبل أشهر فقط، صور فلاديمير بوتين نفسه بأنه ديموقراطي نذر نفسه للديموقراطية، ولكن حتى ذلك الحين، في فجر الديموقراطية في روسيا، حذر من أن حتمية الدولة القوية ورغبة الشعب في قبولها، وحتى التوق للعيش فيها، بقيت جزءًا من المزاج العام الروسي. «حتى لو كان ذلك محزنًا، وبغض النظر عن فظاعته، أعتقد أن تحولًا نحو الشمولية مدة من الوقت ممكن في بلدنا. والخطر- على الرغم من ذلك- يجب ألا ينظر إليه على أنه كامن في الأجهزة التي تعمل على تمكين القانون وأجهزة الشرطة، أو حتى الجيش، بل يكمن الخطر في العقلية، عقلية شعبنا، في العقلية الخاصة جدًّا لدينا. يبدو لنا جميعًا- وسأعترف أن ذلك ينطبق علي في بعض الأحيان أيضًا- أنه بفرض نظام صارم بقبضة حديدية، سوف نبدأ جميعًا حياة أفضل، ومريحة أكثر، وفيها مزيد من الأمان. في واقع الأمر ستمر الراحة بسرعة خاطفة؛ لأن تلك القبضة الحديدية ستبدأ بسرعة جدًّا تخنقنا»[10].

سوبتشاك وصل إلى ذروة شعبيته وسلطته بعد الانقلاب، وكان أبرز ثاني سياسي روسي بعد يلتسين[11]، وكانت رؤيته لمدينته كما طموحه الشخصي؛ فقد أراد إعادة إنشاء مجد عاصمة الإمبراطورية، وتنشيط روائع المدينة المعمارية، ومعالمها، وقنواتها الأنيقة. وقد اقترح منطقة اقتصادية حرة لجذب الاستثمارات الأجنبية، إذ أراد أن يعيد لمدينة لينينجراد القديمة ألقها لتكون مدينة أوروبية (جديدة)، وعاصمة تجارية وثقافية تنافس موسكو في تفوقها الوطني والدولي.

التقى وزير الخارجية الأمريكي، جيمس بيكر، الذي وصل إلى المدينة يوم 15 سبتمبر/ أيلول، وبعد خمسة أيام سافر سوبتشاك إلى لندن، مع بوتين، للقاء رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، وكانت أول تجربة لبوتين في الغرب. وفي أكتوبر/تشرين الأول سافر سوبتشاك إلى ألمانيا الغربية لعقد اجتماع مع المستشار هيلموت كول، وكان بوتين المترجم الحاذق له، وسرعان ما انضم سوبتشاك لأحد عمالقة الحرب الباردة البارز؛ هنري كيسنجر، الرئيس المشارك في لجنة دولية للخبراء ورجال الأعمال المكلفة بإيجاد مستثمرين يحولون معامل الدفاع المنهارة في المدينة، وغيرها من الشركات المصنِّعة، إلى شركات تجارية. عندما سافر كيسنجر إلى بطرسبورغ في أثناء زيارته، كان فلاديمير بوتين هو الذي استقبله في المطار، واقتاده إلى مقر البلدية، وتحدثا عن ماضيه في الـ (كي جي بي)، فقال كيسنجر له: «كل الشرفاء بدؤوا عملهم في الاستخبارات، ويسرني أنني فعلت ذلك أيضًا»[12].

كان سوبتشاك يقضي أوقاته في الخارج بقدر ما كان يقضيها في بطرسبورغ، وكان من المشاهير الدوليين الذين كتبت عنهم جريدة التايمز؛ لكونه أحد النجوم السياسية الصاعدة التي يمكن أن تحول روسيا إلى دولة حديثة مزدهرة بالديموقراطية وحرية السوق[13]، ولكن ما حدث بدلًا من ذلك كان مخيبًا للآمال، وأثار عجب أولئك الذين كانوا يأملون بمستقبل ديموقراطي لروسيا، إذ سرعان ما أهدر سوبتشاك رأسماله السياسي الهائل بتصرفاته المتغطرسة وحماقته الجريئة، ولاستيائه من مثقفي وليبراليي المدينة، ملأ صفوفه برفاق موالين للحزب الشيوعي[14]، واليوم بعد أن فقدت الـ(كي جي بي) مصداقيتها، لم تقدم بوتين فحسب، وإنما إمدادات متواصلة من قدامى المحاربين لملء الصفوف المتنامية من موظفي سوبتشاك.

وعلى الرغم من كل أحاديثه عن الديموقراطية كان سوبتشاك يتودد للمسؤولين الأمنيين الذين بقوا في مناصبهم؛ فمثلًا تولى فيكتور شيركيسوف- زميل بوتين وصديقه المقرب،

الذي عُرف بمحاكمة المنشقين عن جرائم مناهضة السوفييتية- أحد فروع الأجهزة الأمنية في بطرسبورغ التي انبثقت من الـ(كي جي بي) المنهارة ووزارة الأمن.

دوافع سوبتشاك لتوظيف المحاربين القدامى من الأمن سببت حيرة ونبَّهت الإصلاحيين في المدينة، لكن كان يساجل بأن المدينة بحاجة إلى مهنيين من ذوي الخبرة في الحكم، حتى وإن كان يعني ذلك مشاركة البيروقراطية السياسية والأمنية التي تعهد بتفكيكها ذات مرة. ولكي يضمن سلطته استعان بالرفاق، وليس بالديموقراطيين، وظل هذا يمثل المعضلة الرئيسة في روسيا لسنوات قادمة، فالإصلاحيون الشباب مثل الخبير الاقتصادي أناتولي تشوبايس، الذي قدَّم مقترحات مبكرة لإقامة المناطق الحرة في بطرسبورغ، سرعان ما وجدوا أنفسهم من دون وظائف أو مهمشين، وغادر تشوبايس إلى موسكو في الخريف، وانضم لبرنامج يلتسين للخصخصة، الذي جعل منه أحد أكثر الشخصيات الملعونة في روسيا الجديدة[15].

ما إن عزز سوبتشاك السلطة التنفيذية، حتى توترت علاقاته مع مجلس المدينة أكثر مما كانت عليه الصراعات الداخلية قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، وعبَّر عديد من أعضائه- وبخاصة الديموقراطيين الأشد تحمسًا- عن استيائهم من ميوله الاستبدادية، وبحلول عام 1992م حاول المجلس عزله، وكانت تصرفات مساعده، فلاديمير بوتين، أحد تلك الأسباب.

واجهت المدينة عددًا من التحديات في شتاء عام 1991م؛ فكل شيء توقف، وأفلست المدينة، وتراجعت الصناعات العسكرية الثقيلة في المدينة، المترنحة أصلًا، مع انهيار عقود الأسلحة، وتسبب تفكُّكُ الاتحاد السوفييتي في قطع العلاقات الاقتصادية مع الدول المجاورة، والمستقلة حاليًّا التي كانت تمد ذات يوم لينينجراد بالمواد الغذائية والبنزين، وبات على المدينة- مع حلول فصل الشتاء- اللجوء إلى الاستفادة من احتياطي السلع المعلبة ريثما تصل أربعة آلاف طن من اللحوم الطازجة في يناير/ كانون الثاني.

موسكو، العاصمة، كان لها سلسلة توريد وموارد أفضل من بطرسبورغ، ونتيجة لهذا لن يكون للمحالِّ التجارية في بطرسبورغ سوى مستودعات هزيلة من المواد الغذائية خلال السنوات القادمة، وحذر سوبتشاك في نوفمبر/تشرين الثاني من أن نقص المواد الغذائية أصبح في حالة خطر[16].

ولسبب غير مفهوم حتى الآن، كان أحد قراراته لإحياء ثروة المدينة هو أن يحولها إلى لاس فيغاس جديدة، وكلف بوتين بهذه المهمة؛ فكانت النتيجة انتشار الكازينوهات وأوكار القمار في جميع أنحاء المدينة الجميلة ولكن الذابلة، مع أنه كانت هناك احتياجات أكثر إلحاحًا من ماكينات القمار. لم يكن ازدهار كازينوهات بطرسبورغ فكرة سوبتشاك وحده، وإنما التحول الديموقراطي في روسيا الذي سرعان ما اتخذه ذريعته الدائمة، وهو المظهر الوحيد الجلي لرأسمالية الروس الجديدة التي لطالما رفضوها عقودًا من الزمن. مرسوم سوبتشاك سعى- ظاهريًّا- لتنظيم هذه الصناعة الناشئة حديثًا، مع «الضرائب لتمويل البرامج الاجتماعية ذات الأولوية»[17]، لكنه أجاز أيضًا للمدينة توفير «المرافق اللازمة لتوطين الكازينوهات»، وهي السلطة التي استخدمها وأساء استخدامها في صناعات أخرى كذلك. وزَّع سوبتشاك حقوق الملكية كما كان يمنح القيصر الأراضي سابقًا، ومن ثم فعلى مدى العقدين المقبلين سيكون المشهد العام لمدينة بطرسبورغ، كما موسكو، أبنية مبهرجة من أضواء النيون واللوحات الإعلانية المغرية الواعدة بالثروات، وستخوض السلطات حربًا متواصلة على الجريمة المنظمة.

نفذ بوتين واجبه؛ فدرس طريقة الغرب في تنظيم صناعة القمار، وبات بإمكانه اليوم، من خلال السفر مجانًا خارج حدود الكتلة السوفييتية، أن يخوض تجربته الحياتية في أماكن عرفها فقط من التقارير الاستخباراتية. وفي جزء من تقصي الحقائق في ذلك الخريف، فقد سافر هو وليودميلا إلى هامبورغ، حيث زارا مع جمع من الأصدقاء ريبرباهن، المنطقة الشهيرة بأضوائها الحمراء في المدينة، وموقع أحد الكازينوهات فيها. وكان الأصدقاء الذين حدثوه هم من أصروا على أن يحضر عرضًا إيروسيًّا مثيرًا في أثناء وجودهم هناك،

وكانت تلك مقدمة إلى التطرف في الحرية الشخصية، والانغماس في الرذائل دون تضييق أخلاقي لأيديولوجية الدولة وتدقيق من الـ (كي جي بي)، وقد انطبعت تلك التجربة في ذهنه انطباعًا، جعلته يصف بعد عقد من الزمان هذه العروض بالتفصيل الممل، بدءًا من طولهن الفارع، وانتهاء بجسدهن العاري[18].

وكان استنتاجه أن أرباح الفجور يجب أن تكون عائدة للدولة، ومن ثم فقد فضل في البداية أن تكون صناعة القمار حكرًا على الدولة، على الرغم من أن قوانين روسيا الجديدة التي تكافح الاحتكار تنهى عن ذلك؛ أملًا في كسر قبضة الدولة على الاقتصاد، ولتجاوز ذلك أنشأت لجنة بوتين، بدلًا من ذلك، مشروعًا بلديًّا تشتري بموجبه 51 في المئة من أسهم كل الكازينوهات الجديدة المرخص لها في المدينة، وبهذا ستملأ الأرباح خزائن المدينة التي تفتقر إلى السيولة النقدية، وهكذا حصلت على أسهم بدلًا من تأجير المباني المملوكة لها، والتي أصبحت كازينوهات. وكان المحامون الذين يتولون تقديم المشورة للجنة بوتين من مستشاري جامعته: فاليري موسين، وديمتري ميدفيديف، وهو محام شاب ناضل من أجل سوبتشاك عندما رشح نفسه لمجلس نواب الشعب.

أثبتت المؤسسة أنها كارثة، إذ أدخل مضرب تنس عملاق المدينة في تحالف مع شخصيات في الظل تشمل ضباط مخابرات سابقين، ورجال عصابات[19].

أسست شركةٌ جديدةٌ في المدينة، تدعى نيفا تشانس، ما يقرب من عشرين كازينو، معظمها لم يحصل على تراخيص من الحكومة الاتحادية الجديدة التي شُكلت في موسكو، ومن ثم لم تتحقق الأرباح التي كانت تأمل بها المدينة، وعمد المديرون إلى غسل العائدات النقدية، وكتبوا تقارير بخسائر ومفقودات للسلطات، وهكذا فقد كسب المالكون الملايين، أما المدينة فلم تتلق أي شيء من ذلك. ويقول بوتين في وقت لاحق- مدافعًا عن دوره-: «كانوا يضحكون علينا».

أثبت إنشاء اقتصاد سوق منظم أنه أصعب بكثير مما توقعه بوتين، وكثير من المسؤولين الروس أيضًا، ولم تكن الأسس القانونية للرأسمالية قد وُضعت بعد، ومثل معظم المسؤولين لم تكن لديه الخبرة في إدارة الشؤون الاقتصادية بعد عقود من الخطط الخمسية وسيطرة الدولة، وقد أقرَّ بأن «هذا خطأ نمطي وقع فيه الناس الذين يواجهون سوقًا لأول مرة»، والناس الذين عانوا من الخطأ هم من «المتقاعدين والمعلمين والأطباء»[20]، لكنه لم يفعل شيئًا إزاء الخسارة الفاضحة لخزائن الدولة، لا في وقتها ولا في وقت لاحق، وسرعان ما أُثري الآخرون، مستغلين النظام القانوني والاقتصادي غير الناضج مع بعض المشتبه فيهم، وتواطؤ المسؤولين مثل بوتين.

وثمة أخطاء أخرى ارتكبها بوتين، سيكون لها عواقب كارثية مستدامة، وتخلق حالة من الهروب من العقاب الذي يفرضه الحكم في المدينة، ويزيد من عدم ثقة الجماهير بمطالب تطبيق مبدأ المساءلة. ففي 4 ديسمبر/كانون الأول 1991م، كتب بوتين رسالة إلى وزارة الاقتصاد الاتحادية في موسكو يطلب فيها الموافقة على المقايضة في الخارج- بمبلغ يزيد على 120 مليون دولار من منتجات الشركات التي كانت لا تزال مملوكة للدولة، تتضمن 750 ألف متر مكعب من الخشب، و150 ألف طن من النفط، و30 ألف طن من الخردة المعدنية، وكميات صغيرة من المعادن الأرضية النادرة كالنحاس، والألومنيوم، والإسمنت، والأمونيوم- بما يعادلها من اللحوم والزبدة والسكر والثوم والفاكهة[21].

في الشتاء الثاني واجهت المدينة نقصًا حادًّا، وفرضت تقنينًا مرة أخرى، وتفاقمت الأزمة عندما سمحت الحكومة الروسية بارتفاع الأسعار وفقًا لقوى السوق في بداية عام 1992م. وحتى عندما كان الغذاء متوافرًا كان بعيدًا عن متناول الفقراء الروس، ثم شمل ذلك الجميعَ تقريبًا، باستثناء الأكثر حظوة.

في الفيلم الوثائقي التلفازي، أظهر شادخان بوتين وهو يتحدث على الهاتف مع سوبتشاك حول الاستعدادات لعقد اجتماع مع يلتسين، وعندما أقفل الخط حرص على إظهار أن مكتب

رئيس البلدية يقدم أزمة الغذاء على كل الأولويات، وقال لشادخان إن طنَّين ونصف طن من السكر قريبًا ستُشحن من أوكرانيا، بالفعل، ومع ذلك بدا متضايقًا من الهدر والفساد، وقال: «هناك العديد من الزلّات بين الكأس والشفة»[22].

حين كان مكتب رئيس البلدية يتفاوض على صفقات المقايضة، وقَّع بوتين والنائب ألكسندر أنيكين، عشرات العقود، ذهب كثير منها لشركاتٍ أصحابُها- كما سيقول النقاد في وقت لاحق- كان لهم ارتباطات مع مكتب رئيس البلدية وبوتين نفسه، وقد كُتبت العقود من غير تدقيق، وكأن المشروع بأكمله مشكوك فيه من الناحية القانونية؛ إذ إن بعض الصفقات تم التفاوض عليها قبل أن يتلقى بوتين الموافقة على ذلك من الوزير الاتحادي المختص في موسكو. وكان للعقود عمولات عالية جدًّا، وصلت إلى 25–50 في المئة، وقد ذهبت هذه الأرباح الكبيرة، ظاهريًّا، لخزينة المدينة التي يفترض أن تكون مشروعًا كبيرًا لدرء الجوع، ولكن يبدو أن معظمها اختفى في ظروف غامضة.

وعلاوة على ذلك، كانت أسعار العقود وفقًا لأسعار الصرف الرسمية، المقدرة بأقل من قيمة السلع المصدَّرة، والأسوأ من هذا كله أنه لم يُستورد أي شيء تقريبًا مقابل ذلك، والعقد الوحيد الذي ذكرت التقارير أنه قد تحقق الوفاء به هو تسليم ناقلتين من زيت الطهي، الذي كان قد أبلغ بوتين بمضمونه حسب الأصول إلى موسكو، وكان الاتفاق إخفاقًا ذريعًا في أحسن الأحوال، وفي أسوأ الأحوال، كان عملية احتيال.

باشر مجلس المدينة، الذي كان في حالة حرب دائمة مع سوبتشاك، بالتحقيق، بقيادة مارينا سالي، الجيولوجية ذات الشعر الأشيب، وواحدة من الديموقراطيين الأكثر جرأة في المجلس. ركزت هي وزميلها، يوري غلادكوف، على اثني عشر عقدًا يمكنهما تلمُّس الحقيقة من خلالها، وهذه العقود وقَّع عليها إما بوتين أو أنيكين، مع أنهما يدركان بأن ما خفي أعظم. لم يكن هناك أي مناقصة عامة لهذه العقود التي تبلغ قيمتها الإجمالية 92 مليون دولار، ولم تكن هناك أيضًا أي قوانين واضحة تتطلبها المناقصات العامة.

بين يناير/ كانون الثاني ومايو/أيار، جمع سالي وغلادكوف الأدلة، وأخذا الإفادات، وجمعا كل ذلك في تقرير مطول قُدم إلى كل أعضاء المجلس، وقد تعاون بوتين مع التحقيق، ولكن على مضض؛ لأنه رفض في البداية تقديم بعض التراخيص والعقود، بحجة أنه يريد أن يحافظ على أسرار الأعمال التجارية، وعلى الأرجح- كما شكَّك كلٌّ من سالي وغلادكوف- فإن الوثائق تظهر المتورطين بجمع المال مقابل المعاناة التي تعيشها المدينة.

لم يوضح بوتين كيف حدث اختيار المتعاقدين، ولا من كانوا، لكنه دافع عن نفسه بعدوانية، ومَثُلَ أمام المجلس عندما استُدعي، وعقد مؤتمرًا صحفيًّا لدحض هذه الاتهامات[23]، وأبدى انزعاجه من فكرة الرقابة التشريعية، عادًّا التحقيق ليس أكثر من هجوم بدوافع سياسية على سلطة رئيس البلدية.

في يوم 30 مارس/آذار، بعد نحو ستة أشهر من انهيار انقلاب أغسطس/آب، صوت المجلس للإطاحة بسوبتشاك على أساس أن الفساد يتغلغل في حكومته، واشتملت الأدلة فضيحة الغذاء، وكان المجلس أيضًا يجمع قائمة من مئة من الممتلكات نقلها سوبتشاك وحوَّلها إلى رجال أعمال أجانب ومحليين، ولكن أخفقت جهودهم؛ لأن المجلس ليس لديه سلطة قانونية واضحة لعزله، وتجاهل سوبتشاك التصويت في المجلس[24].

حضر بوتين مرارًا للدفاع عن نفسه وعن رئيسه، ورفض النقاد ووصفهم بأنهم «هؤلاء الناس الجدد الأبرياء»، وأكد أن فريق سوبتشاك يتألف من أناس «يعرفون الزر الذي يجب أن يُنقَر لإنجاز الأمور»[25]، وكان عليه أن يعترف بأن جميع المتعاقدين تقريبًا أخفقوا في تقديم الغذاء، وأعرب عن أسفه لأنهم كانوا شركات وهمية ومخططات هرمية بعيدة عن متناول المحاكم، مع أن مسؤولية لجنته كانت التفاوض على العقود في المقام الأول. وكانت بعض الشركات المصدِّرة تغلف المواد وتطويها لتظهر غامضة المصدر، ومن المفترض أنهم أخفوا ملايين الدولارات في المصارف في الخارج. ومع ذلك أصبح بعض رجال الأعمال الذين حصلوا على عقود من المقربين لبوتين، ومن بينهم يوري كوفالتشوك وفلاديمير ياكونين،

اللذان كانا يديران الشركة الجديدة التي حصلت على ترخيص لتصدير الألومنيوم والمعادن غير الحديدية. وذهب آخرون إلى شركة تدعى نيفسكي دوم، التي يسيطر عليها فلاديمير سميرنوف، وإلى فرع تصدير في مصفاة تحمل اسمًا غير عملي هو (Kirishinefteorgsintez)، وهي إحد الشركات التي كان جينادي تيمتشينكو من أصحابها المؤسسين.

لم يواجه أي من هؤلاء الرجال أي تهمة في وقت سابق، وعلى الرغم من أنهم كانوا غير معروفين في ذلك الوقت، فإنهم تربَّوا بجانب مسؤول شاب في مكتب رئيس البلدية، وسيصبح بعد سنوات من عمالقة رجال الأعمال في روسيا الجديدة.

لم يَثبت أن بوتين نفسه استفاد من الصفقة، على الرغم من أن بعضهم، مثل مارينا سالي، رأى أنه يشتبه في كونه مستفيدًا، ولكن الناس من حوله استفادوا جليًّا، وهو النمط الذي سيتكرر في السنوات المقبلة. بدت تفسيرات بوتين مخادعة، وبدلًا من المطالبة بفتح ملف تحقيق، تهرب بوتين من الجزء الأكبر من الأسئلة، وأشار بقوة إلى أن أعضاء من المجلس نفسه أرادوا العقود لأنفسهم، ولا يريد أن يكون «رجل الـ(كي جي بي) الحشري المتشدد» الذي يسلمهم[26].

توقف تقرير لجنة التحقيق لحاجته إلى دليل دامغ يثبت تورط بوتين وأنيكين بالفساد، لكنه وجَّه لهم التهمة «بعدم الكفاءة الكاملة، المشوبة بسوء النية»، وأحالت اللجنة القضية برمتها إلى مكتب النائب العام، ودعت رئيس البلدية لإنهاء خدماتهما معًا[27]، وقد سافر فريق من المحققين من غرفة التدقيق الاتحادية إلى بطرسبورغ للتحقيق، ولكنه لم يوجه تهمًا[28].

لطخت هذه القضية بوتين بفضيحة لأول مرة، ولكنها حفظت في الأدراج ما يقرب من عقد من الزمان، أما أنيكين فقدَّم الاستقالة، وحل محله ألكسي ميلر، وهو خبير اقتصادي من الشبان، وأصبح من أقرب مساعدي بوتين. وبدل أن يعاقب سويتشاك بوتين عيَّنه نائبًا لرئيس البلدية، وتركه في مهمة تحقيق أعظم هدف له: جذب المستثمرين الأجانب إلى المدينة.

حقق بوتين نجاحًا أفضل في هذا المسعى، بسبب وضعه المهني في الـ (كي جي بي)، من جانب، ومن جانب آخر بسبب اتصالاته وتمكنه من اللغة الألمانية التي فتحت الأبواب للمستثمرين من ألمانيا الموحدة حديثًا. حتى الكازينوهات وعقود الأغذية أصبحت غارقة في الجدل. سافر بوتين مرة أخرى إلى ألمانيا- وهذه المرة إلى فرانكفورت- للكشف عن المؤتمر المصرفي الدولي في بطرسبورغ، وهناك فاوض على افتتاح أول بنك أجنبي روسي في المدينة؛ وهو بنك دريسدن. وكان الرجل الذي أرسل لإدارته ماتياس وارنيغ، ضابط جهاز أمن الدولة السابق الذي كُلِّف بالعمل مع الـ(كي جي بي) في دريسدن في أكتوبر/تشرين الأول 1989م، وكانت ألمانيا الشرقية تشهد احتجاجات في ذلك الوقت[29]. كلاهما ادعى أنهما التقيا للمرة الأولى في بطرسبورغ، وعلى الأقل في مناسبة في يناير/كانون الثاني 1989م، فقد ظهرا معًا في صورة تجمع ضباطًا سوفييتيين وألمانًا من جهاز أمن الدولة مع صديق لبوتين يعمل في استخبارات التقنيَّة العالية في دريسدن؛ سيرجي شيميزوف[30]، والثلاثة تشابكت حياتهم المهنية والشخصية، وهم من المحاربين القدامى الذين يتشابهون في التفكير، ويعبُرون معًا هذا التحول المضطرب إلى نموذج اقتصادي جديد عملوا جميعًا طوال حياتهم ضده.

افتتح مصرف دريسدن في يناير/ كانون الثاني عام 1992م، وذلك بهدف خلق البنية التحتية المالية اللازمة لدمج الاقتصاد الروسي في السوق الألمانية، والمساعدة على خصخصة مؤسسات الدولة السوفييتية الواسعة، والشركات العملاقة شاقوليًّا التي من غير المرجح أن تتكيف بسرعة مع قوى السوق، أو إعادة هيكلتها. وكان أولُ مشروعٍ مساعدةَ مصنع كيروف، الذي يعاني اليوم خطر الإفلاس، ويهدد بصرف الآلاف من العمال الذين دعموا سوبتشاك خلال الانقلاب عام 1991م. بالنسبة إلى دريسدن كانت رهانا محفوفًا بالأخطار على مستقبل روسيا. لم تكن مالية بطرسبورغ في حالة فوضى فحسب، بل كانت أيضًا قوانينها وتنظيماتها والرقابة فيها؛ فالاقتصاد بأكمله، والبلد بأكمله، في حالة من الفوضى، ويزداد سوءًا، حتى إن كبير الاقتصاديين في المصرف، إرنست- موريتز ليب، قال بعد بضعة

أشهر، موضحًا قلة الخبرة في مجال الخدمات المصرفية والمالية: «حقًّا يجب أن نبدأ من آدم وحواء في سانت بطرسبورغ، ربما هناك 10 أشخاص فقط قد يكون لهم تأثير»[31].

قدم بوتين نفسه واحدًا منهم، وقد يكون الاستثمار المبكر في دريسدن مكافأة للمصرف، وتحذيرًا كبيرًا لقادم السنوات. وأعقب مصرف دريسدن المصرف الألماني ومصرف باريس الوطني، وكريدت ليونيه. وبدأ صانع الحلوى الإسباني تشوبا شوبز بصنع مصاصات في بطرسبورغ عام 1991م، وفتح أوتيس للمصاعد فرعًا له، متوقعًا تجديد المباني العتيقة في المدينة، وافتتحت شركة بروكتر وغامبل، التي دعت سوبتشاك إلى مقرها الأمريكي في العام قبل الماضي، مكتبًا لها في المدينة بعد الانقلاب مباشرة.

استمتع سوبتشاك بدوره أبًا للمدينة، ولكن بقي بوتين في الخلفية، يتفاوض على الصفقات مع الأجانب، ويدخل في التفاصيل، وقد قال عنه كاج هوبر، وهو محام سويدي من الذين تعاملوا معه بعد ذلك: «فلاديمير بوتين كان الشخص الذي ينفذ ما يريده سوبتشاك». هوبر قضى أسابيع يتفاوض لبيع أحد معالم المدينة، جراند هوتيل يوروب، البيع القسري الذي فرضه قانون الضرائب المرهق الذي يعتقد كثيرون أنه كان عليه أن يمهِّد الطريق لمالك مفضل آخر. وقد وصف هوبر بوتين بأنه مفاوض عنيد «لا يتنازل إلا عن الشيء اليسير في محادثاتهما»، وأضاف: «وبدا بكل تأكيد أنه يفعل ما يمكنه فعله وفي الوقت المحدد، وهذا يمثل مصالح سان بطرسبورغ»[32].

سياسة الاقتصاد الكلي كانت مثار الجدل حول (العلاج بالصدمة) لإحياء الاقتصاد الروسي، وهي مهمة بوريس يلتسين ووزرائه في موسكو، ولكن سوبتشاك يريد أن يجعل من مدينته إحدى أكثر المدن صداقة مع المستثمرين الأجانب في البلد بأكمله.

أشرفت لجنة بوتين على الانتهاء من كابل الألياف البصرية إلى الدنمارك، وهو مشروع بدأ خلال الحقبة السوفييتية، وقد زوَّد المدينة بأول اتصالات هاتفية دولية حديثة، وافتتحت اللجنة في وقت لاحق المناطق الصناعية للمصانع الخارجية، من ضمنها هاينكن، وبيبسي،

وكوكا كولا، وفورد، وريجلي. وكان سوبتشاك- بمساعدة بوتين- قد أعاد فتح (النافذة على الغرب) التي كان بطرس الأكبر يتصورها أن تكون عاصمته. يسافر رئيس البلدية بانتظام للخارج، في كثير من الأحيان مرتين في الشهر أو أكثر، ويحرص على سمعته الدولية كحرصه على عمله، وتابع أيضًا تقديم المشورة ليلتسين في موسكو، ويخصص الساعات ورأس المال السياسي للمساعدة على كتابة الدستور الجديد لروسيا، الذي أقرَّ عام 1993م.

ترك سوبتشاك الإدارة اليومية للمدينة لنوَّابه، من بينهم بوتين، الذي بعد نجوميته الخاطفة على التلفاز أخذ يميل إلى العمل من دون ضوضاء، أو تمحيص، وتجنب دائرة الاختلاط والحياة الاجتماعية الدبلوماسية. وقد اشتكت ليودميلا بأنه يعمل ساعات طويلة، ويعود إلى منزله في وقت متأخر من الليل، في حين تبقى هي في شقة والديه مع الأطفال. ونادرًا ما كان لديه وقت للأصدقاء مثل رولدغن، حتى عندما يلتقون كان يشعر رولدغن بأنه غارق ومشغول بشؤون المدينة[33]، لكن عمله الجديد- (الحياة المدنية)، كما وصفها- ممتع، ومثَّل له تحدِّيًا، فبعد أن كان ضابطًا يجمع المعلومات ويمررها إلى الرؤساء ليتخذوا القرارات السياسية، بات اليوم هو الذي يتخذ القرارات[34].

زاد بوتين من سمعة كفاءته وفاعليته، وولائه المطلق لسوبتشاك، في حين أن الآخرين الذين عملوا لرئيس البلدية سرعان ما تركوا العمل وبصورة حادة على الأغلب، أما هو فبقي يعمل بثبات إلى جانب سوبتشاك، وقد تنامى نفوذه وسلطته، حتى عندما كانت تحوم الاتهامات بالفساد حول إدارة المدينة.

كان بوتين في العمل متحفظًا، بل ومتجبرًا، ونادرًا ما يظهر مشاعره أو تعاطفه، على النقيض من السجالات السياسية العاصفة الجارية في البلاد. وتستذكر أمينة سره، مارينا ينتالتسيفا: «قد يكون صارمًا ومتطلبًا، ولكن لم يرفع صوته قط، وكان إذا أُعطي مهمة فلا يعبأ كيف ستنفذ، أو من الذي سينفذها، وما المشكلات التي تعتريها؛ بل المهم أن ينفذ هذا الواجب، فالعمل هو العمل»[35]. وعندما أخبرته ينتالتسيفا ذات مرة أن سيارة دعست كلب

الأغنام القفقازي الذي جاءت به الأسرة أخيرًا، ذكرت أنها صُدمت من غياب أي ردة فعل له على الإطلاق.

أثبت بوتين أنه يتعامل على قدم المساواة في حواره مع المستثمرين والسياسيين الذين تدفقوا إلى سمولني باحثين عن صفقات، وفي كثير من الأحيان باحثين عن المساعدة عندما توشك الصفقات أن تتعثر في الاضطرابات التي ينعدم فيها القانون؛ لانتقال روسيا إلى الرأسمالية. كان بوتين الرجل الذي يمكنه معرفة ثغرات البيروقراطية والقوانين المبهمة، وقد كتب آرثر جورج، وهو محام أمريكي من الذين عملوا معه من كثب فيما بعد: «مع أنه كان المسؤول الرئيس عن التعامل مع المشكلات التي تواجه المستثمرين الأجانب، لم يشعر المستثمرون قط أنهم يعرفونه، أو كان لهم أذنًا مصغية، فقد اختار بوتين معاركه بعناية وتجنب الجدل، ويصعب على أحد أن يعرف حقيقة ما يجري في دماغه»[36].

أصبح بوتين المحرك والتاجر، يتوسط في الاستثمارات، ويحكم في النزاعات التجارية من خلال العلاقات الشخصية، والاتصالات، والتهديدات، وظل يسافر مع سوبتشاك أو وحده لجذب الشركات إلى عالم الرأسمالية المظلم ما بعد الشيوعية. أصبح (المُمَكِّن الرئيس) لاقتصاد المدينة، الذي يوافق على مئات التراخيص، والضامن لمشاركة الدولة في الثروة. وأصبح الحَكم في المنازعات التجارية في المدينة، ويعمل من وراء الأستار لتسوية الصراعات التي غالبًا ما تحولت إلى أعمال عنف، ولكن على الرغم من جهود بوتين وأحلام سوبتشاك، بدت بطرسبورغ متخلفة عن موسكو في معظم المؤشرات الاقتصادية، ومن ضمن ذلك الإنتاج، والاستثمار الأجنبي، والبطالة[37]. وأصبحت المدينة معروفةً بجريمتها؛ فالجرائم التي ترتكب بسبب العقود تمارسها عصابات متنافسة وتجار، وفي كثير من الأحيان بدوافع سياسية، وكانت السرقات الصغيرة من الأجانب متفشية، حتى إن السياحة تضاءلت بعد الدفق الأول المستوحى من انهيار الاتحاد السوفييتي وشدة التنافس.

تقاطُع الأعمال والجريمة المنظمة في بطرسبورغ، كما هو الحال في أماكن أخرى في روسيا، جعل بوتين قريبًا من بعض أعتى العصابات في المدينة، فشركة البوابات الذهبية، التي سجلها عام 1992م لصاحبها جينادي تيمتشينكو لإقامة ميناء نفطي، دخلت في صراع خطير مع عصابة، وقد تصاعد ذلك الصراع حتى إن بوتين أرسل ابنتيه، ماشا وكاتيا، إلى ألمانيا حفاظًا على سلامتهما، إلى أن تهدأ الأمور[38].

ارتباطات بوتين، من خلال لجنة الشؤون الاقتصادية الخارجية، التي رآها بعضهم أنها ارتباطات شخصية، أوقعته في شرك اتهامه بالإجرام، والشركة التي سجلها مع فلاديمير سميرنوف في عام 1992م، شركة سانت بطرسبورغ العقارية القابضة، خضعت للتحقيق بتهمة غسل الأموال، وقد اغتيل أحد أعضاء مجلس إدارتها، ميخائيل مانيفيتش، في وقت لاحق برصاص قناص في وضح النهار، في شارع نيفسكي بروسبكت. هذه الشركة المعروفة من اختصارها الألماني بـ SPAG، لفتت انتباه المحققين في ألمانيا في وقت لاحق، وكان ليختنشتاين هو الذي اشتبه في أن الشركة تمارس غسل الأموال، ومن ذلك عائدات تعود لعصابة كالي للمخدرات في كولومبيا، وكان بوتين تسلَّم مجلس إدارة هذه الشركة لسنوات[39].

كذلك منح بوتين ترخيصًا لشركة أخرى، هي شركة وقود بطرسبورغ، التي تضم أيضًا سميرنوف، والزعيم المعروف بالجرائم من عائلة تامبوف، فلاديمير كومارين، الذي عرف بأنشطته القذرة في التسعينيات، وأطلق عليه (حاكم الليل)، وقد حصلت هذه الشركة على وكالة حصرية لتوريد البنزين إلى المدينة[40].

على الرغم من قربه من السلطة، والسيطرة على المعاملات الحكومية التي تقدر قيمتها بملايين الدولارات- وهي مبالغ لا يمكن تصورها لضابط مخابرات سابق صغير- لا يزال بوتين يعيش بتواضع، على الأقل ليس كما تباهى سوبتشاك، والجيل (الجديد) من رجال الأعمال الروس، الذين كانوا يجمعون بسرعة هائلة الثروات، ولا يظهر عليهم سوى النزر القليل.

ولكونه بمنصب نائب رئيس البلدية، فقد عُيِّن في المنطقة الريفية في زيلينوغورسك، التي كانت تتبع سابقًا للقنصلية الألمانية الشرقية، لا أقل، وعلى الرغم من أنه كان على بعد أكثر من ثلاثين ميلًا من مركز المدينة، فقد انتقل بوتين مع عائلته إلى هناك بدلًا من الاستمرار في العيش قريبًا من سمولني مع والديه. حصل بوتين في وقت لاحق على شقة في المدينة في جزيرة فاسيليافسكي، يقال إنها من سوبتشاك، الذي اتهم بنقل المئات من الممتلكات إلى أيدي القطاع الخاص، ثم شرع ببطء يعيد تحديثها.

عملت ليودميلا في الجامعة بتدريس اللغة الألمانية (على الرغم من أن لغتها الألمانية كانت بعيدة عن الكمال)، وكانت توصل الفتيات إلى المدرسة، وإلى حمام السباحة، وإلى دروس الكمان التي أُقرت بإصرار من سيرجي رولدغن. كانت حياة محمومة، ولكنها أكثر أمنًا لأي شخص يمكن أن يكون في روسيا في التسعينيات المضطربة، عندما كان كل شيء يبدو معطلًا ومعلقًا بخيط رفيع، حتى بالنسبة إلى بوتين وعائلته.

تبخرت النشوة السياسية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي في غضون سنة تقريبًا، و(العلاج بالصدمة) الذي فرضته حكومة بوريس يلتسين لإدخال الرأسمالية أخفق في وقف انهيار الاقتصاد؛ وانخفض الناتج المحلي الإجمالي بأرقام مزدوجة في السنوات الأولى من العقد الجديد، وسعى يلتسين إلى السيطرة السياسية في مجلس نواب الشعب، ومجلس السوفييت الأعلى، ثم أقام في مبنى على ضفاف نهر موسكو المعروف باسم **البيت الأبيض**. في مارس/آذار 1993م فرض يلتسين الحكم الرئاسي، وأعلن أنه سيحل المجلس إلى حين الاستفتاء على الدستور في أبريل/نيسان وانتخاب برلمان جديد، وكان رد النواب أن صوتوا بتوجيه الاتهام له، ومع أنه نجا من التصويت، لكنه اضطر إلى التراجع. فاز بفارق ضئيل في استفتاء وطني على قيادته، ولكن التصويت لم يُجْدِ شيئًا لحل الصراعات السياسية والقانونية الكامنة على السلطة. وبحلول سبتمبر/أيلول أقال يلتسين نائبه ألكسندر رتسكوي، حين رأى فيه منافسًا له، غير أن النواب رفضوا قراره، ثم أعاد تعيين يغور غايدار، الأب

الإصلاحي للسياسات الاقتصادية التي أغضبت وأفقرت كثيرًا من الروس، وهذا التعيين كان نصيبه التجاهل أيضًا.

التوازن الذي لا يمكن الدفاع عنه، بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في روسيا جديدة، وبين النظام الرئاسي والنظام البرلماني، وصل إلى حد الأزمة، وفي 21 سبتمبر/ أيلول تصرف يلتسين أخيرًا بحسم وبقوة، وعلى نحو غير قانوني؛ فألغى مجلس السوفييت الأعلى، ومجلس نواب الشعب، الذي كان قد عمل فيه غير مرة، وحدد موعدًا لإجراء استفتاء على الدستور الجديد الذي يؤسس برلمانًا جديدًا مع مجلس الدوما، ومجلس شيوخ جديدًا، ومجلس اتحاد يضم تسعًا وثمانين من المحافظات والجمهوريات التي تكوِّن روسيا في ذلك الوقت. أجريت الانتخابات في ديسمبر/ كانون الأول، وعبَّر يلتسين عن أسفه لأن رئاسته- وكان أول زعيم منتخب ديموقراطيًّا في تاريخ روسيا- لجأت إلى شركة فيات[41]. اجتمع غالبية النواب الحاليين في تحدٍّ للقرار، وأعلنوا رتسكوي رئيسًا، وطُرد وزراء يلتسين من الدفاع، والأمن، والداخلية، وحين صوتوا لإجراء انتخابات متزامنة للرئاسة والبرلمان، في مارس/ آذار عام 1994م، قطع يلتسين التيار الكهربائي وخدمة الهاتف والماء الساخن في البيت الأبيض، وتعاظمت الاحتجاجات العامة واستعد مشرعون للحصار، وبعد أربعة أيام من فرض طوق أمني على البناء أمر قوات وزارة الداخلية بتطويق المبنى.

في بطرسبورغ انحاز سوبتشاك بقوة إلى جانب يلتسين، وظهر على الهواء مناشدًا سكان المدينة بضرورة الامتناع عن المظاهرات أو الإضرابات، إلا أن نائب رئيس البلدية، فياتشيسلاف ششيرباكوف، انحاز إلى البرلمانيين المتمردين، وظهر في برامج التلفزة الإخبارية ليندد بمراسيم يلتسين، وبأنها «معادية لروسيا وغير دستورية»، فأقاله سوبتشاك فورًا، وأغلق مكتبه في سمولني. وقد ظهر عدد قليل من المتظاهرين خارج قصر ماريانسكي، ولكن ليس بالأعداد والحشود التي تجمعت حول البيت الأبيض في موسكو.

كان مجلس المدينة في حالة من الفوضى، وظهر رئيسه ألكسندر بليابييف مع سوبتشاك في سبتمبر/أيلول داعيًا إلى الهدوء، ولكن مرَّر أعضاء المجلس ستة عشر قرارًا أو بيانًا ينتقدون مراسيم يلتسين، وقد سخر أحد الصحفيين من المجلس ومن «العصف الذهني المتهور» الذي يتحلى به في وقت الأزمة السياسية الخطيرة[42].

تحولت الاحتجاجات في موسكو إلى عنف، ويوم 2 من أكتوبر/تشرين الأول، اجتاح أنصار البرلمان الحصار الأمني للبيت الأبيض، وهذه المرة كانوا مسلحين، ومن الشرفة دعا رتسكوي إلى انتفاضة، وأعلن يلتسين حالة الطوارئ. في الليلة التالية استولت جماعات مسلحة ببنادق وقنابل يدوية وقنابل مولوتوف على مكتب رئيس البلدية، واقتحمت برج التلفاز أوستانكينو، وقطعوا بث التلفاز على الهواء عدة ساعات، وهناك جوبهوا بكتائب من ضباط الشرطة الداخلية، الذين قاتلوهم وأجبروهم على الفرار على الرغم من الخسائر الكبيرة في الأرواح، فقد قتل العنف هناك العشرات، وهو عدد أكثر بكثير من عدد القتلى في انقلاب أغسطس/آب 1991م. لم يُرَق الدم في شوارع موسكو على هذا النحو منذ ثورة 1917م.

أما الجيش الروسي فقد اتخذ لنفسه جانب المراوغة؛ إذ شرع قادته يشتكون من أن جنودهم منهمكون في جني موسم البطاطا الخريفية، ولا يمكن زجهم بأي قوة، غير أنهم خضعوا في نهاية المطاف لأوامر يلتسين بعد أن أصر وزير الدفاع بافل غراتشيف على أن يلتسين يأمر بتدخلهم[43]، فحاصرت الدبابات الروسية، فجرًا، البيت الأبيض، وحطمت المتاريس، وفي الساعة العاشرة، على مرأى ومسمع من كاميرات التلفاز، بدأت أربع دبابات على جسر نوفوارباتسكي بإطلاق قذائف على الطوابق العليا من المبنى، حيث قاد يلتسين من هناك مقاومة الانقلاب منذ عامين تقريبًا. احتل الجنود طوابق المبنى واحدًا تلو الآخر، واعتقل رتسكوي ورسلان حسبولاتوف، المتحدث باسم مجلس السوفييت الأعلى، وكان الاثنان حليفين ليلتسين، مع عشرات الآخرين، وهناك في البيت الأبيض قتل مئة شخص على الأقل.

لم تكن ولاءات بوتين موضع شك قطعًا خلال الأزمة؛ وقد لحق بسوبتشاك، وفي ليلة 3 أكتوبر/تشرين الأول، التقى رئيس البلدية في المطار مع مفرزة من الحراس تبين عدم الحاجة إليها[44]، وفي اليوم التالي، مع احتدام القتال في موسكو، وصل بضع مئات من المحتجين إلى مركز تلفاز بطرسبورغ، ولكنهم لم يدخلوا في مواجهة مع الشرطة الخاصة التي تطوق المبنى. واعتمد الاثنان والسبعون من أعضاء مجلس المدينة بيانًا أدانوا فيه أولئك الذين حرضوا على سفك الدماء في موسكو، دون أن يذكروا صراحة على من يقع اللوم في ذلك. وتمكن سوبتشاك من تجنب العنف في المدينة دون تدخل عسكري؛ وذلك لأن التمرد اقتصر على العاصمة من جانب، ولأن مكتبه لم يستغل إلا قليلًا من الفرص مع خصوم يلتسين في بطرسبورغ. وزارة الأمن بالمدينة- سليلة الـ(كي جي بي) التي تحولت في نهاية المطاف إلى جهاز الأمن الاتحادي، أو FSB- «اتخذت عدة تدابير تدعو إلى اعتقال المتطرفين الذين كانوا يخططون للاستفزازات، وتفجير الأشياء، أو محاولة زعزعة الاستقرار».

هكذا وصف بوتين في وقت لاحق أحداث أكتوبر/تشرين الأول 1993م، فقد يكون هناك محرضون أو قد لا يكون، جُهزوا للعمل في بطرسبورغ، لكن ما يهم بوتين أنه «لا توجد تلك الانقسامات التي كانت قائمة بين وكالات تمكين القانون في عام 1991م»[45]. وكان رئيس جهاز الأمن في سانت بطرسبورغ صديق بوتين القديم، فيكتور شيركيسوف، الذي تعهد بولائه لسوبتشاك منذ بداية الأزمة، ويضمن على الأقل أن تبقى السلطة الرئاسية في المدينة من دون عوائق. اعترف سوبتشاك في وقت لاحق أنه أرسل (فرقة من القوات الخاصة) إلى موسكو لمساعدة يلتسين على سحق التمرد الذي بات فيه ولاء الجيش له غير مؤكد[46]، ووصلت القوات في نهاية سبتمبر/أيلول، وعلى الرغم من أنهم لم يقاتلوا في البيت الأبيض، فإنهم شاركوا في طرد المتمردين من مكتب رئيس بلدية موسكو وفندق مير[47]. وقد أكدت الأحداث صواب قرارات سوبتشاك في وقت مبكر لتعزيز العلاقة مع الأجهزة الأمنية، كما عززت هذه القرارات قناعة بوتين أنه حتى في ظل الديموقراطية، والقانون والنظام، لا بد من الاعتماد على العمل الهادئ والفعال لأجهزة المخابرات.

الفصل السادس

سوء إدارة الديموقراطية

اضطرابات عام 1993م عمقت اعتماد سوبتشاك على بوتين، وثِقته به، ووصفت صحيفة كوميرسانت بوتين بأنه «أقرب رجل إلى سوبتشاك كما كان الأمير مينشيكوف قريبًا إلى بطرس الأكبر»، في إشارة إلى الرجل الذي كان آمرًا لدى القيصر، ومحل ثقته، ومن المقربين منه، في القرن الثامن عشر، حتى نُفي إلى سيبيريا بعد وفاة بطرس[1]. ويقول سوبتشاك عن بوتين إنه كان «شخصًا شجاعًا وحاسمًا»[2]، من غير تصاميم أو خطط نحو سلطة سوبتشاك، أو حتى على موقعه، ونتيجة لذلك لم يمنح نائبه صلاحيات أكبر في إدارة المدينة ومجال الاستثمار الأجنبي وحسب، وإنما أيضًا في معاركه ضد منتقديه، وأعضاء النيابة العامة الذين بدؤوا التحقيقات في الشؤون المالية لسوبتشاك.

في خريف عام 1993م طلب سوبتشاك من بوتين إدارة الحملة الانتخابية البرلمانية لحزب (اختيار روسيا)، وهو الحزب الذي أسسه رئيس وزراء يلتسين يغور غايدار مرة بعد أخرى. وكان ذلك أمرًا محيرًا؛ لأن سوبتشاك قد أَسس الكتلة الخاصة به، الحركة الروسية للإصلاح الديموقراطي- التي أخفقت إخفاقًا ذريعًا في الفوز بأي مقعد في انتخابات ديسمبر/ كانون الأول- ولكن بوتين لا يناقش في الأوامر أبدًا؛ فقد وقف بحزم خلف سوبتشاك، إنه موال لرئيسه كما كان مواليًا لرؤسائه في الـ(كي جي بي) من قبل، بحيث لا يرى فيهم نقاط الضعف، ومن ثم عمل بوتين بلا كلال، مع هاجس يراوده أحيانًا فيعرضه لمشقة ومأساة قد تطول أولئك المقربين منه في المنزل.

في صباح يوم 23 أكتوبر/تشرين الأول 2003م، أوصل بوتين ابنته ماشا إلى المدرسة، ثم توجه إلى فندق أستوريا، حيث سيكلفه سوبتشاك بمهمة خاصة به، في حين بقيت ليودميلا في المنزل مع كاتيا المصابة بحمى، وكانت الساعة السابعة وقتها. ألحت كاتيا على والدتها للسماح لها بالذهاب إلى المدرسة كي تؤدي دورها في تجربة مسرحية (بروفة)، كانت تؤدي فيها دور سندريلا، وعلى الرغم من أن ليودميلا عرضت عليها كان لديها فكرة أفضل، فإنها أصرت[3]؛ فلديها سيارة تشيجولي جديدة، وهي- إن بدت متواضعة- السيارة الثانية للأسرة، وعلامة على تنامي الازدهار. قبل الظهر، وبينما كانت ليودميلا تقترب من الجسر فوق نهر النيفا، أسرعت سيارة أخرى متجاوزة الضوء الأحمر واصطدمت بتشيجولي؛ فغابت ليودميلا عن الوعي من أثر الصدمة، وعندما استيقظت ظنت أنها تستطيع قيادة السيارة، لكنها لم تستطع، أما كاتيا، التي كانت نائمة في المقعد الخلفي، فقد أصيبت بكدمات، ولم تتلق ضربات موجعة، ثم لم يحدث أي شيء مدة طويلة.

وصلت الشرطة، وتجمع المارة، ثم وصلت سيارة الإسعاف بعد خمس وأربعين دقيقة، فقد كانت الخدمات الأساسية في هذه الدولة متداعية. اتصلت امرأة، لم تعد تذكر ليودميلا اسمها أو رقمها، هاتفيًّا بسيارة الإسعاف، وبالرقم الذي أملته عليها ليودميلا؛ فأجابت أمينة سر بوتين، مارينا ينتالتسيفا، ولكنها لم تكن تعرف ما يجب فعله، فانطلق مساعد بوتين الذي يثق به، إيجور سيتشين، إلى موقع الحادث، وأخذ كاتيا إلى المكتب في سمولني، في حين ذهبت ينتالتسيفا للبحث عن بوتين. بعد أن وصلت سيارة الإسعاف أخيرًا، أخذت ليودميلا إلى (مستشفى 25 أكتوبر)، ولا يزال اسمه يحمل (على التقويم القديم) تاريخ الثورة البلشفية؛ تيمنًا بها. تذكر ليودميلا في وقت لاحق ما حدث في المستشفى: «كان مستشفى فظيعًا، يعج بالناس الذين يحتضرون، وكان في الردهة منه محفات (عربات حمل المرضى) عليها جثث القتلى»، والأسوأ من ذلك أن الأطباء الذين عالجوها لم يلاحظوا أنه قد كسرت ثلاث فقرات في عمودها الفقري، وكسرت قاعدة جمجمتها، فخاط الجراحون

أذنها الممزقة، وتركت عارية بحالة رهيبة على الطاولة في غرف عمليات متجمدة شبه غائبة عن الوعي[4].

في هذه الأثناء كان بوتين يلتقي في أستوريا مع ممثلي اللجنة التنفيذية للكابل التلفازي الأمريكي تيد تيرنر وجين فوندا وزوجته. وكانوا في بطرسبورغ لترتيب انطلاق الدورة الثالثة لألعاب النيات الحسنة، المنافسة الرياضية الدولية التي حلم تيرنر بتنظيمها بعد دورة الألعاب الأولمبية في موسكو عام 1980م، التي قاطعتها الولايات المتحدة ودول أخرى إثر الغزو السوفييتي لأفغانستان، ودورة الألعاب الأولمبية عام 1984م التي قاطعها الاتحاد السوفييتي وكثير من الدول التي تدور في فلكه؛ ردًّا وانتقامًا لذلك.

أقيمت المباريات الأولى في موسكو عام 1986م، والثانية في سياتل في عام 1990م، وكان تيرنر يريد إعادتها إلى روسيا الجديدة في عام 1994م، وكان سوبتشاك حريصًا على تسليط الضوء على المدينة، حتى وإن لم يكن بمقدورها تحمُّل الاستثمارات اللازمة، وقد كان بوتين يعقد سلسلة من الاجتماعات مع الزائرين عندما وصلت سكرتيرته أخيرًا إلى الفندق.

توجه مباشرة إلى غرفة الطوارئ، وقال له كبير الجراحين هناك: «لا تقلق، هي ليست في خطر، سنضع لها جبيرة فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام».

سأله: «هل أنت متأكد؟».

أجاب الجراح: «بكل تأكيد».

ومن غير أن يرى زوجته، عاد بوتين إلى لقاءاته.

في هذه الأثناء، أخذت ينتالتسيفا كاتيا إلى المستشفى، وجاءت بماشا من مدرستها، وطلب بوتين إلى ينتالتسيفا قضاء ليلة معهم في المنزل الريفي العائلي، وطلب إليها أيضًا الاتصال بيوري شيفتشينكو، أحد الأطباء البارزين في الأكاديمية الطبية العسكرية في المدينة (الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للصحة).

حل المساء قبل أن تصل إلى شيفتشينكو، الذي أرسل على الفور طبيبًا من عيادة الأكاديمية. تتذكر ليودميلا كيف استيقظت في غرفة العمليات وشعرت بيده الدافئة تمسك يدها؛ «رفع من معنوياتي، وعرفت أنه أنقذني». تدبر الطبيب ترتيب نقلها إلى المستشفى العسكري، وقد كشفت الصور الشعاعية عن إصابات بالعمود الفقري، وهي بذلك تحتاج إلى عملية جراحية طارئة. وبين اجتماعين في تلك الليلة، زارها بوتين لأول مرة، وقابل ينتالتسيفا وطفلتيه في موقف السيارات، وأخبرها أنه من غير المرجح أن يعود إلى المنزل؛ لأنه من المقرر أن تستمر محادثاته مع تيد تيرنر في الليل. فأخذت الفتاتين إلى المنزل الريفي، وعندما لم تتمكن من العثور على مفتاح التدفئة، أجلست الطفلتين في سرير واحد وغطتهما بأغطية إضافية. كانت مستيقظة ترتعش عندما وصل بوتين إلى المنزل في الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم، وفي الساعة السابعة صباحًا غادر مرة أخرى[5].

أصبحت ينتالتسيفا مقربة من الأسرة، وبقيت مع الفتاتين إلى أن وصلت أمهما ليودميلا من كالينينجراد، وكانت قد اعتادت على صرامة بوتين، وسلوكه الهادئ، ودقته في التعامل مع رجال الأعمال في المدينة، ورده البارد حين قتل كلبه، لكن اليوم يبدو فاقدًا لأعصابه، قالت: «لا أستطيع القول إنه حزن أو ارتبك، ولا أعرف حتى ما الذي يستولي عليه»، وأضافت: «المشكلة ليست هنا؛ كنت أشعر أنه يحاول الخروج فقط بخطة من رأسه». أمضت ليودميلا شهرًا في الأكاديمية الطبية العسكرية، حيث اكتشفوا فيما بعد كسرًا في قاعدة الجمجمة، وبعد خروجها من المستشفى اضطرت إلى وضع دعامة عدةَ أشهر.

كانت ثقة بوتين بالذين عرفهم كبيرة، وكان جلهم من (أجهزة السلطة)، هؤلاء الأصدقاء أصبحوا يعرفون (بالحرس القديم) (siloviki)، وهي في أصلها من كلمة (قوة)؛ نظرًا لخلفياتهم العسكرية أو الأمنية. وكان يعرف أن هؤلاء الرجال هم الذين سيقفون إلى جانبه بتفان عند الأزمة، ولم يكن يثق بغيرهم تقريبًا.

وبخصوص إصابات ليودميلا فقد اعتمد بوتين على إيجور سيتشين، ثم شيفتشينكو، ثم على صديقه الجديد في مصرف دريسدن، رجل أمن الدولة السابق (ستاسي) ماتياس وارنيغ، وهو من أهالي دريسدن الذي تولى ترتيب علاج ليودميلا، ودفع ثمن العلاج في عيادة بمدينة باد هومبورغ، في ألمانيا، فالعلاج الطبي، والرعاية الطبية المتردية أساسًا في روسيا، لا تحقق الشفاء[6]، فضلًا عن أن بوتين كان يعجز عن تحمل نفقات العلاج في الخارج، وهو ما يدحض مزاعم منتقديه بأنه، أيضًا، كان يسعى لإثراء نفسه في إدارة سوبتشاك. ولكنه كان يوقن بالفهم الروسي الجوهري بأن المساعدة، سواء في أزمة أو في غيرها، تأتي من خلال الاتصالات، وتبادل الفضائل، فكان يتذكر دائمًا أعمال الولاء كأعمال وارنيغ، لكنه لا يغفر الخيانات مطلقًا.

بعد أن حل يلتسين مجلس المدينة في أعقاب أزمة 1993م، بدت سلطة سوبتشاك في بطرسبورغ لا يمكن تعويضها، والمرسوم الذي كتبه ووقعه يلتسين، نقل السلطة على نحو كبير من المجلس إلى مكتب رئيس البلدية، لتصبح المدينة جاهزة لإجراء انتخابات مارس/آذار 1994م، وأسس المرسوم لإنشاء هيئة تشريعية جديدة مصغرة؛ فبدلًا من أربع مئة عضو، ضم المجلس التشريعي الجديد خمسين عضوًا فقط.

من الناحية النظرية كان ذلك إعادة هيكلة ديموقراطية لفروع السلطة، لكن في الواقع عزز سوبتشاك من سيطرته على كل شؤون المدينة، وفي 16 مارس/آذار، قبل أربعة أيام من الانتخابات، أعاد هيكلة حكومة المدينة، جاعلًا من نفسه رئيسًا للحكومة، وتخلص من اللجان التي كانت ترفع تقاريرها لنائب رئيس البلدية، وعزز من صلاحيات لجان أخرى، ورُفِّع رؤساء أقوى اللجان الثلاث، الذين يشرفون على التمويل، والعلاقات الدولية، والعمليات، وأصبح فلاديمير بوتين أحد النواب الثلاثة لحكومة سوبتشاك الجديدة، وظل مسؤولًا عن الشؤون الاقتصادية الخارجية[7].

كانت الانتخابات التشريعية مهزلة، وكتب مكتب سوبتشاك الأحكام دون أي مساهمة أو موافقة من أعضاء المجلس الذي كانت يعاد هيكلته، وعندما فتحت صناديق الاقتراع يوم 20 مارس/آذار، لم تكلف الأغلبية الساحقة من الناس أنفسهم عناء التصويت، والمخاطرة بإلغاء النتائج؛ لأن القانون يتطلب الحد الأدنى من الإقبال 25 في المئة، وقد حقق الإقبال الحد الأدنى في نصف المناطق الخمسين فقط، وانضم خمسة وعشرون نائبًا جديدًا للجمعية، لكنها غير مكتملة النصاب، ولا يمكن أن تعمل قانونيًّا، ولم يبد على سوبتشاك الانزعاج من التحول في الأحداث، ولم يضع موعدًا لجولة جديدة من الانتخابات لملء المقاعد المتبقية حتى أكتوبر/تشرين الأول، وكان حتى ذلك الحين هو ونوابه يحكمون وفق ما يرونه مناسبًا، دون رقابة السلطة التشريعية.

بعد خمس سنوات من تأسيس مجلس المدينة لأول مرة، تحوَّل التعبير البهيج للإرادة الشعبية من خلال صناديق الاقتراع إلى الاشمئزاز مع العملية الديموقراطية. كانت الديموقراطية في روسيا قد تجذرت في التربة الجرداء، وأعيق نموها حقًّا. وقد وُجِّه كثير من اللوم إلى الدولة، لما وصل إليه الاقتصاد الروسي الجديد من حالة كارثية، والصعوبات التي واجهت الخصخصة، وتكديس الفاسدين للثروة، وارتفاع نسبة الجريمة التي جعلت بطرسبورغ سيئة السمعة كأنها مستنقع للعنف والجريمة المنظمة. وكانت المفارقة أن الرجل الذي قاد الكفاح من أجل الديموقراطية في بطرسبورغ تحمل كثيرًا من اللوم. وبدأب كبير قلص من صلاحيات المجلس، فلم يكترث الناخبون لذلك بمن سيعمل فيه. كان سوبتشاك خطيبًا بارعًا ومديرًا رهيبًا، وأدى انشغاله بالسلطة، والهيبة الدولية، إلى أن يتجاهل المشكلات اليومية لمدينته، وقدرته على تعزيز الديموقراطية تعني- في رأيه- تعزيز الحكم الزئبقي له.

بعد وقت قصير من الانتخابات، أقال قائد شرطة المدينة، أركادي كراماريف، الذي تحدى قادة الانقلاب عام 1991م، وحمى سوبتشاك من الاعتقال، محملًا إياه سبب زيادة الجريمة في المدينة، وبعد أن عزز سيطرته على الشبكة التلفازية في المدينة، تأكد سوبتشاك

من أن تغطيته كانت رائعة، وأن خصومه لم يعد لهم وجود. بعد الفوز بحق استضافة دورة ألعاب النيات الحسنة، استخدم شرط الإقامة الذي كان يطبق في العهد السوفييتي، والذي أبطلته المحكمة الدستورية، لدفع العمال المهاجرين غير المرغوب فيهم للخروج من المدينة قبل افتتاح الألعاب في يوليو/تموز 1994م[8].

بهذه الطريقة أصبحت ألعاب النيات الحسنة رمزها العمدة سوبتشاك: مشروعًا غير محتمل لدعم مكانة المدينة، تقوضه الوقائع القاسية لعملية التحول التي تشهدها البلاد. بعد أن أخفق في تحويل بطرسبورغ إلى عاصمة عالمية للمصارف، أو منطقة اقتصادية مزدهرة بالحرية، اعتقد سوبتشاك أن استضافة هذا الحدث الرياضي الدولي ستكون في حد ذاتها جاذبة للمستثمرين الذين كانوا يبتعدون أكثر. وفوق ذلك فقد جُهِّزت المدينة بطريقة سيئة، تنقصها السيولة النقدية، والفنادق، والمرافق الرياضية. وبعد استنزاف موازنة إصلاح مترو الأنفاق في المدينة، توسل إلى موسكو لتحول له مزيدًا من المال، وأسرع مكتب سوبتشاك لتجديد الملاعب، وتزفيت الطرق، وتلميع واجهات عديد من القصور والكنائس والآثار في المدينة. وفي الوقت الذي بدؤوا فيه، كانت الألعاب تعاني سوء التخطيط، والمشكلات اللوجستية، والعمل غير المطابق للمواصفات؛ فساحة التزلج على الجليد الداخلية- ألعاب تيرنر خلطت الألعاب الصيفية والشتوية- لم تنجح في تشكيل الجليد، وأُجِّل لليوم التالي؛ لأن رائحة ماء المسبح أصبحت كريهة؛ بسبب توقف إحدى المصافي، وانسحب بعض السباحين بعد أن أصبحت الماء ذات مسحة خضراء[9]، كما أن أسعار التذاكر لم تكن في متناول المواطنين الروس العاديين، وهو ما أدى إلى قلة الحضور لكثير من الفعاليات، حتى حين نفدت البطاقات.

استثمرت المدينة والدولة 70 مليون دولار في المباريات، وبالنسبة إلى معظم السكان فإن النفقات التي دفعت كانت أكثر بقليل مما يُدفع لقرية بوتيمكين، المثيرة للإعجاب لكنها في الحقيقة واجهة لإخفاء الخراب المحزن في المدينة.

بدا أن طموحات سوبتشاك بلا قيود، وعدَّ الألعاب تجربة أولية (بروفة) لاستضافة المدينة دورة الألعاب الأولمبية صيف عام 2004م. في روسيا الجديدة- كما هو الحال في الاتحاد السوفييتي- أصبحت الرغبة في عقد دورة الألعاب الأولمبية هاجسًا يتناسب طرديًّا مع التوق إلى اعتراف دولي، وإلى الشرعية في الداخل والخارج. وكانت مقاطعة دورة الألعاب الأولمبية في صيف عام 1980م قد تركت مرارة لن تنسى إلا عندما يستطيع القائد العظيم للأمة أن يستضيف الأولمبياد مرة أخرى، وسوبتشاك لن يكون هذا الزعيم، ولم يعد حتى عمدة عندما اختارت اللجنة الأولمبية الدولية أثينا في عام 1997م لتكون المدينة المضيفة لعام 2004م، بعد أن أخفقت دعوة سانت بطرسبورغ، التي أعدت على عجل بمساعدة بوتين، وقبل أن تصل إلى المرحلة النهائية من الدراسة. كانت غطرسة سوبتشاك قد أعمته عن أهم ميزة أساسية للديموقراطية، وهي التي روَّج لها بكل ما يملك من فصاحة: الناس لديهم تصويت. في عام 1996م أعيد انتخاب سوبتشاك، وكذلك بوتين، وجاءت النتيجة خيانة شخصية عميقة.

كان سوبتشاك يعتقد أن حملة إعادة انتخابه ستكون بسيطة: سيُذكِّر الناخبين بقيادته البطولية خلال أزمات عام 1991م وعام 1993م، وسيذكرهم أيضًا بألعاب النيات الحسنة، ودعوته لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية لعام 2004م، وبالشركات الجديدة، والمصارف، والاستثمارات الأجنبية، واجتماعاته الخاصة مع الزعماء الأجانب، ومن ذلك لقاؤه بالرئيس بيل كلينتون في ذروة حملته. أعلن سوبتشاك نفسه ديموقراطيًّا ورجل دولة وقف بوجه الانتقاميين الذين أرادوا أن يعيدوا بطرسبورغ إلى لينينجراد، وفي الواقع كان الشيوعيون أقل من يقلقونه، فانتخابه لم يكن اختبارًا للأيديولوجيات المتنافسة، بل استفتاء على منصب العمدة، ولم يكن يدري أن الخطر الأكبر يأتي من الداخل.

تزامنًا مع الانتخابات الرئاسية الوطنية، حددت الجمعية التشريعية في المدينة موعد الانتخابات في 16 يونيو/حزيران، وغيرت اسم رئيس البلدية إلى محافظ، كما كان عندما كان زعيم المدينة يعمل لدى سعادة القياصرة، في حين أظهرت ملصقات حملة سوباتشاك

صورته وهو يجلس وراء مكتب، مع شعار بسيط: (من عمدة إلى محافظ)، كما لو أنه انتقال لا مفر منه، وكان يعتقد أن الملصق مشوِّق؛ لكن «للأسف مقارٌّ حملتي كانت أقل فعالية وكفاءة»[10]. أصبح اليوم سوبتشاك أقل ثقة بنائبه السياسي، وتركه لإدارة شؤون المدينة، ولكن لمس بوتين أيضًا أن غرائز سوبتشاك السياسية، وقدرته الخطابية، لن تكون كافية لضمان الفوز. في الانتخابات البرلمانية الوطنية التي جرت في ديسمبر/ كانون الأول عام 1995م، كان الحزب الذي يدعمه سوبتشاك ضعيفًا، وحتى في بطرسبورغ أيضًا، ومن ناحية أخرى، كان سوبتشاك يقلِّل من أهمية فقدان الدعم له في موسكو، وكان يُنظر إلى طموحاته السياسية من قبل أولئك الذين يتآمرون لإبقاء بوريس يلتسين في السلطة رئيسًا، على أنها تهديد، فقد بدأت تلوح بالأفق الانتخابات الرئاسية لعام 1996م.

بتوجيه من رئيس الأمن لدى يلتسين الذي عرف بقوة تأثيره، بدأ المدعي العام الروسي يوري سكوراتوف، التحقيق في شؤون سوبتشاك في نهاية عام 1995م؛ بهدف كبح طموحاته السياسية على ما يبدو؛ وكان ذلك قلبًا لحظوظه، وفيه من المفاجأة والسرعة كما فعل ستالين مع أعضاء الحزب غير المرغوب فيهم، وأدى من ثم إلى تمريغ صورة سوبتشاك.

شكل سكوراتوف لجنة تحقيق سرعان ما بدأت تسرب تفاصيل مساوماتها- المعروفة بالروسية بالكومبرومات- حول خصخصة غامضة للشقق من قبل شركة تسمى (النهضة)، ومن ضمنها تلك التي ذهبت إلى بوتين ونواب آخرين. رأى بوتين أن التحقيق استخدامٌ فظٌّ لسلطة الادعاء العام ضد رجل قدم الخدمة له، وقد تركته التجربة متعطشًا للانتقام.

قال بوتين مذكرًا سوبتشاك: «أنت تعرف أنك في ملعب مختلف تمامًا»، وأضاف: «أنت بحاجة إلى متخصصين»[11]، فوافق سوبتشاك وتوجَّه إلى ألكسندر يورييف، أستاذ العلوم السياسية في جامعة سان بطرسبورغ الحكومية، الذي حذره من أن إنجازاته، مهما عظمت، لم تعد تلقى صدى عند الناخبين الذين أصيبوا بالضجر وبخيبة أمل من الجريمة والفوضى التي شغلت المدينة[12].

في يناير/كانون الثاني، وبعد أيام قليلة من موافقته على العمل بالحملة، سمع يورييف طرقات على باب شقته، فلما نظر إلى الخارج كانت هناك شابة جميلة، فظن أنها طالبة تريد أن تسلم وظيفتها، وما إن فتح الباب حتى قذفه رجل مقنع بقارورة من الحمض على وجهه، وعندما ترنح يورييف متراجعًا إلى الخلف، أشهر الرجل مسدسًا وأطلق عليه رصاصة أخطأته. وعندما زار سوبتشاك يورييف في المستشفى، وجد رأسه مغطى كاملًا بضمادات بيضاء. لم تستطع الشرطة الإمساك بالمهاجمين، أو تتبين الدافع وراء ذلك، ولكن شكَّ سوبتشاك أن المحاولة جزء من مؤامرة مكشوفة ترمي إلى إقصائه عن منصبه[13].

الهجوم زاد من توتر بوتين كثيرًا، فبدأ يحمل مسدسًا هوائيًّا، وعندما شاهده سيرجي رولدغن، الصديق القديم له، حين زاره في بيته الريفي في بداية الحملة، سأله: «هل تعتقد أن المسدس الهوائية سيوفر لك الحماية؟»، أجابه: «لن يحميني، لكنه يجعلني أشعر بمزيد من الهدوء»[14].

تأهل أربعة عشر مرشحًا ينافسون سوبتشاك، وكان من بينهم أعداء ألداء له: نائب رئيس البلدية، فياتشيسلاف ششيرباكوف، الذي لا يزال يحاكم بعد فصله من جرَّاء أحداث 1993م؛ ويوري شوتوف، المساعد السابق الذي جُرِّدَ من مهامه بصفته كاتبًا لسيرة سوبتشاك، وألكسندر بليابيف، الرئيس السابق لمجلس المدينة الذي حله سوبتشاك، وإضافة إليهم كان يوري بولديريف، الرجل الذي شعر سوبتشاك بالقلق الأكبر منه؛ فهو ليبرالي بارز، شغل منصب رئيس هيئة التدقيق في موسكو، وهو من قاد التحقيق في اتهامات الفساد الأولى التي وجهت ضد بوتين عام 1992م، وقد حققت له سمعة بأنه محقق صادق في زمن الإجرام المذهل[15].

كان سوبتشاك قد خضع للتحقيق سابقًا، وانتخاب بولديريف قد تزيد من المشكلات القانونية التي يواجهها، وربما تلاحق بوتين أيضًا، ومن ثم حاول سوبتشاك استخدام مناورات المحامين للتلاعب في السباق لمصلحته الخاصة. وفي مارس/آذار، عدل قانون

الانتخابات ليشمل شرط الإقامة، وبذلك فقد يستبعد بولديريف، وهو مواطن من المدينة، على أساس أنه كان يعيش ويعمل في موسكو، وقد كانت مكيدة يائسة وغير ديموقراطية خاضها بولديريف بنجاح في المحكمة.

كما أن المناورة اللاحقة لسوبتشاك أثبتت عواقبها الخطيرة، فعلى الرغم من أن موعد الانتخابات كان مقررًا أصلًا في شهر يونيو/حزيران، فإن سوبتشاك غيّر ذلك، وادعى أنه فعل ذلك بإصرار من يلتسين، الذي كان أصدر مرسومًا يقضي بأن أي انتخابات أخرى باستثناء سباق العمدة في موسكو يجب ألا يعقد في نفس يوم الانتخابات الرئاسية[16]، وقد اقترح في البداية تأجيل الانتخابات حتى شهر ديسمبر/كانون الأول، إلا أن خصومه استنكروا هذا بشدة؛ لأنه محاولة واضحة لتمديد ولايته. وبالمقابل أرسل بوتين إلى الجمعية التشريعية في مارس/آذار لإقناع النواب، وبالتهديد بالانتقام، وتوفير فرص العمل، تمكن بوتين في نهاية المطاف، وحسب القانون، من إجراء الانتخابات في 19 مايو/أيار، ولكن فقط بعد تأمين النصاب القانوني الذي يشك بتأمينه[17]. فبدأ منافسو سوبتشاك بالاحتجاج؛ ليس لأن إجراء انتخابات منفصلة يضيع موارد المدينة فقط، وإنما لأن هذه الخطوة تضيق الوقت عليهم في التواصل مع الناخبين، كما أن شبكات التلفاز التي يسيطر عليها مكتب سوبتشاك لم تقدم أي مساعدة، فقد ركزت اهتمامها كثيرًا على سوبتشاك، في حين كانت تخصص ضمن برنامجٍ خمس عشرة دقيقة فقط لكل خصم من خصومه على الهواء.

وكانت الأخطار التي لم يأخذها سوبتشاك وبوتين بالحسبان هي أن إجراء الانتخابات قبل الانتخابات الرئاسية سيخفض بكل تأكيد نسبة الإقبال، وهذا سيضر بفرصة نجاحه، كما سبق أن حذره يورييف.

بات القلق يساور سوبتشاك، وكان يتوقع أن أعداءه في موسكو يتآمرون عليه، فسافر إلى موسكو في مارس/ آذار يطلب من يلتسين الدعم، ولكنه فوجئ بأن صداقتهما قد تبددت. وفي تلك السنة كانت احتمالات إعادة انتخاب يلتسين نفسه في غاية السوء، وقد خشي

مساعدوه من المنافسات من كل الجهات، الحقيقي منها والوهمي، ويبدو أن أحد نواب رئيس وزراء يلتسين، أوليغ سوسكوفيتس، أبلغه أن سوبتشاك أعرب، خلال لقائه مع المستشار الألماني هيلموت كول، عن رغبته في أن يُستَبدل بيلتسين فيكتور تشيرنوميردين[18].

لم يكن جنون العظمة لدى سوبتشاك في غير محله؛ فعقب أيام من اجتماع سوبتشاك في الكرملين، غدت المكائد السياسية ضده واضحة، إذ كان لدى سوسكوفيتس، ورئيس الأمن القوي لدى يلتسين الفريق ألكسندر كورزهاكوف، مرشحهما الخاص لينافس سوبتشاك في بطرسبورغ، ولم يكن أحد المنافسين الكثر في السباق، بل كان فلاديمير ياكوفليف؛ نائب سوبتشاك نفسه، الذي كانا يُعدانه سرًّا منذ شهور، حتى إن النيابة العامة زادت من وتيرة تحقيقاتها مع سوبتشاك وموظفيه.

وفي يوم 27 مارس/آذار، أعلن ياكوفليف على نحو مفاجئ دخوله في الحملة الانتخابية ضد رئيسه، وكان حينها في الثانية والخمسين، أصغر من رئيسه سوبتشاك بسبع سنوات، وهو مهندس بناء، ملتزم في الحزب السابق، أسهم في الانتقال إلى الديموقراطية الجديدة، مثل فلاديمير بوتين، بتأثير من سوبتشاك، وظل شيوعيًّا مخلصًا للحزب حتى حظرِه عام 1991م، على الرغم من فصله عام 1982م من اللجنة التنفيذية الإقليمية؛ بسبب استغلال منصبه لشراء سيارة شخصية له[19]، وكان يعمل بصفة كبير المهندسين في شركة إسكان عندما جاء به سوبتشاك للعمل معه في أكتوبر/تشرين الأول 1993م، وبعد عام انضم بوتين وألكسي كودرين لمنصب نائب العمدة الأول.

لم يكن لياكوفليف حضور جماهيري أكثر من بوتين، لكنه كان أكثر طموحًا وأقل ولاءً، قَبِل بدعم كورزهاكوف وسوسكوفيتس الذين وعدا به، للإطاحة برئيسه. الإعلان كان صادمًا لسوبتشاك، حتى إنه فصل على الفور ياكوفليف، وقال حينها: لو كان ياكوفليف رجلًا حقًّا لاستقال قبل أن يعلن المنافسة. غضب بوتين أيضًا من ترشيح ياكوفليف، وسماه علنًا بـ يهوذا (الذي خان السيد المسيح)[20]، وعمم من خلال البريد الإلكتروني بضرورة أن يوقع جميع

الموظفين لدى سوبتشاك على أنه في حال خسر سوبتشاك الانتخابات فسيستقيلون جميعًا احتجاجًا على ذلك.

بمرارة المعرفة المتأخرة، وصف سوبتشاك إنجازات ياكوفليف بالمتواضعة، ووصفه بأنه لم يكن ذكيًّا «كما الناس الأكثر تعليمًا وثقافة ومهارة» في فريقه، مثل بوتين، وقد فضحه الموظفون حين لقبوه بـ(السباك)[21]، وهو ما يناقض رواية بوتين بأنه من (ستاسي).

سوبتشاك تجاهل ياكوفليف ومنافسيه الآخرين، والتفت إلى تنفيذ مهامه الرسمية، كما لو أن هذا كاف لإثبات جدارته الانتخابية، وأولت حملته الانتخابية اهتمامًا كبيرًا بيلتسين قبل الانتخابات الرئاسية، على أمل أن يثبت ولاءه ويعيد التحالف السياسي الذي كان بينهما ذات يوم. وفي التاسع عشر من أبريل/نيسان وصل بيل كلينتون إلى بطرسبورغ في طريقه لحضور اجتماعات في موسكو، وكان الأمريكيون يأملون في الوقوف إلى جانب يلتسين للتغلب على الحزب الشيوعي المتنامي. التقاه سوبتشاك في المطار واتجها بسيارة ليموزين لتسارسكوي سيلو حيث المبنى الإمبراطوري جنوب المدينة. قد يكون دار في خلده أن تكون المحادثات الخاصة وسيلة للوصول ثانية إلى يلتسين، فقد خرج سوبتشاك عن المسار المتوقع لشرح كيف يمكن أن ينتصر يلتسين على منافسه الرئيسي، الشيوعي غينادي زغانوف.

كان سوبتشاك يرافق كلينتون مثل ظله في كل مكان، متطلعًا إلى أن يظهر على شاشات التلفاز كرجل برفقة قائد على مستوى العالم، ولذلك فقد اشتكى كلينتون أنه خلال زيارته «وُضع في شرنقة لعينة»، فاللقاء الذي كان مقررًا للقاء طلاب في الأرميتاج ألغي، وألغي كذلك طلبه بوقوف الموكب لمصافحة الناس في الشارع. واتهم مساعد كلينتون، ستروب تالبوت، المسؤولين بأنهم أفرطوا في الإشراف على تفاصيل الزيارة، فعلق فلاديمير بوتين في ذلك الوقت قائلًا: «إن هذا الاسم لا يعني لنا شيئًا»[22].

ياكوفليف ليس سياسيًّا محنكًا كما كان سوبتشاك، لكنه كان شخصية جذابة بطريقته الخاصة، وأكثر انسجامًا مع رغبات الناخبين، طويل القامة، رقيقًا بوجه ملائكي، عظام

خديه عرضة للانقسام لترسم ابتسامة أبله. لم يقدم أي بديل أيديولوجي حقيقي- فليس لديه نية لاستعادة الشقق والمصانع المخصخصة على سبيل المثال- لكنه وعد بالعمل لإصلاح مشكلات كثيرة في المدينة: صنابير المياه غير الصالحة للشرب، والشوارع المليئة بالحفر، وانهيار الأنفاق، ووعد بفرص العمل، ولكن تجنب دورة الألعاب الأولمبية.

قلَّل سوبتشاك من شأن وعود الحملة الانتخابية التي أطلقها منافسه، واصفًا إياها «بأوهام خلابة لجمهور ساذج»، لكنه كان استخفافًا بمطالب مساعديه؛ فالمدينة التي لا يزال الناس فيها يعيشون في شقق مشتركة، والخدمات الأساسية فيها متهالكة، وسيارات الإسعاف هزيلة، والماء مشوب بالجيارديا، ومياه الصرف الصحي تتدفق من دون معالجة في بحر البلطيق، المدينة التي لم تستطع خلال شهر في سبتمبر/أيلول 1995م أن تدفئ مستشفياتها[23]، قد يكون (السباك) فقط ما يريده الناخبون.

مع ضخ السيولة النقدية بدعم من أنصاره في موسكو، استعان ياكوفليف بمستشاريه المهنيين في الحملة، فساعدوه على إدارة حملة أكثر تنظيمًا وفاعلية؛ ومن ثم فصناديق البريد اليوم تمتلئ بالمنشورات، والإعلانات تبث من خلال موجات الأثير، تحمل جميعها رسالة بسيطة مؤداها استعادة الحكم والخدمات الأساسية[24].

تلقى ياكوفليف الدعم السياسي أيضًا من حليف قوي جديد، هو يوري لوجكوف، محافظ موسكو ذي الشعبية العالية، والرأس الأصلع، والصدر البرميلي. ياكوفليف كيَّف نفسه، كما كيَّف لوجكوف نفسه مع بطرسبورغ. وقد اقترح لوجكوف علنًا مشاريع جديدة يمكن أن تجعل كل المدن تزدهر، خلافًا لحملة سوبتشاك، التي تفتقر إلى المال. وإذ لم يكن لبوتين سوى الدور القليل في هذا الموضوع، فقد دخل اليوم الصراعَ طالبًا التبرعات من رجال الأعمال الذين عمل معهم طوال السنوات الخمس الماضية، وهو ما نظر إليه على أنه استجداء مكشوف الأمر الذي قوبل باشمئزاز واضح[25]. عندما دعا مجموعة منهم لجمع التبرعات، رفضوا المساعدة، مع أنهم هم أنفسهم الذين- في رأيه- استفادوا من عمليات الخصخصة

والاستثمارات التي جعلها سوبتشاك ممكنة. أحد الأشقياء المحليين كان وافر الحظ، زاد 2000 دولار عن كل رجل من رجال الأعمال الصغار الذين قالوا إن هذا المبلغ أفضل من رفض التبرع لـ(مؤسسة تدعم رئيس البلدية)[26].

هيمنة سوبتشاك على السياسة في المدينة منذ عام 1989م، والكاريزما والمكانة التي يتمتع بها، لم تعد تحميه من الهجمات الشخصية المهلكة؛ فقد قال ألكسندر بليابييف، رئيس المجلس السابق، في مؤتمر صحفي، إن سوبتشاك وبوتين لديهما ممتلكات على ساحل الأطلسي في فرنسا، وإن سوبتشاك اعتقل عام 1993م في مطار هيثرو في لندن وكان يحمل حقيبة بها مليون دولار، وتعهد إن أصبح حاكمًا أن «يودع سوبتشاك السجن»[27]. وقد رد بوتين على الاتهامات الموجهة ضده، برفع دعوى قضائية تتهم بليابييف بالافتراء، لكنه أخطأ في المحكمة المختصة في ذلك فسخرت منه الصحافة بقسوة: «إن رجل المخابرات يجب أن يعرف عنوان **المدعي عليه**»، هذا ما كتبته إحدى الصحف في عنوان لها، ولما حاول الدفاع عن نفسه بأنه لا يعلم حتى أين يقع ساحل المحيط الأطلسي في فرنسا، زاد من سخرية الجمهور[28].

كانت الحملة شرسة، وكانت قذرة، وكانت أيضًا أكثر أو أقل حرية ونزاهة، وفي روسيا يمكن أن تكون الانتخابات في ذلك الوقت شائكة، لكنهم كانوا ديموقراطيين. عند فرز الأصوات في ليلة 19 مايو/أيار، جاء سوبتشاك على رأس قائمة من ثلاثة عشر مرشحًا آخرين، لكنه نال 28 في المئة من الأصوات مقابل 21 في المئة فقط لياكوفليف، وبهذا لم يحقق أي منهما 50 بالمئة، فتقرر إجراء جولة إعادة في 2 يونيو/حزيران.

كان سوبتشاك يأمل بالفوز، لكن الذعر يجتاح اليوم فريق حملته وموظفيه، وبات جليًّا أن بوتين «أصبح أكثر عصبية»، وتدخل في الحملة مباشرة، و«لكن في ذلك الوقت أصبح الوضع ميئوسًا منه»[29]؛ فقد أيد خصوم سوبتشاك المهزومون جميعهم ياكوفليف، والأسوأ من ذلك أن التحقيقات التي تدور حول مالية سوبتشاك، والشقق التي وزعها، تسربت إلى

الجمهور، وأكدها ليونيد بروشكين، أحد المحققين المحليين، وقد طبعت أخبار اتهاماته على النشرات، ووزعها فريق حملة ياكوفليف في جميع أنحاء المدينة، دفعة واحدة، بإسقاطها من طائرة عمودية، فكتب بوتين رسالة سخط إلى يلتسين، متهمًا تشيرنوميردين، والنائب العام يوري سكوراتوف، بانخراطهم المباشر في حملة (الاضطهاد والافتراء).

ندد بروشكين بالأمر بقوة، وصرح لإحدى الصحف الموالية للشيوعية قائلًا: «هناك انتهاك لكل المعايير الإجرائية»، وهكذا انتشرت (مادة لا أساس لها). طالب بوتين بـ«إجراءات حاسمة لوضع حد لاستخدام سلطات تمكين القانون لأغراض سياسية»[30].

كان الأسبوعان الأخيران من الانتخابات في غاية التوتر، وفق ما كشفته كلتا الحملتين[31]؛ كان ياكوفليف قلقًا على سلامته، وكانت ترافقه وهو يجوب بسيارته جميع أنحاء المدينة سيارتان رياضيتان متعددتا الاستخدامات، وكاملة بحراس مدججين بالبنادق ويرتدون الملابس السوداء. وواجه بوتين بشائعات تقول إن سوبتشاك أمر باغتياله، وأجاب بوتين: «ما أنت؟ هل أنت مجنون؟ الأفضل أن تنظر إلى نفسك في المرآة»[32].

كان الأمل الأخير لسوبتشاك المناظرة التلفازية في الأسبوع الأخير قبل التصويت، ولكن هناك خانته بلاغته؛ وبدا ياكوفليف مرتاحًا، إذ خلع سترته، وتحدث بوضوح وقوة، في حين جلس سوبتشاك محدودبًا، متلعثمًا يجاهد في نطق الكلمات، وكان أصيب بالحمى قبل المناظرة، وحين بدأ- كما روى ذلك لاحقًا- شعر بثقل في لسانه، وتشنجات في حنجرته، وعندما سئل عن مصدر البيت الريفي المشبوه، لم يتمكن من الإجابة، وذكر أنه لم يعلم بالحقيقة إلا في وقت لاحق. أحضر فريق حملة ياكوفليف طبيبًا نفسيًّا إلى الجمهور؛ «استشرت الخبراء، وأكدوا لي أن تأثير المنوم قوي، ويسبب غالبًا تشنجات في الحنجرة، وثقلًا في اللسان، وصداعًا وارتفاعًا حادًّا في درجة الحرارة؛ بسبب مقاومة الجسم لتأثير الطاقة الغريبة»[33]. سوبتشاك لم يخسر الانتخابات فحسب، بل كاد يفقد عقله أيضًا.

في النهاية فاز ياكوفليف بـ 47.5 في المئة من الأصوات، وحاز سوبتشاك 45.8 في المئة، وكان أقل من هزيمة مشرفة، ومع ذلك لم يعرف التواضع، فقد كان يقارن مصيره بوينستون تشرشل؛ «منقذ البلاد، ورمز الانتصار»، الذي أطيح به في صناديق الاقتراع في عام 1945م[34]. ورفض بفظاظة حضور افتتاح حفل فوز ياكوفليف، الذي عقد في سمولني بعد عشرة أيام، ولكنه بهذا فعل- على الرغم مما يحمله من نزعات استبدادية- ما لم يفعله أي مسؤول آخر منتخب بهذه الأهمية في روسيا؛ إذ لم يعترض على النتائج، أو غير ذلك في محاولة لمنع انتصار ياكوفليف، بل قبل بالهزيمة وتنحى.

> «لم أكن يومًا مدمن سلطة، مثل لينين أو يلتسين، لكن لو أنني خسرت الانتخابات أمام منافس جدير، لكانت الهزيمة أسهل علي»، هذا ما كتبه في مذكراته بعنوان **دزينة من السكاكين في الظهر**، وأضاف: «ما يشغلني في هذه الحالة هو أنني خسرت أمام ياكوفليف؛ الرجل الرمادي والبدائي بوضوح. قرَّعت نفسي لأنني أخفقت في رؤية سرقته من الحكومة لحساب المكاتب الهندسية الخاصة، لكن المؤلم أكثر أن الردة أو الخيانة المباشرة كانت من جانب بعض أولئك الذين أحاطوا بي»[35]، وأشار إلى استثناء واحد: فلاديمير بوتين.

خسارة سوبتشاك غير المتوقعة تركت بوتين من غير وظيفة، ومن غير رعاية، ومن غير هدف، فبدا كما لو أنه عاد من ألمانيا الشرقية مرة أخرى. وعلى الرغم من الرسالة التي وقعها هو وغيره، لم يستقل فورًا، مع أنه يعمل اليوم لدى المحافظ الجديد الذي أسماه يهوذا. أقنع ياكوفليف مساعدي سوبتشاك الآخرين بالبقاء في وظائفهم، ومن ضمنهم ديمتري كوزاك، الصديق والمدعي العام السابق، وميخائيل مانيفتش، الخبير الاقتصادي الشاب، الذي أصبح نائبًا للحاكم.

بقي كوزاك مقربًا من بوتين لسنوات، ولكن مانيفتش اغتيل بعد عام، إذ أطلق قناص ثماني رصاصات على سيارته وهي تنعطف إلى شارع نيفسكي بروسبكت، وظل بوتين في مكتبه في سمولني من خلال إعادة انتخاب يلتسين غير المتوقعة في صيف عام 1996م، لكن طُلب منه في وقت لاحق «ترك منصبه سريعًا قبل نهاية يونيو/حزيران»[36]. لم ينس المحافظ

الجديد برودة بوتين وتعليقاته خلال الحملة الانتخابية، وحين أخبره مساعده أن بوتين ما زال ينتظر سماع كلمة واحدة عن مصيره، احمرَّ وجه ياكوفليف وقال: «أنا لا أريد أن أسمع مزيدًا عن ذلك الأحمق»[37].

حاول سوبتشاك مساعدة نائبه المخلص في إيجاد وظيفة جديدة، حتى إنه استجدى يفجيني بريماكوف، رئيس الجاسوسية القديم الذي رَأَس فرع المخابرات الخارجية في الـ(كي جي بي) خلفًا له، إلى أن عيِّن وزيرًا لخارجية يلتسين في يناير/ كانون الثاني عام 1996م. قال الرئيس السابق لبوتين مخاطبًا إياه: «ستكون سفيرًا»، من السخرية التفكير في الموضوع، ويعرف بوتين ذلك مع أنه لا يستطع أن يقنع نفسه بأن يخبر سوبتشاك. ووعده آخرون بوجود حاجة إليه في مكان آخر، لكن لا شيء يتحقق على الفور.

في يوليو/تموز انتقل مع عائلته إلى المنزل الريفي الذي بناه على شاطئ بحيرة كوموسومولسكوي، التي تبعد سبعين ميلًا إلى الشمال من المدينة على برزخ الكريلية، وكانت جزءًا من فنلندا إلى أن دمجها الاتحاد السوفييتي بعد الحرب الوطنية العظمى. كانت قرية صغيرة في مكان قريب، هناك انضم بوتين لكوكبة من رجال الأعمال الذين عرفهم منذ عام 1991م، وأسسوا ما يشبه المجتمع المغلق على شاطئ البحيرة، في وقت لاحق من ذلك العام، وأطلق عليه أوزيرو، أو البحيرة. كان من المساهمين: فلاديمير يانكونين، ويوري كوفالتشوك، والأخوان فورسينكو؛ أندريه وسيرجي، وقد التقوا جميعًا من خلال عملهم في معهد أيوفي للتقانة الجسدية الذي يحظى بسمعة عالية في بطرسبورغ، وأسسوا مشروعًا يحول عملهم العلمي إلى منتجات قابلة للتطبيق تجاريًا، وذلك بمساعدة لجنة بوتين للشؤون الاقتصادية الخارجية. أصبح يانكونين وكوفالتشوك مساهمين في مؤسسة مالية، ومصرف روسيا الذي أنشئ عام 1990م لمسك حسابات الحزب الشيوعي، وحسابات الـ(كي جي بي) أيضًا، كما أشيع على نطاق واسع. وقد أصبح المصرف قوقعة حين تولاه كوفالتشوك وزملاؤه، ولم يفلس إلا لأن بوتين وجه حسابات الحكومة إليه. وكان من بين المساهمين التنفيذيين في مصرف

روسيا فيكتور مياتشين، الذي انضم كذلك إلى المجتمع الريفي، كما فعل نيكولاي شمالوف من قبله، الذي كان أحد نواب بوتين في لجنة الشؤون الاقتصادية الخارجية، إلى أن أصبح ممثلًا للشركة الألمانية المصنعة سيمنز في شمال شرقي روسيا.

كان بوتين المسؤول الحكومي الوحيد بين رجال الأعمال الجدد، ولم يكن واضحًا تمامًا كيف كان يغطي راتبه الضئيل كل هذه المصاريف، مع أن الدلائل تشير إلى أنه كان يغطي مصاريفه من اتفاق المنتجين العشرين (توينتيث ترست)؛ المنظمة التي سجلتها لجنة بوتين في عام 1992م[38]، وشملت نشاطاتها عددًا من عقود المدينة التي تحمل توقيع بوتين، وكانت من بين الشركات التي لفتت انتباه المحققين الذين أوفدوا من موسكو للنظر في إدارة سوبتشاك.

بُني منزل بوتين على أرض تعود ملكيتها له من الآجر الأحمر، مزيَّنًا بالخشب في داخله، وكان من طابقين، مع إطلالة واسعة على البحيرة، وكانت مساحته الكاملة فقط 1600 قدم مربعة، كان متواضعًا نسبيًّا، على شاطئ البحيرة لكن في غابة معزولة، وهو المكان الذي يمكن أن يفكر فيه في مستقبله الغامض فجأة.

لو فاز سوبتشاك في الانتخابات لبقي بوتين بالتأكيد إلى جانبه، لكنه لم ينشئ علاقات مع سياسيين آخرين. فكَّر بوتين أن يصبح محاميًا، وتحدث مع شريك قديم له في الجودو، فاسيلي شيستاكوف، ليصبح مدربًا في ناديه، فنصحه شيستاكوف أن هذا بات دون مستواه اليوم، ولكن إذا لم يتحقق أي شيء آخر فبإمكانه القدوم[39]، وكان ذلك سقوطًا مريعًا.

كان يستغرق مطولًا في التفكير، ورفض مناقشة مستقبله الغامض مع ليودميلا، وكلما غرق بالخوف، عرفت أنه من الأفضل تركه وحده. كان زوجها من أولئك الذين (لا يحبون الخسارة)، وقد أذاقته الحملة طعمًا مريرًا للخطر الذي يكمن في الديموقراطية الحقيقية. تقول ليودميلا: «صحيح أنه لم يفصح عن ذلك، أو حتى يسمح به، لكنني فهمت كل شيء، وأحسست به، وشاهدت ذلك بنفسي»[40].

شهر أغسطس/آب هو شهر العطل في روسيا، وهو موسم الراحة في آخر الصيف، حين يقصد معظم الناس في البلاد بيوتهم الصيفية الخاصة بهم. بعد أن أخفق بوتين في إيجاد وظيفة جديدة سريعًا، كان عليه أن ينتظر حتى يستأنف الدوام الرسمي في نهاية شهر أغسطس/آب حتى يتمكن من البحث عن عمل مرة أخرى. في 12 أغسطس/آب، دعا بوتين سكرتيرته السابقة، مارينا ينتالتسيفا وزوجها وابنتهما لزيارة البيت الريفي. وفي المساء، نزل الرجال إلى البانيا (الحمام) في الطابق الأول، خلف الباب مباشرة، وكان بوتين يسميه «آثار وظيفتي السابقة»[41]، وحين كان راجعًا من مغطس التبريد في البحيرة رأى الدخان؛ كان السخان داخل الحمام قد أطلق شرارة، وسرعان ما انتشرت النار في المنزل، فخرجت كاتيا مسرعة من المطبخ، ووجد بوتين ابنته الكبيرة ماشا، ومارينا، في الطابق الثاني، وكلما ارتفعت ألسنة اللهب كانت تلتهم الدرج، وهو يحاول خفضها من الشرفة مستخدمًا أوراقًا كما الحبل، ثم تذكر فجأة أن لديه حقيبة في غرفة نومه فيها نقوده، قرابة 5000 دولار، فراح يبحث عن الحقيبة على الرغم من انطفاء الأنوار وتصاعد الدخان الخانق في المنزل، ثم قفز من الشرفة ملتفًا بشرشف رقيق، وراح بعدها يراقب هو وعائلته وجيرانه كيف يحترق المنزل كأنه (شمعة)، ثم وصل رجال الإطفاء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء؛ لأن الشاحنة كانت بلا ماء، فصاح بوتين: «هناك بحيرة بكاملها!»، فرد عليه أحدهم: «هذا صحيح، لكن ليس لدينا خرطوم أيضًا»[42].

تعجب فاسيلي شيستاكوف حين سمع نبأ الحريق، وانتشال حقيبة النقود، ولم يكن عجبه لأن بوتين لم يظهر عليه الثراء بأن يبنيَ (قصرًا من الحجر)، وإنما لأنه أمضى خمس سنوات بصفته (الرجل الثاني) وثروته لا تزيد على 5000 دولار. هذا هو الفساد الذي افترضه الموالون لروسيا؛ أن بوتين قد سرق «أموالًا لا تحصى» ودون أن يخشى من التعرض للمساءلة[43].

حدد مفتشو الإطفاء أن البنَّائين لم يثبتوا سخان الحمام جيدًا، وذلك ما تسبب في الحريق، لكن بوتين أجبرهم على بنائه كما كان من دون حمام، وعندما أزال العمال الحطام

وجدوا في الرماد صليب الألومنيوم الذي أعطته إياه والدته عندما سافر هو وسوبتشاك إلى القدس قبل ثلاث سنوات، وكان قد خلعه حين كانوا في الحمام يستحمون، وحين تصاعدت النيران ارتبك ونسي الصليب، وكان يعدُّه إلهامًا من عند الرب، وادعى في وقت لاحق بأنه لم يخلعه قط[44].

الفصل السابع

مسار غير متوقع إلى السلطة

لن يمضي كثير من الوقت لخلاص بوتين، وقد جاء من مصدر غير متوقع؛ عندما تحول حليف رئيسه السابق بوريس يلتسين إلى خصم. كان يلتسين أكثر كرمًا مع الناخبين من سوبتشاك، فلم يكن فوزه بالرئاسة للمرة الثانية في صيف عام 1996م أقل معجزة من العثور على صليب بوتين في رماد بيته الريفي. وكان التأييد العام ليلتسين في نهاية عام 1995م قد انخفض إلى 3 في المئة؛ فالحرب التي شنها ليلحق الهزيمة بحركة الاستقلال في الشيشان عام 1994م، والتي وعد بأن تكون قصيرة ومجدية، أصبحت دموية، وفي مأزق مهين، واستمر انهيار الاقتصاد بقسوة، وكذلك كانت حالته الصحية؛ فقد تعرض في وقت متأخر من عام 1995م لسلسلة من النوبات القلبية التي جرى التكتم عليها.

تآمر مساعدو يلتسين المقربون منه والذين كانوا وراء فوز ياكوفليف على سوبتشاك، عليه؛ إما بإلغاء انتخابات عام 1996م، أو إيجاد بديل ليلتسين: نائب رئيس الوزراء أوليغ سوسكوفيتس. وحتى زوجته أيضًا، نانيا، حثته على عدم الترشح، وقد تحدث يلتسين في وقت لاحق عن ذلك قائلًا: «كانوا كالذئاب التي تنقلب تدريجيًّا باحثة عن زعيم جديد للقطيع، وقد وجد أصدقائي المقربون البديل لي، حتى أولئك الذين كنت أعتمد عليهم دائمًا، وكانوا ملاذي الأخير، ومصدر قوتي، والزعماء الروحيين للأمة، حتى هؤلاء تخلوا عني»[1].

لم يكونوا كلهم كذلك، فكثير من أصحاب الحظ اعتمدوا على يلتسين، ومن بينهم أغنى رجال روسيا، والمصرفيون، وأقطاب وسائل الإعلام، فقد استولوا على أصول الصناعات الرئيسة التي كانت تسيِّر الدولة في السنة قبل الفائتة، مقابل قروض لإبقاء ميزانية الدولة عائمة: بوريس بيريزوفسكي، وميخائيل فريدمان، وفلاديمير جوسينسكي، وميخائيل خودوركوفسكي، وفلاديمير بوتانين؛ كان هؤلاء رواد الانطلاقة الذهبية لمرحلة ما بعد الاتحاد السوفييتي، الذين ستكون عبقريتهم ومكرهم وتكتلاتهم في خطر شبه مؤكد إن لم يبق يلتسين في منصبه. ومع أنهم متنافسون في الأعمال التجارية، فإنهم وجدوا قضية مشتركة تجمعهم ضد الخصم الرئيس ليلتسين، الزعيم الشيوعي غينادي زغانوف، ذي الحاجبين الكثيفين العريضين وهيئة كهيئة البرميل، وكان زغانوف حينها شيوعيًّا كبيرًا بالاسم فقط، لكن يمثل هو وحزبه الاستياء الكبير الذي أحدثه انهيار الاتحاد السوفييتي. وبسبب ما أظهره الحزب من أداء عالٍ في الانتخابات البرلمانية التي جرت عام 1995م، فقد فاز بأكثرية مقاعد الدوما، ولم يعد من الممكن أن نتصور انتصار زغانوف بسبب عدم شعبية القلة الحاكمة (الأوليغارشية) التي وسمت رئاسة يلتسين بالفوضى. وحين كان يلتسين يفكِّر في مصيره ومصير مؤيديه الأثرياء، كان يعتقد أن «الشيوعيون سيعلقوننا بأعمدة الإنارة»[2].

عندما ظهر زغانوف في المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس، بسويسرا، في فبراير/شباط 1996م، استقبل على أنه رئيس منتظر، وكان لا بد من فعل شيء. التقى بيريزوفسكي، وجوسينسكي، وخودوركوفسكي على طاولة عشاء مع مصرفي آخر، هو فلاديمير فينوغرادفوف، وأقروا (معاهدة دافوس) لضمان إعادة انتخاب يلتسين في يونيو/حزيران[3]، وقدموا لحملة يلتسين الملايين نقدًا، وربطوا كل مصالحهم بهذه الحملة، وأصروا أن يعود أناتولي تشوبايس إلى فريق يلتسين مديرًا لحملته الانتخابية، وهو زميل بوتين السابق في بطانة سوبتشاك ومنشئ برامج الخصخصة التي ولدت المليارات (فُصل تشوبايس من منصبه نائبًا لرئيس الوزراء في يناير/كانون الثاني، عندما كان يلتسين يترنح من فضيحة إلى أخرى).

نسق تشوبايس مع ابنة يلتسين، تاتيانا دياتشينكو، نسخةً روسية رائعة لحملة سياسية حديثة، مولت بخطط مالية بارعة وملتوية، يصعب على المحققين بسببها تتبع جميع الأموال التي أنفقت، وتقدر- حسب بعض التقديرات- بملياري دولار[4]، بحيث ظلت صحة يلتسين وسلوكه الأعوج بعيدًا عن معرفة الناخبين، وكُتبت نشاطاته بعناية بحيث يظهر في حالته الطبيعية، وسيطر بيريزوفسكي وجوسينسكي على اثنتين من شبكات التلفاز الأكثر شعبية في البلاد، ORT وNTV، اللتين أنتجتا أفلامًا وثائقية تصور يلتسين زعيمًا لطيفًا يتمتع بصحة جيدة.

عندما جرت الانتخابات في 16 يونيو/حزيران، فاز يلتسين بـ 35 في المئة من الأصوات، متقدمًا بفارق مليوني صوت عن زغانوف، ولكنها لم تكفِ لتجنب جولة إعادة. أما ألكسندر ليبيد، الجنرال المزخرف بالأوسمة، الذي استقال من اللجنة قبل عام من دخوله معترك السياسة، وهو من عارض الحرب في الشيشان بسبب سوء إدارتها وزهق الأرواح، فجاء بالمركز الثالث، وحصل على 15 في المئة من الأصوات. وكان إستراتيجيو يلتسين قد دعموا حملة ليبيد في الأسابيع الأخيرة قبل الانتخابات، بضخ مالي وتلفازي؛ لكسب أصوات ناخبي خصم يلتسين، وهي محاولة لاستنزاف أصوات زغانوف، واليوم يتودد يلتسين له ولناخبيه؛ إذ رأى فيه كثيرًا مما يعجبه؛ كان «الرجل القوي الذي لا يُهزم»، وكان «يخوض السباق جيئة وذهابًا باحثًا عن اليقين، والدقة، والوضوح الذي اعتاد عليه ولا يمكن أن يجده في حياتنا الجديدة». كان يلتسين قد تنامت عنده خيبة أمل بجنرالات ما بعد الاتحاد السوفييتي، الذين كانوا- كما يعتقد- يفتقدون «شيئًا من النبالة والرقي، وشيئًا من التصميم»[5].

في وقت مبكر من عام 1993م، ادعى أنه يتخيَّل جنرالًا جديدًا سيظهر على الساحة السياسية يقود البلاد بمهنية وثبات، ولن يكون قائدًا مستبدًا، بل زعيمًا ديموقراطيًّا. لأول وهلة بدا أن ليبيد هو المقصود، وأن يلتسين عدَّه خليفته المحتمل في الرئاسة. وبعد يومين من الجولة الأولى من التصويت، عين ليبيد سكرتيرًا لمجلس أمن الكرملين، على أمل أن يجذب الأصوات التي تلقاها، ولكن تبين أن ليبيد مخيب للآمال من البداية؛ فقد كان خشنًا

وجلفًا، واشتبك بتهور مع كبار المسؤولين الآخرين، وبعد أيام فقط من تعيينه، وبخ شخصًا قوقازيًّا حين سأله: «قلت إنك قوقازي»، فقاطع الرجل وقال: «لماذا تتكلم كأنك يهودي؟»[6].

مع ذلك، لا يزال يلتسين يتشبث بفكرة وجود رجل عسكري يكون منقذًا سياسيًّا، ولكنه بدأ يدرك بأنه لن يكون في هذا المنصب. قال يلتسين بعد تفكير طويل: «كنت أنتظر ظهور جنرال جديد، لا يشبه أيًّا من الآخرين، أو بالأحرى جنرالًا كالجنرالات الذين قرأت عنهم في الكتب عندما كنت صغيرًا»، وظل يبحث عن ذلك حتى وجد هذا (الجنرال) الذي لم يكن في الجيش، وإنما في خدمة أمنية أخرى[7].

الأعمال التي أنجزها يلتسين قبل جولة الإعادة، كشفت الخلافات بين مستشاريه الليبراليين- (القوى العاقلة)- والتيار المحافظ الذي يضم سوسكوفيتس و(جنرالات) يلتسين؛ ألكسندر كورزهاكوف ورئيس جهاز الأمن الاتحادي. وقد عرف يلتسين أخيرًا الشيء الذي حاول سوبتشاك أن يحذره منه قبل أشهر: الصقور في معسكره الذين «كانوا ينهبون بغية فتح معارك من أجل الاستيلاء على السلطة في الحملة»[8]، فقد اعتقل الحرس الرئاسي لكورزهاكوف اثنين من مساعدي الحملة، مقربين من تشوبايس وبيريزوفسكي، عندما غادرا البيت الأبيض وهما يحملان صندوقًا من الكرتون مليئًا بورقة فئة 100 دولار، وبما مجموعه 500 ألف دولار، وقد هددت الاعتقالات بفضح التمويل السري للحملة، ومن ثم فإن يلتسين على الفور فصل مستشاريه، وكان قد تعرض لأزمة قلبية ثانية بعد ذلك بأسبوع.

قضى الأسبوع الأخير في سرير طبي مثبت في غرفة المعيشة في منزله الريفي، وألغت حملته جولاته المقررة، وتظاهرت بأن شيئًا لم يحدث، وراوغ مساعدوه بقوة عندما سئلوا عن سر غياب المرشح. وعندما عقدت جولة الإعادة يوم 2 من يوليو/تموز، تمكن يلتسين من أن يدلي بصوته بصعوبة، وقد اختار مركز اقتراع قريبًا من بيته الريفي بدلًا من ذاك الذي في موسكو واعتاد أن يصوت فيه، وتمكن من التحدث إلى مجموعة صغيرة من الصحفيين دقيقةً فقط قبل أن يدفع به الحراس لإعادته إلى السرير.

ومع ذلك، فاز يلتسين في النهاية على زغانوف، وعلى نحو مقنع، وحصل على 54 في المئة من الأصوات، مقابل 40 في المئة للشيوعي، في حين أن أكثر من ثلاثة ملايين من الروس، أي ما يقرب من 5 في المئة، صوتوا (ضد الجميع).

انتصر يلتسين، ولكن بتكلفة هائلة لقيم الديموقراطية؛ بسبب الحيل القذرة، والأكاذيب، وقوة المال المفسدة. قد تعكس النتائج إرادة الناخبين، لكن الحملة تركت الروس العاديين يسأمون ديموقراطية بلادهم التي شهدوا رأسماليتها، فهم قد لا يفضلون العودة إلى الحكم السوفييتي، ولكن- وفقًا لاستطلاعات الرأي- 7% فقط من الناخبين وافقوا على النهج الديموقراطي الذي تتبعه روسيا في ذلك الوقت[9]. معظم الروس يربطون اليوم ديموقراطيتهم بالكذب، والإجرام، والظلم الذي رافق الدعاية السوفييتية التي أرعبتهم مدة طويلة؛ فقد أصبحت روسيا- كما قال أحد المؤرخين- «رؤية كابوس عن الغرب»[10].

كان **فلاديمير** بوتين، في كل مقابلاته، يتفق مع هذا الرأي؛ فقد ساعد في حملة إعادة انتخاب يلتسين في بطرسبورغ، على الرغم من أنه كان له دور ضئيل في جذب كثير من الاهتمام في موسكو. وكان أن فتح الصراعُ الغاضب على السلطة بعد فوز يلتسين مسارًا غير متوقع إلى العاصمة؛ فبعد وقت قصير من انتهاء الجولة الثانية في يوليو/تموز، دعا رئيس موظفي يلتسين المتشدد، نيكولاي إيجوروف، بوتين إلى موسكو، وعرض عليه منصب نائب، وبعد ذلك بيومين، أقال يلتسين إيجوروف واستبدل به تشوبايس، وهو إعادة تشكيل ينظر إليها على أنها كانت تعزيزًا لنفوذ الإصلاحيين الاقتصاديين في الكرملين، وردًّا للجميل للقلة التي موَّلت حملة إعادة انتخابه. تشوبايس يمثل جماعة بطرسبورغ في الإدارة الجديدة ليلتسين، وهو بحاجة إلى حلفاء متمرسين يتعاملون مع المسؤولين ورجال الأعمال[11]، لذا التفت إلى رجل آخر تُرك جانبًا بعد هزيمة سوبتشاك، ليس بوتين، ولكنه النائب الآخر، ألكسي كودرين.

كان كودرين الذي أشرف على الشؤون المالية للمدينة والميزانية، أقرب كثيرًا إلى تشوبايس في مزاجه وخبرته من بوتين، الذي عامله تشوبايس بقلة اهتمام. عيَّن تشوبايس كودرين رئيسًا لمديرية التحكم الرئيسة، التي كانت بمنزلة مدقق حسابات الكرملين، ومخولة بالتحقيق في التمويل من الجهات الحكومية ومشاريع القطاع الخاص التي تتشابك على نحو متزايد. أما بالنسبة إلى بوتين فإن تشوبايس ألغى المنصب الذي قبل به بوتين في الإدارة من إيجوروف قبل أيام فقط، وقد عزز هذا الرفض العداء بين الرجلين اللذين بدأا حياتهما العامة تحت وصاية سوبتشاك. وقد وصف بوتين فيما بعد تشوبايس بأن «مناخيره في السماء، مثل أي بلشفي»[12]، وهكذا عاد بوتين إلى طي النسيان في برزخه في بطرسبورغ ذلك الصيف.

يوم 18 أغسطس/آب، بعد ثلاثة أيام من حرق بيته الريفي بالكامل، تغيرت حظوظ بوتين؛ فرئيس وزراء يلتسين، فيكتور تشيرنوميردين، أعلن حكومة جديدة وتعيين ألكسي بولشاكوف، النائب البرلماني السابق من بطرسبورغ، الذي كان مسؤولًا عن العلاقات مع الجمهوريات السوفييتية السابقة، النائب الأول لرئيس الوزراء. خدم بولشاكوف ذات مرة في مجلس مدينة بطرسبورغ، لكنه اضطر إلى الاستقالة بعد الانقلاب في أغسطس/آب 1991م، و«انتهى تقريبًا في الشارع»[13]، وكان قد أخفق مرتين في ترشحه لمجلس النواب، ولاحقًا في مجلس الدوما، ولكنه بعد ذلك تولى شركة غامضة لديها خطط لبناء خط القطار السريع إلى موسكو، الذي لم يتحقق على الرغم من الحصول على قروض بملايين الدولارات[14]، وعندما عاد إلى الظهور على نحو غير متوقع في إدارة يلتسين، تعامل بوتين معه بصورة رسمية مشينة خلال زيارات العمل التي قام بها إلى بطرسبورغ، وعن ذلك قال بوتين: «أنا لم أجبره على الانتظار في قاعة الاستقبال، بل كنت أوقف دائمًا ما بيدي من عمل، أركل الجميع إلى الخارج، وأخرج إلى قاعة الاستقبال بنفسي لأقول له: ألكسي ألكسيفيتش، تفضل معي من هنا. نحن لم نكن حميمين، لكنه ربما تذكرني»[15].

في مكيدة القصر الناجمة عن عجز يلتسين، تنافس الجميع لتوسيع نفوذهم؛ بجلب موظفين يثقون بهم، وكان كودرين هو من أقنع بولشاكوف بإيجاد وظيفة لبوتين. في البداية

وافق بولشاكوف على تعيين بوتين في مديرية الاتصالات العامة، ليصبح الناطق الرسمي، ومع أن بوتين لا يستسيغ فكرة العمل مع الجمهور، فإنه قبل بالوظيفة. كان وقتها قد سافر إلى موسكو في نهاية أغسطس/آب، ونام على أريكة كودرين[16]، وبينما كانوا في طريق عودتهم إلى المطار في اليوم التالي، اتصل كودرين ببولشاكوف مرة أخرى، ولكن كان قد غيَّر رأيه؛ فطلب بولشاكوف من بوتين البقاء مدة أطول في موسكو، وفي اليوم التالي كان قد رتب له لقاء مع البيروقراطي اللامع الذي يدعى بافيل بورودين، وهو الرجل الذي سيطلعه على الأعمال الداخلية للكرملين[17].

بورودين سياسي بشوش من سيبيريا، تولى إدارة مديرية الممتلكات الرئاسية، ومن خلال منصبه كان يعتني بمئات المباني وقطع الأراضي والقصور والبيوت، وأساطيل من الطائرات واليخوت، والمستشفيات، والمنتجعات، والفنادق، والفنون، والتحف، وعشرات من مصانع الدولة والمؤسسات التي شملت كل شيء؛ من منازل الجنازة إلى منجم الألماس في القطب الشمالي. بتقدير بورودين في ذلك الوقت- ويمكن أن يكون ذلك مجرد تخمين- فإن قيمة الأصول للكرملين تجاوزت 600 مليار دولار[18].

أظهر بورودين ميلًا للرأسمالية الخلاقة، وتنويع أرصدة المديرية في القطاعات الناشئة حديثًا؛ مثل الأعمال المصرفية، والعقارات التجارية، التي ستخدم موقعه لتجديد مطحنة يلتسين، مستغنيًا عن هدايا الشقق والبيوت الصيفية، والسفر، وقسائم العُطَل، وقد سخرت الصحافة من مكتبه فأسمته وزارة الامتيازات[19].

مفخرة بورودين- أو حماقته- كانت التجديد واسع النطاق للكرملين، الذي بدأه يلتسين عام 1994م ولم يعتقد أحد أن البلاد يمكن أن تتحمل نفقاته[20]. ففي أغسطس/ آب 1996م وقع بورودين عقدًا مع شركة ميركاتا السويسرية، لتجديد قصر الكرملين الكبير، المنزل السابق للقياصرة الذي جدده الحزب الشيوعي السوفييتي بكل مفاتن القاعات الحديثة، ومع أن المشروع نجح في إعادة خلق الروعة القيصرية، فإن العقود مع ميركاتا وشقيقتها ميباتكس،

أدخلت يلتسين وعائلته في فضيحة دولية تنطوي على اتهامات بالرِّشا وحسابات مصرفية في الخارج.

سبق لبوتين أن التقى بورودين عندما زار سان بطرسبورغ مرة يبحث عن منزل ريفي في الشمال ليلتسين، وساعده ذات مرة عندما مرضت ابنته، وهي طالبة جامعية في بطرسبورغ[21]. وكان تبادُل هذه الأنواع من الخدمات- المعروفة باسم بلاط blat- تقليدًا للنظم القيصرية والسوفييتية، إذ تتجاوز الاتصالات والشبكات غير الرسمية العقبات البيروقراطية. حتى في روسيا الحرة، حيث الأهمية للمال، ظل البلاط blat عملة دارجة في سياسة الكرملين[22]، وساعدت بوتين على إرساء أول وظيفة له في موسكو.

كان (دَهِشًا إلى حد ما) من أن يلقى اهتمامًا من ذلك البيروقراطي الرفيع، بعلاقاته الوثيقة مع حاشية يلتسين[23]، لكن بورودين، في الواقع، كان قلقًا من وجود بوتين في مكتبه، وكذلك آخرون في المديرية «الذين يشتبهون بموالاة بوتين لأشخاص أو مؤسسات أخرى»[24]. أما بوتين فكان خارج محيط التآمر والاقتتال الذي استنفد موسكو بعد إعادة انتخاب يلتسين، واستعداداته (التي لا تزال سرية) لإجراء عملية جراحية في القلب. حتى تجربته في حكومة سوبتشاك لم تُعِدَّه إعدادًا كافيًا؛ فكان غريبًا في موسكو، وأيضًا على قدر من السذاجة، مثلما كان حين دخل الحياة العامة في عام 1991م، فقد رُتِّبَت له مقابلة تلفازية لتظهر انتقاله إلى موسكو، وكان السؤال الأول الذي طرحه عليه الصحفي: «أنت رجل من؟»- وكان بوتين وقتها ينتظر في صالة مطار بولكوفو- فلا أحد في روسيا يمكن أن يتبوأ منصبًا في السلطة ما لم يكن له وصي أو راعٍ، والرعاة في (حاشية) يلتسين، كما في جميع العائلات البائسة، كانوا في حالة حرب بعضهم مع بعض، فاعترض بوتين، الذي يرتدي بدلة زرقاء غير مناسبة، على السؤال؛ فقد كان ابن أمه وأبيه، وأجاب باختصار: أنا لست تابعًا لأحد، وأصرَّ على أنه لم ينتمِ حتى إلى (جماعة بطرسبورغ) التي منحت حياته السياسية طعمًا آخر، وقال: «يصعب علي أن أتصور أن هناك جماعة أو فصلًا موجودًا، لا أريد أن أشغل نفسي بذلك. أحضروني إلى هنا للعمل»[25].

ليودميلا لم تكن تريد أن تنتقل إلى موسكو؛ فهي تعتقد أنه أصبح لديهم أخيرًا حياتهم الأسرية الخاصة في بطرسبورغ، خارج المدار المتخم بأبوي بوتين، ولكن مع ذلك لم يكن لديها خيار في هذه المسألة، فقد أخبرت كاتب السيرة الذاتية برسمية وبلامبالاة: «يظل العمل دائمًا بالنسبة إلى فلاديمير أولوية، أما العائلة فتأتي في المرتبة الثانية»[26]. وقد تردد بوتين في مغادرة البيت الذي ألفه وكان مسقط رأسه، ولكنه يرى أن العمل مع بورودين «هو الطريقة الفضلى للخروج من حالتي»[27].

قِسم بورودين، بما لديه من قدرات، رتب لبوتين الانتقال إلى منزل ريفي للدولة في أرخانجيلسكوي، إحدى الضواحي الحراجية غرب موسكو، وكان من البيوت القديمة، من طابقين مع ست غرف، وفيه غرف زيادة عن حاجة البنتين. وما إن استقرت ليودميلا حتى دخل قلبها حب العاصمة وصخبها، وبدأت «تشعر أن الحياة في حيوية كاملة»[28]. وفي سبتمبر/أيلول عام 1996م، انتقل بوتين إلى الإدارة الرئاسية الواسعة، واستقر في مكتب في بناء قديم على ستارايا بلوشتشاد، أو الساحة القديمة بالقرب من الكرملين، وجاء معه اثنان من أقرب مساعديه من بطرسبورغ: سيرجي شيميزوف، الذي خدم معه في دريسدن، وإيجور سيتشين، الذي كان معه في فريق سوبتشاك منذ البداية. وضع بورودين النائب الجديد له مسؤولًا عن الدائرة القانونية ومقتنيات الكرملين الواسعة في ثمانية وسبعين بلدًا: في السفارات والمدارس، وغيرها من الممتلكات التي كانت تعود للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. وتزامن وصول بوتين مع مرسوم أصدره يلتسين ينقل فيه السيطرة على الممتلكات من الوزارات القديمة في العهد السوفييتي، مثل وزارة الشؤون الخارجية ووزارة العلاقات الاقتصادية الخارجية، إلى مديرية بورودين، وكان كثير منها في الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي السابق، أو حتى في الجمهوريات السابقة، مثل أوكرانيا، التي ادعت ملكيتها للعقارات السوفييتية القائمة على أراضيها المستقلة حديثًا. وكان على بوتين أن يفهم المستنقع القانوني، فيتخلص من ممتلكات لم تعد لها قيمة، ويؤكد ملكية ممتلكات أخرى وأنها كانت للاتحاد السوفييتي حين كان قائمًا. ولم يؤكد جَرد بوتين سوى تفكك

الاتحاد السوفييتي وتنظيف هيكله من أجل الربح. وقال سيرجي شيميزوف، زميل بوتين: «في بعض الأحيان تتكشف الأمور وتجعل شعر رأسك كله يقف»[29]. بدأت العشرات من الشركات الغامضة؛ كشركات بروكسي، والشركات المساهمة، التي أُنشئت في أوضاع غامضة في هذا الوقت، بشراء كثير من الممتلكات السوفييتية السابقة في الخارج، وفقًا لأحد هواة جمع الديون الشاب، فيليب توروفر[30]، الذي كشف بعضًا منها لبورودين، فقرر أن يدلي بشهادته أمام النيابة العامة في موسكو وسويسرا.

بوتين كان له دور ثانوي، كما كتبت صحيفة في موسكو في ذلك الوقت عن الشخص الذي أضيف من وقت قريب إلى جهاز الكرملين، كان «-بكل تأكيد- شخصًا في الصف الخلفي، وكان الغموض مهنة يتقنها جيدًا»[31]، وهذا الغموض قد يكون هو ما أنقذه عندما انفجرت الصراعات بين القوى المحيطة بيلتسين في العلن، حتى عندما بدأ عمله الجديد.

فاوض ألكسندر ليبيد، مستشار الأمن القومي ليلتسين، لإنهاء الحرب في الشيشان في أغسطس/آب 1996م مع إبرام معاهدة السلام، لكن لم تحل بسبب رغبة الجمهورية بالاستقلال، ثم تنازع ليبيد علنًا على الشروط مع تشيرنوميردين وتشوبايس، اللذين نأيا بنفسيهما عن اتفاق يبدو أن فيه تنزُّلًا كبيرًا للشيشان. ثم أصبحت المشاحنات العلنية عارمة بحلول أكتوبر/تشرين الأول؛ حتى اتهم وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، ليبيد بتدبير «انقلاب زاحف»، ووضع الشرطة الوطنية في حالة تأهب في جميع أنحاء البلاد. وقال تشيرنوميردين عن ليبيد إنه «نابليون صغير». وفي اليوم التالي أقال يلتسين ليبيد، الذي أسس تحالفًا سياسيًّا مع رئيس أمن يلتسين المخلوع، ألكسندر كورزهاكوف، الذي سرب بدوره وثيقة لتشوبايس تناقش الجهود الرامية لإجراء التحقيقات مع اثنين من مساعدي الحملة الانتخابية اللذين قُبض عليهما وبحوزتهما صندوق كامل من النقود.

تكشفت الصراعات في الوقت الذي كان يخضع فيه يلتسين لعملية جراحية في القلب في نوفمبر/تشرين الثاني، ووجد بوتين نفسه مجرورًا أكثر إلى المكائد البيزنطية. ولم يكن

قد انتهى جرد الممتلكات الخارجية للبلاد، فضلًا عن التعامل معها، عندما نُقل إلى وظيفة جديدة في مارس/آذار 1997م، بعد سبعة أشهر فقط من وجوده في موسكو. وبعد ترقية ألكسي كودرين ليصبح نائبًا لوزير المالية، بناء على توصيته، حل بوتين محله رئيسًا لمديرية التحكم الرئيسة؛ وقد جعله المنصب الجديد كذلك نائبًا لرئيس هيئة الأركان في الإدارة الرئاسية، يعمل في مكتب جديد رائع في ستارايا بلوشاد[32]. وبعد أسبوع من توليه هذا المنصب، منح المرسوم الرئاسي الجديد للمديرية سلطة أوسع للتحقيق في تجاوزات الإنفاق الحكومي في جميع أنحاء البلاد، في وقت كان فيه المحافظون، ومؤسسات الدولة، والاحتكارات، يستفيدون من الفوضى السياسية والاقتصادية، ويشفطون المال من خزائن البلاد.

كانت مهمة بوتين استعادة النظام، بوضع حد للمخططات الأكثر تفشيًا، والتي أدت بالحكومة والاقتصاد- أكثر من أي وقت مضى- إلى الهاوية، وقد تكشَّف له في أثناء تنفيذ عمله الفساد الذي يقضم البلاد، والأخطار السياسية التي قد يتسبب بها فضح أولئك الذين في السلطة. تعلم بوتين بسرعة أن الخدمة في الكرملين تتطلب الدقة والتعقل في تفسير المدى الذي ستصل إليه التحقيقات. في غضون أيام من عمله في المديرية، برأ بوتين علنًا يلتسين ووزير الدفاع السابق الجنرال بافل غراتشيف، من تواطُئِهما في الفضيحة التي طالت القيادة العسكرية في القفقاز، عندما حولت ما بين عامي 1993 و1996م ما قيمته مليار دولار قيمة دبابات، وغيرها من العتاد العسكري، لمساعدة أرمينيا في حربها مع أذربيجان، على الرغم من أن القانون الروسي لا يسمح ببيع الأسلحة إلى أي من الجانبين. ولنزع فتيل الفضيحة أجرى بوتين مقابلات مع صحيفة كوميرسانت ومحطة إذاعة إيكو موسكفي، وأكد أن عمليات النقل قد وقعت، وقال إن المحققين عثروا على المسؤولين، لكنه رفض بحياء ذكر اسميهما، فسألته الصحفية في كوميرسانت: «هل اكتشفت المتورط بهذا العرض شخصيًا؟»، أجاب بوتين: «نعم، وجدنا أسماءهم».

«هل يمكن أن تذكرها لنا؟».

«لا أفضل ذلك قبل التحقيق من قبل المدعي العام ومكتب النائب العام ومكتب المدعي العام العسكري الرئيسي».

ضغطت المراسلة: «هل المسؤولون في وزارة الدفاع الروسية؟».

«نعم».

«هل اسم وزير الدفاع السابق بافل غراتشيف، في هذه القائمة؟».

«لا، في سياق التحقيق الذي أنجزناه لم نجد أي وثائق تشير إلى أن غراتشيف أعطى أي تعليمات مباشرة أو توجيهات في هذا الشأن»[33].

تمكن بوتين- لكونه المخضرم في المخابرات- من فهم كيفية معايرة إجاباته، فكان يتحدث كما لو على مضض، في حين أنه يعرف بالضبط المعلومات التي يريد أن يوصلها إلى الجمهور لا أكثر. غراتشيف، الذي اشتهر بفساده حتى سمي (باشا المرسيدس)؛ لحصوله على سيارات فاخرة في ظروف غير واضحة، يعرف بكل تأكيد أن الكرملين يسعى إلى تنحيته، على الرغم من رفضه. وشكا مسؤول من مكتب المدعي العام العسكري، الذي سبق أن استجوب غراتشيف، أنه من السابق أن يبرئ بوتين أي شخص[34].

الإشراف على المديرية مكّن بوتين في جميع أنحاء البلاد، وأصبح على اتصال وثيق بمكتب المدعي العام والأجهزة الأمنية، ومن ذلك جهاز الأمن الفيدرالي، أو FSB، الذي أصبح الخليفة المحلي لـ (كي جي بي)، والمسؤول عن الأمن الداخلي، ومكافحة التجسس، ومكافحة الإرهاب، ولا يزال مقره في المبنى المشؤوم لـ(كي جي بي) في ساحة لوبيانكا، وقد اكتشف المدى الذي أخفقت فيه الحكومة الروسية على كل المستويات تقريبًا، فسلطتها مُتَجاهَلة، وهَدَر أموالها محافظون وغيرهم من المسؤولين الذين تآمروا مع أصحاب المشاريع الجديدة لاختلاس ما يمكنهم اختلاسه، ومع أنه لا يمتلك سلطة النيابة العامة، فإن سلطة الكرملين التي يتحلى بها كانت كافية لقلب الموازنات والعقود، وإجراء التحقيقات، وجمع ملفات هائلة من أدلة تجريم لاستخدامها عند الضرورة؛ ومن ثم فإن المعلومات أعطته السلطة والنفوذ.

أصبح المفتش العام الحديث، مفتش الحكومة في مسرحية جوجول الساخرة، الذي يتسبب وصوله المتوقع إلى القرية بدَبِّ الرعب في قلوب المسؤولين المحليين الكاذبين فيها، الذين أغدقوا الجزية على رجل متأنق غير مشكوك فيه لمجرد خطأ في تحديد الهوية. ومع نهاية الشهر الأول لعمله في وظيفته، أعلن بوتين أن نائب وزير النقل، أناتولي ناسونوف، غير كفيٍّ؛ بعد (إيصالات انتقائية) في ثماني عشرة منطقة، تقدَّر بمليارات الدولارات، صودرت من صندوق الطرق الاتحادية.

بحلول مايو/أيار 1997م، توسعت تحقيقاته لتبلغ ثُلُثَ أقاليم البلاد البالغ عددها تسعة وثمانين إقليمًا أو جمهورية، واتهم 260 مسؤولًا بالمخالفات. وبحلول شهر سبتمبر/أيلول أعلن إجراءات تأديبية ضد 450 مسؤولًا، مركزًا على (الأدلة الدامغة) بانتهاك الميزانية في مناطق ستافروبول وتفير[35].

كان بوتين محط إعجاب رؤسائه؛ فقد اجتهد في السعي لتأكيد سلطة الكرملين، وإن فعل هذا بصورة انتقائية، وسدَّ النقص الحاصل في خزائن الحكومة[36]، ولكنه كان سبب التوتر لهم أيضًا في بعض الأحيان.

تسلَّم بوريس نيمتسوف- نائب رئيس الوزراء، الشاب الذي عينه يلتسين في الشهر نفسه الذي تولى فيه بوتين المديرية- من بوتين تقريرًا عن السرقة والفساد الذي كشفت عنه وزارته في المؤسسة التي أنشأها أناتولي تشوبايس، الذي أوصله إلى هذه الوظيفة عام 1996م، وكان التقرير قد انتهى بالتحية لنيمتسوف، الديموقراطي ذي العقلية الإصلاحية، التي أحسَّ منها وكأنها لغة عنصر استخبارات: «التقرير كما ترغبون»، فاستدعاه نيمتسوف طالبًا منه تفسير العبارة، قائلًا له إن كنت تعتقد أن الجريمة قد ارتكبت فعليك أن تحيلها إلى النيابة العامة بدلًا من كتابة ذلك، فسأل مساعده: «ماذا يعني؟»، فعاجله بوتين بالرد: «أنت الرئيس، وأنت من تقرر»[37].

كان بوتين منشغل التفكير في بعض الأحيان في المشكلات الاقتصادية التي تواجه البلاد، وفي مايو/أيار 1996م، عندما كان في بطرسبورغ، التحق رسميًّا بالجامعة؛ بهدف الحصول على درجة الدراسات العليا، وهذا أول ما فكر فيه بعد عودته من دريسدن؛ فالدرجات العليا دائمًا لها حسابها في الاتحاد السوفييتي وروسيا، وقرار بوتين بالحصول عليها يعكس رغبته في تلميع أوراق اعتماده، وقد أصبحت ضرورة ملحة بعد هزيمة سوبتشاك. وكما هو الحال عندما سجل في جامعة لينينجراد بهدف الانضمام إلى الـ(كي جي بي)، رأى بوتين أن التعليم وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في حد ذاتها[38]، ومن ثم فهو لم يرجع إلى قسم القانون في الجامعة ليحصل على شهادة عليا، بل اختار بدلًا من ذلك معهد التعدين المرموق الذي سماه جورجي بليخانوف، منظر ما قبل الثورة، (أبو الماركسية الروسية)، ثم إنه لم يختر الشؤون القانونية، بل اختار بدلًا من ذلك موضوعًا عرف أنه موضوع حيوي لمستقبل روسيا: الموارد الطبيعية. لم يكن وحده؛ فقد التحق أيضًا بذلك المعهد فيكتور زوبكوف وإيجور سيتشين، المقربان منه في حكومة سوبتشاك، لتقديم أطروحات عن موضوع الموارد الطبيعية في روسيا، وينبع اهتمامهم من الاستثمارات العديدة في المدينة، في مجال شركات الوقود وخطوط الأنابيب، والموانئ والمطارات[39].

بصفته نائبًا لسوبتشاك كتب بوتين عام 1995م تقريرًا للحكومة الاتحادية عن ضرورة تحسين صادرات المنطقة من الموارد الطبيعية؛ عن طريق إعادة هيكلة الموانئ في بطرسبورغ، وكان ذلك أساس الفرضية التي أراد بوتين إكمالها[40].

كانت الأطروحة جافة في لغتها، وكثيفة بالحقائق والأرقام- بلغت 218 صفحة باللغة الروسية، مع الرسوم البيانية والملاحق- عن الموارد الطبيعية للمنطقة المحيطة ببطرسبورغ؛ ليس النفط أو الغاز، وإنما البوكسيت والفوسفات والطين والرمل والحصى والإسمنت، والجفت، تلك الموارد التي ظلت متخلفة غير مطورة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتحتاج إلى استثمارات الحكومة الإستراتيجية لتزدهر. رسمت الأطروحة سياسة اقتصادية تركز على الموارد الطبيعية الهائلة في روسيا، وتدعمها السوق الحرة الناشئة،

وأكدت «التوصيات التنظيمية والإجرائية المناسبة»، مع عدم تأكيد سيطرة الدولة على التنمية الاقتصادية[41].

يبدو أن بوتين لم يحضر المواد في الجامعة، وليس لديه الوقت لكتابة أطروحة معقدة؛ بسبب مطالب حملة إعادة انتخاب سوبتشاك، وبحثه عن وظيفة جديدة، وانتقاله اللاحق إلى موسكو، ويبدو أنه فعل ما فعله كثير من الروس في ذلك الوقت، وبخاصة موظفي الدولة المنشغلين؛ فاعتمد على كاتب خفي كتبها له. وقد ادعت لاحقًا الابنة المغتربة لعميد المعهد، فلاديمير ليتفينينكو، أن والدها هو من كتب الأطروحة لبوتين[42]، وقد كان خبيرًا في علم المعادن، والتحق بمجلس فوس أغرو، أحد أكبر المنتجين في العالم للأسمدة المصنعة من الفوسفات، التي وجدت بكثرة في منطقة بطرسبورغ، وفق ما أشارت إليه الأطروحة، وقد أصبح رجلًا غنيًا جدًّا، وعلى الرغم من أن ذلك بقي طي الكتمان لسنوات عديدة؛ ذلك أن مالكي الشركة لم يعلن عنهم أيضًا[43].

أيًّا كان المؤلف أو المؤلفون، فقد انتحلت أطروحة بوتين حرفيًّا تقريبًا قرابة أكثر من ست عشرة صفحة من النصوص، وست خرائط من الكتاب المدرسي الأمريكي الذي ألفه أستاذان في جامعة بيتسبرغ، الذي ترجم إلى اللغة الروسية عام 1982م، بناء على طلب من الـ(كي جي بي) أو بموافقتها، التي حرصت على إيجاد وسيلة للخروج من الركود الاقتصادي في الاتحاد السوفييتي في أثناء ولاية أندروبوف.

وتتضمن مراجع الأطروحة كراسة بعنوان: **التخطيط والسياسات الإستراتيجية**، تأليف ويليام ر. كنغ وديفيد الأول كليلاند؛ وهو واحد من سبعة وأربعين مصدرًا، من بينها الأوراق والمحاضرات التي ألقاها بوتين في المعهد، ولكن في النص ذاته لم يُحِلْ إلى مراجعه بوضوح، ولم يقرَّ بمصدر الفقرات الطويلة التي انتحلت من الترجمة الروسية، واكتفى بأن وضع الرقم 23 في قائمة المراجع، مدرجًا بين قوسين في موضعين. وعليه فإن الانتحال واضح، وهو يتسبب بالرسوب في الجامعات الأمريكية أو الأوروبية، أما في الأوساط الأكاديمية السوفييتية

والروسية فكانت ممارسة القص واللصق مقبولة، مع شيء من الاقتباس، وبكل الأحوال فإنه لم يكشف عن ذلك لسنوات[44].

بدا بوتين غير مبال بالتعهد الأكاديمي؛ فنادرًا ما ذكرها في الكتابة أو بعد ذلك، مع أنه ذكرها في قائمة سيرته الذاتية، والتي كانت على الأرجح مجرد فكرة في المقام الأول، ومن الممكن أنه أصيب بالحرج من انعدام الضمير الأكاديمي، أو من براعة غير ممكنة في الرياضيات المتقدمة[45]، لم تظهر عليه حين كان طالبًا. ومع ذلك أظهرت الأطروحة اهتمامًا باقتصاديات الموارد الطبيعية التي كانت تثبيتًا لثلة من الأصدقاء جمعهم في بطرسبورغ (ولاحقًا في التعاونية الريفية أوزيرو التي أُسست عام 1996م). دافع بوتين عن الأطروحة في معهد التعدين في يونيو/حزيران 1997م، وكان أحد الذين وجهوا انتقادًا لعرض أطروحته قد وصفها بأنها (رائعة)[46].

اليوم أصبح يستطيع في موسكو، من خلال موقعه، التأثير في توزيع هذه الموارد على المستوى الوطني، وليس الإقليمي، فالنزاع التجاري الدولي على إيداع الذهب في سيبيريا- على سبيل المثال- دفع بوتين لكتابة تقرير في عام 1997م موصيًا بإقالة النائب الأول لوزير الموارد الطبيعية، بوريس ياتسكيفيتش، الذي خدم في الوزارة التي منحت تراخيص التعدين، كما شغل منصب رئيس مجلس إدارة شركة لينزولوتو، التي منحت ترخيص الإيداع، وقد وجد بوتين أن هذا الترتيب يعد انتهاكًا صارخًا للقانون[47]، وكما كان معتادًا في حكومة يلتسين فإنه لم يحدث شيء في الواقع، وسعى ياتسكيفيتش ليصبح وزيرًا للموارد الطبيعية. على الرغم من ذلك بدأ بوتين بوضع وجهات نظر قوية حول ضرورة إعادة سلطة الدولة لوضع حد لاختلاس أصول البلاد الثمينة. بعد عامين نشر مقالًا في دورية سنوية لمعهد التعدين قال فيه إن الموارد الطبيعية تدعم الاقتصاد الروسي (على الأقل) في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، لكن تحتاج هذه الموارد إلى الاستثمار الأجنبي، ودعم كبير من الدولة لمنح التراخيص وتنظيم استغلال الثروات الباطنية في الرقعة الشاسعة من أوراسيا[48].

قلة من الأكاديميين كان عندهم الفرصة لتطبيق أفكارهم بصورة مباشرة على الواقع، لكن بوتين سيفعل ذلك، على الرغم من وجود جزء من العمل غير منجز لديه في بطرسبورغ.

لم يكن تجريد أناتولي سوبتشاك من السلطة هادئًا، والتحقيقات التي بدأت خلال حملة إعادة انتخابه لم تنته، حتى بعد فصل يلتسين لأولئك الذين تآمروا على إعادة انتخاب سوبتشاك، والذين قال عنهم سوبتشاك إنهم ربما غادروا مناصبهم لكنهم لم يغادروا «الهاوية التي انحدروا إليها»[49]، وقد كان لهم حلفاء في البرلمان، الذي أصدر قرارًا في أبريل/نيسان 1997م يدعو فيه مكتب النائب العام لإنهاء مختلف التحقيقات في (الجرائم البشعة) لسوبتشاك وعدد من نوابه[50]، كذلك فإن التعليق العلني لسوبتشاك حول الشؤون السياسية لم يكسبه أي حلفاء داخل الكرملين، وفي يناير/كانون الثاني 1997م، انتقد قيادة يلتسين، قائلًا إن أمراضه خلقت «فوضى افتراضية»، وفرضت «طابعًا إجراميًّا للسلطة»[51].

وفي يوليو/تموز اعتُقِلت إحدى مستشاراته، لاريسا خارتشينكو، ووجهت لها تهمة التفاوض على الرِّشا التي دفعها رئيس شركة بناء النهضة، وقد استدعي سوبتشاك شاهدًا في القضية. وتبع ذلك اعتقال كبير موظفيه، فيكتور كروتشينين، وظلت التسريبات طوال الصيف تملأ الصحف، مع تفاصيل القضية، وتكهنات بأن سوبتشاك نفسه كاد يُقبض عليه. وشكا من مراقبة هاتفه، وتتبع تحركاته في كل مكان من قبل عملاء (FSB) حتى إنه تجاهل عشرات الاستدعاءات للشهادة، كما أنه نفى فعل أي شيء غير قانوني في خصخصة ممتلكات المدينة[52].

كان ثمة سبب لجنون العظمة عنده؛ فقد ألقي القبض عليه في حملة يلتسين الإعلامية الكبيرة، إن لم نقل الجديّة أيضًا، ضد الفساد، التي كان لبوتين نفسه دور بارز فيها. يوم 3 أكتوبر/تشرين الأول، وصل المحققون وعشرة من أفراد الشرطة الخاصة المدججين بالسلاح إلى مكتب سوبتشاك، وهذه المرة في مقر اليونسكو، وألقوا القبض عليه ليكون ذلك شاهدًا ماديًّا.

في أثناء استجوابه في مكتب المدعي العام، اشتكى سوبتشاك من آلام في الصدر، ونُقل إلى المستشفى، وقالت زوجته إنه تعرض لنوبة قلبية، وإن لم يصدقه أحد، وحتى الأطباء في المستشفى أكدوا ذلك. على أي حال، تحسنت حالته الصحية، واستطاع أن ينددـ من خلال وكالة أنباء إيترتاس- بعمل المحققين، الذين ذكروه بالرعب العظيم عام 1937م، فقال: «فقط في عام 1937م كنت سأُقتَل على أيديهم»[53].

قضى سوبتشاك شهرًا في المستشفى، وكان مصيره يعتمد على تشخيص الأطباء، حتى يلتسين، الذي ازدادت كراهيته لسوبتشاك، رأى أن الملاحقة كانت أكثر مما يلزم، فبعث رسالة إلى النائب العام، يوري سكوراتوف، قائلًا: «لا يمكن مضايقة رجل مريض»[54]، لكن ظلت النيابة العامة ضاغطة عليه؛ إذ إنهم يشكون في ادعاء سوبتشاك عن وضعه الصحي، وأرسلوا أطباء من موسكو لفحصه ودراسة حالته، وقبل وصولهم تدخل بوتين فزار سوبتشاك في المستشفى، ورتب لنقله إلى الأكاديمية الطبية العسكرية تحت رعاية يوري شيفتشينكو، الذي عالج ليودميلا بعد حادث السيارة، وبقي صديقًا حميمًا وموثوقًا به، ثم احتال ليمكن سوبتشاك من الهروب.

يوم 7 نوفمبر/تشرين الثاني- وكان لا يزال يوم عطلة، على الرغم من أن الاحتفال بالثورة البلشفية لم يعد رسميًّا- جمع بوتين السجلات الطبية لسوبتشاك، واستأجر طائرة من فنلندا بتكلفة قدرها 30 ألف دولار، وفرها- وفقًا لزوجة سوبتشاك- (الأصدقاء)، على الرغم من أن بعض التقارير تقول إن مصدرها عازف التشيلو مستيسلاف روستروبوفيتش[55]. استخدم بوتين اتصالاته القديمة في الشرطة والمخابرات للخدمات المحلية لمرافقة سيارة إسعاف نقلت بهدوء سوبتشاك من جناح المستشفى إلى طائرة الانتظار في مطار بولكوفو، وعلى الرغم من أوامر اعتقال سوبتشاك، ومن الغضب الشعبي بشأن قضيته، والوعود الخاصة منه بالبقاء في روسيا للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات، مرَّ بوتين وزوجته ليودميلا ناروسوفا من خلال الجمارك إلى مدرج الإقلاع، وكانت جوازات سفرهم مختومة، وسافرا إلى باريس.

كان تورط بوتين جريئًا بكل تأكيد، وغير قانوني على الأرجح، حتى لو كانت وثائق سوبتشاك قانونية، كما فعل في عام 1991م، حين خاطر بمستقبله من أجل الولاء لزعيم أخطأ لكن تبقى له جاذبيته الخاصة؛ فقد كان «صديقًا ومرشدًا»[56]. في البلد الذي يتعطل فيه نظام العدالة فقط يمكن أن ينجح فرار سوبتشاك إلى بر الأمان في الخارج، وفي النظام السياسي المختل فقط يمكن أن يحظى بالإعجاب التحدي السافر للقانون، ولا يقتصر على دائرة الأصدقاء المقربين منه.

خلقت رحلة سوبتشاك ضجة، ولم يكن دور بوتين في هذه القضية سريًّا مدة طويلة؛ فقد فهم «بوتين الظلم الذي وقع لرئيسه السابق ومعلمه السياسي أكثر من أي شخص آخر»، كما كتب أحد المعجبين في وقت لاحق. ويذكر بوتين ذلك فيقول: «أحسست بالخطر بسرعة وحدة أكبر مما أحس به الآخرون، وتصرفت بدافع الولاء ليس أكثر».

«عندما علمت أن بوتين ساعد بإرسال سوبتشاك إلى الخارج، كانت مشاعري مختلطة؛ فما فعله بوتين مخاطرة كبيرة، ولكن أنا معجب بعمق أفعاله»، وكان المعجب هو بوريس يلتسين، وعندما تبيَّن له الاقتتال الداخلي والخيانات من معاونيه، شعر برهبة مشهد الولاء هذا[57].

الفصل الثامن

السباحة في النهر نفسه مرتين

بعد مرور عام على رئاسة مديرية التحكم الرئيسة، غدا بوتين متعبًا من إجراء التحقيقات التي تسفر عن نتائج متباينة، وقد كشف الفساد حالات المماطلة في النظام القضائي، وعرف أن التلاعب به يجري بمنتهى السهولة، لكن كان لديه قليل من السلطة التي يتحدى بها المصالح الخاصة للمسؤولين، كما أن هناك قليلًا من الحملات العنيفة لتغيير النظام، تذكَّر: «لم يكن العمل خلاقًا»، وادعى أنه في وقت لاحق فكر في ترك حكومة يلتسين بأخطائها للقطاع الخاص في شتاء 1997– 1998م، وفكر أيضًا أن يمارس مهنة المحاماة، مع أنه ليس على يقين أنه يستطيع كسب العيش من هذه المهنة، وما منعه من ذلك، على نحو غير مباشر، هو الانهيار الوشيك للاقتصاد الروسي الجديد، ومعه الدولة أيضًا[1].

مع بداية عام 1998م اجتاحت بوتين ما يمكن وصفها بـ«ثورة المديرين أصحاب الرتب المتوسطة غير المعروفين»[2]، فالتفت يلتسين إلى هؤلاء الموالين من الرفاق الشباب مجهولي الهوية؛ تفاديًا لوقوع كارثة وطنية، وزوال مشروعه السياسي الخاص.

بعد سنة من إعادة انتخاب يلتسين والنقاهة التي أعقبت جراحة القلب التي أُجريت له، بدت البلاد مستقرة بعد ترنحها من الأزمات التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي؛ فقد تراجع التضخم، ونما الاقتصاد للمرة الأولى منذ عام 1989م، وإن كان أقل من نصف في المئة، صحيح أنه لم يتفاءل أحد، لكن يبدو أن الأسوأ مضى. كتب يلتسين في مذكراته:

«الجميع يحدوهم الأمل، وأنا واحد منهم، كنت آمل أن نشعر بحلول النصف الثاني من عام 1997م وأوائل عام 1998م أن شيئًا في البلاد سوف يتغيّر»[3]، كان شيئًا ما، لكن ليس ما كان يتصوره هو أو أي شخص آخر؛ فالأزمة الاقتصادية التي اجتاحت آسيا في خريف عام 1997م أدت إلى تراجع الاقتصاد العالمي، وكان الأخطر على روسيا هو سعر النفط؛ فقد بيع برميل النفط في نهاية عام 1997م بأقل من كلفة استخراجه لدى شركات النفط الروسية. وفي الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1998م خسرت الصناعة التي توفر معظم الموارد لروسيا أكثر من 1.5 مليار دولار[4]، وتراجعت الإيرادات الحكومية بسبب التهرب الضريبي المتفشي، وهُرِّبت رؤوس الأموال إلى حسابات في الخارج، واستنزفت حكومة يلتسين احتياطاتها في محاولة منها للاستمرار.

في 21 مارس/آذار 1998م استدعى يلتسين رئيس وزرائه فيكتور تشيرنوميردين، إلى بيته الريفي، وأمضى وقتًا أكثر مما أمضاه في الكرملين. وكان تشيرنوميردين قد عمل في منصبه أكثر من خمس سنوات، مبرهنًا أنه الحصن المنيع في الحكومة، وفي أسوأ سنوات الاضطراب السياسي والاقتصادي.

مع الضعف المتزايد ليلتسين، والانتخابات الجديدة التي بدأت تلوح في الأفق، اعتقد بعضهم أنه قد يكون خليفة الرئيس، وهي الفكرة التي عذبت يلتسين، الذي أراد شخصًا «لا تؤثر فيه أي مجموعة سياسية أو مالية»[5]، وهكذا أقال تشيرنوميردين، وقدَّم أسبابًا غامضة ومتضاربة عن فعله هذا، وادعى أن البلاد بحاجة إلى التكنوقراط، ولكن في الواقع كان يريد رئيس وزراء تابعًا ولا يريده منافسًا ينتظره. وقد وقع اختيار يلتسين على سيرجي كيريينكو ليحل محله، وهو مصرفي سابق من نيزهني نوفغورود، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، أصغر من تشيرنوميردين بنحو ربع قرن، وكان قد وصل إلى موسكو في العام قبل الماضي فقط ليشغل منصب وزير الطاقة، ولم يعلم بمصيره إلا في صباح الإعلان. ووفق إملاء يلتسين فقد كان عليه أن «يلملم نفسه وأن يضطلع بمهمته جيدًا»[6].

رفض **مجلس الدوما** مرتين ترشيح كيريينكو، وهذا يعني تراجع نفوذ يلتسين، وخلق جو لأزمة سياسية، فأعلن تشيرنوميردين على الفور أنه سيسعى للرئاسة عام 2000م، مؤكدًا مخاوف يلتسين من طموحاته. حتى بعض الذين ساندوا يلتسين قبل عامين أعلنوا اليوم تأييدهم لتشيرنوميردين، وأهمهم بوريس بيريزوفسكي؛ ذلك القصير، الأصلع، عالم الرياضيات السابق، الذي بنى إمبراطورية مالية شملت صناعة السيارات والمصارف والنفط والتحكم في شبكة التلفاز الحكومية (ORT)، التي استخدمها أداةً للسلطة السياسية والانتقام. وكان يلتسين قد عيَّنه في مجلس الأمن التابع له بعد إعادة انتخابه عام 1996م، ثم أقاله على نحو مفاجئ.

كان بيريزوفسكي زئبقيًّا ولا عهد له، والحليف في ذهنه مجرد «ظاهرة مؤقتة»[7]، وكان ينظر إلى كيريينكو على أنه مصلح ضمن فئة أناتولي تشوبايس أو بوريس نيمتسوف، الشابين الليبراليين اللذين جُلِبا لإعادة هيكلة الاقتصاد الروسي؛ أي إن كيريينكو وقف في طريق مصالحه التجارية[8]، وقد استخدمت شبكته التلفازية كل ما لديها من سلطة ضد المرشح، وتحالف مع الشيوعيين في البرلمان الذين يحتقرونه لكونه قطبًا من الأثرياء.

لم نجح يلتسين في الدفع نحو تعيين كيريينكو إلا من خلال التهديد بحل البرلمان، حيث يسمح الدستور بذلك، إذا لم يوافق على ترشيحه بعد ثلاث جولات من التصويت، وبصعوبة تمت الموافقة على ترشيح كيريينكو في التصويت الثالث، وعزَّى معارضو يلتسين أنفسهم في البرلمان بصياغة مواد الاتهام.

الهزة في حكومة يلتسين كانت فتحًا آخر لبوتين؛ ففي مايو/أيار 1998م تولى وظيفته الثالثة الجديدة في الكرملين في أقل من عامين. لم يكن قط مقربًا من يلتسين، ولا يمتلك من القوة ما يكفي ليُحسب حسابه في المكائد، ثم إن كفاءته وولاءه مكنته من الثورة على البيروقراطية، وكان في كثير من الأحيان يفاجئ الناس أمثال تشوبايس. هذه المرة عيَّنه يلتسين النائب الأول لمدير الإدارة الرئاسية، ليتولى مسؤولية العلاقات مع 89 منطقة في

البلاد، وكان العمل امتدادًا طبيعيًّا لعمله في مديرية التحكم الرئيسة، حيث جمع ملفات الفساد والمخالفات التي كتبها المسؤولون الإقليميون.

روسيا هي اتحاد من مناطقها، ومع أن دستور 1993م منح الرئيس صلاحيات مركزية واسعة، فإنها تعمل كإقطاعيات مستقلة، وبفضل الانتخابات المحلية التي تجرى في تلك المناطق، يتمتع القادة الإقليميون أيضًا بسلطة سياسية مستقلة، ومن ثم يمثلون تهديدًا محتملًا لتفوق يلتسين.

ازداد انعدام الثقة عند يلتسين عندما تحول منافسه ألكسندر ليبيد إلى حليف ثم إلى عدو، وفاز في الانتخابات بمنصب محافظ في منطقة كراسنويارسك في سيبيريا في مايو/أيار، وبدا واضحًا أن طموحاته الرئاسية لم تضعف على أقل تقدير.

نظر بوتين إلى النظام السياسي المتمزق على أنه سلسلة من الانحلال المستمر للدولة، وكان الصراع في الشيشان من أجل الاستقلال مثالًا قويًّا على أن روسيا تنخر من الداخل، وتذكر بوتين بأن عِقد سلطة الدولة قد فرط، ولا بد من استعادته[9]، وقد أخبر الصحفيين أن مهمته الرئيسة اليوم تتمثل في تنفيذ مراسيم يلتسين على المستوى الإقليمي، لكن أكد أنه لا ينوي بذلك «تشديد الخناق»[10]، فليس لديه الوقت أبدًا لفعل ذلك. بقي بوتين في هذا المنصب واحدًا وستين يومًا، وهي المدة الكافية لتنصيب زميل له في (كي جي بي) من بطرسبورغ، الجنرال نيكولاي باتروشيف، بوظيفته القديمة في مديرية التحكم الرئيسة، ولكن ليس لإنجاز أي شيء آخر.

بعد يومين من آخر تعيين لبوتين، تحطم سوق الأسهم في روسيا، وكانت الأسهم قد فقدت نصف قيمتها منذ بداية العام، فمحت ملايين الدولارات من الثروة، وإن كانت هذه الأموال من جيوب النخبة الذين يستطيعون تحمل كلفة الاستثمار؛ فالفقراء ليس لديهم ما يخسرونه. تراكم تأخير الأجور باطراد، وانتشرت الإضرابات بسرعة، وبدأ المستثمرون

الأجانب بسحب رؤوس أموالهم، في حين هرَّب الأثرياء الروس أموالهم إلى الخارج، وألغيت خصخصة روزنفت، آخر شركة نفط مملوكة للدولة؛ لأنه لا يوجد من يعرض سعرًا لشرائها.

4 مليارات دولار من صندوق النقد الدولي كانت كافية لوقف الانهيار في روسيا، ولكن لمدة وجيزة فقط، وكافحت حكومة يلتسين للحفاظ على قيمة الروبل، لكنها كانت معركة خاسرة؛ فالحكومة كانت أشبه بفرع الإطفاء الذي عليه أن يتعامل بسرعة مع مزيد من ألسنة اللهب الجديدة[11].

إحدى تلك الحرائق التي شغلت يلتسين هي ولاء لـ FSB، حتى مع انفجار اقتصاد البلاد، خفَّض يلتسين من سلطة الوكالة؛ فيلتسين الذي كسر- أكثر من أي شخص آخر- القبضة الحديدية للحزب الشيوعي السوفييتي، لا يمكنه قطعًا أن يصل إلى تطهير وكالات الاستخبارات بنفس حماس الألمان بعد عام 1989م؛ فقد اعتمد اعتمادًا كبيرًا على ضباط المخابرات وقادتهم على أمل كبح نفوذهم في السياسة والمجتمع؛ من خلال تأليب بعضهم على بعض[12].

بالنسبة إلى قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي)، كانت التغيرات التي حدثت في التسعينيات مربكة ومهينة لهم، وترك عدد منهم صفوفها ليصبحوا رؤساء للشركات الأمنية التي غرقت في معارك عنيفة على الأصول (الأشياء الثمينة)، ودخل آخرون في الإجرام، واستغلوا نقاط ضعف الحكومة، ومن الصعب في كثير من الأحيان التمييز بين هذا وتلك.

بعد وقت قصير من إعادة انتخابه في عام 1996م، كان يلتسين قد عيّن المخضرم في الـ(كي جي بي)، الجنرال نيكولاي كوفاليوف، مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي الذي أنشئ حديثًا، وكان الرئيس السادس للأجهزة الأمنية المحلية منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد عدَّه يلتسين المدير الكفيَّ، ولكن عزَّز في مكتبه «الكراهية الهائلة للتجارة ومن يمثلها»، وكتب يلتسين: «كان يحتقر الناس ذوي الجيوب الممتلئة»[13]. ولم يكن وحده من بين ضباط الأمن الذين احتفظوا برواتب موظفي الحكومة التافهة، وكما هو حال كثير من الروس العاملين،

شاهدوا الثروات الهائلة تهبط في أيدي قلة من الناس ذوي الامتيازات (الذين- من وجهة نظرهم- لا يستحقون). ولأن الأجهزة الأمنية تاريخيًّا تعادي السامية، فليس من المستغرب أن يصب كثيرون كل غضبهم على القلة القليلة التي كانت من اليهود؛ فاليهود (باعوا روسيا)، كما يعتقدون، وتلاعبوا بالرئيس، وخلقوا الأزمة الاقتصادية التي بدأت تتكشف[14].

أكثر ما سبب الانزعاج ليلتسين أنّ الـ FSB في ظل كوفاليوف، بدأت بالبحث عن (أعداء الشعب) الجدد، بجمعها الكومبرومات (مواد المساومات) ضد المسؤولين التنفيذيين في المصارف وغيرها من الشركات، مثلما فعل المحققون ضد سوبتشاك، واليوم بدأت حماسة FSB تهدد الناس داخل (أُسرة) يلتسين، بل وتهدد يلتسين نفسه، الذي قرر كبح جماح الوكالة؛ ومن ثم فهو يحتاج إلى رجل محسوب عليه في الـ FSB.

بوريس بيريزوفسكي، الذي لفتت سيطرته على إيروفلوت انتباه النائب العام، والذي يتمايل داخلًا وخارجًا من دائرة يلتسين، دعم وصوله إلى مستشاري الرئيس، على الرغم من أنه لم يلتق إلا نادرًا مع الرئيس نفسه. فالنتين يوماشيف، المساعد المقرب من يلتسين، أخبره أن يلتسين لم يعد يثق بجنرالات الـ FSB، «وزمرتهم المتماسكة جدًّا». وفي أوائل شهر يوليو/تموز، كان يلتسين قد أعلن عن خطط لإعادة تنظيم الـ FSB، وشمل ذلك خفض عدد الضباط في لوبيانكا، ولكن كوفاليوف لم يكن متحمسًا لتنفيذ هذا الأمر. ويذكر يوماشيف أن يلتسين أراد أن ينظف المنزل، وسأله هل لديه أي أفكار حول فلاديمير بوتين.

تذكر بيريزوفسكي صفقة عرضها عليه قبل سنوات في بطرسبورغ، فقد أراد فتح متجر لبيع السيارات، وفوجئ أن بوتين رفض حتى مجرد التفكير في الرشوة التي كان مستعدًّا لتقديمها[15]، قال بيريزوفسكي: «كان أول بيروقراطي يرفض قبول رشوة، وقد ترك هذا انطباعًا كبيرًا في نفسي»[16]، سواء ما تذكره بيريزوفسكي كان عاملًا أم لم يكن، فقد كسب بوتين سمعة تميزت بالكفاءة والانضباط لحد الزهد، مع أن آخرين لاحظوا قدرته على كتم السر.

شاهده يلتسين أول مرة عندما كان يعمل في مديرية التحكم الرئيسة، ووجد تقاريره (نموذجًا للوضوح)، وخلافًا لأحاديث ومكائد مساعديه التي لا نهاية لها، لم يحاول بوتين أن يضغط على رئيسه بأي جدول أعمال، أو يضايقه بأصغر الأحاديث، فقد حاول في الواقع أن «يزيل أي نوع من الاتصال الشخصي» مع يلتسين، وقد قال يلتسين: «ولهذا السبب تحديدًا أردت أن أتحدث معه أكثر من ذلك»، فقد كان حذرًا من (برودة) بوتين في البداية، ولكن فهم بعد ذلك أن هذا (متأصل في طبيعته)[17].

بعد لقائه في المنتجع الرئاسي في كاريليا لاتخاذ القرار النهائي بشأن إقالة كوفاليوف، عاد رئيس الوزراء الجديد الشاب، سيرجي كيريينكو، إلى موسكو، واستدعى بوتين للقائه في المطار عند وصوله. لم يسبق ليلتسين أو رئيس وزرائه أن استشارا بوتين بالوظيفة؛ فقد كان وقتها مجرد بيدق في لعبة الشطرنج السياسي التي يتصورها الرئيس وهو يتخبط في نهاية رئاسته. وحين توجه بوتين بسيارته إلى المطار، توقع الأخبار السيئة، وهذا ما حدث معه بالضبط، حياه كيريينكو وسلم عليه بحميمية: مرحبًا يا فولوديا. كان شابًّا في سن بوتين، وكان رئيس الوزراء يصغره بعشر سنوات. «تهانينا!».

> سأله: «على أي شيء؟».
> قال كيريينكو: «المرسوم صار موقَّعًا، وعُيِّنت مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي»[18].
> ادعى بوتين أنه فوجئ، على الرغم من أن توقُّع تعيينه أشيع في وسائل الإعلام قبل عام من ذلك تقريبًا[19]، وناقش إمكانية ذلك مع ليودميلا قبل ثلاثة أشهر في مشوار مسائي في المنزل الريفي في أرخاننجلسكويا، وهي من اللحظات النادرة التي يخص بها ليودميلا. أخبرها حينها أنه لا يريد العودة إلى (الحياة المغلقة) لعالم الاستخبارات، التي كان يعتقد أنه تركها خلفه عام 1991م، وقال: «ليس لدي الرغبة أن أستحم في النهر نفسه مرتين»[20].

ليودميلا لم تستطب نكهة الاحتمال أيضًا، فلكونها زوجة سياسي موظف في موسكو، فقد عاشت حتى اليوم حياة أكثر انفتاحًا ومثيرة للاهتمام، إذ يسافرون كثيرًا إلى ألمانيا وأماكن أخرى، على الرغم من أنها كانت تسافر في كثير من الأحيان مع البنتين، لا معًا كأسرة واحدة. التنعم بحريتها الجديدة، ذكَّرها بالقيود القمعية التي كان يمارسها زوجها حين كان

في الـ (كي جي بي): «لا تذهبي هناك، لا تقولي ذلك. تحدثي مع هذا الشخص، لا تتحدثي مع ذاك».

مطيع، كما كان دائمًا، لم يرفض بوتين التعيين، واتصل هاتفيًّا بليودميلا يخبرها بالنبأ، وكانت وقتها تمضي عطلتها مع البنتين على ساحل بحر البلطيق، قال لها: «عليك أن تكوني حذرة هناك؛ لأنني عدت إلى المكان الذي بدأت منه». اضطربت ليودميلا، وظنت أنه عاد إلى منصبه في مكتب بورودين، وخفضت رتبته بطريقة ما في الاضطرابات التي تعصف في البلاد، فكرر قائلًا: «عدت إلى المكان الذي بدأت منه»، وكان عليه أن يكرر ذلك للمرة الثالثة قبل أن تفهم ما يقوله، ولم تعرف ما حدث بالضبط حتى عادت إلى موسكو، بعودته إلى خليفته في الـ(كي جي بي)، قال لها: «عيَّنوني، وهذا كل شيء»، ولم تعد تسأله أي سؤال[21].

كيريينكو قدَّم بوتين لأعضاء إف إس بي (FSB) في لوبيانكا يوم الاثنين التالي، المصادف 27 يوليو/تموز 1998م، وحاول استرضاء كوفاليوف، الذي علم عن إقالته من التقارير الإخبارية على شاشة التلفاز، وقال كيريينكو عن ذلك: لقد أدى واجبه على نحو رائع، لكن الظروف تتغير والناس تتغير[22]. عند إعلان الخبر أعرب بوتين عن تقديره لثقة الرئيس، وتعهد ألا ينفذ إعادة الهيكلة التي أمر بها يلتسين وحسب، وإنما سيركز أيضًا على إستراتيجية الحكومة للتخفيف من الأزمة الاقتصادية؛ بملاحقة الجرائم الاقتصادية والتهرب الضريبي، وقال إنه «عاد إلى موطنه».

على الرغم من غضب كوفاليوف من إقالته، فإنه تعامل مع الانتقال بمهنية، وعرض لبديله كل تفاصيل المكان، وفتح الخزنة في مكتبه، وقال له: «ههنا دفتر ملاحظاتي السري، وهنا الذخيرة»[23]، وبعد يومين أجرى بوتين مقابلة مع صحيفة كوميرسانت، ذكر فيها الخطوط العريضة لأولوياته، ووعد بتوسيع نطاق العمل المحلي التقليدي للوكالة ليشمل مكافحة التطرف السياسي والقومي، والجواسيس الأجانب، وكل من وصل حديثًا، وتوسيع مواقع الشبكة العالمية على نحو بطيء، وعقب على ذلك بقوله: «من المؤكد أن FSB لا تريد

أن تضع الشابكة تحت سيطرتها»، قال هذا مع أنه يدرك أن أدوات الاتصالات الحديثة يمكن أن تلحق الضرر بأمن البلاد[24].

سبَّب تعيين بوتين تذمرًا في صفوف قدامى المحاربين في الـ FSB وبين المخضرمين كذلك في الـ(كي جي بي)، الذين ينظرون إليه على أنه شخص حديث النعمة ودخيل؛ فهو من بطرسبورغ، وقد أمضى كل خدمته في مواقع إقليمية، ولم يُرقَّ فوق رتبة عقيد، فكان هذا كسرًا غير متوقع وغير عادي لبوتين، وتقدمًا هائلًا غير متوقع؛ لقد تجاوز أكثر الجنرالات خبرة وتأهيلًا، وعدُّوه حديث النعمة أرسل لفرض سيطرة الكرملين على الوكالة، وهو بالضبط ما عقد العزم عليه.

في 1 أغسطس/آب، بعد عودته المفاجئة من إجازته في كاريليا لمعالجة الأزمة الاقتصادية التي تلوح في الأفق، استدعى يلتسين مدير جهاز الأمن الفيدرالي الجديد إلى بيته الريفي في جوركي، خارج موسكو، لمناقشة المنصب الذي يشغله. أراد يلتسين من بوتين أن «يجعل من الخدمة أقل تسيسًا»، وأن تستعيد هيبتها وسلطتها التي كانت تبعث القشعريرة أسفل العمود الفقري للمنشقين الذين ظلت لوبيانكا بالنسبة إليهم مصدرًا للخوف. واقترح يلتسين أن يعود بوتين إلى جهاز المخابرات النشطة، مع ترقيته إلى رتبة جنرال، فرفض بوتين، مذكرًا بقرار استقالته خلال انقلاب أغسطس/آب 1991م، وكشف أيضًا ليلتسين أنه في السنوات السبع الماضية بقي في الاحتياط حينما تحولت الـ(كي جي بي) إلى FSB.

قال بوتين مخاطبًا يلتسين: «أنا شخصية مدنية، ومن الأهمية أن يرأس هذه الوزارة السلطوية شخص مدني»،[25]، وهكذا أصبح أول مدني لرئاسة الـ FSB، وآخر مدني أيضًا[26].

انتقل بوتين إلى مكتب مزخرف في الطابق الثالث من لوبيانكا، ولم ينتقل إلى المكتب التنفيذي القديم القريب الذي كان يشغله من قبل قادة الاستخبارات السوفييت من لافرنتي بيريا إلى يوري أندروبوف، فقد حُوِّل إلى متحف عدَّه بعضهم مزارًا، ووضع على مكتبه تمثالًا

من البرونز لـ(فيليكس دزيرجينسكي)، الذي أسس الشرطة السرية السوفييتية في عام 1917م[27].

بصفته مسؤولًا مخلصًا، كما كان دائمًا، نفذ بوتين تعليمات يلتسين لإعادة تنظيم الوكالة، والحد من الموظفين المركزيين، وهي المهمة التي أصبحت أكثر إلحاحًا مع تدهور المشكلات الاقتصادية وميزانية البلاد، ثم خفض عدد الضباط في لوبيانكا إلى الثلث، أي إلى أربعة آلاف من أصل ستة آلاف، وسط سخط كبير في صفوف أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تخفيضات بوتين على أنها تطهير بدافع سياسة يلتسين. وألغى أيضًا الإدارات التي رأى أن الزمن تجاوزها، وأحدث أخرى جديدة لمواجهة التهديدات الأمنية الأكثر إلحاحًا؛ فقد راقبوا عمل الاستخبارات في المناطق مع التركيز خصوصًا على المناطق الإسلامية التي تغلي، مثل الشيشان، وأمَّن الحاسوب والاتصالات، والأكثر من ذلك الدفاع عن الدستور، وهي المهمة التي تضطلع بها المديرية الرئيسة الخامسة من وكالة الـ(كي جي بي)، التي كانت تصطاد المنشقين في الحقبة السوفييتية. ومثلما فعل حين وصل إلى موسكو قبل عامين، لجأ بوتين إلى مساعديه الذين يمكن أن يثق بهم، من الرجال الذين عرفهم منذ أن كان في الـ(كي جي بي) في بطرسبورغ؛ ألكساندر جريجوريف، وفيكتور شيركيسوف، وسيرجي إيفانوف، وجميعهم جنرالات بخدمة فعلية، وفي مواقع قيادية في جهاز الأمن الفيدرالي.

أعجب يلتسين بتقرير بوتين الفولاذي، وكتب: «لم يسمح لنفسه أن يلعب ألاعيب سياسية، وفي مطحنة الشائعات الغادرة للحكومة في ذلك الوقت، قد يكون من الحكمة لشخص متمرس أن يتجنب المشاحنات»[28].

انغمس بوتين مرة أخرى في حياة مسؤول المخابرات، حيث كل شيء سري، والجميع مشتبه فيهم، وقال مستذكرًا: «لو كنت ضابط مخابرات لكنت دائمًا هدفًا للتدقيق المحتمل، هم دائمًا يتحققون منك، قد لا يحدث هذا كثيرًا، لكنه لن يكون مصدر سعادة لك». حتى وهو مدير وجد نفسه في حالة من التوتر الدائم، وأنه يشارك الوكالة جنون عظمتها أيضًا، وقال:

«إنهم لا يستطيعون حتى الخروج إلى مطعم!»، فجماعته «يظنون أن العاهرات وتجار السوق السوداء هم وحدهم الذين يترددون على المطاعم، فماذا بوسع ضابط شريف من الأجهزة الأمنية أن يفعل بصحبة مثل هؤلاء؟»[29].

وكان من نتيجة ذلك أنه عندما دعا ذات مرة مراسلة شابة جميلة من التجمع الصحفي للكرملين لتناول الغداء في إيزومي، أحد مطاعم السوشي الجديدة في العاصمة، فحين وصلت وجدت المدير الجديد لجهاز الأمن الفيدرالي في انتظارها وحدها، بعد أن أخلي المكان من الرواد الآخرين. وقد وجدت فيه المراسلة يلينا تريغوبوفا رجلًا غَزِلًا حين دعاها لينوتشكا، وشجعها على مشاركته الشرب. لم تحترم موقعه الوظيفي، بل ضمنت المشهدَ في كتاب أوردت فيه رأيه بوسائل الإعلام والصحفيين، الذين كانوا- من وجهة نظره- ليسوا أكثر من نسور وعقبان يسعون إلى استغلال المسؤولين أو إحراجهم لتحقيق مكاسب شخصية لهم[30].

مساء يوم 20 أغسطس/آب، وبعد أقل من شهر من تعيين بوتين في جهاز الأمن الفيدرالي، غادر صحفي من بطرسبورغ، هو أناتولي ليفين أوتكين، مكتب الصحيفة التي أنشئت أخيرًا تدعى **ليغال بطرسبورغ توداي**، يحمل معه ألف روبل، أي قرابة 140 دولارًا، وحقيبة مملوءة بأوراق وصور لمقالات في العدد القادم من الصحيفة، وكان عددها الثالث فقط، إذ لم يكن صدر منها سوى عددين آنذاك. وكان ليفين أوتكين يشغل منصب نائب رئيس التحرير في الصحيفة، التي كانت قد اكتسبت اهتمامًا حقيقيًّا بالمواد التي تتناول قضايا المصارف في المدينة، ومجالات التنافس على النفوذ؛ من ذلك مقال عن أحد المستثمرين المعروفين، بوريس بيريزوفسكي، الذي اشتبك علنًا في العام قبل الماضي مع القلة الأخرى حول خصخصة سفيازينفست، أكبر شركة اتصالات في البلاد. ومقالة أخرى تتعلق بهروب أناتولي سوبتشاك من روسيا، ونشاطات نائبه في الاستثمارات الأجنبية، الذي أصبح اليوم مديرًا للأمن الفيدرالي، وكان عنوانها الرئيس كما يأتي: «**فلاديمير بوتين يصبح رئيسًا لـ FSB بطريقة غير مشروعة**».

ليفين أوتكين لم يكتب أيًّا منهما، ولكنه أسهم في تزكية المقالات، وقال رئيس تحرير الصحيفة، ألكسي دومنين، إن كلًّا من المقالين قد تسببا بالشكاوى الكثيرة بسبب موضوعاتهما، والتقى به- كما ذكر- (مؤيدو بوتين) يشتكون، لكن لم يذكر من هم، وكان الاجتماع ذا (طبيعة سياسية واضحة)، ولم يذكر تفاصيلها[31]. لم تكن الشكاوى حول التغطية الصحفية بالشيء غير العادي، وغالبًا ما تسوَّغ، لكن سرعان ما تُنسى الضجة التي أثيرت حول المادة الصحفية، باستثناء الذي حدث بعد ذلك.

دخل أوتكين بهو مبنى شقته في شارع ردنوفا، وكان يتفحص صندوق بريده عندما اقترب رجلان من الخلف وضرباه بشدة حطمت جمجمته في عدة أماكن، ثم أخذ المهاجمون حقيبته وكل شيء في جيوبه، حتى هويته الصحيفة، وحين وجده جاره كان فاقدًا للوعي في البهو، ونقله إلى المستشفى حيث أجريت له عمليتان جراحيتان، لكنه لم يستعد وعيه أبدًا وتوفي صباح يوم 24 أغسطس/آب.

بات الضرب والاعتداء في بطرسبورغ بموجب عقود مدفوعة الأجر شائعًا جدًّا، وحدث بمعدل مرة واحدة في اليوم مدة من الوقت، ومن ثم فإن جريمة مقتل ليفين أوتكين ما كان لها أن تثار على مستوى عال لو لم تتخذ المنظمات الصحفية قضيته على عاتقها، فقد وجهت نداء إلى الأمم المتحدة تطالب السلطات الروسية بإجراء تحقيق[32]. لا يوجد أي دليل يربط بوتين أو بيريزوفسكي بواقعة الضرب القاتل، ويشك ممثلو الادعاء أن يكون دافع القتل غير السرقة، مع أنه لم يكن واضحًا أن التحقيق في الجريمة كان جادًّا. وهذه هي المرة الأولى التي يظهر بها اسم بوتين وبيريزوفسكي في تقارير وسائل الإعلام التي تتهم الرجلين بالتورط في عملية القتل، ولن تكون الأخيرة. القضية- كما حدثت- خيمت عليها كثيرًا الأحداث المرهقة التي وقعت في أغسطس/آب.

قبل ثلاثة أيام من مقتل ليفين أوتكين، تخلفت روسيا عن سداد معظم ديونها، وانخفضت قيمة الروبل، فتبددت ودائع الملايين من المستثمرين والمواطنين العاديين، وكانت روسيا

على حافة الانهيار الاقتصادي التام، وفاقمت الأزمة الاضطرابات السياسية المحيطة بيلتسين، وستطيح- على ما يبدو- بحياته السياسية. وفي 21 آب/أغسطس، دعا مجلس الدوما لاستقالته، وبعد ذلك بيومين أقال كيريينكو بدلًا من ذلك، واستمر الوضع هكذا خمسة أشهر، ثم عيَّن يلتسين فيكتور تشيرنوميردين رئيسًا للوزراء، الرجل الذي طرده من منصبه قبل خمسة أشهر، وهكذا ضل يلتسين طريقه، وهو الأمل الديموقراطي الكبير لروسيا، وبدت التحركات (الجريئة) التي ادعى أنه يفضلها، بدت اليوم يائسة، وبعد أربعة أيام ظهر على شاشة التلفاز ليعلن أنه لا يسعى لإعادة انتخابه في عام 2000م، ثم اختفى أسبوعين، واكتفى بست زيارات قصيرة إلى الكرملين في ذروة الهلع المالي والسياسي في البلاد.

مجلس الدوما- كما فعل مع تعيين كيريينكو- صوَّت مرتين ضد عودة تشيرنوميردين، وهذه المرة لم يعد لدى يلتسين القدرة على الخداع، فقد أعد البرلمان إجراءات الإقالة، ووفق الدستور لا يستطيع الرئيس حل البرلمان إذا مُرِّرت المادة المتعلقة بالإقالة[33].

وبرزت مواجهة جديدة مع تسريب شائعات عن انقلاب، تغذيها تقارير تقول إن وحدات عسكرية بالقرب من موسكو تلقت أوامر لرفع الجاهزية القصوى. استعد الشيوعيون في مجلس الدوما لتكرار حصار عام 1993م؛ وعلى ما يبدو كانت لديهم الجرأة على تحدي يلتسين إن أمر بذلك.

في 1 سبتمبر/أيلول ظهر بوتين على التلفاز الوطني لينفي نية الكرملين استخدام القوة لحل النزاع السياسي، وأعلن في تصريح تلفازي أن الـ FSB ستتولى تأمين مصالح الشعب، فقال: «إن أولئك الذين ينتهكون الدستور، ويحاولون تقويض نظام الدولة في روسيا بوسائل غير دستورية، سوف يواجهون المقاومة المناسبة ولو باستخدام القوة، هذا شيء يجب أن تكونوا على يقين منه»[34].

في وقت لاحق، عندما ندد ألبرت ماكاشوف، العضو الشيوعي في البرلمان، باليهود لكونهم آفة يجب إزالتها من البلاد، أعلن بوتين أن تحقيقًا بدأ حول تصريحاته، وكان مكتب

النائب العام ومجلس الدوما نفسه مراوغًا في هذه المسألة[35]. سبَّب الجدل ضجة في موسكو، وخرج الناس إلى الشوارع في أثناء الاحتفالات الشيوعية بالثورة، ليدافعوا عن ماكاشوف وتبجحاته المناهضة للسامية، وقدم بوتين تصريحه مع لوبيانكا في الخلفية، موجهًا رسالة ليس فقط للمحتجين وإنما لجهاز المخابرات أيضًا، الذي لا يزال يعج بالتعصب، بأن التعابير البغيضة لن يُتسامح معها.

بعد مضي أسابيع قليلة في عمله لم يعد ذلك المعاونَ القابع في الخلف، المعروف بعدم وضوحه؛ فقد فرض السلطة الكاملة على جهاز المخابرات في البلاد، وبإصرار كبير على عدم السماح لاضطرابات سياسية أو شعبية بتقويض سلطة الدولة، وكتب يلتسين شاكرًا له: «أعتقد أن تعبيره البارد، والدقة العسكرية في صيغه، لها أثر كبير في عدم تشجيع الناس على التسبب بالمشكلات»[36].

الدعم الشعبي لبوتين لم يقدِّم كثيرًا لمساعدة يلتسين، الذي اضطر إلى التخلي عن ترشيح تشيرنوميردين، واستقر مساعدوه، الذين يعملون مع نواب في مجلس الدوما، على المرشح الأقل اعتراضًا عليه من الجميع: يفجيني بريماكوف، وزير خارجية يلتسين منذ عام 1996م. بريماكوف أكاديمي قديم، من عباقرة السوفييت، مستعرب بالتدريب، وأمضى أربعة عشر عامًا صحفيًّا في الشرق الأوسط، ويعمل على صورة وثيقة مع الـ(كي جي بي). وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي تولى جهاز المخابرات الخارجية الذي خرج من رحم الـ(كي جي بي)، وقد اختفى من المشهد العام بين عامي 1992 و1996م، محاولًا إعادة إحياء الوكالة، بالطريقة نفسها التي كان عليها بوتين في نظيرتها المحلية[37]. كان كل منهما متشككًا بالآخر، بريماكوف ذو خبرة طويلة وممتازة في عالم المخابرات، وقد تبين ذلك بعد نشر مهامه السرية ليس فقط في الشرق الأوسط، ولكن أيضًا في الولايات المتحدة[38]، وكان من بين الذين يأملون بأن تكون FSB تحت نفوذهم، ويشتبه أن بوتين سيأتي بزملائه أصحاب الرتب من بطرسبورغ. اختار بوتين (كامل قيادات الـ FSB) للاجتماع به؛ ليثبت لهم أنه لم يمارس أي عملية تطهير[39].

في 11 سبتمبر/أيلول، صوَّت البرلمان بأغلبية ساحقة لتثبيت بريماكوف رئيسًا للوزراء، وخفَّت حدة الأزمة السياسية الحالية. وكان للقرارات اليائسة لحكومة يلتسين بالتخلف عن سداد السندات، وخفض قيمة الروبل، تأثير صادم في المجتمع، لكن في النهاية أثبتت أنها (قرار تنشيطي)، إذ سمحت للاقتصاد باستئناف نموه، وساعدت على انتعاش الإنتاج المحلي، وبدايات الطفرة النفطية[40]، ومع ذلك استمرت حظوظ يلتسين وصحته في التراجع؛ إذ نُقل إلى المستشفى مرارًا في فصلي الخريف والشتاء، وظلت إجراءات عزله قائمة مع تعيين بريماكوف. وفي غضون ذلك ظهر كثير من التهديدات ليلتسين، وسيكون لولاء بوتين له الأثر الحاسم في مواجهتها.

لم يكن قد مضى على بوتين وقت طويل في لوبيانكا عندما وجد نفسه وسط فضيحة علنية أكبر من أي فضيحة واجهها من قبل؛ ففي 17 نوفمبر/تشرين الثاني 1998م، عقد ستة رجال مؤتمرًا صحفيًّا غريبًا ومثيرًا في موسكو، وكان أربعة منهم يرتدون أقنعة ونظارات داكنة، والاثنان الآخران غير مقنعين؛ هما ألكسندر ليتفينينكو وميخائيل تريباشكين، وكانوا جميعًا من قدامى المحاربين في الـ FSB، وأفصحوا أمام الصحفيين الوطنيين والدوليين عن قصة مخيفة من الفساد والتآمر، وقالوا إن وحدة الجريمة المنظمة التي يعملون فيها تحولت في حد ذاتها إلى مؤسسة إجرامية، تعمل مع عصابات روسية ومقاتلين شيشان، يبتزون الشركات التي يفترض أن يوفروا لها الحماية، وغالبًا ما يكون لهذا الابتزاز تأثير قاتل. وزعموا أن رؤساءهم خططوا لخطف شقيق رجل أعمال بارز، عمر دزهربريلوف، وأمروا بضرب تريباشكين بعد أن أعفي من مهامه في التحقيق في مخالفات، وكان الأكثر إثارة للجميع ما شرحوه عن كيفية تلقيهم الأوامر من ضباط يعملون اليوم في وكالة يرأسها فلاديمير بوتين، لاغتيال بوريس بيريزوفسكي.

نفوذ بيريزوفسكي داخل الكرملين لم يكن بالحجم الذي يدعيه، وقد أخبر مسؤولين سرًّا عن المؤامرة المزعومة ضده، وكان يعتقد أن لها دورًا في إقالة كوفاليوف. من بين الأعمال الأولى التي فعلها بوتين حين صار رئيسًا لـ FSB هو حل وحدة الجريمة المنظمة التي

اتهمها هؤلاء الرجال بأنها أصبحت وحدة مارقة؛ فأقال معظم ضباط الوحدة أو نقلهم، غير أن التحقيق الداخلي في أمر اغتيال بيريزوفسكي لم يثبت أي اتهامات جنائية ضد قادة الوحدة (قال أحد مدعي بيريزوفسكي إن أمر قتله كان مزحة)، ومن ثم فقد كان إغلاق القضية هو ما دفع ببيريزوفسكي لكشفها على الملأ، فناشد بوتين مباشرة في رسالة مفتوحة نشرت في صحيفة كوميرسانت في 13 نوفمبر/تشرين الثاني، وكتب يخاطبه: «فلاديمير فلاديميروفيتش، كنت قد ورثت تركة ثقيلة من أسلافك؛ الأعضاء المجرمون والمسؤولون على مختلف المستويات الذين طالهم الفساد، ومن بينهم المسؤولون في وكالتك، يضربون الناس الذين لا يرغبون في العودة إلى كونهم قطيعًا من الماشية. رعب الجريمة يزداد في روسيا»[41]. لم يوضح بيريزوفسكي سبب النداء المباشر الذي وجهه إلى بوتين، ولكن يشتبه بعض المسؤولين والصحف أنه حاول تشويه سمعة بوتين أو غيره في الكرملين، أو- على العكس- لاستعادة بعض النفوذ الذي كان يحظى به ذات يوم في داخله.

عندما أخفقت الرسالة في تحقيق شيء يذكر، ظهر المعنيون من الاستخبارات علنًا للرأي العام بعد أربعة أيام؛ فظهر ألكسندر ليتفينينكو، زعيم عصابة المؤتمر الصحفي، الذي كان قد عمل لحساب مديرية مكافحة التجسس العسكرية التابعة للـ(كي جي بي) في أواخر الثمانينيات، ويعمل اليوم- في التسعينيات- لحساب الـ FSB، مركزًا على الإرهاب والجريمة المنظمة، وقال إنه لم يكن جاسوسًا أو عميلًا سريًا، بل عمل محققًا ومنفذًا. كان- كما بوتين- مناسبًا لموقعه، ووطنيًا، ووفيًّا للأجهزة الأمنية، ورُفِّع إلى رتبة عقيد، لكنه في ذلك الوقت أصيب بخيبة أمل، وقال إنه فوجئ إذ رأى أن وكالة مارقة، وخاصة الوحدة التي أنشئت عام 1996م لمكافحة الجريمة المنظمة، والتي اشتهرت بوحشيتها القاسية وفسادها[42].

لم يعد الخط الفاصل بين خدمة الدولة، وخدمة القلة، والمافيا، واضحًا، وليتفينينكو نفسه أزاله؛ ففي عام 1994م عُيِّن للتحقيق في محاولة اغتيال بيريزوفسكي، التي جرت حين كان يغادر مكتب بيع السيارات بسيارة مرسيدس بسائق، فانفجرت قنبلة يُتَحكَّم فيها عن

بعد، وخدشت السيارة بشظاياها، وقُطع رأس السائق، لكن بيريزوفسكي نجا بطريقة ما. وبينما كان ليتفينينكو يجمع الأدلة كان يغرق في استعباد بيريزوفسكي؛ ذلك المليونير، الذي أدرج اسمه على الفور في كشف الرواتب التي يدفعها؛ بصفته الحارس والمستشار الشخصي له، على الرغم منه أنه يواصل الخدمة في الـ FSB.

كان كثير من الضباط لا يقبضون رواتبهم- على الرغم من أنها هزيلة- في الوقت المحدد، لذلك كانوا يمارسون أعمالًا إضافية لدى رجال المال والأعمال، وهذا أحد أعراض التراجع في جهاز المخابرات. وحين تلقى أمرًا بقتل بيريزوفسكي في شتاء عام 1997م، حسب روايته، ادعى أنه رفض الأمر، وأخبر بيريزوفسكي بتفاصيل المؤامرة.

بدأ ليتفينينكو المؤتمر الصحفي بقراءة بيان، ثم أكد أن الفساد الذي كُشف عنه حدث قبل وصول بوتين إلى الـ FSB في نهاية يوليو/تموز، وناشد بوتين بتطهير الوكالة، قال: «نحن لا نسعى إلى تسوية في جهاز الأمن الاتحادي، وإنما نريد تنقيته وتعزيزه»[43]. لم يكن لديهم دليل سوى بعض شهاداتهم، على الرغم من ادعائهم خلاف ذلك، «لقد سعيت بمحاولات شتى إلى الوصول إلى فلاديمير، وتقديم كل هذه الحقائق له، لكن لم تتح لنا مثل هذه الفرصة؛ لقد منعونا من الوصول إليه»، ثم ناشد بوتين مباشرة: «سوف أغتنم هذه الفرصة؛ أعتقد أنه سيطلع على هذا المؤتمر الصحفي المسجل، وأود أن أقول له ما يأتي: لدي دليل على أن نوابه يخدعونه، وأنا لا أستطيع تقديم دليل مادي، ولو دعاني إلى مكتبه فسأظهر له هذه المواد».

الضجة التي أثيرت لاحقًا وضعت بوتين في موقف حرج، فلا يستطيع أن يصد بيريزوفسكي بهذه البساطة، الذي لا يزال يدعي أن له تأثيرًا في الكرملين، وفي الوقت نفسه كانت الاتهامات فاضحة، وقد أغضبته، وقد رد على رسالة بيريزوفسكي بنفسه، وأرسل الرد إلى صحيفة كوميرسانت يوم المؤتمر الصحفي، وقال: «نحن لا نخاف من غسل ملابسنا القذرة في الأماكن العامة»، وأضاف أنه سيجري تحقيقات داخلية في أي اتهامات. وعلى نحو غير مباشر حذر بيريزوفسكي- (المعروف جيدًا بإخلاصه للقيم الديموقراطية)- من

أنه حين يتدخل في شؤون الـ FSB فإنه يدخل في المحظور، وحذره من أنه إذا ثبت كذب الادعاءات فإن FSB لن يكون لها أي خيار سوى رفع دعوى قضائية ضد المفترين، ليس ضد بيريزوفسكي فقط، وإنما أيضًا ضد موظفي تحرير الصحيفة؛ لطباعتهم رسالته[44]. وبذلك أثبت بوتين أنه غير متسامح في الانتقادات الموجهة لوكالته، والانشقاق داخلها.

في نهاية الشهر، استدعى بوتين بهدوء ليتفينينكو إلى مكتبه، تمامًا مثلما طلب ليتفينينكو منه أن يفعل، وقد حضر ليتفينينكو وملء ذراعيه الوثائق، ومن بينها المخطط الذي في ذهنه، وربط به جميع الأسماء والجرائم التي عرفها هو وزملاؤه. يتصور ليتفينينكو وبوقاحة أن بوتين عقيد مثله، وهو متوسط المستوى، وقد أصبح فجأة مسؤولًا عن مئات الجنرالات المحنكين، وكل ما لديهم من مصالح وعلاقات وأسرار[45]، لم يعرف كيف سيخاطب الرجل الذي يرأس اليوم وكالته؛ هل يدعوه (الرفيق العقيد)؟ لكن بوتين استبقه فنهض واقفًا من مكتبه لمصافحته، ويتذكر ليتفينينكو أنه «بدا أقصر مما هو عليه على شاشة التلفاز». كان اجتماعًا قصيرًا، وكان يعتقد ليتفينينكو أنه بارد؛ فقد أصر بوتين على تلبية طلبه وحده، دون الزميلين اللذين كانا برفقته، ورفض بأدب تسلُّم الملف الذي جلبه معه.

وصف ليتفينينكو الاجتماع لزوجته مارينا وكأنه كارثة؛ «كنت أرى في عينيه أنه يكرهني»[46]. وكان بوتين قد جمع ملفًّا خاصًّا به ضد ليتفينينكو وغيره، وفي مساء يوم 19 نوفمبر/تشرين الثاني، ظهر على شبكة تلفاز (روسيا)، وعلى الرغم من وعده بإجراء تحقيق فإنه أصر على أنه لا يوجد دليل صحيح على أي من الاتهامات ضد الـ FSB، وسخر من المؤتمر الصحفي الذي عدَّه مشهدًا مع «شخصيات من قصص الأطفال»، يرتدون أقنعة على الرغم من أنهم أعلنوا أسماءهم، وذكر أن الزوجة السابقة لأحدهم- لم يذكر زوجة أي منهم، لكن يبدو أنه لم يقصد ليتفينينكو- اتصلت به بعد ذلك، تشكو تخلفه عن دفع النفقة، وهو أمر غير مناسب، وربما كان هذا هو السبب في كونه يرتدي نظارات داكنة، ثم قلب الطاولات، وقال إن الوكلاء أنفسهم مارسوا عمليات غير مشروعة[47].

استدعى يلتسين بوتين إلى بيته الريفي مرة أخرى في اليوم التالي، وطلب منه حلًّا للفضيحة المحرجة التي تتصاعد؛ «جميع الناس يعرفون ما يحدث لأناس مثل هؤلاء على يد يلتسين شديد اللهجة»، كتبت إحدى الصحف عن الاجتماع[48]. لم يلن بوتين ورأى أنه حتى إن كانت بعض اتهامات الوكلاء حقيقية، فقد كانوا متواطئين كما رؤسائهم، وأنه من خلال عقدهم مؤتمرًا صحفيًّا خانوا قَسَمهم ومناصبهم بصفتهم ضباط مخابرات، ومن ثم فإنه بدلًا من التحقيق في مطالبهم، قدم للرئيس الأدلة التي كان قد جمعها من مخالفاتهم، ثم أقال ليتفينينكو ورفاقه، وقال: «مثل هؤلاء لا يمكنهم أن يعملوا في الـ FSB».

معالجة بوتين للقضية لم تكسبه الدعم الشامل في الكرملين، وظهرت شائعات بأن يلتسين ينوي إقالته لعدم الكفاءة، ولم يكن قد مضى عليه سوى أربعة أشهر من العمل. تخفيض عدد الموظفين في لوبيانكا لم يكن شائعًا على الصعيد السياسي في مجلس الدوما، الذي استمر بالهجوم على رئاسة يلتسين في كل فرصة سانحة. وبدا موقف بوتين فجأة غير مستقر، خاصة بعد مقتل غالينا ستاروفويتوفا، النائبة الليبرالية البارزة من بطرسبورغ، التي قُتلت بعد ثلاثة أيام فقط من مؤتمر ليتفينينكو الصحفي.

كانت ستاروفويتوفا ناشطة إثنوغرافية، برزت على الساحة خلال البيروسترويكا مدافعةً شرسة عن حقوق عدد من المجموعات العرقية في روسيا، ولم تكن هي وبوتين قطُّ على علاقة وثيقة، لكن خلال عملهما في بطرسبورغ طوال التسعينيات، عرفت سوبتشاك وزوجته أيضًا. وفي سبتمبر/أيلول 1998م ظهرت في برنامج تلفازي باسم يناسب العصر: (**فضائح الأسبوع**)، وأشارت إلى أن التسريبات المتجددة عن اتهامات جنائية ضد سوبتشاك تبدو محاولة لتشويه سمعة المدير الجديد لجهاز الأمن الفيدرالي فلاديمير بوتين، وأشارت إلى أن سوبتشاك رسميًّا يبقى أحد الشهود في التحقيق وليس مشتبهًا فيه، وباعتقادها فهي ليست سوى مؤامرة مضحكة قد تطول بطريقة ما بوتين نفسه، «وأنا لا أستبعد ذلك على الأقل، وإن كانت بطبيعة الحال أمرًا يثير السخرية»[49].

في ليلة 20 نوفمبر/تشرين الثاني عادت ستاروفويتوفا إلى شقتها في غريبويدوف كانال، مع أحد مساعديها رسلان لينكوف، فأطلق مهاجمون خمس رصاصات على الأقل، ثلاث منها أصابت ستاروفويتوفا في الرأس وقتلتها على الفور، واثنتان أصابتا لينكوف الذي نجا[50]. ألقى المسلحون بمسدساتهم في مكان الحادث وانطلقوا في سيارة كانت بانتظارهم، وكان هذا الهجوم بكل حيثياته ضربة أخرى مدفوعة الأجر (ضربة بعقد)، وقد أثار إدانة دولية. قال أحد مؤيديها، سيرجي كوزيريف: «أن تقتل امرأة، امرأة في السياسة، هذا لم يحدث في روسيا منذ عهد ستالين»[51]، وندد يلتسين بالجريمة، ووصفها بأنها «تحدٍّ سافر لمجتمعنا بكامله»، وأصابه الذهول من هذه الأنباء، ونقل عن أحد مساعديه أنه نقل إلى المستشفى في اليوم التالي[52]. هو وبريماكوف أمرا بوتين، ووزير الداخلية سيرجي ستيباشين، والنائب العام يوري سكوراتوف، أن يتبنوا الأمر على أنه (اتهام شخصي) في أثناء التحقيق، وطالبا بالنتائج.

كانت ستاروفويتوفا قد أعلنت من وقت قريب ترشحها لمنصب محافظ منطقة لينينجراد (خلافًا للمدينة، لم تغير اسمها السوفييتي)، وكانت قد نددت بالقومية الصفراء المتداولة في المناقشات البرلمانية، وجمعت أدلة على الفساد في حكومة بطرسبورغ، ولم يكن ثمة نقص في الدوافع والمشتبه فيهم المحتملين؛ فقد اعتقلت الشرطة أكثر من ثلاث مئة شخص في الأسابيع التي تلت وفاتها[53]، ومع ذلك لم يعرف الدافع كليًّا وراء قتلها.

انتقد يلتسين، المريض والمحبط، تلك الجريمة ملقيًا باللوم على ما يحصل من مشكلات متفاقمة في البلاد في ذلك الشتاء على (اندلاع الهستيريا الشيوعية)، التي لم تشمل فقط الاستنكارات المتكررة لليهود، وإنما الدعوة أيضًا لعودة تمثال فيليكس دزيرجينسكي إلى قاعدته خارج مقر الـ (كي جي بي) القديم، حيث يعمل بوتين اليوم. وقد أغضب يلتسين عدم تحرك (مكتب المدعي العام الذي يهدد عادة) لمواجهة ما عده التحريضات الإجرامية للإطاحة بالديموقراطية[54]. بدا مقتل ستاروفويتوفا في روسيا إضرابًا آخر في البلاد، يصيبها بالشلل، وضد يلتسين أيضًا.

رئيس وكالة المخابرات الداخلية للبلاد (بوتين) يتحمل بعض اللوم على الأقل، في اعتقاد يلتسين، وأصبح مصير بوتين السياسي اليوم يرتبط بنزوة يلتسين التي لا يمكن التنبؤ بها، فقد استدعاه مرة أخرى في 15 ديسمبر /كانون الأول، وهذه المرة إلى الكرملين، وفي أحد الأيام القليلة التي يكون فيها في مكتب الرئاسة؛ يريد مناقشة قضية ستاروفويتوفا، واندلاع عبارات عنصرية في البرلمان، والمؤامرة ضد بيريزوفسكي، وأين وصل بوتين في إعادة هيكلة جهاز الأمن الفيدرالي.

خرج بوتين من الاجتماع مؤكدًا أن ثقته بالرئيس لم يفقدها قطعًا، لكن بدا كمن فقدها، واتهم أولئك الذين ينشرون الشائعات، ويبدو أنهم من داخل جماعات يلتسين المتحاربة، فهم يريدون «زرع بذور الشك بين فريق الخدمة الإداري والتنفيذي، أو إضعاف سيطرته». قال بوتين: «يكمن الخوف من القاعدة التي انطلقت منها الشائعات، الخوف من الأجهزة الأمنية». وبدا بوتين وكأنه غير متشبث بمنصبه، وقد أعلن ذلك عندما انتهت ولاية يلتسين، حيث أمضى بصعوبة عامًا ونصفًا، وأنه سوف يستقيل لإفساح المجال لرئيس مخابرات جديد تحت قيادة جديدة، «من الواضح أن عليَّ أن أغادر»[55].

الفصل التاسع

التسوية

في الربيع التالي، وفي وقت متأخر من مساء يوم 17 مارس/آذار 1999م، بث برنامج نشرات الأخبار المسائية على التلفاز الحكومي تقريرًا يسبقه تحذير بأنه قد لا يكون مناسبًا لأي شخص دون سن الثامنة عشرة. ظهرت مقتطفات من شريط مصور بالأبيض والأسود، وبدا واضحًا أنها ملتقطة من كاميرا مراقبة مثبتة سرًّا في موقع فوق سرير مزدوج، تبيَّن فيما بعد أنه داخل شقة في موسكو، مملوكة لمصرفي على درجة من الشهرة. شابتان، وصفتا بأنهما من بنات الليل، تدخلان وتخرجان من إطار الصورة، وفي مراحل مختلفة من خلع ملابسهن، ثم سرعان ما يبدو هناك رجل، كما يذكر المذيع، «يشبه كثيرًا المدعي العام» يوري سكوراتوف. وكان صراع الكرملين مع المدعي العام قد اشتد، وكان الهجوم المضاد الذي اتخذ للتو متوهجًا.

تلقت جميع الشبكات الرئيسة نسخًا من كاسيت الفيديو في وقت سابق من الأسبوع، ومن مصدر مجهول، واستغرق بث الشريط بمجمله خمسين دقيقة، ولم يختر بثه سوى قناة التلفاز الحكومية (RTR)، في البداية على الأقل[1]، وقد اعترض بعض مراسلي الشبكة على عرضه، إلا أن مديرها العام، ميخائيل شفيدكوي، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للثقافة في روسيا، هو من اتخذ القرار[2]، وظل المصدر ومصداقية التسجيل غامضين، وكانت نوعية التصوير رديئة حتى إنه كان يصعب لأحد أن يقول إن هذا سكوراتوف الذي يقفز مبتهجًا مع امرأتين، وحين سألته إحداهما عن اسمه، رفض إعطاء اسمه، وأجابها: «يورا»، تصغير اسم يوري. كان

لشريط الفيديو كل خصائص (فخاخ العسل) التي استخدمتها الـ(كي جي بي) لإحراج رجال الأعمال أو السياسيين بقصد ابتزازهم، وانتشرت نكتة على إثر ذلك وعُمِّمت بأن مصدر الفيديو كان رجلًا يشبه كثيرًا مدير جهاز الأمن الفيدرالي؛ فلاديمير بوتين.

وفقًا ليلتسين، كان رئيس إدارته، نيكولاي بورديوزا، أول من حصل على شريط الفيديو، وقد صُدم به، والتقى بورديوزا سكوراتوف سرًّا في الكرملين في الأول من فبراير/شباط، قبل وقت طويل من نشر الفضيحة[3]، وقد كتب سكوراتوف على الفور خطاب الاستقالة، مشيرًا إلى تدهور حالته الصحية، وأُخضع للفحص في المستشفى في اليوم التالي، أما يلتسين فقد خرج من المستشفى الخاص، الذي عولج فيه هذه المرة من نزيف في المعدة، وفحص بورديوزا أيضًا نفسه في المستشفى في وقت لاحق من هذا الشهر، كما لو أن طاعونًا اجتاح النخبة السياسية في البلاد.

يوم 2 من فبراير/شباط عاد يلتسين إلى مكتبه في الكرملين لأول مرة منذ نهاية عام 1998م، وبقي فقط ساعة ونصفًا، لكن بقاءه كان كافيًا لطرد أربعة مساعدين وقبول استقالة سكوراتوف، وقد ورد في القرار أن سبب استقالة سكوراتوف حالته الصحية، وقد أصبح (المرض) المفاجئ للقادة السوفييت منذ وقت طويل كناية عن المؤامرات العميقة، ولا أحد يصدقه.

انتشرت شائعات عن فصل آخرين من العمل، ومن بينهم بوتين؛ ولا أحد يدري ما الذي يتكشف من خلف الأستار. مجلس شيوخ البرلمان، والمجلس الاتحادي الفيدرالي، الذي يسيطر عليه محافظو البلاد هو السلطة الوحيدة المخوَّلة بقبول استقالة سكوراتوف؛ وهو يرقب الفراغ في السلطة الذي سيعقب نهاية ولاية يلتسين الوشيكة، فرفض المجلس النظر في مصير سكوراتوف ما دام أنه في المستشفى وغير قادر على توضيح سبب الاستقالة. ادعى يلتسين في ذلك الوقت أنه لا بورديوزا ولا مساعدوه الآخرون أخبروه عن شريط الفيديو قبل أن يصبح قضية عامة، وقال إنه سعيد لاستقالة سكوراتوف من منصبه، ولسبب واضح.

شغل سكوراتوف منصب المدعي العام أكثر من ثلاث سنوات، ولم يتميَّز إلا بإخفاقه الذريع في حل الجرائم الأكثر شهرة في البلاد، ومن بينها مقتل غالينا ستاروفويتوفا قبل شهرين، وقد كتب يلتسين: «الأعذار الروتينية التي لا نهاية لها لسكوراتوف بدأت تزعجني»[4]، وسكوراتوف، مع ذلك، لم يكن خاملًا بالمطلق؛ فقد أبدى حماسًا في التحقيق بقضايا الرئيس أكثر مما أبداه في التحقيق بجرائم بشعة أخرى في البلاد، وفي الأشهر التي سبقت إقالته، اكتسبت بعض تحقيقاته فجأة زخمًا جديدًا. وفي فبراير/شباط في اليوم الذي جوبه بورديوزا بشريط الفيديو، سلَّم سكوراتوف تقريره إلى مجلس الدوما متهمًا مصرف روسيا المركزي بتحويل سري لما قيمته 50 مليار دولار من احتياطيات العملة الأجنبية من خلال شركة غامضة تسمى شركة الإدارة المالية المحدودة، التي كانت قد سجلت على ما يبدو في عام 1990م في جزر الشانيل من قبل الـ(كي جي بي) والحزب الشيوعي، واستخدمت حسابًا خارجيًّا، على الرغم من أن كثيرًا من التفاصيل لا تزال غير واضحة، ومن ضمنها المستفيدون من التحويلات غير القانونية[5].

في اليوم التالي دهم محققون من مكتب سكوراتوف، يرافقهم شرطة خاصة ملثمون، مقرات شركة سيبنفت النفطية، وهي جزء من إمبراطورية بوريس بيريزوفسكي، وبعد يوم من المداهمة ظهروا في شركة بيريزوفسكي الأمنية (أتول)، حيث وجد المحققون معدات تنصت إلكتروني، وأشرطة مصنفة تحت اسم (**الحاشية**)، في إشارة إلى دائرة يلتسين الداخلية من المستشارين، و(تانيا)، ابنة يلتسين الصغرى، ومستشارته السياسية تاتيانا دياتشينكو.

على الرغم من استقالته، أو ربما بسبب ذلك، حوَّل السخط على الفساد والملاحقات القضائية لسكوراتوف انتباه الجمهور فجأة إلى ذاك الذي يجري في قلب السلطة في الكرملين. بعد الانتهاكات المتوحشة للخصخصة في مطلع التسعينيات بدأت تتصاعد الدعوات إلى العدالة بصوت أعلى، وتستشعر الرياح السياسية لرئيس الوزراء الجديد، يفجيني بريماكوف، الذي أعلن في اجتماع لمجلس الوزراء يوم 28 من يناير/كانون الثاني أن

الحكومة ستنظر- وفق منظمة العفو الدولية (أمنسيتي)- في قضايا أربعة وتسعين ألفًا من السجناء المسالمين؛ لتحرير مساحة «لأولئك الذين هم على وشك الاعتقال؛ الناس الذين يرتكبون جرائم اقتصادية»[6]، وبدا هذا تحذيرًا من أنه حتى القلة حول الكرملين لم يعد بالإمكان أن يعتمدوا على الحصانة في أعقاب رئاسة يلتسين. وقد رد بيريزوفسكي، الذي يُكِنُّ كراهية شديدة لبريماكوف، بالمثل، بإعلان أن تهديدات بريماكوف بدت كأنها عودة إلى الرعب العظيم. ولم تتأخر الغارات طويلًا على شركاته بعد ذلك.

كانت تصريحات بريماكوف هي الاجتياح الخطابي لسياسي طموح إلى أن يصبح الرئيس المقبل لروسيا، وفي بضعة أشهر من رئاسته للوزراء كوَّن لنفسه دعمًا في البرلمان، وفاز على محافظ (عمدة) موسكو القوي، يوري لوجكوف، الذي كان في وقت ما صديقًا ليلتسين، وهو اليوم في انتظار زوال الرئيس. رأى يلتسين- أكثر من أي وقت مضى- أن المناورات السياسية، وتحقيقات سكوراتوف، تعدُّ تهديدًا وجوديًّا لسلطته، بل وله شخصيًّا ولرفاهيته، فتذكر مؤامرة الحزب الشيوعي الداخلية التي أطاحت بنيكيتا خروتشوف في عام 1964م، واليوم بدا واثقًا أن بريماكوف ولوجكوف يدسون الدسائس لدى المدعي العام للإطاحة به، وكان عليه أن يفعل شيئًا لوقف ذلك[7].

في اليوم الذي تبنى فيه المجلس الاتحادي مسألة استقالته، في 17 مارس/آذار، ظهر سكوراتوف بصحة جيدة، وطلب أن يحتفظ بوظيفته «إذا جددتم ثقتكم ودعمكم لي»[8]، وأوضح للنواب أنه استقال من منصبه تحت الإكراه، وأنحى باللائمة على اثنين من رؤساء الوزراء السابقين و(القلة المعروفة)، ولم يذكر بيريزوفسكي، لكن ناقش غارات المحققين التي شُنت على شركات بيريزوفسكي، «هؤلاء الناس سبق أن علموا باستقالتي منذ مدة لا تقل عن أسبوعين»، كما قال، وأشار على نحو غير مباشر إلى الناس الذين جمعوا المعلومات عن حياته الخاصة، لكنه اليوم يبدو مصممًا على التمسك بمنصبه.

أرسل الكرملين الشريط المصور عن سكوراتوف والنساء إلى أعضاء مجلس الاتحاد الذين كانوا يستعدون للتصويت على مصير سكوراتوف، وكان لهذا التكتيك ردات فعل ارتدادية سيئة: لقد صدم أعضاء المجلس وروَّعهم، لا من الشريط المصور نفسه، ولكن من طريقة استخدام مثل هذه الخدعة الخام للتأثير وحصد نتائج مداولاته. صوتوا 142- 6 على عدم قبول استقالة سكوراتوف، وتركه في مكتبه ووظيفته، وبعد ساعات قليلة من تصويت المجلس بُث الشريط، وكانت الضجة العامة التي تلت ذلك هائلة، حتى إنه من المستحيل المقارنة بين أي السلوكين أكثر مساومة على الصعيد الأخلاقي: السلوك على السرير أم قرار نشره على الجمهور.

في صباح اليوم التالي استدعى يلتسين سكوراتوف إلى غرفة المستشفى حيث كان يشرف على الشفاء مرة أخرى من قرحة نازفة، وقد كان تلقى في ذلك الوقت أيضًا نسخة منه، وكذلك الصور الثابتة، وعندما وصل سكوراتوف وجد بريماكوف وبوتين ينتظران في الغرفة. لم يستغرب وجود بوتين؛ فقد زاره بوتين حين نقل إلى المستشفى، وأخبره أن (الحاشية) كانت راضية عن رحيله الهادئ في فبراير/شباط الماضي، وعرض عليه تعيينه سفيرًا في فنلندا، ورفض سكوراتوف (المنفى المشرِّف).

ثم سأله بوتين: إذن ماذا ترغب أن تكون؟

قال سكوراتوف: أريد الاستمرار في عملي[9].

بعد خروج سكوراتوف من المستشفى في فبراير/شباط، جرَّب بوتين تكتيكات جديدة لإقناعه بالاستقالة؛ فدعاه ذات مرة وأخبره أنه يتعاطف مع مأزقه؛ وقال مخاتلًا: إنهم (يقولون) إن هناك شريطًا مصورًا مماثلًا عن بوتين نفسه! وربما من الأفضل تجنب الفضيحة بالتنحي[10]. وزار سكوراتوف مرة أخرى في منزله الحكومي في أرخانجيلسكوي، وكانوا جيرانًا، وحالما دخلا في الأراضي المشجرة، عامله وكأنه مسؤول مهم أو مجند، بالتناوب بين الخداع والتهديد، فقال في البداية وباحترام: «يوري إيليتش، أنا دَهِش أنك

تمكنت من العمل ثلاث سنوات ونصفًا في هذه البالوعة!»، وأخبره أنه لا يمكن أن يتصور البقاء في منصبه حتى نهاية ولاية يلتسين، ثم تحولت لهجة بوتين فجأة، فأخرج حزمة من الأوراق وقال إن هناك مخالفات في تجديد شقة سكوراتوف في موسكو، وإن سكوراتوف كان مستهدفًا بسبب تحقيقاته مع رئيس بوتين السابق بافل بورودين[11].

كان بوتين خلال كل ذلك- يعتقد سكوراتوف- مهذبًا جدًّا، ولكن الإشارة إلى بورودين أكدت في ذهنه أن تحقيقاته طالت المقربين من يلتسين و(الحاشية)، وأن عقود بورودين مع ميركاتا، وهي الشركة التي كانت قد أتمت تجديد الكرملين في عام 1994م، وشركتها الشقيقة مابيتكس، قد تأتي أيضًا في إطار تدقيق المحققين في الخارج، فهناك معاملات مشبوهة تشي بغسل الأموال.

في يناير/كانون الثاني، قبل أسابيع فقط من ظهور الشريط المصور، دهم محققون في سويسرا مكاتب مابيتكس في لوغانو، وصادروا سجلات تظهر أن الشركة لم تدفع فقط رشا لمسؤولين روس للفوز بمشاريع البناء، ولكن أيضًا سددت أرصدة بطاقات ائتمان مملوكة لبنات يلتسين، وقد شنت المدعية العامة السويسرية، كارلا ديل بونتي، حملة ملاحقة قضائية ضد غسل الأموال الربحية الجنائية في سويسرا، وأعلنت أن البلاد تهددها «الأموال الروسية القذرة»[12]، ونتيجة لذلك ظهرت الأدلة ضد شركة مابيتكس. وحتى مع تكشف فضيحة سكوراتوف في مارس/آذار، سافرت إلى موسكو لمتابعة التحقيق، عارضة مقايضة الأدلة السويسرية بالتعاون الروسي. وبعد يومين من الاجتماعات الخاصة ناقشت هي وسكوراتوف التحقيقات، ومن بينها تفاصيل حسابات مصرفية تعود لعدد من مسؤولي الكرملين، وبذلك فقد أصبح لسكوراتوف- بعد أن حاول الكرملين إجباره على الاستقالة- نفوذ ليرد الصاع صاعين، واثقًا من أن المجلس الاتحادي سيقف معه في الصراع على سلطة من الشفق السياسي ليلتسين.

عندما واجه يلتسين سكوراتوف في المستشفى في صباح اليوم التالي لأول تصويت للمجلس الاتحادي- في صباح اليوم التالي لبث شريط الفيديو- قال له وهو يمرر أصابعه على نسخة من الشريط المصور، ويتكئ على كرسيه ويتنفس بعمق: «أنت تعلم يا يوري إيليتش أنه لم يسبق لي أن خنت زوجتي...»، ثم وعد يلتسين بوقف عرضه على التلفاز إذا ما كتب سكوراتوف كتاب طلبه الاستقالة للمرة الثانية، وعرف سكوراتوف أن هذا (ابتزاز تمهيدي)، لكنه يعرف أيضًا أنه لا معنى لمناقشة صحته اليوم، واحتج سكوراتوف قائلًا إنه قد بدأ تحقيقًا في مابيتكس، وهو ما فسره يلتسين بأنه ضرب من ضروب الابتزاز بالمقابل[13]، فقال له يلتسين: «يوري إيليتش، نحن نتحدث عن شيء آخر اليوم، بعد ما حدث لك أنا لا أعتقد أنك يجب أن تظل في منصب النائب العام، وأنا لا أقف إلى جانبك، ولن أحاول إقناعك، فاكتب خطاب استقالتك، فأنا لم أعد راغبًا في العمل معك». ودفع يلتسين بورقة وقلم نحوه، فنظر سكوراتوف إلى بريماكوف، متوقعًا الدعم من رئيس الوزراء الذي تعهد بمحاربة الفساد بين النخبة في البلاد، ولكن رئيس الوزراء لم يحرك ساكنًا[14]، وبوتين لم يقل شيئًا، على الرغم من أن سكوراتوف لمس أنه يراقبه طولًا بعرض. من ثم وقع سكوراتوف الاستقالة، استقالته للمرة الثانية في أقل من سبعة أسابيع، على الرغم من أن يلتسين وافق على طلبه بأن يؤجل تاريخ كتاب الاستقالة حتى أبريل/نيسان، الموعد المقرر للاجتماع التالي للمجلس الاتحادي.

حين غادر سكوراتوف المستشفى وعاد إلى مكتبه، ظل يفكر في خطوته المقبلة، وهو يتصور أن معركته مع الكرملين لعبة شطرنج؛ كان موقفه ضعيفًا، لكنه تجنب خسارة اللعبة نهائيًّا[15]، واليوم لا بد له من هجوم مضاد، وفي أثناء قيادته السيارة اتصل بمراسل التلفاز وأعلن التحقيق مع شركة مابيتكس علنًا[16].

من بين الخلافات السياسية المحيطة برئاسة يلتسين والمثيرة للجدل، كان التحقيق الذي أطلقه سكوراتوف وسويسرا في ميركاتا ومابيتكس تهديدًا قويًّا للرئيس و(الأسرة). وقد اعترف يلتسين أن هذه الفضيحة لها (ساقان)، ويمكن أن تودي برئاسته إلى نهاية مبكرة.

بعد يوم من مواجهته مع سكوراتوف، خرج يلتسين من المستشفى وعاد إلى الكرملين، وأقال رئيس أركانه، نيكولاي بورديوزا، دون ذكر الأسباب للرأي العام، مع أن كثيرين افترضوا في وقت لاحق أن إقالته تعود إلى إخفاقه في إزالة سكوراتوف بهدوء. تلقى بورديوزا، المسؤول السابق في الجيش العرض بـ(منفى الشرفاء)، وهو العرض نفسه الذي كان بوتين قد قدمه لسكوراتوف ليصبح سفيرًا في الدنمارك، لكن استبدل به يلتسين ألكسندر فولوشين، وهو شريك تجاري سابق لبوريس بيريزوفسكي، وبعد عشرة أيام رُقي بوتين لأمين عام مجلس الأمن الروسي.

ثم تدخل بوتين وقتها بطريقة تعمق ثقة يلتسين به؛ ومع أن بوتين نفى أن تكون وكالته قد سجلت اللقاء الجنسي لسكوراتوف، فقد أوضح أن الـ FSB كانت على معرفة وثيقة بمصدرها. وفي 2 من أبريل/نيسان، أعلن أن الشريط المصور كان في الواقع حقيقيًّا، أولًا للمجلس الاتحادي (مخفوض العينين)، كما وصفه سكوراتوف، ومرة أخرى في تصريحات للصحفيين المنتظرين. وبقدر ما كان ذلك محرجًا، لم يكن كافيًا لإجبار سكوراتوف، ولكن وجد بوتين ثغرة قانونية مدهشة لعناد المجلس، وشرع يعلن أن هناك (أطرافًا) أخرى، كالأطراف الموجودة في الشريط المصور، قد دفع لهم المجرمون في محاولة للتأثير في تحقيقات سكوراتوف. إذا ثبت أنها صحيحة فستكون جريمة قاتلة، ولما كان على أي موظف مدني يخضع لتحقيق جنائي، التنحي حتى يصدر القرار بخصوص التهمة، فقد فعل إعلان بوتين ما لم يفعله أي شيء آخر حتى الآن. وفي منتصف الليل، دعا الكرملين نائب المدعي العام في موسكو، وقدم له دليلًا من الـ FSB، وأمره بفتح تحقيق، والآن لم يعد لدى سكوراتوف أي خيار سوى التنحي حتى تحل هذه القضية الجديدة ضده.

أعلن يلتسين وقتها أنه كف يد سكوراتوف عن العمل، وأزال المفرزة المكلفة بحمايته الشخصية، وقطع خطوط الهاتف عن مكتبه، وأمر بإغلاق مكتبه بالشمع الأحمر. وكتب يلتسين فيما بعد: «روسيا من دون المدعي العام كانت أهون الشرين»[17]. كانت مناورة بوتين فنيًّا قانونية، إذ افترض وجود بعض الأسس لتُهَم تتعلق بالرشوة، ولكنها كانت أيضًا لا ترحم،

وأعرب يلتسين عن امتنانه مرة أخرى. وبعد أسبوع أعلن أن بوتين سيبقى مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي، حتى مع ترؤسه لمجلس الأمن الروسي؛ فقد عبَّر عن ولائه بكفاءته التامة التي تركت أثرًا طيبًا لدى الرئيس، الآخرون قد يعدون، لكن بوتين يحقق نتائج. وبعد سنتين ونصف من وجوده في موسكو، وقف بوتين الآن في مركز إدارة يلتسين، ولم يعد مجرد نائب، ولكنه واحد من أقوى المسؤولين في الكرملين.

بدأ بوتين يتدرج في الرتب عندما بدأ عهد يلتسين في طور الاحتضار، إذ إن فضيحة سكوراتوف التي تتكشف عززت الجهود التي يبذلها الشيوعيون لعزل يلتسين، وهي خطوة تجعل بريماكوف هو القائم بأعمال الرئيس حتى إجراء انتخابات جديدة. الرئيس المريض والخائف لم يعد يقدم كثيرًا من الجهد للسيطرة على الأحداث، وكان يكتفي برد الفعل في أوقات متقطعة.

يوم 5 مارس/آذار 1999م اختُطِف المبعوث الخاص لوزارة الداخلية إلى الشيشان، الجنرال جينادي شبيغن، عندما كان يستقل طائرة من العاصمة جروزني، فقد أصبحت عمليات الخطف صناعة ما بعد الحرب الرئيسة في الشيشان، إذ كان ثمة مئات من الأشخاص المحتجزين للحصول على فدية بين عامي 1996 و1999م، لكن خطف مبعوث رفيع المستوى عمل وقح لا يمكن للكرملين تجاهله. كانت محادثات السلام التي أنهت الحرب في عام 1996م قد منحت الشيشان قدرًا كبيرًا من السيادة، غير أن القتال الذي استمر ما يقرب العامين دمر المنطقة وترك الاقتصاد في حالة خراب؛ فقد قتلت الحرب ما يصل إلى مئة ألف شيشاني، وقرابة خمسة آلاف جندي روسي، وفقًا للسجلات الرسمية التي يشكك بعضهم في مصداقيتها. وبعد أن نجت من الهجوم الروسي المضاد بدأت الشيشان تنحدر إلى حالة من الفوضى والإجرام، وهو ما قوض جهود رئيس الإقليم المنتخب، أصلان مسخادوف، في استعادة النظام وكسب الاعتراف الدولي للانفصال عن روسيا، وسرعان ما انتشرت الفوضى على حدود الشيشان.

في 19 مارس/آذار، بعد يوم من استقالة سكوراتوف الثانية، انفجرت قنبلة ضخمة في سوقٍ جنوبي مدينة فلاديكافكاز، عاصمة أوسيتيا الشمالية، وهي جمهورية أخرى من الجمهوريات التي تمتد على طول القفقاز، وليست بعيدة عن جروزني، وأسفر الانفجار عن مقتل أكثر من ستين شخصًا، فأمر يلتسين بوتين ووزير الداخلية سيرجي ستيباشين، بالانتقال إلى فلاديكافكاز للإشراف على التحقيق. وبعد ذلك بيومين نجا مسخادوف بأعجوبة من محاولة اغتيال. كان مسخادوف ضابط المدفعية السابق من الحقبة السوفييتية، ومتهم بأنه قومي وانفصالي، لكن كان واحدًا من القادة القلائل في الشيشان الذين يمكن أن يتفاوض معهم الكرملين. كثير من التخطيط العام كان جاريًا للقاء مسخادوف ببريماكوف أو حتى يلتسين نفسه؛ من أجل انتقال الشيشان إلى الاستقلال المسموح به ضمن اتفاقات السلام لعام 1996م، وبعد تلك الحادثة أشار مسخادوف إلى أن (بعض القوى) في موسكو قد تآمرت لقتله ليكون ذلك ذريعة لإعلان حالة الطوارئ، وتجنب حق تقرير مصير الشيشان. فندد بوتين بغضب بالاتهام[18]. كانت اتفاقات السلام التي أوقفت الحرب الأولى إهانة لروسيا، واليوم لم تعد توفر كثيرًا من الأمل لتحديد الوضع النهائي للجمهورية من أجل الاستقلال، وبدأ رجال الأمن في الكرملين، ومن بينهم بوتين، بصياغة خطط لحرب جديدة بدلًا من ذلك.

الاضطرابات المتجددة في الشيشان تكشفت حين كانت روسيا تواجه حربًا يشنها العدو اللدود للاتحاد السوفييتي؛ حلف شمال الأطلسي، ضد الإخوة السلافية في صربيا. بعد تفكك يوغوسلافيا في التسعينيات، تحولت صربيا بغضبها إلى منطقة الحكم الذاتي للمسلمين التي كانت داخل حدودها، كوسوفا. وفي نهاية عام 1998م أطلق الرئيس الصربي، سلوفودان ميلوزفيتش، حملة لسحق الميليشيات الانفصالية في المنطقة، وخلال أشهر بدأ يتضح أكثر أن الحملة تطهير عرقي كالذي حدث في البوسنة قبل سنوات قليلة فقط، واستجابت أوروبا والولايات المتحدة بعدوانية؛ لأنها تشعر بالعار من ترددها إزاء ما يجري من قتل في الآونة الأخيرة.

احتمال التدخل العسكري للناتو لحماية كوسوفا أغضب روسيا؛ لعجز الزعماء الأمريكيين والأوروبيين عن إدراك أبعاده؛ فصربيا وروسيا تتقاسمان الأصول السلافية، والدين، والثقافة، ولكن ذهبت مخاوف روسيا إلى أعمق من ذلك؛ فالنزاع في صربيا ألهب الكبرياء الروسي الجريح من حالتها المتشرذمة منذ انهيار الاتحاد السوفييتي؛ فروسيا الجديدة تفتقد القدرة على التأثير في الأحداث العالمية، وصعب عليها هضم الأحداث التي تقودها أمريكا، حتى إن يلتسين وبخ الرئيس كلينتون، مصرًّا على أن هذا التدخل يمنعه القانون الدولي، إلا أن كلينتون تجاهله.

استاءت روسيا من حقيقة أن الولايات المتحدة، وحليفها المتمدد حلف شمال الأطلسي (الناتو) يتصرفون وكأنهم استطاعوا فرض إرادتهم على النظام العالمي الجديد دون أي حساب لمصالح روسيا، والأسوأ من ذلك أن الصراع في كوسوفا له نظائر مدهشة وتوازيات في الشيشان، ومن ثم فإنه حتى الروس الذين لا يتحلون بجنون العظمة يمكن أن يتصوروا أن تقوم حملة لحلف شمال الأطلسي بالنيابة عن حركة استقلال الشيشان[19].

بدأت الحرب الجوية لحلف الناتو في 24 مارس/آذار 1999م، واستمرت ثمانية وسبعين يومًا، وكل قنبلة أو صاروخ سقط على صربيا كان ينظر إليه على أنه هجوم على روسيا نفسها، فاحتدمت المشاعر الشعبية، مع احتجاجات عنيفة خارج السفارة الأمريكية، واستنكارات أشد ضراوة في مجلس الدوما. أججت الحرب المشاعر القومية التي كافح يلتسين بلا كلال لاحتوائها لبقائه السياسي، وأوفد رئيس وزرائه السابق، فيكتور تشيرنوميردين، ليكون وسيطًا مع الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، وقد فعل ذلك بناء على مقترح بوتين الذي عدَّ ذلك «مساهمة صغيرة خاصة به» لحل مشكلة الحرب[20]، وبعد أسابيع من القصف المتواصل، وافق ميلوزفيتش أخيرًا على مطالب حلف شمال الأطلسي بسحب القوات الصربية من كوسوفا لإفساح الطريق لنشر قوة دولية لحفظ السلام، فطلبت روسيا أن تكون جزءًا من القوة، لكنها رفضت أن تكون بأي حال من الأحوال تحت قيادة جنرالات حلف الناتو. وشارك بوتين، الذي عُيِّن قبل وقت قريب رئيسًا لمجلس الأمن الروسي، في المفاوضات لحل مأزق بعثة حفظ

السلام. «أدهشتني قدرته على ضبط النفس، والثقة بالنفس بالطريقة الناعمة المهذبة، والتحدث بمنتهى الهدوء»، هذا ما كتبه ستروب تالبوت، نائب وزير الخارجية، عن اجتماعه مع بوتين في 11 من يونيو/حزيران، وهو اليوم الذي يسبق انتقال قوات حفظ السلام التابعة للناتو إلى كوسوفا من ألبانيا ومقدونيا، وأضاف: «كان جسديًّا أصغر من الرجال الآخرين، كان قصيرًا ونحيفًا ومتأنقًا، في حين كان الآخرون أطول منه وأضخم منه وأكثر بدانة»[21]. كان بوتين جاهزًا للقائه مع الأمريكيين، بالعودة إلى التفاصيل المتعلقة بالشعراء الذين درسهم تالبوت حين كان طالبًا أمثال فيودور تيوتشيف وفلاديمير ماياكوفسكي، فقد قرأ بعناية سيرة رجل المخابرات تالبوت.

وخلال الاجتماع، تلقى الأمريكيون مذكرة تقول إن روسيا تهدد بإرسال قواتها لحفظ السلام في كوسوفا دون التنسيق مع حلف شمال الأطلسي، ولكن بوتين أخبر بهدوء تالبوت أن شيئًا لم يتغير في الاتفاقات التي توصلوا إليها، ولن يحدث شيء (غير مناسب). على أي حال حدث شيء ما، وكان يعتقد تالبوت أن بوتين يعرف كل ما حدث[22]. ففي ذلك المساء تمركزت وحدة من جند المظلات الروسية المتمركزة في البوسنة، التي كانت علامة- وتبدو اليوم علامة ساذجة- على التعاون بين الاتحاد السوفييتي والناتو، حُمِّلت وخرجت من قاعدتها باتجاه المطار في عاصمة كوسوفا، بريشتينا. وحين وصلت القوات البريطانية إلى المطار صبيحة يوم 12 من يونيو/حزيران بغزارة، كان هناك ما يقرب من مئتين من الروس بعرباتهم المدرعة، وما إن حط هناك الجنرال مايكل جاكسون، القائد البريطاني المعين حديثًا لجهود حفظ السلام، واستعد لإعلان انطلاق ناجح للبعثة، حتى توغلت إحدى العربات الروسية خلال المؤتمر الصحفي المرتجل على الطريق الإسفلتية، ووقف قائد الفريق الروسي في منتصف الطريق خارجًا من برج العربة، بابتسامة مصطنعة واضحة على وجهه[23]، فناشد القائد الأعلى للناتو، الجنرال ويسلي كلارك، جاكسون لمنع الانتشار الروسي، لكن جاكسون رفض، وقال لكلارك: «سيدي، لن أبدأ حربًا عالمية ثالثة من أجلك»[24].

في روسيا، كان رد الفعل على نشر القوات فاترًا، لكن التدخل المرتجل في المطار أظهر حالة من الفوضى في الأوامر العسكرية والمدنية في البلاد. بوتين الذي تحدث يوم أمس بأنه لن يحدث شيء، تصرف كأن شيئًا لم يحدث حين لقائه بتالبوت مرة أخرى في اليوم التالي، وادعى أن لا علم له بالانتشار الاستباقي للجيش في بريشتينا، لكن أوضح «بهدوء وتُؤَدة، وبصوت يكاد يكون غير مسموع في بعض الأحيان، أن صراع ما قبل الانتخابات» في البلاد حرَّض الصقور والحمائم على التقاتل بينهما. وأشار بوتين إلى أن هذا خطأ كبير، ولكن على الرغم من ذلك فقد عززت العملية الرئيس في بلده، وقال بوتين لتالبوت: «لا أحد في روسيا يمكن أن يتصور أن الرئيس يلتسين دمية في يد حلف شمال الأطلسي»[25].

أكدت تصريحات بوتين حول «صراع ما قبل الانتخابات» إلى أي مدى أصبحت نهاية رئاسة يلتسين الهاجس الأسمى للنخبة السياسية في روسيا. البلاد، بعد قرون من الحكم القيصري ثم الشيوعية، لم تنقل ديموقراطيًّا السلطة السياسية من قائد إلى آخر. شخصنة السلطة لها جذور عميقة جدًّا في الثقافة الروسية لدرجة تبدو فيها غير معقولة، وحتى في هذه المرحلة المتأخرة، عرض يلتسين فكرة الترشح لإعادة انتخابه، على الرغم من أنه انتخب مرتين، وكان الدستور الجديد للبلاد يقصر مدة الرئاسة في دورتين متتاليتين فقط، لكن لم يدخل حيز التنفيذ إلا في عام 1993م، وكان يمكن أن يساجل من الناحية القانونية أن إعادة انتخابه عام 1996م بدأ بها ولايته الأولى، ويمكنه أن يترشح مرة أخرى في عام 2000م، ولكن كل ذلك كان محض خيال؛ فقد بلغ الثامنة والستين من العمر، وهو متعب ومشلول سياسيًّا. لم يستقل عن طيب خاطر ويغادر الكرملين، لكن عرف أن هذا لا مفر منه، وفكر مليًّا كيف له أن يضمن انتقالًا يحفظ الانتقال السياسي من الحكم السوفييتي، ويحمي نفسه من عمليات التطهير الانتقامية التي أعقبت إزالة كل زعيم منذ آل رومانوف، فالتقاعد لم يكن حميدًا لقادة البلاد.

في خضم النزاع في كوسوفا، تحرك يلتسين بحسم لوضع حجر الأساس لحياته بعد الرئاسة؛ ففي مايو/أيار أقال رئيس وزرائه الرابع، وأثبت بريماكوف قوة استقرار خلال

ثمانية أشهر من توليه رئاسة الوزراء، مخففًا الذعر من التقصير الذي حدث في أغسطس/ آب عام 1998م، والتحرك بإجراءات العزل البرلماني. اعترف يلتسين بأن بريماكوف كان رجلًا صادقًا وكريمًا ووفيًّا، وكان أكبر إخفاق له في رئاسة الوزراء أنه أصبح أكثر شعبية من يلتسين. واليوم قبل عام من الانتخابات الرئاسية لعام 2000م، كان بريماكوف وعمدة موسكو، يوري لوجكوف، الجبهة المفترضة للسيطرة على البلاد، وكان ذلك شيئًا لا يمكن أن يقبل به يلتسين، وأعرب عن قلقه من تصريحات بريماكوف عن إطلاق أسر بعض السجناء لتوفير مساحة للمتهمين (بالجرائم الاقتصادية)، وحقيقة أن مجلس الدوما قد أكمل خمس مواد اتهام وعلَّق النقاش حتى شهر مايو/أيار، فإذا مرِّرت أي مادة منها، فسيفقد يلتسين سلطته على حل البرلمان، إذا ما مضت قدمًا إجراءات العزل المقبلة؛ حتى إن نجح في تأخير المساءلة أو دحر عملية العزل، فسيفقد النفوذ الذي سمح له بدفع كيريينكو لمنصب رئيس الوزراء في العام الماضي.

قد يبقى بريماكوف رئيسًا للوزراء، ويستمر في جمع حلفائه السياسيين، وقد ظن يلتسين- في بحثه عن وريث- أن بريماكوف ليس مؤهلًا مزاجيًّا أن يكون رئيسًا، وروسيا بحاجة إلى «شخص ذي منظومة ذهنية مختلفة تمامًا، من جيل آخر، وعقلية جديدة»، ويعتقد أن بريماكوف «كان لديه كثير من اللون الأحمر في لوحته السياسية»[26].

كان الدافع السياسي من إجراءات العزل هو الضغط على الشيوعيين وحلفائهم في ما يمكن وصفه بأنه آخر معركة سياسية كبيرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، فجرائم يلتسين، وفقًا للمواد، بدأت مع الاتفاق الذي فُكِّك الاتحاد السوفييتي بموجبه في عام 1991م، وتشمل كذلك المواجهة العنيفة مع البرلمان عام 1993م، والحرب في الشيشان، وتآكل الجيش، و(الإبادة الجماعية للشعب الروسي) الناجمة عن الأزمات الاقتصادية في التسعينيات، وما دام أنها مسائل تتعلق بالقانون الدستوري فقد ظلت مشكوكًا فيها، لكنها لقيت صدى عميقًا لدى جمهور محبط، لم تجلب له نهاية الاتحاد السوفييتي الخير فضلًا عن المعاناة والعار.

أصبح عزل يلتسين استفتاء على انتقال روسيا إلى الديموقراطية، وكانت كل مادة من مواد العزل تلقى دعمًا من أغلبية النواب وصنَّاع القانون.

في 12 من مايو/أيار، وقبل يوم من بدء النقاش حول عزله، أقال يلتسين بريماكوف، ورشح سيرجي ستيباشين، وهو قائد مخلص وحيادي، كان قائدًا للشرطة، وعمل في وزارات عديدة في ظل يلتسين منذ عام 1990م، وكان آخرها وزيرًا للداخلية، وكان قد عُيِّن نائبًا لرئيس الوزراء قبل أسبوعين فقط، وكانت هذه الوظيفة شرطًا أساسيًّا لأي شخص يعيَّن رئيسًا للوزراء بالنيابة، وفي أثناء اجتماع الحكومة تصرف يلتسين تصرفًا محرجًا حين طلب من ستيباشين أن يحرِّك كرسيَّه ليقترب منه لـ(إثارة مشاعر الترقب)، على حد تعبيره[27]. ينظر يلتسين إلى إثارة المشاعر هذه على أنها تكتيكات في لعبة، وفي الحقيقة هي كل ما تبقى لديه من سلطة للتأثير في السياسة. كتب يلتسين: «نقلات حادة غير متوقعة، وخطوة عدوانية دائمًا ترمي بخصمك فتفقده توازنه وسلاحه، لا سيما إذا لم يستطع التنبؤ بها، وتبدو غير منطقية على الإطلاق»[28]، وكان يأمل أن تعرقل عملية إعادة التنظيم هذه الأخيرة بطريقة ما طرح التصويت على العزل، ولكنها على ما يبدو غير منطقية على الإطلاق.

استمرت مناقشة العزل القانوني يومين، في حين حاول مساعدو يلتسين بصورة محمومة أن يعدوا ويشتروا الأصوات، وعندما عقدت جلسة التصويت، تغيب 94 نائبًا من أصل 450، وأصبح الوصول إلى 300 صوت أكثر صعوبة، وهو العدد المطلوب لتبني كل مادة من مواد العزل، ومع ذلك صوت 283 من الحاضرين لعزل يلتسين؛ لحربه في الشيشان، التي عارضها الليبراليون بالحماس نفسه الذي أبداه المحافظون المعارضون ليلتسين، وصوت 263 نائبًا للمادة المتعلقة بأحداث أكتوبر/تشرين الأول 1993م، ومواد أخرى أُخِّرت، لكنها لقيت تصويت الأغلبية الساحقة من الحاضرين، وبفارق ضئيل أخفق عزله.

في اليوم الذي عُيِّن فيه ستيباشين، التقى بوتين بيلتسين في الكرملين وعرض عليه خطة لزيادة سلطة FSB في شمالي القفقاز، وهي ترمي إلى تحسين «التعاون والوسائل المتوافرة

لدى أجهزة السلطة الاتحادية»، وباختصار، الاستعداد لحرب في أي منطقة تتجه نحو الخروج عن السيطرة، ليس فقط في الشيشان، حيث ليس لموسكو أي سلطة فاعلة، وإنما أيضًا في الجمهوريات المجاورة مثل شركيسيا، حيث هددت الانتخابات المحلية في مايو/ أيار بإثارة حمام دم بين جماعات عرقية متنافسة. ولم يكن لدى بوتين الخبرة في التعامل مع منطقة القفقاز قبل أن ينتقل إلى موسكو ويتعامل مع مشكلات المنطقة بصفته مفتشًا لمديرية التحكم الرئيسة ثم مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي.

منذ فتوحات كاترين العظمى، كانت الأراضي ذات الأغلبية المسلمة، التي تمتد من البحر الأسود إلى بحر قزوين، موضوعات مقلقة للروس، وفي وقت لاحق للاتحاد السوفييتي. وقد طرد ستالين شعوب القفقاز بأسرها إلى سيبيريا خلال الحرب الوطنية العظمى؛ خوفًا من أن يصبحوا حاضنة للغزاة النازيين، وأطلق انهيار الاتحاد السوفييتي العنان للمظالم القديمة، التي بلغت ذروتها في إعلان الشيشان الاستقلال، والحرب الكارثية بين عامي 1994- 1996م، وهذا أدى إلى تقطيع أوصال روسيا نفسها، من وجهة نظر بوتين، بمساعدة وتحريض أجنبي مشين، وكان يعني- على ما يبدو- المنتصرين في الحرب الباردة، وعلى رأسهم الولايات المتحدة[29].

كارثة كوسوفا، وقرب المواجهة في المطار، دفعت يلتسين إلى أن يطلب من مجلس الأمن الروسي أن يجتمع أسبوعيًّا لينسق أفضل لإستراتيجية الأمن القومي، وقد زادت هذه الاجتماعات من تأييد الجمهور لبوتين، الذي بدأ يوافق على مقابلات منتظمة في الصحف والقنوات التلفازية، مجيبًا عن قضايا الساعة؛ بدءًا من العقيدة النووية الجديدة، والشكاوى الأمريكية من التجسس الروسي، إلى إعادة توحيد روسيا المقترح مع روسيا البيضاء، وصولًا إلى الحملة السياسية المقبلة.

استمرار العجز لدى يلتسين غذى الشائعات حول الاضطرابات، وعن وقوع انقلاب من جانب المتشددين، وفي مقابلة مع كومسومولسكايا برافدا، حرف بوتين السؤال ومن دون

سخرية، حول إمكانية أن تقوم الأجهزة الأمنية بانقلاب: «لماذا علينا الانقلاب إذا كنا نحن في السلطة كما هي عليه اليوم؟»[30]، تعليقه هذا بث قشعريرة في الليبراليون في البلاد والمعارضين ليلتسين، الذين لم يأخذوا التهديد على محمل الجد.

بحلول نهاية شهر يوليو/تموز قطع يلتسين إجازة قصيرة له وعاد إلى الكرملين، وشاكيًا من أن موجة الحر جعلت عطلته مستحيلة، في حين كان ثمة مسألة أكثر إلحاحًا لديه الآن، ولا يعلم بها سواه؛ السبب المفاجئ أن التحالفات الانتخابية كشفت قبل يوم واحد تحالفًا بين رئيس وزرائه المطرود يفجيني بريماكوف، وعمدة موسكو لوجكوف. ولوجكوف لم يعد قريبًا من يلتسين، فقد أطلق العنان لهجماته الشرسة على إدارة الرئيس وعلاقاته مع القلة، ووسائل الإعلام، ومن بينها الصحف ومحطة التلفاز التي تمولها حكومة لوجكوف، كانت تنشر التقرير تلو الآخر عن (حاشية) يلتسين، والفساد من حولها.

ادعى يلتسين أن أكثر القصص افتراء اشترتها الصحف التي استخدمتها الـ(كي جي بي) في زمن الاتحاد السوفييتي، أو سربت إليها (على الرغم من أن حليفه بوتين هو خليفة هذه الوكالة). قناة NTV، التي كانت تدعم يلتسين ضد الخطر الشيوعي، وقفت اليوم ضده منتقمة؛ بعد أن حاول رئيس الموظفين عنده، ألكسندر فولوشين، وقف القروض الحكومية لمالكها ميديا موست، الشركة القابضة لفلاديمير جوسينسكي، أحد القلة الذي موَّل جهود إعادة انتخاب يلتسين عام 1996م.

أقنع يلتسين نفسه أن قوة بريماكوف-لوجكوف الماحقة كانت مؤامرة ليس الهدف منها الفوز في الانتخابات البرلمانية وحسب، وإنما إلغاء الرئاسة نفسها. وفي لقاءات عديدة خلال الصيف، ناشد ستيباشين أن يفعل أي شيء ليوقف إعلان العمدة تلو العمدة دعم حزب لوجكوف، الذي سماه فاذرلاند (الوطن)، الذي يتحالف اليوم مع كتلة بريماكوف (عموم روسيا). ثم جلس يلتسين مفكرًا وقد زادت العزلة حوله، ولم يبق معه سوى حاشيته (عائلته) التي أصبحت قلقة أكثر من أي وقت مضى. وكتب المؤرخ الروسي، روي ميدفيديف: «كان

ببساطة غير قادر على فهم ما يجري في روسيا، ولم يفكر كثيرًا في تمسكه بالسلطة، وإنما بضمان سلامته الشخصية»[31]، فبعد ثماني سنوات من مقاومته البطولية للانقلاب، فقَدَ يلتسين إعجاب الأمة به التي كانت تفر نحو الحرية بعد عقود من الأيديولوجية السوفييتية، ولم تفعل ذكرياته شيئًا لتخفي الشفقة التي وصلت إليها حالته، وشعر بأنه مهجور ومرتاب، وخائف بكل تأكيد، «أُعذبُ نفسي بالمخاوف؛ من الذي سيقف إلى جانبي؟ من الذي كان يدعمني حقًّا؟»[32].

ادعى يلتسين أنه قرر مسار عمله المقبل منذ أشهر سابقة، مع أن قيادته الارتجالية والمتميزة بردود الأفعال تجعل ادعاءه مشكوكًا فيه. حتى ولو فكر في وقت سابق، لا يمكن أن يعرف أحد ماذا قرر أن يفعل، ولا حتى أقرب مستشاريه، حتى يصبح الإعلان وشيكًا[33]. بدا متهورًا بكل تأكيد، وغير مخطط له. وفي 5 أغسطس/آب استدعى بوتين إلى بيته الريفي خارج موسكو لعقد اجتماع سري.

قال له يلتسين: «لقد اتخذت قرارًا، يا فلاديمير فلاديميروفتش، أود أن أعرض عليك منصب رئيس الوزراء»، في البداية لم يقل بوتين شيئًا، بل حدَّق باهتمام في يلتسين مفكرًا فيما يقول، وأوضح له يلتسين (الوضع العام)، والاضطراب الذي يختمر في القفقاز، والاقتصاد، والتضخم، والشيء الذي استحوذ عليه كثيرًا: حاجة الكرملين إلى أغلبية برلمانية في الانتخابات المقبلة التي تفصلنا عنها أربعة أشهر فقط.

بوتين- كما يعتقد- سيعمل حيث تعثر ستيباشين في القضية الوجودية التي تواجه الكرملين: مصير يلتسين في حال أصبح لوجكوف أو بريماكوف الرئيس المقبل. وقد أظهر بوتين في وقت سابق أنه سيتصرف، ولأن الزخم السياسي للوجكوف بُني في الربيع، أطلق بوتين تحقيقًا في الشركة التي تسيطر عليها زوجته يلينا باتورينا؛ إذ نجحت في الفوز بالعقود عقدًا بعد آخر حتى أصبحت المرأة الملياردية الأولى في روسيا، وهي واحدة من حكايات الانتقال من الفقر إلى الغنى، التي تسببت في ترك الملايين من الروس معدمين عند انهيار

الاتحاد السوفييتي، وتلك كانت من نتائج هذه الرأسمالية والديموقراطية الجديدة، ليس في الأمر ذرة من الحسد.

جأر لوجكوف محتجًّا عندما بدأ المحققون يفحصون شؤون باتورينا، فلم يعد يخشى تحدي يلتسين ومستشاره الأمني البارز، واحتج لوجكوف على FSB: «لسوء الحظ، العمل اليوم من أجل الكرملين وليس من أجل هذا البلد»[34].

كان يلتسين يطلب من بوتين أن يضطلع بدور أكثر أهمية؛ فقد طلب منه تأسيس حزب سياسي وقيادته، يمكن أن يهزم أولئك الذين قد تخلوا تمامًا عن الرئيس، وعندما تحدث بوتين أخيرًا طرح السؤال الآتي: كيف لك أن تنشئ أغلبية برلمانية وليس لك أنصار في البرلمان؟ فأجاب يلتسين: «لا أعرف»[35].

عاد بوتين مفكرًا مدة طويلة على غير العادة في صمت، وقد كان سلوكه الهادئ هو ما جذب يلتسين، لكن اليوم يبدو أنه متردد، وأخيرًا قال: «أنا لا أحب الحملات الانتخابية، أنا حقًّا لا أحبها، ولا أعرف كيف أديرها، أنا لا أحبها»، فأكد له يلتسين أنه لن يدير الحملة بنفسه؛ فتكتيكات الحملة كانت أقل مخاوفه؛ فالخبراء يتقنون مداخلها السياسية، وعليه اليوم أن يخطط لتحقيق ما عجز عنه يلتسين: الثقة والسلطة، والوضع العسكري الذي يعتقد أن البلد بحاجة ماسة إليه، والذي كان يشغل تفكير يلتسين كثيرًا في وضعه اليائس. فردَّ بوتين بـ(إيجاز عسكري): «سأعمل حيث تضعني»، هذه العبارة أدهشته، «وفي أعلى منصب؟».

يذكر يلتسين أنه للمرة الأولى يفهم بوتين النيات الكاملة لخطته؛ فلم يقدِّم له منصبًا يمكن أن يفوِّته كما فعل رؤساء الوزراء الثلاثة السابقون الذين لم يستمروا في مناصبهم سوى شهور فقط، فقد كان يشير إلى أنه سيكون وريثًا له في الرئاسة، وهو الإقرار الذي سعى إليه كبار مساعدي يلتسين واستعصى عليهم.

خيم الصمت على الرجلين، وشعر يلتسين بدقات عقارب الساعة في مكتبه، ووجد نفسه يتأمل عيني بوتين الزرقاوين، وقد خال «أن عينيه تتحدثان أكثر من كلماته»[36].

طلب منه أن يفكر في الأمر، ثم استدعي ستيباشين، الذي تلقى خبر إقالته من منصبه في رئاسة الوزراء على نحو سيئ، فتوسل إلى يلتسين لكي يعيد النظر في قراره، ومع أن يلتسين يفضل التنفيذ السريع لقراراته، فقد تعاطف على نحو غير معهود مع رئيس وزرائه، الذي ظل مواليًا له طوال رئاسته، فوافق يلتسين على التفكير في الأمر، وأعرب عن أسفه على الفور.

أناتولي تشوبايس، الذي كان أول من عمل مع بوتين في عام 1991م، حاول التحدث مع يلتسين بشأن قراره بتعيين بوتين رئيسًا للوزراء، فوجَّه نداء لرئيس الأركان، ألكسندر فولوشين، وابنة يلتسين. لم يكن تشوبايس راضيًا عن تعيين بوتين، فقد كان يعده رجل أمن لا يمتلك حسًّا سياسيًّا، وفي الواقع لا يمتلك أي خبرة سياسية. ترك تشوبايس إدارة يلتسين للمرة الأخيرة، وبعد ذلك تزعم احتكار الكهرباء الحكومية، ولكنه كان العقل المدبر لعودة يلتسين عام 1996م، وكانت مواهبه السياسية أكثر رسوخًا من يلتسين في هذه المرحلة. لم يكن هناك كثير من الفوائد المترتبة على استبدال بوتين بستيباشين؛ فلم يسبق لهما أن انتخبا لأي شيء، وكانا في السن نفسها، وكلاهما جاء من بطرسبورغ، وليس لديهما أي قاعدة سياسية مستقلة يمكن أن تدعم يلتسين. وحذره تشوبايس من أن أي تعديل آخر للحكومة سينظر إليه على أنه عمل من أعمال الجنون التي ستدعم الشيوعيين والتحالف الناشئ بين لوجكوف وبريماكوف.

حتى حين توسل تشوبايس في قضيته كانت الأحداث في القفقاز تصلِّب من عزيمة يلتسين، وفي 7 أغسطس/آب عبرت قوة كبيرة من المقاتلين الشيشان حدود الجمهورية، وطوقت ثلاث بلدات في جمهورية داغستان المجاورة. كان الجيش والشرطة الداخلية الروسية يستعدون منذ أشهر لعملية توغل، لكن القوات الشيشانية تصرفت مرة أخرى مع الإفلات من العقاب في الأراضي الحدودية الوعرة، وكان يقودها اثنان من المقاتلين: شامل باساييف، وهو قائد متمرد شرس، وشخصية غامضة تحمل الاسم الحركي **خطّاب**. خطّاب هذا من قدامى المحاربين في حركات التمرد الإسلامية التي يعود تاريخها إلى الحرب ضد

الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، وكان يمثل ممرًّا للتأثير الأجنبي الذي حذر منه بوتين. ستيباشين، الذي كان يتولى عملية اقتحام مماثلة في عام 1995م أدت إلى إقالته من منصبه في رئاسة جهاز الأمن الفيدرالي الروسي، غادر إلى داغستان في اليوم التالي برفقة رئيس هيئة الأركان في الجيش، الجنرال أناتولي كفاشنين، للإشراف على المعركة التي تحولت إلى معركة كاملة بين المقاتلين الشيشان والقوات الروسية. وصرح ستيباشين أن الأخطاء التي وقعت في حرب الشيشان لن تتكرر، وبدأت المدفعية والصواريخ الروسية تنهمر على القرى التي تحتلها القوات الشيشانية، وعندما عاد ستيباشين إلى موسكو في اليوم التالي، مضى يلتسين قدمًا في خطة ترشيح بوتين لمنصب رئيس الوزراء المقبل، وأقال ستيباشين من منصبه.

«قررت اليوم تسمية شخص يستطيع- من وجهة نظري- أن يعيد اللُّحمة للمجتمع السوفييتي»، هذا ما قاله يلتسين في حديث تلفازي يوم 9 أغسطس/آب. «وبالاعتماد على القوى السياسية الواسعة، سيضمن استمرار الإصلاحات في روسيا». لم يُسَمِّ يلتسين صراحة بوتين وريثًا له، لكنه ذكر الانتخابات المقرر إجراؤها في يونيو/حزيران 2000م، معربًا عن أمله أن يجد الناخبون الثقة في هذه القيادة الشابة، قيادة زعيم لم يختبر نسبيًّا في قيادته حتى اليوم، وأضاف: «أعتقد أن لديه ما يكفي من الوقت لإظهار جدارته».

«هذه قبلة الموت»، قال الشيوعي الإستراتيجي البارز ليونيد دبروخوتوف في ذلك الوقت مشيرًا إلى تأييد يلتسين؛ «نظرًا إلى الكره الشامل له في البلاد، فأي توصية من قبله لأي سياسي، حتى إن كانت نحو الأفضل، تشير إلى طريق القبر»[37]. وأعلن رئيس مجلس الدوما، جينادي سيليزنيوف، أيضًا أن يلتسين قد أنهى الحياة السياسية لبوتين، قائلًا إن النواب «يجب ألا يضيعوا أسابيع» في مناقشة الترشيح؛ لأنه «يمكن إقالته في الأشهر الثلاثة المقبلة»، وحتى بوتين كان يشكك في مستقبله زعيمًا سياسيًّا، وهو المستقبل الذي لم يفكر فيه هو شخصيًّا، فكل من عرفه يعرف ذلك جيدًا.

كان حقًّا صيفًا ثقيلًا على بوتين؛ فقد تدهورت صحة والده كثيرًا، وعلى الرغم من تزايد مسؤولياته في جهاز الأمن الفيدرالي FSB ومجلس الأمن الروسي، كان بوتين يسافر إلى بطرسبورغ على الأقل مرة واحدة في الأسبوع لرؤيته، وقد كانت والدته، ماريا، توفيت في العام قبل الماضي، وكلاهما عاشا حتى رأياه يترقى في الرتب في المدن والحكومات الاتحادية التي انبثقت من أنقاض الاتحاد السوفييتي. علاقة بوتين بوالده لم تكن في يوم ما علاقة حميمة، ولكن الفخر الصامت لقدامى المحاربين كان واضحًا؛ فقد أبدى تعجبه وهو على فراش الموت قائلًا: «ابني كالقيصر!»[38]. وتوفي في 2 أغسطس/آب. وبعد أن عاد بوتين من الجنازة في بطرسبورغ، عرض عليه يلتسين منصب رئيس الوزراء.

عرف بوتين- على الرغم مما سيدَّعيه لاحقًا يلتسين- أنه قد يتجاهله ويقيله كما أقال من قبله ستيباشين، وبريماكوف، وكيريينكو، ويحسب أنه سيمضي في المنصب شهرين أو ثلاثة أو ربما أربعة قبل أن يستبعده. هو اليوم في سن السادسة والأربعين، وشعر أنه تسلم (مهمة تاريخية)، وليس لديه إلا وقت قصير لإنجازها. العنف على الحدود الشيشانية مع داغستان بدا كأنه استمرار للتصدع الذي بدأ عام 1991م عندما انهار الاتحاد السوفييتي، وكانت الحرب في الشيشان إهانة، وكانت ردود فعل زعماء روسيا ليست على قدر المسؤولية تجاه ما كان تهديدًا وجوديًّا للأمة. شعر أن البلاد تتمزق كما تمزقت يوغوسلافيا وألمانيا الشرقية، يستذكر ذلك قائلًا: «إذا لم نضع حدًّا فوريًّا لهذا فستزول روسيا من الوجود»، لم تكن تحظى الحرب في الشيشان بشعبية قوية، وهو ما أدى إلى تدني سمعة يلتسين، وتسبب في محاولة التصويت على عزله لاتهامه بالتقصير، ومن ثم فقد عرف أن صراعًا جديدًا سيكون محفوفًا بالأخطار أيضًا. قال: «أدركت أنني أستطيع أن أفعل ذلك لكن على حساب مسيرتي السياسية، وكانت تكلفة ممكنة، وكنت جاهزًا لدفع الثمن».

تذكر حين كان طفلًا صغيرًا في الفناء، وكان المتسلطون من الأطفال واثقين من «ركلة محتملة على مؤخرته»، لكن ليست هذه المرة، بل في القفقاز، كاد «أن يفتح جهنم على هؤلاء العصابات»[39].

الفصل العاشر

في المرحاض الخارجي

داغستان هي الجزء الجنوبي من روسيا، أرض متنوعة عرقيًّا على الحدود مع بحر قزوين، وترتفع في قمم جبال القفقاز الشرقية على الحدود مع الشيشان، ويمثل المسلمون أغلبية فيها، كما هو حال الشيشان، ولكنها أيضًا أحد أكثر الأماكن غير المتجانسة في العالم، تقطنها عشرات القوميات واللغات. وعاشت تحت الحكم الروسي أولًا في بداية القرن التاسع عشر، وانضمت إلى جمهوريات القفقاز الأخرى لتكوين دولة محدودة الاستقلالية بعد الثورة البلشفية. مع انهيار الاتحاد السوفييتي، لم تنضم إلى الشيشان في إعلان استقلالها عن روسيا، فالانفصال يحظى بتأييد شعبي قليل هناك بين مختلف الشعوب، على الرغم من مناقشة فكرة التوحيد مع الشيشان كثيرًا في عقد التسعينيات.

القائد الذي قاد عملية التوغل من الشيشان في 7 أغسطس/آب، شامل باساييف، أعلن عزمه إقامة دولة إسلامية في داغستان، ويأمل في توسيع حملته السياسية والأيديولوجية للعنف والإرهاب من أجل تعزيز سلطته الخاصة في الشيشان. جنبًا إلى جنب مع المقاتل السعودي خطَّاب، الذي قاد قوة من ألفي مقاتل، استوليا على القرى الصغيرة على طول الحدود الجبلية، ولم يكن الهدف المحدد من الهجوم واضحًا، لكن بفضل التوترات التي تصاعدت منذ اختطاف الجنرال شبيغن (عثر على جثته لاحقًا) فقد كان الجيش الروسي متحضرًا على نحو أفضل. كان سيرجي ستيباشين وزيرًا للداخلية، وبعد/أيار أصبح رئيسًا للوزراء، وقد تمكن من وضع خطط للشرطة وللعملية العسكرية التي من شأنها استعادة

النظام الاتحادي في جمهورية الشيشان. وكان بوتين، رئيس جهاز الأمن الفيدرالي ورئيس مجلس الأمن الروسي ليلتسين، مشاركًا في وضع تلك الخطط، وقد ادعى ستيباشين في وقت لاحق أنهم اتفقوا على توقيت العملية- أغسطس/آب أو سبتمبر/أيلول- قبل مدة طويلة من توغل باساييف[1]. خطة ستيباشين محدودة الأهداف العسكرية: الاستيلاء على السهول في الثلث الشمالي من الشيشان، والأراضي المنخفضة حتى نهر تيريك، وخلق حاجز وقائي يطوِّق التطرف والإجرام في جبال الجمهورية.

عشية اجتياح باساييف في داغستان، كان في ذهن بوتين اليوم أكثر طموحًا؛ فقد طلب من يلتسين (السلطة المطلقة) للتنسيق بين جميع الوزارات الأمنية، والتحرك بعمليات عسكرية؛ أي السلطة التي تتبع رسميًّا للرئيس بصفته قائدًا عامًّا، فوافق يلتسين للمرة الأولى على أن يفوض رئيس الوزراء بكثير من صلاحيات الرئاسة[2]، وفي اليوم التالي لتعيينه في أغسطس/آب، أعلن بوتين أن قادة روسيا سيعيدون بسط السيطرة على داغستان، وأعطاهم مهلة أسبوعين، ولم يكن ترشيحه قد تأكد بعد. قصفت القاذفات الروسية وطائرات حوامة قبل 13 أغسطس/آب القرى التي احتلها المقاتلون الشيشان، وهدد بوتين بشن ضربات جوية في الشيشان نفسها، وفي اليوم التالي فعل الروس بالضبط ذلك، فقصفوا القرى التي تعرضت لتوغل قوات تستخدمها قواعد لها.

في 16 أغسطس/آب تبنى مجلس الدوما قرارًا بترشيح بوتين بهامش ضيق بعد مداولات ركزت على الحملة الانتخابية أكثر مما ركزت على كفاءته لشغل هذا المنصب، أو على العنف الجاري في الجنوب. حصل على 233 صوتًا، بزيادة 7 أصوات فقط عن الحد الأدنى المطلوب، وأقل بكثير من ستيباشين، أو بريماكوف، أو كيريينكو[3]، وبدا بوتين شخصية انتقالية في أحسن الأحوال، سرعان ما سيركن جانبًا. في كلمته المقتضبة أمام البرلمان، تعهد بوتين باستعادة الانضباط في الحكومة، وذكَّر جنرالات روسيا بالموعد النهائي لصد الغزاة في داغستان؛ «تبقى لديهم أسبوع واحد اليوم فقط».

وبعد أسبوع انسحب مقاتلو باساييف، بعد أن أخطؤوا حساب الوحشية الانتقامية الروسية، وبسبب قلة الدعم المحلي في داغستان لانتفاضة إسلامية. ومع أن داغستان فيها أتباع السلفية، ظلت الجماعات العرقية لا تعد ولا تحصى في الجمهورية، وأكثر ولاء للدولة الروسية من الشيشان[4]، وانضمت الشرطة المحلية والقوات شبه العسكرية إلى القوات الفيدرالية في مقاومة الغزاة، وفي 26 أغسطس/آب رفع العلم الروسي ذو الألوان الثلاثة على القرى التي احتلت ثم دمرت في غضون أسبوعين من الغارات الجوية. في اليوم التالي سافر بوتين إلى داغستان، يرافقه الصحفيون في الصحف والتلفاز، وكانوا لا يعرفون وجهتهم حتى هبطت الطائرة بهم في العاصمة الإقليمية ماخاتشكالا. ومع إجراءات أمنية مشددة وسرية تامة، استقل الوفد المرافق طائرة حوامة، انطلقت بهم إلى بوتليخ، وهي قرية جبلية في وسط الغزو، على مسافة خمسة أميال فقط من الحدود الشيشانية. وارتدى بوتين ملابس غير رسمية، بنطالًا وجاكيتًا، ووجَّه تحية لمجموعة من المقاتلين الروس والداغستانيين، ثم قلدهم خمسين ميدالية، وأعلن أن ثلاث ميداليات أبطالِ روسيا، وهي أعلى وسام عسكري في البلاد، ستُمْنَح في وقت لاحق في مراسم في الكرملين، ووسامًا رابعًا يمنح بعد الوفاة.

وفقًا للإحصاء الرسمي لقي ما يقرب من ستين جنديًّا روسيًّا حتفهم في أثناء القتال، لم يعلن أحد عدد الإصابات بين المتمردين أو سقوط ضحايا من المدنيين، لكن بوتين كان هناك لإعلان قضيتهم فقط، فالخسائر تستحق ذلك، وبدأ بتقديم نخب أولئك الذين لقوا حتفهم، لكنه توقف في منتصف الجملة؛ قال: «انتظروا ثانية من فضلكم! أود أن أشرب على نخب المصابين، وأتمنى السعادة لجميع الحاضرين، ولكن لدينا كثير من المشكلات والمهام الكبيرة التي تنتظرنا، وأنتم تعرفون ذلك جيدًا. أنتم تعرفون مخططات العدو، ونحن نعرفها أيضًا، ونعرف الأعمال الاستفزازية المتوقعة في المستقبل القريب، ونعرف المناطق التي نتوقعهم فيها، وهلم جرًّا، ليس لدينا الحق أن نسمح لأنفسنا حتى لثانية واحدة بالضعف، لا ثانية واحدة، لأننا لو تقاعسنا فسيبدو الذين ماتوا أنهم لقوا حتفهم عبثًا، لذلك أقترح أن نضع اليوم كؤوسنا على الطاولة، وبكل تأكيد سنشرب نخبهم، ولكن في وقت لاحق»[5].

كانت الزيارة الخاطفة لبوتين مسرحية سياسيَّة لسياسي مبتدئ، لكن بالمقارنة مع يلتسين كانت عميقة: الشباب والعنفوان مقابل الكهولة والعجز. أمة مكتئبة مقسمة تتذوق اليوم نكهة النصر العسكري، برئاسة رئيس وزراء غالبًا ما يُعَدُّ غير متحيِّز، هذا إن كانوا يعرفون كثيرًا عنه. لكن تصريحات بوتين تحمل أيضًا بذور التحذير- وبعضهم ظن أنها إنذار مقدم- بأن الصراعات لن تنتهي بانسحاب باساييف عائدًا إلى الشيشان.

بعد أقل من أسبوع، في ليلة 4 سبتمبر/أيلول، وقع انفجار هائل أطاح ببناية مؤلفة من خمسة طوابق في بويناكسك، التي تبعد أربعين ميلًا إلى الجنوب من العاصمة الداغستانية. كان المبنى يضم الجنود الروس وعائلاتهم، وكثير منهم كانوا قد جلسوا أمام أجهزة التلفاز الخاصة بهم لمشاهدة مباراة لكرة القدم بين أوكرانيا وفرنسا، وأسفر الانفجار- وهو ربما انفجار سيارة ملغومة- عن مقتل 64 شخصًا، وفي اليوم التالي عبرت الميليشيات الشيشانية مرة أخرى إلى داغستان، وهذه المرة قرب خاسافيورت، المدينة التي وقِّعت فيها اتفاقات السلام التي أنهت الحرب الأولى قبل ثلاث سنوات.

انفجر يلتسين غاضبًا في اجتماع 6 سبتمبر/أيلول لمجلس الأمن الروسي، وجأر قائلًا: «كيف لنا أن نفقد منطقة بأكملها في داغستان؟ هذا لا يمكن تفسيره إلا بإهمال من الجيش»[6]. كان يلتسين قد منح سلطات واسعة لرئيس وزرائه الجديد، وبعد النجاح الأولي وقعت الكارثة، يبدو أن توقعات الزوال السريع لبوتين كانت في مكانها.

في التاسع من سبتمبر/أيلول انتقلت المذبحة من القفقاز إلى موسكو، فبعد منتصف الليل، وقع انفجار في وسط مجمع سكني مؤلف من تسعة طوابق في شارع غوريانوفا، ليس بعيدًا عن التواء كبير في نهر موسكو، وأدت قوة الانفجار، التي تعادل مئات الأرطال من مادة تي إن تي، إلى شق المبنى المستطيل الواسع إلى نصفين اثنين، كما لو قسِّم بفأس عملاقة، وتحوَّل كل من كان نائمًا بداخله إلى كومة من الحطام المحروق. وقد اعتقد المحققون في البداية أنه ناجم عن تسرب الغاز، لكن في اليوم التالي بدأ المسؤولون يشكُّون في كونه عملًا إرهابيًّا، وهو الأسوأ من أي وقت مضى في العاصمة الروسية. اتصال هاتفي من مجهول

بوكالة أنباء إنترفاكس قال إن الانفجارات في موسكو وبويناكسك أفعال متعمدة؛ ردًّا على الغارات الروسية في الشيشان وداغستان، وكان المتصل نفسه أو متصل آخر (لهجته من شمال القفقاز)، حذر مكتب دويتشه ويلي في موسكو قبل الانفجار بأيام أنه سيكون هناك ثلاثة تفجيرات في المدينة لمعاقبة روسيا، «إذا كانت متأكدة أن هذا عمل إرهابي، وكل شيء يؤدي لهذه الطريقة، فيجب علينا أن نعترف بأن صدى الحرب في داغستان يُسمع في موسكو»، كما أعلن رئيس البلدية لوجكوف، وتعهد بتشديد الاحترازات الأمنية[7]. أربعة وتسعون شخصًا لقوا حتفهم نتيجة للقصف، وجُرح المئات.

يوم 11 سبتمبر/أيلول، وبينما كان عمال الطوارئ يواصلون ترحيل الأنقاض في شارع غوريانوفا، سافر بوتين إلى نيوزيلندا لحضور اللقاء السنوي لمنتدى التعاون الاقتصادي لمنطقة آسيا- المحيط الهادئ، بدلًا من يلتسين المريض. يجمع المنتدى قادة إحدى وعشرين دولة، وحضور بوتين لأول مرة على الساحة الدولية كان لافتًا، وكان لدى القادة الغربيين فضول للقاء رئيس وزراء يلتسين الخامس خلال الثمانية عشر شهرًا الماضية، مع أن من توقعوا له الاستمرارية مدة أطول من الآخرين الذين سبقوه كانوا قلة. وكان العنف في جميع أنحاء الشيشان ذلك الصيف قد أثار بالفعل مخاوف في الغرب، فقد استخدم الرئيس كلينتون لقاءه مع بوتين للتعبير بلطف عن المخاوف بشأن المأساة الإنسانية في المنطقة، وحثه على حل سياسي يمكن أن يتضمن السماح لمراقبين دوليين على الأراضي الروسية.

بدأ بوتين بأدب، معربًا عن ثقته أن التوتر بشأن كوسوفا في وقت مبكر من العام هو السبب، وأمل في التوصل إلى تفاهم متبادل حول التهديد المشترك المتمثل في الإرهاب الدولي. عندما ركز كلينتون على الشيشان، مع كل ذلك، «انقبض فم بوتين متشددًّا، وتصلَّب موقفه، ولاحت على وجهه نظرة بعينين حادتين»[8]، ورسم خريطة على منديل ورقي، موضحًا لكلينتون أن الخطط التي سبق أن وضعت، ترمي إلى توغل محدود يقف عند نهر تيريك، وشدد على أن القتال في داغستان لم يكن مجرد غارة معزولة، ولكن بداية لغزو روسيا، بدعم من الإرهابيين الدوليين، من ضمنهم أسامة بن لادن. وقال لكلينتون إن بن لادن، الذي يتزعم

شبكة القاعدة شن هجمات على السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا في العام قبل الماضي، وموَّل المقاتلين الإسلاميين الشيشان، بل زار بنفسه الشيشان (على الرغم من أن الأمريكيين كانوا غير قادرين على تأكيد ذلك)[9]، وكان أن أسرَّ للرئيس الأمريكي بما لم يبلغ به أبناء وطنه: أن الجيش الروسي على وشك التدخل مرة أخرى في الشيشان.

كان بوتين لا يزال في نيوزيلندا يوم 13 سبتمبر/أيلول عندما دمر انفجار مبنى آخر، وهذه المرة على طريق كاشرسكوي السريع جنوب موسكو، ليس بعيدًا عن شارع غوريانوفا، وبلغ عدد القتلى 118، وتحول الخوف في البلاد إلى هستيريا، وكانت تقارير الدوافع المحتملة مشوشة ومتناقضة، وكان بوتين قد تردد هو نفسه بعد الهجوم الأول أن يعده هجومًا إرهابيًّا، ولكنه اليوم رد بغضب قائلًا إنه من المستحيل أن نتصور أن كل هذه التفجيرات يمكن أن تكون حوادث، وقال: «هؤلاء الذين فعلوا ذلك لا يمكن أن يسموا بشرًا»، وأضاف: «إنهم لا يمكن حتى أن يسمَّوا بالبهائم»[10]، وقطع أول زيارة دولية له بصفة رئيس للوزراء، وعاد إلى موسكو.

من كانوا وحوشًا بالضبط كانوا غير معرفين بيقين، وبحسب ما ورد فقد أعلن المتطرفون الداغستانيون مسؤوليتهم عن التفجير في بويناكسك فقط، لكن قادة الشيشان نفوا ضلوعهم في تفجيرات موسكو، ومنهم شامل باساييف، الذي لا يزال مقاتلوه في داغستان، حتى إن كرر باساييف وعده بإقامة دولة إسلامية في جنوب روسيا[11]. الزعيم الشيوعي المتشدد، فيكتور إليوكين، قال لإيتار تاس إن الهجوم الأول غير مرتبط بالقفقاز وإنما هو مرتبط بالخلافات السياسية بين مؤيدي يلتسين ورئيس البلدية لوجكوف، والتفجيرات- قال- كانت ذريعة لإلغاء الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في ديسمبر/ كانون الأول، وقال: «الهستيريا السياسية تدعَم على نحو مصطنع»[12].

وصرح ألكسندر ليبيد، محافظ في كراسنويارسك، لصحيفة لوفيجارو الفرنسية أن الشيشان ليس لديهم ما يكسبونه من هذه الهجمات، في حين أن يلتسين و(الحاشية) لديهم ما يكسبونه منها، وقال ليبيد: «لا بد مِنْ وضع الهدف؛ وهو بث الرعب الشامل، وزعزعة

الاستقرار الذي يسمح لهم بالقول وقت الحاجة: عليكم ألَّا تذهبوا إلى الدوائر الانتخابية؛ وإلا فستخاطرون بأنفسكم أنتم وصناديق الاقتراع»[13].

الذعر في موسكو أدى إلى وضع نقاط تفتيش للشرطة، وحملات اعتقال لمئات الأشخاص لسبب قليل مما يبدو أنه من القفقاز.

أسس المواطنون دوريات خاصة بهم، واكتشفت الشرطة ستة وسبعين كيسًا من المتفجرات في سقيفة في موقع بناء في منطقة كابوتينيا، دمغت تلك الأكياس بعلامة السكر من مصنع في كاراشاييفو- شركيسيا في القفقاز، وتتضمن المواد ما يكفي لتدمير عدة مبانٍ سكنية أخرى[14]، أنهى الاكتشاف التفجيرات في موسكو، ولكن يوم 16 سبتمبر/أيلول، وقع التفجير الرابع في مبنى سكني، وهذه المرة في جنوب مدينة فولجودونسك، على بعد مئات الأميال من موسكو أو الشيشان. اختلف الهجوم عن التفجيرات الأخرى فقط في التفاصيل؛ إذ وقع عند الفجر عندما كان معظم الناس في منازلهم نائمين، وحمِّلت المتفجرات في شاحنة كانت متوقفة خارج المبنى، بدلًا من أن تكون مخبأة في الداخل، وهو ما قلل من الخسائر. قوة الانفجار فصمت واجهة المبنى، لكن لم تدمره، وهذه المرة قُتل سبعة عشر شخصًا، وأصبح اليوم عدد القتلى من موجة الإرهاب ما يقرب من ثلاث مئة قتيل.

استمرت الضربات الروسية الجوية المحدودة داخل الشيشان، لكن صعَّد بوتين اليوم الصراع، ويوم 23 سبتمبر/أيلول قصفت الطائرات الروسية للمرة الأولى عمق الجمهورية، وضُرب مطار جروزني ومصفاة النفط، وخرج الحريق عن نطاق السيطرة؛ لأن السلطات المحلية لم يتبق لديها إلا قليل من معدات الإطفاء. وكانت الضربات عقابية أكثر منها إستراتيجية؛ فالهجوم على المطار دمر إحدى الطائرتين العاملتين في الشيشان، وخط أنابيب قديمًا لا أهمية عسكرية له.

زار بوتين كازاخستان، وتعهد أن روسيا ستدافع عن نفسها ضد «عصابات المرتزقة الأجانب والإرهابيين»، لكن أصرَّ على أنه لا يعتزم خوض حرب جديدة في الشيشان، وعندما

سئل عن الغرض من الضربات الجوية، فارت أعصابه، واختفت تلك الطريقة المقتضبة التي شهدها الروس في رئيس وزرائهم الجديد الزاهد الصارم، فبدا وكأنه مقاتل شوارع. كان جوابه صريحًا، ولغته تحمل من بذاءة العامية: «أنا تعبت من الإجابة عن هذه الأسئلة»، أجاب بنزق، «الطائرات الروسية تضرب فقط معسكرات الإرهابيين، سنلاحقهم أينما كانوا، وإذا- العفو منكم- وجدناهم في المرحاض، فسوف نبيدهم في المرحاض الخارجي»[15].

التفجير الذي لم يحدث وضع كل شيء عن الأحداث في الصيف موضع تساؤل، وفي مساء يوم 22 سبتمبر/أيلول، في الليلة التي سبقت تصريح بوتين الشهير حول المرحاض الخارجي، لاحظ سائق حافلة يعيش في ريازان، جنوب شرقي موسكو، سيارة لادا بيضاء متوقفة خارج مبنى شقته، وقد وقفت امرأة شابة- يظهر عليها بوضوح أنها من العرق الروسي- بقلق عند مدخل المبنى، في شارع نوفوسيلوفايا، وكان يجلس داخل السيارة رجل، وسرعان ما ظهر رجل آخر من المبنى، وانطلق الثلاثة معًا بعيدًا، ولأن الأوضاع كانت على حافة الهاوية بسبب التفجيرات السابقة، استدعى سائق الحافلة الشرطة بالهاتف.

في البداية بدا أن الشرطة غير مهتمين، ولكن عندما وصل الضباط أخيرًا اندلعت حالة من الذعر؛ ففي الطابق السفلي وجد عريف في الشرطة، هو أندريه شيمايشيف، ثلاثة أكياس موسومة بالسكَّر، تمامًا كتلك التي كانت في التخزين المؤقت في موسكو، والجهاز الذي يبدو أنه المفجر، وحُدد جهاز الضبط على الساعة الخامسة والنصف 5:30 صباحًا، فأمرت الشرطة فورًا بإخلاء المبنى المكون من اثني عشر طابقًا، واستدعي خبير المتفجرات المحلية، يوري تكاشينكو، لنزع فتيل المؤقت، ففحص محتويات الأكياس بمحلل غاز، ليكتشف أنها ليست سكرًا وإنما مادة متفجرة تدعى الهكسوجين، كتلك التي استخدمت في واحد على الأقل من تفجيرات موسكو[16]. وفي صباح اليوم التالي تناقل الناس أخبارًا تفيد أن تفجيرًا كارثيًّا آخر أمكن تجنُّبُه بأعجوبة.

لم يكن المزاج في ريازان احتفاليًّا، لكن تلقى السكان والشرطة المحلية الثناء، وفي تصريحات بثها التلفاز قال بوتين: «أريد أن أشكر السكان ليقظتهم»، وبينما كان سكان

المدينة فاقدين أعصابهم يفكرون ما الذي يجري، كان محققو الشرطة يقتربون أكثر من المفجرين المحتملين، ووجدوا سيارة اللادا المهجورة في موقف للسيارات، وأوقف رجلان يشبهان الرجلين اللذين أبلغ عنهما خارج المبنى السكني، لكنهما أبرزا بطاقات الـ FSB وأُطلِقا، وفي ذلك المساء سمع عامل المقسم المحلي متصلًا يقول إنه لا يمكن أن يخرج من المدينة دون تفتيش، فرد عليهم الصوت على الطرف الآخر أن عليهم أن يتفرقوا ويخرجوا بأفضل ما يمكن، فأبلغ عامل المقسم الشرطة، وتتبعت الشرطة المكالمة إلى موسكو، ومما أثار دهشتهم أن رقم الهاتف ينتمي لـ FSB.

في ذلك المساء، بدأ المتحدث باسم جهاز الأمن الفيدرالي يلقي ظلالًا من الشك على كل ما يحدث في ريازان، مدعيًا أن اختبارًا أوليًّا أظهر عدم وجود آثار متفجرات بين المواد التي صادرها الـ FSB وجلبها إلى موسكو، ولم يكن هناك أي صاعق تفجير، وإنما أجزاء منه فقط. وفي اليوم التالي تحدث مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشيف، للصحفيين بعد حضور اجتماع طارئ للحكومة لمناقشة التفجيرات. باتروشيف، ضابط سابق في الـ (كي جي بي)، وزميل بوتين من بطرسبورغ، لحق بصديقه إلى موسكو وترفع في الرتب معه، وتولى منصب مدير جهاز الأمن الفيدرالي عندما أصبح بوتين رئيسًا للوزراء في عام 1999م، وظل واحدًا من ملازميه الأكثر وثوقًا. أعلن أن المسلسل بكامله في ريازان كان مجرد مناورة تدريبية ترمي لاختبار الاستعدادات للتفجير، بالضبط كتلك التي تضرب المدن الروسية، وقال إن التدريبات أجريت في عدة مدن، ومن الواضح أنها لم تنجح لعدم وجود تفجيرات تحاكي تلك التي وقعت في ريازان في أي مكان آخر، وقد حيًّا سكان المدينة والشرطة لما يتحلون به من يقظة عندما اكتشفوا هذه المتفجرات المفترضة، وأضاف: «في الوقت ذاته، أريد أن أعتذر لهم»[17].

بيان باتروشيف نقلته فورًا الصحف في موسكو وخارجها، لكنه فاجأ الناس في ريازان وشوشهم، فقد لا يكون السكان والشرطة على علم باختبارات يقظتهم، ولكن قسم الـ FSB المحلي أيضًا قال إنه لا علم له بأي تدريبات؛ ولا حتى المحافظ أو العمدة أو أي شخص

آخر في المدينة. تأخير إبلاغ السكان المذعورين في المدينة يومًا ونصف يوم يبدو أنه لا يمكن تفسيره، خاصة أن وزارة الداخلية حشدت 1200 ضابط لتنفيذ حملة اعتقالات للقبض على المشتبه فيهم، والبحث عن مزيد من القنابل، وأن الضباط الذين شاركوا في نزع فتيل القنبلة يعرفون ما رأوه بأعينهم، فتدريبات الـ FSB إما أنها تختبر الاستعدادات لمواجهة الإرهاب أو أنها خدعة بحد ذاتها. في ذلك المساء اتصل أحدهم بإيخو موسوفي، المحطة الإذاعية التي تشجع المناقشة السياسية المفتوحة إلى حد معقول، وعرف عن نفسه بأنه ضابط أمن، على الرغم من أنه لم يصرح باسمه أو يكشف عن هويته، وأعرب عن حيرته في تفسير الـ FSB، وقال إن ذلك غير وارد على الإطلاق، وقال: إن الناس بدأت تفكر أن الـ FSB متورطة بطريقة ما في كل التفجيرات[18].

في 29 سبتمبر/أيلول، أعرب بوتين عن استعداده للتفاوض مع أصلان مسخادوف، رئيس الشيشان، ولكن بشرط أن يدين كل أشكال الإرهاب، ويطرد الميليشيات المسلحة في الجمهورية، ويعتقل ويسلم المجرمين المطلوبين، ومن ضمنهم باساييف، وخطّاب، وقادة آخرين يفترض أن يكونوا على رأس القائمة، كان إنذارًا، وليس عرضًا. كان مسخادوف قد استنكر التوغل في داغستان والتفجيرات في روسيا، ولكن سلطته الرئاسية ضعيفة جدًّا لبسط سيطرته على باساييف أو خطّاب، فضلًا عن القبض عليهم وتسليمهم للروس؛ « لا يمكن أن تكون مهمتي مجرد القبض على باساييف»، قال لصحفي قبل يومين من مهلة بوتين، «الناس هنا لا يفهمون ذلك، بعد كل شيء، قاتلنا معًا لاستقلال بلادنا»[19]، وفي اليوم الذي قدَّم فيه بوتين العرض، خطط مسخادوف للسفر إلى داغستان، ولقاء رئيسها لاستكشاف إمكانية إجراء محادثات مع موسكو، لكنه اضطر إلى إلغاء ذلك؛ لأن المحتجين في داغستان أغلقوا الطريق[20]، وكان الوقت متأخرًا جدًّا على أي حال.

في اليوم التالي تدفق جنود وضباط الجيش الروسي ووزارة الداخلية إلى الشيشان، وعلى الرغم من إنكار بوتين، بدأ الغزو الكلي، فقد شارك نحو 40 ألف جندي في الحرب الأولى في الشيشان، وكثير منهم من المجندين الذين لم يستوفوا تدريبهم، لكن بوتين

أعطى الأوامر لأكثر من 93 ألف جندي، أي ما يعادل تقريبًا حجم القوة السوفييتية التي غزت أفغانستان، البلد الذي تزيد مساحته على مساحة الشيشان بما يعادل أربعين ضعفًا[21]، وفي الأول من أكتوبر/تشرين الأول أعلن أن روسيا لن تعترف بحكومة مسخادوف، وبدلًا من ذلك اعترفت بالبرلمان الإقليمي الذي انتخب في عام 1996م في أثناء الاحتلال العسكري الروسي، وأعضاؤه اليوم معظمهم في موسكو أو في أي مكان آخر، وكانوا قد هربوا عندما انسحب الروس بعد الحرب الأولى، وانتهى البيان بفرص ضئيلة للتوصل إلى تسوية عن طريق التفاوض؛ فبوتين لا يريد حقًّا أي تفاوض.

انضم مسخادوف إلى باساييف وغيرهم من القادة الأكثر تطرفًا من أجل الدفاع الدموي عن الوطن الشيشاني، وقبل 5 أكتوبر/تشرين الأول، احتلت القوات الروسية الثلث الشمالي من الشيشان، وصولًا إلى نهر تيريك، تبعًا للخطة السرية التي وضعت في الربيع وعقد العزم على تحقيقها، وبعد أسبوع عبروا النهر وتحركوا باتجاه جروزني.

تعهد بوتين بعدم تكرار أخطاء الحرب الأولى، وقد فسر كثيرون قوله هذا بأنه لن يشن هجومًا بريًّا كاملًا للسيطرة على الجمهورية بأكملها، ولكن هذا بالضبط ما يرمي إليه، إلا أنه هذه المرة نشر القوة الكاملة للقوة الجوية الروسية لتقليل الخسائر في الأرواح لدى القوات الروسية، بغض النظر عن عدد القتلى داخل الشيشان، وأضاف أن «الفرق هو أننا هذه المرة لن نرسل أبناءنا لامتصاص نار العدائية»، قال لصحيفة فريميا: «سوف نعمل بمساعدة القوى الحديثة ووسائلها لتدمير الإرهابيين من مسافة بعيدة، سوف ندمر البنية التحتية، وسيكون عمل القوات الخاصة فقط تنظيف الأراضي، ولن يكون هناك أي هجوم جبهوي أكثر من ذلك. سنتولى حماية رجالنا، وبطبيعة الحال، هذا يتطلب وقتًا وصبرًا. أنا بنفسي سوف أستفيد من هذه الفرصة، وأنا أحث قراءكم وغيرهم لفهم هذا وإدراكه أيضًا، فإما أن نمضي بالهجوم كما في الماضي مع صيحات الشيوعيين (إلى الأمام!) غير آبهين بخسائرنا، أو أننا ندمر من الجو بصبر ومنهجية». «وماذا لو أخفقت الضربات الجوية؟»، سأله الصحفي، فأجاب: «سوف ننجح، لن يكون هناك (لو)»[22].

في 20 أكتوبر/تشرين الأول احتدم القتال، وسافر بوتين سرًّا من موسكو إلى الشيشان في رحلة شملت طلعة قصيرة على طائرة سوخوي – 25، وكما فعل في داغستان قلَّد بوتين مرة أخرى الطيارين في القاعدة الجوية ميداليات، واجتمع بشيوخ القرية في زنامينسكوي، وهي قرية داخل الحدود الشيشانية، كانت حينها قد تحررت من قبل الروس، وأعرب عن أسفه لإخفاق الحكومة الشيشانية بدفع رواتب ومخصصات التقاعد، وإخفاقها في الحفاظ على العيادات وفتح المدارس، على الرغم من أن الميزانية والأموال من موسكو لم يتوقف تدفقها قط. وكان هدف روسيا استعادة النظام، قال، عن طريق تخليص الأرض «من تلك العصابات الغارقة بالدم ليس إلى مرافقهم وحسب، وإنما إلى أكتافهم». وأضاف: «أحد أهداف زيارتي إلى هنا اليوم هو أن نظهر لكم أننا وأنتم كل متكامل، وأن المشاعر المعادية للشيشان والمناهضة للقوقاز لا يمكن تحريكها في روسيا، فالبلد كله يعرف، ويمكن أن يرى أنه ما من أحد متعطش للدماء هنا»[23]. وفي اليوم التالي هبط صاروخ روسي في السوق المركزي في جروزني، وأسفر عن مقتل عشرات الأشخاص، معظمهم من النساء والأطفال الذين خرجوا للتسوق لتضاؤل إمدادات الغذاء.

على الرغم من الضجة التي أثيرت حول تفجيرات الشقق السكنية، وتأجيج المشاعر المضادة للشيشان في موسكو وأماكن أخرى من روسيا، لم تحظ الحرب حتى ذلك الوقت بالدعم السياسي العالمي، وخاصة بين السياسيين المتنافسين على السلطة في عهد ما بعد يلتسين، وظلت ذكرى الحرب الأولى غير مندملة. وبحلول منتصف سبتمبر/أيلول كان أكثر من مئتي جندي روسي قد لقوا حتفهم في القتال على طول الحدود الشيشانية، وكان عدد القتلى داخل الشيشان أعلى من ذلك بكثير، ربما بالآلاف. يفجيني بريماكوف، ولوجكوف، اللذان كانا في سباق ليحلا محل يلتسين، أعربا عن تأييدهما لـ(تحديد) الضربات ضد المعسكرات الإرهابية، على ألَّا تكون غزوًا جديدًا، «أنا أقف بقوة ضد العمليات الموسعة التي قد تتطور إلى أحداث كتلك التي شهدناها في الماضي، علينا ألَّا نعود إلى ذلك»[24]، وردَّ لوجكوف على الهجمات بعنصرية مبطنة، وإعادة تأسيس متطلبات العهد السوفييتي، وكان

اقتراحه لحل الصراعات بناء جدار على غرار جدار برلين على طول الحدود الشيشانية، لا استعادة الأراضي.

كثير من مؤيدي يلتسين الليبراليين عبروا عن شكوكهم في فعالية وأخلاقية الحملة العسكرية التي تقتل المدنيين الذين كانوا، في الوقت الراهن على الأقل، من مواطني روسيا. وبحلول نهاية سبتمبر/أيلول فرَّ أكثر من مئة ألف شيشاني، أغلبهم من كبار السن والنساء والأطفال، إلى إنغوشيا المجاورة طلبًا للأمان، وخلقوا أزمة لاجئين كانت روسيا غير مستعدة للتعامل معها.

كانت البلاد غارقة مرة أخرى في الشائعات أن يلتسين سيستقيل، وأنه سيقيل بوتين وحكومته الجديدة، وأن الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها في ديسمبر/ كانون الأول ستلغى، واضطر بوتين إلى نفيها جميعها، وكانت النخبة السياسية في روسيا، تعد بوتين ينتحر سياسيًّا بشن الحرب البرية الجديدة على الشيشان. «بوتين يتصرف كالطيَّار الانتحاري حين رمى بكامل مخزون رأس ماله السياسي في الحرب، حرقه إلى الأرض»، هذا ما كتبه بوريس يلتسين، الرجل الذي ما كان ليرمي بكامل ثقل الجيش الروسي في حرب الأولى[25].

تصرف بوتين كما لو أنه كان غير مبال بسياسة الحرب، ربما لم يكن لديه الخبرة في الحرب الأولى في الشيشان، وربما لأنه لم يكن لديه أدنى شك بـ(مهمته التاريخية). لم يستجب للرأي العام أو للنفعية السياسية؛ كما لاحظ يلتسين، وقال: «لم يتوقع أن تستمر مسيرته إلى ما بعد أحداث الشيشان»، بدت أفعاله تحديًا غير سياسي، بل وشخصية لحد كبير، كما لو أن التوغل في داغستان إهانة عليه الانتقام لها.

ومع ذلك، أثبت سلوك بوتين في الحرب أن له شعبية كبيرة فاجأت يلتسين وغيره كثيرين؛ فالحرب الأولى لم تحظ بشعبية، خلافًا لرد الفعل الجماهيري في الثانية؛ هذا لأن خوض الأولى كان بقليل من الحماسة، لأن الجيش الروسي المؤسس من بقايا الجيش الأحمر العظيم كان يعوزه الإعداد الجيد والتجهيز المتكامل، فخسروا أمام مجموعة فوضوية من

الشيشان في الجبال. أما هذه الحرب، في ظل رئيس الوزراء هذا، فتبدو مختلفة. النخب السياسية تتطلع إلى الانتخابات المقبلة، وتخشى عواقب الحرب، ولكن اليوم يبدو أن الروس العاديين يريدون- كما بوتين- «أن يقذفوا بقطاع الطرق إلى جهنم».

لم يكن **فلاديمير** بوتين معروفًا لدى الروس عندما عينه يلتسين رئيسًا للوزراء، واليوم بدأت أعماله في الشيشان- على نحو غير متوقع- ترفع شعبيته في استطلاعات الرأي، مع أنه لم يمتلك الوقت لتوضيح أي سياسات أو برامج، فعند تعيينه في أغسطس/آب، كان 2 في المئة فقط من الذين شملهم الاستطلاع يؤيدونه مرشحًا محتملًا للرئاسة، وبحلول شهر أكتوبر/تشرين الأول حصل على 27 في المئة، بفارق نقطة واحدة فقط عن بريماكوف.

أوفى يلتسين بوعده لبوتين بشأن الانتخابات البرلمانية القادمة؛ إذ لم يكن بحاجة إلى أن يشغل نفسه بها، فقد أسس الإستراتيجيون السياسيون ليلتسين حزبًا جديدًا أسموه (الوحدة)، وكما هو حال بوتين نفسه لم يكن للحزب أي برنامج سياسي أو أيديولوجية، لكن أطَّر نفسه كجبهة وطنية، واتخذ من الدب رمزًا له، وهي الفكرة التي ادعى بوريس بيريزوفسكي أنها خطرت له في حلم محموم عندما كان يتعالج في المستشفى من التهاب الكبد[26].

فرص حزب الوحدة في الفوز بدت ضئيلة، ومع نهاية أكتوبر/تشرين الأول سجل في الانتخابات بشق الأنفس، وكان الفارق كبيرًا بينه وبين ليبرالي يابلوكو، والشيوعيين، والمتسابقين الأوائل؛ الوطن، وتحالف كل روسيا بين لوجكوف وبريماكوف. ما حققه الحزب كان قليلًا، على الرغم من أن ميزانيته كانت تستمد من موارد الكرملين، فضلًا عن دعم القلة الذين ضخوا أموالًا في الحملة، حتى بيريزوفسكي، الذي شعر بمزيد من الإقصاء من قبل يلتسين، استخدم شبكته التلفازية ليظهر الوحشية التي يتمتع بها لوجكوف وبريماكوف، اللذان يمقتهما، وليمجد دور بوتين بكونه قائدًا عامًّا بحكم الواقع، وخصص بيريزوفسكي برنامجًا تلفازيًّا لأول مرة للمعلق اللامع سيرجي دورينكو، الذي شرع أسبوعًا بعد أسبوع يكيل

التهم للوجكوف بالفساد والنفاق، وحتى القتل[27]، كانت الاتهامات شديدة إلى حد القذف، لكنها كانت فعالة على نحو استثنائي.

نظرًا لجنون العظمة لدى يلتسين بشأن التحديات السياسية، أثار ارتفاع شعبية بوتين موجة جديدة من الشائعات بشأن إقالة وشيكة له، واكتسبت هذه الشائعات الزخم في نوفمبر/تشرين الثاني عندما أعرب بوتين عن نيته الترشح للرئاسة في عام 2000م، فافترض الناس حينها أن يلتسين سيقيله كما أقال بريماكوف، ولا يعرفون أن الرئيس العجوز قد استثمر آماله لإرثه ولأمنه الشخصي في رئيس الوزراء الشاب هذا. وبحلول نهاية عام 1999م كانت المشكلات المادية والقانونية ليلتسين قد تركته أضعف من أي وقت مضى.

كان يوري سكوراتوف لا يزال يناضل ضد كف يده بصفته مدعيًا عامًّا في المحكمة، واستمر يذكر الاتهامات المحيطة بتحقيقات مابيتكس وعلاقاتها (بحاشية) يلتسين، وقد عزز من جهوده هذه القرار الذي اتخذ في سويسرا بتجميد تسعة وخمسين من الحسابات المصرفية المرتبطة بمسؤولين روس. وفي أكتوبر/تشرين الأول رفض مجلس الاتحاد للمرة الثالثة إعادة سكوراتوف، الذي كان يطمح إلى الاحتفاظ بمنصبه مدعيًا عامًّا في ظل البرلمان الجديد والرئيس القادم، وقال في مقابلة له في بيته الريفي خارج موسكو: «إن الحاشية بكل تأكيد تخاف، فاليوم هم يسيطرون على الوضع، لكن الوضع قد يخرج عن نطاق السيطرة»[28].

ارتفاع شعبية بوتين بدأ يلفت انتباه المعارضين المنافسين ليلتسين، وفي 20 نوفمبر/تشرين الثاني التقى بريماكوف ولوجكوف غريمهم التقليدي يلتسين على انفراد، على أمل التفاوض على تسوية سياسية، وبدأ كل منهما يشير علنًا إلى أن تحالفهم قد يدعم ترشيحه للرئاسة، وقد يتنازلون عن طموحاتهم. كان صعود بوتين مذهلًا بقدر ما كان مفاجئًا، وبدا أنه يمثل قوة سياسية جديدة ومستقلة، ولم يكن ذلك بسبب الشيشان فقط؛ لكن في الوحل السياسي الروسي كان يبدو أنه الوحيد الذي لم يلوث بمؤامرات السياسيين ومكائدهم، والقلة التي استهلكت روسيا على مدى السنوات الثماني السابقة. وعلى الرغم من أنه نذر

حياته المهنية ليلتسين و(الحاشية)، تبقى الحقيقة أنه كان يعمل في الغالب على هامش المراقبة العامة منذ عام 1996م، وهذا يعني أنه لم يكن مرتبطًا بالإخفاقات والفضائح المتعددة في الكرملين، وبدت تصريحاته العامة والحادة، وحتى الخشنة منها، منعشة بعد الارتباك والتشويش في إدارة يلتسين. وكتبت صحيفة نيزيفيساميايا غازيتا، في نوفمبر/ تشرين الثاني، أنه في غضون الأسابيع القليلة الثمينة «شخص غير معروف تمامًا، إلى حد ما موظف حيادي» قد يصبح زعيمًا ذا إرادة، «على عكس سابقيه»، ليقول للناس ما كان ينوي فعله، وتابعت مُطْلِقة عليه وصف: «إحدى الحالات النادرة في تاريخنا السياسي»[29].

في ذلك الوقت تجاوزت شعبية بوتين نسبة 40 في المئة، وبات لديه الآن النفوذ السياسي ليؤثر في الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/ كانون الأول. لم ينضم لحزب (الوحدة) الجديد الذي أسسه الكرملين، والذي- على الرغم من موارد الحكومة، والتغطية الإيجابية له في التلفاز الحكومي، والتبرعات من القلة- بقي في مرتبة منخفضة جدًّا في استطلاعات الرأي؛ حتى إنه كان مهددًا بألا يصل إلى عتبة الفوز بأي مقعد في مجلس الدوما على الإطلاق[30]، حتى كان يوم 24 نوفمبر/تشرين الثاني، الذي يصادف مرور مئة يوم على تسلمه منصب رئاسة الوزراء، وهو اليوم الذي أنقذ فيه بوتين حزب الوحدة من النسيان السياسي بنوع من التأييد، فقال: «لكوني رئيس الوزراء لا أريد مناقشة تعاطفي السياسي، ولكن بوصفي ناخبًا عاديًّا سأصوت من أجل الوحدة»[31]، وخلص معظم المحللين السياسيين إلى أن بوتين كان يخاطر ليس فقط بمستقبله السياسي، ولكن بالحزب كذلك، عن طريق ربطه ربطًا وثيقًا جدًّا بالكرملين. وكان ما أسيء فهمه هو النداء الأساسي للحزب، كقوة جديدة تحاشت الفكر المتعب لليمين أو لليسار، واحتضنت الوحدة الوطنية، لا الانقسام، خاصة في وقت الحرب.

نُقل يلتسين مرتين إلى المستشفى في الخريف، ولا يزال يعذبه مصيره، وكتب عن أفكاره في هذه المرحلة: «السلطة في روسيا دائمًا ما تنتقل من رئيس إلى آخر بالوفاة الطبيعية، أو بالتآمر أو الثورة، فالقيصر كان ينتهي حكمه إما بوفاته أو بعد انقلاب، وهذا ما كان بالضبط مع الأمين العام للحزب الشيوعي. أعتقد أن النظام الشيوعي ورث العجز عن نقل السلطة

على نحو غير مؤلم»، وأسقط هذا على الإطاحة بخروتشوف عام 1964م، وعبَّر عن أسفه أن إعلان وفاته في سبتمبر/أيلول 1971م جاء ضمن «خبر صغير، غامض في الصحيفة»[32]. وفي 14 ديسمبر/ كانون الأول، قبل خمسة أيام من الانتخابات، استدعى يلتسين بوتين إلى مقر إقامته في جوركي – 9 لاجتماع سري، حيث التقيا وحدهما.

> قال له يلتسين: «يا فلاديمير، هذا العام سوف أتنحى، هذا العام مهم جدًّا، يجب أن يبدأ القرن الجديد بعهد سياسي جديد، عهد بوتين، هل تفهم؟».

لكن بوتين لم يفهم، وكاد قلب يلتسين يتوقف من رد فعله؛ فقد كانت هناك شائعات طوال الخريف تقول إن يلتسين قد يتنحى وفقًا للدستور، وسوف يسلم السلطة لرئيس الوزراء الحالي، وفي سبتمبر/أيلول استبعد بوتين الفكرة لكونها منافية للعقل، وأضاف: «إذا كنتُ متأكدًا من أي شيء تمامًا، فهو أن الرئيس ليس لديه نيَّة في المغادرة، ليس هناك استقالة على الإطلاق»[33]، ولكن اليوم أوضح له يلتسين أن هذا ما كان ينوي فعله، وأنه يلعب آخر «لعبة في جعبته»[34].

أعطى الدستور الجديد غير المختبر يلتسين تحكمًا كبيرًا بتوقيت رحيله، ذلك أنه في حال استقال الرئيس، يحق لرئيس الوزراء أن يمارس أعمال الرئاسة حتى تجرى انتخابات في وقت لاحق، خلال تسعين يومًا، ومع أن هذا لا يعطي متسعًا من الوقت للحملة الانتخابية، لكنه يعطي (الشاغل) أو القائم بالأعمال ميِّزة إيجابية هائلة على منافسيه.

جلس الرجلان بصمت، إلى أن أدرك يلتسين أن بوتين يشعر أنه غير جاهز لرئاسة الجمهورية، وأجاب بوتين أخيرًا: «أنا لست جاهزًا لذلك القرار يا بوريس نيكولايفيتش»، وأضاف: «هو مصير صعب إلى حد ما»[35]. وفي محاولة لإقناعه أوضح له يلتسين أنه وصل إلى موسكو للعمل عندما تجاوز الخمسين من عمره، أي أكبر عمرًا من بوتين، ولكن على الرغم من ذلك كان «شخصًا نشيطًا وسليمًا معافى»، واليوم أدرك أن حياته السياسية قد استنفدت. فقال بوتين: «أنا أيضًا أريد أن أعيش حياتي بطريقة مختلفة تمامًا، لكن لم أكن أعرف أنها ستتحوَّل بهذه الطريقة». وادعى يلتسين أنه من المحتمل أن يعود إلى البناء أو إلى

سفيردلوفسك، حيث بدأ حياته المهنية من هناك، ثم نظر من النافذة إلى المشهد الثلجي الأبيض، وغرق في التفكير، وعاد بعد ذلك لتناول المسألة من جديد؛ فقال لبوتين محدقًا في عينيه: «لم تجبني». وافق بوتين، في نهاية المطاف، ولا أحد يعرف عن حديثهما، كما قال ليلتسين، أو عن القرار التاريخي الذي اتخذاه.

عند فرز الأصوات في ليلة 19 ديسمبر/كانون الأول، بعد الانتخابات التي كان متنازعًا عليها، وتعد أكثر أو أقل عدلًا، حقق حزب الوحدة مفاجأة مذهلة؛ إذ جاء في المركز الثاني برصيد 23 في المئة، بعد الحزب الشيوعي فاز بأكثرية 24 في المئة معززًا قاعدته. تحالف لوجكوف-بريماكوف، الذي بدا على وشك الوصول إلى السلطة قبل أشهر فقط، تراجع إلى 13 في المئة فقط من الأصوات، وكان للتغطية التلفازية السلبية دور مهم في هزيمة قادته. وقد فاز يابلوكو والائتلاف الليبرالي الجديد الذي تحالف مع يلتسين، واتحاد القوى اليمينية، الذي أيده بوتين أيضًا ببضع كلمات مهذبة، فازوا جميعًا بما يقرب من ذلك بكثير. شرب يلتسين الشمبانيا ليلة الانتخابات متوقعًا الفوز، ولكنه ذهب إلى النوم قلقًا، حيث تسربت النتائج غير الرسمية، وعندما أفاق شعر بأن ثقته ببوتين كانت محققة[36]. تفاخر يلتسين أنه هيأ بوتين «من الغموض إلى الرئاسة، متجاوزًا المقاومة الشرسة» من النخبة السياسية، داخل الكرملين وخارجه، وقالت ابنة يلتسين تاتيانا لاحقًا: «حقًّا أن ندخل بوتين في العمل كان من أصعب الأشياء التي واجهناها»[37].

بالنسبة إلى يلتسين سيكون هذا فراقًا للإرث، الفراق الذي سيعيد تأسيس البلد الذي سيبنيه من أنقاض الاتحاد السوفييتي، وللمرة الأولى في رئاسته المضطربة، يمكن أن يعتمد يلتسين على الأغلبية الموالية للحكومة في مجلس الدوما الجديد، وإنهاء المواجهات السياسية المحبطة على انتقال روسيا. كان له أن يعزز سياساته، بل وأن يقدم سياسات جديدة فيما تبقى له من الأشهر الستة رئيسًا للبلاد، ولكنه استقال من منصبه.

يوم 28 ديسمبر/كانون الأول، جلس يلتسين أمام شجرة مزينة في قاعة الاستقبال في الكرملين، وسجل الخطاب التقليدي الجديد للرئيس بمناسبة السنة الجديدة، وعندما

انتهى اشتكى من بحة في صوته، وأنه لم يحب هذه التصريحات، وطلب من فريق التلفاز أن يعود بعد ثلاثة أيام- على الرغم من احتجاجاتهم- لتسجيل خطاب جديد، وكانت تلك حيلة منه لم يعلم بها أحد غيره. عاد إلى مقر إقامته مساء، واستدعى الرؤساء الحاليين والسابقين لكبار الموظفين، واثنين من مستشاريه المقربين، وفاجأ الحضور بما قاله؛ إنه يعتزم الاستقالة عشية رأس السنة الجديدة. كان لدى يلتسين آخر مفاجأة متهورة لفخامته سيفاجئ بها البلاد؛ إذ يريد أن ينهي رئاسته مع الألفية القديمة ليسمح لفلاديمير بوتين بافتتاح الألفية الجديدة.

في صباح اليوم التالي دعا بوتين إلى الكرملين ليخبره بأنه قد آن أوان ما ناقشاه قبل خمسة عشر يومًا، وعندما وصل رئيس الوزراء قال يلتسين محدثًا نفسه: «انتابني شعور فجأة أنني رجل مختلف»[38]. النقاش الذي تلا ذلك كان نقاشًا عمليًّا وتفصيليًّا وغير عاطفي، ونوقشت خلال الاجتماع المراسيم التي سيصدرها يلتسين ثم بوتين، وتسجيل خطاب العام الجديد، والإشعارات للوكالات العسكرية والأمنية، ونقل (الحقيبة) التي تحمل رموز إطلاق ترسانة روسيا من الأسلحة النووية وشيفراتها. وعندما انتهيا، خرجا من مكتب يلتسين، ولم يقولا شيئًا، على الرغم من أن يلتسين شعر بالحاجة إلى قول المزيد، بدلًا من ذلك تصافحا، ثم احتضن يلتسين بوتين في عناق الدب، وقال وداعًا. وكان اجتماعهما الآخر عشية رأس السنة الجديدة[39].

يوم 30 ديسمبر/كانون الأول كان بوتين في انتظار يلتسين في حفل استقبال في الكرملين، وقد لوحظ غياب الرئيس المُسِن، لكن بسبب نوباته المتكررة من اعتلال صحته بدا الأمر اعتياديًّا، وعلى الرغم من أن هذه المناسبة احتفالية، ركَّز بوتين تصريحاته حول الحرب في الشيشان، التي تحولت إلى حمام دم شنيع حالما حاصرت القوات الروسية جروزني، وحولت المدينة إلى أنقاض، لم يُرَ مثيل لها في روسيا- أو أي مكان آخر- منذ الحرب الوطنية العظمى.

ظل الآلاف من المدنيين محاصرين داخل الأقبية، مرعوبين، مع عدم وجود كهرباء وتدفئة، أو مياه جارية، وواصل المتمردون الشيشان السيطرة على كثير من جروزني، وهو ما أسفر عن مقتل مئات الجنود الروس في محاولة للاستيلاء عليها. وكرر أصلان مسخادوف دعواته للتفاوض حول وقف إطلاق النار، على الرغم من تعهده بمواصلة القتال، معلنًا أنه «لو كانت الحرب تدوم 10 سنوات، روسيا لن تتمكن من إخضاع الشيشان وشعبها»[40]. ومع استفحال القتال، واجهت روسيا انتقادات متزايدة من أوروبا والولايات المتحدة حول الأزمة الإنسانية التي تتكشف، وكان من بينها تنفيذ الجنود الروس عمليات إعدام سريعة بإجراءات موجزة في عمليات (التطهير) في المناطق المحررة، كما تبين ذلك بالأدلة، وأن «الجنود في المناطق التي يسيطر عليها الروس في الشيشان- على ما يبدو- لديهم تفويض مطلق بالنهب والسلب». وكتبت هيومن رايتس ووتش أن كثيرًا من الناس قد عادوا إلى منازلهم ليجدوها بعد وقت قصير جُرِّدت من الأدوات المنزلية وغيرها من الأشياء الثمينة. ووجهت هيومن رايتس ووتش رسالة إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، داعية إلى إجراء تحقيق دولي في جرائم الحرب[41].

في الكرملين نحَّى بوتين جانبًا الشكوك حول وحشية الحرب، قائلًا إن واجب البلاد سحق المتمردين (الوقحين) بأي ثمن، وعقَّب قائلًا للضيوف المجتمعين قبل رفع نخب العام الجديد: «لسوء الحظ ليس كل شخص في الدول الغربية يفهم هذا، ولكننا لن نتسامح مع أي إهانة للكرامة الوطنية للروس، أو أي تهديد لسلامة البلاد»[42].

استيقظ يلتسين في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وقبل مغادرته إلى الكرملين، أخيرًا أخبر زوجته، ناينا، عن قرار استقالته، فسُرَّت لذلك وقالت: «يا له من أمر رائع!»، وتساءلت: «أخيرًا؟»، وحتى ذلك الوقت لم يكن يعرف بهذا سوى ستة أشخاص فقط. وانطلق إلى الكرملين للمرة الأخيرة بصفته رئيسًا، من دون حرسه رئاسي أو مساعديه، الذين كانوا ينظمون شؤون بريده، وجدول أعماله، وغيرها من الوثائق، على مكتبه. دخل فولوشين كبير الموظفين عنده يحمل مرسومًا ينص على أن الاستقالة ستدخل حيز التنفيذ في منتصف

الليل، فاستدعى يلتسين بوتين، الذي وصل في الوقت المحدد عند الساعة 9:30، ثم قرأ المرسوم بصوت عال، ونظر إلى بوتين، الذي «ابتسم ابتسامة تحمل شيئًا من الحرج»، ثم صافح يلتسين.

سجل يلتسين خطابًا جديدًا، وأخذ يوماشيف التسجيل بسيارة مصفحة إلى برج التلفاز أوستانكينو مع أوامر ببثه ظهرًا، وعندما بدأت الألفية الجديدة في المحيط الهادئ ساعة إثر ساعة حسب المناطق الزمنية، بدأ يلتسين قائلًا: «أصدقائي الأعزاء»، للمرة الأخيرة.

> «لقد سمعت الناس أكثر من مرة يقولون إن يلتسين متمسك بالسلطة لأطول مدة ممكنة، ولن يدعها تفلت من يديه»، ثم قال: «هذه كذبة»؛ إنه يريد صنع «سابقة حيوية طوعية في انتقال السلطة إلى رئيس منتخب جديد»، لكنه لن ينتظر حتى الانتخابات الرئاسية المقررة في يونيو/حزيران، «يجب أن تدخل روسيا الألفية الجديدة مع سياسيين جدد، ووجوه جديدة، وأشخاص جدد أذكياء، وأقوياء وأكثر حيوية، وأما نحن، من الذين كانوا في السلطة سنوات عديدة، فيجب أن يتركوا». يفرك يلتسين دمعة من عينه، وينهي بنداء شخصي لافت للنظر إلى البلد الذي قاده ثماني سنوات: «أريدكم أن تسامحوني على الأحلام التي لم تتحقق، والأشياء التي بدت سهلة [لكن] تبين أنها صعبة لا تحتمل. أطلب عفوكم لإخفاقي في تحقيق آمال الذين صدقوني عندما قلت إننا سوف نقفز من الماضي الرمادي الراكد الشمولي إلى مستقبل مشرق ومزدهر ومتحضر، كنت أعتقد بذلك الحلم، وأعتقد أننا نستطيع اجتياز تلك المسافة بقفزة واحدة، ولكننا لم نفعل ذلك»[43].

ليودميلا لم تشاهد خطاب يلتسين، ولكنها بعد خمس دقائق من انتهائه، تلقت اتصالًا هاتفيًّا من صديقة لها: «ليودا، أنا أهنئكم»، قالت. فأجابت ليودميلا: «وأنا أهنئك»، وكانت تظن أنهن يتبادلن أطيب التمنيات بالعام الجديد[44]، فاضطرت صديقتها أن تشرح لها أن زوجها أصبح رئيس البلاد بالإنابة، وكان بوتين لم يكشف سر يلتسين بعد اجتماعهم الأول في 14 ديسمبر/كانون الأول، أو التوقيت بعد اللقاء الثاني في 29 ديسمبر/كانون الأول، فسمعت بذلك مع بقية روسيا. هذا الارتقاء لزوجها في موسكو تركها تتعجب في بعض الأحيان من أنها تزوجت من «رجل كان بالأمس مجرد نائب رئيس بلدية مجهول في بطرسبورغ بات اليوم رئيسًا»[45].

وتحقق ما كانت تخشاه من أن تعود حياتهما كما كانت حين عاد إلى الـ FSB، وأصبحت حياة أسرتها مقيدة. الفتاتان اليوم بلغتا الخامسة عشرة والثالثة عشرة، وعليهما التوقف عن الذهاب إلى المدرسة الألمانية التي تدرسان بها منذ وصولهما إلى موسكو، وأصبحتا تدرسان في المنزل، ويرافقهما حراس الأمن في الرحلات النادرة للمسرح أو السينما. وردًّا على سؤال، قالت ليودميلا لديها فقط ثلاث صديقات مقربات. عندما عاد بوتين إلى الـ FSB، اضطرت إلى إنهاء صداقة كانت قد بدأتها مع إيرين بيتش، زوجة مصرفي ألماني، حين كانوا في بطرسبورغ. «لم تكن سعيدة على الإطلاق»، قالت بيتش التي ألفت كتابًا أسمته **صداقات لذيذة**، وهو كتاب مثير حول أسرة بوتين وصفت فيه زواجهما العاصف[46]. في ذلك الكتاب تشكو ليودميلا من أن زوجها يمنعها من استخدام بطاقة الائتمان- لا شك أنه كان قلقًا حول الفضيحة المحيطة ببنات يلتسين- وقالت مازحة إن أسلوب حياته كان كمصاصي الدماء؛ «إنها عزلة مروعة»، قالت ليودميلا لبيتش حين أنهت صداقتها.

> «لم نعد نسافر إلى حيث نريد أن نذهب، ولم نعد قادرين أن نقول ما نريد. كنت قد بدأت للتو العيش». وكذلك زوجها، الذي كان يرفض آراءها، حتى إنه قال ذات مرة لبيتش، خلال زيارة مطولة لهما إلى الريف، واستمرت أسبوعًا كاملًا في أرخانجيلسكوي، إن أي شخص يمكن أن يقضي ثلاثة أسابيع مع ليودميلا يستحق نصبًا تذكاريًّا[47]. اليوم ليودميلا على وشك أن تصبح السيدة الأولى، تمارس دورًا غربيًّا حديثًا ينظر إليه الروس بصورة متناقضة. لقد بكت عندما علمت بوظيفة زوجها الجديدة؛ لأنها أدركت «أن حياتنا الخاصة قد انتهت ثلاثة أشهر على الأقل، إلى حين إجراء الانتخابات الرئاسية، أو ربما أربع سنوات»[48].

بعد إعلان يلتسين، رَأس بوتين اجتماعًا لمجلس الأمن الروسي، وهو الذي رَأسه حتى توليه منصب رئيس الوزراء قبل أربعة أشهر فقط، وشمل أعضاؤه قادة مجلس الدوما والمجلس الاتحادي، فضلًا عن وزراء الدفاع والداخلية وقادة الاستخبارات، الذين كانوا جميعهم قد قدموا إلى موسكو قبل أن يأتي هو إليها بكثير، ولديهم من الخبرة في الحكومة والسياسة أكثر مما يمتلك، لكنهم اليوم يستمعون إليه وهو يوجز أولوياته.

تعهد بعدم حدوث أي تغيير في السياسة الخارجية لروسيا، ولكنه ألمح إلى عهد جديد في الشؤون العسكرية: يجب على روسيا تحسين أسلحتها، ومعالجة المشكلات الاجتماعية لصفوف جنودها، «وهي الجوانب التي أهملت في الآونة الأخيرة»، وأشار إلى الغياب الواضح للنائب العام يوري سكوراتوف، الذي كان لتحقيقاته مثل ما كان لأي شيء آخر لدفعه إلى منصبه، لكن أضاف بعد ذلك أن المدعي العام بالوكالة، فلاديمير أوستينوف، «ينفذ عمله على أكمل وجه كما يبدو». وكانت ملاحظاته وجيزة وقصيرة تقريبًا في هذا المقام. وحث على اليقظة في العام الجديد؛ نظرًا إلى الخوف من الأخطاء المحتملة في الحاسوب Y2K التي تكتسح جميع أنحاء العالم، وكانت تتصدر أهم الأخبار في ذلك اليوم، حتى استقالة يلتسين.

ثم سجل بوتين خطابه الخاص للسنة الجديدة، الخطاب الذي يسجله يلتسين عادة ويسلمه ليبث في منتصف الليل في موسكو. وبدأ بكلام منمق بأنه هو وعائلته كانوا يخططون للجلوس أمام التلفاز في تلك الليلة والاستماع إلى خطاب يلتسين، «لكن أخذت الأشياء منحى مختلفًا»، وأكد للمستمعين أنه لن يكون هناك فراغ في السلطة ولا «للحظة واحدة»، وتعهد بمواصلة الجهود لاستعادة القانون والنظام؛ «أنا أعدكم أن أي محاولات للعمل تتعارض مع القانون والدستور الروسي ستُبْتَر فورًا». وختم الحديث بتقديم شكره للرئيس الأول في البلاد، وأضاف: «سنكون قادرين على رؤية أهمية ما قدمه بوريس يلتسين لروسيا بعد مرور بعض الوقت».

بينما كان يلتسين يتأهب لمغادرة الكرملين، توقف في الردهة خارج مكتبه- الذي أصبح اليوم مكتب بوتين- وأخرج من جيبه القلم الذي استخدمه لتوقيع آخر مرسوم أصدره، وقدمه لبوتين في أثناء توجههما إلى باب الكرملين. كانا رجلين مختلفين حتى في المزاج واللياقة البدنية، ولم تكن العلاقة بينهما- كما قال بوتين في وقت لاحق- «وثيقة للغاية»؛ فلم تكن العلاقة حميمة كتلك التي كانت قائمة بينه وبين سوبتشاك. وقال بوتين في وقت لاحق: «أستطيع القول إنه عندما بدأ مناقشة مسألة استقالته معي لم أكن أشعر بدفء مشاعره

تجاهي»[49]. اليوم يريد يلتسين أن يقول «شيئًا مهمًّا» عن العبء الذي سيتحمله، قال له: «اعتن.. اعتن بروسيا».

كان الثلج يتساقط ناعمًا لطيفًا يلف ساحات الكرملين حينما خرج يلتسين يشق طريقه ويلوي جسده الضخم الواهن داخل السيارة المصفحة التي ستوصله إلى المنزل، واتصل به بيل كلينتون لدى عودته إلى بيته الريفي، لكن يلتسين أمر مساعده أن يطلب إليه الاتصال في وقت لاحق، وذهب إلى البيت، وحظي بغفوة[50].

في ذلك المساء وقَّع بوتين مرسومه الأول، وكان من سبع صفحات طويلة، بعد أن أعده مساعدو يلتسين في اليومين السابقين، على الرغم من أن يلتسين ادعى أنه لا علم له به حتى صدوره[51]، وهو يمنح الرئيس السابق- يلتسين- مجموعة من الفوائد والامتيازات؛ من ذلك الراتب، والموظفون، واستخدام المنزل الريفي الذي قضى فيه كثيرًا من حياته والنقاهة في ولايته الثانية، ومنح يلتسين أيضًا حصانة من الملاحقة القضائية، وحماية ممتلكاته وأوراقه من البحث أو الاستيلاء عليها. وبمسحة من القلم الذي أعطاه إياه يلتسين، أنهى بوتين التهديد الذي كان يمثله سكوراتوف له، والذي كاد يودي بحياته إلى الدمار.

ثم نفذ بوتين مفاجأته الخاصة للسنة الجديدة، إذ سافر سرًّا هو وخليفته في الـ FSB، نيكولاي باتروشيف، مع زوجتيهما، ومغنية شعبية، إلى داغستان. أخبر بوتين وزوجتُه ابنتيهما أنهما سيذهبان في تلك الليلة إلى مكان لم يذهبا إليه، وكان قد قدم لهما الهدايا- حاسوبًا لكل منهما- وتركاهما في موسكو مع شقيقة ليودميلا، وواحدة من صديقات ماشا.

وبعد وصوله إلى داغستان، صعد بوتين وآخرون في ثلاث مروحيات عسكرية نحو ثاني أكبر مدينة في الشيشان، غودرميس، التي حُرِّرت حديثًا من المتمردين الشيشان، وكان الجو سيئًا جدًّا، والرؤية محدودة، حتى إن الطائرات الحوامة كانت تكاد ترجع إلى الوراء. وعندما حلَّت السنة الجديدة والألفية الجديدة، كانوا لا يزالون في الجو، حيث فتح اثنتين

من زجاجات الشمبانيا ومررها على من حوله، وشرب من الزجاجة نفسها؛ لأنه لم يكن لديهم كؤوس.

عندما هبطت الطائرات في العاصمة الداغستانية ماخاتشكالا، استقلوا مركبات عسكرية بحراسة مشددة، وقاد السيارة ساعتين ونصف الساعة مرة أخرى إلى الشيشان. كان قد انبلج الفجر تقريبًا عندما استعرض بوتين القوات الروسية هناك، الذين «بدوا متعبين ومضطربين قليلًا كما لو أنهم يريدون أن يقرصوا أنفسهم ليتأكدوا أنهم لا يحلمون»، كما تذكر ليودميلا[52].

كانت ليلة هادئة في غودرميس، لكن جروزني، التي لم تكن تبعد سوى ثلاثة وعشرين ميلًا عنهم، عانت إحدى أعنف ليالي القصف حتى الآن.

لبس بوتين الياقة المدورة، وسلم مرة أخرى الميداليات والسكاكين الاحتفالية للجنود، وقال للجنود المحتشدين هناك: «أريد منكم أن تعرفوا أن روسيا تُكْبِر عاليًا ما تفعلونه»، وأضاف: «هذا ليس مجرد استعادة لشرف روسيا وكرامتها، وإنما للحد من تفكك الاتحاد الروسي»؛ فقد انتهى عهد يلتسين، وبدأ عهد بوتين.

الجزء الثالث

الفصل الحادي عشر

لتصبح كما البرتغال

فلاديمير بوتين، الذي لم يسبق أن انتخب لمنصب سياسي، قاد بصعوبة حملة قبل الانتخابات، التي تسببت استقالة يلتسين بالتبكير بها، فتقدم موعدها إلى 26 مارس/آذار 2000م. بصفته رئيسًا للوزراء، رسم رؤيته لروسيا فقط في وسائل الإعلام، أما حملته الحقيقية الوحيدة، أو برنامجه الانتخابي، فظهر في بيان (المانيفستو) على الموقع الإلكتروني للحكومة في 28 ديسمبر/كانون الأول، عشية مفاجأة تعيينه من قبل يلتسين. أعدَّ هذه الوثيقة مركز التنمية الإستراتيجية، وهو مؤسسة بحثية أسسها جريف الألماني، الخبير الاقتصادي الذي كان أحد زملاء بوتين في إدارة أناتولي سوبتشاك[1]. في الوثيقة، المانيفستو، المكونة من خمسة آلاف كلمة، والتي أطلق عليها (روسيا في مطلع الألفية)، اعترف بوتين بصراحة أن الوضع الاجتماعي والاقتصادي تقلص في البلاد وفي العالم، وأن الناتج القومي الإجمالي للبلاد انخفض بمقدار النصف في التسعينيات، وأصبح اليوم عُشر مثيله في الولايات المتحدة، وخُمس نظيره في الصين، وأن الأمر سيستغرق خمس عشرة سنة من النمو الاقتصادي الكبير فقط للوصول إلى مستوى البرتغال أو إسبانيا.

جاء في الوثيقة: «روسيا في خضم واحدة من أصعب المراحل في تاريخها»، وأيضًا: «للمرة الأولى منذ 200 أو 300 سنة الماضية، تواجه روسيا تهديدًا حقيقيًّا قد يزلقها إلى المرتبة الثانية، وربما حتى الثالثة بين دول العالم، والوقت ينفد لتجنب هذا»[2]. كانت الوثيقة بمنزلة وصفة طبية لاستعادة الوحدة الوطنية، والوطنية، وحكومة مركزية قوية، لا «استعادة

أيديولوجية الدولة الرسمية في روسيا تحت أي ستار»، أي عقد اجتماعي طوعي يعزز سلطة الدولة، ويقضي على الفوضى والطموحات الانقسامية لرعاياها. بدت نبرة الوثيقة وكأنها ذات طابع ديني تقريبًا، كما لو أن بوتين يتقاسم (الإلهام الشخصي) في منتصف الطريق لروسيا الذي سيوصل بين تاريخها السلطوي ومستقبلها الديموقراطي[3]، «روسيا تحتاج سلطة الدولة القوية ويجب أن تمتلكها؛ أنا لا أدعو للشمولية، فالتاريخ يثبت أن كل الدكتاتوريات، وجميع الضروب السلطوية للحكومة، تبقى عابرة لا تدوم، وأن الأنظمة الديموقراطية هي التي دائمًا تدوم».

مع واجباته الرئاسية، تحاشى بوتين الأحداث السياسية العلنية في أثناء حملته الانتخابية القصيرة، ولم يجر أي تحالفات، ولم يلق خطابات، ورفض المشاركة في مناظرات مع منافسيه، عاكسًا شخصيته العنيدة وازدراءه لسياسة التجزئة، فقدم تعريفًا للحملة الانتخابية الحديثة في روسيا بصورته، وبطرق يمكن أن تخمد المستقبل الديموقراطي الذي أذن به سقوط الاتحاد السوفييتي.

في غضون أيام من توليه الرئاسة في ليلة رأس السنة الميلادية، كان بوتين قد اختار منافسيه الأساسيين المحتملين، حيث تكون ساحة الملعب معهم شبه خالية له.أو:محاولًا أن يفرض قواعد اللعبة لمصلحته. وبحلول نهاية يناير/كانون الثاني عام 2000م، كانت كتلة الوحدة في مجلس الدوما قد نسقت تحالفًا لا مع الديموقراطيين أو الليبراليين، بل مع الشيوعيين، ومن ثم قسم الوحدة والحزب الشيوعي رئاسة اللجنة بين أعضائهما، في حين أن الباب أوصد في وجه يفجيني بريماكوف، فضلًا عن سيرجي كيريينكو، الذي حصل على مقعد بعد إقالته من منصب رئيس الوزراء، ويافلينسكي، الليبرالي البارز في السياسة الروسية. قاطع أنصارهم على الفور مجلس الدوما، ونتيجة لذلك التحمت الأغلبية الموالية للكرملين بغض النظر عن الاختلافات الأيديولوجية بينها. كانت البلاد تتعلم أن الأيديولوجية أقل أهمية عند بوتين من أغلبية تشريعية منظمة مطواعة.

بعد أسبوع أعلن لوجكوف، الذي أعيد انتخابه رئيسًا لبلدية موسكو في ديسمبر/ كانون الأول، أنه لن يتنافس ضد بوتين على الرئاسة، وبريماكوف، الذي أعلن ترشيحه عشية الانتخابات البرلمانية، انسحب أيضًا من السباق الرئاسي بعد أسبوعين، باستقالة مريرة، وقال: «أشعر كم هو بعيد مجتمعنا عن المجتمع المدني وعن الديموقراطية الحقيقية»[4]. في أوائل فبراير/شباط كان أخطر منافسي بوتين- الذين كانوا يخيفون يلتسين في الأيام الأخيرة من رئاسته- قد تلاشوا واحدًا تلو الآخر قبل أن تبدأ الحملة رسميًّا، ثم قدم الحكام الإقليميون دعمهم لبوتين، ومن ضمنهم الرجل الذي ندد به ووصفه بأنه يهوذا، قبل أربع سنوات، فلاديمير ياكوفليف من بطرسبورغ. الانتخابات التي شغلت آخر الشهر الأخير للرئيس بوريس يلتسين، تبين أنها ليست انتخابات درامية على الإطلاق، ولم تكن تنافسًا ديموقراطيًّا بين المرشحين بقدر ما كانت استفتاء على رجل يمسك حقًّا بهذا المنصب. حاكم واحد فقط، فاسيلي ستارودوبتسيف، الشيوعي من تولا، أعلن دعمه لأحد منافسي بوتين، وهو زميل الشيوعي غينادي زغانوف، وسأل: «إذا لم يكن هناك منافسون فليس هناك أي ديموقراطية، وإذا لم يكن هناك ديموقراطية فما الفكرة من وراء هدم البلد؟»[5].

بوتين أخبر يلتسين أنه لا يحب الحملات الانتخابية، واليوم يرفض وعود الحملة الانتخابية لأنها أكاذيب غير قابلة للتحقيق، يتشدق بها السياسيون، وتروج لها الإعلانات التلفازية المشوهة للسمعة، إضافة إلى أنها تلاعب غير لائق بالمستهلكين السذج. في زيارة له لمدينة المنسوجات إيفانوفو، أعلن أنه يرفض الوقت الذي يخصصه التلفاز الرسمي لجميع المرشحين لعرض سيرهم الذاتية ومواقفهم، وقال: «هذه المقاطع المصورة للإعلان»، مكذبًا تقديره لأهمية التلفاز في صوغ صورته الجماهيرية؛ «أنا لن أحاول في سياق الحملة الانتخابية أن أكتشف أيهما أكثر أهمية: التامباكس أم سنيكرز»، ومع ذلك جنَّد مساعدو بوتين من وراء الأستار فريقًا للحملة يقوده مساعده الشاب الذي أحضره معه من بطرسبورغ، ديمتري ميدفيديف. وأجرى الباحثون عملية معقدة لرسم الصورة الشخصية والسياسية لبوتين، مع كل التقنيات السياسة المختبرة الحديثة، من غير أن تلقي بالًا للديموقراطية

العملية. وكانت النتيجة صورة لا لسياسي، وإنما لرجل ما فوق السياسة. نجاحُ إستراتيجيي بوتين فاق التوقعات، وأجرى التلفاز الرسمي مقابلة ذاتية مطولة معه- في ذهنه قد لا تكون قد ارتقت إلى المقابلة التجارية، على الرغم من أنها كانت كذلك- وأطلقت حملته سلسلة من المقابلات التي أجريت على مدى ستة أيام من قبل ثلاثة صحفيين.

المقابلات جمعت في كتاب سمِّي **من الشخص الأول؟** وهي العبارة التي تفهم في الروسية أنها تقترح (الأول)، وتعني الزعيم أو رب العمل. بوريس بيريزوفسكي، الذي لا يزال يسيطر على قناة التلفاز الأولى، دفع لطباعة الكتاب، راغبًا بهذا في التزلف لبوتين بعد تدهور نفوذه داخل الكرملين دراماتيكيًّا، (لم يجتمع مع يلتسين منذ عام 1998م). عندما حظرت لجنة الانتخابات البيع التجاري للكتاب بوصفه انتهاكًا لقوانين الحملة، اشترت مقار بوتين الطبعة الأولى بكميات كبيرة، ووزعت نسخًا منها مجانًا على الناخبين[6].

وفي سرد سيرة بوتين الذاتية، تحدث بوتين وليودميلا، وغيرهما ممن عرفوه منذ سنوات، بطريقة ودودة وصريحة أحيانًا، صوَّرته على أنه ذلك الرجل العادي، ولكن أيضًا الرجل الذي لا منازع له، والحاكم الشاب دون منازع، لأمة عظيمة كبيرة، بزغت في (زمن المتاعب).

نجح بوتين في الوقت نفسه في التعبير عن الفخر بتربيته السوفييتية، ومهنته في الـ (كي جي بي)، في حين نأى بنفسه عن إخفاقات الاتحاد السوفييتي، وقدم لكل شخص شيئًا يعتز به؛ من رموز الماضي التي يعوِّل عليها بالديموقراطية الجديدة كل من المواطن والمؤمن المتدين على حد سواء، ولا أحد يعلم على وجه اليقين موقفه الحقيقي، لأنه يبدو كأنه يقف مع كل شيء.

في أشهره القليلة التي أحاطته بالأهمية، أصبح السؤال: (من هو بوتين؟) متداولًا بين الصحفيين والأكاديميين والمستثمرين والحكومات الأجنبية، ووكالات الاستخبارات، ومن ضمنها وكالة الاستخبارات المركزية، التي وجهت محلليها على عجل للعمل على تحليل

شخصيته، وإجراء مقابلات مع أولئك الذين لديهم فكرة عنه وعملوا معه في السنوات الماضية التي كان بها غامضًا[7].

إستراتيجية فريق حملة ميدفيديف كانت ببساطة أن يمضي بوتين قدمًا في واجباته الرسمية بصفته رئيسًا للوزراء ورئيسًا بالوكالة، ولم يكن من قبيل المصادفة، بطبيعة الحال، أن تلك الواجبات اقتادته إلى جميع أنحاء البلاد (بصورة متلفزة) في لقاءات من شأنها أن تصل إلى كامل أطياف المجتمع الروسي. في أحد الأيام زار مركز الفضاء الروسي خارج موسكو، ثم منصة تنقيب عن النفط في سورجوت في اليوم الثاني، ورَأس اجتماعات مستشاريه الأمنيين، واستقبل رئيس الوزراء البريطاني في زيارته الرسمية، توني بلير، وتعهد بدفع جميع الأجور المتأخرة بحلول نهاية الربيع، ورفع المعاشات أولًا بنسبة 12 في المئة، ثم مرة أخرى بنسبة 20 في المئة، وفرَضَ الإجراءات التي أسهمت في ارتفاع شعبيته على الأقل بقدر ما أسهمت الحرب في الشيشان[8]. كانت سياسة بوتين تجنب مناقشة منافسيه، لكن تصريحاته بشأن عمل الحكومة تلقى مزيدًا من البث، وأكثر من أي شيء قيل في أي وقت مضى، لم يَعِد بأي شيء، لكنه كان يعطي.

وبمجرد الافتتاح الرسمي للحملة نشر رسالته للناخبين في ثلاث صحف رئيسة كانت قد أخذت قسطًا من الراحة مدة سنة مع روسيا يلتسين، وقد كتب: «آلة الدولة تتلاشى، محركها- السلطة التنفيذية- يقرقع ويحوزق ما إن تبدأ بتشغيله»[9]، وتعهد بمكافحة الجريمة، وأعلن أن الحرب في الشيشان كانت ضد (عالم الجريمة)، وليست ضد حركة الاستقلال وحق تقرير المصير تاريخيًّا، في إشارة مبطنة إلى تهديد بريماكوف بتبييض السجون لإفساح الطريق لأولئك المتهمين بارتكاب (جرائم اقتصادية)، فأوضح بوتين أنه لا ينوي أن يعكس الفوضى، والخصخصة المجحفة في العقد الماضي، وإنما لتعزيز سيطرة الدولة على السوق من أجل إنهاء (حلقة مفرغة) من رجال الأعمال الفاسدين الذين يدفعون الرشا لموظفي الدولة، ويضعفون موارد الميزانية التي يمكن استثمارها لإخراج الفقراء من دائرة الفقر، كتب: «ملايين الناس في هذا البلد يصعب عليهم تغطية نفقاتهم، يقتِّرون في كل

شيء، حتى في المواد الغذائية»، وأضاف: «إن كبار السن الذين انتصروا في الحرب الوطنية العظمى وجعلوا روسيا قوة عالمية عظمى، يحتالون من أجل عيش هزيل، أو ما هو أسوأ، ويتسولون في الشوارع».

صاغ بوتين شعارًا يرى فيه حكمًا جديدًا مستقرًّا لروسيا الجديدة يأتي بالأمن والازدهار لها، ويجسد الشعار التناقضات الداخلية في أيديولوجيته التي تأتي من خلفيته بصفته رجل قانون وضابط استخبارات، ومن مزاجه أيضًا. كانت تؤثر فيه تأثيرًا قويًّا حتى إنه استخدمها مرتين في رسالة واحدة، فقد صرح أن روسيا سيكون فيها «دكتاتورية القانون».

أكبر تهديد لشعبية بوتين قبل الانتخابات كان- يا للمفارقة- الحرب التي أوصلته إلى أعلى منصب في الكرملين، فبعد أن وصلت بسرعة البرق إلى نهر تيريك في خريف عام 1999م، وهلل لها الجمهور، اليوم مع حلول فصل الشتاء تتراجع مع قتال الشوارع البشع الذي يحدث في العاصمة الشيشانية للسيطرة عليها، والتي أصبحت أثرًا بعد عين. وفي نهاية يناير/ كانون الثاني عام 2000م، عندما اقتحمت القوات الروسية جروزني، اعترف الجيش بمقتل 1173 جنديًّا، على الرغم من أن كثيرين اتهموا الحكومة بعدم الإبلاغ عن ضحايا القتال التي لا تشمل الروس من خارج الجيش ووزارة الداخلية، ومن بينهم الـ FSB، أو أولئك الذين توفوا متأثرين بجراحهم في وقت لاحق[10]. القوات الروسية عانت من نقص في المعدات واللباس، والغذاء، والذخيرة، ويخافون من أن تقتلهم القنابل التي بحوزتهم[11]، ومن ثم فإن الاندفاع المتصاعد للحماس الوطني الذي رحَّب بالهجوم الأول، يواجه اليوم واقع الصراعات التي غدت أطول وأكثر دموية مما كان يتوقعه معظم الروس.

كان رد بوتين عدم تغيير التكتيكات، وإنما التأكد من أن معظم الروس لا يعرفون حقيقة ما كان يجري، وما إن تحركت القوات البرية حتى منع الكرملين وصول الصحفيين إلى الميدان، وهو ما اضطر الصحف الروسية وشبكات التلفاز لتغطية (عملية مكافحة الإرهاب) حصريًّا تقريبًا من وجهة نظر الجانب الروسي. كانت التغطية الرومانسية للقتال في الشيشان في

الحرب الأولى قد عززت قضيتهم واستنزفت الروح المعنوية في روسيا، لهذا لن يدع بوتين ذلك يحدث مرة أخرى.

الأخبار عن القتال الشرس، والذبح العشوائي للمدنيين، وتزايد الأدلة على ارتكاب القوات الروسية جرائم حرب، أخذت تتوالى تباعًا، خاصة في صحف المعارضة والتقارير الإخبارية الأجنبية، ولكن سيطرة الكرملين على التلفاز الحكومي أبقت الأخبار المخيبة للآمال بعيدة عن البث أو النشر. ومن تجرأ من الصحفيين على كتابة تقارير من وجهة نظر الشيشان، أو من دون الاعتماد على المعلومات الرسمية من الجيش الروسي، اعتُقلوا، أو تعرضوا لما هو أسوأ. فمن ذلك أنه حين اعتقلت القوات الروسية، في يناير/ كانون الثاني، أندريه بابتسكي، وهو مراسل لراديو ليبرتي الذي تموله أمريكا، لم يوجه له الجيش تهمة انتهاك قواعد إعداد التقارير من الشيشان ويطرده من المنطقة، بل سلموه للملثمين المتمردين الشيشان مقابل خمسة أسرى حرب من الروس، كما لو أنه نفسه مقاتل عدو، وكان مصير بابتسكي سبب ضجة في الداخل والخارج، وهو ما دفع لانتشار قصص تنتقد بوتين بحدة، وخلفيته في الـ (كي جي بي).

بوتين لم يَبدُ دفاعيًّا على الإطلاق، بل بدا متحديًا، وعلى نحو أعمى حتى في بعض الحالات؛ فلم يعبأ بأي انتقاد للحرب، بل كان يعد ذلك هجومًا على روسيا نفسها، وعندما احتج صحفيو (الشخص الأول) بأن الصحفيين في منطقة الحرب ليسوا مقاتلين، أجابهم: «ما فعله بابتسكي هو أخطر بكثير من إطلاق النار من مدفع رشاش»[12]، وشدد على هذه النقطة، وأجاب بكل بساطة: «نحن نفسر حرية التعبير بطرق مختلفة».

أثارت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت قضية بابتسكي عندما زارت موسكو والتقت بوتين في فبراير/شباط، ولكنها- مع ذلك- بعد اجتماع دام ثلاث ساعات خرجت من الاجتماع مسحورة بزعيم روسيا الجديد، ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي يأتي بها نظراء بوتين الأجانب بفكرة أو بهدف ثم يندمون عليه في وقت لاحق. قالت أولبرايت: «لقد وجدته

شخصًا مستنيرًا جيدًا، محاورًا جيدًا، ومن الواضح أنه وطني يسعى إلى علاقات طبيعية مع الغرب»[13]. وفي السر حذرت بوتين من أنه (يمتطي نمرًا) في الشيشان، وحثته مرة أخرى على السعي إلى تسوية عن طريق التفاوض، وهو ما لم يسبق أن أولاه أي أهمية أو سعى إليه، وقال لها- كما صرحت-: «لا أعتقد أننا أقرب إلى التوصل إلى حل سياسي في الشيشان»، قد تكون مصيبة وقتها، لكنه سيثبت صوابية موقفه في نهاية المطاف.

مع نهاية شهر يناير/كانون الثاني قرر قادة المتمردين الشيشان، الذين تضرروا من الهجمات الجوية على معاقلهم في جروزني، التخلي عن المدينة، وبدأ الانسحاب الغادر الذي خُطِّط ليكون فخًّا؛ فقد قَبِل الضابط الروسي في مكافحة التجسس الروسية، الذي رتب لعملية تبادل سجناء، رشوةً بمئة ألف دولار للمساعدة على هروب مجموعة كبيرة من المقاتلين، من خلال تسوية قرب بلدة الخان كالا. وفي ليلة الأول من فبراير/شباط فوجئت القوة الرئيسة الطريق المخصصة قد زرعت بالألغام، وبينما كانوا يقاتلون بخسائر مدمرة، أمطرتهم القذائف الروسية، وقُتل المئات من الشيشان، ومن بين المصابين كان شامل باساييف، الذي أصبح بعد توغله في داغستان العدو الأكبر لروسيا. في أثناء هروبه تمزقت ساقه وقدمه اليمنى بلغم، وبث الشيشان شريطًا مصورًا شنيعًا لطبيب جراح وهو يبتر القدم اليمنى لباسييف، ليظهروا- على ما يبدو- للمتمردين وغيرهم أنه لا يزال على قيد الحياة[14].

في 6 فبراير/شباط استولت القوات الروسية على جروزني، أو على ما تبقى منها على الأقل، إذ لم يبق بناء غير مدمر فيها؛ فقد دمرت معظم مبانيها، وأصبحت غير صالحة للسكن، ورفع القادة العسكريون الروس العلم الروسي فوق المكتب الإداري للمدينة، وبسبب الدمار لم يتمكنوا من إيجاد مبنى واحد يصلح ليكون مقر القيادة العسكرية، ونقلت طائرات السلطات الروسية الإمدادات الغذائية والطبية للسكان الذين أمضوا فصل الشتاء في أقبيتهم، وكما أعلن بوتين: «ينبغي أن يعرف الناس أنهم ليسوا شعبًا مهزومًا بل أنهم شعب تحرر»[15].

الحرب لم تنته بعد، فقد تراجع آلاف المقاتلين الشيشانيين إلى الجبال، وانضموا إلى مقاتلين آخرين، ووصل عددهم إلى ما يقرب من سبعة آلاف، وكان مسخادوف لا يزال طليقًا، كما حال غيره من القادة، وتعهد باساييف بمواصلة شن حرب (على كامل الأراضي الروسية)، وقال إنه سيفي بوعده.

في 20 مارس/آذار، قبل ستة أيام فقط من الانتخابات الرئاسية، زار بوتين جروزني للمرة الأولى، وبينما كانت القوات الروسية مستمرة في خسائرها نتيجة لهجمات حرب العصابات من خارج العاصمة، حث الناخبين في البلاد على الاستعداد لحرب أطول من أي حرب، وهو اعتراف لم يجرؤ أي شخص آخر في الكرملين الاعتراف به، فالحرب أوقفت الارتفاع المذهل في شعبيته خلال فصل الشتاء، لكن مع تغطية إخبارية موجهة تلاشت كثيرًا، ولم تعد مسألة حملة انتخابية.

وفي الوقت الذي دمرت فيه القوات الروسية (الغالبية العظمى من الجماعات المسلحة غير المشروعة)، فإن عددًا من التهديدات لا يزال قائمًا، ومن ثم أعلن بوتين أن «هذا هو السبب الذي يدفعنا إلى ألا نسحب جميع القوات من الشيشان، إذ يجب ترك ما يكفي من القوات لدينا هنا للتعامل مع المشكلات الحالية». معظم الروس لم يكتشفوا الجانب المظلم من حرب بوتين، ولا يبدو أنهم سيعيرون أي اهتمام لو اكتشفوا ذلك. كان بوتين قد وصل إلى جروزني على متن مقاتلة حربية بمقعدين صنعت في العهد السوفييتي، وظهر بالمطار العسكري كبطل فيلم حربي يتبختر بزي طيار مقاتل. هذه الأعمال المثيرة ستصبح قريبًا من دعائم سياسة بوتين، وستصقل الصورة المتلفزة لقائد سيكون له تأثير كبير في المجتمع[16]، فالتغطية التلفازية لزيارته إلى جروزني كانت متزلفة جدًّا، حتى إن بعضهم كانوا يعتقدون أن بوتين قد قاد الطائرة بنفسه.

قبل يوم الانتخابات كانت النتيجة محسومة، والتشويق الوحيد كان نسبة الإقبال على التصويت، فأي شيء دون 50 في المئة سيجعل النتائج غير صالحة. واجه بوتين عشرة

مرشحين آخرين، لكن معظمهم كانوا معروفين قليلًا، كقادة إقليميين أو سياسيين، أمثال يوري سكوراتوف، الذي ما انفك يقاتل رافضًا إقالته من منصبه مدعيًا عامًّا، دون أن يكشف عن أي معلومة تدين الدائرة الداخلية ليلتسين كما كان يدعي. بقي المنافسان البارزان اللذان عارضا يلتسين قبل أربع سنوات: غينادي زغانوف من الشيوعيين ويافلينسكي من يابلوكو. تجاهلهما الكرملين وشبكات التلفاز التابع له بالكامل تقريبًا، بل واجه يافلينسكي سيلًا معاكسًا من إعلانات الحملة والتقارير الإخبارية التي تهاجمه لأنه مرشح يدعمه اليهود، والمثليون جنسيًا، والأجانب. كان هذا الهجوم استدعاء للقاسم المشترك الأصغر للمشاعر الشعبية الروسية، وعكس خوفًا من أن يأخذ يافلينسكي ما يكفي من الليبراليين من ذخيرة بوتين ليجبره على جولة إعادة، فإما أن الخوف كان في غير محله، أو أن التكتيك أثبت فعاليته. وفاز بوتين بـ 53 في المئة من الأصوات في الجولة الأولى، وسحق زغانوف الذي حصل على 29 في المئة فقط، ويافلينسكي الذي حصل على أقل من 6 في المئة. وهناك دليل على أن ما حصل عليه بوتين- وهذا الإقبال- كان بمساعدة من حشو صناديق الاقتراع[17]، ولكن لا أحد يهتم حقًّا. كان بوتين خيار الشعب بلا منازع في آخر انتخابات في روسيا يمكن أن نقول عنها ديموقراطية.

كان صعود بوتين إلى قمة السلطة سريعًا جدًّا، وغير متوقع، ومذهلًا، حتى إن أحد المؤرخين الروس البارزين وصف صعوده بعبارات دينية؛ وكأنه حدث بفعل قدرة خارقة أكرمت بها أمة عظيمة مُبْتلاة؛ فكتب المؤرخ روي ميدفيديف: تسلَّم يلتسين السلطة «دون ثورة أو سفك دماء، ومن دون انقلاب في القصر أو مؤامرة من أي نوع، ودخلت روسيا القرن الجديد مع زعيم جديد، الرئيس المفوض بوتين، كل السكان يدركون هذا تقريبًا، فلا داعي للقلق، فإنما هو هدية الرب بمناسبة رأس السنة»[18].

قبل أيام فقط على الانتخابات، اللغز المحيِّر لتفجيرات المبنى السكني، وأحداث ريازان- غطتها اليوم وحشية القتال في الشيشان- بدأ يدور في رؤوس معارضي بوتين؛ إذ كانوا يعتقدون بوجود مؤامرة تنسَّق مع هذا الرجل الممل الصغير الذي هو مجرد دمية بيد

قوى كبرى، ونشرت الصحيفة المستقلة (نوفايا غازيتا) سلسلة من المقالات التي عمقت اللغز حول (تدريبات) ريازان، واستشهدت المقالات بما قاله عريف الشرطة الذي كان أول من دخل المبنى السكني، والضابط الذي فحص أكياس (السكر)، ونزع فتيل التفجير، والتقت الصحيفة أيضًا بالمظلي من الفوج 137 المتمركز في قاعدة قرب ريازان، الذي أُمر بحراسة المستودع، والذي وجد في الداخل هو وجندي آخر العشرات من الأكياس المسماة بالسكر، وكتبت الصحيفة: «الشاي المصنوع من هذا السكر تبين أنه خطأ، وليس حلوًا على الإطلاق». أبلغ الجندي قائد فصيله، الذي كان خبيرًا يعرف اختبار المادة؛ وكانت مادة ناسفة، هي الهكسوجين، وحُدِّدت هوية المظلي فقط تحت اسم **ألكسي.بي**[19]. كانت الأدلة ظرفية بحتة، لكن أشارت الصحيفة إلى أن الأحداث في ريازان، والتفجيرات في موسكو وفولغادونسك، قد لا تكون من أعمال الإرهابيين ضد الدولة، وإنما الإرهاب من قبل الدولة نفسها، وتساءلت الصحيفة: «لماذا الاحتفاظ بالهكسوجين في قاعدة خدمة خاصة، ولماذا كان معبأ بأكياس من السكر؟»، وتابعت: «وفقًا لخبراء المتفجرات يصعب تخزين أو نقل كميات بهذا الحجم؛ لأن هذا الأمر خطير جدًّا؛ فنصف كيلو يكفي لنسف مبنى صغير»[20]. وألمحت الصحيفة إلى أن زيادة شعبية بوتين وظهوره قد لا تكون هدية إلهية بعد هذا كله، وإنما هي نتيجة لخطيئة لا تغتفر. وفي 16 مارس/آذار شُنَّ هجوم إلكتروني دمَّر الطبعة التالية للصحيفة.

FSB التي ظلت صامتة إلى حد كبير في ذلك اليوم بشأن التفجيرات، عقدت مؤتمرًا صحفيًّا لتعلن أن تحقيقاتها كشفت عن شبكة واسعة من المسلحين الذين شاركوا في الهجمات، التي أصر المتحدث باسم الوكالة أنها نظمت داخل الشيشان[21]. وغيرت الـ FSB أيضًا تفاصيل جوهرية في وصفها الجديد، وخاصة تلك التي تنطوي على متفجرات؛ فبدلًا من الهكسوجين، الذي ينتجه الجيش ويحرسه حراسة وثيقة، قال جهاز الأمن الفيدرالي إن الإرهابيين استخدموا مزيجًا أكثر شيوعًا من الأسمدة المنتشرة على نطاق واسع. تلك الأوصاف المتبدلة والمشوشة لـ FSB تحدت حتى أولئك الذين يميلون إلى الاعتقاد بمسؤولية الإرهابيين عن التفجير.

أما بوتين فقد رفض- في مقابلات الحملة التي جُمعت في كتاب **الشخص الأول**- الشكوك التي عدها ضربًا من الجنون، وأضاف: «لا أحد في الخدمات الخاصة الروسية يستطيع أن يرتكب جريمة من هذا النوع ضد شعبه»، ثم قال: «مثل هذا الافتراض ليس أخلاقيًّا؛ إنها جزء من الحرب الإعلامية ضد روسيا»[22]. «من الذين شنوا هذه الحرب؟»، اكتفى بوتين بهذا السؤال.

أثار زغانوف ويافلينسكي الأسئلة العالقة في الحملة الانتخابية، وأوردت هذه الاتهامات قناة NTV، الجزء المستقل من تكتل وسائل الإعلام الذي يملكه رجل من القلة، فلاديمير جوسينسكي. عقدت NTV نقاشًا في صالة البلدة للمقيمين في ريازان، ناقشوا فيه المتحدث باسم جهاز الأمن الفيدرالي، وسخروا من إجاباته غير المقنعة، ثم عند نقطة معينة رفع المتحدث صندوقًا مختومًا، وأصر على أنه يحتوي على جميع الأدلة، وإن كان- بلا ريب- لا يستطيع فتحه، وكان أداؤه منافيًا للعقل.

وعلى الرغم من النفي الرسمي، بدأت وسائل الإعلام وبعض المعارضة بجمع الحوادث الفردية والتقارير التي تؤيد حدوث مؤامرة لدفع بوتين إلى الفوز. مقالات في الصحف المحلية والأجنبية في الصيف قبل التفجيرات، التي قوبلت بالتجاهل إلى حد كبير، تبدو اليوم صوابيةُ توقعاتها على نحو مخيف، على الرغم من أن الدافع المفترض في ذلك الوقت كان إعلان حالة الطوارئ، وإلغاء الانتخابات البرلمانية، لا البدء بحرب جديدة في الشيشان، أو دفع مدير مجلس الأمن الروسي ليلتسين ورئيس جهاز الأمن الفيدرالي إلى الكرملين. ففي يوليو/تموز 1999م، على سبيل المثال، تحول ألكسندر زهيلين، العقيد المتقاعد في الجيش، إلى صحفي، وقد نشر مقالًا في موسكوفاسكايا برافدا بعنوان: (**العاصفة في موسكو**)، توقع فيه (هجمات إرهابية) ضد مبان حكومية، والهدف منها- كما كان يدعي- تشويه سمعة العمدة لوجكوف[23].

اتصالات بيريزوفسكي الوثيقة مع الشيشان ومتمردين آخرين في القفقاز- التي أقامها في أثناء حرب الشيشان الأولى وبعدها- أوحت إلى أعدائه الكثر بأنه قد يكون متورطًا في منع تحالف لوجكوف وبريماكوف، وقد اعترف- وهو الذي خاض الانتخابات وفاز بمقعد برلماني عن جمهورية الشيشان في مكان قريب من كرتاشييفو- بلقائه المقاتلين الشيشان، ومن بينهم باساييف، وتقديم مدفوعات كبيرة لهم لتحرير الرهائن المختطفين. وأشارت نسخة مزعومة عن محادثات هاتفية لبيريزوفسكي مع زعيم الشيشان، مولادي أودوغوف، إلى أنهما ناقشا موضوع التوغل في داغستان، ويفترض بأنه استفزاز لتسويغ الغزو. وأكد بيريزوفسكي أن الأشرطة جرى عليها شيء من التحرير، وإن لم ينف أن المحادثات قد جرت.

يعتقد نقاد بيريزوفسكي أنه كان على المحك في مرحلة ما بعد انتقال يلتسين، مثل أي شخص آخر، يتوقف عند أي شيء للاحتفاظ بثروته ونفوذه، فقد كتب الخبير المالي جورج سوروس: «بيريزوفسكي يرى العالم من منظور مصالحه الشخصية»، وكان سوروس قد عمل على نحو وثيق مع بيريزوفسكي حتى تنازعا على مزاد الاتصالات، وأصبح ينظر إليه على أنه شخص مخادع، كما فعل من قبل عديد من شركاء الأعمال السابقين لبيريزوفسكي، وأضاف: «لا يجد أي صعوبة في إخضاع مصير روسيا لمصيره»[24].

كانت هناك حجج مضادة تدعم نسخة الـ FSB عن التفجيرات، ولكن لم تخرج عن اتهام المتطرفين الشيشان- والمقاتلين من أمثالهم في التفكير في الجمهوريات الإسلامية الأخرى- الذين ينفذون أعمالًا إرهابية، بعد كل شيء. منطق المؤامرة السياسية تجاهل أيضًا حقيقة أن النخبة السياسية عارضت بشدة حربًا جديدة لأسباب باتت اليوم نبوئية. وكان ينظر إلى شنِّ الحرب في صيف عام 1999م على أنه التزام، وليس شيئًا مفيدًا. واليوم بعد النجاحات العسكرية في وقت مبكر، وجميع أحاديث بوتين المتشددة، أصبحت الحرب عائقًا أمام شعبية بوتين الواسعة، بعد أن كانت هي الثقل لشعبيته في البداية. وقد وجدت دراسة عن الناخبين الروس أن الحرب في الشيشان كانت القرار الأسوأ الذي اتخذه الرئيس في الأشهر الثمانية في السلطة، (وهي توازي تحركه لزيادة المعاشات والأجور بصفته أفضل

قرار اتخذه)[25]. علاوة على ذلك، فأي مؤامرة لا بد من أن توضع قيد التنفيذ أمام أي شخص، حتى بوتين نفسه كان يعلم أنه سيصبح رئيسًا للوزراء، فضلًا عن خليفة يلتسين المُلَمع.

الدليل على أي إصدار لم يكن حاسمًا في كل الأحوال؛ لأن FSB في عهد بوتين عادت إلى ما يشبه السرية السوفييتية؛ فتكتمت على جوانب التفجيرات وأحداث ريازان. وقبل أيام من الانتخابات أعدَّ التكتل الشيوعي وحزب يابلوكو في مجلس الدوما مسوَّدة قرار يطلب التحقيق الرسمي فيما حدث في ريازان، ولكن صوت له فقط 197 نائبًا، وهو يحتاج إلى 226 صوتًا لتمريره، وقد صوَّت ضد المشروع مؤيدو بوتين جميعهم، وهكذا فإن التضييق على لجنة تحقيق برلمانية لحل النظريات المتنازع عليها زرع شكوكًا عميقة وأكثر قتامة.

في بداية رئاسة بوتين برز لغز سيخيم على روسيا لسنوات، لغز لم يتوقف عن المطالبة بالحل، وقد توفي مشرعون وصحفيون مستقلون تعقبوا هذه المسألة بمثل هذا الانتظام المقلق، لذلك كان من الصعب أن يُنْظر إلى وفاتهم على أنه مجرد مصادفة، حتى إن ميخائيل كاسيانوف، أحد المقربين من بوتين، والمسؤول في وزارة المالية خلال السنوات الأخيرة ليلتسين، جاهد لفهم وقائع التفجيرات المروعة، ثم قال بعد أكثر من عقد من الزمان: «لا أعرف».

يوم 3 يناير/كانون الثاني، بعد يومين من توليه الرئاسة بالوكالة، عرض بوتين على كاسيانوف العمل رئيسًا للوزراء، على الرغم من أنها ليست رسمية حتى بعد انتخابه. وفي ذهن بوتين أسس واضحة جدًّا: كاسيانوف موالٍ للحكومة ومتخصص في الميزانية والاقتصاد، ولكن الأجهزة الأمنية ستبقى في قبضة بوتين، وفكرة أن التفجيرات التي قتل فيها نحو ثلاث مئة من المدنيين الأبرياء قد تكون من صنع الحكومة التي انضم إليها في عهد الرئيس الجديد، أو من العناصر المارقة من داخلها، ولكنها ستبقى بكل بساطة شرًّا لا يمكن أن يتصوره كاسيانوف الذي قال: «أنا لا أعرف، ولا أريد أن أصدق أن ذلك صحيح»[26].

بوتين كوَّن فريقًا سياسيًّا من دائرة من الناس يمكن أن يثق بهم؛ وهذا يعني أنهم من أصدقائه الذين اعترف بأنهم قلة؛ «لدي أصدقاء، بطبيعة الحال، هم- للأسف أو ربما لحسن الحظ- ليسوا كثرًا»، قال للصحفي ميخائيل ليونتييف خلال مقابلة لفيلم وثائقي عن سيرته الذاتية التي نشرها التلفاز الحكومي قبل الانتخابات. «لأنه في ذلك الوقت، أنت تقوِّم من يكون من أصدقائك أكثر؛ وهؤلاء هم الناس الذين كسبت صداقتهم لسنوات عديدة، بعضهم من أيام الدراسة، وبعضهم الآخر من أيام الجامعة. طبيعة العلاقة بيننا لا تتغير، ولم أستطع أن ألتقيهم كثيرًا في الآونة الأخيرة، لكن الاجتماع بهم لا يزال يجري بانتظام».

خلال الحملة الانتخابية، خسر واحدًا من هؤلاء القلة؛ وهو أناتولي سوبتشاك، الذي عاد إلى بطرسبورغ في صيف عام 1999م بعد أن رجع من منفاه في فرنسا، وقد استقبل كما لو أنه ابن ضال. واليوم بعد أن وصل بوتين إلى قمم السلطة، تبخرت تلك القضايا الجنائية التي طاردت سوبتشاك في الخارج فجأة، وحاول استعادة مجده الذي تمتع به عام 1991م، بالبحث عن مقعد في مجلس الدوما، في ديسمبر/ كانون الأول، ولكن نجمه السياسيَّ أفل وخسر، وعلى الرغم من ذلك فقد أقحم نفسه في انتخابات رئاسة بوتين، يقود حملة نشطة لمساعده السابق.

في ليلة 18 فبراير/شباط، في كالينينجراد، توفي فجأة بنوبة قلبية على ما يبدو في غرفته في الفندق، على الرغم من أن الشائعات تغاضت عن أسباب أخرى قد تكون التسمم[27]. حتى بوتين نفسه أكد التكهنات، مع غضبه وحزنه على موت سوبتشاك، وصرَّح لإذاعة بالتيكا في بطرسبورغ: «أناتولي سوبتشاك لم يمت فقط، لقد هلك لأنه كان مطاردًا»، وبذلك بات اليوم تأكيد بوتين وجوبَ طرد يوري سكوراتوف مفهومًا، فسكوراتوف هو الذي أطلق التحقيقات الأولى في شؤون سوبتشاك، ومن ثم فدور بوتين في إسقاط المدعي العام كان له غرض سياسي، وله أيضًا بعد شخصي عميق. وفي جنازة سوبتشاك ألقى بوتين كلمة مدح بها الفقيد ودعاه (سيدنا)، و(أحد آخر الرومانسيين)، وشاهدت روسيا للمرة الأولى زعيمها الجديد يذرف الدموع.

في مايو/أيار 2000م واجه قادة البروتوكول في الكرملين مشكلة لوجستية لدى إعدادهم افتتاح حفل تنصيب الرئيس الجديد لروسيا؛ فمنذ عقد الستينيات والأمناء العامون الجدد للاتحاد السوفييتي يُقْسمون اليمين في قصر المؤتمرات ذي الخرسانة والزجاج الحديث، وفي مفارقة تاريخية معمارية تشوب النزاهة التاريخية للكرملين فقد تُوِّج القياصرة في القرن الخامس عشر في كاتدرائية العذراء، وعندما أعيد انتخاب بوريس يلتسين تخلى عن المكانين، وأقام منصة في الهواء الطلق ليستطيع نقلها فقط إلى القصر السوفييتي القديم بسبب حالته الصحية المتردية. كان يلتسين مريضًا جدًّا، يمشي بتوتر، ويتحدث بارتعاش، ولم يكن قادرًا على إلقاء الخطاب الافتتاحي، وأدى اليمين الدستورية من خلال جهاز التلقين[28]. أما بوتين فجرى حفل تنصيبه في قاعة سانت أندرو في قصر الكرملين الكبير، مقر الإقامة الإمبراطوري السابق الذي بني بتوجيهات من نيكولاس الأول. مخططو الكرملين كانوا يعرفون بدقة العدد الذي يمكن أن يستوعبه قصر المؤتمرات، ولكن لم تكن لديهم فكرة كيف سيكون امتلاء القصر الكبير مناسبًا، ولمعرفة ذلك كانوا يحركون الجنود للاصطفاف في حالة استعداد، ويعُدُّونهم[29]، فلم يدخروا أي جهد للخوض بأدق التفاصيل.

يوم 7 مايو/أيار، وسط أبهة إمبراطورية جديدة، شهد ألف وخمس مئة شخص الرئيس الجديد يؤدي القسم الدستوري الذي سيجعله الرجل الأول في موسكو، وفي القاعة التي جددها بافل بورودين في التسعينيات، وتسببت بالفضيحة ليلتسين وحاشيته. لم يكن بورودين يتخيَّل أن هذا المريب، النائب العنيد الذي أُرسل إلى مكتبه قبل أقل من أربع سنوات، سيكون في يوم ما الرجل الذي يضع يده على الدستور الجديد في تلك القاعة. في كل حركة كانت المقارنة والتناقض بين يلتسين وبوتين ماثلة في وعي الملايين الذين يتابعون ذلك المشهد، إما في القاعة أو على شاشات التلفاز.

يظل بوتين سياسيًّا مبتدئًا، وبدا كأنه ممثل يصعد خشبة المسرح لأول مرة، وقد وصل إلى مدخل جانبي للقصر الكبير في منتصف الليل بمرسيدس زرقاء، ظهر وحده، حيًّا حارس

الاحتفالية عند الباب، وصعد سبعًا وخمسين درجة من درج القصر الضخم، ثم انتقل بعناية وتؤدة إلى السجادة الحمراء التي غطت الممرات الكبرى للقصر، وتتبعت الكاميرات موكبه المتقن وهو يمر وسط تصفيق الضيوف المزدحمين وراء الحبال الحمراء كما هو حال الجنود. بدا بوتين صغيرًا في قاعات ضخمة، وكان يرتدي بدلة داكنة وربطة عنق رمادية، وذراعه اليسرى تلوح بثقة، وكانت يمناه ثابتة على جانبه؛ ربما بسبب الكسر الذي أصابه في قتال عام 1984م الذي جعل سيرته المهنية في الـ(كي جي بي) في موضع ريبة، وبمشيةِ تيهٍ متميز قطع تلك المئات من الأمتار، وهو ما لم يجرؤ يلتسين على فعله في أعز أيامه تحت ضوء الكاميرات التلفازية الحيَّة.

كان من بين الضيوف أعضاء في البرلمان، والمحافظون، وكبار القضاة، ورجال الدين في روسيا من أربعة أديان؛ المسيحية الأرثوذكسية والإسلام والبوذية واليهودية. وحضر الحفل ميخائيل جورباتشوف، الذي تجاهله يلتسين جليًّا في حفل تنصيبه عام 1996م، حضر وكأنه شبح من عصر آخر. وحضر كذلك فلاديمير كريوتشكوف، رئيس الاستخبارات الـ(كي جي بي)، الذي قاد انقلابًا فاشلًا للإطاحة بجورباتشوف، ومن ثم فرمزية الحضور المشترك لكليهما تظهر رغبة بوتين في الوحدة بعد الاضطرابات التي شهدتها البلاد خلال العقد السابق. كان يلتسين شاحبًا ومنتفخًا، وظهر معه على المنصة ليشهد تأدية القسم الذي أقيم بدقة عند الظهر. وخلال الكلمة المقتضبة للرجل العجوز، ومضت أضواء جهاز التلقين، وأجبرته على التوقف طويلًا، حتى ظن الجمهور أنه قد أنهى كلمته فصفق له[30]، في حين أن بوتين، الأصغر منه سنًّا بعقدين، تحدث بحديث واضح وكاسح عن هذه اللحظة التاريخية التي وصفها بأنها أول انتقال سلمي ديموقراطي لكامل السلطة في البلاد منذ 1100 سنة (أخفق حتى في التلميح إلى التزامن الذي أوجده يلتسين). ورَبَط الحفلُ التاريخَ الذي تتنازع عليه البلاد، والمنقسم على معنى ماضيه ومن ثم حول مستقبله. وتغاضى بوتين في كلمته عن «الفصول المأساوية والفصول الكبيرة على حد سواء»، تاركًا للجمهور أن يقرر أيًّا من تلك.

وبعد انتهاء الحفل أطلقت المدافع التحية من ضفة نهر موسكو، وفي الداخل غنت جوقة أغنية الخاتمة (الحياة من أجل القيصر)، لميخائيل جلينكا، التي كُتبت عام 1836م تأبينًا لوفاة جندي في الحرب ضد بولندا، وأعيدت كتابتها في زمن الاتحاد السوفييتي باسم (**إيفان سوزانين**)؛ في إشارة إلى إزالة الجلالة عن القيصر. لبوتين، غنت الجوقة الأشعار السوفييتية.

بعد خروج بوتين من القصر الكبير حضر عرضًا عسكريًّا داخل حرم الكرملين، والتقى ألكسي الثاني، بطريرك موسكو وسائر روسيا، رئيس الكنيسة الأرثوذكسية، ثم وضع إكليلًا من الزهر على قبر الجندي المجهول، الذي يقع خارج أسوار الكرملين، وكان شعورًا بالتتويج بقدر ما هو نقل ديموقراطي للسلطة. وأصبح لروسيا زعيم جديد جيء به عن طريق صناديق الاقتراع، لكن يبقى السؤال الصغير: إلى أين سيمضي بروسيا؟

تسلُّم بوتين لزمام السلطة قيَّد حياته العائلية؛ فبعد أن سمح لبنتَيه، ماشا وكاتيا، اللتين كانتا في السادسة عشرة والخامسة عشرة من عمريهما، بإجراء المقابلات لسيرة الحملة، اختفتا من الحياة العامة، وأصبحت خصوصياتهما تحت حراسة مشددة من الكرملين؛ فلا صور لهن إلا نادرًا، ولا حتى مع والديهما، ولم تكن هناك أي صورة للعائلة الروسية الجديدة الأولى في روسيا.

درست البنتان في المنزل مع معلمين ومعلمات، لا يتعلمن فقط الألمانية، وإنما أيضًا الفرنسية والإنجليزية. وفي المقابلات، ظهرتا بصورة طبيعية واعتيادية، وتحدثتا كمراهقتين طبيعيتين، تستهويهما الأفلام الأجنبية مثل ماتريكس Matrix، ولكنهما لا تغامران بالخروج دون الحراس الشخصيين لهما. واشترى لهما والداهما كلبًا أبيض اسمه **توسكا**، وهو أول كلب للأسرة منذ أن قتل كلب غنمهم القفقازي بحادث السير في بطرسبورغ. قالت ليودميلا إن زوجها دلل البنتين دلالًا بالغًا، لكنها اعترفت أنهما «لا تشاهدانه في كثير من الأحيان إلا على شاشات التلفاز في المنزل».

كان لديهم خدم وطبَّاخ، وهو الذي أنقذ ليودميلا من الإحباطات التي شعرت بها عندما طبخت أول مرة في بداية حياتها الزوجية. لم تكن حياتهما معًا بالحياة التي يمكن أن تسيطر عليها وتنظمها، حتى قالت: «لا أُخطط بعد اليوم، كنت أخطط، وعندما تنهار الخطة أنزعج جدًّا، لكن أفهم اليوم أنه من الأسهل لي ألا يكون هناك خطط لقضاء العطلات المشتركة، أو العطل أو الإجازة، حتى لا أصاب بخيبة أمل»[31].

كانت خبرة روسيا، كما الاتحاد السوفييتي، قليلة حول زوجة الزعيم، وما يمكن أن تضطلع به من دور عام بصفتها سيدة أولى، فقط زوجة جورباتشوف الأنيقة، رايسا، كانت ترافقه في كثير من الأحيان في أسفاره، وتبنت قضايا عامة، لكن ظلت هذه بدعة ولم تكن موضع ترحيب عام. أما زوجة يلتسين فكانت تزدري الظهور وتتجنبه إلى حد كبير، وكذلك فعلت ليودميلا، وقد عملت في عامي 1998م و1999م، لوقت قصير، ممثلة لشركة الاتصالات، التي لها فروع في بطرسبورغ وترتبط بصديق للعائلة، ليونيد ريمان، الذي شغل منصب وزير اتصالات في حكومة بوتين، وكانت تحصل على ما يعادل 1500 دولار في الشهر، ولكنها تركت العمل عندما أصبح زوجها رئيسًا للوزراء، على الرغم من أن بعضهم قال إنها ظلت منخرطة بصفقات تجارية[32].

اليوم لكونها السيدة الأولى فقد انضمت إلى زوجها في الأحداث الرسمية، وخاصة مع كبار الشخصيات الزائرة، مثل توني بلير، الزعيم الغربي الأول الذي التقى بوتين بعد صعوده غير المتوقع، فأخذت عائلة بوتين عائلة بلير إلى مسرح مارينسكي في بطرسبورغ لمشاهدة أداء الأوبرا لسيرجي بروكو عن الحرب والسلام. في البداية بدا أنه سيكون لها دور عام أكثر، وبعد حفل التنصيب تبنت قضية محو الأمية، وتشجيع القراءة واللغات، وأسست مركز تطوير اللغة الروسية، الذي نظم المشاريع بهدف (تعزيز مكانة) الثقافة الروسية حول العالم[33]. وباستثناء لقاءات ذات طابع إنساني لم يكن لليودميلا أي دور في الحملة الانتخابية لزوجها، ولا في حكمه. وكان بوتين نفسه ينزعج حتى من الأسئلة الأكثر إيجابية عن حياتهما معًا، وعندما سأله ميخائيل ليونتييف بكل تهذيب هل لديه الوقت لرؤية عائلته، أجاب بوتين

باقتضاب: «أراها»، وأعقب تصريحه قطع ملحوظ في المقابلة. وحينها صُدم ليونتييف من حالة المنزل الذي يقطنه بوتين الذي استخدمه من قبل رؤساء وزراء في العقد السابق، إذ ظلت الصناديق- بعد ستة أشهر في منصبه- مبعثرة، وهذا ما يدل على الإقامة المؤقتة. أجاب بوتين: «كنا نعيش في مساكن مؤقتة منذ عام 1985م، وهكذا نحن؛ نتحرك باستمرار من مكان إلى آخر، ونفكر في منازلنا كما لو كانت ثكنات؛ لكن للأمانة ثكنات أنيقة جدًّا. يمكن أن تعيش هنا وأنت مرتاح جدًّا، إنما مؤقتًا، مسكن مؤقت، نحن نعيش كأننا جالسون على حقائب معبأة لدينا».

في براءة ذمته المالية، التي يتطلبها القانون، ذكر بوتين أنه يملك ثلاثة عقارات، من ضمنها المنزل الريفي خارج بطرسبورغ الذي أعيد بناؤه بعد احتراقه، وأدرج في التعاونية مع رجال أعمال آخرين من بطرسبورغ، ومن ضمنهم اثنان من المتورطين في فضيحة الغذاء المبكرة؛ فلاديمير ياكونين ويوري كوفالتشوك. واجهت التعاونية طعنًا قانونيًّا من القرويين في المنطقة[34]، ولكن نجح الثمانية في تأمين سند ملكية لشاطئ البحيرة وما حولها، وحولوها إلى حيٍّ مسوَّر- يقال- مع حساب مصرفي مشترك بحيث يستطيع أن يستخدمه أي من المالكين لإيداع الأموال أو سحبها نقدًا[35]. وأعلن بوتين كذلك أنه يمتلك أكثر قليلًا من 13 ألف دولار في حسابات ادخار مختلفة، وهي ما يجعله- وفقًا للمعايير الروسية- رجلًا ثريًّا إلى حد معقول، لكن ليس مليونيرًا كبيرًا (كما هو حال مدخرات معظم الروس الذين فقدوا قيمة كثير من مدخراتهم بعد تخفيض قيمة الروبل في عام 1998م). ربما أغفل بعض الأصول في الكشف عن ذمته المالية، كما يفعل كثير من السياسيين عادة؛ لأن كثيرًا من ثروة روسيا بقيت في الظل غير مكشوفة في الاقتصاد غير الحكومي، لكن ما ذكره هو قبل رئاسته على الأقل، فقد عاش بوتين وعائلته على ما يبدو حياة متواضعة، وحتى ذلك الحين لم يكن لديهم ضمان للمستقبل، مثل معظم الروس الذين يخشون أنه في لحظة ما قد يصبح أي شيء لا قيمة له مرة أخرى.

رأى بوتين في تجربته الشخصية مصير كل روسيا، وقال في مقابلة تلفازية مع ليونتييف: «على مدى السنوات العشر الماضية كانت البلاد كلها تعيش على هذا النحو، وهذا يعيدنا إلى المشكلة التي بدأنا بها؛ مشكلة الاستقرار»[36]، وكان الاستقرار الذي وعد به قد أوجده لنفسه اليوم، فقد تغيرت أحوال العائلة اليوم على نحو لا رجعة فيه؛ ففي مايو/أيار انتقلت عائلة بوتين إلى مسكن جديد في مجمع مُشجَّر متاخم لنهر متعرج يدعى نوفو- أوجاريوفو، والعقار بني في الخمسينيات، وكان بمنزلة دار ضيافة للحكومة إلى أن أصبح مقر إقامة بوتين الرسمية. كانت تسمى المنطقة المحيطة به روبليوفكا، وسرعان ما ظهرت القصور الأخرى في مكان قريب منه، إذ انجذب إليها المشترون القريبون من السلطة، وأصبحت واحدة من أغلى الأماكن في العالم للعيش بها، وظلت عائلة بوتين هناك سنوات قادمة.

الرجال الذين كان بوتين يعمل معهم في بطرسبورغ تحت إمرة سوبتشاك انضموا اليوم إليه في المراتب العليا من الكرملين، وكان من بينهم ديمتري ميدفيديف، الذي أصبح نائبًا لرئيس الموظفين، وألكسي كودرين، الذي ساعده مرارًا وتكرارًا في الطريق إلى موسكو، وأصبح وزيرًا للمالية، وتقلد أصدقاؤه في الـ(كي جي بي) السابق- فيكتور شيركيسوف، وفيكتور إيفانوف، وسيرجي إيفانوف- المناصب الأمنية العليا. وثبت بوتين عددًا من الأصدقاء من مسقط رأسه، حتى إن حكومته أصبحت تعرف باسم **عشيرة بطرسبورغ**، وكانت تنظر إليها على نحو مريب النخبةُ السياسية في موسكو، التي كانت تستخدم احتكار السلطة والعلاوات لها.

تكهن كثيرون، من غير دليل، أنه نقل العاصمة الروسية إلى بطرسبورغ مرة أخرى، كما فعل من قبل بطرس الأكبر. ولحماية نفسه من المؤامرات السياسية البيزنطية في موسكو، تحول بوتين إلى الذين يثق صراحة بهم، وأصبحت الشخصنة ملحوظة في السلطة في الكرملين، عاكسة عدم ثقته العميقة بالنخبة السياسية في البلاد، وقال معترفًا: «لدي كثير من الأصدقاء، ولكن عددًا قليلًا منهم فقط مقربون مني»، وأضاف: «لم يبتعدوا عني، لا أحد منهم خانني، وأنا لم أخذلهم أيضًا»[37].

احتفظ بوتين ببعض الحلفاء البارزين ليلتسين ضمن فريق موظفيه، من بينهم رئيس الموظفين، ألكسندر فولوشين، وأناتولي تشوبايس، الأب اللعين لـ(العلاج بالصدمة)، الذي بقي الرئيس المحتكر للكهرباء الحكومية، ولكن سرعان ما تغيَّر الطابع الهرمي في الكرملين تغيرًا كبيرًا ودراميًّا.

عيَّن بوتين رسميًّا يوم تنصيبه رئيس وزرائه ميخائيل كاسيانوف، الذي تدرج في المناصب في عهد الاتحاد السوفييتي وبعده، فتسلم الاقتصاد ووزارة المالية خلال فترة ما بعد الاتحاد السوفييتي، وكان يعرف باسم **المفاوض البراغماتي** الذي يحترمه نظراؤه في الغرب، وأطلقت عليه وسائل الإعلام اسم (ميشا اثنين في المئة)؛ بسبب شائعات بأنه يقتطع نسبة في الصفقات التي يتفاوض عليها مع المصرفيين، وهو ما نفاه بشدة، ولكن موثوقيته بصفته اقتصاديًّا ليبراليًّا كانت لا جدال فيها، وتعيينه يشير إلى التقبل الثابت والمتأني لفكرة الخصخصة عند بوتين التي جرت في التسعينيات.

الأهم من ذلك أنه بعد الاضطرابات السياسية التي أعقبت تعيين ستة رؤساء وزراء منذ عام 1998م، لم يثر تعيين كاسيانوف أزمة دستورية جديدة مع البرلمان.

خيارات بوتين السياسية المبكرة عكست الإصلاحات الليبرالية التي هللت لها الشركات الكبرى في الداخل والخارج؛ فقد فرض على الدخل الثابت ضريبة دخل 13 في المئة على الأفراد، وخفض الضرائب على أرباح الشركات من 35 إلى 24 في المئة منذ يناير/كانون الثاني 2002م، وتعهد بأن تخفض روسيا الضرائب، ولكن توقع أيضًا أن يدفعها الناس والشركات بعد عقد من الزمن كان يتجنبها فيه كل روسي بأي وسيلة متاحة. اعتمدت حكومة بوتين الجديدة رموزًا للأراضي التي تسمح ببيع الملكية الخاصة وشرائها، واتجهت إلى مأسسة قواعد العمل التي تحكم العمل في القطاع الخاص، وإزالة بعض الشكوك التي أصابت الاستثمار بالشلل ودعت للفساد وغياب القانون. وهكذا؛ بدعم ارتفاع أسعار النفط،

والانتعاش البطيء الافتراضي لعام 1998م، فإن روسيا لأول مرة توازن ميزانيتها، وبدأت بتسديد ديونها لصندوق النقد الدولي وآخرين، وحسب الموعد المحدد.

لم تكن رئاسة يلتسين منتظمة، ولكنها وضعت الأساس لازدهار اقتصادي، وتضاعف الناتج المحلي الإجمالي- الذي نما بنسبة 5% في عام 1999م- في العام الأول لرئاسة بوتين، ثم سجل أكثر من 6 في المئة على مدى السنوات السبع القادمة[38].

وبعد أن كانت الرأسمالية الغربية المتوحشة في التسعينيات قد خلقت طبقة عليا منحلة، ومجموعة من المحال التجارية والمطاعم والنوادي التي تلبي أذواقًا حصرية تبعث على السخرية، باتت ثمار اقتصاد السوق اليوم تنساب إلى الصفوف المتوسطة من المجتمع، وخصوصًا في موسكو وغيرها من المدن، وبدا بوتين مديرًا مختصًّا كَفِيًّا بعد أن كان تلميذًا في بطرسبورغ وموسكو.

جسد بوتين تناقضات التقدم الروسي، الواقعة بين الديموقراطية الحديثة والتقاليد السوفييتية التي لم تهتز بعد، وعكست خطواته الأولية انقسام الآراء حول قيادته وفقًا للجانب الذي يقف عليه بوتين، وبدا بوتين نفسه يجاهد في بعض الأحيان ليقرر الجانب الذي سيقف معه، ومع ذلك؛ في غضون أشهر قليلة قدم للروس استراحة من الفوضى المزمنة لسنوات يلتسين، وكان هدفه عدم تسريع انتقال روسيا إلى الرأسمالية والديموقراطية، بل التحرك الحذر، لتوفير القدر الذي يريده معظم الناس- كما كان يقول مرارًا وتكرارًا- من الاستقرار. وبينما كانت تتصاعد الحرب في القفقاز بعيدًا، نجح هو إلى حد كبير.

يوم 11 مايو/أيار، بعد أربعة أيام من تنصيب بوتين، عشرات من رجال الـ FSB اجتاحوا مقر أكبر شركة إعلامية خاصة في روسيا وسط مدينة موسكو (موست ميديا)، وكان من ضمنها القناة التلفازية الشهيرة NTV. وصلوا في الصباح، وأصدروا الأوامر لموظفي الكافتيريا، وعلى امتداد ساعات مشَّطوا المكاتب، واستولوا على وثائق، وأجهزة حاسوب، ومن بين الأشياء الشاذة الأخرى مسدس مزخرف لصاحب الشركة، فلاديمير جوسينسكي[39].

بداية حياة جوسينسكي كانت شبيهة بحياة بوتين؛ فقد ولد قبل بوتين بيوم واحد، في 6 أكتوبر/تشرين الأول 1952م، وعاش في شقة بغرفة واحدة مع والديه المحبين غير المتعلمين، وكان والده أيضًا محاربًا قديمًا شارك في الحرب الوطنية العظمى وعاملًا في مصنع. ومثل بوتين، يعد نفسه «من منتجات الشارع»، الذي فيه تعلم الدفاع عن نفسه ضد السكارى والبلطجية في باحات مبنى سكني سوفييتي قاتم.

انتهت أوجه التشابه هناك، إذ توفي جد جوسينسكي في عمليات التطهير التي أمر بها ستالين، وعلى الرغم من ذلك خدم جوسينسكي في الجيش، وانخرط في صفقات السوق السوداء، وفي نهاية المطاف احترف الإعلام[40]. جميع هذه الجوانب لديه؛ تعليمه وتجاربه، وهو اليهودي، في البيروقراطية السوفييتية المتعصبة، جعلته يتمرد على النظام الذي أصبح بوتين مخلصًا له. وأصبح من الأثرياء على نحو مذهل، وفتح شركة استشارية في نهاية الثمانينيات، وصادق البيروقراطي يوري لوجكوف الذي يشرف على الفواكه وأسواق الخضراوات في المدينة. وسرعان ما توسع عمله التجاري في الخدمات المصرفية وإعادة بناء المساكن، ووسائل الإعلام التابعة له. وسميت (ميديا موست) بهذا الاسم بعد اطلاعه على شبكة الأتمتة المصرفية التي شاهدها خلال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية، وأنشأ صحيفة (سيفودنيا)، وأنشأ في وقت لاحق شبكة NTV، التي أثارت في نهاية المطاف غضب بوتين.

أصبحت NTV أول شبكة تلفازية حديثة خاصة في روسيا، مع قسم الأخبار المشاكسة الذي أثار حفيظة الكرملين أيام يلتسين، للتقارير الناقدة والمثيرة في كثير من الأحيان. ومثلما استخدم بيريزوفسكي القناة الحكومية ORT، لمهاجمة معارضي يلتسين قبل الانتخابات في عام 1999م، استخدم جوسينسكي NTV أداة ضغط ضد (حاشية) يلتسين. وكان التنافس بين قطبي التلفاز شخصيًا جدًّا ومكثفًا على رئيس الأمن السابق ليلتسين، ألكسندر كورزهاكوف، الذي ادعى أن بيريزوفسكي طلب منه اغتيال جوسينسكي[41].

بقيت NTV محافظة على تغطيتها الحرجة خلال حملة بوتين، وبثت فيلمًا وثائقيًّا عن تفجيرات الشقق السكنية التي ألمحت بها إلى التورط الحكومي، والأسوأ من ذلك- من وجهة نظر الكرملين- أنها لم تتورع عن تغطيتها للحرب في الشيشان بكشف حجم الوحشية والمعاناة، وهو ما لم تَعْتَد القنوات الحكومية على فعله. لم يدرك صاحب قناة NTV، والصحفيون العاملون بها، بسرعة أن الكرملين لم يعد يتسامح كثيرًا في الانتقادات في ظل زعيمه الجديد. وكان بوتين يكره الطريقة التي صُوِّر بها في البرنامج الأسبوعي للقناة (دمية ساخرة) الذي يُعِدُّه فيكتور شينديروفيتش، وينتقد فيه السياسيين في البلاد منذ عام 1994م. ولم يكن الكاريكاتير الذي رُسم به بوتين- إبريق بأذنين وعين عليلة، وصوَّره رجلًا خجولًا أو حاقدًا بالتناوب- باعثًا على الضحك للرئيس الجديد إطلاقًا. وفي إحدى الحلقات بعد الانتخابات في مارس/آذار، صُوِّرت الدمية على شكل القيصر، تطغى عليه طولًا وعرضًا امرأة سمينة، هي العروس التي تمثل كل روسيا، فيهمس القيصر للمعجبين به من حاشيته: «لكنها كبيرة جدًّا وليس لدي تجربة مع أي شيء بهذا الحجم»، ودمية أخرى تمثل كبير الموظفين في القصر، ألكسندر فولوشين، تقول: «فقط تفعل ما فعلناه كلنا لها»[42]. بعدها على الفور أوعز مساعدون في الكرملين للمنتجين بألا تظهر الدمية الرئاسية في الهجاء الأسبوعي.

لم تكن الدوافع وراء مداهمة الشرطة لشبكة ميديا موست واضحة على الفور، وكانت التصريحات متناقضة، كما كانت عن شرطة الضرائب، والمدعي العام، وغير ذلك، ومع ذلك فإن بوتين دافع بشدة عن هذا العمل في اليوم التالي، قائلًا إنه لا يمكن أن يكون أحد فوق القانون، ومن الواضح أنها كانت إشارة أوجدت نمطًا من شأنه أن يصبح مألوفًا؛ فقد صرَّح بوتين عشية الانتخابات: «لن تكون هناك طبقة لهذه القلة»[43]. لم تؤثر المداهمة فورًا في وسائل الإعلام القابضة لجوسينسكي، التي غطت الأحداث بغضب حماسي، وإذ كان بوتين يصر أنه لن يكون هناك قيود على حرية التعبير، فإن أحدًا من جانب جوسينسكي لم يصدقه.

اعتداء النيابة العامة على شبكة ميديا موست تزامن مع أول زيارة رسمية للرئيس كلينتون إلى موسكو في عهد الرئيس الروسي الجديد، ولم يكن بوتين قد وضع السياسة الخارجية في الأولويات من رئاسته، وإن كان في أبريل/نيسان نجح في الحصول على مصادقة مجلس الدوما على اتفاق ستارت الثاني الذي تفاوض عليه يلتسين قبل ما يقرب من عقد من الزمان للحد من الترسانة النووية للولايات المتحدة وروسيا. كلينتون اليوم حريص على إقناع الرئيس الروسي الجديد بقبول الخطط الأمريكية لبناء نظام دفاع صاروخي، على الرغم من القيود التي فرضتها معاهدة الصواريخ البالستية المضادة A.B.M.T، والاتفاق الحاسم في الحرب الباردة الذي يمنع حدوث تصعيد في سباق التسلح النووي. كان يأمل كلينتون أن يجعل الدفاعات الصاروخية أحد إنجازاته الأخيرة قبل مغادرته السلطة، ولكن منذ أن اقترح رونالد ريغان رؤية (حرب النجوم) للدرع الصاروخية، عارض زعماء الاتحاد السوفييتي- ثم روسيا فيما بعد- بشراسة أي مقترحات تسمح لهم بذلك، وبوتين لا يختلف عن سابقيه، فقد كان يخشى من أن النظام الدفاعي البدائي الذي اقترحه كلينتون يمكن أن يقوض في نهاية المطاف آخر نفوذ لروسيا بصفتها قوة عظمى.

وعلى الرغم من أن كلينتون كان يريد أن يعقد صفقة، فإن بوتين رأى أنه من الأفضل التفاوض مع الرئيس الأمريكي المقبل، وقد زاد حذرَه من الأمريكيين تحذيراتُ كلينتون بشأن الحرب في الشيشان، وكذلك عبَّر كلينتون هذه المرة عن رفضه الاعتداء على شبكة ميديا موست حين التقى بوتين، وتحديدًا في المقابلة التي أجراها مع محطة (صدى موسكو) الإذاعية، التي تملكها شركة جوسينسكي. ثم زار كلينتون بعد ذلك بوريس يلتسين، الذي لا يزال يعده صديقًا بعد ثماني سنوات في الحكم، وقال له: «بوريس، لقد احتضنت الديموقراطية في قلبك، وحصلت على ثقة الشعب حتى العظم، بعد أن كنت قد تجشمت المهالك من أجل ديموقراطية حقيقية وإصلاح حقيقي، ولست متأكدًا أن بوتين يمتلك ذلك»، وانتهت الزيارة[44].

انتهت زيارة كلينتون على نحو غير حاسم؛ فلا هو كسب تأييد بوتين للتغييرات التي من شأنها أن تسمح بالدفاعات الصاروخية، ولا بوتين أصغى لتشجيعه على احترام حرية وسائل الإعلام، فبعد تسعة أيام من مغادرته، استدعى النائب العام الجديد، فلاديمير أوستينوف، جوسينسكي، ظاهريًّا لاستجوابه حول رصاص المسدس المزخرف الذي وجد في مقر إقامته، وبعد وصوله في وقت متأخر ألقي القبض عليه على الفور.

في 12 أغسطس/آب، وفي أثناء شهر الكسل من العطلة الصيفية، انتهى بوتين من الجولة الأخيرة من الاجتماعات مع مستشاريه للأمن القومي في الكرملين، ثم غادر مع عائلته إلى سوتشي على البحر الأسود، المنتجع المحبوب من قبل القادة السوفييت على مدى عقود، ومكثوا في منزل ريفي للرئاسة كان هو وليودميلا معجبَين به عن بعد خلال حكم بريجنيف.

كان لا يكاد يمتلك وقتًا للراحة، وفي صباح اليوم التالي تلقى اتصالًا هاتفيًّا من وزير الدفاع، المشير إيجور سيرجييف. القدوم في ساعة مبكرة لا يمكن أن يعني سوى الأخبار السيئة، وسيكون أخطر اختبار لرئاسته الوليدة.

أحدث غواصة روسية نووية (كورسك) فقدت الاتصال مع الأسطول الشمالي خلال تدريبات في بحر بارنتس. كان بناء كورسك بدأ في زمن الاتحاد السوفييتي، واكتمل في عام 1994م، وعندما وصل الجيش العظيم في البلاد إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ما بعد السوفييتي كان فخر البحرية الروسية سفينة حربية عملاقة ترمي إلى محاربة حاملات الطائرات الأمريكية، واليوم باتت في عداد المفقودين في المياه الإقليمية قبالة مورمانسك ولا أحد يعرف لماذا. ويبدو أن سيرجييف قد ضلل بوتين عن شدة الأزمة، ربما لأنه نفسه ضُلِّل من قبل البحرية، وكان قائد أسطول الشمال، الأميرال فياتشيسلاف بوبوف، أصدر بيانًا أعلن فيه نجاح التمرينات، لكن لم يشر إلى الكارثة التي لم تكن على ما يبدو فقط للقادة الروس، وإنما أيضًا للجيوش الأجنبية الأمريكية وغيرها، الذين كانوا يراقبون هذه العملية من كثب. وحالما غادر بوتين موسكو، كان انفجار قد هز قوس كورسك، نجم عن إطلاق طوربيد

بالخطأ، وقد أشعل الانفجار حريقًا في مقصورات الصدارة، تبعه بعد دقيقتين وخمس عشرة ثانية انفجار أكبر من ذلك بكثير، اكتشفته غواصتان أمريكيتان قريبتان، وأجهزة استشعار زلزالية تبعد عنهم كبعد ألاسكا[45]، وأودت تلك الانفجارات بكورسك إلى قاع البحر، على بعد 354 قدمًا تحت سطح عاصف. كان فريق الغواصة يتألف من 113 ضابطًا وبحارًا، يرافقهم خمسة من كبار القادة بالأسطول كانوا يراقبون العملية، الكبرى في بارنتس منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد توفي أكثرهم على الفور، لكن تمكنت مجموعة من ثلاثة وعشرين بحارًا من إغلاق مقصورة خلفية على أنفسهم، حيث كانوا ينتظرون في الظلام والبرد إنقاذًا لم يكن وشيكًا. هناك جمع الشاب النقيب دميتري كوليسنيكوف، الناجين، وتناول لفة من الورق، وكتب مذكرات لقادته وزوجته، وعلى الورقة الأخيرة من الدفتر شوهدت خربشة تؤرخ 12 أغسطس/آب، الساعة 03:15 بعد الظهر، ما يقرب من ثماني ساعات بعد الانفجار الأول، غلفها بالبلاستيك وطواها، ووضعها داخل بدلته العسكرية:

من شدة الظلمة يصعب الكتابة هنا، لكن سأحاول كأعمى
يبدو أن هناك فرصة ما من 10% إلى 20%
نحن محكومون بالأمل
أن يأتي أحد وينقذنا
هنا قائمة بالموجودين داخل المقصورة في التاسع يحاولون الخروج،
تحياتي للجميع،
لا تيئسوا[46].

كانت الغواصة المحطمة بالفعل في قاع البحر عندما أُبلغ بوتين بفقدانها فقط، وقد تابع حياته على شاطئ البحر في العطلة، وتزلج بعد ظهر يوم الأحد بهدوء، وسبح في المياه الدافئة للبحر الأسود. لم يعرف أحد خارج سلسلة القيادة العسكرية عن فقدان شيء؛ لأن البحرية لم تعلن مصير الغواصة كورسك حتى يوم الاثنين، بعد أن لف الغموض المسؤولين، وكذبوا يومًا بعد يوم.

بعد الاعتراف أخيرًا بأن انفجارًا عطَّل كورسك، أصر الموظفون على الكذب بأن السبب كان التصادم بغواصة أجنبية، ولا يستبعد أن تكون من الولايات المتحدة أو حلف شمال الأطلسي. عاد القادة العسكريون الروس إلى الغريزة السوفييتية للسرية، وكذلك فعل الكرملين. وأشارت الصحافة باقتضاب، في 14 أغسطس/آب، إلى أن قائد سلاح البحرية قد أطلع بوتين على عملية الإنقاذ، لكن بوتين نفسه لم يقل شيئًا حتى 16 أغسطس/آب، عندما غادر سوتشي، ولم يتوجه إلى موسكو، بل لحضور اجتماع لدول الاتحاد السوفييتي السابق في شبه جزيرة القرم.

في اليوم السادس من الأزمة نشرت كومسومولسكايا برافدا قائمة من 118 بحارًا على متن الغواصة، بعد أن دفعت رشوة بقيمة 600 دولار للحصول عليها. وكان تقرير الصحيفة بالنسبة إلى الأقارب هو أول تأكيد أن أبناءهم وأزواجهن كانوا على متن الغواصة، واليوم يرجح كثيرًا أنهم ميتون. وورد عنوان آخر في صحيفة تطعن مباشرة ببوتين: (**سقط البحارة على كورسك صامتين أمس. فلماذا كان الرئيس صامتًا؟**)، ووجد بوتين نفسه يُنتقد في وسائل الإعلام. ونشرت صحيفة أخرى سلسلة من الصور تظهر بوتين، ببشرته الصفراء الضاربة إلى الحمرة، مع المارشال سيرجييف، يلعبان البلياردو مع قائد البحرية فلاديمير كورايدوف، والتعليق يقول: «هم لا يغرقون»[47].

حسْمُ بوتين في الشيشان، ووعوده الجريئة لإعادة الاستقرار إلى البلاد، خيبتها هذه الأزمة الجديدة؛ فقد بدا أنه لا يستطيع السيطرة على الجيش، أو على غضب الجماهير المتزايد وآلامهم، تحرضهم التغطية التلفازية والصحفية التي عرضت التعاطف والحسرة التي لا يشاركهم فيها هو وقادته العسكريون. بوريس بيريزوفسكي، الذي لا يزال يضمر أوهام النفوذ على الرغم من نزاعه العلني مع بوتين بشأن تصرفاته الأولية وهو رئيس، اتصل هاتفيًّا مع بوتين في سوتشي يوم 16 أغسطس/آب من منزله في كاب أنتيب، وقال له: «فولوديا، لماذا أنت في سوتشي؟ كان عليك أن تقطع إجازتك وتذهب لقاعدة تلك الغواصة، أو إلى موسكو على الأقل»، وحذره كما لو أنه يلحق بنفسه الضرر بصفته رئيسًا، فرد عليه

بوتين ساخرًا: «لماذا أنت في فرنسا؟»، فأشار بيريزوفسكي إلى أنه ليس زعيمًا للبلاد، فقال بوتين: «لا أريد أن يتدخل أحد في المكان الذي أنا فيه»[48].

رفضت روسيا في البداية عروض المساعدات الدولية من النرويج والسويد وبريطانيا والولايات المتحدة، ولم يوافق بوتين إلا بعد أن اتصل به الرئيس كلينتون في سوتشي وألح على العرض. من خلال الموافقة على المساعدة، يجب على بوتين أن يفرض سيطرته على سيرجييف والعمداء البحريين الذين لا يهمهم فريق الغواصة وإنما احتمال أن يعلم أعداء روسيا بأسرار الغواصة النووية. عندما وصل الغواصون البريطانيون والنرويجيون- لا الأمريكيون- بمركبة الإنقاذ في 21 أغسطس/آب، نجحوا في فتح فتحة النجاة الخارجية لكورسك في ست ساعات، وهو ما لم يستطع فعله الروس في تسعة أيام، وفي ذلك الوقت كان فريق الغواصة بكامله قد لقي حتفه، ومن ثم فإن الأسر المنتظرة التي لا يزال يحدوها الأمل، انفجرت غاضبة حين سماعها نشرات الأخبار على NTV التي يملكها جوسينسكي، والقناة التي يسيطر عليها بيريزوفسكي.

عاد بوتين إلى موسكو بكل هدوء صباح يوم 19 أغسطس/آب، واستمر حديثه عن الأزمة ضئيلًا، تاركًا وسائل الإعلام تنشر ما تشاء عن بلد بلا رئيس وقت المأساة. وفي صباح ذلك اليوم اكتشف بيريزوفسكي العواقب الخطيرة للتغطية الإعلامية الناقدة؛ إذ أخبره رئيس موظفي بوتين، ألكسندر فولوشين- الذي كان شريكًا تجاريًّا لبيريزوفسكي- صراحة أن القناة كانت «تعمل ضد الرئيس»، وأخبره أيضًا بضرورة التخلي عن سيطرته على الشبكة، أو يمضي في طريق جوسينسكي. فأصر بيريزوفسكي على لقاء بوتين شخصيًّا، وعندما التقيا في الكرملين يوم 20 أغسطس/آب، ومعهما فولوشين، انفجر بوتين غاضبًا، وادعى أن لديه تقريرًا يؤكد أن بيريزوفسكي قد استأجر عاهرات يظهرن في التقارير الإخبارية يدعين أنهن زوجات أو أخوات البحارة، فردَّ عليه بيريزوفسكي مصرًّا: «هن لسن عاهرات، وإنما زوجات وأخوات حقيقيات للبحارة، وبُلهاءُ الـ (كي جي بي) يغذونك بمعلومات لا معنى لها»[49].

بهذا يكون مصير بيريزوفسكي قد أُغلق، وأصبح بوتين مستعدًّا؛ ففتح له ملفًّا في القناة التلفازية الحكومية، وبدأ ينشر عن سوء إدارته المالية[50]، فاحتج بيريزوفسكي، لكن احتجاجه باء بالخيبة، ولم يستطع أن يفعل شيئًا، إذ كان بوتين قد جرده من أي نفوذ يمكن أن يستفيد منه في الكرملين. وكان هذا هو الاجتماع الأخير بين الاثنين؛ أحدهما يتصور نفسه راسبوتين الحديث، والآخر سعيد أنه تخلص من حكم القلة البغيضة التي تمارس سلطة التلفاز.

في 22 أغسطس/آب، بعد عشرة أيام من انفجار كورسك، ذهب بوتين إلى فيدياييفو، المدينة العسكرية المغلقة فوق الدائرة القطبية الشمالية. كان الميناء المأوى للغواصة النووية كورسك في هذه المدينة الصغيرة المتهالكة، بمناخها الذي لا يرحم، وكان هناك آباء فريق الغواصة وأمهاتهم وزوجاتهم وأطفالهم الذين توافدوا من جميع أنحاء البلاد ينتظرون تفاصيل المأساة، تتنازعهم مشاعر الأمل والألم والحزن والغضب. وقد حاول أحد نواب رئيس وزراء بوتين، إيليا كليبانوف، استرضاء الأسر قبل أربعة أيام، لكنه جوبه بغضب غير مألوف داخل نادي ضباط المدينة. كليبانوف، الذي أشرف على الصناعات العسكرية المتعثرة في البلاد، بدأ يرتجف عندما قفزت إحدى الأمهات من مقعدها لتقول بأعلى صوتها: «خنازير!»، فاقتربت ممرضة منها من الخلف وغرزت إبرة في كم معطفها لتهدِّئها[51].

اليوم تجمع أقارب البحارة مرة أخرى في النادي في الساعة الخامسة، وهذه المرة لمقابلة الرئيس نفسه، وانتظروا أربع ساعات حتى وصل بوتين. مرتديًا بدلة سوداء وقميصًا أسود وبلا ربطة عنق، بوتين يواجه الآن واقع المعاناة وليس (العاهرات) اللواتي استأجرهن الصحفيون عديمو الضمير كما قال، النساء الثكالى حقًّا، وكان ما وجده حشدًا غاضبًا، فما إن أنهى جملته الأولى حتى قاطعته الهتافات، وعندما قدم تعازيه لـ(المأساة المروعة)، صاحت امرأة بصوت عال أنه يجب إلغاء يوم الحداد الذي أعلن يوم أمس.

بدا بوتين غير متأكد من نفسه، واعترف بالحالة المزرية للجيش الروسي، ولكن بدا دفاعيًّا، وقال: «كانت هناك دائمًا المآسي، وأنتم بالتأكيد تعرفون أن بلادنا في موقف صعب،

وأن قواتنا المسلحة كذلك، لكن لم أكن أتصور أنهم في مثل هذه الحالة البالغة السوء»[52]، وعندما أراد رجل أن يعرف لماذا لا يمتلك أسطول الشمال غواصة إنقاذ، بادره بوتين: «لم يُتْرَك شيء لعين في هذا البلد!».

وعندما تحدث عن رواتب البحارة والضباط، صحح له الحشد بغضب، وتعالى الصراخ على إجاباته، وهو ما دفعه إلى مناشدة الجمهور لكي يسمحوا له بإنهاء كلامه، ثم أخطأ أيضًا في توقيت الانفجار، وكرر مخاتلة البحرية على القضية؛ فقال: «ربما كان اصطدامًا أو لغمًا، أو ربما انفجارًا على متن الغواصة، مع أن المتخصصين يعتقدون أن هذا مستبعد جدًّا». استمر الاجتماع نحو ساعتين وأربعين دقيقة، ولم يُقصد منه إذاعته أو نشره أو بثه على الجمهور، وكانت كاميرا واحدة فقط من التلفاز الرسمي، وليس من قناة بيريزوفسكي، تصور من إحدى الشرفات، لكن الكرملين سمح فقط للفيديو بلا صوت، وهكذا لم يستطع المشاهدون سماع الأخطاء التي وقع بها الرئيس، أو الاحتجاجات الجماهيرية الغاضبة، ومع ذلك تمكن صحفي واحد من تسجيل الحدث دون أن يلاحظه أحد، وهو أندريه كوليسنيكوف، أحد الصحفيين الثلاثة الذين قابلوا الرئيس بالنيابة لإعداد **الشخص الأول**.

يروي كوليسنيكوف أن بوتين استطاع في نهاية المطاف امتصاص الغضب، وخاصة حين وعد بتعويض أقاربهم براتب لعشر سنوات، وشقق في موسكو وبطرسبورغ، واستمر الخوض في التفاصيل ما يقرب ساعة من الاجتماع، ثم «غادر بوتين الاجتماع»، وكتب الصحفي: «بصفته رئيسًا للشعب كان مستعدًّا لتمزيقه إربًا إربًا قبل وقت قصير»[53].

كانت تجربة أليمة، صاح بعض المحتشدين أنهم لا يريدون أمواله، بل يريدون أحباءهم، وهكذا فإن شهر العسل السياسي لبوتين قد انتهى، والهالة التي لا تقهر، والارتفاع الساحر للمبتدئ السياسي الذي سيعيد عظمة روسيا، كل هذا انتهى، وكان بوتين يعتقد أنه يعرف السبب؛ ليس حالةَ الإهمال في الجيش، أو التعنت السوفييتي لقادة القوات البحرية، الذين ما انفكوا يلومون الأمريكيين. رفض بوتين قبول عرض استقالة المارشال سيرجييف، أو

معاقبة أي من القادة الذين كذبوا بوضوح عن المأساة[54]؛ فمصيبة بوتين السياسية هي وسائل الإعلام، وقد ثارت ثورته في نادي الضباط حين سئل لماذا رفضتم المساعدات الخارجية في عملية الإنقاذ كما أشيع؛ أجاب بوتين: «التلفاز؟ هم يكذبون! يكذبون! يكذبون! هناك أناس في التلفاز يجعجعون أكثر من أي شخص آخر اليوم، والذين على مدى السنوات العشر الماضية دمروا الجيش والبحرية نفسها حيث يموت الناس اليوم".

وحتى يبعد الشك عن أي شخص يمكن أن يلام، فقد ظهر في اليوم التالي على التلفاز الرسمي في موسكو لتوجيه كلمة إلى الأمة للمرة الأولى، وبعد أن عبَّر عن «شعوره الكامل بالمسؤولية، وشعوره بالذنب لهذه المأساة»، ندد غاضبًا بأولئك الذين يريدون «استثمار هذه الكارثة بطريقة عديمي الضمير»، ومن غير أن يذكر أسماءهم، أشار إلى تعهد بيريزوفسكي بدفع مليون دولار لأقارب الفريق، وذكر الفيلات التي يمتلكها هو وجوسينسكي في الخارج، ولم يغب عن أحدٍ تلكَ التلميحاتُ؛ قال: «دعوني أعبِّر عن ذلك بوضوح أكثر: هناك محاولات تُبذل لتضخيم الوضع سياسيًّا؛ لكسب شيء من رأس المال السياسي، أو السعي لتحقيق مصالح لفئات معينة، ومصيب من يقول إن هناك مدافعين عن البحارة في الصفوف الأولى هم أنفسهم أسهموا مدة طويلة في انهيار الجيش والبحرية والدولة، وقد أسهم بعضهم في المليون. خيط واحد من الجميع، وهناك قميص لرجل عار، ومن الأفضل لهم أن يبيعوا الفلل على ساحل البحر المتوسط في فرنسا أو إسبانيا؛ عندها يحق لهم أن يبينوا لماذا سجلت كل هذه العقارات بأسماء وهمية، وباسم شركات قانونية، ونحن بعد ذلك سنسألهم من أين جاؤوا بكل هذه الأموال؟».

بوتين- بلا شك- عرف هذا؛ فلديه أكوام من الملفات؛ ففي عالم رجال الأعمال الروس المشبوه، يمكن أن تصمد قلة متنفذة صغيرة أمام التدقيق في تعاملاتهم، ومقتنياتهم الغامضة، ومناورات الضرائب، والحسابات السرية الخاصة بهم بعيدًا في الخارج، وإذ كان رئيسًا لجهاز الأمن الفيدرالي فقد جعل المعلومات المالية حكرًا عليه[55]، ولأنه كان رئيسًا

للوزراء، واليوم أصبح هو الرئيس، فهو يعرف أين يُعثر على المخطط الهيكلي، ولم يكن هذه بمحض المصادفة، فقد كانت طريقة الـ(كي جي بي) في وقت من الأوقات.

التحقيق مع وقف التنفيذ في ممتلكات بيريزوفسكي في الإيرفلوت سرعان ما استؤنف فجأة في الشهر التالي، وعندما استدعي للشهادة في نوفمبر/تشرين الثاني، تجاهل بيريزوفسكي الاستدعاء وغادر البلاد هاربًا، وفي فبراير/شباط باع أسهمه في القناة التلفازية لشريكه السابق، رومان أبراموفيتش، الذي حوَّلها إلى الدولة.

أما جوسينسكي، الذي أفرج عنه بكفالة بعد اعتقاله في يونيو/حزيران، فغادر إلى دارته (فيلته) في إسبانيا هاربًا، وفي أبريل/نيسان 2001، سيطرت شركة غازبروم العملاقة للطاقة على NTV في انقلاب على مجلس الإدارة بعد المطالبة بقرض قيمته 281 مليون دولار كانت قد منحته لجوسينسكي لمواجهة أزمة مالية عام 1998م، ومع أن الصحفيين احتلوا الأستوديو في القناة احتجاجًا؛ فإنهم تخلوا عنه بعد أحد عشر يومًا، وتولتها فيما بعد الإدارة الجديدة. وعلى الرغم من أن كثيرين، في الداخل والخارج، سجلوا احتجاجاتهم، فإن ذلك كان من دون جدوى.

أدرك بوتين منذ البداية أهمية التلفاز لسلطة الكرملين، ليس بقدرته على رسم صورته فقط، وإنما رسم واقع روسيا نفسها، وقد أعجب سيرجي بوغاتشيف، المصرفي والصديق الذي عمل معه عن قرب في الكرملين في ذلك الوقت، بالطريقة التي يتابع فيها بوتين التقارير الإخبارية التلفازية، حتى إنه كان يستدعي مديري القنوات في منتصف البث مستنكرًا بعض جوانب التقارير، فقد كان ينظر إلى شبكة القنوات التلفازية الحكومية على أنها مورد من موارد الدولة الثمينة كالنفط أو الغاز، قال بوغاتشيف: «كان يدرك أن أساس السلطة في روسيا ليس الجيش ولا الشرطة، بل التلفاز، وهذا اعتقاده الذي لا يتزحزح»[56]. واليوم، بعد مرور عام على توليه الرئاسة، كانت شبكات التلفاز الرئيسة الثلاث في روسيا تحت سيطرة الكرملين.

الفصل الثاني عشر

روح بوتين

بعد ظهر يوم 11 سبتمبر/أيلول 2001م، اجتمع بوتين وثمانية وأربعين صحفيًّا في الكرملين ليمنحهم مرتبة الشرف، وهو تقليد من العصر السوفييتي. وفي تصريحاته المقتضبة أمام كاميرات التلفاز، خصَّ المراسلين الحربيين الذين أرسلوا بتقاريرهم من الشيشان، والذين واجهوا بذلك «حربًا دعائية ومنظمة ويدفع لها بسخاء» من قبل المتمردين، وأضاف أن «عملية السلام تكتسب زخمًا هناك إلى حد كبير من خلال إنجازاتكم». الرجل الذي ألغى شبكة التلفاز الخاصة الوحيدة، وشبكة الدولة الوحيدة التي تمتعت باستقلالية، يصرح وقتها أن وسائل الإعلام ركن هام من روسيا الجديدة، وأضاف أن «التغيرات السياسية والاقتصادية الضخمة ستكون مستحيلة في روسيا دون وسائل الإعلام الحرة».

كان الحفل قد انتهى من فوره عندما استدعاه مساعدوه الأمنيون إلى قاعة المؤتمرات حيث شاهدوا هناك تقارير تلفازية عن الطائرات التجارية التي تحطمت في مركز التجارة العالمي والبنتاغون، هجوم نفذه تنظيم القاعدة، المنظمة التي جادل الروس مدة طويلة بأنها تقدم المساعدة للمتمردين الشيشان، والتفت بوتين إلى سيرجي إيفانوف، زميله في الـ(كي جي بي) وصديقه، وسأله: «ما الذي يمكننا فعله لمساعدتهم؟»[1].

وصف كثيرون، في وقت لاحق، رد فعل بوتين بأنه كان ساخرًا، ولكن في الساعات التي تلت الهجمات تصرف بحكمة وتوجه إلى مساعدة بلد كان ينظر إليه بشكوك دائمة، فحاول

الاتصال هاتفيًّا بالرئيس جورج دبليو بوش، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه؛ ربما بسبب حالة القوات الجوية في الولايات المتحدة، وعندما حاولت مستشارة بوش للأمن القومي، كوندوليزا رايس، الاتصال بإيفانوف، تولى بوتين على الفور الرد عليها، وأكد لها أنه لن يرفع حالة التأهب العسكري الروسي ردًّا على التحرك الأمريكي نحو الحرب. في الواقع خفض من حالة التأهب، وألغى المناورات العسكرية في المحيط الهادئ التي بدأت في اليوم السابق وتحاكي الصراع النووي مع الولايات المتحدة، وسأل رايس: «هل من شيء آخر يمكننا فعله؟».

لمعت في ذهنها فكرة: لقد انتهت الحرب الباردة حقًّا[2].

كان بوتين أول زعيم في العالم يتصل بالبيت الأبيض، حتى قبل أن يتضح مدى الهجوم، وقد اتصل هاتفيًّا في وقت لاحق برئيس الوزراء البريطاني توني بلير في بريطانيا، والمستشار الألماني جيرهارد شرودر في ألمانيا، مكررًا أن العالم يجب أن يتحد ضد آفة الإرهاب. وعلى النقيض من صمته الحذر بعد كارثة كورسك وغيرها من المناسبات الكبرى، ظهر بوتين على شاشات التلفاز، وأعرب عن تعازيه لضحايا ما أسماه «عملًا غير مسبوق من العدوان»، و«أن الأحداث التي وقعت في الولايات المتحدة اليوم تتجاوز الحدود الوطنية»، وأضاف: «إنه ليس تحديًا سافرًا للبشرية جمعاء، بل للإنسانية المتحضرة على الأقل»، وأوضح أن المأساة فرصة لإعادة صياغة العلاقات الدولية لقتال «طاعون القرن الحادي والعشرين»، وأن «روسيا تعرف قبل كل شيء ما يعنيه الإرهاب»، وأضاف: «لذلك نحن نتفهم- كما الآخرين- مشاعر الشعب الأمريكي»، ومخاطبًا شعب الولايات المتحدة نيابة عن روسيا قال: «أود أن أقول إننا معكم، نقاسمكم ونشاطركم تجربتكم الأليمة»[3].

وفي ظهر يوم 12 سبتمبر/أيلول اتصل بوش به ردًّا على اتصاله، وكان بوتين أصدر مرسومًا يدعو لدقيقة صمت تضامنًا مع الضحايا، وجعل لهجته المخففة تعبِّر من أعلى سلطة على الأقل بأن ضراوة المشاعر المضادة لأمريكا التي غرست في السياسة الروسية أصبحت

من الماضي، ولم يكن قد مضى سوى عامين على الاحتجاجات المضادة لحرب الناتو في صربيا وضد الأمريكيين، وكثير من الروس- لا كلهم بكل تأكيد- اقتدوا ببوتين.

تكدست أكوام من باقات الورد خارج السفارة الأمريكية، وعكست نبرة التلفاز الحكومي مزاج الكرملين على نحو متزايد، والتحول الملحوظ، ومما قاله بوتين لبوش: «الخير سوف ينتصر على الشر. أريدك أن تعرف أننا في هذا الصراع سنقف معًا»[4].

توخَّت استجابةُ بوتين تثبيت صحة انطباع بوش الأولي عنه، والتي لم يتوقعها أحد عندما بدأت الإدارة الجديدة. في أثناء حملته الانتخابية ضد آلغور في عام 2000م، استنكر بوش الحرب في الشيشان بأكثر مما استنكرها كلينتون، ورأى أنها وسيلة لتصوير الديموقراطيين على أنهم كانوا متساهلين مع روسيا، ومن ثم فقد بدا من الأيام الأولى لبوش في البيت الأبيض أن العلاقات مع روسيا بوتين مشحونة.

وفي يناير/ كانون الثاني 2001م، كان حرس الحدود الأمريكي لديه أمر باعتقال بافل بورودين بناء على أمر دولي، عندما حطت طائرته في نيويورك. وكان بوتين، بعد توليه المنصب، قد نقل بورودين بهدوء من منصبه في الإشراف على ممتلكات الكرملين، وعيَّنه في وظيفة ذات طابع احتفالي؛ مبعوثًا للدولة الاتحادية لروسيا وروسيا البيضاء؛ وهو كيان أُسس في عام 1996م، ولكن لن يعترف به أبدًا، وأغلق المدعي العام الروسي الجديد، فلاديمير أوستينوف، بهدوء التحقيق في نشاطات بورودين، ولكن ملفه لم يغلق لدى السويسريين. كارلا ديل بونتي عممت مذكرة قبض على بورودين، بتهمة قبول رِشا تبلغ قيمتها نحو 30 مليون دولار من العقود التي كانت قد صدرت لترميم القصر الكبير في الكرملين وغرفة المحاسبة، وبذلك فإن الفضيحة التي شوهت رئاسة يلتسين تلقي اليوم بظلالها على العلاقات مع الرئيس الأمريكي الجديد، والتي كانت موضوع المكالمة الهاتفية الأولى لبوتين مع بوش في 31 يناير/ كانون الثاني 2001م.

في غضون أسابيع بدا أن العلاقات بين الدولتين تسير نحو الأسوأ، ففي فبراير/شباط كشف (FBI) مكتب التحقيقات الفدرالي المشتبه الخلد منذ أمد طويل في صفوفها: كان روبرت هانسن، أحد كبار المشرفين على مكافحة التجسس، الذي تجسس لحساب الاتحاد السوفييتي ثم روسيا حتى عشية اعتقاله. وأدى انكشاف أمره إلى طرد خمسين دبلوماسيًّا روسيًّا من الولايات المتحدة، تلتها عملية انتقامية متبادلة بطرد خمسين من الأمريكيين من موسكو.

بدا لبعض الوقت أن الحرب الباردة قد دبت فيها الحياة من جديد ولكن عندما التقى بوش وبوتين للمرة الأولى في يونيو/حزيران عام 2001م في قلعة بردو، وهي دارة (فيلا) من القرن السادس عشر خارج عاصمة سلوفينيا، ليوبليانا، بدا كلا الرجلين حريصين على نزع فتيل تصاعد التوتر بينهما، ونظر كلاهما إلى المعلومات الاستخباراتية الموجزة عن كل منهما، على أمل كسر الجليد؛ فاستقبل بوتين بوش بتحية بدأها بالحديث عن كرة القدم الأمريكية (الرجبي)، التي لعبها بوش سنةً في الكلية، وقال له بوش: «حقًّا لعبت الرجبي» تلك هي إحاطة جيدة.[5] ثم انتقل بوتين إلى الحديث عن شؤون التجارة والأعمال الحرة، وكان يقرأ من خلال مفكرته المعدَّة من كومة من بطاقات الملاحظة، فقاطعه بوش وسأله عن الصليب الذي أعطته إياه والدته ليباركه في القدس، ورأى بوش المفاجأة في وجه بوتين، على الرغم من أنها مرت بسرعة، وأوضح بوش أنه قرأ عن هذه القصة، من دون الإشارة إلى أنها واردة في الكتاب الموجز الذي أعدته مسبقًا وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه). تذكر بوتين قصة الحريق في بيته الريفي، وكيف عثر عامل على الصليب في الرماد وأعاده له، قال له بوش المؤمن: «هذا هو المفترض أن يكون يا فلاديمير، وهذه هي قصة الصليب»[6].

وعندما ظهر الاثنان لعقد مؤتمر صحفي بعد ساعتين من الاجتماعات، التي حلت قليلًا من خلافاتهم، وخصوصًا معارضة روسيا للدفاعات الصاروخية التي تبناها بوش بأكثر عدوانية مقارنة بسلفه الديموقراطي، أظهرا دفئًا شخصيًّا ناضجًا كان لافتًا مع الأحداث الأخيرة؛ فقال عنه الرئيس بوش إنه «زعيم متميِّز»، مقارنًا بنظرة الروس إلى كلينتون الباحث

عن العيوب، ومرَّ مرورًا سريعًا على ذكر الشيشان أو حرية التعبير في روسيا. وعندما سئل هل يمكن أن يثق الأمريكيون ببوتين نظرًا إلى خلافاتهما حول عدد كبير من القضايا، ذكر بوش أنه ما كان له أن يدعوه إلى مزرعته في تكساس في نوفمبر/تشرين الثاني التالي، لو أنه لا يعتقد ذلك، وقال: «نظرت إلى الرجل في عينيه، فوجدته واضحًا جدًّا وجديرًا بالثقة، ودار بيننا حوار جيد، وكنت قادرًا على الشعور بروحه: رجل عميق الالتزام ببلده ومصالحها»[7].

لا بوش ولا بوتين أتى على ذكر قصة الصليب، أو حقيقة أن بوتين لم يكن يرتدي الصليب ذلك اليوم كما كان يفعل دائمًا، وفق ما قاله كاتب سيرته الذاتية (جلبه معه عندما التقى وبوش مرة أخرى في قمة مجموعة الثماني في جنوة الشهر التالي).

لم يقتنع أحد بهذه الشراكة الوليدة، وقال مايكل ماكفول، وهو أكاديمي أمريكي التقى بوتين أول مرة في بطرسبورغ قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، لإحدى الصحف: «أستطيع أن أفهم الإستراتيجية في العلاقة، لكنها ذهبت بعيدًا، أعتقد أن هناك كثيرًا من الأسباب الوجيهة لعدم الثقة بالرئيس بوتين؛ فهذا الرجل تدرب على الكذب»[8].

سافر بوتين إلى ثمانية عشر بلدًا في العام الأول من توليه المنصب، ورافقته في كثير من الأحيان ليودميلا، محاولًا رسم صورة لروسيا الجديدة الحريصة على الانخراط في العالم، ومحو بعض بقايا الحرب الباردة. بعد تركيزه الأولي على السياسات الداخلية في روسيا، أصلح السياسة الخارجية لروسيا بأساليب لا يستطيع أبدًا أن يمارسها يلتسين، بسبب الشيوعيين والقوميين الذين كان لا يزال لديهم ذلك الحنين إلى قوة الاتحاد السوفييتي العظمى التي ضاعت. ما سعى إليه بوتين كان شيئًا أقل من التقارب مع الغرب، وخاصة مع أوروبا، وحتى مع (العدو الرئيس) الذي تدرب على مجابهته حين كان ضابط مخابرات. في عام 2001م أغلق المواقع العسكرية ما وراء البحار من العصر السوفييتي في الخارج، ومن ضمنها التنصت الهائل في لورديس، وكوبا، والقاعدة البحرية والاستخباراتية في فيتنام،

متعهدًا بأن تركز روسيا الجديدة مواردها على بناء قدراتها العسكرية لمواجهة أكثر إلحاحًا؛ وهي تهديد الجماعات الإسلامية في شمالي القفقاز.

بعد هجمات 11 سبتمبر/أيلول، خفف بوتين من معارضته العلنية لتوسيع حلف شمال الأطلسي في جولته المقبلة التي ستضم عضوية ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا، جمهوريات البلطيق الثلاث التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي ولا تزال تشمل نسبة كبيرة من السكان الروس (وكان قد اقترح حين كان مرشحًا في مارس/آذار 2000م، أن روسيا قد تنضم يومًا ما إلى حلف شمال الأطلسي الناتو)[9]. وعندما ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب ضد طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان في أكتوبر/تشرين الأول، لم يقدم بوتين خدمات المخابرات الروسية وحسب، بل قدَّم أيضًا المال والسلاح لقوات التحالف الشمالي، والأفغان الذين واصلوا مقاومة حركة طالبان التي استولت على السلطة في عام 1996م، وحاربت قبل ذلك الغزو السوفييتي. وأذعن بوتين أيضًا لإنشاء قواعد عسكرية أمريكية في أوزبكستان وقرقيزستان، ونشر جنود أمريكيين لأول مرة في أجزاء من الاتحاد السوفييتي السابق منذ الحرب الوطنية العظمى.

تحركات بوتين واجهتها مقاومة من الجيش الروسي، والبيروقراطية الجامدة التي لم تتخل عنها معظم شرائح المجتمع لكونها جزءًا من التراث السوفييتي. أصبح الجيش اليوم قوة متهالكة؛ بعد التخفيض الكبير الذي طرأ عليه من مليونين وثمان مئة ألف جندي في نهاية الحقبة السوفييتية إلى مليون تقريبًا، وبعد التسعينيات أصبح جيشًا متهالكًا جدًّا. وكانت غالبية المجندين يتعرضون بوحشية لمعاكسات الجنود الأكبر سنًّا المعروفين بـ(المضايقين)؛ وهي كلمة مشتقة [في الروسية] من الجَدِّ. وكانت الظروف في الجيش سيئة حتى إن معظم الأسر الروسية لا تستطيع العيش والحفاظ على أولادها دون الرِّشا وادعاء الأمراض بقصد الهجرة، وانتشرت عدوى الجريمة والفساد في صفوفه من أعلى إلى أسفل، مع قادة يؤجرون المجندين وكأنهم عبيد، ويبيعون الوقود في وحداتهم وقطع الغيار، بل والمركبات[10].

ومع أنه كان يفضل أن تكون السفن الحربية والطائرات المقاتلة خلفية لصورته الشعبية، فإن بوتين لم يكن رجلًا عسكريًّا في زمن الاتحاد السوفييتي. وكان الجنود والضباط في الجيش الأحمر ينظرون بازدراء إلى الضباط النخبة في الـ(كي جي بي)، وكان الشعور في كثير من الأحيان متبادلًا. ويبقى الجيش، على الرغم من ذلك، في صميم مهمة بوتين لاستعادة الأمة، مع تفهمه للحالة المزرية التي وصل إليها. وعلى الرغم من حرصه على تأسيس عقيدة عسكرية جديدة، وتحويل الجيش إلى قوة أصغر حجمًا، وأكثر حداثة، وأكثر انضباطًا من الناحية المهنية، فقد فرض رؤيته بحذر على المؤسسة الوحيدة التي ما زال لديها قدر من الاستقلال على الرغم من تراجع مكانتها.

قلما تطرق بوتين إلى السياسة العسكرية في الأشهر الأولى من رئاسته، وذلك ضمن إستراتيجيته لكسب الحرب في الشيشان، ومن ثم فقد رأى بعض المحللين العسكريين في روسيا أن بوتين ضعيف أو منعزل، ورأى آخرون أن إستراتيجيته مكيافيلية تسمح للقادة المتنافسين أن يسحق بعضهم بعضًا في مثل هذه الدولة الضعيفة التي قُدِّمت لبوتين، وكتب محلل عسكري بارز: «فضَّل بوتين التعامل مع الناس الذين تعثروا سياسيًّا، ويشعرون أنهم مقيدون، ومن ثم فسيبقون موالين للرئيس»[11].

بعد كارثة كورسك رفض بوتين التحرك السياسي النفعي لإقالة القادة الذين أضرت عدم كفاءتهم وكذبهم بشعبيته، واتجه بدلًا من ذلك إلى بناء الدعم الشعبي، ورفع الروح المعنوية؛ بزيادة رواتب الجنود، والتعهد بمزيد من الأموال للجيش، كما أمر بإعادة هيكلة القوات المسلحة؛ بخفض آخر لعدد هذه القوات. استعاد بوتين الراية الحمراء وفقًا لمعايير الجيش، بالنسر القيصري المزدوج، وموسيقى النشيد الوطني السوفييتي، لكن بكلمات جديدة (النشيد الذي اعتمد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي لا يتضمن أي كلمات، وكان الرياضيون في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في سيدني عام 2000م قد اشتكوا لبوتين أنهم لم يتمكنوا من الغناء عندما وقفوا على المنصة لتسلم ميدالياتهم).

أثبتت هذه التحركات المهارة، وأثارت الحنين الوطنيَّ إلى الجيش لدى حشود كبيرة للناس، دون استعادة الأيديولوجية السوفييتية التي سُعدوا بتركها وراءهم. قد يكون بوتين غِرًّا في السياسة، لكنه أوجد توازنًا بين صراعات الماضي والمستقبل المشكوك فيه، وجاء ذلك طبيعيًّا؛ لأنه يعكس آراءه الخاصة؛ فهو لم يكن ضد النظام السوفييتي بالطريقة التي كان عليها يلتسين، ولكن بدلًا من ذلك انتقى أجزاءً من تاريخه التي تخدم فكرته عن روسيا الجديدة. فخلال مخاطبته الناخبين في فبراير/شباط 2000م، استخدم قولًا مأثورًا يُنسب على نطاق واسع له، ولكنه لم يكن في الواقع له: «أي شخص لا يأسف على انهيار الاتحاد السوفييتي لا قلب له، وكل من يريد أن يرى الاتحاد السوفييتي ببنيته السابقة لا عقل له»[12].

بوتين نفسه بدا متأرجحًا بين دوافعه؛ فقد احتفظ بتمثال فيليكس دزيرجينسكي على طاولته في جهاز الأمن الفيدرالي، لكنه عارض نداءات استعادة التمثال البرونزي للرجل في دائرة المرور حيث كان منتصبًا أمام لوبيانكا. ومجَّد النصر السوفييتي في الحرب الوطنية العظمى، لكنه عندما طلب إليه استعادة الاسم الذي أطلق على فولغوغراد زمن الحرب، المدينة التي حدث فيها الحصار الرهيب وعرفت باسم **ستالينغراد رفض**[13].

على الرغم من انتقاد بوتين للإخفاقات التي مني بها الاتحاد السوفييتي سابقًا، فإن تبنيه لبعض رموزه زاد من مخاوف المثقفين والليبراليين؛ فقد وجهت مجموعة من الفنانين والكتاب البارزين خطابًا مفتوحًا له، تحذره من مغبة استعادة النشيد السوفييتي، فكتبوا: «إن رئيس الدولة يجب أن يدرك جيدًا أن الملايين من مواطنيه (من بينهم أولئك الذين صوتوا له) لن يحترموا النشيد الوطني الذي يستخف بقناعاتهم ويهين ذكرى ضحايا القمع السياسي السوفييتي»[14]. وانتقد كذلك بوريس يلتسين خَلَفه للمرة الأولى منذ أن ترك منصبه قائلًا إن الموسيقى ترتبط في ذهنه بالبيروقراطيين السوفييت في أثناء حضورهم مؤتمرات الحزب الشيوعي، وقال يلتسين لكومسومولسكايا برافدا: «يجب على رئيس الدولة ألا يتبع على نحو أعمى مزاج الناس»[15]، وعلى العكس من ذلك؛ فالأمر متروك له لكي يؤثر في مزاجهم. ما

فعله بوتين أنه أثَّر في المزاج، وأخذ عينات من الماضي كما لو كان يأخذها من بوفيه، انتقاء واختيارًا من التاريخ الذي يقدمه إلى مجتمع منقسم إلى حد كبير حول ما يمثله ذلك التاريخ.

مضى على بوتين سنة في منصبه قبل أن يتحرك فجأة، وعلى نحو جراحي، ليجعل القيادة العسكرية المتمردة تحت سيطرته؛ فوزير الدفاع، المشير إيجور سيرجييف، تجاوز بالفعل سن التقاعد، وكان يمدد خدمته سنويًّا بتقديم طلب يناشد فيه يلتسين ثم بوتين في عام 2000م. سيرجييف، بلغ الثالثة والستين، وقد افترض أن إعادة تعيينه في أوائل عام 2001م ستكون مرة أخرى إجراء شكليًّا فقط[16]. كان بوتين مثل يلتسين من قبله؛ يفضل السرية والمفاجأة في توقيت إعلان قراره، ولم يكن أحد غيرُ مستشاريه الموثوقين يعرفون خطته، وسيرجييف لم يكن من بينهم، وإلا فلن يخطئ حساباته بمستوى الدعم الذي يلقاه في الكرملين.

يوم 28 مارس/آذار، اجتمع بوتين وفريقه للأمن القومي في الكرملين، وأعلن أن سيرجي إيفانوف هو من سيتولى منصب وزير الدفاع، وكان إيفانوف مقربًا جدًّا من بوتين، وكان يوصف أحيانًا بأنه صنوه. رقيق وشاحب، يفرق شعره بحدَّة إلى اليسار، يبدو على وجهه الضيق على الدوام، وكان قد انضم إلى الـ (كي جي بي) بعد دراسة الإنجليزية والسويدية في جامعة لينينجراد الحكومية. التقى بوتين في عام 1977م في البيت الكبير، حيث عملا معًا عامين قبل أن ينتقل إيفانوف إلى مهنة أخرى[17]. درس في معهد الراية الحمراء خارج موسكو وقد برز عام 1981م بصفته أحد عناصر المخابرات الخارجية الذين خدموا تحت الغطاء الدبلوماسي السوفييتي في السفارات في فنلندا، والسويد، وكينيا، وربما بريطانيا. ظلت سيرته الذاتية مبهمة، وهذا يشير إلى نوع التجسس الذي أوكل إليه، الذي يختلف عن مهمة بوتين. وخلافًا لبوتين لم يستقل طوال خدمته، وظل يترفع بالرتب في جهاز الاستخبارات الخارجية ما بعد السوفييتية حتى أصبح أصغر جنرال في روسيا الجديدة، وعندما أصبح بوتين مدير جهاز الأمن الفيدرالي، عيَّنه نائبًا، ونودي به في وقت لاحق إلى الكرملين، حيث انضم إلى الدائرة الداخلية لبوتين التي تتكون من مساعديه، وكان يحضر الاجتماعات

الأمنية الوطنية التي تعقد يوم الإثنين، ويحضر أيضًا اجتماعات السبت الأقل رسمية، واللقاءات الاجتماعية البحتة التي تجري في مقر الرئاسة كلما عنَّ لبوتين، وغالبًا ما يكون في وقت متأخر من الليل[18].

غالبًا ما يُصَور إيفانوف على أنه متشدد، ويعد من الحرس القديم الذي عكس تجربة بوتين وآراءه المحافظة، ويشاطر بوتين الهدف في إعادة هيكلة الجيش المتضخم غير الفاعل، وبعد أن تخلى عن رتبته العسكرية في الـ FSB، أصبح أول مدني يرأس وزارة الدفاع في تاريخ الاتحاد السوفييتي والتاريخ الروسي، وقد قال بوتين عندما أعلن تعيينه: «كما ترون، يأتي المدنيون إلى تولي المناصب الرئيسة في الوكالات العسكرية، وهذه أيضًا خطوة مدروسة، خطوة نحو نزع السلاح والعسكرة من الحياة الاجتماعية في روسيا»[19].

تعيينات بوتين- وإن كانت متواضعة- أشارت إلى قطيعة مع يلتسين، وقد عيَّن ليوبوف كوديلينا لتكون أول امرأة في منصب رفيع في وزارة الدفاع؛ لتشرف على الميزانية العسكرية. واستبدل بوزير الداخلية آخر من بطرسبورغ، هو بوريس جريزلوف، الذي يرأس الكتلة الموالية لبوتين في مجلس الدوما، لكنه لم يخفض أي شخص باستثناء وزير الشؤون النووية، يفجيني أداموف، الذي اتهمته محكمة أمريكية في وقت لاحق باختلاس 9 ملايين دولار من الأموال المخصصة لتعزيز الأمن في المواقع النووية[20]، وقد أعلنت صحيفة إزفستيا أن فريق بوتين «أصبح كلًّا متكاملًا كقبضة اليد»[21].

رأى إيفانوف وهو وزير للدفاع، وبشيء من القلق، احتمال تدخل أمريكي في محيط روسيا، وبعد ثلاثة أيام من هجمات 11 سبتمبر/أيلول استبعد إيفانوف «إمكانية قيام الناتو بعمليات عسكرية في إقليم دول آسيا الوسطى»[22]. وشعر بوتين- على الرغم من ذلك- أن الولايات المتحدة أدركت اليوم خطر الإسلام بعد أن تعاظم، وسافر إلى ألمانيا بعد أسبوعين، وألقى كلمة في البرلمان الألماني، البوندستاغ، مبتدئًا تصريحاته باللغة الروسية، ثم تحول إلى (لغة غوته، وشيلر وكانط)، وقال: «اليوم يجب أن نعلن أن الحرب الباردة قد انتهت!»، فبادله

المستشار الألماني جيرهارد شرودر الإعلان بأن العالم يجب أن يعدل من انتقاداته للعمليات العسكرية الروسية في الشيشان (حتى عندما ضغط على بوتين سرًّا للتدخل في المحاكمة العسكرية التي تشمل تورط جنود روس بجرائم حرب متهمين بها)[23].

وعندما عاد بوتين إلى موسكو يوم 24 سبتمبر/أيلول، ذهب إلى وزارة الدفاع، المبنى الأبيض الثقيل القابع في ميدان بولفار وسط المدينة، وأمر القادة بالعمل مع الأمريكيين، متجاوزًا إيفانوف، الذي تخلى عن معارضته العلنية للعمليات الأمريكية في آسيا الوسطى.

توقع بوتين أن يذعَن له في نظام ما بعد الحرب الباردة، فاستثمر كثيرًا في تطوير علاقته الشخصية مع بوش، وكان أول رئيس روسي أو سوفييتي منذ لينين يتحدث بلغة أجنبية، وقد أخذ يتلقى دروسًا في اللغة الإنجليزية ساعة يوميًّا، ليتعلم لغة الدبلوماسية والتجارة الأمريكية، واستخدم مهارته اللغوية المتواضعة للتحدث على انفراد مع الرئيس بوش لكسر الجليد. في سلوفينيا، وهما يمشيان في الحديقة، أشار إلى القواسم المشتركة بينهما: «أرى أنك أسميت بناتك باسمَي أمك وحماتك»، فأجابه بوش: «ألستُ دبلوماسيًّا جيدًا؟»، فضحك بوتين وقال له: «لقد فعلت الشيء نفسه!»، في السر كان يشعر أنه يمكن أن يصارح بوش حول خلافاتهما، في محاولة لجعله يتفهم الصعوبات التي تواجهها روسيا- وتواجهه هو شخصيًّا- في الانتقال من أنقاض الاتحاد السوفييتي، وسعى إلى شيء من التعايش مع الولايات المتحدة، حتى مع حلف شمال الأطلسي.

عندما التقى بوتين بوش مرة أخرى على هامش مؤتمر قمة التعاون الاقتصادي لشعوب آسيا والمحيط الهادئ في شانغهاي في أكتوبر/تشرين الأول، اقترح بوتين تغييرات في معاهدة الحد من الصواريخ البالستية التي تسمح بإجراء بعض الاختبارات لنظام الدفاع الصاروخي الأمريكي التي يطمح إليها بوش، مع إبقاء الأحكام الرئيسة للمعاهدة كما هي عليه سنةً أو سنتين أخريين. رأى أن المعاهدة حاسمة في الدفاع الإستراتيجي لروسيا، وأن التأخير سيمنح الوقت لعلمائها لتطوير أسلحة جديدة تضاهي المنظومة الأمريكية.

وألح أيضًا على بوش للموافقة على خفض الترسانة النووية التي يمتلكها كل بلد، وهي خطوة أساسية لبوتين لخفض التكاليف المستدامة للجيش الروسي، وقد عدَّ بوش اقتراحه حلًّا معقولًا، ووعد بدراسته، لكن كانت إدارته تعاند بعد غزو أفغانستان؛ فقد تشبثت وزارة الدفاع الأمريكية بموقفها، ولم توافق على مقترح بوتين بإبلاغ روسيا عن كل اختبار سابقًا، وأن يسمح لها بمراقبة تقدُّم المنظومة الدفاعية التي يمكن أن تبطل مكانة روسيا بصفتها قوة نووية عظمى. عندما وصل بوتين إلى واشنطن في نوفمبر/تشرين الثاني في أول زيارة له وهو رئيس إلى الولايات المتحدة، كان يتصوَّر أن الصفقة الكبرى لا تزال ممكنة، لكن تبخرت كل آماله حينما التقى بوش في البيت الأبيض.

«**يا إلهي! هذا جميل!**»؛ قالها بوتين بعفوية عندما دخل المكتب البيضاوي صباح يوم 13 نوفمبر/تشرين الثاني، وكان الضوء يتدفق من النوافذ الجنوبية، فارتبك بوش، كما مساعديه، من التناقضات التي بدت على «ضابط المخابرات السابق من الاتحاد السوفييتي الملحد»[24]؛ ولم يتصوروا يومًا أن ضابط مخابرات يمكن أن يستجرهم لجانبه، ولكن كان بوش على يقين أنهم سيتغلبون على خلافات الماضي؛ فالقضية المشتركة التي عملا عليها عقب هجمات 11 سبتمبر/أيلول قد أثمرت في رأيه حتى التقيا: في الليلة السابقة تخلت طالبان عن العاصمة الأفغانية كابول، وتراجعوا بحالة من الفوضى، وقال له بوش: «هذا شيء قد ينحل كبدلة رخيصة»، ولم تتمكن كوندوليزا رايس، التي تتحدث الروسية، من ترجمة رد بوتين بوتين، لكنها قالت إنه وافق بشدة[25].

في اليوم التالي سافر بوتين وزوجته إلى مزرعة بوش في كروفورد بولاية تكساس، واستقبلهم بوش الأب والابن في جو ماطر، وكانت ليودميلا تحمل بيدها وردة واحدة صفراء قدمتها إلى لورا بوش، رمزًا لتقاليد ولاية تكساس. نزلوا في دار الضيافة بالمزرعة المجاورة لعائلة بوش، ووصلوا لتناول العشاء قبل ساعة من الموعد، إذ نسوا فارق الزمن عن واشنطن، وعندما بدأ العشاء، تناولوا الشواء، واستمعوا إلى عازف البيانو فان كليبيرن، وفرقة الأرجوحة بأغنياتها الريفية مثل (جو أبو العين القطنية). لبست ليودميلا فستانًا مطرَّزًا

بالأحمر والأبيض والأزرق، وعندما عرض بوتين النخب بدا أنه متأثر جدًّا، وقال: «لم أزر من قبل منزل قيادي عالمي آخر»، وأضاف أن الولايات المتحدة «محظوظة في مثل هذا الوقت الحرج من تاريخها أن يكون رجل من هذا الطابع رئيسًا لها».

استمرت الصداقة الحميمة عندما التقيا الطلاب في مدرسة كروفورد الثانوية في اليوم التالي، وبعد ذلك سافر بوتين إلى نيويورك، وزار أنقاض مركز التجارة العالمي، التي لا يزال يتصاعد منها الدخان بعد شهرين من الهجوم.

بعد ثلاثة أسابيع اتصل بوش هاتفيًّا ببوتين في موسكو وأبلغه بالانسحاب من معاهدة حظر الصواريخ البالستية ABM، على الرغم من اعتراضات بوتين. كان الامتياز الوحيد الذي انتزعه بوتين من بوش بعد ستة أشهر من المحادثات، وأربعة اجتماعات بين الزعيمين، أن بوش أبلغه بالانسحاب من المعاهدة قبل أسبوع من إعلان هذه الخطوة علنًا في منتصف ديسمبر/كانون الأول وذلك من باب المجاملة.

في جميع النقاشات التي دارت حول أفغانستان والدفاع الصاروخي، نجح بوتين في كبت أي حماس وطني طوال مدة تعايشه مع أفعال بوش وسياساته. وكان يلتسين قد هاجم الولايات المتحدة والغرب لحماية أجنحته السياسية، أما بوتين فاختار بدلًا من ذلك دعم المجموعة الأكثر انتقادًا لأمريكا والموجودة في روسيا، ليعزز سيطرته على البرلمان بنفس الطريقة البطيئة، والخفية، والمنهجية التي مارسها مع الجيش.

إحدى المبادرات التشريعية المبكرة لبوتين في عام 2000م كانت إعادة هيكلة المجلس الاتحادي، الذي يضم حكام تسعٍ وثمانين من مناطق البلاد، وممثليهم الذين، كما أثبتوا وجودهم في قضية سكوراتوف، يعملون اليوم مستقلين عن الكرملين. وتأتي هذه الخطوة إلى جانب تعيين سبعة مبعوثين إقليميين، وقد واجهت معارضة في البداية، ولكنها نجحت في نهاية المطاف في وضع القادة الإقليميين تحت سيطرة بوتين. ومع مرور الوقت أصبح مجلس الشيوخ الذي أتعب يلتسين محفلًا يعج بالموالين لبوتين.

في السنوات الأولى لبوتين في الحكم، سيطر الكرملين أيضًا على أغلبية غير ساحقة في مجلس الدوما، وكان بعض إصلاحاته المبكرة- خصوصًا محاولة السماح للخصخصة الزراعية- ما زالت تواجه معارضة. ازدرى بوتين السياسة الحزبية والمناورات التشريعية، مثلما ازدراها حين كان نائب أناتولي سوبتشاك في مجلس مدينة بطرسبورغ؛ فهو يرى أن الكتل السياسية في السلطة التشريعية ينبغي أن تكون الأدوات التنفيذية للكرملين، وزعم أنه لا يرغب في إعادة إنشاء حكم الحزب الواحد الذي حكم روسيا باسم الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، واعتزم إنشاء عدد من الأحزاب، التي تعتمد اعتمادًا فعالًا على الكرملين، وفي يوليو/تموز 2001م وقع بوتين على قانون جديد للانتخابات؛ للحد من عدد الأحزاب، بوضع شرط حصول الحزب على عضوية أكثر من خمسين ألف منتسب موزعين على نصف البلاد على الأقل. ظاهريًّا كانت الفكرة إنشاء نظام بحزبَين أو ثلاثة أحزاب كتلك الموجودة في أوروبا، والفرق الوحيد هو أن جميع الأحزاب ستكون موالية، أو على الأقل مطواعة، وعلى الرغم من إعلان التزامه بالديموقراطية، ظل صبره قليلًا في المناقشات ذات النتائج غير المؤكدة. وعلى الرغم من أن حزب الوحدة قد سبق أن شارك في السيطرة على لجان البرلمان مع الشيوعيين، فإنه بغية تعزيز قوته نسق مساعدو بوتين الاندماج مع حزب بريماكوف ولوجكوف، وأعلنوا ذلك في المؤتمر الجديد في 1 ديسمبر/كانون الأول عام 2001م، وقرر الحزب الجديد أن يسمي نفسه بحزب روسيا المتحدة، المنظمة التي امتلأت بالضباط والبيروقراطيين من (حزب سلطة) بوتين.

كان العقل المدبر لإستراتيجية سياسة الكرملين هو فلاديسلاف سوركوف، وهو شيشاني المولد، عبقري الدعاية، ولديه أرضية في الاستخبارات العسكرية، ومن الذين عملوا في عقد التسعينيات لثلاثة بنوك لثلاثة من القلة النخبوية في روسيا، من ضمنهم ميخائيل خودوركوفسكي. انضم إلى فريق موظفي ألكسندر فولوشين حينما كان يلتسين رئيسًا، وساعد- أكثر من أي شخص آخر- في رسم الصورة العامة الحِرَفية لبوتين، وهندس إستراتيجياته السياسية. كان شابًّا ساخرًا للغاية، من محبي موسيقى الراب الأمريكية- فقد

احتفظ بصورة توباك شاكور بجانب صورة بوتين- وشكسبير الذي عدَّ عمله ينبوع الإلهام السياسي، حتى قال الروائي والناشط الروسي، إدوارد ليمونوف، ذات مرة: «لقد حوَّل سوركوف روسيا إلى مسرح رائع لما بعد الحداثة، حيث النماذج السياسية القديمة والجديدة».

في أبريل/نيسان 2002، انقلب سوركوف على قيادة مجلس الدوما فيما أصبح يعرف باسم (**انقلاب المحفظة**)؛ فقد أطاح حلفاء الكرملين بالشيوعيين في وظائف اللجنة التي عرضها بوتين عليهم بعد وقت قصير من الانتخابات عام 1999م، في حين ألقى المتحدث الشيوعي غينادي سيليزنيوف بدعمه للكرملين متخليًا عن رفاق حزبه. ثم ضرب بوتين- الذي لم يبد اهتمامًا بالمشاحنات الصغيرة بين الدوقات والنبلاء كما هو حال القيصر- ضرب رأس القيادة الشيوعية بلا رحمة، ولم يعد بإمكان غينادي زغانوف، رئيس الحزب، الذي مثَّل ذات مرة تهديدًا قويًّا لكرملين يلتسين، اليوم إلا أن يتلفظ بالكلمات النابية ليعبِّر عن احتجاجه، وقال بمرارة: «حتى في سكره، كان يلتسين يمتلك الشجاعة لجمع قادة الفصائل المختلفة في اللحظات الحرجة والبحث معهم عن حل، بدلًا من شن حرب جديدة»[26].

دافِعُ بوتين لإجراء تغييرات في القيادة التشريعية أصبح واضحًا بعد أسبوعين عندما ألقى خطابه السنوي أمام المجلس الاتحادي، الذي يتألف من مجلسي الشيوخ والنواب في البرلمان؛ ففي قاعة رئاسة الكرملين الرخامية، عدد بوتين إنجازاته: انخفاض نسبة البطالة، وزيادة في الدخل، وميزانية متوازنة، وعودة روسيا إلى مكانتها بوصفها ثاني أكبر منتج للنفط في العالم، لكن عبَّر عن أسفه لبيروقراطية الحكومة (الكبيرة والخرقاء)، والوزارات المتخلفة التي لا تزال تعمل وكأنها (فروع للاقتصاد المركزي). كان يحتاج إلى أغلبية برلمانية لا لمناقشة القضايا، وإنما لتمرير التشريعات اللازمة للكرملين لفرض الحلول. سرد على مدار ساعة مجموعة من الإصلاحات الليبرالية التي ترمي إلى تحويل السلطة القضائية، وإنشاء نظام الرهن العقاري لتوسيع سوق الإسكان، وإنهاء مسوَّدة المشروع، وتقديم جيش متطوع محترف، وكتابة اللوائح التي تعجِّل عضوية روسيا في منظمة

التجارة العالمية. كان جدول أعمال طموحًا، ولديه اليوم قليل من العقبات التي تحول دون فرض ذلك.

في خطابه، لم يخصص بوتين أكثر من دقيقة للحرب التي استحوذ بها على السلطة، لأنها لم تعد الانتصار الذي وعد به؛ إذ في عام 2001م أعلن بوتين أن انسحاب الجيش الروسي من الشيشان سيبدأ قريبًا، ولكن الحرب لم تنته بعد. وراقبت القوات الاتحادية حدود الجمهورية ومعظم المدن والقرى، ولكن في النهار فقط، واستمرت هجمات المتمردين لقتل الجنود الروس، الذين ثأروا باحتلال القرى الذي تمخض عنه الاعتقالات والتعذيب والموت[27]. وعلى الرغم من وضع الكرملين للقائد المتمرد والإمام أحمد قاديروف، زعيمًا مواليًا للجمهورية، لم يتمكن الجيش والـ FSB من سحق التمرد، وبقي قادته طلقاء، يختبئون في الجبال الواقعة على الحدود، أو في القرى التي بقيت ملتزمة باستقلال الشيشان.

تلاشت الشعبية الأولى التي نالها بسبب الحرب؛ فقد أظهرت استطلاعات الرأي أن معظم الروس لا يعتقدون بإمكانية كسبها، وهددت الشيشان بأنها ستصبح مستنقعًا يجب أن يُحل- كما ترى الغالبية- من خلال محادثات السلام، وأصبحت الخسائر المتزايدة تهدد لا إستراتيجية بوتين فقط، وإنما رئاسته أيضًا. ظلت الحرب حربًا صليبية تخص بوتين، وكانت الدعاية الرسمية ناجحة حتى إنه «بدأ يُصدق الإصدارات المنقَّحة للأحداث، ليقع ضحية ما فعلته يداه»[28]، وعندما حلت كارثة على نطاق واسع عندها فقط لم تعد تستطيع دعاية الكرملين أن تخفي الخراب، ولمح بوتين أوجه قصور الإستراتيجية التي اتخذها والبيروقراطيات الأمنية التي اعتمدها في التنفيذ.

يوم 19 أغسطس/آب اقتربت مروحية مي Mi 26 من القاعدة العسكرية الروسية الرئيسة في الشيشان، في فضاء جوي مترامي الأطراف في خان قلعة، خارج جروزني، كانت تحلق أكبر طائرة في العالم، مصممة لحمل أطنان من المعدات، وما لا يقل عن ثمانين راكبًا، والطاقم، وكانت وزارة الدفاع قد أوقفت في عام 1997م استخدامها لنقل الركاب، وحصرتها

في البضائع؛ في هذا اليوم كان 147 شخصًا على متن الطائرة من الجنود والمدنيين، من بينهم زوجات عدد من الضباط، وشاب واحد على الأقل، وهو ابن ممرضة في الجيش صعد الطائرة متطفلًا. وبينما كانت الطائرة تهبط أصابها صاروخ في محركها الأيمن، فهبطت على بعد ألف قدم من المهبط المخصص، وسط ألغام زرعت لحماية محيط القاعدة، وكانت محملة بالوقود لرحلة العودة، فانفجرت الطائرة وتحولت إلى كتلة من اللهب، وحوصر معظم الركاب الذين نجوا من هبوطها داخل المقصورة التي تحترق، والذين نجوا من ذلك اصطدموا بالألغام في أثناء هروبهم.

عاد الجيش، مرة أخرى، إلى الكذب حول سبب الإصابات التي وصلت في نهاية المطاف إلى 127، من بينهم الطفل ووالدته الممرضة، وكانت هذه أسوأ كارثة لطائرة حوامة في التاريخ، وأكبر خسارة في الأرواح في الحرب، وكارثة عسكرية أكثر فتكًا من كورسك.

بوتين، بعد أن تعلم الدرس السياسي الصعب من كورسك، اعترف على الفور بالحادث، ووعد بالتحقيق مع سيرجي إيفانوف المسؤول عن ذلك. وفي اليوم التالي سافر إيفانوف إلى خانكالا، وأقال قائد جناح الطيران في الجيش، العقيد جنرال فيتالي بافلوف، الذي احتج بأنه كان كبش فداء. اشتكى بافلوف من صيانة المروحية، وقال إن قرار منع تحميل الركاب يطبق فقط في وقت السلم، في حين أن البلاد لا تزال في حالة حرب. «إذا لم يكن هناك قتال، فلماذا تموت قواتنا على أيدي مسلحين؟»[29].

زاد شعور بوتين بالإحباط من قادته، وبعد يومين من حادث التحطم التقى سيرجي إيفانوف أمام كاميرات التلفاز في قاعة كبار الشخصيات في مطار خارج موسكو، وبصرف النظر عن العناوين الرئيسة والمؤتمرات الصحفية، التي بثها التلفاز، أصبح اللقاء الثنائي المتلفز وسيلة مميزة للتواصل عند بوتين، والسيناريو المُعَد للقائد الذي لا يناقش، والذي يمتدح ويشجع أو يتغطرس على مرؤوسيه، حتى مع صديق مقرب كإيفانوف. سأله بوتين

مستفسرًا: «كيف يمكن أن يحدث ذلك، مع أن وزير الدفاع أصدر أمرًا يحظر فيه استخدام مروحيات من هذا النوع لنقل الناس، ولا يزال يجري نقلهم؟»[30].

أجاب إيفانوف، مؤديًا دوره في توجيه اللوم العلني: «لا يوجد ما يسوِّغ ذلك يا فلاديمير فلاديميروفتش». وبعد أسبوعين اضطر الجنرال بافلوف إلى تقديم استقالته، ووُبِّخ تسعة عشر من القادة الآخرين، من ضمنهم اثنا عشر من الجنرالات، وكان الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه بوتين بتاتًا في أعقاب الكارثة هو التغيير في إستراتيجية الحرب.

على الرغم من تقديم الوسطاء الاقتراحات لإجراء محادثات سلام في وقت سابق من ذلك العام، فإن بوتين لم يأخذ بها، وكان الشيء الوحيد الذي لا يقبل بغيره من المتمردين الشيشان هو الاستسلام غير المشروط. وجاء ردُّ المتمردين بعد ذلك بوقت قصير في شريط مصور أظهر وجود الصاروخ المحمول على الكتف الذي أسقط المروحية، والراوي كان أصلان مسخادوف- على الرغم من أن ثمة شائعات تحدثت عن وفاته- ويحيط به الرجال الملتحون الذين كان يشير إليهم باسم (**مجاهدوننا**)، وقد جلس أمام العلم الأخضر للشيشان، الذي لم يعد يحمل صورة الذئب، رمز النضال من أجل الاستقلال لأكثر من عقد من الزمن، بل استبدل به سيف وآية قرآنية[31].

قال شاب وهو يتحدث ببطء أمام الكاميرا ويجلس متربعًا أمام جهاز الحاسوب المحمول: «**جئنا** إلى العاصمة الروسية لوقف الحرب، أو أننا سنموت هنا في سبيل الله»[32]، وكان الرجل الذي يتحدث هو موفسار باراييف، وهو مقاتل متمرد وابن شقيق أحد القادة الشيشان الأكثر شراسة، أربي باراييف، وكانت القيادة العسكرية الروسية في شمال القفقاز قد أعلنت انتصارها قبل أسبوعين، وقالت إن موفسار باراييف قُتل في 10 أكتوبر/تشرين الأول 2002م، متناسية أنه أُعلنَت وفاته في العام الذي سبقه[33]. اليوم باراييف في موسكو، وهو على مسافة ثلاثة أميال ونصف من الكرملين الذي يعمل فيه بوتين في مكتبه كعادته حتى وقت متأخر، ولن يغادره في الأيام الثلاثة المقبلة[34].

باراييف الذي مرَّ عيد ميلاده الثالث والعشرين قبل ثلاثة أيام، وكان خجلًا منه، هو اليوم الوجه الجماهيري (لمفرزة خاصة) من المقاتلين؛ مكونة من 22 رجلًا وتسع عشرة امرأة، وصلوا إلى موسكو في وقت سابق من الشهر، وقد سافروا إما فرادى أو مثنى في القطارات والحافلات من داغستان، يتجنبون تدقيق الشرطة التي تخشى المسافرين القادمين من القفقاز، وقد جاؤوا بأمر من (الأمير العسكري الأعلى) للشيشان، شامل باساييف، وإن كانوا قد أعلنوا ولاءهم على مضض لرئيسها المزعوم، أصلان مسخادوف. وقد أمضوا أسابيع في موسكو يستعدون لهجوم يعيد الحرب الدموية والوحشية إلى العاصمة، وأرادوا مكانًا عامًّا يضمن احتجازًا جماعيًّا للرهائن من المواطنين الروس العاديين، وبعد أن فكروا في البرلمان، استقر رأيهم على مسرح.

والمسرح الذي اختاروه هو في شارع دوبروفكا جنوب غربي موسكو، القاعة التي لا تزال تعرف باسمها السوفييتي، قصر الثقافة لمصنع محمل الكريات رقم 1 الحكومي، وهناك جزء من المبنى خُصص للمثليين جنسيًّا ليكون ناديًا لهم (يرتادونه) «وكان مأهولًا بأعضاء في البرلمان ورجال الأعمال البارزين، والسياسيين كذلك»، كما يشاع، ويجري ترميمه وتحديثه. تنكر مقاتلو مجموعة باراييف بهيئة عمال بناء، ووضعوا خططًا لاقتحام المسرح[35].

كان المسرح يعرض أول عرض مسرحي موسيقي على نمط برودواي روسيا: نورد أوست، استنادًا إلى الرواية السوفييتية الشعبية، **القبطانان**، لمؤلفها فينيامين كافيرين. كانت القصة ميلودراما رومانسية امتدت طوال النصف الأول من القرن العشرين من استكشاف القطب الشمالي، وحصار لينينجراد في الحرب الوطنية العظمى. والتلحين الموسيقي لجورجي فاسيلييف، الذي أنفق أربعة ملايين دولار لإنتاجها والترويج لها على لوحات وملصقات موزعة في جميع أنحاء المدينة، فقد حسب أن الطبقة الوسطى الجديدة في روسيا التي استفادت من الازدهار الاقتصادي الذي أوصله بوتين إلى عامة الشعب، قد انتعشت بما يكفي لدفع 15 دولارًا سعرًا للتذكرة. وفي ليلة العرض رقم 323، في 23 أكتوبر/تشرين الأول 2002م، تحرك الشيشان عندما بدأ الفصل الثاني، وكان الممثلون الذين يرتدون اللباس

الموحد لطياريي القوى الجوية للجيش الأحمر يرقصون رقصة النقر على المسرح عندما دخل رجل ملثم من الجهة اليسرى لخشبة المسرح، فأصيب أقرب ممثل له بالصدمة، ولكن معظم الجمهور اعتقد أن ذلك جزء من الأداء، إلى أن أطلق النار في السقف من بندقيته الرشاشة AK-47، وانضم إليه مزيد من الرجال المقاتلين المموهين على خشبة المسرح[36].

أغلق مقاتلو باراييف القاعة الرئيسة، وفخخوا المبنى بالأسلاك والمتفجرات التي وضعوها عند الأعمدة التي تدعم شرفة المسرح، واتخذت النساء اللواتي يرتدين الحجاب الأسود مع نقوش عربية مواقع بين الجمهور؛ يحملن مسدسات، ويرتدين أحزمة بدت أنها أحزمة ناسفة، وهددن بتفجير أنفسهن إن أبدى أي شخص مقاومة، أو تجرأت السلطات على اقتحام المبنى، ولم تكن أعمارهنَّ تتجاوز تسع عشرة سنة، وكنَّ يعرفن بـ(الأرامل السود)، وهن إما زوجات المقاتلين الشيشان الذين لقوا حتفهم في الحرب أو بناتهم أو أخواتهم. طوال سنوات القتال في الشيشان كانت التفجيرات الانتحارية نادرة، وأثبتت أن المرأة أصبحت نذيرًا مرعبًا في المنحى الذي اتخذته الحرب في الشيشان.

في الصالة صرح أحدهم: «نحن في سبيل الله»، وأضاف: «إذا متنا هنا فلن تكون النهاية، فهناك كثيرون ينتظرون، وسوف نستمر»[37]. كان في الصالة 912 شخصًا، ومن ضمنهم فريق العرض والطاقم المسرحي والأجانب من أوروبا والولايات المتحدة، وتكشف الحصار على مدى اليومين المقبلين عن مشهد سوريالي متلفز، وخاطب باراييف الرهائن أنهم يستطيعون استخدام هواتفهم للاتصال بأحبائهم وأقاربهم، ويخبروهم أنهم سيموتون إذا لم تنه السلطات الحرب في الشيشان.

اليوم يحاصَر بوتين أيضًا، فقد تعهد بالقضاء على العصابات في الشيشان، لكن الحرب مستمرة على الأرض منذ ثلاث سنوات، تلتهم الجنود الروس وآلاف الشيشان، ومن ثم فقد خسر الدعم الشعبي للحرب الذي كان في البداية، وأخفق الجيش في قمع التمرد، واليوم تخفق الـ FSB أيضًا إخفاقًا ذريعًا في وقف هجمة في قلب موسكو. ألغى بوتين خططه للسفر

إلى ألمانيا والبرتغال ثم إلى المكسيك، وكان من المقرر أن يلتقي جورج بوش مرة أخرى، والتقى مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشيف، وأمره بالاستعداد للهجوم على المسرح، وأجاز له التفاوض فقط لكسب الوقت، فأرسلت FSB ثلاث فرق من القوات الخاصة إلى مكان الحادث، واستنكر ذلك رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف، ورأى أن الإنقاذ يمكن أن يؤدي إلى سقوط مئات القتلى، فأرسله بوتين بدلًا منه للقاء دولي في المكسيك، يريد- على ما يبدو- التخلص منه[38].

عدد من السياسيين البارزين والصحفيين، والضباط، ومن ضمنهم ممثل الشيشان في مجلس الدوما، أصلان بيك أصلاخانوف، اتصلوا هاتفيًّا بالخاطفين في الداخل، وسمحوا لهم بالتفاوض معهم في نهاية المطاف، فأُطلق على الفور تسعة وثلاثون رهينة، معظمهم من الأطفال. بعد ذلك دخل جريجوري يافلينسكي، الذي ينتمي إلى حزب يابلوكو وانتقد الحرب انتقادًا لاذعًا، إلى المسرح في تلك الليلة بعد حصوله على موافقة من الكرملين، الذي بدا عاجزًا عن السيطرة على وسطاء يدخلون ويخرجون، أو على المكالمات الهاتفية، أو فيديو مطالب الإرهابيين في وقت لاحق. ذهل بوتين من المقاتلين «الصغار جدًّا»، كانوا مجرد أطفال عندما انهار الاتحاد السوفييتي وأعلنت الشيشان استقلالها عام 1991م[39]، ويشك حتى في ذهابهم إلى المدرسة؛ فكل ما عرفوه تعلموه في ميدان المعركة في القفقاز، وقلما استطاعوا التعبير عن مطالبهم، فضلًا عن التفاوض، وعندما طالبوا بوضع حد للحرب، سأل يافلينسكي: «ماذا يعني هذا؟». ثم غادر محبطًا، ولكن كان يأمل أن تقلل الخطوات الإضافية، ومن بينها إطلاق مزيد من الرهائن، من عدد الضحايا على الأقل. عاد يافلينسكي إلى بوتين في الكرملين، وشارك في سلسلة من الاجتماعات معه بشأن التقدم الذي تحققه المفاوضات، واتضح له وقتها أن بوتين يرأس أيضًا مجموعة منفصلة من الاجتماعات مع باتروشيف وبعض الأمنيين الآخرين، وأن أناسًا من أمثاله لم يدعوا للحضور.

في اليوم الثاني من الحصار أصبحت الأوضاع في القاعة سيئة جدًّا مع استسلام الرهائن للجوع والجفاف والإرهاق والخوف، وأطلق **الإرهابيون** النار على عدة أشخاص، من

بينهم امرأة ركضت داخل المبنى لسبب غير مفهوم، وعنصر مغاوير الـ FSB الذي اقترب من الفناء الخارجي، وعلى الرغم من ذلك واصل الوسطاء الدخول إلى المسرح، ومنهم آنا بوليتكوفسكايا، وهي صحفية تقاريرها لاذعة من الشيشان، وكانت قد تحدت وأغضبت الجيش والكرملين، وقد نجحت هي والطبيب البارز، ليونيد روشال، في إقناع المقاتل الذي يسمي نفسه أبا بكر بالسماح لها بإدخال صناديق من العصير للرهائن. بوليتكوفسكايا التي ولدت في نيويورك لدبلوماسيين سوفييتيَّين عُيِّنا في الأمم المتحدة، كانت أحد الصحفيين الروس الشجعان الذين غطوا الحرب، وظلت تنتقد هذه الحرب بكل ما أوتيت من فصاحة وحماسة. وتعاطفت تقاريرها مع جميع الذين عانوا؛ من مجندين روس، ومتمردين، وما بينهما من مدنيين محاصرين، لكنها كرهت قادة الجيش غير الأكفياء وغير الإنسانيين، وعلى رأسهم القائد العام الذي تظن أنه من جاء بهذه الكارثة إلى القفقاز. لقاؤها بأبي بكر جعلها تحس بأن ساقيها «تتحولان إلى هلام»، لكنها استطاعت إقناعه بأن يسمح لها بلقاء اثنين من الرهائن؛ أحدهما صحفية تدعى آنا أدريانوفا، التي تحدثت يائسة وقالت: «نحن كورسك الثانية»[40].

مزيد من الإفراجات بدا وشيكًا، بعد أن سُمح لرهينة أمريكي، هو ساندي بوكر، بمهاتفة السفارة الأمريكية، وأخبر دبلوماسيًّا هناك أن باراييف وافق على إطلاق الأجانب في صباح اليوم التالي[41]. أعلن الكرملين استدعاء مبعوث بوتين إلى المنطقة الجنوبية فيكتور كازانتسيف، كان المتمردون يعتقدون أنه سيصل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، لكنه لم يتوجه إلى موسكو.

بدأ اقتحام المسرح، بناء على أوامر بوتين، بعد الساعة الخامسة صباحًا بوقت قصير، وكان يبدو أن الإرهابيين استرخوا وتوقعوا مزيدًا من المفاوضات في اليوم التالي. وتسللت القوات الخاصة الروسية إلى المبنى من خلال نادي مثليي الجنس، وأدخلت أجهزة تنصت لمعرفة مواقع الإرهابيين، وبسبب الخوف من الانفجارات التي قد تدمر المبنى، كان عليهم

قتل الإرهابيين، لا القبض عليهم[42]، ولذلك فقد بدأ تسريب الغاز عديم الرائحة إلى القاعة الرئيسة، بضخه من خلال أنظمة التهوية في المبنى. كان الغاز أحد مشتقات رذاذ مخدر قوي (الفنتانيل)، طورته مخابر الـ FSB، وقد تسبب إطلاقه بإرباك للخاطفين والرهائن، واتصلت آنا أدريانوفا، الرهينة التي قابلتها بوليتكوفسكايا، هاتفيًّا بمحطة إذاعة صدى موسكو وقالت إن الإرهابيين بدا عليهم التردد وليسوا مستعدين لإعدامنا، وقالت بعد سماع دوي إطلاق النار: «هل تسمعين؟ سنذهب جميعًا إلى الجحيم»[43]، لكن لم يذهبوا إلى الجحيم لسبب مجهول. تسبب الغاز بالنوم لمعظم الرهائن، في حين خاضت قوات الكوماندوس معارك مع الإرهابيين الذين لم يكونوا في القاعة الرئيسة، أو لم يتأثروا كما حدث لغيرهم بذلك الغاز. واستمر القتال أكثر من ساعة قبل أن يُحشَر باراييف في ركن من الطابق الثاني ليهبط خلف الشرفة، ثم قتل الواحد والأربعون خاطفًا جميعهم، ومعظمهم برصاص في الرأس.

ويبدو أن الإنقاذ كان سيبدو نصرًا مؤزرًا؛ إلا أن الذين خططوا ونفذوا الاقتحام لم يولوا أي اهتمام لما يمكن أن يسببه الغاز من تأثير في الرهائن الضعفاء، ومن ثم تحول الاقتحام الناجح إلى كارثة. بدأ إخراج أولى الضحايا الفاقدين للوعي في الساعة السابعة صباحًا، حيث وضعوا في صفوف على الدرج الأمامي للمسرح، وتوالت الأعداد أكثر فأكثر، توفي بعضهم، ولكن كان أكثرهم فاقدًا للوعي، وقد تركوا وسط أكوام متزايدة من الجثث، وتزاحمت فرق الإنقاذ، الذين كانوا مستعدين لعلاج الجروح الناتجة عن الرصاص أو شظايا القنابل، لا الناس المختنقين بألسنتهم المنتفخة. وعلى الرغم من أن السلطات أعدت الترياق لمواجهة الآثار المترتبة على الغاز، فإنه لم يكن متوافرًا ما يكفي من الجرعات، ولم يكن المسعفون على الساحة، ولا الأطباء في المستشفيات، يعرفون كيفية التعامل معه. في النهاية توفي 130 رهينة في أثناء الحصار، خمسة منهم فقط توفي بطلق ناري؛ اثنان فقط منهم من الرهائن داخل المسرح، والثلاثة الآخرون كانوا المرأة التي اقتحمت المسرح في اليوم الأول، ورجلين آخرين قتلوا بالرصاص حين كانوا يقتربون أو يدخلون المبنى في أثناء

الحصار[44]. وقد وصف الطبيب الذي شارك في الإنقاذ حالة الارتباك والفوضى قائلًا: «لم تكن مؤامرة لعينة، بل مجرد فوضى سوفييتية».

ألقى بوتين بيانًا تلفازيًّا في تلك الليلة، وظهر على نحو متقطع في أثناء الحصار، حيث ظهر فقط في لقطات قصيرة من اجتماعه مع مستشاريه الأمنيين، وأعضاء البرلمان، والقادة المسلمين. كان متزنًا، فولاذي العينين، يغلي بغضب حادٍّ، يشير إلى الإرهابيين بأنهم «الحثالة المسلحة»، وذكر أنه كان يأمل في الإفراج عن الرهائن، ولكنه استعد للأسوأ، وأضاف: «ما أُنجز شيء مستحيل، لقد أُنقذ حياة المئات والمئات من الناس. لقد أثبتنا أن روسيا لا يمكن أن تركع»؛ فقد نظر بوتين إلى الإنقاذ على أنه نصر على الرغم من اعترافه أنه مؤلم.

قال قبل أن تعلن السلطات الكشف عن الحصيلة المروعة: «لم نتمكن من إنقاذ الجميع، أرجو أن تسامحونا».

الحصار المرعب عزز وجهات نظر بوتين أن روسيا تواجه تهديدًا وجوديًّا؛ فالمتمردون في خاصرة البلاد يريدون تمزيق البلاد بدعم دولي، والحل الوحيد هو أن نقضي عليهم، ومن ثم فإنه حين دان أصلان مسخادوف الهجوم، من خلال ممثله أمام جمع من الشيشان في كوبنهاغن، وعرض الدخول في محادثات للسلام دون أي شروط، رفض الكرملين العرض، وبدلًا من ذلك أصدرت النيابة العامة الروسية مذكرة توقيف دولية بحق ممثل مسخادوف، وهو الفنان أحمد زكاييف الذي تحول إلى ناشط وشارك في المؤتمر، فاعتقلته الدنمارك لكنها رفضت تسليمه، وقالت بعد اعتقاله بشهر إن الروس اختلقوا دليل تورطه في الحصار، وهكذا فقد بات بوتين يرى أن الغرب يؤوي اليوم الأعداء اللدودين لروسيا.

بعد أن انتهاء العملية بأسبوع، ادعى شامل باساييف المسؤولية عن الحصار، قائلًا إنه أراد أن يقدم للروس «معاينة مباشرة لكل المفاتن التي شن الكرملين من أجلها الحرب»، وبدلًا من استغلال الخلاف القائم بين باساييف ومسخادوف، يرفض بوتين اليوم حتى النظر

في إمكانية إجراء محادثات سلام. يعتقد بعضهم أنها الفكرة التي قد تكون وراء الحصار كل هذا الوقت. وظهرت جولة جديدة من نظريات المؤامرة لتقول إما أن فريق بوتين هو الذي دبَّر الحصار، أو أنه لم يفعل شيئًا لمنعه، مستغلين ذلك كما استغلوه في تفجيرات المباني السكنية قبل ثلاث سنوات لتقويض المطالبات بالهدنة عن طريق التفاوض، وقد عمَّق تعتيم الـ FSB الشكوك.

رفض المسؤولون مناقشة كيف أن واحدًا وأربعين مقاتلًا مع الأسلحة والمتفجرات تمكنوا من التسلل إلى العاصمة، من غير أن يكتَشَفوا، ورفضوا الإفصاح عن نوع الغاز الذي استخدم لتخدير من هم داخل المسرح. ورفض مجلس الدوما- تحت ضغط من بوتين- منح الإذن بإجراء تحقيق، وترك كثيرًا من الأسرار التي لن تُحَلَّ إلى الأبد. وعندما سعى الناجون من الحصار إلى التعويض من خلال المحاكم، واجهوا مضايقات من السلطات، وهزيمة تلو هزيمة، إلى أن حصلوا على قدر من العدالة بعد أكثر من تسع سنوات في وقت لاحق[45].

الشكوك- وحتى الأسئلة- كانت تغضب بوتين؛ ومن ذلك أنه في الشهر التالي لاجتماع في بروكسل مع الاتحاد الأوروبي، حين سأله مراسل لوموند هل كان استخدام الألغام الأرضية في الشيشان قتلًا للمدنيين الأبرياء فضلًا عن الإرهابيين الذين كان يعتزم قتلهم؟ دافع بوتين بشراسة مساجلًا أن الإسلاميين أرادوا النصر في الشيشان ليكون جزءًا من الجهاد في جميع أنحاء العالم الذي يستهدف روسيا والولايات المتحدة وحلفاءها، وأجاب ساخطًا جدًّا: «إذا كنت مسيحيًّا فأنت في خطر، وإذا قررت أن تصبح مسلمًا فهذا لن يوفر لك الأمان أيضًا، لأنهم يعتقدون أن الإسلام التقليدي أيضًا معادٍ لأهدافهم»، وتابع، بلغته الفظة حتى إن المترجمين لم يكلفوا أنفسهم عناء الترجمة: «إذا كنت عازمًا على أن تصبح راديكاليًّا إسلاميًّا كاملًا، ومستعدًّا للخضوع لعملية الختان، فإنني أدعوك إلى موسكو؛ نحن أمة متعددة أجناسها، ولدينا خبراء في هذا المجال أيضًا، وسأوصي أن تتم العملية بحيث لا شيء ينمو فيك مرة أخرى»[46].

الفصل الثالث عشر

الآلهة نامت على رؤوسهم

في 19 فبراير/شباط 2003م، عقد بوتين لقاءً آخر من لقاءاته الدورية في الكرملين مع المصرفيين الروس، والصناعيين، ورجال النفط؛ وهم القلة الذين هيمنوا على الحقبة ما بعد السوفييتية. في أول لقاء بينهم في عام 2000م، تصالح بوتين مع معظمهم؛ جوسينسكي وبيريزوفسكي، باتفاق غير رسمي: يمكن أن تبقى ثرواتهم معهم ما بقوا خارج شؤون الدولة؛ فلن يلغي الخصخصة المثيرة للجدل في التسعينيات، وسيترك القلة وثرواتهم، ما دام أنهم أنهَوا معاركهم المتهورة والدموية التي تبقيهم أثرياء كبارًا في كثير من الأحيان، وذلك نزولًا عند رغبة الكرملين، وكتب في رسالته المفتوحة للناخبين في أزفستيا خلال حملته الانتخابية: «ماذا يمكن أن تكون عليه العلاقة مع مثل تلك القلة؟ هي العلاقة نفسها مع أي شخص آخر؛ العلاقة نفسها مع صاحب مخبز صغير أو ورشة لإصلاح الأحذية»[1].

عندما جاء بوتين إلى السلطة راح الصحفيون والمراقبون السياسيون الذين اعتادوا على تحليل السياسات الروسية في عقد التسعينيات يبحثون عن أدلة على تأثير القلة الأوليغارشية، دون أن يعرفوا أن ذلك لم يعد ممكنًا في الوقت الحاضر؛ فقد أصبح فلاديمير جوسينسكي خارج البلاد، وكذلك بوريس بيريزوفسكي، الذي أعلن- بوقاحة- نفسه زعيمًا للمعارضة في المنفى، والبقية تكيفوا مع عصر بوتين.

كانت الاتفاقية في عام 2000م هدنة عن طريق التفاوض، والتزم بأحكامها الطرفان على وجه العموم، على عكس الاعتقاد السائد أن بوتين كان يصرُّ على بقاء القلة بعيدة عن السياسة تمامًا، فإن بعضًا منهم، مثل رومان أبراموفيتش، تقلد مكتبًا رسميًّا بالانتخاب، لكن لم يفعلوا شيئًا يعارضون فيه الكرملين. كبار رجال الأعمال، في المقابل، وافقوا على دفع الضرائب وتجنب السجالات العامة مع بوتين على السياسات التي تؤثر في ثرواتهم، وانضموا أيضًا للاتحاد الروسي للصناعيين ورجال الأعمال، الذي أصبح المنتدى المؤسسي لمناقشة القضايا التي تواجه الاقتصاد الروسي، ثم كانت اجتماعاتهم اللاحقة مع بوتين على مستوى منخفض، مخصصة للضرائب والإصلاحات القانونية، وآفاق الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، ومصير صناعة السيارات المتعثرة.

اليوم في عام 2003م، أكثر من عشرين من أغنى الرجال في البلاد الذين تتجاوز قيمة ممتلكاتهم اقتصادات كاملة لعدد من البلدان، اجتمعوا مرة أخرى لمناقشة شيء أكثر حساسية بكثير، تقاطع رجال الأعمال والحكومة، تلك العلاقة الغامضة التي يزدهر فيها الفساد. في الكرملين وفي قاعة كاترين، الغرفة البيضاوية ذات اللون الأزرق الفاتح والذهبي والمزدانة بالمنحوتات المجازية التي تستحضر (روسيا) و(العدل)، افتتح بوتين اللقاء بالخطوط العريضة لمقترحاته بشأن الإصلاحات الإدارية، التي وعد بها حين التقيا قبل عام، وقال بوتين للمجتمعين، بلهجة إدارية عادة ما يستخدمها في ظهوره تلفازيًّا: «تحدثنا عن تفسيرات عشوائية للقانون من قبل بعض الوكالات، وعن الإجراءات التعسفية من قبل البيروقراطيين وهلم جرًّا»، وأضاف: «في هذا الصدد مسألة الفساد واستمراريته أثيرت كثيرًا في البلاد مرارًا وتكرارًا»، قال- كما لو أنه المصلح الذي وعد أن يكونه عند توليه منصبه-: «من الواضح أن الفساد لا يمكن القضاء عليه من خلال اتخاذ تدابير عقابية فقط؛ بل يمكن تحقيق كثيرٍ من خلال تهيئة الظروف في السوق التي يمكن من خلالها الانصياع للقوانين لا الخروج عنها».

سبق لرجال الأعمال الكبار أن وافقوا على جدول أعمال لتقديمه إلى بوتين، وتوقعوا أن يكون اللقاء مشحونًا. تحدث أولًا، ألكسي مورداشوف من سيفرستال، شركة الحديد والتعدين، مركزًا على المعوقات الإدارية في تطوير المشاريع الصغيرة والمتوسطة. ثم تحدث ميخائيل خودوركوفسكي ابن التاسعة والثلاثين عامًا، الذي يرأس إمبراطورية نفطية ومصرفية تشمل شركة يوكوس النفطية، التي حصل عليها من خلال صفقة خصخصة غامضة مثل كل الصفقات في عقد التسعينيات، وقد كان عضوًا في الكومسومول حين كان طالبًا في العهد السوفييتي، لكن كان أصغر من أن يكون له تجربة العمل في النظام السوفييتي، و«لم يتعلم الخوف منه»[2]، كان خودوركوفسكي رجلًا انفعاليًّا، بشعر أجعد وأشيب، وكان أقل شهرة ونجومية من القلة الأخرى في التسعينيات، الذين انتهكوا القواعد والقوانين، ويتباهون بنفوذهم، مع أنه ليس أقل قوة منهم، وبعد أن تخلى عن أسلوبه الفظ، والشارب الذي كان يفضله حينما كان شابًّا، جعل لنفسه مظهر الرجل الزاهد في الشركات، بيل غيتس الروسي. ارتدى نظارات من دون إطار، وفضَّل الكنزات الصوفية ذات الياقة المدورة، وركز على الأجانب، وخصوصًا الأمريكيين؛ يقدِّم لهم الخبرة في مجال استخراج النفط، وجعل يوكوس نموذجًا لشركة دولية شفافة حديثة.

بصفته رجل أعمال فقد كان طموحًا، حتى ظنه كثيرون ذا قلب متحجر، لكن مع صعود بوتين في السلطة تجاوزت طموحاته مجرد مراكمة ثروة، ومن ثم فقد توجه- مثل أقطاب اللصوص الأمريكيين في العصر الذهبي- إلى العمل الخيري لتلميع صورته؛ فتبرع بالمال للمنح الدراسية والمساعدة لضحايا الكوارث، وفي عام 2001م أسس منظمة تدعى (روسيا المفتوحة)، على غرار معهد المجتمع المفتوح لجورج سوروس، لدعم تنمية المجتمع المحلي، والصحة والرعاية الاجتماعية، والأعمال التجارية الصغيرة. ومع أن كثيرين كانوا ينظرون إليه بسخرية، فقد كان يتصور أن بإمكانه أن ينشئ مجتمعًا على غرار الكومسومول الذي يمكن أن يفعل اليوم أكثر بكثير مما فعله في زمن الاتحاد السوفييتي: الانفتاح، والتعليم، والإبحار في السوق الحرة بلا قيود، والتواصل مع العالم على نحو متزايد.

لكن خودوركوفسكي لم يكن يعرف بوتين جيدًا؛ فقد التقيا فقط بعد أن أصبح الأخير رئيسًا للوزراء، وكانت عنده شكوك أنه بديل ليلتسين، غير أنه يرغب في مساعدة بوتين لتعزيز الأسس القانونية للرأسمالية الحديثة، وأعرب عن اعتقاده في الحدس الديموقراطي لبوتين، مع أن انطباعه الأولي عن بوتين أنه «شخص عادي»، تركت تربته في ساحات لينينجراد وفي الـ(كي جي بي) انطباعًا لديه لا يمكن أن يمحى: لا يؤمن بأي شيء سوى إيمانه بشعبه[3]. وعند لقائهما في عام 2003م كان خودوركوفسكي قد أصبح أغنى رجل في روسيا، وأصبح بوتين الرجل الأكثر قوة، وربما كان الاشتباك بينهما لا مفر منه، لكن في ذلك اليوم من أيام الشتاء لا أحد يرى أنه سيأتي.

تحت قبة قاعة كاترين، التي انسكب بها ضوء فصل الشتاء، ألقى خودوركوفسكي كلمة نيابة عن اتحاد الصناعيين، التي كان يفترض أن يلقيها قطب آخر، هو ميخائيل فريدمان، لكنه اعتذر، وقرأ من خلال عرض (باور بوينت) عنوانًا مثيرًا: «**الفساد في روسيا: إعاقة للنمو الاقتصادي**». لم يبد خودوركوفسكي واثقًا بما فيه الكفاية؛ فقد بدا «عصبيًّا للغاية، وشاحبًا»، وصوته كان في بعض الأحيان يبدو أنه صياح، كما لو أن الكلمات مقبوض عليها في حنجرته[4]، واستشهد باستطلاعات الرأي والإحصاءات الحكومية التي تظهر أن الفساد يعم البلاد، الذي يتجاوز 30 مليار دولار في السنة، أي ما يقرب من ربع ميزانية الدولة، والروس يخشون الذهاب إلى المحكمة بسبب الرِّشا التي ستدفع، كما قال، في حين يندفع الطلاب إلى المعاهد التي تدرب مفتشي الضرائب والموظفين المدنيين ويدفعون الرِّشا للدخول في هذه المعاهد؛ لأن العمل الحكومي أضمن طريقة لإثراء أنفسهم بالطريقة نفسها. فقاطعه بوتين بقوله إن إدانته لموظفي الخدمة المدنية كانت كبيرة، لكن استمر خودوركوفسكي، وهذه المرة تحول إلى شركة نفط الدولة المتعثرة، روزنفت، التي كان رئيسها ورئيس مجلس إدارتها حاضرين أيضًا في الغرفة، وتساءل عن شرائها لشركة نفط الشمال وهي منتج صغير على حافة القطب الشمالي، مقابل مبلغ مذهل يبلغ 600 مليون دولار، أكثر بكثير مما قدَّره المحللون وغيرهم من الشركات، ومن بينها شركته هو، وأشار إلى أن المبالغ المدفوعة

الإضافية قفزت أكثر بقليل من رشا المسؤولين التنفيذيين في روزنفت، التي دُفعت إلى المسؤولين في حكومة بوتين.

ذهب خودوركوفسكي في حديثه إلى أبعد من ذلك، وهو ما أزعج بوتين، هذا ما ذكره في وقت لاحق رئيس وزرائه ميخائيل كاسيانوف: «لم يكن بوتين مستعدًّا لهذا التصريح، وهذا ما أفقده أعصابه، كل ما قاله لم يكن جوابًا محضّرًا له، وإنما رد فعل عاطفي محض»[5]. وبلهجة لاذعة أجاب بوتين أن روزنفت كانت بحاجة إلى احتياطيات جديدة كأي شركة أخرى، وسأل بوتين بحدة: «وعلى أي حال لدى يوكوس احتياطيات زائدة، فكيف أمكن الحصول عليها؟»، وأشار أيضًا إلى أن شركة يوكوس لديها مشكلات ضريبية في ماضيها المتقلب، وقد عملت مع الحكومة لحلها «ولكن كيف نشأت أولًا؟»، ثم قال: «ربما لهذا السبب هناك خمس استمارات لكل شاغر في أكاديمية الضرائب»، وظهرت ابتسامة مصطنعة على وجه بوتين، وهو ما يعكس ارتياح بوتين وثقته بأنه قد فضح خودوركوفسكي ووضعه في المكان الذي يستحقه.

- «أعيد إليك قرص الهوكي».

فوجئ الحضور بالمشاعر العاطفية الجيّاشة التي انفجرت من جرّاء بيع صغير نسبيًّا ليس له أي عواقب حقيقية لشركة كبيرة مثل شركة يوكوس أو الحكومة نفسها. مستشار آخر من المستشارين الاقتصاديين لبوتين في الاجتماع؛ هو أندريه إيلاريونوف، لم يسبق أن رأى بوتين غاضبًا جدًّا كما رآه اليوم، فوجئ إيلاريونوف نفسه باتهام خودوركوفسكي؛ فقد افترض أن تضخم أسعار نفط الشمال كان خطأ، أو استثمارًا سيئًا، ربما تكون متورطة في رشا وعمولات معينة، ولكن أي عقود كبرى في روسيا لم يَطَلْها الفساد[6]؟

الدفاع الشرس لبوتين عن روزنفت أوضح أشياء لم يميِّزها بعضٌ من في القاعة من قبل؛ فقد كانت روزنفت أكثر من نعمة لبوتين، وكان لها علاقة شخصية به، وما فعله خودوركوفسكي لم يتجرأ أحد على فعله من قبل، فضلًا عن أن يكون في تصريحات خلال لقاء متلفز في الكرملين، قال إيلاريونوف عن خودوركوفسكي: «هو لا يعرف؛ وذلك هو السبب

الوحيد الذي جعله يتحدث عن ذلك، فهو لم يكن يعتقد أن بوتين كان متورطًا، وإلا فلن يتحدث عن أي شيء بهذا الخصوص»[7].

لم ينجح خودوركوفسكي في تقدير الخطر الذي يمكن أن يحل به في انتقاد الشراء الغامض، لكن سرعان ما أصبحت العواقب واضحة للجميع، وقال بعد ذلك ألكسي كونداروف، أحد المديرين التنفيذيين لشركة يوكوس النفطية: «لقد كان واضحًا لي أننا وقَّعنا مذكرات الموت الخاصة بنا»[8]. نُصح خودوركوفسكي بمغادرة البلاد كما فعل من قبل جوسينسكي وبيريزوفسكي، لكنه رفض؛ معتقدًا أن سلطته وأمواله وتأثيره والحقيقة المطلقة سوف تحميه، وتساءل: «ما الخطأ فيما قلته؟»[9].

ما فعله كان فضحًا إستراتيجيًّا لبوتين ترجع جذوره إلى بطرسبورغ قبل أكثر من عقد من الزمان، عندما زوَّر بوتين مستنداته مع فريق من مساعديه ورجال الأعمال تتركز حول معهد التعدين الذي دافع فيه عن أطروحته. كان بوتين يلتقي دوريًّا في منتصف التسعينيات لإجراء مناقشات غير رسمية حول الموارد الطبيعية للبلاد تحت إشراف مدير المعهد، فلاديمير ليتفينينكو، الذي أشرف على أطروحة بوتين[10]. الأفكار التي طرحها بوتين وأصدقاؤه، إيجور سيتشين وفيكتور زوبكوف، في مناقشاتهم وعملهم الأكاديمي أصبحت الأساس لإستراتيجية استعادة قيادة الدولة لموارد النفط والغاز الروسية الضخمة.

دعا ليتفينينكو، العالم الجيولوجي المحترم، لزيادة سيطرة الدولة بصفتها وسيلة لا لإنعاش اقتصادها المتعثر وحسب، وإنما لاستعادة مكانة روسيا بصفتها قوة عظمى، وأعلن قائلًا: «إنها الأداة الرئيسة التي في أيدينا- وبخاصة في يد بوتين- وحجتنا الجيوسياسية القوية»[11].

إستراتيجية بوتين لبسط سيطرة الدولة على الموارد الطبيعية كانت حكيمة وتدريجية، وحافظ بعناية على التوازن بين الليبراليين والمتشددين في حاشيته الخاصة، وفي عام 2001م عيَّن مساعدًا آخر له من بطرسبورغ، هو ألكسي ميلر، رئيسًا تنفيذيًّا لشركة غازبروم،

والمؤسسات الحكومية التي لم تخصخص رسميًّا، على الرغم من أن المسؤولين التنفيذيين الكبار فيها حصلوا على مزيد من الأسهم، ولم يتركوا للدولة سوى ما قيمته 38 في المئة، وقد أعطى ميلر تسعة وثلاثين فقط، وهو ما يعني «التفويض المطلق للتغيير»، وهو ما يعني أنه خلال العامين القادمين ستعود الشركة وأسهمها إلى سلطة الكرملين[12]. كذلك أكد من جديد سيطرة الدولة على روزنفت، الشركة التي يتهمها اليوم خودوركوفسكي بالفساد.

أُنشئت روزنفت شركةً حكومية في عام 1992م، ولم تستمر في عقد التسعينيات إلا بصعوبة، حين اقتحم أفضل أصولها المنافسون المضاربون ورجال العصابات[13]، فقد أخفقت في البيع في المزاد عام 1998م، عندما كانت روسيا يلتسين تعاني شح السيولة؛ لأنها نهبت كليًّا، وعندما وصل بوتين إلى الكرملين، ألقى بكامل ثقله لإعادة بناء الشركة، وكان القوة الدافعة وراء هذا الجهد إيجور سيتشين، الرجل الذي اعتاد أن يحمل حقائب بوتين ويرحب بزواره في مكتب العمدة في بطرسبورغ.

منذ البداية، وقف بوتين بين الليبرالية وحكم الدولة، وبين الإصلاحيين من جهة والمتشددين من جهة أخرى، وكان معظم الفريق الذي يثق به من بطرسبورغ يضم الطرفين على حد سواء، وكان من بينهم الاقتصاديون والأكاديميون الذين دفعوا لفتح أسواقها، والحرس القديم من أمثال سيتشين، الذين جاؤوا من الأجهزة الأمنية أو القضائية ويفضلون تعزيز قبضة الدولة على المجتمع والأعمال والسياسة، وخلال رئاسته كان الصحفيون والمحللون يحللون قراراته لقياس التقدم أو التراجع في نفوذ أي من الطرفين. في الواقع، لم تكن الحدود صلبة بين الطرفين[14]؛ فالمنافسات وإن ظهرت في بعض الأحيان، وتحولت إلى خلافات علنية، تبقى نادرة. فعلى مدار ثلاث سنوات من توليه الرئاسة، ظلت الدائرة الداخلية لبوتين متكاتفة على نحو ملحوظ وراءه، ووراء هدف موحد لإعادة أكبر قدر من السيطرة السياسية على الاقتصاد، وعلى الرغم من بدء المستشارين بالصراع على السلطة والأرباح في الخفاء، فإنهم ظلوا يطلبون من بوتين التدخل والتوسط بينهم.

الرجال الذين استقدمهم بوتين إلى قمم السلطة كانوا على هامش الربح في عهد يلتسين؛ فقد استفاد بعضهم بما فيه الكفاية، لكن لم يصبح أي منهم مليارديرًا، بل قليل منهم أصبحوا من أصحاب الملايين. وقد استاؤوا من الذين لم يكتفوا بتكديس الثروات وحسب، بل كانوا أيضًا يُمْلون السياسات. وكان يلتسين يتغاضى عنهم، بل يشجعهم ويستغلهم في اندفاعهم المتهور نحو الرأسمالية؛ ليكونوا دواءً لتخليص الجسم من مرض الشيوعية. فقد وافق مساعدو بوتين بصورة ما على إستراتيجية رئيسهم لإعادة النظام إلى السوق، بل ولزيادة سيطرة الدولة على الموارد الطبيعية الإستراتيجية مثل النفط والغاز، مع أن المواجهة مع خودوركوفسكي كشفت دافعًا آخر كان يدفعهم؛ سيتشين وغيره ممن كانوا ضمن دائرة بوتين «غابت عنهم الفرص الأولى في اقتسام الأصول في مرحلة ما بعد الاتحاد السوفييتي في التسعينيات، وكانوا مصممين على عدم تفويتها ثانية»[15].

طغت على الاجتماع في قاعة كاثرين الأحداث في العالم، وخاصة احتمال غزو العراق، وكان بوتين يعارض الحرب التي تقودها أمريكا، على الرغم من جهود الرئيس بوش المضنية لإقناع صديقه الجديد بدعم الإطاحة بالديكتاتور صدام حسين (الذي لم يكن يتلقى الدعم من خودوركوفسكي مصادفة). تعود علاقات روسيا العميقة مع العراق إلى رعاية الاتحاد السوفييتي للعالم العربي، واستمرت حتى انهيار الاتحاد السوفييتي، وحرب الخليج الأولى عام 1991م. وقد كانت روسيا تشتري كثيرًا من صادرات العراق النفطية بما يسمح به برنامج الأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء) لتخفيف معاناة الشعب العراقي، مع أرباح وعمولات تصل إلى الملايين، تذهب إلى جيوب رجال الأعمال والسياسيين الروس، ومن بينهم فلاديمير جيرينوفسكي، رئيس موظفي بوتين، وألكسندر فولوشين، وشركة تجارة نفط صغيرة (غونفور)، غير معروفة غالبًا، عرف بوتين صاحبها من العقود المبكرة التي أُذِن له بها في فصل شتاء عام 1991م[16].

تشارلز دولفر، أحد مفتشي الأمم المتحدة، كان مقتنعًا أن الصفقات متورط بها أشخاص في أعلى المستويات من حكومة بوتين، على الرغم من أن الأمريكيين قرروا عدم اتهام بوتين

مباشرة؛ لأسباب دبلوماسية[17]. الشركات النفطية الروسية، في القطاعين الخاص والعام، كانت أيضًا لها حصص في حقول النفط غير المستغلة في العراق، ومن ذلك صفقة قيمتها 20 مليار دولار لحقل واسع في الصحراء الجنوبية، وظلت الصفقات مجمدة طوال مدة فرض العقوبات، لكن الإطاحة بحكومة صدام حسين تهدد بجعل هذه الصفقات لا قيمة لها. وقد كتب بوش في وقت لاحق: «فلاديمير بوتين لم ينظر إلى صدام على أنه تهديد، يبدو لي أن جزءًا من السبب هو أن بوتين لا يريد أن يعرض العقود النفطية المربحة في روسيا للخطر»[18].

حاول بوتين التوسط، فأوفد يفجيني بريماكوف في مهمة سرية لإقناع صدام حسين بالاستقالة، وسلَّم بريماكوف- الدبلوماسي المخضرم والجاسوس الذي كان مبعوث جورباتشوف إلى العراق خلال حرب عام 1991م- المناشدة الشخصية لبوتين خلال اجتماع أواخر الليل في أحد قصور الديكتاتور في بغداد، وفي البداية استمع صدام حسين له بهدوء، لكن بعد ذلك استدعى كبار مساعديه، وندد أمامهم بتبعية بوتين لبوش، وقال لبريماكوف: «لقد تحولت روسيا إلى ظل للولايات المتحدة»[19].

مع بدء حشد القوات الأمريكية في الكويت، حسب بوتين أنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا أكثر لوقف الحرب، ولكنه على الرغم من مساعي بوش لإقناعه بخلاف ذلك، لن يفعل شيئًا لدعم هذه الحرب أيضًا. قبل أيام فقط من لقائه مع كبار رجال الأعمال، سافر إلى باريس، وانضم إلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك، والمستشار جيرهارد شرودر، في وقت لاحق، في دعوتهم علنًا للأمم المتحدة للتدخل ووقف غزو الولايات المتحدة، وقالوا في بيان مشترك لهم: «هناك بديل للحرب، واستخدام القوة لا يمكن إلا أن يكون ملاذًا أخيرًا».

سعى بوتين خلال سنتين لإقامة علاقة جديدة مع الولايات المتحدة من خلال صداقته مع بوش، لكن لم تتلق روسيا كثيرًا من العائدات من استثمارها لهذه العلاقة. في حين أن شيراك، الذي استقبله شخصيًّا في مطار باريس، كان لديه كثير مما يقدمه لروسيا، ولا

يرغب في تعكير العلاقات الودية معها بانتقاد انتهاكات حقوق الإنسان في الشيشان، أو في أي مكان آخر.

بوتين لم يصل إلى قطيعة مع بوش صراحة، ولكن العراق كان نقطة تحول؛ إذ كان يرى أن الحرب كشفت الطموحات الحقيقية للولايات المتحدة، ومن وجهة نظره أيضًا فإن الولايات المتحدة تريد أن تملي شروطها على بقية العالم، لكونها بطل العالم في (الحرية)، واستخدمت وسائل أحادية الجانب لفرض التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى. وعندما أرادت روسيا بناء مفاعلات نووية مدنية في إيران، في صفقة تعود بالمليارات على الصناعة النووية الروسية، نافحت الولايات المتحدة بشراسة لمنع هذه الصفقة. وعلى الرغم من تعهد بوش بالصداقة والتعاون، فإن بوتين سمع أيضًا أصوات الآخرين في واشنطن من ليبراليين ومحافظين، الذين انتقدوا روسيا، وبدوا عازمين على إبقائها دولة ضعيفة ما بعد الدولة السوفييتية الضعيفة. في اليوم الرابع من الحرب، تحدث الرجلان، وأقام بوتين نقطة تواصل على المستوى الشخصي؛ فلم يكرر معارضته أو حتى يذكر ذلك، وكان بوتين- كما يعتقد بوش- قلقًا فقط إزاء ما ستخلفه الحرب من قتلى.

أبلغ بوتين بوش قائلًا: «سيكون الأمر بالنسبة إليك صعبًا للغاية، أشعر بالأسى عليك، ذلك أمر سيئ».

أجاب بوش: «لماذا؟».
قال له: «لأنه سيكون هناك معاناة إنسانية هائلة»[20].

عبَّر بوش عن تقديره لتصريحات بوتين، والأكثر من ذلك لأنها المحادثة الوحيدة التي لم يجر مثلها مع أي زعيم في العالم، ثم انتهز الفرصة ليوبخ بوتين ويحذره من أن الشركات الروسية لا تزال توفر الأسلحة لقوات صدام حسين، ومن بينها المناظير الليلية، وصواريخ مضادة للدبابات، وأجهزة تشويش نظم تنقل الصواريخ والقنابل الأمريكية التي أمطرت العراق وقتها[21].

بعد سقوط نظام صدام حسين حاول بوتين تخطي خلافاته مع الولايات المتحدة حول العراق، لكنه بدأ أيضًا ينظر بارتياب متزايد إلى ما يعده الهيمنة الأمريكية؛ فإذا كان الجيش الأمريكي لا يريد استهداف المصالح الروسية على نحو واضح، فثمة (القوة الناعمة) من المال والنفوذ الذي استثمرته الولايات المتحدة في المساعدات داخل روسيا، فملايين الدولارات تدفقت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي لدعم المجتمع المدني والمنظمات التي تشارك في كل شيء؛ بدءًا بالرعاية الصحية وانتهاء بالبيئة.

مع تزايد الاستعدادات للحرب أنهت روسيا عمل فيلق السلام في البلاد، وسحبت ترخيص إذاعة أوروبا الحرة، مدعية أنهما من مخلفات الحرب الباردة، وطردت منظم الاتحاد AFL-CIO، وأنهت تفويض منظمة الأمن والتعاون في البعثة الأوروبية المكلفة بمراقبة الصراع في الشيشان[22]. كانت كل خطوة من تلك الخطوات تحدث بمعزل عن الأخرى، وبتفسيرات قانونية مطولة، وبدأ بوتين يرى المؤامرات الأمريكية لعزل روسيا أو إضعافها، بمساعدة طابور خامس في الداخل، يعده بوتين على نحو متزايد أكبر تهديد للدولة التي يريد صنعها.

عندما بدأ خودوركوفسكي المفاوضات مع اثنتين من شركات النفط الأمريكية العملاقة؛ شيفرون وإكسون، لبيع حصة في شركة يوكوس، أو ترتيب اندماج معهما، رحَّب بوتين في البداية بالمحادثات؛ لكونها اعترافًا دوليًّا بإمكانات الاستثمار المتزايدة في روسيا، لكن عندما سافر خودوركوفسكي إلى الولايات المتحدة، وأدلى بتصريحات حول السياسة الخارجية والاقتصادية الروسية، بدأ بوتين يستشعر الخوف من أن يكون الأمريكيون يسعون إلى الهيمنة على الكنز الوطني في البلاد أيضًا، وبدأ يعتقد أن خودوركوفسكي هو عرَّاب هذه السيطرة.

لم تُضعف المواجهة في الكرملين في فبراير/شباط من طموحات خودوركوفسكي الاقتصادية والسياسية، وفي أبريل/نيسان تفاوضت يوكوس على الاندماج في سيبنفت؛

خامس أكبر منتج للنفط في روسيا، لتأسيس واحدة من أكبر شركات النفط في العالم، يفوق إنتاجها ما تنتجه الكويت. وكان رئيس سيبنفت رومان أبراموفيتش، وهو شاب محافظ، من المنطقة القطبية الشمالية النائية تشوكوتكا، والشريك السابق لبوريس بيريزوفسكي، والساخط الذي استخدم في العام نفسه كثيرًا من ثروته لشراء نادي تشيلسي لكرة القدم في إنجلترا، وكان بهذا أول من ضخ ثروات روسيا الجديدة في عواصم الغرب.

هذا الاندماج جعل خودوركوفسكي من المشاهير الدوليين؛ ووصف ذلك بأنه «العصر المقبل لروسيا الرأسمالية»[23]. وبعد أسبوع التقى خودوركوفسكي والمديرون التنفيذيون الآخرون بوتين في مقر إقامته في نوفو- أوجاريوفو، وكان حينها يسعى إلى مفاوضات مع الشركات الأمريكية حول توسعتها أكثر من ذلك. وقد بارك بوتين هذا الاندماج، وطلب منه أن يقدم تقريرًا له عندما تتخذ التفاصيل صورتها الأخيرة على مدى الأشهر المقبلة، وقد كان لدى بوتين قضايا أخرى يريد أن يثيرها مع خودوركوفسكي، لكنه طلب أن يكون ذلك على انفراد بعد انتهاء الاجتماع العام.

كان يفصل عن إعادة انتخاب بوتين عام كامل، وفي حين بدت إعادة انتخابه أمرًا محسومًا، فقد كان قلقًا بشأن الانتخابات البرلمانية التي ستجري في ديسمبر/ كانون الأول 2003م. خودوركوفسكي، كما كثير من كبار رجال الأعمال، كان يصب الأموال في الأحزاب وفي الدوما دون النظر إلى الأيديولوجية السياسية وبموافقة الكرملين؛ فموَّل الليبراليين (يابلوكو)، واتحاد قوى اليمين، وموَّل أيضًا حزب بوتين، وروسيا المتحدة، والشيوعيين. وكانت العلاقة حميمة بين الأعمال والسياسة كتلك الموجودة بين المديرين والمسؤولين التنفيذيين التابعين لخودوركوفسكي في مجلس الدوما، لا سيما فلاديمير دوبوف، الذي كان في الوقت ذاته مسؤولًا تنفيذيًّا في ميناتيب، المصرف الذي جعل خودوركوفسكي ثريًّا، ورئيس اللجنة الفرعية للضرائب في الدوما.

استخدم خودوركوفسكي نفوذه- أحيانًا بجرأة زائدة- لتكوين لوبي ضد التشريعات التي قد تضر بيوكوس، واليوم يريد بوتين كبح جماح خودوركوفسكي، قال له عندما التقيا سرًّا: «أوقف تمويل الشيوعيين»، شعر خودوركوفسكي أنه أُخذ على حين غرة؛ فقبل أشهر فقط كان فلاديسلاف سوركوف، العقل السياسي المدبر لبوتين، يبارك له بالأموال التي أسهموا بها في يوكوس، ولكن مع ذلك لم يجادل، وفعل ما طلبه بوتين، إلا أن بعض المرشحين الذين تمولهم يوكوس كانوا أيضًا مسؤوليها التنفيذيين. رئيس فرع شركة موسكو، ألكسي كوندوروف، رشح نفسه على أنه شيوعي («الحزب الشيوعي اليوم لا يرفض الملكية الخاصة»، كما قال ذات مرة). حاول خودوركوفسكي أن يشرح لبوتين أنه لا يستطيع منع تنفيذيين آخرين من الترشح أو دعم الأحزاب السياسية، ولكن بوتين لم ير فارقًا.

مخاوف بوتين من الشيوعيين تنمُّ على قلق داخل الكرملين. وعلى الرغم من شعبيته، فإن برنامجه السياسي فَقَد الزخم مع اقتراب الانتخابات البرلمانية لعام 2003م؛ فالحرب في الشيشان مضى عليها اليوم أربع سنوات، وأصبحت مستنقعًا، على الرغم من الاستفتاء والانتخابات التي جاءت بالمسؤول المخلص أحمد قاديروف، ليكون رئيسًا مرة أخرى لمكون أساسي من مكونات الاتحاد الروسي؛ والحملة القاسية التي أعقبت حصار شمال-شرق لم تنه الهجمات الإرهابية، بل اشتد تطرف حركة استقلال الشيشان؛ والتفجيرات الانتحارية، التي لم يسمع عنها تقريبًا في العقد الأول من القتال في الشيشان، انتشرت على نحو مرعب: ففي 12 مايو/أيار 2003م انفجرت شاحنة محملة بالمتفجرات في بوابة أمن مجمع حكومي في بلدة زنامينسكوي في الشيشان، متسببة بمقتل أربعة وعشرين شخصًا، معظمهم من المدنيين في المنازل المجاورة التي سحقت من قوة الانفجار، وبعد يومين اقتربت امرأتان من قاديروف نفسه خلال احتفال ديني في ذكرى النبي محمد (صلوات الله وسلامه عليه - المترجم) في قرية شرقي جروزني، وفجرتا حزامًا ناسفًا، وإذ نجا قاديروف من الإصابة، فإن أربعة من حراسه الشخصيين كانوا من بين الخمسة عشر قتيلًا، وفي يونيو/حزيران استقلت (أرملة سوداء)، وهو اللقب الذي باتت الانتحاريات يسمين أنفسهن به، حافلة في

موزدوك، وفجَّرت نفسها بحزام ناسف، وهو ما أسفر عن مقتل ثمانية عشر شخصًا، وفي يوليو/تموز فعلت امرأتان الشيء نفسه في مهرجان الروك السنوي في موسكو، الذي حضره ثلاثون ألف شخص، حتى عام 2006م، حين انحدر العراق إلى حرب طائفية لم يشهدها أي بلد آخر في العالم.

لم يستطع بوتين إلا تكرار تعهده في عام 1999م؛ بسحق العصابات و(رميها في المرحاض)، وقد منحه تصميمه على إنهاء حصار المسرح- على الرغم من إمكانية تجنب وفاة كثير من المحاصرين- الدعم، ولكن بدأ يتضاءل على نحو متزايد، فقد كان أكبرُ النجاحات التي أحرزها في أول سنتين له في رئاسته، والآن يبدو أن الطاقة لديه مفقودة. ومع أن الاقتصاد الروسي واصل تحسين الفرص للملايين وتوسيعها، ولكن لا يزال كثير من العمال غارقين في صناعات العصر السوفييتي؛ المناجم والمصانع والمزارع، التي قاومت التحديث، ولم تصبح روسيا بعدُ البرتغالَ؛ فالإصلاح العسكري الذي وعد به لم يتقدم سوى بوصة إلى الأمام ضد الجمود المؤسسي، ونظام الرعاية الصحية يعمل على الرِّشا، في حين واصل متوسط العمر المتوقع للرجال الانخفاض، كما هي حالة أمة بأكملها، التي تقلصت قرابة مليون نسمة سنويًّا.

كان الازدهار الذي أتى به بوتين ينتفع منه كثيرون، ولكنهم في الغالب من أولئك المتربعين في القمة، أو المتجمعين في المدن الرئيسة. ميخائيل كاسيانوف، رئيس وزرائه، أدى ما عليه في واجباته المحلية والاقتصادية التي كان قد وعد بوتين بها، ولكنه يرى أن الكرملين ليس لديه مبادرات جديدة لهذا العرض، وتراجع في بعض من تلك التي كانت قد أطلقت[24]، حتى رئيس حزب بوتين، بوريس جريزلوف، الذي شغل منصب وزير الداخلية، قال إن الحكومة- التي كان جزءًا منها- «فقدت إلى حد كبير القدرة على حل معظم المشكلات المؤلمة التي تواجهها البلاد بنشاط حثيث»[25].

حارمًا نفسه من الأفكار الجديدة، تركزت أفكار فريق بوتين سياسيًّا على الخطر الذي تشكله الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/ كانون الأول عام 2003م، تمامًا كما يلتسين في السنوات الأخيرة من رئاسته؛ إذ لم يعد مؤكدًا أن تكون الأغلبية لحزب روسيا المتحدة في مجلس الدوما، وكان على الكرملين التأكد من أن أغلبية جديدة لن تتحدى سيادة بوتين، وألا يسمح بظهور شخصية جديدة، أو قوة سياسية جديدة، أو زعيم على استعداد لتقديم بديل للبلاد.

في أواخر شهر مايو/أيار عام 2003م، خلقت الأطروحة المتداولة في موسكو ضجة عامة، وكانت قد كتبتها مجموعة أُسست في العام الماضي باسم **مجلس الإستراتيجية الوطنية**. جمع المجلس ثلاثة وعشرين من الخبراء من مختلف ألوان الطيف السياسي الذي بدا أنه مختلف حول كل شيء، حتى في الأطروحة نفسها، التي كان يوسيف ديسكين من المؤسسين الأيديولوجيين لها، وكان مقربًا من الكرملين، وستانيسلاف بيلكوفسكي، الإستراتيجي السياسي الذي تورط ذات مرة في شبكة إنترنت بوريس بيريزوفسكي. عَمَلُ المؤسسة البحثية كان قد غرق في الغموض، باستثناء البحث الذي قدَّمه اثنان من النواب المساعدين المتشددين لبوتين، سيتشين وفيكتور إيفانوف، وفيه دليل على تهديد يواجه الكرملين[26]. المقال الأطروحة كان بعنوان (**الدولة والقلة**)، ويرى أن بعضًا من عمالقة الشركات في البلاد يتآمرون للاستيلاء على الحكومة الروسية؛ لأنهم سعوا إلى إسباغ شرعية دولية على ثرواتهم، ولا يكمن طريقهم إلى السلطة في التحدي المباشر لبوتين؛ ولكن في تمكين البرلمان وتأسيس صورة جديدة من صور الحكم، وهو النظام البرلماني الذي سيقوده رئيس الوزراء لا الرئيس القوي المستقر في الكرملين.

وحذرت الأطروحة من أن «الجبهة المتقدمة لمثل هذه الحكومة، التي تؤسس بموجب دستور جديد، هو ميخائيل خودوركوفسكي»[27]. وإذ تجاهل التقرير الحقائق السياسية في روسيا، فإن فكرة أن الأغلبية البرلمانية قد تستولي على السلطة من بوتين غير قابلة للتصديق.

إذا كانت الخطة حقيقية، ولو جزئيًّا، فإنها جانبت الصواب، وما يهم هو أن بوتين صدَّقها. وفي يونيو/حزيران، عقد المؤتمر الصحفي السنوي في الكرملين مع الصحفيين المحليين والأجانب، وبدأ سيناريو الحدث بسؤال حول التقرير، وتحذيره من نضج (ثورة قلة معينة)، وأجاب بوتين بالتفصيل المطوَّل، كما لو كانت الإجابة مُعدَّة سابقًا، وقال إنه لا يعتقد أن نظامًا برلمانيًّا يمكن أن يحكم بلدًا كبيرًا ومتنوعًا عرقيًّا مثل روسيا، وقال: «أي نظام دولة آخر غير رئاسي جمهوري لن يكون مقبولًا، بل وخطير». أما بالنسبة إلى الشركات الكبيرة- أوضح بصبر- فقد كان لها تأثير طبيعي في الحياة بالبلاد، وهو متوقع مع نمو اقتصاد السوق، وخلق أباطرة روسيا الجديدة فرصًا للعمل وللدخل، ووضعوا التكنولوجيات الجديدة، وقدموا أمثلة في الإدارة الفعالة الحديثة؛ «هذا- بلا ريب- لا يعني أننا يجب أن نترك بعض ممثلي رجال الأعمال يؤثرون في الحياة السياسية في البلاد بهدف تحقيق مصالح مجموعة خاصة منهم». وختم لافتًا إلى سطر من رواية بوشكين (Eugene Onegin) عن الديسمبريين الذين ثاروا ضد نيقولا الأول في عام 1825م، وانتهى الأمر بهم على الخشبة أو في المنفى في سيبيريا، «أما أولئك الذين لا يتفقون مع هذا المبدأ، فيقولون إنه ذهب من غير رجعة أو هو بعيد»[28]، فإن هذا يبدو تحذيرًا واضحًا.

بدأ الهجوم القانوني على يوكوس على نحو غير متوقع؛ لا ضد خودوركوفسكي ولا ضد الشركة مباشرة، ففي يونيو/حزيران 2003م اعتقلت السلطات رئيس أمن الشركة، ألكسي بيتشوجين، بتهمة القتل، زاعمة أنه نظم اغتيال خصوم الشركة. ويوم 2 يوليو/تموز، بعد أقل من أسبوعين من تصريحات علنية لبوتين عن (انقلاب القلة)، وصلت وحدة شرطة خاصة إلى مستشفى في موسكو حيث الشريك التجاري لخودوركوفسكي، بلاتون ليبيديف، وكان يقضي فترة نقاهة بعد علاجه من مشكلات في القلب، وعلى الرغم من أن القانون يحظر اعتقال المرضى في المستشفيات، أخذته الشرطة مقيدًا بالأصفاد.

كان ليبيديف رئيس ميناتيب؛ المصرف الذي يسيطر على 61 في المئة من أسهم يوكوس، ولكن وجهت النيابة العامة له تهمة الاحتيال في صفقة عام 1994م لشراء شركة

تدعى أباتيت للأسمدة، وبعد يومين استدعي خودوركوفسكي شاهدًا، وبعد أسبوع دهمت الشرطة أحد مكاتب يوكوس. النائب العام فلاديمير أوستينوف، لم يقْدِم على أي تحرك ضد خودوركوفسكي نفسه، ولكن الضغط ازداد. وأوستينوف هذا هو الذي شغل سابقًا منصب المدعي العام الوسيط من سوتشي، ولم يكن جزءًا من دائرة بطرسبورغ بوتين، لكنه أثبت ولاءه من خلال تنظيم هجمات قانونية دفعت جوسينسكي وبيريزوفسكي إلى المنفى، فأصبح أوثق وأقرب إلى ديوان بوتين في الكرملين، وخاصة لإيجور سيتشين، الذي تزوج ابنُه في ذلك العام من ابنته.

يعتقد خودوركوفسكي وشركاؤه أن بوتين وسيتشين كانا قد أمرا بالتحقيقات في شؤون يوكوس[29]، لكنهم لم يتوقعوا أكثر من المضايقات القانونية التي يمكن مواجهتها، إذ كان خودوركوفسكي يعتقد أن أهمية يوكوس للاقتصاد من شأنها أن تحميه وتحمي الشركة. ثم إنه في اجتماع مع رؤساء الأقسام في يوكوس، حذر من أن الشركة تواجه هجومًا من النيابة العامة، وقال إن أولئك الذين يشعرون بأنهم غير مستعدين للمواجهة عليهم أن يتركوا، لكنه تعهد بالبقاء والقتال[30].

أثارت (شؤون يوكوس)، حالما أصبحت معروفة بسرعة، البلبلة والانتباه، وكان موقف بوتين حيالها غامضًا، ومن ثم لم يكن أحد يعرف هل أشار التحقيق إلى العودة إلى البوادر الأولى لتأميم الصناعات بالمزاد العلني في التسعينيات، أو أي شيء آخر، وتوقع المسؤولون ورجال الأعمال ما هو أسوأ. كانت سوق الأسهم متقلبة في روسيا، فهو استثمار مربح ولكنه غير مستقر، وقد انخفض 15 في المئة في أول أسبوعين بعد اعتقال ليبيديف، وقللت من قيمة يوكوس سبعة مليارات دولار، أو ما يقرب من خُمس قيمتها. وفي يوم عمليات البحث في يوكوس، اجتمع بوتين في الكرملين مع القيادات البرلمانية ورؤساء مجالس النقابات وكبار رجال الأعمال، ممثلين بأركادي فولسكي، الذي حذر من أن التحقيق المتصاعد سيضر بالاقتصاد. ولم يتطرق بوتين ليوكوس مباشرة، لكنه حذر من أن الكرملين لن يتسامح مع المنظمات العامة التي لم تضع المصلحة العامة «فوق جماعاتهم، أو شركاتهم، أو مصالحهم

الشخصية». وفي تصريحات بثها التلفاز، وقال متحدثًا بغموض: «أنا، بالتأكيد، أعارض ليَّ الذراع، وأعتقد أن هذا ليس وسيلة لحل قضية الجرائم الاقتصادية، لكن لا نستطيع أن نبني تصرفاتنا على تصفيق شديد لشخص يجري وضعه في الزنزانة»، وفي غضون أسابيع دوهمت دار للأيتام برعاية روسيا المفتوحة لخودوركوفسكي.

رئيس موظفي بوتين، ألكسندر فولوشين، لم يكن يعرف حتى اسم ليبيديف وقت اعتقاله، ويعتقد أن بوتين كذلك لا يعرفه[31]، وقد أبقى الرئيس بصماته بعيدًا عن التحقيق، وكان مصرًّا على أنه لم يتدخل في إجازة اعتقاله أو تفتيشه؛ ليناقض نفسه في وقت لاحق عندما اعترف في مقابلة مع الصحفيين الأمريكيين أنه ناقش اعتقال ليبيديف مع المدعي العام[32]. مشاركة بوتين- كما تكشفت القضية عشوائيًّا في أثناء الصيف- أثارت تكهنات تشير إلى كرملينولوجيا الحقبة السوفييتية؛ وقد كتب أحد المؤرخين: «لم يكن شأن يوكوس شأنًا ستالينيًّا؛ فالعملية مخطط لها من قبل، وتنفذ منهجيًّا»[33]. وعلى الرغم من تطور الأحداث فلم يصدر عن بوتين أي تعليق للملأ، وهو ما يعزز فكرة المؤامرة. وفي أواخر سبتمبر/أيلول أصرَّ على أن التحقيق كان قضية جنائية فردية.

استمر خودوركوفسكي في الصدام مع الكرملين، ليس فقط بسبب التشريعات الضريبية، ولكن أيضًا بسبب خطط لبناء خط أنابيب إلى الصين، التي تعاكس قرار بوتين بأن ذلك يجب أن يكون من اختصاص الدولة، لا شركة خاصة. وحتى مع اتساع التحقيق، مضى خودوركوفسكي قدمًا في الاندماج في سيبنفت، وواصل مغازلة عمالقة النفط الأمريكيين في المحادثات التي باركها بوتين. وإذ كان اعتقال ليبيديف تحذيرًا لخودوركوفسكي، فإنه لم يلق له بالًا، وتابع أسفاره لمزاولة العمل، في تحدٍّ لمكتب المدعي العام[34]، وكان يعتقد أن المشكلات القانونية للشركة كانت جزءًا من النضال داخل إدارة بوتين، ولكن لم يعلم أن الضغط الشعبي سيجعل نهايته الصَّلب.

أخبر محاميه أن «احتمال اعتقالي الآن هو 90 في المئة»، وأضاف: «لكنه ليس بنسبة 100 في المئة، ولِيكونَ 100 في المئة فإنه يجب أن يكون هناك عقوبات»[35]. من المؤكد أن بوتين وجه له تلميحات، وبعد اعتقال ليبيديف حاول خودوركوفسكي ترتيب لقاء معه عن طريق مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشيف، الذي دعاه إلى اللقاء مع أوستينوف بدلًا من ذلك، ولكن خودوركوفسكي فكر أفضل منه.

بحلول أغسطس/آب 2003م كانت شركة يوكوس قد استعادت بعض خسائرها في سوق الأسهم، ووافقت وكالة مكافحة الاحتكار في روسيا على اندماجها في سيبنفت، ومن ثم فقد تراجعت تكهنات المستثمرين والمحللين بأن التحقيق سيكون سببًا في إحباط إنشاء شركة النفط العملاقة الجديدة. وفي الشهر نفسه وافق الكرملين على شراكة بين شركة بريتيش بتروليوم وTNK، وهي شركة روسية أصغر، ويشير افتتاحها على ما يبدو إلى الاستثمار الأجنبي.

في سبتمبر/أيلول حضر خودوركوفسكي قمة الطاقة مع رجال النفط من الشركات الأمريكية والروسية في بطرسبورغ، وحاول تحقيق صفقة لدمج يوكوس- سيبنفت في شركة شيفرون، وعند انهيار ذلك أعاد إحياء المفاوضات مع شركة إكسون موبيل، التي يرأسها ميخائيل كاسيانوف المخطر بالمحادثات[36]. وقد دفعت التكهنات حول الصفقة سوق الأسهم إلى مستويات قياسية جديدة، وأصبحت قيمة اندماج يوكوس مع سيبنفت تبلغ 45 مليار دولار بمجرد الانتهاء، الذي صار رسميًّا يوم 2 أكتوبر/تشرين الأول.

استمر خودوركوفسكي في السفر، وإلقاء محاضرات على الطلاب والصحفيين والناشطين حول رؤيته للتحول الحديث في قطاع الأعمال والمجتمع، الذي من شأنه تحرير الإمكانات البشرية للبلاد عن طريق كسر السلاسل الأخيرة من العقلية السوفييتية. وفي مقابلة بمقر الشركة اللامعة في موسكو، أوضح أن روسيا وقفت على مفترق طرق، ومصيرها ليس خيارًا بين الرأسمالية والشيوعية، بل بين مجتمع ديموقراطي وآخر سلطوي، وقال-

واصفًا الانقسامات الأيديولوجية القديمة-: «إنها ليست مسألة اختيار بين النموذج الكوري الجنوبي والنموذج الكوري الشمالي؛ إنه أشبه بالاختيار بين كندا وغواتيمالا»، حكومة حديثة وشفافة وخاضعة للمساءلة، مقابل جمهورية موز[37].

هذه التأملات العامة أغضبت بوتين، فاشتكى إلى جون براون، رئيس بريتيش بتروليوم (BP)، عندما التقيا في موسكو لإنهاء استثمار الشركة في روسيا، وقال له بغضب: «لقد أكلت قذارة أكثر مما كنت بحاجة إليه من هذا الرجل»[38]. غضبُ بوتين من خودوركوفسكي عززته مخاوفه بشأن الانتخابات القادمة البرلمانية المقرر إجراؤها في ديسمبر/كانون الأول 2003م، والاشمئزاز الذي شعر به هو ومساعدوه المقربون من بطرسبورغ من هذا المغرور السياسي، الذي استغل الفوضى في التسعينيات لإثراء نفسه، والآن يشعر أنه يمكنه استخدام تلك الثروة لإملاء مسار روسيا. وفي مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز، عندما بلغت التحقيقات ذروتها في أكتوبر/تشرين الأول، قال بوتين: «لدينا فئة من الناس الذين أصبحوا مليارديرات- كما نقول- بين عشية وضحاها»، وبدت إجابة متنافرة؛ فقد كان السؤال حول انتقادات في الغرب لروسيا بأنها مترددة في احتضانها للديموقراطية، ولم يكن عن يوكوس أو خودوركوفسكي، وقال: «عينتهم الدولة مليارديرات؛ أُعطوا ببساطة كمية ضخمة من الممتلكات، من الناحية العملية مجانًا؛ فقالوا في أنفسهم: «لقد عُينت مليارديرًا»، ثم مع تطور اللعبة تكوَّن لديهم انطباع بأن الآلهة أنفسهم ينامون على رؤوسهم؛ ويسمحون لهم بكل شيء»[39].

وقد رأى بوتين- وفق ما قاله مسؤول كبير في الكرملين- أن «مهمته التاريخية» إحباط طموحات خودوركوفسكي لا لشراء السياسة أو التأثير فيها فحسب، ولكن للاستيلاء على البلد نفسه، وقال المسؤول إن بوتين استخدم كل ما كان تحت تصرفه لوقف خودوركوفسكي؛ «ولسوء الحظ أنه لا يمكن أن يحدث ذلك بطريقة تبدو جميلة»[40].

في 23 أكتوبر/تشرين الأول، وصل فاكسٌ إلى مقر يوكوس في موسكو، مُوقَّعٌ من فلاديمير أوستينوف، فيه استدعاء لخودوركوفسكي للإجابة عن أسئلة حول دفع الشركة للضرائب، والتي تشمل شركة الأسمدة أباتيت (Apatit)، ولم يكن خودوركوفسكي- حسب ادعاء محاميه- قد اطلع على الاستدعاءات[41] حين سافر إلى سيبيريا لمواصلة خطابه السياسي المتنقل قبل الانتخابات القادمة، ومن ثم فعندما هبطت طائرته الخاصة للتزود بالوقود في نوفوسيبيرسك قبل الفجر بقليل، في 25 أكتوبر/تشرين الأول، ظهر كوماندوس النخبة FSB، وحاصر الطائرة، ثم اقتحموها واعتقلوا من كانوا على متنها، واضطر أغنى رجل في روسيا إلى النزول من المقصورة مكبل اليدين، مُقنَّعًا، وأُخِذ على متن طائرة عسكرية إلى موسكو.

هز اعتقال خودوركوفسكي أسواق الأسهم في روسيا، وهو ما دفع أسهمها إلى الترنح صعودًا وهبوطًا طوال الأسبوع، وحاول المستثمرون، وقادة سياسيون آخرون، أن يلتمسوا معرفة ما كان يحدث.

منذ ما يقرب من ثلاث سنوات في منصبه، كان بوتين قد قدم نفسه على أنه إصلاحي، وبطل للسوق الحرة الذي جلب الرخاء للبلاد، ولكنه بات الآن يبدو وكأنه قد ينزل نزولًا قويًّا إلى جانب المتشددين في حكومته، والحرس القديم، وكتبت نيزافيسيمايا غازيتا، يوم الاثنين بعد اعتقال خودوركوفسكي، عنوانًا صارخًا (**الرأسمالية مع وجه ستالين**). وأعلنت صحيفة نوفايا غازيتا أن وكالات إنفاذ القانون استولت على السلطة[42].

اتحاد رجال الأعمال، الذي كان حتى هذا الأسبوع يضم خودوركوفسكي، أصدر بيانًا يدين الاعتقال، قائلًا إن الاعتقال «أسقط البلاد إلى الوراء، **وعلى الرئيس أن يفعل شيئًا لوقف هذا الانقلاب**». واجتمع بوتين وحكومته بعد يومين من اعتقال خودوركوفسكي، حيث انخفضت الأسهم والعملات والسندات في البلاد، ودعا إلى وضع حد «للهستيريا والمضاربة»، ورفض نداء من اتحاد رجال الأعمال لمناقشة القضية، معلنًا ببرود شديد أنه لن يكون هناك «أي مساومة على مسائل تتعلق بأنشطة هيئات إنفاذ القانون»، ومحذرًا وزراء الحكومة حول

الطاولة من أن يقحموا أنفسهم في هذه المسألة، ومضى إلى القول إنه يفترض «أن المحكمة لديها أسباب وجيهة لاتخاذ هذا القرار»، على الرغم من أن الموافقة النهائية على اعتقال خودوركوفسكي جاءت من بوتين نفسه[43].

(الليبراليون) في معسكر بوتين، ومن بينهم ميخائيل كاسيانوف وزملاؤه القدماء من بطرسبورغ، والألماني جريف، وألكسي كودرين، عبروا عن استيائهم من التحقيق، إذ كانوا يرون فيه علامة على نهاية مهماتهم الإصلاحية[44]، فكاسيانوف الذي التزم مع بوتين منذ عام 2000م على اتفاق بينهما يقضي بأن يشرف على السياسات الاقتصادية للحكومة ويترك المسائل الأمنية لبوتين، احتج على بوتين الذي أخذ يشارك كثيرًا في المجالات الاقتصادية.

بعد خمسة أيام من الاعتقال جمد النائب العام أسهم خودوركوفسكي وشريكه في شركة يوكوس، وهذا يمثل ما يقرب من نصف الشركة، بثروة تقدر بـ 14 مليار دولار، قبل أن تنهار قيمتها مع بقية السوق. أصرَّ متحدث باسم النائب العام وقال إن التجميد لم يكن «مصادرة أو تأميمًا»، ولكنه سيؤول حقيقة إلى ذلك بالضبط، وقد تحدث كاسيانوف في اليوم التالي قائلًا إن الاستيلاء على الأصول (ظاهرة جديدة) لا يمكن التنبؤ بعواقبها[45]، وكان يشعر (بقلق عميق)، لكنه لم يعد لديه أي تأثير في الأحداث، ولم يسجل أحد من بين دائرة مستشاري بوتين أي احتجاج حقيقي.

استقال ألكسندر فولوشين، رئيس هيئة الأركان الذي بقي منذ إدارة يلتسين وحافظ على علاقات وثيقة مع نخبة رجال الأعمال في البلاد، في يوم اعتقال خودوركوفسكي، وقد حاول بوتين في حديث معه أن يثنيه عن الاستقالة خلال سلسلة من الاجتماعات في الكرملين في الأسبوع التالي، ولكن فولوشين يرى أن الإدارة التي كانت قد بدأت مع هذا الوعد قد استنفدت نفسها الآن، وهي متعثرة وتبحث عن أعداء، وعندما أعلن استقالته لم يذكر الكرملين شيئًا عن أسباب ذلك، وأحلَّ بوتين ببساطة محله ديمتري ميدفيديف، تلميذه الشاب، وارتقى بحليف آخر من بطرسبورغ؛ هو دميتري كوزاك، نائبًا لميدفيديف، وبذلك فإن رحيل

فولوشين عضَّدَ فريق بوتين. عندما اجتمع فولوشين وزملاؤه في حفلة وداع في الكرملين، وصل بوتين متأخرًا، وجلس في المقعد الفارغ الأخير على طاولة طويلة وقدم النخب قائلًا إنه يعتقد أنه كان من الخطأ مغادرة فولوشين. تسبب وجود بوتين مدة طويلة بصمت محرج، حتى استأذنهم من تلقاء نفسه، قائلًا إنه شعر وكأنه قد قاطعهم بوجوده[46].

سأل كاسيانوف ثلاث مرات عن سبب القبض على خودوركوفسكي قبل أن يبلغه بوتين بأن الملياردير قد تجاوز خط المرمى من خلال تمويله لخصومه السياسيين، ولم يكن بوتين- كما يخشى بعضهم- يعيد تأميم الصناعة في البلاد، أو يحاسب القلة بقدر ما كان يسعى إلى أن يحاسب رجلًا يعده تهديدًا سياسيًّا للسلطة التي يعضدها يومًا بعد يوم. بعد عدة أيام من إلقاء القبض على خودوركوفسكي، أخبر بوتين مستشاره الاقتصادي، أندريه إيلاريونوف، أنه كان يحمي هذا الملياردير لبعض الوقت من أولئك الموجودين في دائرته والذين يريدون معاقبته، ولكن خودوركوفسكي تجاهل التحذيرات المتكررة و«اختار بنفسه محاربة» الكرملين. وقال بوتين لإيلاريونوف إنه قرر بعد ذلك التنحي جانبًا والسماح لخودوركوفسكي «بحل مشكلاته مع الأولاد بنفسه»[47]، وكان هجومًا أقل عنفًا من اختيار الجليد الذي قتل تروتسكي في مكسيكو سيتي بناء على أوامر ستالين، ولكنه كان مجرد إجراء فظ وعادل يأخذ مجراه.

ألقي القبض على خودوركوفسكي قبل ستة أسابيع فقط من الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/كانون الأول، وتسبب بإدانة وطنية ودولية، وكان ضربة لثقة المستثمرين، وسببًا للخسائر في الأسواق، فقد عُدَّ اعتداء على واحد من القلة في روسيا التي أثبتت أنها تحظى بشعبية كبيرة بين الروس، فالغالبية العظمى منهم كانوا إما يمتلكون النزر اليسير من الاستثمار، أو لا يمتلكون شيئًا على الإطلاق في المقام الأول. عندما جرت الانتخابات، أعادت كتلة بوتين في مجلس الدوما تسمية نفسها الآن باسم روسيا المتحدة، وقادت حملة لتحقيق فوز ساحق على الرغم من دعمها الغامض لبوتين.

فلاديسلاف سوركوف، إستراتيجي الكرملين، كان قد بدأ حياته المهنية في العمل مع خودوركوفسكي، لكنه الآن استغل المشاعر الشعبية ضد القلة من خلال ربطهم، بسخرية، بالحزب الشيوعي، ونسَّق أيضًا لإنشاء حزب جديد، رودينا (الوطن)، قبل أربعة أشهر من التصويت؛ لغرض وحيد هو اقتناص أصوات من الشيوعيين بالحديث عن الموضوعات القومية والاشتراكية، كما فعل فلاديمير جيرينوفسكي، زعيم الحزب الصاخب المُساء تسميته بالأحرار الديموقراطيين الروس، الذي كان معروفًا بغرابته الفظة وخطبه الرنانة المعادية للأجانب، وكانت حملة فاترة، تميزت بتزايد اللامبالاة؛ فقد كان النقاش هناك يجتر انهيار الاقتصاد الروسي في التسعينيات.

كما لو أن الناخبين ما زالوا يريدون الانتقام من الفساد والفوضى التي جلبتها الديموقراطية، ومن كل عهد يلتسين، والمصاعب الاقتصادية، والقلة، ومن بينهم خودوركوفسكي، وفي ظل ظهور انتقادات على التلفاز الحكومي، وجه بوتين رسالة لامست الهموم الداخلية مرارًا وتكرارًا، منهيًا ذلك الانهيار. «إذا كانت الديموقراطية طريقًا إلى انحلال الدولة، فنحن لا نحتاج إلى مثل هذه الديموقراطية»، قال لمجموعة من الصحفيين الأجانب قبل الانتخابات عندما سئل عن اتهامات بأن الحريات الديموقراطية تتآكل، وعقب: «لماذا الديموقراطية لازمة؟ لجعل حياة الناس أفضل، ولجعلهم أحرارًا، وأنا لا أعتقد أن هناك شعبًا في العالم يريد الديموقراطية التي يمكن أن تؤدي إلى الفوضى»، الفوضى التي استمرت بلاءً في روسيا؛ من بينها التفجيرات الانتحارية في قطار للركاب ليس بعيدًا من الشيشان، الذي قتل به اثنان وأربعون شخصًا قبل يومين من الانتخابات، ثم نُسي ببساطة.

انتقدت منظمة الأمن والتعاون في أوروبا وسائل الإعلام الحكومية الروسية لتحيزها الواضح في التغطية الإعلامية للانتخابات، وتناقلت الأدلة على الانتهاكات الإدارية في الحملة التي تؤيد روسيا المتحدة، أو تعاقب الآخرين، وقدَّم الزعيم الشيوعي، الشيخ غينادي زغانوف، قدم شكوى رسمية عندما تبيَّن أن 800 ألف صوت في جمهورية بشكيريا صبت بالفعل لحساب روسيا المتحدة[48].

بات بوتين ليلة ما قبل الانتخابات بلا نوم، وكان السبب في ذلك- كما أوضحت ليودميلا عندما ظهرت في وقت مبكر للتصويت في مركز الاقتراع الخاص بهم[49]- أن كلبته السوداء المفضلة لابرادور، كوني، أنجبت ثمانية جراء، وكانت قد أهديت لبوتين في ديسمبر/كانون الأول 2000م بعد أن زار بيتًا لتدريب الكلاب على البحث والإنقاذ، وهي من سلالة لابرادور التي كان يملكها ليونيد بريجنيف. انضمت كوني للكلب توسكا الذي كان بوتين قد أهداه لبناته[50]، وسرعان ما أصبحت المفضلة لديه، حتى إنها صارت ترافقه في حضور اجتماعات رسمية في مقر إقامته، بوصفها دعامة لإضفاء الطابع الإنساني أو التخويف[51]. وعندما زار بوش نوفو- أوجاريوفو، قارنها بوتين بكلب بوش الأسكتلندي، بارني، وقال عنها إنها «أكبر وأسرع وأقوى»[52]. أخبار الجِراء حازت اهتمامًا إعلاميًّا أكثر بكثير من أحزاب المعارضة، التي في نهاية اليوم تم توجيهها.

فاز روسيا المتحدة- على الرغم من عدم وجود هوية سياسية مستقلة له- بسهولة بـ 36 في المئة من الأصوات، وهو ما يكفي في ظل نظام توزيع المقاعد للفوز بأغلبية مطلقة بمقاعد مجلس الدوما، وفاز الحزب الشيوعي بأقل من 13 في المئة من الأصوات، وهو نصف ما حصل عليه قبل أربع سنوات، عندما كان بوتين قد بدأ حياته السياسية، وكان يلتسين قد فاز بهامش ضيق على الشيوعيين في عام 1996م، بعد خمس سنوات فقط من انهيار الاتحاد السوفييتي، ليدفن بوتين تمامًا لمصلحة البلاد.

فاز الحزب الديموقراطي الليبرالي رودينا، حديث الولادة، بأكبر عدد ممكن من الأصوات تقريبًا، تاركًا غينادي زغانوف مشتعلًا بالغضب ليقول: «هذه المهزلة المخزية التي تجري لنا حاليًّا تبين أن لا علاقة لها بالديموقراطية»[53].

يابلوكو، النصير للسياسة الليبرالية منذ أيام البيروسترويكا، واتحاد قوى الحقوق، التي يسيطر عليها الإصلاحيون الاقتصاديون الليبراليون الذين احتجوا على اعتقال خودوركوفسكي بأعلى صوت، أخفق حتى بالوصول إلى عتبة الـ 5 في المئة المطلوبة للفوز

بكتلة من المقاعد، وكان ضغط الكرملين قد أخملهم واستسلموا للاقتتال بينهم. وباستثناء حفنة من النواب الذين فازوا في ولايات منفردة، فإن مجلس الدوما أصبح خاليًا من كتلة الليبراليين للمرة الأولى منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. وما إن عُدَّت الأصوات وقُسِّمت المقاعد، حتى بات بإمكان بوتين الاعتماد على أغلبية برلمانية من أكثر من 300 مقعد من 450؛ أي ما يكفي لتبني أي تشريع يراه الكرملين مناسبًا حتى لتغيير الدستور، وقد بدأ الناس حقًّا يلاحظون أن الرئيس سيحظى بولايتين رئاسيتين. «مرة أخرى، لم يعد لدينا الآن برلمان الحزب الواحد» قال زعيم حزب يابلوكو، جريجوري يافلينسكي، باكتئاب صباح اليوم التالي بعد التصويت، وهو يجلس في فندق كمبينسكي الذي بني بصورة أنيقة ليطل على الساحة الحمراء، رمز الازدهار الذي بدأ في الظهور في عهد بوتين. حتى في نهاية الحقبة السوفييتية كان هناك نوع من النقاش التشريعي. وقد كشف كرملين بوتين في انتصاره الانتخابي أنه «لم يوجد لروسيا مثل هذا البرلمان منذ بريجنيف». قال فلاديسلاف سوركوف بشماتة إن الأحزاب الليبرالية التي أخفقت في الفوز بمقاعد يجب «تدرك أن مهمتهم التاريخية انتهت»، فبوتين يمثل نهاية «النظام السياسي القديم» و«عهد سياسي جديد قادم»[54].

الفصل الرابع عشر

السنة المروعة

في 1 سبتمبر/أيلول 2004م، كان بوتين في سوتشي على البحر الأسود، في محاولة لم تكن ناجحة تمامًا لقضاء الأيام الأخيرة من عطلة أغسطس/آب التقليدية في البلاد في مناخ شبه استوائي؛ إذ إنه يقضي وقته في المجمع الرئاسي أكثر مما كان يقضيه في أي من المقار الرسمية الأخرى للكرملين خارج موسكو، وهنا عقد في كثير من الأحيان لقاءات مع القادة الأجانب، من بينها لقاء في اليوم السابق مع جاك شيراك من فرنسا، وجيرهارد شرودر من ألمانيا، (الترويكا) التي كانت تعارض علنًا الحرب الأمريكية على العراق. وبمراجعة لا تخلو من شماتة استذكروا أن إنذاراتهم المتنبئة بالكوارث تأكدت حال الإسقاط الأمريكي السريع لحكومة صدام حسين؛ إذ تحولت إلى تمرد قاتل.

أصبح بوتين قريبًا جدًّا من شرودر الذي تبنى يتيمًا روسيًّا هو وزوجته. كل زعيم كانت بينه وبين بوتين قضية مشتركة ضد سياسة المختال جورج بوش، تغاضوا عن انتقادهم لبلاده روسيا، ومن ذلك الحرب في الشيشان. أما عطلة بوتين المشؤومة فقد قُطعت في أغسطس/آب بسلسلة من المآسي؛ ففي 21 أغسطس/آب، أودت غارة جريئة من قبل المتمردين في الشيشان بخمسين شخصًا على الأقل، وجاء ذلك عقب غارة مماثلة في أنغوشيا المجاورة في يونيو/حزيران أدت إلى مقتل ما يقرب من مئة، وجاءت قبل أيام قليلة من عقد الشيشان انتخابات جديدة، امتدحها شيراك وشرودر، إذ رأوا فيها دليلًا على أن بوتين يسعى إلى حل سياسي للصراعات، التي هي الآن في عامها الخامس. ثم في ليلة 24 أغسطس/آب، وقعت

طائرتا ركاب في مطار دوموديدوفو في موسكو، ما يقرب من ساعة واحدة بين كل منهما على حدة. ففي وقت واحد تقريبًا، قرابة الساعة 11:00، كلتاهما انفجرتا في الجو، ودمرتا من قبل امرأتين انتحاريتين؛ واحدة منهما دفعت رشوة قدرها ألف روبل للحصول على مقعد في الطائرة بعد صعود الركاب عليها وإغلاق أبوابها، وكانت إحدى الطائرتين متجهة إلى فولغوغراد، والثانية لسوتشي، وقد قتل تسعة وثمانون شخصًا.

استشعر بوتين خطورة الهجمات، فعاد إلى موسكو، وأمر بتشكيل فريق عمل للتحقيق، ولكن بحلول مطلع الأسبوع عاد إلى سوتشي، ولم يصرح بشيء حتى ظهر مع شيراك وشرودر، وألقى باللوم في التفجيرات- أسوأ عمل إرهابي في سماء روسيا- على تنظيم القاعدة، الذي خلط الأخطاء بالحقائق على نحو صارخ. وبعد بضع ساعات فقط من حديث بوتين، فجرت امرأة نفسها عند مدخل محطة مترو Rizhskaya في موسكو، التي تبعد ثلاثة أميال فقط إلى الشمال من الكرملين، وأسفر الهجوم عن مقتل الانتحاري وتسعة آخرين، وجرح أكثر من خمسين. وكان من بين المسؤولين الذين هرعوا إلى مكان الحادث رئيس بلدية موسكو، يوري لوجكوف، وهو ما يؤكد حالة الذعر التي كانت تتكشف، ولا تختلف عن تلك التي اتبعت في تفجيرات الشقق في عام 1999م، وبعد أن أعلنت الشرطة في موسكو أن الانتحاري كان روزا ناغايفا، ثبت في وقت لاحق أن تلك معلومات كاذبة[1].

(أمانات) هي التي كانت يشتبه فيها بتدمير إحدى الطائرتين، في حين دمرت رفيقتها في السكن ساتسيتا دزهبيركهانوفا الطائرة الأخرى، كانت أمانات وشقيقتها وساتسيتا مشتركات في شقة قاتمة في حالة خربة ومدمرة في جروزني مع امرأة أخرى؛ هي مريم تابوروفا. كُنَّ يعشن على بعد خطوات من عكر، السوق المركزية النتنة في المدينة، حيث تباع الملابس القادمة بجولات مكوكية من أذربيجان[2]. في 22 أغسطس/آب، قبل يومين من الهجوم على الطائرات، غادر الأربع جميعًا جروزني، وأخذن حافلة إلى عاصمة أذربيجان، باكو، وتشاركن الآن في موجة جديدة من الإرهاب، وقد اقتفت السلطات أثرهن بسرعة معًا على الدرب، لكنها لم تعرف أين ذهبت تابوروفا ولا- كما اتضح- روزا ناغايفا[3].

كان بوتين قد وصل عام 2004م- على ما يبدو- إلى ذروة السلطة السياسية؛ فالانتخابات البرلمانية عززت سيطرته على السلطة التشريعية، وعلى الرغم من أن اعتقال خودوركوفسكي كان قد هز سوق الأسهم، فإنه لم تتراجع شعبيته، التي حلقت فوق 70 في المئة، وحتى المستثمرون القلقون بدؤوا يشعرون بالارتياح؛ لكون الهجوم على يوكوس يبدو معركة شخصية وسياسية، وليس نتيجة حملة لإعادة تأميم الصناعة؛ و«الناس ستنسى خلال ستة أشهر أن خودوركوفسكي لا يزال يجلس في السجن»، كما أعلن ويليام برودر، مدير رأسمال الأرميتاج، أحد صناديق الأموال التي كان لها فضل إعلاء شأن بوتين[4].

آثار تحسن الاقتصاد تتزايد يومًا بعد يوم في المتاجر والمطاعم والمباني السكنية الجديدة، خصوصًا في موسكو، وغيرها من المدن، إذ وصلت أسعار النفط إلى أكثر من ثلاثة أضعاف منذ بداية الأزمة المالية لعام 1998م، وفرض بوتين نظامًا ضريبيًّا جديدًا على شركات النفط مبنيًّا- ويا للسخرية- على المقترحات التي صاغتها يوكوس، فصبت الأموال في خزائن الدولة، وكانت حصة أرباح النفط التي تلقتها الحكومة قد تضاعفت تقريبًا، والعائدات قد ارتفعت من أقل من 6 مليارات دولار عندما أصبح بوتين رئيسًا للوزراء، إلى أكثر من 80 مليار دولار[5]، وبدأ الروس يتحدثون الآن عن أن روسيا ستصبح أكبر منتج للنفط في العالم، متجاوزة بذلك المملكة العربية السعودية.

لم يكن الازدهار من نجاح بوتين وحده، ومنتقدوه الذين سخروا منه وعدوه محظوظًا، في الوقت نفسه أيضًا يعرفونه زعيمًا بلا منازع للبلاد، جنى المنافع السياسية. وفي مطلع يناير/ كانون الثاني ضغط الكرملين في قضيته ضد شركة يوكوس، معلنًا أن على الشركة استحقاقات بـ 3.4 مليارات دولار؛ ضرائب متأخرة عن عام 2000م وحده، وأعرب رئيس الوزراء الروسي، ميخائيل كاسيانوف، عن الاحتجاج، وكان الاحتجاجَ الوحيد. وفي مقابلة أجرتها معه صحيفة فيدوموستي، قال إن خودوركوفسكي وشركاءه لم يتهربوا من الضرائب بالخداع، ولكنهم ببساطة استخدموا الثغرات التي كانت آنذاك متاحة للجميع، ولكنها الآن بأثر رجعي أصبحت

غير قانونية[6]. رأى بوتين في ذلك تحديًا من رئيس وزرائه، مهما كانت تصريحاته معتدلة وتبدو خفيفة، وقد كان كاسيانوف حريصًا دائمًا على عدم التحدث مباشرة ضد رئيسه، ولكن في يوم السبت التالي طلب بوتين، في الاجتماع الدوري لمجلس الأمن، من الأعضاء البقاء بعد الانتهاء من جدول الأعمال، وكان المجلس يضم أهم المسؤولين في البلاد، ومن بينهم وزراء الدفاع والشؤون الخارجية، وبطبيعة الحال كاسيانوف رئيس الوزراء. أوعز بوتين للنائب العام فلاديمير أوستينوف بقراءة جرائم خودوركوفسكي جميعها بصوت عال، معتقدًا أن النطق بـ(جرائم) خودوركوفسكي سوف يبدد أي شكوك، ويدحض توجه كاسيانوف الخطير في الاستجواب، قبل أن يتبنى هذا التوجه أي شخص آخر نيابة عنه.

قرأ أوستينوف الاتهامات قراءة رتيبة، صفحة بعد صفحة، لأكثر من ساعة، و«أعضاء مجلس الأمن لم يفهموا بالضبط سبب هذا الفعل، وجلسوا هناك بوجوه متحجرة، لا تتحرك»، كما يتذكر كاسيانوف، الذي ما كان بوسعه إلا أن يبتسم من «كل السخافات والاختراعات الواضحة»، في حين كان بوتين جالسًا على رأس الطاولة البيضاوية الطويلة، يتفحص وجوه مساعديه، ويسجل ملاحظاته على ردود أفعالهم: الفارغة من أي دلالة أو رد فعل تجاه ما يقرؤه المدعي العام من قبل معظمهم، ومن ابتسامة كاسيانوف. وعندما انتهى أوستينوف من القراءة، لم يسأل أحد منهم سؤالًا أو يقل كلمة استجابة، بل «ساروا جميعهم خارجين بصمت»[7]. كانت الهيمنة السياسية لبوتين تبدو وكأن تحديه يبدو نقطة صغيرة في بحر.

في الانتخابات الرئاسية أيضًا، التي عقدت في مارس/آذار، لم يواجه بوتين أي معارضة ذات قيمة؛ فقد انسحب قبل أن تبدأ الحملة الرسمية جبابرة السياسيين لعهد يلتسين؛ غينادي زغانوف وفلاديمير جيرينوفسكي، الرجال الذين كانوا يبدون ذات مرة أنهم سيتولون حكم كل روسيا، وبدلًا من ذلك عينوا موالين للحزب لإجراء حملات رمزية، وفي حالة جيرينوفسكي، حمل حارسه الشخصي، وهو ملاكم سابق يدعى أوليغ ماليشكين، لافتةَ الحزب.

رفض جريجوري يافلينسكي بمرارة شعوره بهزيمة يابلوكو في ديسمبر/كانون الأول، وصدرت توسلات من الكرملين نفسه لشن حملة ثالثة لرئاسة الجمهورية، لخلق ما يشبه الخيار الديموقراطي؛ فقد حاول بوريس نيمتسوف، أحد المصلحين الآخرين الذين خدموا في ولاية يلتسين، إقناع كاسيانوف- وكانا في إجازتهما معًا في فصل الشتاء- أن يكون مرشحًا يمثل الليبراليين الاقتصاديين في البلاد، لكن كاسيانوف لم يجرؤ على تحدي رئيسه. في الأسابيع التي سبقت الحملة، تبيَّن بالاستطلاع أن 55 في المئة من المشاركين يعتقدون أنه سيكون من الأفضل إلغاء الانتخابات وتوفير المال الذي ستكلفه الانتخابات[8]. إعادة انتخاب بوتين تأكيد للمسار الذي كان قد اختاره لروسيا، والذي بدا على وشك الانهيار، ولكن بطريقة لا هو ولا مساعدوه كانوا يتوقعونها. كانت (الديموقراطية الموجهة) التي نسقها سوركوف قد نجحت جيدًا بحيث كانت تهدد بتقويض صورة بوتين نفسه باعتباره ديموقراطيًّا حوَّل روسيا بموافقة الشعب. واحدة من الأفكار الأولى للتشريع في مجلس الدوما الجديد دعت إلى تعديل الدستور لتمديد ولاية الرئاسة لسبع سنوات، والسماح لبوتين بالترشح لولايتين جديدتين، يمكن أن تبقياه في منصبه حتى عام 2018، لكنه اعترض، مصرًّا على أنه يجب أن تكون هناك تغييرات دستورية. كان لا يزال يسعى إلى رخصة تسبغ الديموقراطية، ومع أنه كان في سباق واجه فيه معارضة الكرملين، فلا يوجد منافسة حقيقية؛ فقد ترك الكرملين ليجند مرشحي المعارضة له، ومن ضمنهم يافلينسكي والنائب البرلماني السابق من بطرسبورغ، سيرجي ميرونوف، الذي قبل ترشيح حزب صغير له بتوجيه نداء مؤثر للتصويت للرئيس الحالي، قائلًا: «عندما يذهب الزعيم الثقة إلى المعركة- ويعني به بوتين- فلا يجب أن يُترك وحده»[9]. أما الليبراليون فلم يتمكنوا من الاتفاق على مرشح واحد اليوم، ولكنهم تمكنوا من توحيد أنفسهم ككتلة واحدة قبل الانتخابات البرلمانية. وفي النهاية كانت إيرينا خاكامادا، الروسية من أصل ياباني، وواحدة من أكثر النساء البارزات في الساحة السياسية، هي الوحيدة التي انتهت إلى خوض التحدي، وقد رفض حزبها (اتحاد قوى اليمين) تأييدها. ومن المنفى في لندن موَّل بوريس بيريزوفسكي مرشحًا آخر؛ هو إيفان رايبكن، المتحدث باسم

الدوما السابق وحليف يلتسين، وقد سقط في نهاية المطاف، ولكن ليس قبل أن ينهي الفصل الدرامي الذي رافق حملته التي يختفي فيها أربعة أيام في شهر فبراير/شباط، حيث أعلنت السلطات تحقيقًا في اغتيال محتمل له، وعندما عاد إلى الظهور تعهد بمواصلة حملته، ثم سرعان ما هرب إلى لندن، حيث التقى مساعدي بيريزوفسكي، ومنهم ألكسندر ليتفينينكو، ضابط جهاز الأمن الفيدرالي السابق الذي كان اتهم الوكالة علانية.

وكان ليتفينينكو قد هرب من روسيا في أكتوبر/تشرين الأول 2000م، واستقر في لندن برعاية مالية من بيريزوفسكي. بعد لقائهما ادعى رايبكن أنه قد اختطف وخُدِّرَ في كييف، حيث ذهب بدعوة للقاء رئيس الانفصاليين الشيشان أصلان مسخادوف، الرئيس السابق الذي بات الآن واحدًا من أكثر المجرمين المطلوبين في روسيا، ولكن اللامعقولية في مخاطرة مسخادوف بالسفر إلى أوكرانيا، التي كانت جزءًا لا يتجزأ من نشاط الأجهزة الأمنية الروسية، تشي بأن الواقعة لم تحدث لرايبكن. رايبكن كان قد سقط فاقدًا للوعي أربعة أيام، بعد أن تناول الشطائر والشاي في شقة في كييف، وعندما أوشك على الاستفاقة، أظهر له اثنان من الرجال الروس المسلحين شريطًا مصورًا، وقد رفض أن يصف بالتفصيل ما حدث سوى قوله إن من فعلوا ذلك هم من (المنحرفين)، وكان القصد من ذلك إذلاله كي يلوذ بالصمت[10].

ادعى ليتفينينكو أن الدواء الذي ابتلعه رايبكن كان SP-117، وهو مصل الحقيقة الذي تستخدمه أجهزة الاستخبارات الخارجية الروسية، ووصفه قائلًا: «ما إن تبتلع الـ SP-117، حتى يصبح بإمكانهم أن يفعلوا بك ما يريدون؛ فيقتادونك هنا وهناك، ويضعونك في السرير مع البنات أو الأولاد، ويسجلون لك الشريط الذي يشاؤون، وهلم جرًّا. ثم تحصل على حبة واحدة من الترياق فتعود طبيعيًّا مرة أخرى فلا تتذكر ما حدث»[11].

لا أحد أخذ الاتهامات الموجهة لرايبكن على محمل الجد، ولا حتى زوجته، التي قالت إنها شعرت «بالأسى لروسيا إذا كان أناس مثل هؤلاء يريدون أن يحكموها»[12]، لكن مسيرته

السياسية لم تتعافَ أبدًا. بيريزوفسكي، على الرغم من أنه لم يكِلَّ بتاتًا في حملته لتشويه سمعة بوتين، ندد به بانتظام، مع زيادة الشدة وتناقص في الحقيقة، ولن تكون المرة الأخيرة له وليتفينينكو ليصبحا مشتركين في الدراما المثيرة التي تنطوي على الجواسيس والسم.

لم يتجاهل بوتين منافسيه فقط؛ بل تجاهل ظاهريًّا حملته الخاصة، كما كان قد فعل قبل أربع سنوات، ولم يكن عليه هو أن يخوض حملة علنًا؛ بسبب سيطرة الكرملين على التلفاز، التي تعني أن مهامه ستكون مغطاة بصفته الرئيس بإخلاص، ودون تمحيص، وأكثر بروزًا حتى في نشرات الأخبار المسائية، وبالمقابل فإن منافسي بوتين لا يرد ذكرهم على الإطلاق، إلا مع استصغارهم أو التنديد بهم.

بعد أن قُرِّر عقد أول مناظرة بين المرشحين للرئاسة في 12 فبراير/شباط- في ساعات الصباح المبكرة لضمان أقل عدد ممكن من المشاهدين- رفض بوتين الحضور، وبدلًا من ذلك فإن الدقائق التسع والعشرين المخصصة له في ذلك اليوم افتتح بها رسميًّا حملته الانتخابية بخطاب له، ومع ذلك بُثَّت مرارًا بعد الظهر وفي المساء. لم ينشئ أي إعلانات للحملة، ولم يعقد أي تجمعات، ولم يقدم مقترحات واضحة لإنجازها في الولاية الثانية سوى أن يظل تجسيدًا حيًّا للاستقرار في روسيا. والمفارقة أن السنوات الأربع من رئاسة بوتين، والاستقرار في روسيا، لا تزال تبدو غير مستقرة، كارثة غير بعيدة غير بعيدة عن اضطرابات التسعينيات.

عشية السباق، انفجرت قنبلة في باب يلينا تريغوبوفا، الصحفية التي كان بوتين قد أرسلها إلى السوشي حين كان مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي، وكانت في عام 2003م قد نشرت كتابًا عن تجربتها في تجمع الصحافة المقيدة على نحو متزايد في الكرملين، **حكايات من حفَّار الكرملين**، وكان من أكثر الكتب مبيعًا، واصفًا بالتفصيل الممل جهود الكرملين لإدارة التقارير وتوجيهها، ومن ضمنها حادث توبيخ بوتين للصبي الذي كان قد ضربته سيارة، إذ قال له: «من الآن فصاعدًا عليك ألا تنتهك قواعد السير والمرور». افترضت تريغوبوفا

أن الهجوم مرتبط بطريقة ما بالانتخابات المقبلة، ومع أنها لم تُصَب بجراح، فإنها كانت مصدومة، حتى إنها هربت من روسيا، قالت: «لقد أصبح من غير المريح العيش في هذه المدينة»[13].

وبعد أربعة أيام، فجر انتحاري نفسه في قطار المترو في وسط موسكو، مما أسفر عن مقتل واحد وأربعين شخصًا، وإصابة أكثر من مئتين بجراح، وأحد المتهمين بتدبير الهجوم هو نفسه المتورط في وقت لاحق بتفجير مترو رزهسكايا بعد ستة أشهر[14]. في 14 فبراير/ شباط، بعد يومين من البداية الرسمية للحملة الانتخابية، انهار سقف حديقة مائية داخلية شعبية جديدة في جنوب موسكو، في متنزّه الترانسفال بارك الذي يرمز إلى وسائل الراحة التي نجمت عن الازدهار الاقتصادي الذي حققه بوتين للطبقة الاستهلاكية الناشئة في البلاد: إذ كان الجنة الاستوائية في الأماكن المغلقة في الشمال البارد. قُتل ثمانية وعشرون شخصًا من جراء الكارثة، وقد ادعى مصممو البناء أنها ناجمة عن هجوم إرهابي، ولكن ذلك كان في الواقع ناجمًا عن عيب في البناء.

من المستحيل أن نلوم بوتين مباشرة على أي واحد من تلك الأحداث، ولكنها مجتمعةً- بكل تأكيد- معيار لحكمه؛ بصفته صاحب النجاحات الاقتصادية التي رفعت أسهمه. أنتج إيفان رايبكن إعلانًا على الطريقة الأمريكية لكوارث الهجوم على مترو الأنفاق والحديقة المائية، جنبًا إلى جنب مع الحالة المزرية للتعليم والرعاية الصحية، ولكن شبكات التلفاز في الولاية رفضت ببساطة نقله[15]، ومع ذلك فإن الفريق السياسي لسوركوف لم يترك شيئًا للمصادفة، فأصدر الكرملين أوامر إلى المناطق النائية بتحديد مجاميع التصويت لبوتين وإقبال الناخبين، وهددت السلطات في خاباروفسك في الشرق الأقصى بإجلاء المرضى من المستشفيات إذا لم يستطيعوا إثبات أن لديهم إذنًا بالاقتراع الغيابي للإدلاء بأصواتهم. وبعث مسؤول السكن في سانت بطرسبورغ بريدًا إلكترونيًا إلى مديري المباني لضمان نسبة إقبال 70 في المئة[16].

تنفيذًا لرغبات الكرملين، فرض البيروقراطيون المحليون عقبات للإبقاء على منافسي بوتين من دون تحشيد حملات على الإطلاق، وأوقفت الشرطة مظاهرة واحدة في يكاترينبورغ بحجة فرضية تهديد بوجود قنبلة، وانقطع التيار الكهربائي في نيجني نوفغورود بعد ذلك بيومين.

لم تلق الحملة أي اهتمام انتخابي، وكان ذلك مصدرًا للقلق الأكبر للكرملين الآن؛ إذ إن إقبال الناخبين إذا ما كان تحت عتبة 50 في المئة اللازمة لجعل الانتخابات قانونية، فإن ذلك مدعاة إلى فرض انتخابات جديدة، وهذا من شأنه أن يسبب الحرج الكبير، ولكن بدأ أقرب مستشاري بوتين أيضًا يرى بذور مؤامرة لحرمانه السلطة. فبموجب القانون إذا كان مطلوبًا إجراء انتخابات جديدة، فعلى رئيس الوزراء أن يتدخل ليكون بمنزلة القائم بأعمال الرئيس في هذه الأثناء، وهذا هو ميخائيل كاسيانوف، الذي كان قد انتقد محاكمة خودوركوفسكي، الذي كان بوتين على قناعة أنه يحاول شراء السيطرة على الدولة، وأمضى إجازته مع بوريس نيمتسوف، الذي أثار احتمالَ ترشحه للرئاسة، وبوتين يجب بالتأكيد أن يكتشف ذلك.

كانت فرص كاسيانوف في المناورة على السلطة متناهية الصغر وبعيدة المنال، لكن بوتين ومساعديه صدقوا ذلك، ولن يتسامحوا مع أي خطر[17]، ومن ثم ففي حفل موسيقي في الكرملين، يوم 23 فبراير/شباط، لمس كاسيانوف نفسُه تعاملًا باردًا من بوتين، ولاحظه خلال الاستراحة يهمس في الزاوية مع رئيس جهاز الأمن الفيدرالي نيكولاي باتروشيف، وإضافة إلى ذلك فقد ظل يتجنبه[18].

في اليوم التالي، استدعى بوتين كاسيانوف إلى مكتبه في الكرملين وأقاله، ولم يكتف بأن لم يفسر السبب للجمهور، بل إنه رفض أن يبلغ كاسيانوف، الذي فاجأته الأخبار حتى إنه لم يفهم في البداية أن بوتين كان يعني تنفيذ الأمر على الفور، وليس بعد إعادة انتخابه في مارس/آذار كما كان متوقعًا أن يعين رئيس وزراء جديدًا بعد الانتخابات الرئاسية[19]. كانت تلك أقوى صدمة لحكومة بوتين التي كانت استمراريتها مقياسًا للاستقرار السياسي، ومثل

يلتسين من قبله استخدم المفاجأة لتعظيم الأثر والحفاظ على تركيز اهتمام وسائل الإعلام به، ومن ثم فإنه حتى كبار المسؤولين الآخرين لم يكونوا يعلمون بخطوة بوتين القادمة. قال بوتين إن الناخبين فقط يستحقون أن يعرفوا تركيبة الحكومة الجديدة قبل الانتخابات، والتي أبرزت فقط كيف يمكنه التنبؤ بما ستكون عليه النتيجة.

لم يعلن بوتين على الفور استبدال كاسيانوف على الرغم من ذلك، وتسبب ذلك التأخير بتفشي المضاربة؛ ليس حول الانتخابات في غضون الأسابيع الثلاثة، ولكن حول رجل عام 2008 الذي من شأنه أن يُنتخَب خليفة لبوتين بعد أن انتهت رئاسته الثانية. إذ يفترض معظم السياسيين والمحللين أن يكون كاسيانوف خيار بوتين، لكونه وريثه السياسي، كما أصبح بوتين في نهاية المطاف خليفة يلتسين، لكنهم لم يحسنوا فهم نيات بوتين؛ فهو لا يريد تسمية ولي العهد الذي قد يظهر شخصية سياسية ندًّا له، فأمر كهذا من شأنه أن يسمح بفكرة روسيا من دون بوتين، وكان من المبكر جدًّا التفكير في ذلك.

انتظر بوتين أسبوعًا، فاسحًا المجال للغموض والتشويق أن يتعمقا، وقد تركزت التكهنات على المسؤولين الكبار في كرملين بوتين: الليبراليين والحرس القديم، الذين يقودهم على التوالي ألكسي كودرين وسيرجي إيفانوف، اللذين كان لديهما تطلعاتهما الخاصة للصعود إلى السلطة بالتمسك بذيول معطف بوتين، لكنه خلافًا لذلك أعلن مرشحًا لم يكن أحد يتوقعه، ولا حتى أولئك الداخلون في الفصائل المتناحرة. وكتبت الصحفية آنا بوليتكوفسكايا: «النخبة السياسية كانت مستفَزة؛ لعبةُ تخمينِ مَن سيعينه بوتين استولت على القنوات التلفازية، وأعطت النقاد السياسيين شيئًا لمناقشته، وحصلت الصحافة على شيء يمكن أن تكتب عنه في الحملة الانتخابية»[20]. وقبل أقل من أسبوعين من يوم الانتخابات، اجتمع بوتين والقادة البرلمانيين لخلق مظهر من التشاور، كما هو مطلوب اسميًّا من قبل الدستور، وأعلن بوتين أن رئيس الوزراء الجديد سيكون ميخائيل فرادكوف، و«خيَّم صمت»، وقد علق على ذلك أحد المشاركين في الاجتماع لصحيفة فيدوموستي: «لأن بعضنا لا يتذكر من كان فرادكوف»[21].

فرادكوف، أصلع الرأس، بيروقراطي مرتخٍ، كان منذ مدة طويلة في المهنة غامضًا، وقد بدأ في الاتحاد السوفييتي في وزارة الشؤون الاقتصادية الخارجية، وليس لديه راعٍ، ولا دائرة سياسية، أو أي مقترحات في السياسة يمكن أن يستشفها أي شخص. يبدو كما لو أنه كان لطيفًا اختياره لرئاسة الوزراء، كما كان بوتين في عام 1999م. حتى فرادكوف بدا مذهولًا لترشيحه، وكان بوتين أول من دعاه خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكان لا يزال في بروكسل، حيث شغل منصب مبعوث روسيا لدى الاتحاد الأوروبي، عندما أعلن بوتين منصبه الجديد.

عند وصوله عاد إلى موسكو في اليوم التالي، اعترف أنه لا يمتلك المؤهلات التي يتطلبها المنصب وأنه لم يكن لديه طموح إلى هذا المنصب، قد يكون هذا صحيحًا لكن إذا كان بوتين يعني حقًّا تعيينه لتوضيح مسار الحكومة القادمة، فإن هذا لا يعني شيئًا إلا أن مجلس الوزراء تحت قيادة فرادكوف سيكون مطواعًا كما أصبح الدوما والمجلس الاتحادي.

لم يكن لفرادكوف أي طموح شخصي، ولكنه ينتمي إلى فريق من ضباط المخابرات السابقين المجتمعين حول بوتين في موسكو خلال رئاسته. المؤهلات التعليمية لفرادكوف ؛ ما تلقاه من تعليم في معهد موسكو لتصميم الآلات والأدوات، والفجوة الغامضة في سيرته الذاتية، وتحدثه الإنجليزية والإسبانية، والمهمة التي كلف بها في سبعينيات القرن الماضي بوصفه مستشارًا اقتصاديًّا في سفارة الاتحاد السوفييتي في الهند تشير جميعها إلى ارتباطه الوثيق بالكي جي بي، مع وجود فجوة غامضة في سيرته الذاتية، لكنه يجيد بطلاقة اللغتين الإنكليزية والإسبانية، وقد كان في السبعينيات مستشارًا اقتصاديًّا في سفارة الاتحاد السوفييتي في الهند، وهو ما يشير بقوة إلى علاقاته بالـ(كي جي بي)، ومع أنه لم يعترف أو ينكر افتراض أنه يعمل بسرية، فهذا شأن كثير من مسؤولي التجارة السوفييت[22].

قال بوتين في إعلانه إن فرادكوف كان مسؤولًا إداريًّا جيدًا، ومن المسؤولين الجيدين الذين لديهم خبرة في الأجهزة الأمنية. طوال ولايته الأولى كان بوتين يفضل رجال الأمن في تعييناته، وحسب بعض التقديرات فإن ما يصل إلى 70 في المئة من المناصب الحكومية

العليا هم من الضباط السابقين في الجيش والشرطة، أو المخابرات، وكثيرون منهم لديهم الخلفية نفسها في الـ(كي جي بي)، وفرادكوف مناسب لهذا النمط. ما أدركه قليلون هو أن بوتين كان يعرف فرادكوف، هذا المنضبط اللطيف غير مشغول البال، من سنوات، وكان قد شغل منصب ممثل بطرسبورغ في وزارة التجارة الخارجية في وقت مبكر من التسعينيات ومع رئيسه، بيوتر آفون، الذي أصبح الآن واحدًا من أغنى المصرفيين في روسيا، وهو الذي كان قد وافق على عقود المقايضة التي وقعها بوتين في المخطط الفاضح لتزويد المدينة بالغذاء في فصل الشتاء الأول من روسيا الجديدة[23]. كاسيانوف، ومن قبله فولوشين، مثّلا إرثًا شرعيًّا من عهد يلتسين. المسؤولون منهم مع طموحاتهم، ومصالحهم، ودوائرهم الانتخابية، كانوا قد اختفوا الآن، ولا تزال هناك خصومات وانقسامات داخل الكرملين، لكن مع تعيين فرادكوف عزز بوتين تفوقه السياسي؛ بتعيين شبكة كاملة من مرؤوسيه من شأنها أن تبقى فوق كل شيء موالية له. بعد تعيينه بخمسة أيام فقط اعتمد الدوما ترشيح فرادكوف بعد نقاشات روتينية شملت فقط تسعة أسئلة، وعرض فرادكوف فقط الخطوط الأكثر إبهامًا من سياساته، فقد عيِّن لأداء ما يمليه بوتين، والجميع يفهم ذلك، وكانت نتيجة التصويت 352 مقابل 58، وامتناع 24 عن التصويت.

جاءت إعادة انتخاب بوتين وفق السيناريو الذي أعده وكتبه الفريق السياسي لسوركوف؛ فقد حصل على أكثر من 71 في المئة من الأصوات، وجاء من بعده المرشح الشيوعي نيكولاي خاريتونوف، المعروف على نطاق ضيق، في المرتبة الثانية بـ13 في المئة من الأصوات، وكانت هناك أدلة وافرة عن حشو أوراق الاقتراع، والفرز المشبوه للأصوات، لكن منع الكرملين التحقيق في هذه الاتهامات. وكانت نسبة الإقبال ومجموع المصوتين لبوتين، في عدة مناطق، لا تُصَدق، ففي الشيشان التي تعصف بها الحرب صوت 92 في المئة لبوتين، وقد سخر خاريتونوف من ذلك قائلًا: «أعتقد أن مسخادوف وباساييف هما فقط اللذين لم يذهبا إلى صناديق الاقتراع»، وشكا بمرارة من المخالفات الانتخابية، التي كان من ضمنها حالات احتُسبت فيها أصوات مؤيدة له لبوتين[24]. كذلك ففي جميع أنحاء شمال القفقاز،

المناطق التي غزتها روسيا الإمبريالية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سُلِّمت نتائج مماثلة لموسكو مثل تحية إلى القيصر. وفي داغستان صوت 94 في المئة لبوتين، وفي قبردينو - بلغاريا 96؛ وفي إنغوشيا 98، وفي بعض المناطق من جميع أنحاء البلاد، تجاوزت نسبة المشاركة والتصويت لبوتين 99.9 في المئة، ولكن لا أحد في الكرملين- أو غيره- بدا محرجًا من هذا. وكانت الدراما الليلية هي الوحيدة التي ليست معنية بالانتخابات.

دقائق فقط بعد إغلاق مراكز الاقتراع في موسكو، اشتعلت النيران في مانيزه؛ المَعلَم الكلاسيكي الجديد عبر حدائق ألكسندر من الكرملين، وسرعان ما انتشرت من خلال العوارض الخشبية في السقف، لتستهلك المبنى بأكمله سريعًا. أولى الصور التي بثها التلفاز أظهرت كما لو أن الكرملين نفسه الذي كان يحترق، «وليس شيئًا من شأن السلطات أن تريه للروس في يوم انتصار فلاديمير بوتين»، كما كتبت إحدى الصحف[25]، وكان بوتين يشاهد ذلك من على سطح مجلس الشيوخ ومبنى مكتب الرئاسة في الكرملين، وكان عليه أن يؤجل خطاب النصر، وعلى الرغم من ذلك فإن قنوات تلفزة الدولة لا يمكنها تجنب إظهار الحريق في الخلفية خلال تقارير حية من وسط المدينة، وعندما انهار سقف المبنى في كومة منفجرة، وانبعث الجمر في السماء وكأنه ألعاب نارية غير مرغوب في عرضها، انفجر الحشد في الشارع، لسبب غير مفهوم، بالهتافات. توفي اثنان من رجال الإطفاء عندما سقطت العوارض الخشبية المحترقة عليهما، وأعلن مسؤولون أن السبب في ذلك خلل في الأسلاك، أو ربما شرارة لحام، ولكن لأنه لا أحد كان يعمل هناك ليلة الأحد، فإن الاشتباه في حريق متعمد كان مطروحًا ثم تبدد تمامًا.

في ثقافة عميقة بالخرافات، يبدو أن إعادة انتخاب بوتين كانت فألًا سيئًا، قال بوتين: «أعدكم بالدفاع عن الإنجازات الديموقراطية لشعبنا دون قيد أو شرط، وستكون مضمونة»، في ظهور قصير له في مقر حملته الانتخابية ليلة الانتخابات، مرتديًا سترة الياقة المدورة السوداء. لم يفز أي حزب ولم يكن ثمة أي احتفال، ولا أحد يبدو سعيدًا أو متحمسًا لذلك.

في صباح اليوم التالي بعد إعادة انتخابه، استقبل بوتين المكالمات الهاتفية المهنئة من جورج بوش، وطوني بلير، وجاك شيراك، وجيرهارد شرودر، وجونيشيرو كويزومي، على الرغم من أن المراقبين الدوليين من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا اجتمعوا ليعلنوا، وفق طقوس مؤتمر ما بعد الانتخابات، أن الانتخابات «عكست عدم وجود ثقافة الديموقراطية، والمساءلة، والمسؤولية».

إعادة انتخاب بوتين ثبطت من معنويات الديموقراطيين في البلاد، وفرضَ انهيار الأحزاب الليبرالية الذي بدأ مع الانتخابات البرلمانية، ضرورة البحث فيما حدث من أخطاء. وقد وصف واحد من الليبراليين القليلين المستقلين المنتخبين لمجلس الدوما في عام 2003م، فلاديمير ريجكوف، الذي يمثل بارناول في سيبيريا، وصف ما حدث بأنه «كارثة الليبرالية»، وأن الديموقراطيين في البلاد- من وجهة نظره- تشوهوا من الآثار السلبية لانهيار الاتحاد السوفييتي؛ بالانتقال إلى الفوضى والجرائم الجنائية لأجل الوصول إلى الرأسمالية الزائفة التي خلفت ملايين الفقراء والتائقين إلى استقرار الدولة السوفييتية، إن لم يكن الركود الإيديولوجي والاقتصادي الخانق. وبوتين، الذي كان يعمل لدى واحد من أوائل الديموقراطيين في البلاد، وكان وريث الرجل الذي قاد روسيا في التسعينيات، ظهر- بطريقة ما- أن له كل الفضل في الانتعاش الاقتصادي والحريات الشخصية التي لا تزال باقية.

وذهب ريجكوف إلى لوم معظم أنصار الديموقراطية من أحزاب ليبرالية؛ يابلوكو واتحاد قوى اليمين، التي صوتت لا لقادة أحزابهم، بل لبوتين، الذي اتهمه قادة الأحزاب بتعرية الانتخابات- والنظام في حد ذاته- من أي طابع ديموقراطي حقيقي؛ «في نظر غالبية الروس، الرجل الديموقراطي رقم واحد في البلاد ليس سوى الرئيس فلاديمير بوتين نفسه»[26].

الاحتجاج الأكثر إثارة للدهشة جاء من مصدر غير متوقع؛ من الزنزانة الضيقة لميخائيل خودوركوفسكي، وكان قد مضى عليه في السجن خمسة أشهر، يلتقي محاميه ويمعن في مئات

الصفحات من الوثائق التي كانت النيابة العامة قد جمعتها لمحاكمته القادمة، وقد أدلى بهذه التصريحات الوجيزة فقط في الجلسات المتقطعة في المحكمة، لكنه أمضى الساعات في زنزانته يفكر في تطور السياسة والأعمال في روسيا. وكان قد استثمر ثروته الشخصية في تمويل السياسيين الذين توجهوا الآن إلى الانتخابات البرلمانية والرئاسية من قبل رجل كان قد حاول- بجرأة، وقد فهم الآن- التحدي. من الملاحظات المجمَّعة جنبًا إلى جنب مع محاميه، نشر مقالًا مطولًا في صحيفة فيدوموستي بعد إعادة انتخاب بوتين، وكان جزء منه بمنزلة وصفة طبية وجزء آخر بمنزلة اعتراف، وتضمن تحليلًا مريرًا لخطايا الليبراليين في روسيا، ومن بينهم هو نفسه[27].

واصل رجال الأعمال الكبار جني الأرباح من وراء الأعمال الخيرية الاجتماعية؛ التي كانت جحودًا بالسياسة عن طريق مجانبة السلطة السياسية والكذب حول هذا الموضوع على الناس؛ كان الأبطال الليبراليون للديموقراطية يركزون على 10 في المئة من السكان ويهملون أولئك الذين يرزحون في المعاناة. «نحن اليوم نشهد رأسملة الليبراليين، والرأسملة، في الواقع، ليست فقط خطأ الليبراليين، ولكنها أيضًا مشكلتهم. ومن خوفهم من مواجهة تاريخ ألف عام، ممزوج بتوقٍ إلى وسائل الراحة المنزلية التي طوروها في التسعينيات، ومن الهوان المتأصل بهم على المستوى الجيني، فقد كانوا مستعدين لتجاهل الدستور من أجل مساعدة أخرى من سمك الحفش (سمك ضخم يستخرج منه الكافيار)». ويعتذر عن دوره الخاص بالرعاية المالية لإعادة انتخاب يلتسين في عام 1996م، و«الأثر الوحشي الذي شكلته، وهو ما جعل الشعب الروسي يختاروه من كل قلوبهم».

رسالة خودوركوفسكي بدت وكأنها عريضة ندم وطلب استدرار رأفة أو رحمة، وكانت أيضًا تحليلًا حادًّا في السياسة الروسية والمجتمع. وقد كتب عن بوتين قائلًا: «هو على الأرجح ليس ليبراليًّا وليس ديموقراطيًّا، لكنه لا يزال أكثر ليبرالية وديموقراطية من 70 في المئة من سكان بلدنا». كان الرجلُ الذي قضى بسجنه هو الرجل الذي يحافظ على البلاد حتى طوَّر المجتمع مزيدًا من الشعور بالوحدة، وبالجماعة المحلية، والمساواة. خصَّ

خودوركوفسكي مرشحًا معارضًا واحدًا، هي إيرينا خاكامادا، لاقتراحها صفحة كاملة من الإعلان في صحيفة، بقوله إن بوتين كان مسؤولًا عن حصار نورد-أوست (Nord - Ost). «يجب علينا التخلي عن المحاولات غير المجدية لوضع شرعية الرئيس موضع تساؤل، بغض النظر عن كوننا نحب فلاديمير بوتين أو لا، وحان الوقت لندرك أن رئيس الدولة ليس مجرد شخص عادي؛ الرئيس هو مؤسسة ضمان الاستقرار في البلاد وسلامتها، ونعوذ بالله أن نعيش لنرى اليوم الذي تنهار به هذه المؤسسة؛ روسيا لن تبقى على قيد الحياة في فبراير/ شباط 1917م آخر. تاريخ الأمة يخبرنا أن الحكومة السيئة أفضل من عدم وجود أي حكومة على الإطلاق».

الأول من سبتمبر/أيلول هو- بحكم التقاليد- اليوم الأول من المدرسة في جميع أنحاء روسيا، ومناسبة احتفالية تدعى يوم المعرفة، وفيه ينضم الآباء والأجداد إلى أبنائهم لدى تجمعهم في مدارسهم، والجميع يرتدون أفضل ملابسهم، ويحملون الورد أو غيرها من الهدايا للمعلمين الجدد. وفي الأيام الأخيرة من صيف عام 2004م، انتشرت الاحتفالات مرة أخرى في مختلف أنحاء البلاد، وكذلك في المدرسة رقم 1 في بيسلان، وهي مدينة صغيرة في أوسيتيا الشمالية، وهي منطقة يغلب فيها الأرثوذكس في وسط القفقاز، وكان أكثر من ألف ومئتي شخص قد تجمعوا في ساحة المدرسة في التاسعة صباحًا عندما ظهرت شاحنة عسكرية، وقفز رجال يرتدون الزي الرسمي من تحت قماش القنب الذي يغطي البضائع، فأطلقوا النيران من رشاشاتهم في الهواء وصرخوا: «الله أكبر»، ثم حاصروا الجميع أول الأمر في باحة المدرسة، ومن ثم اقتادوهم إلى صالة للألعاب الرياضية في المدرسة، وعلقوا بالأسلاك القنابل فوق رهائنهم[28]. من بين المموهين امرأتان، الزميلتان المتشاركتان في غرفة في جروزني، اللتان يعتقد أن لهما دورًا في هجمات سابقة على الطائرات والمترو في موسكو: مريم تابوروفا وروزا ناغايفا. كانتا الآن جزءًا من هجوم إرهابي همجي مثل حصار نورد-أوست قبل ما يقرب من عامين.

كانت إستراتيجية الكرملين في الشيشان تتعرض لانتكاسة تلو أخرى، وفي 9 مايو/أيار 2004م، بعد يومين من تنصيب بوتين الثاني، انفجرت قنبلة زرعت سرًّا إلى عمود في ملعب لكرة القدم بني حديثًا في جروزني، وذلك في أثناء تجمع النخبة السياسية في الجمهورية، في موكب يوم النصر، في الذكرى السنوية التاسعة والخمسين لهزيمة النازية. الانفجار أسفر عن مقتل ثلاثة عشر شخصًا، من بينهم الرئيس المعين حديثًا، أحمد قاديروف[29]. وقاديروف، بلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا، وحارب الروس في الحرب الأولى في الشيشان، لكنه انشق عن رئيس الجمهورية، أصلان مسخادوف، خلال مدة وجيزة من شبه الاستقلال، وعارض الصورة المتطرفة من الإسلام التي كانت تترسخ. وبصفته مفتيَ نفسه وقائدًا محترمًا فقد أمر باحترام تنفيذ خطة بوتين لإعادة توحيد الشيشان مع الوطن الأم، والآن وقد مات، في المجتمع العشائري الشيشاني، كان خليفته واضحًا؛ وهو ابنه الوحيد رمضان، وهو المقاتل المجرم الذي كان قد خدم سائقًا لوالده ومن ثم قائدًا للأمن، وكان المسؤول عن مجموعة من المقاتلين الذين أصبحوا سيئي السمعة؛ لأساليبهم الوحشية ضد الميليشيات المشتبه فيها.

عندما استدعى بوتين رمضان للكرملين يوم اغتيال والده، وصل أشعث الشعر ويرتدي بنطالًا رياضيًّا، وكان عمره سبعة وعشرين عامًا فقط، أي أقل عمرًا- وفقًا لدستور الشيشان الجديد- من أن يصبح رئيسًا، ولكن بوتين ارتقى به إلى منصب نائب رئيس الوزراء، ووضع الأساس له لخلافة والده عندما بلغ الثلاثين. تعهد المتمردون بقتله أيضًا، وتوعدوه على موقعهم على الإنترنت: «ليس من الضرورة أن تكون نوستراداموس لتخمين مصير رمضان قاديروف».

بعد يومين من الهجوم الذي وقع في مايو/أيار طار بوتين سرًّا إلى الشيشان لحضور جنازة قاديروف، وأوهامه هو نفسه عن التقدم الذي أُحرِز أصبحت واضحة. طار بالمروحية فوق أنقاض جروزني، ورأى بأم عينيه الأدلة المادية على الدمار الذي لم يكن في الحسابات

الرسمية للحرب. وعندما عاد إلى موسكو، واجتمع بوزرائه أعلن أنه لم يجر العمل بما يكفي لإعادة بناء الجمهورية المدمرة، وذلك كان واضحًا لأي شخص كان يعيش في جروزني؛ «على الرغم من كل ما ينجَز هناك، يبدو رهيبًا من طائرة حوامة»[30].

بدا متعجبًا؛ وفي بيسلان كانت السلطات المحلية مصعوقة، وذكر قادة الشرطة في البداية صعوبة الوصول إلى الإرهابيين داخل المدرسة، على الرغم من أن واحدًا منهم أجاب على الهاتف في المدرسة وقال لنيكولاي خاليب، من صحيفة نيويورك تايمز، إن المقاتلين هم وحدة تحت قيادة شامل باساييف، المطلوب الأول في روسيا، «امسح مخاط مناخيرك»، قال لخاليب[31]. بعد حين ظهرت امرأة مرعبة من المدرسة مع مذكرة تطالب بمفاوضات مع قادة أوسيتيا الشمالية وأنغوشيا المجاورة، والطبيب الذي توسط خلال حصار نورد-أوست، ليونيد روشال. حذرت المذكرة أيضًا من أن الخاطفين سيطلقون النار على خمسين من الرهائن إذا قُتل واحدٌ من أي من مقاتليها. وفي المساء رُحِّل الرجال إلى الفصول الدراسية في الطابق الثاني، وبدأت عملية تنفيذ قتلهم واحدًا تلو الآخر، والقذف بأجسادهم من النافذة.

في صباح يوم بدء الحصار، استيقظ بوتين ومارس السباحة في البحر، إلا أن الأزمة التي تتكشف جعلت البقاء في سوتشي مستحيلًا، فطار إلى موسكو، حيث وصفه أحد كبار مساعديه الذي التقى به بأنه كان في «اضطراب شديد»، متذمرًا من الانهيار التام في الأمن الذي سمح لمجموعة من المقاتلين المدججين بالسلاح بالاستيلاء على مدرسة بكاملها[32]. بقي بوتين في الكرملين خلال الأيام التالية، ولجأ دوريًّا إلى مصلى في مكتب كان معروفًا جيدًا للصلاة، ليصلي، ولكنه أيضًا كان يشكو من أنه لم يكن لديه الوقت لممارسة رياضته اليومية الروتينية[33]، وظهر علانية على الجمهور بإيجاز، في 2 سبتمبر/أيلول، خلال حديث له مع الملك عبد الله الثاني ملك الأردن، وتعهد خلالها بحماية حياة الرهائن قبل كل شيء. تحدث كما لو كان قد أصدر أوامره لـ FSB بإيفاد مجموعة من عشرة أشخاص (لأغراض خاصة) لبيسلان، التي تضم ضباطًا من النخبة المدربة للأزمات غير العادية[34].

سعى بوتين إلى إيصال الشعور بأن السلطة هادئة، ولكن بحكم الإعادة فقد اضطر المسؤولون الروس إلى الكذب فيما يتعلق بالمأساة، وذلك فاقم الشعور بالذعر والفوضى. ذكرت السلطات في بيسلان وفي موسكو أنه لم يكن هناك سوى 354 رهينة، مع أن الجميع في البلدة يعرفون أنه كان هناك أكثر من ذلك. وقد لجأ بعض من هم خارج المدرسة بغضب إلى حمل لافتات في ضوء كاميرات التلفاز قائلين إن هناك ما لا يقل عن 800 رهينة، وتوسلوا إلى بوتين للتدخل سلميًّا، علمًا أنهم يعرفون أن ردة فعله لن تكون كذلك غريزيًّا مع إعادة انتخابه[35]. حتى الإرهابيون في الداخل استشاطوا غضبًا عندما شاهدوا التلفاز يردد الكذبة عن عدد الرهائن، وهددوا بإطلاق النار على الرهائن حتى يتبقى منهم 354 فقط. وأرَّق بعضَ المسؤولين ذلك الكذب الذي اضطروا إلى تكراره[36].

بدت السلطات كلها- الشرطة، ووزارة الداخلية، وجهاز الأمن الفيدرالي، وكل المدعومين من بوتين خلال ولايته الأولى- مشلولة؛ فهم قلقون كثيرًا على حماية النظام الذي أوجده بوتين بقدر قلقهم على حماية الأطفال والآباء المحاصرين داخل المدرسة.

تمكنت آنا بوليتكوفسكايا، التي تفاوضت مع الإرهابيين في نورد-أوست، من الوصول إلى زعماء المعارضة الشيشانية في المنفى للتوسط مرة أخرى، ولكن عندما وصلت إلى مطار قرب بيسلان بما يكفي لقطع المسافة بالسيارة، قالت إنها مرضت في أثناء رحلة الطيران، وكانت مقتنعة بأن الشاي الذي أعطي لها كان مسمومًا. كذلك اعتقل أندريه بابتسكي، المراسل الذي أثار القبض عليه خلال السنوات الأولى من الحرب فضيحة مدوية، في مطار موسكو[37]؛ ذلك أن السلطات التي أخفقت إخفاقًا ذريعًا بحماية المدرسة في بيسلان قررت حماية المدينة من الصحفيين غير المرغوب فيهم، وبدا أن المسؤولين في بيسلان غير واثقين، ومترددون، والحصار يدخل يومه الثاني.

تفاقم التوتر بسبب الانفجارات المتقطعة وإطلاق النار التي لم يكن سببها واضحًا لمن هم في الخارج، وكان بوتين قد جعل من نفسه السلطة العليا في روسيا، إلا أن (السلطة

الرأسية) خلقت شللًا في أوقات الأزمات؛ فلا أحد يخاطر بأخذ مبادرة قد تثير الاستنكار[38]. وتعهد بوتين بعدم التفاوض مع الإرهابيين، ولكنه لأول مرة يسمح لمساعديه ببحث إمكانية التوصل إلى نهاية للحصار، حتى مع إبقاء الكرملين له بعيدًا عن أي جهد[39]. وأصدر تعليماته لحاكم المنطقة، ألكسندر جازوخوف، لإجراء اتصالات مع الممثل الرئيس لأصلان مسخادوف في المنفى، أحمد زكاييف، وقد فعل ذلك من خلال رسلان أوشيف، الرئيس السابق لإنغوشيا المجاورة، وبطل الحرب السوفييتية في أفغانستان، والمتعاطف مع نضال الشيشان من أجل الاستقلال، لكنه أيضًا أراد أن يكون على يقين من الحفاظ على منطقته بمنأى عن القتال.

وصل أوشيف إلى بيسلان في اليوم الثاني من الحصار، وتولى الاتصال مع الإرهابيين، وخلال خمس عشرة دقيقة، قيل له إنه يمكن أن يدخل المدرسة، وكان أول مسؤول يسمح له بالدخول، وما رآه في الداخل كان مدعاة لليأس؛ فالإرهابيون لم يقدموا للرهائن أي طعام أو ماء، وأعطى قائد المجموعة، الذي يطلق على نفسه اسم **العقيد**، أوشيف قائمة مكتوبة بخط اليد من المطالب: أن تنسحب القوات الروسية من الشيشان وتمنحها الاستقلال؛ وأن تنضم الشيشان الجديدة لروسيا في رابطة الدول المستقلة؛ وأن تحافظ على الروبل عملةً لها؛ والعمل مع القوات الروسية لاستعادة النظام في المنطقة. وقد وجهت هذه المذكرة، التي كُتبت على ورقة دفتر ملاحظات، إلى «فخامة رئيس الاتحاد الروسي»، وكتب في ذيلها اسم «**عبد الله، شامل باساييف**». إن أيًّا من المطالب لن يكون مقبولًا لدى بوتين، لكن أوشيف وعد بنقلها إذا أفرج الإرهابيون عن النساء والأطفال الرضع، وأخبره أحد الإرهابيين أن ألفًا وعشرين من الرهائن كانوا داخل المدرسة المكتظة، وقد حاول أوشيف إقناعهم بالسماح لست وعشرين من الرهائن بالمغادرة معه؛ إحدى عشرة امرأة وخمسة عشر من الرضع.

عندما عاد أوشيف إلى مركز القيادة، اتصل بزكاييف في لندن، وأخبره زكاييف أنه ومسخادوف على استعداد للمساعدة، ولكن لا بد من أن يتمكن مسخادوف من السفر إلى بيسلان للتحدث إلى الإرهابيين، بأن تمنح روسيا له ضمانات مرور آمن[40].

عرف أوشيف أن هناك خطة وضعت لمداهمة المدرسة، وفي الواقع فإن اثنتين من الوحدات الخاصة التي أمر بوتين بإرسالها إلى بيسلان كانوا يتدربون حقًّا على الهجوم في مبنى لمدرسة مماثلة ليس بعيدًا[41]، ومن ثم فقد أعرب عن أمله في أن يتمكن من تحقيق الإفراج عن مزيد من الرهائن في غضون ذلك، ولكن في صباح اليوم الثالث، 3 سبتمبر/ أيلول، توصل إلى اتفاق مع الإرهابيين لإزالة جثث الرجال الذين أعدموا وقذف بهم من نافذة الغرفة الصفية، وكانت جثثهم حينها قد بدأت بالتحلل.

بدأ فريق مؤلف من أربعة رجال من وزارة حالات الطوارئ بسحب الجثث إلى سيارة إسعاف في الساعة الواحدة، وما إن بدؤوا بحمل الجثث حتى هز انفجار مدوٍّ صالة الألعاب الرياضية في المدرسة، وبعد اثنتين وعشرين ثانية حدث الانفجار الثاني. قذفت التفجيرات السقف والعوارض الخشبية خارج المدرسة، ثم دوى انفجار آخر قريبًا من النوافذ، أحدث ثقبًا في جدار صالة الألعاب الرياضية، فقُتل العشرات في الاشتباك فورًا، وبدأ الناجون- وهم في حالة ذهول- بالهرب من المدرسة المحطمة، في حين كان الجنود في الخارج والإرهابيون في الداخل، على حد سواء، غير متأكدين مما حدث، وبدؤوا بتبادل إطلاق نار شرس استمر عشر ساعات. اشتعلت النيران بالسقف المنهار، واشتعلت العوارض الخشبية التي سقطت بنيرانها على أولئك الذين ما زالوا في الداخل.

وفق نظرية المؤامرة التي ظهرت في وقت لاحق فإن الروس هم من بدؤوا المعركة قبل العصابة في المدرسة، ولكن أيًّا من أولئك الذين في الخارج ما كان يبدو مستعدًّا لشن هجوم على المبنى عندما بدأ الهجوم، إذ لم يكن لديهم كثير من السترات الواقية من الرصاص، ولم يقيموا سياجًا أمنيًّا حول المبنى، ولم تكن هناك سيارة إسعاف أو شاحنات إطفاء النيران في متناول أيديهم. أما رجال المنطقة ممن كان معهم بنادق صيد فشاركوا في القتال بها، يطلقون النار جزافًا، ويهرعون وسط المعركة لحمل الأطفال إلى بر الأمان[42].

كان ذلك الهرج والمرج يبثُّ حيًّا على شبكات التلفاز الدولي، ولكن ليس على الشبكات الروسية، التي توقفت عند برامجها العادية فقط بانتظار الحصول على التحديثات القصيرة التي استمرت تقلل من شأن المذبحة كلما ازدادت سوءًا. لم يظهر بوتين ولا أي من كبار المسؤولين الآخرين لمعالجة الأزمة. وفي تلك الأثناء اجتمع رئيس الوزراء فرادكوف والحكومة لمناقشة خطط الخصخصة في البلاد، والرشقات النارية من البنادق والرشاشات والانفجارات تمزق المدرسة.

وصلت المعركة إلى الذروة في تلك الليلة في الساعة 11:15 صباحًا، عندما أطلقت دبابة روسية قذيفة على المدرسة، وهو ما أسفر عن مقتل ثلاثة مسلحين كانوا في الطابق السفلي، وكانت شبكات التلفاز الروسية أعلنت أن الوضع تحت السيطرة قبل ساعات. عند انتهاء المعركة كان الـ 334 من الرهائن قد لقوا حتفهم، 186 منهم من الأطفال، وقُتل عشرة من القوات الخاصة الروسية وهم يحاولون تحرير من في الداخل، وقُتل ثلاثون من الإرهابيين، بينهم اثنتان من النساء؛ مريم تابوروفا وروزا ناغايفا، التي كانت زميلتها قد شاركت في عملية إرهابية من خلال تدمير طائرتين، وقُبض على إرهابي واحد أُحيل في وقت لاحق إلى المحكمة، ولكن يعتقد أن آخرين هربوا في حالة من الفوضى.

ولأن عدد القتلى يعادل تقريبًا عدد الرهائن الذي تكرر على مدى أكثر من يومين على التلفاز الرسمي، لم يعد ممكنًا أن تبقى الكذبة في الخفاء، ومن ثم فإن عدم ثقة الجمهور بالتصريحات الرسمية دفعت كثيرين إلى الاعتقاد بأن الحكومة واصلت الكذب بشأن عدد القتلى ومصير الإرهابيين، وسبب الانفجارين اللذين أوصلا الحصار إلى نهايته البشعة.

غادر بوتين الكرملين في وقت مبكر من صباح يوم 4 سبتمبر/أيلول وتوجه إلى بيسلان، فوصل قبل الفجر، وزار الجرحى في المستشفى قبل إصدار بيان مقتضب مع رئيس الإقليم، ألكسندر جازوخوف، واقتصر على أن قال: «اليوم كل روسيا تعاني من أجلكم»[43]، ولم ينبس بأي كلمات أخرى من شأنها أن تجلب الطمأنينة غير وعده بملاحقة المسؤولين عن الحصار.

لم يكن هناك لجلب الاطمئنان، بل لخلق صورة عن الاطمئنان، ولم يعقد أي اجتماع- ولا حتى واحدًا مكتوبًا سابقًا أمام الكاميرات- مع شعب بيسلان. المكروبون، الناقمون، الساخطون، من حشود الصدمة التي أبقتهم واقفين احتجاجًا خارج المدرسة، طالبوا بعد ذلك أن تفعل الحكومة شيئًا، وأن تتوقف عن الكذب. بعدها عاد بوتين إلى موسكو، وألقى خطابًا متلفزًا إلى الأمة، وعندما ظهر في غرف المعيشة في بيوت الأمة في تلك الليلة، بدا مهزوزًا على نحو غير معهود، كان واقفًا وحده أمام جدار خشبي والعلم الروسي؛ مبتدئًا: «إنها مهمة صعبة ومريرة لي أن أتكلم. حدثت مأساة مروعة في أرضنا»[44]، وطلب من كل روسيا أن تتذكر أولئك «الذين فقدوا أعز ما في حياتهم»، وحنى رأسه قليلًا، لكنه لم يقدم اعتذارًا ولا تحمَّل أي مسؤولية.

قال إنه لن يستغل هذه الفرصة للدفاع، أو للتسويغ، أو لتفسير سياساته في الشيشان، كما أنه لم يقدم أي نهج جديد، حتى إنه لم يذكر الشيشان بالاسم، وتلا بدلًا من ذلك مناجاة عن تاريخ البلاد، مع الحنين العميق لهذا الغرض والأمن الموحد للاتحاد السوفييتي، الذي كان قد مضى عليه ثلاثة عشر عامًا، واقترح فقط- كما كان يفعل كثيرًا من قبل- الحرص على احترام تاريخ الماضي السوفييتي من دون تبني إخفاقاته والجرائم التي وصمته، لكنه الآن يبدو أنه يلقي باللوم على الحصار في بيسلان الذي أظهر عجز روسيا في الحفاظ على القوة التي جعلت الاتحاد السوفييتي- الذي يذكره عندما كان صبيًّا- بوصفه تلك الدولة القوية والمحترمة.

> «لقد كانت هناك عديد من الصفحات المأساوية والتجارب الصعبة في تاريخ روسيا»، واصل كما لو كان أستاذًا جامعيًّا يلقي محاضرته بهدوء: «إننا نعيش اليوم في ظل أوضاع تكوَّنت بعد تفكك بلد ضخم عظيم، هذا البلد الذي تحول- للأسف- ليكون في أجواء عالم سريع التغير. اليوم، وعلى الرغم من كل الصعوبات، تمكنَّا من الحفاظ على نواة ذلك العملاق الاتحاد السوفييتي، والذي نسميه بصفته بلدًا جديدًا بالاتحاد الروسي. نحن جميعًا توقعنا التغيرات، والتغيرات نحو الأفضل، ولكن وجدنا أنفسنا غير مستعدين تمامًا لمعظم ذلك التغير في حياتنا. والسؤال هو: لماذا؟ نحن نعيش في وضع الاقتصاد الانتقالي والنظام السياسي الذي لا يتوافق مع تطور المجتمع. نحن نعيش في أوضاع تتفاقم بها الصراعات الداخلية والعرقية التي قُمعت بقسوة من قبل الإيديولوجية الحاكمة، وتوقفنا عن إيلاء الأهمية الواجبة لقضايا

الدفاع والأمن، وسمحنا للفساد أن يؤثر في أنظمة القضاء وإنفاذ القانون، وبالإضافة إلى ذلك فإن بلدنا، الذي كان ذات مرة من أعتى الأنظمة في حماية حدوده، وجد نفسه فجأة بلا حماية، سواء من الغرب أو الشرق».

بدت تصريحات بوتين تقريبًا مثل لائحة اتهام للسنوات الأولى من ولايته، والاعتراف بأنه قد أخفق في الوفاء بالوعود التي قدمها مرارًا وتكرارًا، وكشفت الإشارة إلى حدود روسيا (غير المحمية) عن فهم ضيق الأفق للتهديد الذي لا يزال منبثقًا من الشيشان. ولطالما كان يحاول منذ مدة طويلة ربط الحرب بصعود تنظيم القاعدة على مستوى العالم، ولكن على الرغم من الأيديولوجية المشتركة مع الإسلام، فإن الإرهاب الذي واجهته روسيا وصلت جذوره إلى الفتح القيصري في منطقة القفقاز في القرن التاسع عشر، ولكنه يعتقد أن أولئك الذين هاجموا المدرسة قد حصلوا على مساعدة من الأمم المصممة على معاقبة روسيا، لإبقائها ضعيفة ومطواعة، وكانت لهجته مروعة ذات نبرة تحدٍّ، وقال إن على البلاد أن تتوحد للحفاظ على وجودها.

«هناك من يريد تمزيقنا كقطعة من فطيرة، وآخرون يساعدونهم على فعل ذلك؛ إنهم يساعدون لأنهم يعتقدون أن روسيا، لكونها واحدة من أكبر القوى النووية في العالم، لا تزال تمثل تهديدًا، وأن هذا التهديد لا بد من القضاء عليه، والإرهاب ما هو إلا أداة لتحقيق هذه الأهداف». وتحدث بوتين كما لو كان مطلعًا على الغيب. ولكن الحرب على الإرهاب كانت متركزة في مكان واحد، وزعماء العالم متفقون جميعًا في هذه الناحية. وعلى الرغم من الانتقادات في بعض الأحيان لوحشية العمليات الروسية في الشيشان، فإنه لم يعرب ولا أي زعيم عن التعاطف مع العمليات الإرهابية لباساييف وأتباعه. وكانت الحكومة الوحيدة التي اعترفت بإعلان الشيشان الاستقلال بعد الحرب الأولى هي طالبان في أفغانستان، التي ساعدت الولاياتُ المتحدة، وبمباركة روسيا ومساعدتها، على الإطاحة بها بعد هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001م، وها هو ذا بوتين الآن يلقي باللوم على أعداء في علم الغيب بأنهم هم من حرضوا على واحد من أبشع الأعمال الإرهابية في التاريخ. ولكن البلاد ازداد تراخيها وكسلها في مواجهة هذا التهديد الخارجي، ومن ثم فقد تعهد باتخاذ كل التدابير الممكنة لتعزيز الدولة؛ وقال: «لقد أثبتنا ضعفنا، والضعفاء يتعرضون للضرب».

كانت الإصلاحات التي وعد بوتين بها في خطابه الوطني بعد مأساة بيسلان لم تأت متأخرة فلم يتطرق إلى الاستخبارات التي أخفقت في توقع الهجوم على مدرسة، أو إلى قادة الجيش أو الشرطة الذين لم يتقنوا المفاوضات والإنقاذ في نهاية المطاف، ولكنه- بدلًا من ذلك- أعلن تشديد سيطرة الكرملين السياسية عن طريق زيادة تفكيك بقايا الحكم الديموقراطي؛ وفي يوم 13 سبتمبر/أيلول، بعد عشرة أيام من النهاية المروعة للحصار، ألغى بوتين انتخابات المحافظين ورؤساء البلديات، ورؤساء عديد من المناطق في روسيا والجمهوريات، الذين حافظوا منذ انهيار الاتحاد السوفييتي على دوائرهم الخاصة، وقواعد السلطة خارج سيطرة موسكو مباشرة، بحيث صار الآن يعينهم ويقدم مرشحيه إلى البرلمانات الإقليمية للتصديق، وإذا رفضوا مرشحيه، فإنه يمكنه بعد ذلك حلهم. وألغى أيضًا انتخابات ممثلي المناطق للبرلمان، التي تمثل نصف الـ 450 مقعدًا في الدوما.

مع ازدياد التقييدات على أحزاب المعارضة، وفرت هذه الانتخابات فرصة للأعضاء المستقلين والليبراليين الوحيدين الذين بقوا في السلطة بعد انتخابات عام 2003م، ولكن هذه المقترحات كانت صدمة لأولئك الذين باتوا يرون فيها تعزيزًا لنزعة بوتين الاستبدادية، ومع ذلك فقد جعلت البلاد في حالة استقرار إن لم نقل توقف التقدم نحو الديموقراطية. صحيفة إزفستيا اسمتها **ثورة سبتمبر**، في حين ندد نقاد بوتين بالتحركات بصفتها غير دستورية، على الرغم من خلوها من أي قيمة لعدم جدوى أي طعن قانوني. وجاء الانتقاد الأبرز من بوريس يلتسين؛ ففي مقابلة مع موسكوفيسكي نوفوستي، أشار إلى وعده بالبقاء خارج المناقشات السياسية في البلاد في التقاعد، لكنه قال إن بيسلان كانت حدًّا فاصلًا، قدم روسيا «بلدًا مختلفًا، نحن لن نسمح لأنفسنا بالتخلي عن الرسالة، والأهم من ذلك روح الدستور الذي اعتمدته الدولة في استفتاء وطني في عام 1993م، إلا إذا كان خنق الحريات، والحد من علامات الحقوق الديموقراطية، من بين أمور أخرى، سيكون سببًا في انتصار الإرهابيين»[45].

سرًّا يئس يلتسين من زعيم كان قد ارتقى به إلى السلطة، وهو يرى تحركاته ضد وسائل الإعلام، وضد أحزاب المعارضة، والآن ضد الحكام لكونهم يهددون مطامحه الخاصة[46]. كانت المقابلة هي المرة الوحيدة التي أعرب فيها يلتسين عن مخاوفه بصورة حادة جدًّا أمام الملأ؛ إذ كانت سلطته المعنوية والسياسية ضئيلة في روسيا بوتين، وكان الوقت قد مر، وولي عهده يعيد البلاد إلى مسار جديد. وفي الواقع بات عهد يلتسين- الذي كان عهدًا مضطربًا خلال فوضى التسعينيات- التسويغ المتكرر لبوتين في قراراته. وخطوة فخطوة مسح بوتين تركة سلفه، تمامًا كما فعل ستالين مع لينين، وخروتشوف مع ستالين، وبريجنيف مع خروتشوف، وكما فعل يلتسين مع جورباتشوف.

حتى أولئك الأكثر تضررًا من قرار بوتين الجديد- من المحافظين ورؤساء البلديات الذين استمدوا شرعيتهم الانتخابية وسلطتهم من صناديق الاقتراع، لكن بالتواطؤ- أعلنوا واحدًا تلو الآخر الثناء على اقتراح بوتين. وقد كانت المقترحات المطروحة نوقشت في إدارته من قبل، ولكنه استخدم مأساة بيسلان ذريعةً لتنفيذها.

كانت الإرادة الشعبية- بنظر بوتين- الطريق إلى الفوضى، فلا يمكن أن يثق بقدرة الناس على اختيار قادتهم، إلا في عملية يسيطر عليها بعناية، وقد تحدث عن هذا قائلًا: «إن الشعب الروسي متخلف»، قالها في وقت لاحق وهو يتحدث لمجموعة من الصحفيين الأجانب والأكاديميين الذين دُعوا إلى منتجع سيصبح له شأن، ويعرف باسم **نادي فالداي** فيما بعد، على اسم المنتجع الذي أقيم فيه أول مرة، وأضاف: «لا يمكنهم أن يتكيفوا مع الديموقراطية كما فعلوا في بلادكم، إنهم بحاجة إلى وقت»[47]. عكست هذه التصريحات تعاليًا مشوبًا بازدراء، ولكن قلة في روسيا تكلمت متحدية سلطة أخذها الآن على عاتقه.

وفي غضون أسابيع، سنَّ مجلس الدوما ومجلس الاتحاد كل مقترحاته قوانين، وسُلِّم عن طيب خاطر مزيدًا من صلاحيات الكرملين، و«الشيء الوحيد الذي بقي هو السجود المطلق»، وفق ما قال ليونيد دوبروخوتوف، مستشار الشيوعيين، ردًّا على ذلك[48]، وكان معظم النخبة الروسية- إما من الولاء أو من الخوف- سعداء بإلزامهم.

الفصل الخامس عشر

العدوى البرتقالية

في ليلة 5 سبتمبر/أيلول 2004م، بعد خطاب بوتين عن بيسلان، ذهب فيكتور يوشينكو خلسة لإجراء مقابلة حصرية في المنزل الريفي المُسَوَّر خارج كييف. كان يوشينكو يُرشِّح نفسه للرئاسة في أوكرانيا، وكان متأكدًا أن شخصًا ما يحاول قتله. في تلك الليلة رافقه مدير الحملة الانتخابية، لا حراسه الشخصيون، والتقى إيجور سميشكو، رئيس جهاز أمن الدولة في أوكرانيا، أو إدارة أمن الدولة (SBU) الخاصة بأوكرانيا، التي كانت نسخة عن الـ(كي جي بي)، وفضَّل سميشكو ألا يكون معهما أحد، وكان المضيف نائب سميشكو، وفلاديمير ساتسيوك الذي أعد وجبة منتصف الليل من سمك الكرو المغلي، والسلطة المغسولة بالبيرة، ثم في وقت لاحق حلوى الفاكهة مع أكواب من الفودكا والكونياك[1]. لا شيء يبدو ناقصًا، وبعد أن التقط يوشينكو صورة مع المسؤولَين الأمنيين الاثنين، غادر في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

في وقت لاحق من اليوم التالي بدأ يشعر بالمرض؛ فشعر بألم في رأسه، ثم في عموده الفقري، وازدادت الأعراض سوءًا في الأيام التالية، وسرعان ما تشوَّه وجهه الوسيم بعد اندلاع الخراجات، ثم من فرط الألم سافر إلى النمسا يوم 10 سبتمبر/أيلول لتلقي العلاج، خوفًا من المستشفيات الأوكرانية. بعد الحيرة في أعراضه التي استغرقت أسابيع، خلص الأطباء في نهاية المطاف إلى أن هناك شيئًا ابتلعه، ويفترض أنه كان في وقت متأخر من

عشاء تلك الليلة، وكان واحدة من أعلى الجرعات التي سجلت على الإطلاق في الإنسان من مُركَّب شديد السمية، ومعروف باسم 2، 3، 7، 8 – رباعي الكلور – P – الديوكسين، أو TCDD.

كان من المقرر أن تجري الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا في 31 أكتوبر/تشرين الأول 2004م، والفائز سيحل محل الرئيس في العقد الماضي، ليونيد كوتشما، وهو المنضبط الذي كان قد انتخب مصلحًا في عام 1994م، إلا أن تحوله الاستبدادي والفاسد على نحو متزايد أدى إلى تعثر أوكرانيا خلال انتقالها إلى الديموقراطية والرأسمالية. شهدت البلاد الفوضى والفساد والفقر والإجرام نفسه الذي كان في روسيا، ولكن مع فارق حاسم هناك؛ فبالنسبة إلى كثير من الأوكرانيين لم يكن انهيار الاتحاد السوفييتي كارثة بل تحرير، وإعادة ولادة من الاستقلال عن موسكو التي لم تجربها إلا مدة وجيزة في سنوات الفوضى التي أعقبت الثورة البلشفية في عام 1917م، مع ما يقرب من ثمانية أربعين مليون نسمة في عام 2004م.

كانت أوكرانيا ثاني أكبر جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق وأهمها، وهي معقل الزراعة والصناعة التي دمرتها الحرب الأهلية، والسياسات الجماعية لجوزيف ستالين، التي تسبب في المجاعة، ثم قبل الحرب الوطنية العظمى احتلها ودمرها النازيون، ثم استولت عليها مرة أخرى جيوش التحرير السوفييتية، ففقدت أوكرانيا من جراء ذلك أكثر من ثلاثة ملايين شخص خلال الحرب، وأكثر من سدس سكانها في ذلك الوقت، مخلفة ندوبًا عميقة بها.

الأمة الأوكرانية- الهوية الوطنية- ظلت واهية؛ فقد كانت مقسمة جغرافيًّا وعرقيًّا بين الأوكرانيين والروس، فضلًا عن أمور أخرى، وجمعت بين أولئك الذين اعتنقوا التحرير الذي جاء مع انهيار الاتحاد السوفييتي، وأولئك الذين أسفوا على زواله، فالأوكرانيون كانوا قريبين من روسيا تاريخيًّا وثقافيًّا، ولكن سرت فيها الروح القومية، التي ظهرت في السنوات الأولى من استقلال البلاد صورتُها في الجمهوريات السابقة مثل ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا، التي عانت من خمسة عقود من الاحتلال السوفييتي وأصبحت الآن جزءًا من حلف شمال الأطلسي

والاتحاد الأوروبي. فاعتمدوا الرموز والأسماء الأوكرانية للمدن، ومن ضمن ذلك العاصمة، التي كانت تدعى في روسيا كما كييف (Kiev) عدة قرون، ولكنها عادت في الاستقلال للنمط الأوكراني، كييف (Kyiv).

طوال رئاسته حاول كوتشما أن يوازن بين روسيا من جهة والاتحاد الأوروبي ومنظمة حلف شمال الأطلسي من جهة أخرى، فاحتفظت حكومته بالعلاقات الاقتصادية والدبلوماسية الوثيقة مع روسيا، ولكنها أرسلت أيضًا القوات الأوكرانية إلى العراق لتكون جزءًا من التحالف الذي يقوده الأمريكيون حتى ذلك الوقت الذي يكافح من أجل إعادة النظام بعد الإطاحة بصدام حسين. ومثل البلد نفسه، كان يبدو في صراع يتنازعه، وكان في نظر عدد من نقاده ببساطة يفتقر إلى الحزم؛ كان كليبتوقراط بدافع الجشع والسلطة، وبفضل القلة الأوليغارشية في البلاد، ولكنه لم يكن يملك الإرادة أو القدرة السياسة التي كان عليها بوتين، بسبب الانقسامات في البلاد التي تضمنت مراكز القوى المتنافسة، وكانت القلة في البلاد متعددة الولاءات والطموحات، ومن ثم لم يخضعوا تمامًا. وبينما كان بوتين قد روَّض حكومة القلة في روسيا، كانوا في أوكرانيا ما يزالون يوجهون دعمهم- والدعم النقدي الفوري أيضًا- للفصائل السياسية المختلفة، اعتمادًا على المصالح المالية لهم.

كانت الديموقراطية في أوكرانيا غير ناضجة، وجامحة، وفي بعض الأحيان مفرغة، وليس فيها رجل واحد يهيمن على الحياة السياسية في البلاد، وكان معارضو كوتشما يتمتعون بدعم شبكة التلفاز؛ القناة 5، التي ظلت حرة من سيطرة الدولة، وتسمح بمجموعة متنوعة من الأخبار والآراء التي تعزز النقاش السياسي. وعندما تورط كوتشما في قتل الصحفي البارز جورجي غونغادزه، لم يعد يمكنه بسهولة قمع الاحتجاجات المناهضة التي اندلعت ضد الحكومة، ولا يمكنه منع أعضاء المعارضة في البرلمان من المطالبة بفتح تحقيق. ففي عام 2000م عثر على جثة غونغادزه مقطوعة الرأس في غابة خارج كييف، بعد أشهر فقط من تأسيسه لصحيفة التحقيق على الإنترنت التي أغضبت الدائرة الداخلية لكوتشما بتقاريرها الظريفة الطابع عن الفساد، ومن خلال المحادثات المسجلة سرًّا في مكتب كوتشما ضُبط

متلبسًا يهاجم تقارير غونغادزه الصحفية ويحث مساعديه للتعامل معه[2]. نفى كوتشما أن يكون أمر بقتله، ولكن حياته السياسية باتت في حالة تدهور، وخشي كثيرون من أن يسعى في ولايته الثانية في نهاية عام 2004م إلى تعديل الدستور لتمديد حكمه، ولكن في نهاية المطاف لم يكن أمام كوتشما أي خيار سوى التنحي.

وخلافًا للانتخابات البرلمانية والرئاسية الفاترة في روسيا في عامي 2003م و2004م، ظلت في أوكرانيا حماسية، حامية الوطيس، ونتائجها غير مؤكدة. تتبع بوتين السياسة في أوكرانيا من كثب، ووجدها مثيرة للقلق؛ فازدياد تضاؤل مصداقية كوتشما يجعل من فوز المعارضة ممكنًا جدًّا، وكان بوتين قد شاهد بالفعل جمهورية أخرى سوفييتية في السابق، كجورجيا، تقع فريسة لذلك، عقب انتفاضة ديموقراطية شعبية بعد انتخابات متنازع عليها في عام 2003م.

كان بلدًا صغيرًا، مكونًا من خمسة ملايين شخص، على الحدود الجنوبية لروسيا الجديدة، وهو العمود الفقري في منطقة القفقاز، وكان رئيسُ البلاد هو إدوارد شيفاردنادزه، الذي كان وزير الخارجية السابق للاتحاد السوفييتي، والمستشار المقرب من ميخائيل جورباتشوف، والرجل الملام كثيرًا في روسيا على الانهيار الذي أعقب البيروسترويكا. عاد شيفرنادزه لجمهوريته الأم، وواجه عقبات في السلطة بعد الولادة العنيفة لجورجيا لتصبح دولة مستقلة، بعد أن أنهكتها الحروب وتحريض المقاتلين الروس، الذي أنشأ منطقتي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية داخل الحدود المعترف بها دوليًّا في البلاد.

بعد أن زُورت الانتخابات البرلمانية في جورجيا في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2003م، هرع الآلاف إلى الشوارع للاحتجاج، وكان لديهم التدريب والمال من المنظمات الدولية التي يمولها جورج سوروس والكونغرس في الولايات المتحدة، فضلًا عن أمور أخرى، وعندما حاول شيفاردنادزه تثبيت البرلمان الجديد في 22 نوفمبر/تشرين الثاني اقتحم المتظاهرون المبنى، بقيادة زعيم المعارضة ميخائيل ساكاشفيلي. وكان شيفاردنادزه قد ناشد الكرملين

للحصول على المساعدة، واتصل هاتفيًّا ببوتين في تلك الليلة حيث كان هذا الأخير يتناول العشاء مع كبار مستشاريه في واحد من المطاعم الجورجية الأكثر شهرة في موسكو[3]. فأمر بوتين وزير خارجيته إيجور إيفانوف بالتوجه إلى تبليسي، عاصمة جورجيا، للتوسط، ولكن مع تعليمات واضحة بعدم السماح للغوغاء بإسقاط رئيس منتخب للبلاد، وفي النهاية أخفق إيفانوف وشيفاردنادزه في فهم مستوى الدعم الذي كان من موسكو، واستقال من منصبه.

(الثورة الوردية)، كما أصبحت معروفة، دفعت ساكاشفيلي إلى السلطة، وأعقب الانتخابات البرلمانية انتخابه رئيسًا للبلاد في يناير/كانون الثاني 2004م. ساكاشفيلي يعد نفسه بوتين جورجيا، وهو زعيم قوي العزم وقد قرر استعادة الاستقرار في البلاد. وكان من أوائل الأعمال التي مارسها في منصبه أن توجه إلى موسكو للقاء بوتين؛ متزلفًا له على أنه ملهمه سياسي، ولكن بوتين، مع ذلك، كان مصابًا بالذعر من الإطاحة بشيفاردنادزه والتوجهات التغريبية لساكاشفيلي، ومن فقد كان رده على تملق شيفاردنادزه خطبة عصماء عن الدول السابقة في حلف وارسو التي أصبحت «عبيدًا لأمريكا»[4].

علاقات جورجيا بروسيا تدهورت من حينها، وبالنسبة إلى بوتين فإن أوكرانيا أهم منها بكثير؛ فجورجيا دولة هشة، ولم تكن تمثل خطرًا كبيرًا على نفوذ موسكو، أما أوكرانيا فكانت تربطها بروسيا وبوتين الروابط العرقية والثقافية والاقتصادية العميقة. وكان هذا الجذر التاريخي لروسيا نفسها: روس كييف، إقطاعية القرون الوسطى التي كان زعيمها فلاديمير الكبير، الذي اعتمد المسيحية في عام 988م، وحدود الإمبراطوريات القيصرية التي تلت- اسمها يترجم حرفيًّا مثل أوكرانيا، أو (الحدود)- وحدودها تحولت مع مرور الوقت: أجزاء من أراضيها الغربية تنتمي إلى بولندا أو الإمبراطورية النمساوية-المجرية. استولى ستالين على بعض منها باتفاق سري له مع هتلر في عام 1939م، والباقي بعد انتهاء الحرب الوطنية العظمى.

أوكرانيا الحديثة رسمت حدودها النهائية، ولكن يبدو أنها ستكون سريعة التغير، تخضع لقوى أكبر من الجغرافيا السياسية، كما كانت معظم المناطق الحدودية على مر التاريخ. في عام 1954م، صدر مرسوم نيكيتا خروتشوف أن شبه جزيرة القرم، التي غزتها كاترين العظمى في القرن الثامن عشر، ودافعت ببسالة ضد النازيين، ستكون محكومة من أوكرانيا السوفييتية، الجمهورية الأوكرانية الاشتراكية من كييف، وليس من موسكو، ولم يتصور أحد بعد ذلك- ولا حتى بوتين الذي كان يقضي شهر العسل هناك بعد ما يقرب من عقدين من زمن القرار- أنهما ستكونان منفصلتين إحداهما عن الأخرى، أوكرانيا والقرم. وحتى الآن، في عام 2004م، بدا حدثًا تاريخيًّا أن بوتين، مثل معظم الروس، سوف يتحمل ما دام أن أوكرانيا الجديدة تقع في الأحضان الجيوسياسية لروسيا.

في يوليو/تموز 2004م، قبل ثلاثة أشهر من إجراء الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا، توجه بوتين إلى شبه جزيرة القرم للقاء كوتشما، وفيكتور يانوكوفيتش الذي كان رئيس الوزراء بعد كوتشما منذ عام 2002م، والذي حل محله رجل يعمل الآن باسم مرشح المعارضة الرئيس، فيكتور يوشينكو. على الرغم من تحفظات بوتين، الذي لم يعده أفضل المرشحين[5]، كان كوتشما يعد يانوكوفيتش رئيسًا وريثًا له سياسيًّا. وكان اجتماعهم مع بوتين ذلك الشهر، يوليو/تموز، في يالطا بقصر ليفاديا؛ ذلك المبنى الذي اقتسم فيه المنتصرون في الحرب الوطنية العظمى غنائم النصر، التي سرعان ما أصبحت تدعى بأوروبا المحررة.

بوتين، أيضًا، كان في ذهنه (مناطق نفوذ) في ذلك الصيف، وبقدر ما يشعر بالقلق، بقيت أوكرانيا في روسيا. ضغط بوتين على كوتشما لإنهاء تقرب حكومته من الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي، الذي أصبح اليوم مكروهًا في روسيا، لا سيما أنه قد تسلل أكثر فأكثر شرقًا، وكان قبل أشهر فقط، في مارس/آذار، قد زاد عدد الدول الأعضاء فيه من 19 إلى 26، واعترف لا ببلغاريا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، ورومانيا في أوروبا الشرقية فقط، بل وبثلاث جمهوريات من الاتحاد السوفييتي السابق: ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا، وكل واحدة منها كانت موطنًا لعدد كبير من سكانها الروس.

قبِل معظم المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين ما جاء في بندٍ يؤكد الثقة بأن توسعة الناتو ستعزز أمن القارة عن طريق حلف جماعي دفاعي من الديموقراطيات، كما أن الاتحاد الأوروبي دفن عددًا من الدوافع القومية التي سببت كثيرًا من الصراعات في القرون السابقة، وكان بوتين قد وافق على مضض على خطط حلف شمال الأطلسي في التوسع، ولكن اليوم يبدو أن حلف شمال الأطلسي ينظر إلى أوكرانيا.

ومثله مثل كثيرين من المؤسسات الأمنية الروسية، فقد دُرِّب على التخريب، حتى لو تطلب الأمر محاربة منظمة حلف شمال الأطلسي، ولكنه كان يكبت شعوره بالعداء. وكثيرًا ما أشار المسؤولون إلى تطمينات يعتقد أن ميخائيل جورباتشوف تلقاها خلال توحيد ألمانيا بعد عام 1989م؛ بأن الناتو لن يتوسع ليشمل الشرق (على الرغم من أن زعماء الولايات المتحدة وأوروبا أصروا على أنه لا يوجد مثل هذه التطمينات بتاتًا) . كان مهينًا جدًّا أن تنضم دول البلطيق إلى منظمة حلف شمال الأطلسي، لكن المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين باتوا اليوم يدعون صراحة لإدراج مزيد من الجمهوريات السوفييتية السابقة، ومن ضمنها جورجيا وأوكرانيا. «إن وجود الجنود الأمريكيين على حدودنا قد خلق نوعًا من الارتياب لدى روسيا»، قال وزير الخارجية الجديد لبوتين، سيرجي لافروف، مُقِرًّا، وذلك في أبريل/نيسان 2004م، عندما رفعت أعلام الدول الجديدة الأعضاء المنضمة إلى الناتو، في الاحتفالية التي أقيمت في مكان خارج مقر الحلف في بروكسل. في الواقع لم يكن هناك أي أمريكيين منتشرين في دول البلطيق، غير سرب من الطائرات المقاتلة الأوروبية التي تنفذ دوريات في سماء مناطق جديدة، ولكن هذا كان بالنسبة إلى بوتين يعني أن العدو قد وصل إلى أبوابه، وكان لا بد لهم من التوقف، وقد رسم بوتين الخط الأحمر لهم في أوكرانيا.

في يالطا، ناقش هو وكوتشما التكامل، واقترح الفضاء الاقتصادي المشترك، وهو تحالف اقتصادي فضفاض بين روسيا وأوكرانيا، جنبًا إلى جنب مع بيلاروس وكازاخستان، وعلى مدى سنوات يتخذ صورة اتحاد جمركي أكثر رسمية، وينتهي باتحاد اقتصادي وسياسي ككتلة ترمي إلى منافسة الاتحاد الأوروبي. كان بوتين قد طرح الفكرة في العام قبل الماضي، ولكنه

الآن يريد التأييد العلني الصريح من كوتشما لذلك، وهذا يعني عكس الإستراتيجية الرسمية التي نشرتها حكومة كوتشما قبل شهر، وتدعو بها أوكرانيا لمتابعة العضوية في الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. ولما كان يحتاج إلى دعم روسيا في مواجهة ما كان يرسَم في انتخابات الرئاسة الوشيكة لخلفائه، التي يمكن أن تقدم رئيسًا ذا أرضية أمنية بعد تركه منصبه، استسلم كوتشما لضغوط بوتين. وبعد لقائهما أعلن أنه قد تخلى عن الإستراتيجية التي أعلنها، وسيسعى فقط لعلاقات ودية مع التحالفات التي سادت أوروبا، وهو انعكاس مفاجئ بالنسبة إلى المعارضة الأوكرانية.

وراء الأبواب المغلقة، عقد بوتين وكوتشما صفقة جانبية، وأنشأا شركة تجارية جديدة للطاقة[6]. وأدرجت باختصار غير عملي باسم **روس أوكرانيرجو**، وبقيت ملكيتها غامضة عمدًا. كان نصفها مملوكًا لفرع من شركة غازبروم التي تحتكر الغاز في روسيا، والتي أصبحت على نحو متزايد جزءًا من رؤية بوتين لروسيا أكبر، والتي يسيطر عليها الكرملين بقيادة أقرب حلفائه من بطرسبورغ، وكانت ملكية النصف الآخر لشركة غامضة لشركاء بقوا سريين، وحصتهم تدار من قبل أحد المصارف النمساوية، رايفايزن الدولي، ولم تسجَّل الشركة الجديدة لا في روسيا ولا في أوكرانيا، وإنما في سويسرا[7]. هذه الصفقة الغامضة تعكس حجم قلق بوتين من الانتخابات التي تلوح في الأفق في أوكرانيا، وقد امتد إلى أبعد من السياسة وحدها، إذ كانت المخاوف المالية ذات أهمية كبيرة في حساباته؛ فقد أصبح الغاز الطبيعي- أكثر من النفط- أداة قوة لروسيا في السياسة الخارجية الروسية، فالصفقات النفطية تجري بحرية، وتخاض من خلال الاقتصاد في العالم، أما الغاز فيتطلب أنابيب ثابتة تربط دول أوروبا بروسيا، وشبكة خطوط الأنابيب التي يرجع تاريخها إلى العهد السوفييتي منحت روسيا النفوذ، ومع ارتفاع أسعار الطاقة أصبح قريبًا احتمال تحصيل الثروة التي تطرق إليها بوتين قبل نحو عشر سنوات في أطروحته بوصفها جوهر قوة الدولة.

أوكرانيا، التي من خلالها يمر معظم الغاز الروسي، تمثل خناقة محتملة لطموحات بوتين، وكان متأكدًا أنه اليوم يواجه جهودًا متضافرة لإحباط خططه، وعندما ظهر في قصر

ليفاديا بعد محادثاته الخاصة مع كوتشما ويانوكوفيتش، استخدم بوتين مصطلح الـ(كي جي بي) لشبكات العملاء والمخبرين الذين يخونون الدولة بالنيابة عن البلدان التي تسعى إلى تدميرها: أجنتورا. وأضاف أن أجنتورا، سواء داخل بلداننا أو خارجها، تحاول بكل ما هو ممكن تقديم تنازلات التكامل بين روسيا وأوكرانيا[8].

«**انظر** في وجهي»، قال فيكتور يوشينكو عندما عاد إلى كييف في 21 سبتمبر/أيلول من العلاج في المستشفى النمساوي. لم تكن حقيقة مصدر تسميمه قد اتضحت بعد، لكنه ذهب مباشرة إلى البرلمان الأوكراني (رادا العليا)، لاتهام أعداء لم يسمهم بمحاولة إيقاف ترشيحه، وكان ظهوره مثيرًا.

يوشينكو، وهو بنكيٌّ مركزي ساعد على خلق عملة جديدة في البلاد (hryvna)، كان قد شغل منصب رئيس وزراء كوتشما عامين قبل الإطاحة به من قبل أولئك الذين يعارضون رؤيته بتغريب مستقبل أوكرانيا، فهو يؤيد بقوة الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وحقيقة أن زوجته كانت أوكرانية-أمريكية من الشتات في شيكاغو، كانت قد أكدت الأسوأ لمنتقديه، ومنهم كوتشما، الذي سمع في التسجيلات السرية صراخًا خشنًا أنها كانت عميلة للسي آي إيه[9] (كما جعل كليهما يتابعان).

وقف يوشينكو على منصة الرادا، واتهم حلفاء كوتشما بالتآمر لقتله: «ما حدث لي لم يكن بسبب الغذاء أو النظام الغذائي الخاص بي، ولكن من قبل النظام السياسي في هذا البلد. نحن لا نتحدث اليوم عن الطعام حرفيًّا، نحن نتحدث عن المطبخ السياسي الأوكراني حيث جرائم القتل على القائمة»[10]. وكانت القسطرة في عموده الفقري مخبأة تحت بدلته، تنبض بالمسكنات لتخفيف الألم الذي يعانيه، وبعد أربعة أيام سافر إلى فيينا لمزيد من العلاج. لم يكن يوشينكو سياسيًّا كاريزميًّا، لكن حملته الانتخابية كانت ممولة جيدًا وذكية، وقد اختار رسالة بسيطة- تاك أو نعم- واعتمد اللون البرتقالي، حتى عمت المدينة الأعلام، واللافتات، والإعلانات. وأسس أيضًا تحالفًا مع يوليا تيموشينكو، القطب القومي الهائل

ومليونيرة الطاقة التي تلاعبت بالنظام السوفييتي المنهار لإثراء نفسها، كما كان ميخائيل خودوركوفسكي في روسيا. كان طموحها مذهلًا، ونتيجة لكونها امرأة في الوسط السياسي الذي يهيمن عليه الرجال، استخدمت دون خجل جاذبيتها دعامةً سياسية، مثل تجديل شعرها على نحو بات كعلامة تجارية. وقد أخذت- في أثناء غياب يوشينكو عن الساحة لتلقي العلاج- على عاتقها متابعة الحملة، فعرضت الاستنكارات لحكم كوتشما، وأثارت احتمال أن يكون يانوكوفيتش ببساطة هو من يوجه دفة البلاد- أقرب من أي وقت مضى- إلى روسيا.

مع اقتراب الانتخابات اكتسبت حملة يوشينكو الزخم، ولا بد أن التقارير الاستخبارية التي وصلت إلى بوتين كل صباح كانت تعزز أسوأ مخاوفه من الشائن الغربي، وتفاصيل الخطة المفصلة لتطويق روسيا، وما كان يحدث في أوكرانيا يجب أن يكون مقدمة لدَفعة نهائية في روسيا نفسها. ويعود الفضل الكبير في هذه المؤامرة إلى الخيال المحموم للمخابرات الروسية، ولكن الولايات المتحدة وألمانيا ودولًا أوروبية أخرى تغذي هذه الحمى عن طريق توفير الأموال للمنظمات في أوكرانيا، التي تعزز الديموقراطية والمجتمع المدني والإصلاح القانوني، وحماية البيئة. ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي كانت هذه المنظمات غير الحكومية (NGOS) تعمل في جميع أنحاء أوروبا الشرقية، وحتى في روسيا، وذلك بهدف مساعدة الدول المستقلة حديثًا على إنجاز الانتقال من نظام الحزب الواحد إلى نظام منفتح من ديموقراطيات التعددية الحزبية؛ في صربيا في عام 2000م، ثم في جورجيا في عام 2003م، وقدمت الدعم للاحتجاجات السياسية السلمية التي أطاحت في نهاية المطاف بالحكومات المتصلبة، وعلى الرغم من أن تمويلها كان متواضعًا، ونادرًا ما يزيد على أكثر من بضعة ملايين من الدولارات أو اليورو لكل منها، فإنها تمثل الـ(أجنتورا) التي يخشاها بوتين.

وتحت ضغط من الكرملين قدمت الشركات الروسية تعهدات نقدية ليانوكوفيتش في اجتماع يالطا ذاك، تقارب 600 مليون دولار، يعتقد فريق يانوكوفيتش أنه صُرف؛ أي ما يعادل 1 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي جاء من روسيا[11].

وفي إشارة إلى عمق تورطه الشخصي، جعل بوتين رئيس موظفيه، ديمتري ميدفيديف، المسؤولَ عن العملية السياسية للكرملين في أوكرانيا، فأرسله- وهو الذين كان يدير حملات سوبتشاك وبوتين في الماضي- والمستشارين الثقة، ومن ضمنهم جليب بافلوفسكي وسيرجي ماركوف، إلى أوكرانيا. وفي أغسطس/آب أفردَ ناشطون سياسيون في الكرملين مساحة تسمى (روسيا البيت) في الفندق المركزي في كييف، لتعزيز حسن النية بين روسيا وأوكرانيا، ظاهريًّا، وفي واقع الأمر لإدارة حملة الكرملين نيابة عن يانوكوفيتش، فدبروا حملة من نوع العمليات التي تتميز بها الانتخابات في روسيا: تغطية شاملة دون تمحيص في التلفاز الرسمي لأي مسيرة مهما صغرت من مسيرات ليانوكوفيتش، وشن الهجمات الشرسة على يوشينكو بوصفه وكيلًا للغرب. تصميم مجموعة من الملصقات (البوسترات) التي أنتجها المستشارون ليانوكوفيتش بالشعار البرتقالي ليوشينكو تحت صورة للرئيس بوش راكبًا أوكرانيا مثل رعاة البقر. زوجة يانوكوفيتش، ليودميلا، انبرت في اجتماع حاشد في دونيتسك، قدَّم فيه الأمريكيون لأنصار يوشينكو الأحذية والبرتقال الذي تغلب عليه أسهم من المخدرات؛ ملاحظات أعيد خلطها بأغنية البوب التي قدمت مسارًا لثورة قادمة. بوتين من جانبه، أقحم نفسه مباشرة في الحملة، وأجرى لقاءات مع كوتشما ويانوكوفيتش مرارًا وتكرارًا.

عشية الجولة الأولى من التصويت في 31 أكتوبر/تشرين الأول، سافر إلى كييف في زيارة الدولة التي كانت ظاهريًّا في الذكرى الستين لتحرير الاتحاد السوفييتي لأوكرانيا من النازيين في عام 1944م، وفي الليلة التي سبقت العرض ظهر في الوقت المحدد لرئيس الوزراء على ثلاث قنوات تلفازية حكومية في مقابلة، فتحدث بشهامة وقلق عن القضايا التي تواجه الأوكرانيين، بدءًا باستقلال أوكرانيا وسيادتها، ولكنه جعل فَصْل البلدين الشقيقين من تحالفهما الطبيعي خطأ تاريخيًّا واضحًا[12]، وتواردت كثير من الأسئلة عن طريق البريد الإلكتروني أو الفاكس أو على الهواء مباشرة، تعبر عن أسفها لزوال الاتحاد السوفييتي، وسأل أحدهم بوتين عن خوضه هو لانتخابات الرئاسة في أوكرانيا، فاعترض بوتين؛ فقد

كان من المستحيل إعادة بناء الاتحاد السوفييتي، كما قال، ولكن مستقبل أوكرانيا يكمن في توثيق علاقاتها الاقتصادية مع روسيا. لم يذكر يوشينكو بتاتًا، ولكنه ذكر يانوكوفيتش خمس مرات، وأثنى على حُسن إدارة يانوكوفيتش في رئاسة الوزراء، وكان يتحدث كما لو أنه كان في المنزل، ناضحًا بالسحر والتواضع.

هتف المذيع أن هناك ستَّ مئة مكالمة في كل دقيقة قادمة من خطوط الهاتف، وتلا بوتين- بالأوكرانية- جزءًا من قصيدة لتاراس شيفتشينكو، الشاعر الوطني في أوكرانيا، على الرغم من أنه كان عليه أن يعترف أنه قد يفهم بعض الأوكرانية، إلا أنه لا يتكلمها. وطلب إليه تلميذ يدعى أندريه أن يتصور معه، وقد بدأ بسؤاله: «فلاديمير فلاديميروفيتش، هل تعتقد بالأحلام؟»، وفي اليوم التالي اضطر بوتين أن يظهر قليلًا مع أندريه في مكتب كوتشما، وقدم له حاسبًا محمولًا هدية.

خلال عرض عسكري وقف كوتشما ويانوكوفيتش بجانب بوتين والآلاف من الجنود يمرون من أمامهم بمثل خُطا الإوز، مرتدين الزي الخمري وبمستويات الجيش الأحمر (حاول يانوكوفيتش إعطاء بوتين قطعة من العلكة، مما أدى إلى نظرة اشمئزاز واستغراب من سلوكياته الخشنة)[13]. مع أن العرض كان منظمًا بشفافية، فإن لظهور بوتين صدى عند بعض الأوكرانيين، الذين يحسدون روسيا على مستوى المعيشة المرتفع، أو لديهم ذاك الحنين الذي لدى كثيرين من الروس إلى الحقبة السوفييتية، ولكن أوكرانيا- مع ذلك- كانت أكثر تعددية من روسيا، وديموقراطيتها أقل (إدارة)؛ فمع أن التلفاز الحكومي يخدم السلطة، ويهاجم يوشينكو يوميًّا، ويلمح إلى أن مرضه كان بسبب السوشي أو الزهري، فإن سيطرة كوتشما على وسائل الإعلام لم تكن مطلقة؛ فالقناة 5 التي يملكها رجل أعمال الشوكولاته، بيترو بوروشينكو، رمت بنفسها دون خجل وراء يوشينكو، وأصبحت صوت حملته المعارضة، وهو ما دفع الحكومة إلى محاولة تعليق رخصة بثها ولكن دون جدوى.

كان لتدخل بوتين دور لم يسبق له مثيل في انتخابات بلد آخر، وتلك أيضًا الحجة الرئيسة للمعارضة: إن التصويت ليانوكوفيتش ببساطة هو إعادة البلاد إلى الإمبراطورية التي كانت قد حصلت على استقلالها منها. وإن أحدًا لن يطلب إلى بوتين جديًّا أن يصبح زعيم أوكرانيا، ولم تقدِّر الموالاة السياسية للكرملين ذلك، لأن بوتين لم يفعل ذلك. وأيضًا أخطأ إستراتيجيو بوتين بتقدير درجة المناهضة للأمركة؛ فهي إن كانت فعالة في روسيا فلن يتردد صداها وتكون بالفاعلية نفسها في أوكرانيا.

عندما عقدت الجولة الأولى من الانتخابات في 31 أكتوبر/تشرين الأول، حصل يوشينكو على 39.87 في المئة من الأصوات، متفوقًا على يانوكوفيتش (39.32 في المئة)، مع عشرين مرشحًا أقل شأنًا تقاسموا البقية (20.81 في المئة). وكانت استطلاعات الرأي المدفوع لها من قبل الـ(أجنتورا) الغربي قد أظهرت يوشينكو في المقدمة وبفارق أكبر حتى، ومع انتشار تقارير عن حشو في صناديق الاقتراع وغيره من المخالفات، أراد بعض من في المعارضة، ومن بينهم يوليا تيموشينكو، الاحتجاج في الشوارع، كما كانوا يستعدون لفعل ذلك طوال الصيف. أما يوشينكو- على الرغم من ذلك- فكان راضيًا أن يحتفل بالنتائج القوية على نحو غير متوقع، وتعهد بأنه سوف يسود في جولة الإعادة المقرر إجراؤها في وقت لاحق بعد ثلاثة أسابيع، في 21 نوفمبر/تشرين الثاني. بعد الأداء الباهت ليانوكوفيتش ضاعف بوتين جهوده مع كلا المرشحين، وقد أخذا بمغازلة مرشحي الجولة الأولى الآخرين، ضغط بوتين على الزعيم الشيوعي الروسي غينادي زغانوف كي يستخدم نفوذه مع بترو سيميننكو، المرشح الشيوعي الأوكراني، الذي حصل على 5 في المئة من الأصوات، فوافق زغانوف، لكنه اشترط ثمنًا لذلك: تقديم الكرملين تمويلًا للحزب الشيوعي في روسيا، وإنهاء التغطية السلبية بلا هوادة على التلفاز الرسمي، وقد فعل الكرملين ذلك لبعض الوقت، ولكن هذا التكتيك أخفق؛ لأن سيميننكو أيضًا كان غاضبًا من التصويت، ورأى أنه جُرِّدَ مما يزيد على خمسين ألف صوت شيوعي في الجولة الأولى، وبدلًا من ذلك دعا أعضاء حزبه للتصويت ضد كلا المرشحين في جولة الإعادة[14].

ثم سافر بوتين إلى أوكرانيا في زيارة عمل أخرى، والتقى كوتشما ويانوكوفيتش في شبه جزيرة القرم مرة أخرى لتدشين خدمة العبَّارات المنتظمة بين شبه الجزيرة والبر الروسي، ومعًا سافروا إلى أسفل ساحل القرم إلى مركز الآرتيك الدولي للأطفال، المنتجع السوفييتي الشهير الذي أصبح يستضيف المئات من تلاميذ المدارس الذين نجوا من الهجوم الإرهابي في بيسلان. بقي الناشطون السياسيون في الكرملين، من بينهم ميدفيديف، واثقين من فوز يانوكوفيتش، ويرجع ذلك- جزئيًّا- إلى وجود كوتشما ويانوكوفيتش، وبقي بوتين يضغط على يانوكوفيتش لبذل مزيد من الجهد للإنفاق من موارد الحكومة التي كانت في متناول اليد لزيادة الإقبال، وهي ممارسة كان لها أثرها الكبير في روسيا[15].

للتحضير لجولة الإعادة عزَّز مسؤولو الانتخابات قوائم الناخبين بـ(بالأموات)، بصورة مثيرة للريبة؛ لتضخيم نسبة المشاركة في المناطق الشرقية التي دعمت يانوكوفيتش، وفي دونيتسك قفزت نسبة المشاركة في الجولة الثانية من 20 في المئة تقريبًا إلى 96.7 في المئة، وهو أمر لا يكاد يصدق. وفي يوم جولة الإعادة نُقل الناخبون إلى كييف للتصويت بعد تصويتهم في مناطقهم، وضُبط مئات منهم يفعلون ذلك[16]. كان الاحتيال في حملة يوشينكو متوقعًا، ولكن التلبس به أثار غضبًا منه، وبحلول وقت إغلاق مراكز الاقتراع في تلك الليلة، تدفق أنصاره، وهم يرتدون الملابس البرتقالية ويلوحون بالأعلام البرتقالية، إلى الشوارع المحيطة بالفضاء العام وسط كييف، وميدان الاستقلال، أو ساحة الاستقلال، وكانت الحشود قد تنامت إلى عشرات الآلاف في صباح اليوم التالي، عندما أعلنت لجنة الانتخابات النتائج الأولية التي أظهرت يانوكوفيتش فائزًا بـ 49 في المئة، ويوشينكو بـ 46 في المئة، على الرغم من أن استطلاعات الرأي، المدفوع لها من قبل المنظمات غير الحكومية من الولايات المتحدة وأوروبا، أظهرت فوز الأخير بفارق 11 نقطة.

أثار مراقبو الانتخابات الدوليون على الفور أسئلة حول سير الانتخابات والفرز، لكن بوتين، الذي قضى الأيام الثلاثة الماضية في أمريكا اللاتينية لحضور قمة التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي، اتصل على الفور من البرازيل لتهنئة يانوكوفيتش.

وأقام أنصار يوشينكو خيامًا لهم في ميدان المدينة، وتعهدوا بالبقاء حتى إلغاء نتيجة الانتخابات، وقد عبَّر الجميع عن غضبهم بسبب الغش، وكان المزاج العام للحشد احتفاليًّا، وحضر موسيقيو البوب وأدَّوا مقطوعات بين خطابات يوشينكو وأنصاره. كان مستشارو كوتشما في حالة من الفوضى، منقسمين حول ما يجب فعله، وبدا الصحفيون على شبكات التلفاز الرسمي ثائرين، حتى مترجم الصم والبكم، الذي تجاهل النص الرسمي للمذيع على القناة الحكومية الرئيسة وبدأ يسرد الحقيقة: «وزورت النتائج التي أعلنتها لجنة الانتخابات المركزية»، إنها وقعت، «لا نصدقهم».

ولما لم تتخذ حكومة كوتشما أي تحرك فوري لإزالة المحتجين، فقد انهال مزيد من الناس إلى الميدان، لا النشطاء السياسيون فقط، بل الناس العاديون، حتى الآباء والأمهات، الذين أخذوا أطفالهم ليشهدوا أن ما شعروا به كان لحظة تاريخية في تاريخ أوكرانيا الشاب. وفجأة أصبح الأمر أكثر من مجرد مشاعر فياضة لدعم يوشينكو، بل لجميع المشكلات في البلاد، والتي باتت الموروثات السوفييتية معوقة لها؛ فالأوكرانيون- على عكس الروس- كانوا على استعداد للنزول إلى الشوارع للمطالبة بالنزاهة والعدالة والمساءلة من جانب زعمائهم.

في 23 نوفمبر/تشرين الثاني، أقسم يوشينكو اليمين رمزيًّا لمنصبه، معلنًا نفسه الفائز في جلسة لم يكتمل بها النصاب القانوني في البرلمان، حتى لا تعلن لجنة الانتخابات أن يانوكوفيتش هو الفائز الرسمي بعد الفرز النهائي في اليوم التالي. وأرسل بوتين تهنئة مرة أخرى، وهذه المرة في رسالة إلى يانوكوفيتش، قائلًا إن الأوكرانيين قدموا «خيارًا للاستقرار». ولكن الحشود ازدادت أكثر فأكثر، محاصرة مبنى البرلمان والرئاسة في بحر من اللون البرتقالي، وكان هذا أسوأ كابوس لبوتين.

سافر بوتين من أمريكا الجنوبية إلى بروكسل لحضور اجتماع مع قادة الاتحاد الأوروبي، ومعظمهم كان قد رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات في أوكرانيا، ودعا إلى التحقيق في الغش بدلًا من ذلك؛ ومن ثم فالشراكة الودودة التي كان بوتين يأمل في تطويرها مع

الأوروبيين- واعدًا بتوسيع التعاون في مجال الطاقة، والأمن، والتجارة، والسفر- باتت الآن متكلفة على نحو متزايد، وأوكرانيا كسرتها كلها. قال: «أنا واثق بأنه ليس لدينا مزيد من الحق في التحريض على اضطرابات جماهيرية في دولة أوروبية كبرى»، قال بوتين ذلك بعد لقاء خاص متوتر مع القادة الأوروبيين، وكان يتهمهم بتشجيع الناس الذين احتشدوا في شوارع كييف؛ «يجب علينا ألا نجعل من الممارسات الدولية حلًّا لنزاعات من هذا النوع من خلال أعمال الشغب في الشوارع». إصرار بوتين بأن النتيجة كانت (واضحة تمامًا) ترك روسيا دون إستراتيجية بديلة، والكرملين جاهد لمواكبة وتيرة الأحداث، وإذ استشعر البرلمان الأوكراني المد في التحول السياسي لمصلحة يوشينكو، صوَّت على إعلان أن نتائج الانتخابات غير صحيحة.

أفراد من قوات الأمن في أوكرانيا، من بينهم ورثة سرِّية الـ(كي جي بي)، بدؤوا بالانشقاق والوقوف إلى جانب المحتجين، حتى إيجور سميشكو، الجنرال الذي كان قد حضر قبل شهرين عشاء الليلة السابقة الذي تسبب بتشويه يوشينكو، تحول اليوم أيضًا ضد معسكر يانوكوفيتش، محذرًا من أن قوات وزارة الداخلية في البلاد ستقاوم أي أمر للقضاء. وكان بوتين قد ضغط على كوتشما لمقاومة قوة الدفع نحو حل وسط، ملمحًا بقوة إلى أنه يجب التعامل بشدة مع أي احتجاج جماعي. «بوتين رجل قاسٍ»، قال كوتشما في وقت لاحق، «لم يكن يقول مباشرة: ضع الدبابات في الشوارع؛ فقد كان لبقًا في تصريحاته، ولكن كان هناك بعض التلميحات بها»[17].

تراجع يانوكوفيتش إلى دونيتسك، مسقط رأسه، لحضور مؤتمر القادة السياسيين للمناطق الشرقية التي ظلت موالية له ولروسيا: دونيتسك، وهانسك، وخاركيف، وكان اللقاء في حلبة للتزلج على الجليد في سيفيرودونيتسك، وصوَّت فيه الكونغرس بالإجماع على إعلان مناطقهم مستقلة إذا استمرت الفوضى في كييف، ثم انتقل المجلس الإقليمي حتى للتصويت على الحكم الذاتي في الأسبوع التالي. حضر يوري لوجكوف، رئيس بلدية موسكو، في خطوة

بدا أنها لإيصال تأييد الكرملين لدعوات الانفصال، وندد زعماء المعارضة بأنه (سبت الساحرات) متظاهرين أنهم «يمثلون كل الأمة».

دونباس، كما كانت تعرف بقلب المنطقة الصناعية في أوكرانيا، ستكون منفصلة قبل الموافقة على أي حل وسط لتثبيت يوشينكو. وفي ليلة 2 ديسمبر/كانون الأول، استدعى بوتين كوتشما إلى موسكو، والتقيا في صالة كبار الشخصيات في مطار فنوكوفو حين كان بوتين يستعد للمغادرة في زيارة رسمية إلى الهند. وفي أوكرانيا واصل البرلمان مناقشة آليات عقد انتخابات جديدة، في حين سمعت أعلى محكمة في البلاد حجج يوشينكو لإبطال النتائج الأخيرة. أيَّد بوتين حينها دعوة كوتشما لانتخابات جديدة تمامًا بوصف ذلك أفضل فرصة لتجنب فوز يوشينكو، وقال: إن «إعادة الجولة الثانية قد تنتج أيضًا لا شيء. ماذا يحدث بعد ذلك؟ هل يجب أن تكون هناك انتخابات جولة ثالثة ورابعة وخامسة وعشرين...؟ حتى يحصل واحد من الجانبين على النتيجة اللازمة»[18].

في اليوم التالي، بعد أسبوع من جلسات الاستماع التي بُثَّت في جميع أنحاء البلاد، تدخلت أعلى محكمة في أوكرانيا من أجل جولة الإعادة لانتخابات جديدة، قائلة إن الجولة الثانية قد «شابتها انتهاكات منهجية واسعة النطاق»، وإنه كان من المستحيل تحديد من الذي فاز حقًّا. كان ذلك نصرًا لا شك فيه ليوشينكو، فاندلعت وسط كييف الاحتفالات، وكان لبوتين هزيمة ساحقة.

بعد ثلاثة أسابيع عقدت انتخابات الإعادة المكررة، وبين حكم المحكمة والتصويت، كان أطباء يوشينكو في النمسا قد توصلوا إلى النتيجة النهائية أنه كان قد تسمم من خلال الديوكسين، ومن ثم فقد بدت الاتهامات بأن مرض يوشينكو كان مجرد حيلة لاستغلال بعض الأمراض الأخرى لكسب تعاطف الناخبين، اتهامات تدعو إلى السخرية، وتبين أنه ناجم عن مؤامرة مظلمة من قبل نظام موغل بالفساد وعلى استعداد لأن ينحدر إلى التسميم لعرقلة مرشح. عندما عقدت جولة الإعادة الثانية، في ظل أكبر عملية تدقيق دولية، فاز يوشينكو بما

يقارب 52 في المئة من الأصوات، وتراجع يانوكوفيتش حاصلًا على 44 في المئة، وعلى الرغم من التحقيق فمسألة من الذي اضطلع بعملية التسميم بقيت دون جواب. ويوشينكو نفسه لم يُبدِ كبير حماس للتحقيق، على الرغم من التشوه المروع الذي وقع له[19]، ليقول في وقت لاحق إنه يشتبه في مضيفه، فلاديمير ساتسيوك، وقد خضع لاستجواب المحققين عندما كان يوشينكو في منصبه، وفُحص بيته الريفي لاختبار آثار الديوكسين، لكن لم يعلن قط كونه متهمًا[20]، وفي يونيو/حزيران 2005م غادر أوكرانيا إلى روسيا، حيث حصل على الجنسية الروسية، ومن ثم فقد انتهى يوشينكو إلى الاعتقاد بأن بوتين يؤوي من كان سيكون قاتله.

الثورة البرتقالية، كما أصبحت تُعرَف، كان يُنظر إليها في روسيا على أنها هزيمة مذلة، وفي الكرملين بمنزلة تحذير لا تحمد عقباه؛ فقد خذلت بوتين التكتيكي في صراع جيوسياسي، وأخذ يطبب جراح تجربة له مثل ضغينة. وكان رد فعل الكرملين بتكثيف الضغط عليه من المنظمات غير الحكومية في روسيا، ومن خلال مضاعفة البحث عن الجواسيس الأجانب، ومن خلال خلق حركة شبابية خاصة لاحتواء أي مظهر من مظاهر المعارضة الشبابية؛ وكان يطلق عليها ناشي (Nashi)، وأيديولوجيتها وممارساتها شبيهة إلى حد بعيد بتلك التي تدعى الكومسومول في الاتحاد السوفييتي، أو حتى- من وجهة نظر النقاد- بشباب هتلر. تصرُّف بوتين بقي دفاعيًّا على نحو متزايد، ومشبوهًا على نحو متزايد أيضًا، أمام التوبيخ الدولي لسجل روسيا في مجال الحقوق الديموقراطية الأساسية، وقد كان ينظر إليهم على أنهم منافقون؛ خصوصًا ممن كان في الولايات المتحدة، الذين كانوا في ظل الرئيس بوش وينتهجون سياسة خارجية شديدة العدوانية أطاحت بالحكومات في أفغانستان والعراق، والآن- كما يعتقد- في أوكرانيا. كانت له علاقات دافئة في البداية مع بوش لكنها بردت، أو كانت على وشك البرود، فبعد مدة وجيزة من تنصيب بوش في ولايته الثانية في يناير/كانون الثاني عام 2005م، التقيا في براتسلافا، عاصمة سلوفاكيا، وكان بوش قد ألقى خطابًا في صباح ذلك اليوم في ساحة هفيزدوسلاف في المدينة، قبل ساعات فقط من توجه بوتين بالطائرة إلى المدينة. لقد عمل من أجل النهوض بالديموقراطية- (أجندة

الحرية)، كما أطلق عليها- وهو الموضوع الرئيس لولايته الثانية، والآن هلل للانتفاضات الشعبية في جورجيا وأوكرانيا، والانتخابات الأخيرة في العراق، وقال إنها كانت جزءًا من المسيرة الحتمية للديموقراطية التي بدأت مع الثورة المخملية في ذلك الحين، ومن ثم في تشيكوسلوفاكيا الموحدة في عام 1989م، ولم يذكر روسيا، لكنه أعلن أن «نداء الحرية- في نهاية المطاف- سيصل إلى كل عقل وكل روح. وذات يوم، سوف تصل وعود الحرية إلى كل شعب وكل أمة».

في سلوفاكيا كان يرافق الرئيسين زوجتاهما، اللتان ظهرتا معهما بصورة رسمية في أثناء تساقط الثلوج على مدخل قلعة براتسلافا. وبعد الشاي، انضمت ليودميلا، التي تضاءلت نشاطاتها العامة بصورة ملحوظة بعد إعادة انتخاب بوتين في العام قبل الماضي، إلى لورا بوش في جولة على المطرزات في قصر بريماسيال في قلب المدينة القديمة، واستمَعَتا معًا إلى جوقة الأولاد يغنون بالروسية والإنجليزية[21]. وعندما التقى الرجلان داخل القلعة- مع ذلك- أسقط بوتين أي تظاهر بالصداقة وأي طلاقة وجه، وعندما أثار بوش قلقه إزاء اعتقال ميخائيل خودوركوفسكي، وتضييق الخناق على وسائل الإعلام، و«عدم إحراز تقدم» في الديموقراطية، شن بوتين هجومًا مضادًّا، وقارن قراره بإنهاء انتخابات الحكام الإقليميين، بعد بيسلان، باستخدام المجمع الانتخابي في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وأن محاكمة خودوركوفسكي لا تختلف عن ملاحقة شركة إنرون للطاقة في تكساس التي أفلست في عام 2001م. واستمرا ساعتين تقريبًا، وقد بدت لهجة بوتين ساخرة وأقرب إلى الاستهزاء، فغضب بوش من هذه الاستفزازات، حتى إنه تصور أن يصل إلى أكثر من (صفعة إهانة) له، حسب المترجم[22]. فقد سخر بوتين من بوش في أثناء الحديث قائلًا: «لا تحاضر لي عن حرية الصحافة، إلا بعد أن تقيل ذاك المراسل»، انتابت بوش الحيرة للحظات؛ ثم أدرك أن بوتين يعني الفضيحة التي انتشرت على ضوء التقارير التي كتبها دان راذر لشبكة سي بي إس عن خدمة بوش في الحرس الوطني الجوي، والتي استند فيها إلى وثائق لم يمكن التأكد من صحتها، فكان عليه أن يعتذر، واضطر إلى التقاعد، واليوم بوتين يستشهد به

متهمًا بوش بقمع حرية الصحافة، فقال له بوش: «أقترح عليك ألا تقولها علنًا أمام الجمهور؛ فالشعب الأمريكي سوف يعتقد أنك لا تفهم نظامنا»[23].

في وقت لاحق، كشف مؤتمرهم الصحفي المشترك أن خلافاتهما لم يعد ممكنًا التستر عليها وفق ما تفرضه الدبلوماسية، وكرر بوتين تأكيده أن المجمع الانتخابي هو بالأساس ممارسة غير ديموقراطية. الصحفي الروسي الذي اختاره الكرملين وقتها أثار قضية أن بوتين وبوش تناقشا شرًّا فقط، وسأله لماذا لم يثر علنًا انتهاك الحقوق في الولايات المتحدة (قال بوش وهو يفكر: «يا لها من مصادفة!»). الشراكة التي تصورها بوش عندما نظر إلى عيني بوتين قبل أربع سنوات قد فُقدت، وفيما بعد كتبت كوندوليزا رايس، التي تشغل اليوم وزيرة خارجية بوش: «علينا أن نراها قادمة، ولكن بوتين هذا يختلف عن الرجل الذي اجتمعنا به أول مرة في سلوفينيا»[24].

أثبتت انتخابات أوكرانيا، التي جاءت في أعقاب بيسلان، أنها نقطة تحول بالنسبة إلى بوتين وروسيا، ففكرته الأولية بإقامة تعاون أوثق بين روسيا والغرب، إن لم يكن تحالفًا فعليًّا، تلاشت باطراد مع ازدياد سلطته السياسية والاقتصادية. وعندما ألقى خطابه السنوي أمام مجلس الدوما والمجلس الاتحادي في أبريل/نيسان، دعا إلى وحدة وطنية جديدة ضد هؤلاء الذين يريدون تحدي الدولة، سواء داخل روسيا أو خارجها، وبدأ بديباجة أن البلاد بحاجة إلى تأمل «أعمق في هذه القيم؛ مثل الحرية والديموقراطية والعدالة والشرعية»، وواصل متفوهًا بجملة أكدت لكثيرين الميول السيئة التي يبطنها بوتين؛ ألا وهي الحنين لمجد الاتحاد السوفييتي الذي لا يزال عالقًا فيه؛ قال: «أولًا وقبل كل شيء، يجب الاعتراف بأن انهيار الاتحاد السوفييتي كان أكبر كارثة جيوسياسية في القرن، وأصبح للشعب الروسي دراما حقيقية، فعشرات الملايين من مواطنينا وجدوا أنفسهم خارج الأراضي الروسية. وطاعون التفكيك طال روسيا نفسها».

لم يكن بوتين يرغب في استعادة النظام السوفييتي أو الشيوعي، بل ولا يرغب في ذلك، وأي شخص يريد عودته- كما قال- فلا عقل له، لكن لأول مرة بدأ يعرض قيادته في سياق تاريخي أوسع؛ كان يعتزم استعادة شيء أكبر، وأكثر ثراء وعمقًا: فكرة الأمة الروسية، فإمبرياليو (روما الثالثة) رسموا مسارها الخاص، غير مبالين بفرض القيم الأجنبية، فمن ثم كانت فكرةً روسية قديمة، وجد في كتب التاريخ نموذجًا لها يقال إنه كان معجبًا بها.

ما لوحظ في ذلك الوقت من رثاء بوتين لـ(كارثة) انهيار الاتحاد السوفييتي أنه كان أقل بكثير من إشارته إلى إيفان إيلين، الفيلسوف الديني والسياسي الذي اعتقل مرارًا من قبل البلاشفة، ثم طُرد في عام 1922م.

قدمت أفكار إيلين الأساس الفكري المتطور لفهم بوتين لإحياء روسيا، وسوف تصبح أكثر وضوحًا في المناقشات السياسية اللاحقة. إيلين، الروسي الأبيض في المنفى، اعتنق رؤية الهوية الروسية الأرثوذكسية التي كان النظام الشيوعي العلماني عازمًا على تدميرها، وقد وجد بوتين في كتاباته كثيرًا مما يمكن أن يدعم فكرة الدولة التي أراد خلقها، وحتى مفهوم (الديموقراطية السيادية). بوتين لم يَرْثِ زوال النظام السوفييتي، وإنما زوال الفكرة الروسية التاريخية؛ قال: «دعونا لا ننسى هذا»، وهذه هي المرة الأولى التي يقتبس فيها بوتين من إيلين، الذي بدأت كتاباته تنتشر علنًا في روسيا بعد البيروسترويكا. «روسيا هي البلد التي اختارت الديموقراطية من خلال إرادة شعبها، اختارت هذا الطريق من تلقاء نفسها، وسوف تقرر بنفسها أفضل السبل لضمان تحقيق مبادئ الحرية والديموقراطية هنا، مع الأخذ بالحسبان خصوصياتها التاريخية والجغرافية والسياسية، وتحترم جميع المعايير الديموقراطية الأساسية. وبصفتها دولة ذات سيادة يمكن أن تقرر روسيا، وسوف تقرر، الإطار الزمني لها، وشروط التقدم على هذا الطريق».

إشارة بوتين إلى هذا الفيلسوف غير المعروف كثيرًا خارج روسيا، أو حتى داخلها، تزامنت مع إعادة رفاته، إضافة إلى الجنرال أنطون دينيكين، القائد القيصري للطرف

الخاسر من الحرب الأهلية؛ فقد دُفن إيلين في سويسرا، ودُفن دينيكين في الولايات المتحدة، لكن بوتين دعم حملة لإعادة دفنهما في وطنهم في دير دونسكوي في موسكو[25]، وقيل إنه قد دفع شخصيًّا ثمن شاهد قبر إيلين الجديد. كل هذا أدى إلى تجدد الاهتمام بأعمال هذا الرجل، فسارعت وكالة الاستخبارات المركزية لإعداد دراسة وتحليل لدوره في تفكير بوتين، وما قد ينذر في المستقبل.

قدَّم الأرثوذكسي إيلين الوطنية، والقانون، والملكية الخاصة، على أنها مرتكزات الدولة، وكتب عن المنفى في عهد ستالين، والحرب الوطنية العظمى، ونعى أبطال الحرب الأهلية، مبديًا التبجيل لهم، والرومانسية التي ترددت أصداؤها في روسيا الجديدة. وقد استطاع بوتين أن يجد كثيرًا مما يحبه في كلمات إيلين؛ «البطل يحمل عبء أمته، عبء مصائبها، عبء نضالها، عبء سعيها، وبتحمله هذه الأعباء فإنه ينتصر؛ ينتصر بهذه الأشياء وحدها، راسمًا للجميع طريقًا للخلاص، وفوزه يصبح نموذجًا ومنارة، وإنجازًا ودعوة، ومصدرًا للنصر، وبداية انتصار لكل من هم على تواصل معه في شيء واحد هو حب الوطن. لهذا السبب يبقى لشعبه المصدرَ الحي للابتهاج والفرح، ويبقى ذكر اسمه كأنه انتصار»[26].

في 9 مايو/أيار 2005م احتفل الكرملين بالذكرى الستين للانتصار في الحرب الوطنية العظمى بحفل كانت نفقاته أكبر من أي وقت مضى، وتضمنت الخطط الضخمة عشرات الاحتفالات والحفلات الموسيقية، وعرضًا عسكريًّا في الساحة الحمراء، وهو تقليد استأنفه بوتين بعد سنوات؛ إذ أهمل يلتسين الأعياد والتقاليد السوفييتية. حضر العرض سبعة وخمسون من كبار الشخصيات، ومن بينهم قادة الدول المنتصرة والمهزومة بالحرب؛ من جورج بوش إلى جيرهارد شرودر، وسيلفيو برلسكوني، وجونيشيرو كويزومي. بالنسبة إلى بوتين أصبحت الحرب المفتاح الرئيس لنزعته القومية الجديدة، وهي النزعة التي تكونت من كثير من الذكريات لديه، ومن الاستماع إلى قصص والده. كانت مقاربة الاحتفال بالذكرى السنوية قد أنعشت المناقشات عن مدى القهر السوفييتي لأوروبا الشرقية والوسطى بعد الحرب، ولكن بوتين رفض دعوة روسيا لتفسير الجوانب الأكثر قتامة في الماضي السوفييتي،

والأكثر خزيًا اتفاق مولوتوف-ريبنتروب مع ألمانيا النازية في عام 1939م، الذي أدى إلى الاحتلال السوفييتي لجزء من بولندا في تلك السنة، ودول البلطيق في العام التالي، وقد رفض رؤساء ليتوانيا وأستونيا الحضور نتيجة لذلك. حضور رئيس لاتفيا، فيرا فايك - فريبيرجا، أشعل احتجاجات صاخبة لنشطاء ناشي خارج سفارة بلاده في موسكو، وقد وُبِّخ ألكسندر كفاشنيفسكي جهارًا لدوره في محادثات الوساطة خلال الانتخابات في أوكرانيا، وأُرجع إلى الصف الخلفي في منصة المشاهدة التي تغطي ضريح لينين[27].

بوتين لم يغفر لستالين إخفاقه في أثناء الحرب- وكذلك تواطؤه مع هتلر قبل الحرب، والذبح غير المفيد لجنود عاديين، والمسيرة المضادة إلى برلين- أكثر مما غفر لأصحاب الدعاية السوفييت. كانت الحرب الأيديولوجية الجديدة لبوتين هي تلك التي كانت في شبابه، قال: هي الحرب المشرفة والعادلة التي لا تشوبها شائبة ولا نشعر بالذنب تجاهها، «معارك موسكو وستالينغراد، وشجاعة لينينجراد المحاصرة، ونجاحات كورسك ودنيبر هي التي قررت نتائج الحرب الوطنية العظمى. ومن خلال تحرير أوروبا ومعركة برلين أوصل الجيش الأحمر الحربَ إلى نهايتها منتصرًا. أصدقائي الأعزاء! نحن لم نتقاسم النصر لنا ولهم في بلدنا قط»، وأشار إلى أن «التضحيات المشتركة» وحدت جمهوريات الاتحاد السوفييتي الخمس عشرة، وهي اليوم دول مستقلة لها مسارات خاصة بها، كما هو حال دول البلطيق، وجورجيا، وأوكرانيا التي أحبطت بوتين كثيرًا. ووصف التصالح بين ألمانيا وروسيا بأنه يجب أن يكون نموذجًا للعلاقات الدولية في القرن الحادي والعشرين. وليس بعيدًا عن الكرملين، احتفى متحف بوشكين بالذكرى الستين بعرض 552 من الأعمال الفنية القديمة، من بينها برونزيات يونانية، وأرقام أترورية، وأجزاء من لوحات جدارية رومانية استولى عليها الاتحاد السوفييتي من مخبأ في برلين وترفض روسيا حتى الآن إعادتها[28].

الفصل السادس عشر

شركة الكرملين

قبل جولة الإعادة الثانية من الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا في ديسمبر/كانون الأول 2004م بأسبوع، فككت روسيا شركة يوكوس النفطية. مع أن بوتين كان قد أصرَّ في خطاباته العامة منذ بدء القضية أن الكرملين ليس لديه النيَّة لفعل ذلك، وصدقه كثير من الناس؛ من رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب والروس العاديين، وافترضوا أن النيابة كلها لو كَنَّت العداء لخودوركوفسكي، فلن يدمر بوتين أغنى شركة في البلاد. ومع استمرار هجوم النيابة العامة على خودوركوفسكي ويوكوس نفسها، أصبح من الصعب على بوتين أن يعلن براءته، أو أن ينكر ما أصبح واضحًا، وما كان له أن يشرع بتهم جنائية وضريبية ضد يوكوس، وفقًا لمسؤول في الكرملين، ولكن «في مرحلة معينة انتقل من مراقب إلى مشارك، ومن ثم متزعم» التصفية النهائية للشركة وإعادة توزيع أغنى أصولها، جوهرة تاج إمبراطورية النفط في روسيا[1].

كانت يوجانسكينفيتجاز وحدة الإنتاج الرئيسة ليوكوس، وتقع على أحد روافد نهر أوب في سيبيريا الغربية، استُثْمِرت آبارها الأولى مع الطفرة النفطية السوفييتية في الستينيات، لكنّ تراجع الإنتاج باطراد مع الزمن، وكان هناك سوء إدارة كبير في السنوات التي سبقت انهيار الاتحاد السوفييتي وبعده. استحوذ مصرف خودوركوفسكي على المشروع بصفته جزءًا من صفقة (أسهم فاسدة للحصول على قروض) لحماية رئاسة يلتسين؛ فقد دفع مستثمرو المصرف 150 مليون دولار إلى يوجانسكينفيتجاز، وبعد بضع سنوات مضطربة

جاؤوا بخبرات وتكنولوجيا أجنبية لتدويرها[2]، وعندما اعتقل خودوركوفسكي، كانت تنتج 60 في المئة من نفط الشركة.

أعلنت وزارة العدل أنها سوف تستولي على يوجانسكينفيتجاز وتعرضها للمزاد بعد خمسة أيام فقط من محاكمة ميخائيل خودوركوفسكي وشريكه بلاتون ليبيديف، وافتتحت المحكمة في يوليو/تموز 2004م داخل قاعة محكمة صغيرة تخضع لحراسة مشددة شمالي موسكو، ولم يكن ممثلو الادعاء قد انتهوا من سجالاتهم حول التهم الجنائية الإحدى عشرة التي واجهها خودوركوفسكي، فضلًا عن إدانته بتهم ارتكاب مخالفات أخرى، لكن مصادرة أصول الشركة الأكثر قيمة لم تكن بعيدة. تجمع أنصار خودوركوفسكي خارج المحكمة للاحتجاج في اليوم الأول الذي بدأت به المحاكمة، وسوف تستأنف دوريًّا خلال الأشهر العشرة المقبلة، ومع أن الإجراءات تبدو أمرًا مفروغًا منه، فقد كانت المحاكمة مُلغَزة بانتهاكات إجرائية، منها مضايقة المتهمين والشهود، وكذلك محاميهم، لتذكرنا بالمحاكمات الصورية السوفييتية. وكما هو حال المحاكمات السابقة، بعث مشهد الادعاء العام القشعريرة المقصودة في النخبة السياسية والاقتصادية، كاتمة الأصوات القليلة الراغبة في التحدث بعد اعتقال خودوركوفسكي.

تحركت شركات نفط عملاقة أخرى بسرعة إلى نبذ هذا النوع من الخدع التي استخدمتها يوكوس لخفض ضرائبها، وخرجوا بالمقابل للتباهي بحجم الضرائب التي كانوا على استعداد لدفعها. باستثناء أنصار خودوركوفسكي، وناطقيه الرسميين ومستثمريه، ومحاميه وأصدقائه وعائلته، لم يتجرأ إلا قليلون على المواجهة العلنية لكرملين بوتين حول أي قضية؛ «أخاف جدًّا من أن أسمي الأشياء بأسمائها اليوم»، هذا ما قاله أركادي فولسكي، رئيس اتحاد الصناعيين لشبكة التلفاز، وأضاف أنه يعرف من يقف وراء قضية يوكوس؛ «أنا خائف بكل بساطة؛ فلدي ستة أحفاد، وأريدهم أن يبقوا على قيد الحياة»[3]، ولصراحته هذه نُحِّي فورًا من رئاسة الاتحاد.

علنيًّا ظل بوتين بعيدًا عن إجراءات المحكمة، وكأنه غير موافق عليها، وأظهر قرار الاستيلاء على الشركة الفرعية ليوكوس وعرضها بالمزاد- بصورة جلية- أن إزالة خودوركوفسكي من الحياة العامة لم يعد الهدف الوحيد: انهيار يوكوس نفسها يبدو اليوم أمرًا لا مفر منه، وقرار بهذه الضخامة لا يأتي إلا من السلطة العليا. قيمة الشركة الفرعية التابعة لها تجاوزت بكثير 3.4 مليارات دولار، وقد زعمت الحكومة أنها مدينة لها بسبب عدم دفع الضرائب. وسبق أن بدأت يوكوس بدفع تلك الديون على أمل إنقاذ نفسها، ولكن أعلنت السلطات عمليات تدقيق جديدة، وغرامات جديدة لخفض الضرائب في السنوات اللاحقة، ورفضت جهود مديري شركة يوكوس للتفاوض على أي خطة للدفع، فتضخم الدَّين إلى 24 مليارًا، وهو مبلغ يزيد على قيمة الشركة المتبقية، ولم يكن لبوتين مصلحة في عودة الضرائب إلى خزينة متخمة في البلاد[4]؛ إنما أراد الأصول نفسها.

في 18 نوفمبر/تشرين الثاني أعلن صندوق المُلكية الروسي سعر افتتاح المزاد على يوجانسكينفيتجاز بدءًا من 865 مليون دولار، وهو أقل بكثير من تقييم ما بين 18 إلى 21 مليار دولار الذي قدمته شركة ألمانية، مصرف دريسدن، بناء على طلب الحكومة. وحدد المزاد في أقرب موعد ممكن وفقًا للقانون، وهو يوم 19 ديسمبر/ كانون الأول، وبدأ المزاد مع أنه صادف يوم أحد، لكن السؤال الوحيد الذي تبقى: من سيكون المشتري؟

مع اقتراب المزاد، وجد بوتين نفسه يتوسط في صراع مرير بين دائرة الموالين الذين ترقَّوا إلى الدرجات العليا للدولة والصناعة، ولم يعد يواجه تحديات سياسية جوهرية خارج الكرملين، بل تحديات من قبل العُصبة المقربة منه، التي كانت تناور كما كان النبلاء في ظل القياصرة. وكما هو حال أي بلاط؛ يختلف رجاله بينهم، لكن في هذه القضية ليس الصراع أيديولوجيًا أو صراع رؤية بين (الليبراليين) والحرس القديم، ولكنه صراع على المال والسلطة. طوَّق رجال البلاط يوكوس الجريحة كما الذئاب، وهم يعرفون حجم الأرباح التي ستأتي من أكبر أصول الشركة، وكان من بينهم بعض أقرب مساعديه ديمتري ميدفيديف،

و(المكتب السياسي) للمتشددين- إيجور سيتشين، وفيكتور إيفانوف، ونيكولاي باتروشيف- الذي دعا إلى تعزيز سيطرة الدولة على الموارد الطبيعية[5].

عمل ميدفيديف رئيسًا لشركة غازبروم منذ عام 2000م، وسعى إلى تحقيق مزيد من سيطرة الحكومة على شركة كانت مخصخصة تقنيًّا، مع أن الدولة تمتلك 38 في المئة من أسهمها. وكان بوتين يريد السيطرة الكاملة على هذه الشركة العملاقة، التي تمتلك ما يقرب من خُمس احتياطيات العالم من الغاز الطبيعي، وعلى آلاف الأميال من خطوط الأنابيب التي أدفأت القسم الأكبر من أوروبا، وكانت خطته الأولية لتحقيق ذلك أن تقوم غازبروم باحتواء روزنفت، الشركة الحكومية المريضة التي فضلها بالدعم السياسي والتراخيص، وخاصة في الشيشان، حيث لم تجرؤ أي شركة أخرى على العمل بعد أن بدأت الحرب الثانية[6]، وما دام أن روزنفت مملوكة بالكامل للدولة، فسيعطي الاندماج الكرملين الحصة المسيطرة على شركات الطاقة الغنية، مثل شركة إكسون وشركة أرامكو السعودية. جذور الفكرة تعود إلى أيام بوتين في بطرسبورغ، عندما أشرف هو وأصدقاؤه على الصفقات التجارية المحلية وتجارة النفط وكَتب أطروحات أكاديمية حول ضرورة وجود يد ثابتة للدولة. اليوم، بعد مرور بضع سنوات فقط، كانوا على وشك تحقيق رؤيتهم على نطاق وطني.

صادق بوتين على صفقة دمج شركة غازبروم وروزنفت في سبتمبر/أيلول 2004م، بعد يوم واحد من إعلان تغييرات سياسية واسعة في أعقاب بيسلان، وهي تناسب نمط مركزية السيطرة، وتجميع مزيد منها في قبضة بوتين، وهذا الدمج المقترح أبهج المستثمرين والمحللين، وبخاصة الأجانب، الذين هم أنفسهم هزتهم الاضطرابات في السوق وتكشُّف قضية يوكوس، وكان السبب ليس معقدًا: إنه المال الذي يمكن أن ينتَج.

في جزء من عملية الدمج وعد بوتين أنه بمجرد سيطرة الدولة على حصة أغلبية شركة غازبروم، سيرفع القيود عن المستثمرين الأجانب في شراء الأسهم المتبقية، ومع أن غازبروم كان ينظر إليها على أنها شركة عملاقة غير فاعلة وغير عملية وتعاني أعباء ضخمة، فإن

احتكارها لبيع الغاز الطبيعي، ورعاية الكرملين الشغوفة لها، أوحت بإمكانية وجود عائدات أغرت حتى المستثمر الأكثر تشاؤمًا. وهكذا لم يعد هناك كثيرون ممن يبدون انزعاجهم من مصير يوكوس اليوم، وبعض التقديرات تشير إلى أن الاستثمار الأجنبي سيضاعف القيمة السوقية لغازبروم، مع ارتفاع القيمة لحساب آلاف المساهمين.

بعد شهر من إعلان الاندماج انهال جون براون، من شركة بريتيش بتروليوم، بالثناء على الاتجاه الذي اتخذه بوتين لروسيا، متجاهلًا هلع كثيرين داخل البلاد وخارجها من تكتيكات الكرملين، قال: «منذ جورباتشوف حدثت أمور كثيرة في روسيا، حتى اليوم لا يوجد أي دولة استطاعت أن تنجز ذلك في مثل هذه المدة القصيرة من الزمن». أما بالنسبة إلى يوكوس فقد رفضت أن يكون اعتداء الادعاء العام على خودوركوفسكي وشركائه مسألة معزولة «تتعلق بشخص وزمان ومكان»، ولا تتعلق بمستقبل البلاد الاقتصادي[7].

أعلن بوتين أن الاندماج سوف يكتمل مع نهاية العام، وأصبح واضحًا أنه يريد من الشركة الجديدة أن تحاول الحصول على يوجانسكينفيتجاز، وحين أُعلِن المزاد وفتح السعر في نهاية عام 2004م، طلب من المستشار الألماني، جيرهارد شرودر، المساعدة بمبلغ يقدَّر بعشرة مليارات دولار، وهو المبلغ المطلوب للشراء[8]. وكان المصرف الذي يقود اتحاد المؤسسات المالية هو مصرف دريسدن، الذي كان مديره الإداري في روسيا ماتياس وارنيغ، وكيل جهاز أمن الدولة السابق الذي صادق بوتين في وقت مبكر من التسعينيات، وبقي همزة الوصل في كثير من الصفقات التي تقاسمتها الشركات الألمانية والروسية.

غازبروم ومساعد بوتين، ألكسي ميلر، الذي يعمل مديرًا تنفيذيًّا، لم يبدوا متحمسين، وظلت الشركة مشككة بشأن استيعاب يوجانسكينفيتجاز في أوج اندماجها في شركة روزنفت، التي تصارع الديون والنفقات التي تلوح في الأفق بغية التحديث[9]. في حين أن إيجور سيتشين كانت له أفكار خاصة حول إنشاء شركة الطاقة العملاقة التي يفضلها بوتين. في ذلك الشهر (يوليو/تموز) كان بوتين قد عيَّنه رئيسًا لروزنفت، ثم رئيسًا لخامس أكبر شركة نفط

في البلاد، واليوم لدى سيتشين الرؤى الكبرى لجعلها شركة الطاقة الرئيسة في البلاد لا غازبروم، وهذا يعني الحفاظ عليها من أن تبتلعها شركة غازبروم، وتستحوذ على الأصول المحاصرة لشركة روزنفت وحدها. وما إن أُعلِن الاندماج في سبتمبر/أيلول حتى عمل سيتشين والرئيس التنفيذي لروزنفت، سيرجي بوجدانتشيكوف، من وراء الستار لإفشال هذا الاندماج، وهذا هو بالضبط ما نجحا فيه، لكن ليس بالطريقة التي كان يتوقعها أحد[10].

في الوقت نفسه لم يتوقف مساهمو يوكوس ومديروها عن معركتهم لوقف المزاد والمحافظة بطريقة ما على الشركة، على الرغم من أن كثيرين منهم اليوم يعيشون بأمان في الخارج، وليس لديهم كثير من الأمل في المحاكم الروسية. قدَّم محاموهم ملف الإفلاس في تكساس البعيدة، قبل ستة أيام من مزاد يوجانسكينفيتجاز، وكان ضربًا من ضروب اليأس، مع أسس قانونية هشة لشركة روسية لها قليل من الارتباط بولاية تكساس، ولكن في اليوم التالي أصدر قاض أمرًا تقييديًّا مؤقتًا يهدف إلى إيقاف المزاد حتى النظر في وقائع الملف. لم يمنع الأمر الحكومة الروسية من المتابعة، لكنه أثَّر في المصارف الأجنبية في تكدُّس القروض من أجل المزاد. وكما الحكم الذي أصدرته المحكمة العليا في أوكرانيا قبل أسبوعين، أزعج الأمر التقييدي خطط بوتين المحسوبة بدقة، وكان رد فعله غاضبًا، وقال ساخرًا من القاضي: «لستُ متأكدًا أن هذه المحكمة تعرف حتى أين تقع روسيا»، وغضب من محكمة أمريكية تتدخل فيما يعده الشأن الداخلي للدولة الروسية. ولكي يوضح وجهة نظره استشهد، باللاتينية، بالمبدأ الأساسي لسيادة الدولة من القانون الروماني القديم: **(par in parem non habet imperium)** السلطة السيادية لا يمكن أن تمارس سلطتها القضائية على سلطة سيادية أخرى. فورة بوتين أججها الشعور بالحزن والظلم والغضب الذي غالبًا ما يكظمه في قضايا خارج الشيشان، فإذا به اليوم يشن هجومًا عنيفًا.

رفضت القاضية في ولاية تكساس في نهاية المطاف الدعوى لأسباب تتعلق بالاختصاص، ولكن في ذلك الوقت كان لأمرها أثره المقصود؛ إذ خوفًا من المسؤولية القانونية في الولايات المتحدة، سحبت المصارف الدولية تمويلاتها المكدسة من أجل غازبروم لشراء أصول

شركة يوكوس من خلال شركة جديدة أنشئت تحسبًا لعملية الدمج، وتدعى غازبروم نفت، التي كانت في ذلك الحين لا تزال مجرد هيكل فارغ. ولكي تحمي نفسها، برَّأت غازبروم نفسها رسميًّا من الشركة الجديدة، لكن هذه الشركة ذات الهيكل الفارغ ضغطت قُدُمًا عندما وقع المزاد العلني في ذلك الأحد، مع أنها ليس لديها أي أموال نقدية تستخدمها في عملية الشراء. في المزاد جلس اثنان من المسؤولين من غازبروم نِفت على طاولة واحدة، وعلى طاولة أخرى جلس رجل وامرأة لا يعرفهما إلا عدد قليل من الناس، ولم يعرِّفا بنفسيهما سوى أنهما يمثلان شركة تدعى المجموعة المالية بايكال. عُرفت المرأة بأنها فالنتينا دافلتكارييفا، التي سجلت الشركة قبل ثلاثة عشر يومًا في تفير (Tver)، وهي مدينة جنوب شرقي موسكو، وأدرجت عنوان الشركة كأنها فندق قديم يضم اليوم محلًا لبيع الهواتف النقالة، وأعلنت رأسمالها بما يعادل 359 دولارًا (قبل المزاد بثلاثة أيام قدمت الشركة إيداعًا بقيمة 1.7 مليار دولار).

المزاد نفسه كان مسرحيًّا، ارتدى الدلال البدلة الرسمية ذات الذيول وربطة عنق على صورة القوس، شاهرًا المطرقة، مناديًا العارض الأول. رفع مرافق دافلتكارييفا، واسمه **إيجور مينيبابييف**، يده، وقدَّم 9.37 مليارات دولار، فطلب ممثل غازبروم نفت فسحة من الوقت ليردَّ على مكالمة هاتفية، وغادر الغرفة على الفور، وعندما عاد لم يقل شيئًا، أنزل الدلال المطرقة، واستمر الأمر كله عشر دقائق[11].

لا أحد خارج كرملين بوتين يعرف من الذي يملك اليوم جوهرة تاج يوكوس، ولا حتى رئيس صندوق الممتلكات الذي باعه هذه اللحظة، وذلك ما جعله مزادًا يُذكِّر بالخصخصة القاتمة في التسعينيات، وكل وعود بوتين كانت على خلاف ذلك، كانت الدولة تلجأ إلى التكتيكات نفسها في تقسيم الملكية بأبخس الأسعار، وهذه المرة بعد أن استردتها من القطاع الخاص.

صدر أحد أشد الانتقادات للمزاد من ستانيسلاف بيلكوفسكي، الذي كان قبل عام فقط أحد الإستراتيجيين السياسيين؛ فقد حذَّر الكرملين من «انقلاب القلة»، إذ قال: اليوم كان

مزاد يوجانسكينفيتجاز «صفقة تنجزها مجموعة مجرمة لإعادة توزيع المِلكية، وترمي في مهمتها هذه إلى السيطرة على الأموال الأساسية التي تضخ في البلاد، تمامًا كما حدث في التسعينيات»، واتهم بوتين بأنه «رئيس هذه المجموعة المجرمة»[12].

ما يثير الدهشة هو اللوم الصادر من داخل إدارة بوتين؛ فقد وصف أندريه إيلاريونوف، المستشار الاقتصادي للكرملين، البيع بأنه نقطة تحول تثير القلق لروسيا، وقد حرص على تجنب انتقاد الرئيس شخصيًّا؛ «على مدى السنوات الثلاث عشرة الماضية تسعى روسيا إلى العودة إلى العالم الأول الذي تنتمي إليه منذ الثورة البلشفية، ونحن نرى اليوم أنها فضلت العالم الثالث»، قال ذلك في مؤتمر صحافي، وأضاف: «لقد مررنا بمفترق طرق، ونحن اليوم في بلد آخر»[13]، وعلى الفور خفِّضت رتبته من وظيفته في التحضير لاجتماع مجموعة الثماني (G8) الذي سيعقد في أسكتلندا في يونيو/حزيران القادم.

كان مصير يوجانسكينفيتجاز، على مدى بضعة أيام، قد أصبح حديث المنتديات في موسكو، وقد افترض عديد من المحللين، خطأً، أن شركة بايكال المالية كانت واجهة لحماية المشتري النهائي؛ شركة غازبروم. سافر بوتين إلى ألمانيا في زيارة للقاء جيرهارد شرودر، وتحدث بحياء بعد يومين عن المزاد، متخليًا عن كل شيء، مع أنه أقرَّ بعلمه أن الشركة أنشئت بسرعة للمساعدة على تجنب المسؤولية المحتملة من الدعاوى القضائية التي تحوم حول يوكوس[14]، وعندما سُئل عن المشترين الغامضين قال: «كما هو معروف، المساهمون في هذه الشركة هم جميع الأفراد، لكن الأفراد الذين تورطوا في الأعمال التجارية في مجال الطاقة لسنوات عديدة»، وأضاف مدعيًا: «إنهم يعتزمون- حسب علمي- إقامة علاقات مع شركات أخرى للطاقة في روسيا التي لها مصلحة في شركتهم».

قبل يوم واحد، سعت شركة روزنفت، وبمباركة من بوتين، إلى الحصول على إذن من لجنة مكافحة الاحتكار في روسيا لشراء المجموعة المالية بايكال. روزنفت، التي كانت قبل

أسابيع فقط ستدمَج في غازبروم، التي تقيَّم اليوم بأقل من قيمتها بكثير، قادرة على ضخ مليون برميل من النفط يوميًّا.

في 23 ديسمبر/كانون الأول، بعد أربعة أيام من المزاد، أعلنت شركة روزنفت شراءها، وسيستغرق هذا عامًا آخر لاستجلاء التمويل المعقد المشارك. بايكال المالية الغامضة والحديثة العهد تلقت سابقًا عرضًا بالمزاد من شركة النفط سورجوتنفتيغاز التي لها علاقات وثيقة ببوتين والكرملين، وقد دفع لها حالما حصلت روزنفت على الأصل المباع بالمزاد، الذي بسعره المنخفض تزيد قيمته عن روزنفت نفسها. روزنفت بدورها وقعت اتفاقًا مع شركة النفط الحكومية الصينية، شركة البترول الوطنية، لتأجيل الدفع النقدي؛ لكونه سلفة للنفط الذي ظلت روزنفت تأخذه من أصول يوكوس المحتجزة[15]. المفارقة أن ميخائيل خودوركوفسكي الذي أيد تطوير الشراكة الإستراتيجية مع الصين، وحتى بناء خط أنابيب للبلاد، انتهى الأمر بحظره من قبل الكرملين الذي بقي حذرًا من القوة الاقتصادية الصاعدة لبكين. واليوم روزنفت بوجود إيجور سيتشين في مجلس إدارتها، حصلت على الأصول المصادرة ليوكوس دون مقابل، سوى التعهد بدفع أرباح تلك الأصول مستقبلًا للصين، وكان الأمر كما سماه أندريه إيلاريونوف: «عملية احتيال هذا العام».

دافع بوتين بكل ثقة عن المزاد بعد أن واجه عاصفة جديدة من الانتقادات الدولية، معتقدًا أن الغضب الأولي على يوكوس سوف يتبدد، ولن يستطيع أحد أن يفعل شيئًا إزاء ذلك. في مؤتمره الصحفي السنوي في ديسمبر/كانون الأول، تهرب من الأسئلة بكل تعجرف، وبمزيد من المراوغات والتلميحات الخجولة. «فيما يتعلق باستحواذ شركة روزنفت على أصول الشركة المعروفة- لا أتذكر اسمها بدقة- هل هي شركة بايكال الاستثمارية؟ أساسًا شركة روزنفت مملوكة للدولة بنسبة 100 في المئة، واشترت أيضًا الأصول المعروفة ليوجانسكينفيتجاز؛ هذه هي القصة. في رأيي كل شيء تم وفقًا لأفضل قواعد السوق. كما قلت سابقًا- أعتقد في مؤتمر صحافي عقد في ألمانيا- إن أي شركة مملوكة للدولة، أو بالأحرى شركات، برأسمال 100 في المئة للدولة، هي تمامًا كأي لاعبين آخرين في السوق؛

لها الحق في أن تفعل ذلك، ولها الحق في ممارسته». وأعرب عن أسفه مرة أخرى لعقد التسعينيات، عندما استخدمت (القلة) كل أنواع الحيل، «وتمكنت من جمع الأصول المملوكة للدولة التي تقدر قيمتها بالمليارات، لكنَّ الأمر اليوم مختلف»، وأضاف: «اليوم تلجأ الدولة إلى آليات السوق الشرعية التي لا غبار عليها، وتتطلع إلى مصالحها الخاصة». التصريح الأخير تناقلته وسائل الإعلام على نطاق واسع، لكن الشيء الأكثر أهمية لم يلاحظه سوى القلائل في ذلك الوقت، وفي النهاية سيظل يطارد بوتين ويكلف روسيا المليارات[16].

استمرت محاكمة ميخائيل خودوركوفسكي خمسة أشهر أخرى، درست خلالها النيابة العامة كثيرًا من السجلات المالية، واستجوبت الشهود، فقد كانت الأدلة لا تكاد تُذكر ومتناقضة، وفي بعض الحالات ملفقة بكل بوضوح، لكن ذلك ليس مهمًّا؛ فالنتيجة كانت حتمية، إذ رفضت المحكمة مرارًا مقترحات الدفاع، ورفضت السماح بمذكرات الاستدعاء، واقتصر الاستجواب عليها فقط.

في 11 أبريل/نيسان وقف خودوركوفسكي أمام المحكمة، وأدلى بشهادة نهائية[17]، تحدث تسعًا وثلاثين دقيقة بكل حماس وتحدٍّ واستقامة، معلنًا براءته. عرَّف نفسه بأنه وطنيٌّ من روسيا، لا يحاكم لجرائم جنائية حقيقية اقترفها، وإنما لكونه «نوعًا خاطئًا من حكم القلة»، وخلافًا «لرجال الأعمال المتواضعين» والمسؤولين الحكوميين الذين يقفون وراء قضية يوكوس، والبيروقراطيين الذين يعيشون حياة غير متكافئة مع رواتبهم الرسمية، قال: «ليس لدي أي يخوت، ولا قصور، ولا سيارات سباق، أو نوادي كرة قدم»، وإن تدمير يوكوس مفتعل «من قبل بعض الناس؛ بهدف امتلاكهم لشركة النفط الأكثر ازدهارًا في روسيا، أو بتعبير أدق: استحواذهم على عائداتها المالية المتدفقة». وأشار إلى أن بوتين خُدع حين اعتقد أن خودوركوفسكي يمثل تهديدًا سياسيًّا، وأن إزالته أصبحت ضرورية لحماية مصالح الدولة. «هؤلاء الناس الذين ينهبون بنشاط أصول يوكوس اليوم، ليس لديهم أي اهتمام بالدولة الروسية ومصالحها؛ هم ببساطة قذرون، وبيروقراطيون، يخدمون أنفسهم فقط لا أي شيء آخر، والبلد بأكمله يعرف لماذا أنا في السجن: حتى لا أتدخل في نهبهم للشركة. وإن

(محكمة التاريخ) سوف تبرئني»، قال وأنهى بشكره وعرفانه لأولئك الذين كانوا يؤيدونه، وخاصة زوجته، التي وقفت إلى جانبه بشجاعة، «مثل زوجة ديسمبرية حقيقية».

بمجرد قراءة الحكم النهائي كاملًا على مدى أسبوعين في مايو/أيار، يبدو أن الإشارة التاريخية أصبحت ملائمة، فقد أدين وحكم عليه بالسجن مع شريكه بلاتون ليبيديف تسع سنوات، ونُفِيا كما نفي من قبلُ الضباط العسكريون الذين ثاروا ضد القيصر نيقولا الأول في عام 1825م، نفيا إلى مستعمرة الجزاء في تشيتا، وهي منطقة على الحدود مع الصين ومنغوليا، على الرغم من أن السجناء- حسب القانون- يجب أن يكونوا مسجونين في المنطقة التي ارتكبوا فيها جرائمهم. وبعد أيام قليلة من وصوله، دفع شركاؤه قيمة إعلان على صفحة كاملة في صحيفة فاينانشال تايمز، فيه رسالة تحدٍّ من خودوركوفسكي، تقول الرسالة: «هم يأملون أن يُنسى خودوركوفسكي قريبًا، هم يحاولون إقناعكم يا أصدقائي أن المعركة قد انتهت، وأن علينا أن نستسلم لهيمنة البيروقراطيين الذين لا يخدمون سوى ذواتهم. هذا ليس صحيحًا، فالمعركة قد بدأت الآن»[18].

استحواذ روزنفت النهائي على يوجانسكينفيتجاز قلب خطة بوتين لإنشاء شركة واحدة عملاقة للطاقة، وخسرت غازبروم التمويل الذي يمكنها من السيطرة على الأصول، وانتابها القلق من الأخطار القانونية لفعل ذلك، وروزنفت- على الرغم من ذلك- ليس لديها أصول مكشوفة خارج روسيا لتكون في خطر إذا انتهكت حكم محكمة تكساس، إنها اليوم عملاق النفط من تلقاء نفسها، وعملت بدأب على البقاء مستقلة، حتى تتجنب الاندماج في شركة غازبروم. وقف بوتين في منتصف الصراع الداخلي على الأصول الأكثر أهمية للدولة، فهو يحرِّض ميدفيديف وميلر في غازبروم ضد إيجور سيتشين وروزنفت. ثم تسرب الصراع إلى الرأي العام بطريقة لا يعرفها إلا قليلون داخل الكرملين، ولم ينته إلا في ربيع عام 2005م، عندما قرر بوتين تسوية تسمح لكل طرف بالاحتفاظ بالسيطرة على شركته الخاصة به.

قد لا يكون تفكيك شركة يوكوس تم وفقًا للخطة بالضبط، لكنه أثبت نجاحًا ملحوظًا، ونجا بوتين من تحذيرات اقتصاديين خارجيين، وحتى داخليين مطلعين، مثل إيلاريونوف، بأن مركزية الكرملين في الأعمال ستضر بمكانة روسيا بوصفها المكان الذي يعوَّل عليه في الأعمال التجارية والاستثمار الأجنبي. وكرر ببساطة أن البلاد رحبت بالاستثمار وشجعته على الرغم من أن أجهزة الدولة توغلت كثيرًا في الاقتصاد.

قضية يوكوس لطخت سمعة روسيا، فقد زرعت بذور عدم الثقة والخوف من أخطار الاستثمار في البلاد، ولكن بعد ثلاث سنوات، وبعد أن بدأ الهجوم، ارتفع سوق الأسهم الروسية بكل الأحوال أكثر من ثلاثة أضعاف، واستمر نمو الاقتصاد بقوة، وارتفع الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 6 أو 7 في المئة سنويًّا في المتوسط. ومع مرور الوقت تراجع الذعر من مصير خودوركوفسكي ويوكوس، وأصبح أكثر خفوتًا، وأثبتت روسيا لعمالقة العالم في مجال الطاقة والمال، بثرواتها المحتملة، بأنها في هذا المجال لا يمكن مقاومتها، وكذلك الأمر لنظراء بوتين في العواصم الأجنبية، الذين على الرغم من استنكارهم العام لحال الديموقراطية أو سيادة القانون، فإنهم لا يستطيعون تجاهل روسيا، ولمَ يعد بوتين يقلق إذا استفسر أحدهم عن أساليب الدولة.

«تطور روسيا السوق بصورة حيوية، مع قدرة استيعابية هائلة»، قال هذا لمجموعة من الأمريكيين ومجموعة أخرى من المديرين التنفيذيين الأجانب داخل غرفة المؤتمرات الرخامية المتألقة في قصر قسطنطين في بطرسبورغ في يونيو/حزيران 2005م، وبعد أقل من شهر من صدور الحكم على خودوركوفسكي. وقال: «أنا واثق أننا نستطيع أن نوفر للمستثمرين، ولكم أنتم أيضًا، ظروف عمل جيدة، وأرباحًا مثيرة للإعجاب»، وبدا بوتين مثل الروسي صاحب البسطة. سانفورد ويل، رئيس مجلس إدارة سيتي جروب، تفهَّم هذا الاجتماع، وكان قد التقاه في وقت سابق، وكان له اجتماع سابق في شهر فبراير/شباط. حضر الاجتماع أحد عشر رئيسًا تنفيذيًّا الأكثر أهمية في الولايات المتحدة، من بينهم كريغ باريت من إنتل، وألين بيلدا من ألكوا، وصموئيل بالميسانو من آي بي إم (IBM)، وجيمس

مولفا من كونوكو فيليبس، وروبيرت مردوخ من نيوز كوربوريشن. ومع أنهم جميعهم كان لهم استثمارات كبرى في روسيا، فإنهم يريدون أكثر من ذلك.

طلب وايل من بوتين توضيح (قواعد التنفيذ) للمستثمرين[19]، وبدلًا من ذلك انتقد بوتين القيود المختلفة التي تفرضها الولايات المتحدة على التجارة مع روسيا، ومن بينها القيود على الصادرات المتعلقة بالفضاء والحاسب والتكنولوجيا العسكرية، والتعديل الذي أقره الكونغرس في عام 1974م ردًّا على القيود التي فرضها الاتحاد السوفييتي على هجرة اليهود إلى إسرائيل، ومع أن روسيا أزالت الحواجز التي تحول دون الهجرة منذ مدة طويلة، فإن الولايات المتحدة في التسعينيات أبقت على العقوبات التجارية المفروضة بحق روسيا منذ ثلاثة عقود، مع أن الرئيس تلو الرئيس تنازل عن تطبيقها، وقال لهم بوتين: «كانت العقوبات مضحكة، إن لم نقل إنها محزنة»، وقد شجع التوسع في التجارة لكنه وضع على كاهل هؤلاء الرجال مهمة تسوية إعادة السلطة إلى الوطن أولًا.

عندما انتهى الاجتماع تجمع المديرون التنفيذيون لتحية بوتين ولالتقاط الصور، وكانوا جميعًا مبتسمين. وفي لحظة ما التفت لوييل إلى روبرت كرافت، رئيس مجموعة كرافت، ومالك نيو إنغلاند باتريوت التي فازت بكرة القدم السوبر بول في فبراير/شباط، وحثّه قائلًا: «لماذا لم تُرِ الرئيس خاتمك؟». لم يكن كرافت يلبسه في الغالب، لكن كان يحمله معه في جيبه، وكان الخاتم مبهرجًا رصِّع بـ 124 قطعة من الألماس، ونُقش عليه اسم **كرافت**، فسلَّمه لبوتين، الذي لم يتردد في وضعه في أصبعه، وقال معجبًا: «يمكن أن أقتل شخصًا من أجل هذا!». وعندما انتهت جلسة التقاط الصور رفع كرافت يده مطالبًا بالخاتم، لكن بوتين دسه في جيبه، وتوجه هو ومساعدوه مغادرًا، إذ افترض- على ما يبدو- أن الخاتم كان هدية. انزعج كرافت من سوء الفهم، فناشد وييل أولًا، ثم ناشد البيت الأبيض لمساعدته على استرجاع الخاتم، ولكن كانت المقالات والصور في وسائل الإعلام قد ظهرت، وخشي المساعد في البيت الأبيض من تزايد التوتر مع الكرملين، فأوضح أنه حرصًا على العلاقات مع روسيا فمن الأفضل أن يقول كرافت إنه قدَّم الخاتم هدية، فقال له كرافت: «أنا لم أقدمه

هديةً في الواقع، وتربطني بالخاتم روابط عاطفية، اسمي محفور عليه، ولا أريد أن أشاهده على موقع eBay»، صمت المساعد للحظة وقال له مكررًا: سيكون حقًّا من مصلحتك أن تقول إنك قدمت الخاتم هدية[20].

اضطر كرافت مجبرًا أن يصرِّح بعد أربعة أيام من الاجتماع أن الخاتم «رمز احترامه وتقديره للشعب الروسي وقيادة الرئيس بوتين». لقد كان ثمنًا لممارسة الأعمال التجارية في روسيا، ولكن سوء الفهم أزعج كرافت لسنوات بعد ذلك. (وقال لزوجته في وقت لاحق، في إشارة إلى الأصول اليهودية لكرافت: «ربما هؤلاء الناس هم الذين اغتَصبوا ونهَبوا آباءه وأجداده، لكن كان على روبرت أن يجعل له معنى جيدًا») [21]. نقش كرافت خاتمًا آخر، والخاتم الأصلي ذهب إلى مكتبة الكرملين، حيث تحفظ هناك الهدايا المقدمة للرئيس.

لم تكن قضية يوكوس- كما يخشى بعضهم- تبشر بإعادة تأميم جميع الصناعات الروسية التي خصخصت من قريب، وخصوصًا تلك التي تستغل الموارد الطبيعية في روسيا، لكنها كانت نقطة تحول ونموذجًا للزحف المطرد للدولة على الصناعات المهمة في البلاد. وقد حدد بوتين هوية عشرات من المؤسسات التي- بموجب القانون- لا يمكن أن تكون في أيدي القطاع الخاص، ومن ثم بدأ الإشراف على إنشاء الشركات العملاقة التابعة للدولة التي تعزز قطاعات كاملة، وتقود من ثَم اقتصاد البلاد، ووضع القائمين عليها من الرجال الذين أحضرهم معه من بطرسبورغ، وكثير منهم استمر في تولي مناصب وزارية في حكومته في أثناء توليهم مسؤولياتهم في الشركات، وقد مكنتهم مواقعهم المشتركة من الحصول على التدفقات النقدية وإتاحة الفرصة للرعاية.

فبالإضافة إلى إيجور سيتشين في روزنفت، التي أصبحت فجأة ثاني أكبر منتج للنفط في روسيا، ثم خلال عام واحد أصبحت هي الكُبرى؛ ثم سيرجي إيفانوف وزير الدفاع الذي تولى منصب رئيس مجلس إدارة شركة الطائرات المتحدة، التي أنشئت لتعزيز الشركات المصنعة للطائرات المدنية والعسكرية؛ أصبح فلاديمير ياكونين رئيس السكك الحديدية

الروسية، وأحيانًا يسمى الاحتكار الطبيعي الثالث في البلاد بعد النفط والغاز؛ وتولى سيرجي شيميزوف، الذي عرف بوتين منذ أن عملا معًا في دريسدن، شركة تصنيع السلاح الموحد روسوبورون إكسبورت. ووفقًا لأحد التقديرات فبحلول عام 2006م شكلت إيرادات الشركات التابعة للدولة نحو خُمس الناتج المحلي الإجمالي في البلاد، وثُلث قيمة أسواق أسهمها التي يسيطر عليها أصدقاء بوتين وحلفاؤه[22].

ظلت شركة غازبروم أقوى من كل البقية؛ ولم يكن لا ديمتري ميدفيديف، رئيس مجلس إدارتها، ولا أليكسي ميلر، رئيسها التنفيذي، قد عُيِّنا لخبرة معينة أو خبرة في إدارة الغاز الطبيعي، بل كان اختيارهما كليهما بناء على ولائهما، ومن خلالهما أمسك بوتين بمقاليد غازبروم، مقحمًا نفسه في تفاصيل موازنات الشركة، والتسعير، وخطوط الأنابيب، وحتى الموظفين الذين صادق على تعيينهم (وصولًا إلى مستوى نائب)، وفي بعض الأحيان دون أن يخبر ميلر بالتعيينات المهمة[23]. وأصبح هذا ديدن بوتين، حتى إن كثيرين كانوا يسألون عن استعداد بوتين لتولي الشركة بعد انتهاء ولايته الرئاسية، وقد أجاب بوتين- في يناير/كانون الثاني عام 2006م عندما سأله أحد الصحفيين السؤال مباشرة-: «شكرًا لكم على عرض الوظيفة، على كل حال ليس من المرجح أن أتسلم رئاسة أعمال تجارية، فأنا لست رجل أعمال، لا بشخصيتي ولا بتجربتي الحياتية السابقة».

قد تكون غازبروم فقدت المناورات الداخلية للاستيلاء على الأصول الرئيسة ليوكوس، لكن استمرت في سعيها إلى التوسع، وفعلت ذلك بتكتيكات أكثر تخفيًا من تلك التي انتزعت بها ملكية يوكوس. رومان أبراموفيتش لكونه تخلى عن اندماج سيبنفت مع يوكوس في عام 2003م بعد لقائه ببوتين (في حين احتفظ بثلاثة مليارات دولار دفعها له خودوركوفسكي) وجد شركته أيضًا تواجه مطالبات ضريبية جديدة، ولما وجد أنه مطالب بفاتورة تقدر بمليار دولار، فاوض بهدوء للتوصل إلى تسوية في عام 2005م بقيمة 300 مليون دولار[24]، وسعى على الفور إلى بيع حصة يسيطر عليها من الشركة. وفكر في عروض شركة شيفرون تكساكو،

وشركة شل، وتوتال، لكنه كان أذكى من خودوركوفسكي، أو على الأقل أقل ميلًا للمواجهة، واستطاع أن يقرأ الرسالة من عنوانها[25].

في يوليو/تموز 2005م دفعت سيبنفت أرباحًا هائلة لمساهميها بمقدار 2.290 مليار دولار، أكثر من أرباحها الكلية لعامين سابقين، وهذا يدل على أن أبراموفيتش يريد سحب الأموال، ويجهز الشركة للبيع. وبعد ذلك بيومين، في اجتماع مجموعة الثماني (G8) في أسكتلندا، أكد بوتين التكهنات، وأقرَّ بأن غازبروم أنسب، وأصر على أنها مسألة خاصة بين الشركات، ولكنه كشف أيضًا أنه شارك شخصيًّا في مناقشات مع أبراموفيتش. لم تكن غازبروم تملك السيولة النقدية لتنال سيبنفت، لكن بوتين أعلن أن الحكومة ستشتري ما يكفي من أسهم غازبروم لمنح الدولة سيطرة الأغلبية، وذلك باستخدام الأموال من خزينة الدولة. استخدمت غازبروم ضخ النقد اللازم لشراء سيبنفت بنحو 13 مليار دولار، وهو سعر مبالغ فيه، أثار تكهنات حول الرشا والمتورطين فيها[26]. واتصل السفير الأمريكي في ذلك الوقت، ويليام بيرنز، بوزارة الخارجية ليبلغها أن (الرُّبع فقط) ذهب إلى أبراموفيتش نفسه[27]، وحصل كثيرون على أسهم فيها أيضًا.

مع حلول الولاية الرئاسية الثانية لبوتين برزت شركة غازبروم، الشركة القوية، لتصبح الشركة العملاقة للطاقة التي كان يحلم بها، وأصبحت واحدة من أكبر الشركات في العالم من حيث القيمة السوقية، وتجاوزت شركات مثل تويوتا، وول مارت، وسيتي جروب سانفورد ويل. لم تكن الشركة الأكثر كفاءة أو الأفضل إدارة، ولكن بوتين جعلها من أقوى الأعمال في البلاد، والذراع القوية للسياسة الخارجية للبلاد من آسيا إلى أوروبا.

نسق بوتين مع المستشار جيرهارد شرودر، وهو الزعيم والصديق الذي كان يصفه يومًا بأنه «الديموقراطي بلا عيوب»، لمد خط أنابيب الغاز الطبيعي الأطول تحت الماء في العالم، يربط محطات في روسيا بتلك الموجودة في ألمانيا، ومن شأن هذا المشروع، المعروف بنورد ستريم، تجاوز شبكة الأنابيب السوفييتية القديمة المارة بأوكرانيا، وروسيا البيضاء، وبولندا،

وأعطى نفوذًا للكرملين في المفاوضات بشأن رسوم العبور في تلك البلدان، وزاد من اعتماد أوروبا على روسيا، وكان مثيرًا للجدل للغاية. وزير الدفاع البولندي أطلق عليه نسخة الطاقة لمعاهدة مولوتوف-ريبنتروب[28]، في حين حذر خبراء البيئة من الضرر المحتمل لخطوط أنابيب ممتدة على طول قاع بحر البلطيق الذي تناثرت عليه الذخائر من الحربين العالميتين.

عندما أطيح بشرودر من منصبه في انتخابات ذلك العام، عيَّنه بوتين رئيس لجنة المساهمين في الشركة الفرعية الجديدة التي ستؤسس نورد ستريم، بعد أيام فقط من مباركة الألمان للمشروع بضمان قروض سرية بقيمة مليار يورو، تملك شركة غازبروم منها حصة مسيطرة، مع اثنتين من كبرى شركات الطاقة في ألمانيا؛ باسف BASF، وشركة E.On، وكان بوتين في وضع يمكنه الاستغناء عن المنح. المدير الإداري لمشروع خط الأنابيب عُيِّن بمباركته، وكان صديقًا قديمًا له من أيام ستاسي، وهو ماتياس وارنيغ. بعد أسبوع من التعاقد مع شرودر، استدعى بوتين دونالد إيفانز، وهو رجل نفط مقرب من الرئيس بوش، شغل منصب وزير التجارة خلال ولاية بوش الأولى، في لقاء غير متوقع في الكرملين، قدم له موقعًا مماثلًا في روزنفت، على أمل أن يمنح شرعية دولية للشركة الموجودة اليوم على بقايا سرقة شركة يوكوس[29]، لكن إيفانز توفي. وقد توصل بوتين إلى قناعة أن المال في نهاية المطاف هو الذي يسيِّر الرجال والسياسة، وفي أوروبا خاصة برهن كثيرون أنه كان على صواب.

على الرغم من تنصله من أي فطنة تجارية، تدخل بوتين في تفاصيل أكبر الصفقات في البلاد، وتفاوض بنفسه، وتوسط في النزاعات. وفي يوليو/تموز 2005م، اعترفت شركة رويال داتش شل بالتكلفة الهائلة لمشروع النفط والغاز في جزيرة سخالين في الشرق الأقصى؛ نتاج أول اتفاقية لتقاسم الإنتاج في البلاد التي وقعت في التسعينيات، بعد أسبوع فقط من توقيع مذكرة تفاهم مع شركة غازبروم لتضمين الشركة العملاقة في المشروع. وخلال زيارة رسمية إلى هولندا، في نوفمبر/تشرين الثاني، وبَّخ بوتين علنًا الرئيس التنفيذي للشركة، يروين فان دير فير، في اجتماع مع رجال أعمال في منزل عمدة أمستردام[30]، فالتمس فان دير فير من بوتين تحديد موعد يلتقيان فيه على انفراد، والتقى الاثنان عشرين دقيقة يتناقشان

باللغة الألمانية سبب تضخم مشروع عشرة مليارات دولار ليصبح 20 مليارًا، مؤخرًا بذلك كثيرًا أي أرباح يمكن أن تتسلمها الحكومة الروسية. حاول فان دير فير أن يشرح أن هذا المشروع الضخم الذي يتضمن أرصفة بحرية، ومئات الكيلومترات من خطوط الأنابيب، يتطلب خبرات وتقنيات لإنتاج الغاز المُسال الطبيعي الذي لا تمتلكه لا غازبروم ولا أي شركات روسية أخرى، وأضاف أن المشروع لا يزال مربحًا على الرغم من ارتفاع التكلفة، لكن بوتين طلب إعادة التفاوض على الاتفاق مع شركة غازبروم. عندما امتدت المحادثات على مدى أشهر، أطلق الكرملين العنان لوزير الوكالة الدولية للطاقة البيئية والموارد الطبيعية، أوليغ ميتفول، الذي شنَّ هجومًا إعلاميًّا واسعًا على مشروع يترتب عليه أضرار بيئية. وقد كانت التأثيرات البيئية في سخالين، ومصابِّ الأنهار، وسمك السلمون، والتربة الخصبة، والحيتان الرمادية في بحر أوخوتسك، صحيحة بالتأكيد، لكن الحفاظ على الحياة البرية لم يكن له مثل هذه الأولوية من قبل. وهدد ميتفول بفتح دعوى جنائية لكل شجرة تقطع، وهذا سينتج عنه تقديرات غريبة بحيث تدفع شركة شل 50 مليار دولار من الغرامات والرسوم[31].

شركة شل، التي تمتلك المشروع مع ميتسو آند كومباني وشركة ميتسوبيشي في اليابان، استوعبت التلميح، فلم تذعن لاتفاق جديد فحسب، بل باعت أيضًا الحصة المسيطرة من المشروع بأكمله لغازبروم بمبلغ 7.45 مليارات دولار، وهو السعر الأقل بكثير من سعر السوق. بإصرار بوتين[32] ترتب على فان دير فير العودة إلى الكرملين مع المديرين التنفيذيين لميتسو وميتسوبيشي للتحقق من صحة الاتفاق أمام الكاميرات، في حفل يهدف إلى إظهار أن سلطة بوتين تتجاوز المسؤولين ورجال الأعمال الروس. قال بوتين للمجتمعين في قاعة المؤتمرات بالقرب من مكتبه: «كل الشركات الكبرى في العالم تستفيد من عملها في روسيا»، أما عن الأضرار البيئية الكبيرة، فقد قال بوتين: «إنها شبه محسومة من حيث المبدأ»[33]. وبذلك فقَدَ المسؤولون التنفيذيون الأجانب السيطرة على المشروع، لكنهم حافظوا على احتياطيات النفط والغاز في سجلاتهم، والملايين من الأرباح الخاصة بشركاتهم، وهكذا هلل الواحد تلو

الآخر بشركة غازبروم، المالك الجديد للمشروع، وشكروا بوتين على جهوده لدعم الشراكة الدولية، كما فعل كرافت.

كلٌّ اكتساب جديد كان يعزز الجرأة عند بوتين؛ وفي نهاية عام 2005م رفعت غازبروم سعر الغاز الطبيعي المخفض الذي تعطيه أوكرانيا، من 50 دولارًا لكل 1000 متر مكعب، إلى 230 دولارًا، وذلك توافقًا مع أسعاره في بقية أوروبا، وكانت الزيادة عقابًا تلميحيًّا لتقرب يوشينكو من الغرب بعد توليه السلطة. كان بوتين قد تفاوض على تخفيض الأسعار قبل الانتخابات، أملًا في تعزيز فرص يانوكوفيتش، ولكن اليوم مع قرب تجديد العقد، وتوجيه يوشينكو البلاد نحو أوروبا، يريد بوتين أن يجعل أوكرانيا تدفع أكثر، ومع أنه أصَّر على أن الرفع لا يرتبط بالسياسة وإنما بالتجارة فقط، فإنه بدا حاقدًا، ومما قاله عن احتضان أوكرانيا للغرب: «لماذا علينا أن ندفع ثمن ذلك؟».

عشية رأس السنة الجديدة عرض بوتين مهلة ثلاثة أشهر، وقرضًا لمساعدة أوكرانيا على التغلب على ذلك، لكن عندما رفضت أغلقت شركة غازبروم الغاز في يوم رأس السنة الميلادية، وبمباركة من بوتين، كان ذلك تكتيكًا قاسيًا نجم عنه آثار عكسية. ولأن غالبية غاز روسيا الطبيعي يمر إلى أوروبا متدفقًا بخطوط الأنابيب عابرًا أوكرانيا، تردد صدى القرار مترقرقًا في جميع أنحاء القارة في ذروة فصل الشتاء، وبدلًا من السماح لبقية الغاز الروسي بمواصلة تدفقه إلى أوروبا، اختلست أوكرانيا ما تحتاجه منه، وهو ما سبب خللًا في الضغط في كل من النمسا، وفرنسا، وإيطاليا، ومولدوفا، وبولندا، ورومانيا، وسلوفاكيا، والمجر.

كان ذلك في مصحلة روسيا ظاهريًّا، لكن تكتيكات بوتين هذه هزت حتى أولئك الذين أكدوا أن روسيا تستحق الاحترام، وقوضت إستراتيجيته الخاصة أيضًا بأن روسيا ستكون مصدر الطاقة لأوروبا التي يعتمد عليها ولا غنى عنها.

كان يجب على بوتين التراجع؛ فقدم تسوية ترفع أسعار الغاز عمومًا، ولكنه وضع شركة روس أوكر إنيرجو وسيطًا، وهي شركة تجارية غامضة، أنشأها مع ليونيد كوتشما في الأشهر

التي سبقت الثورة البرتقالية، وتمتلك غازبروم نصفها؛ أما أصحابها الآخرون فظلوا سريين، ومن بينهم ديمتري فيرتاش، وهو رجل الأعمال الأوكراني الذي اعترف بعلاقاته مع أحد الزعماء الغوغائيين الأكثر شهرة في العالم؛ سيميون موجيليفتش[34]. موجيليفتش الذي كان على قائمة المطلوبين العشرة لمكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) بسبب قضية احتيال، أجرى اتصالات مطولة مع حكومة أوكرانيا، ومع يوشينكو أيضًا، وقيل إنه كان يعرف بوتين في التسعينيات. ووفقًا لأحد التسجيلات المسجلة من كوتشما، عاش في موسكو بهوية مزورة وبحماية بوتين، مقابل تجنيده عميلًا للاستخبارات الروسية[35]. الاتفاق أعطى غازبروم سيطرة أكبر على إمدادات الغاز لأوكرانيا، التي ستكون نقطة خلاف في المقام الأول، وهذا يضمن سيطرة روسيا على بلاد عازمة على الابتعاد عنها.

أثارت شروط الصفقة، والعلاقات العكرة بين شركة الوسيط ويوشينكو وحلفائه، ضجة سياسية في أوكرانيا استغلها بوتين بسهولة، وردًّا على سؤال، أشار إلى أن الزعيم الأوكراني هو وراء المالكين الغامضين لشركة روس أوكر إنيرجو؛ قال: «اسأل فيكتور يوشينكو. أنا لا أعرف أي شيء أكثر مما تعرفونه، وغازبروم لا تعرف أيضًا، صدقوني»، وهكذا حصل بوتين على كعكته، ويأكل منها أيضًا. حصلت شركة غازبروم على نصف أرباح بيعها أوكرانيا الغاز الطبيعي، في حين أن يوشينكو تلاحقه الآثار المترتبة على علاقات فساد بصفقة مثيرة للجدل أدت إلى تقسيم التحالف الذي قاد الثورة البرتقالية.

عقدت في أوكرانيا الانتخابات البرلمانية في مارس/آذار 2006م، فثارت يوليا تيموشينكو- (أميرة الغاز) التي كان لها تجربتها الشخصية مع تجارة الطاقة في أوكرانيا- ضد الاتفاق وضد الرئيس الذي ساعدته على الفوز بمكتبه، ونتيجة لذلك كان أداء حزب يوشينكو أداء سيئًا، اضطره إلى البحث عن تحالف جديد ومع رجل ذاق طعم الهزيمة، فيكتور يانوكوفيتش، الذي عاد اليوم إلى العمل السياسي[36].

أصبح من غير الواضح أين تتباين شؤون الدولة عن الأعمال؛ إذ إن الناس بدؤوا يسمون الحكومة في روسيا بشركة الكرملين، وبوتين بالرئيس التنفيذي لها CEO؛ فهو لم يرأس فقط غازبروم، وإنما كل (الشركات الوطنية العملاقة) في الوطن، ومنح الامتيازات التي تشمل الحماية من مفتشي الضرائب الذين كانت تطلق أيديهم في كثير من الأحيان ضد الشركات الأخرى، الصغيرة والكبيرة، وكان يضغط من أجل مصالحهم في الخارج بحماس يصعب التصور أن يصدر من يلتسين في التسعينيات[37]. وفي عام 2005م أصبحت سيطرته على احتكارات الدولة واضحة، تزامنًا مع القضاء على آخر الحواجز السياسية ضد سلطته في البرلمان أو القضاء. وبذلك أصبح اليوم بوتين، الذي تعهد بالقضاء على القلة الطائشة لكونها (امتيازًا)، راعي الجزء المتنامي من الاقتصاد الروسي؛ قد لا يملي كل صفقة تجارية في كل أنحاء روسيا، لكن تتطلب الصفقات الكبرى على الأقل موافقة ضمنية من الكرملين. القلة التي كانت في التسعينيات والتي عاشت المرحلة الانتقالية وصولًا إلى عهد بوتين، أظهرت الخنوع مع أعمال الولاء والمحبة، كما هو الحال عندما اشترى فيكتور فيكسلبرج وأعاد تسعًا من بيض فابرجيه الشهيرة، أو أجراس دير دانيلوف التي ظلت ترن قرنًا تقريبًا في جامعة هارفارد في هاوس لويل.

من المؤكد أن هناك غيرها من الأعمال التي لا يعرفها سوى قليلين؛ من تبادل هادئ للهدايا والأعطيات للحفاظ على ثرواتهم، الذي يفترض أن يبقى سريًّا، يتسرب في نهاية المطاف ويعطي لمحة نادرة كيف تحقق الثروات من وراء الأستار.

في عام 2000م، عقد نيكولاي شمالوف، أحد زملاء بوتين في التعاونية الريفية أوزيرو في بحيرة كوموسومولسكوي، صفقة مع أصحاب شركة إمدادات طبية صغيرة، ساعدت لجنةُ بوتين في بطرسبورغ على إنشائها في عام 1992م، وكان يطلق عليها بتروميد، وعلى الرغم من أن مدينة بطرسبورغ باعت معظم أسهمها، فقد ازدهرت الشركة، إذ رتب شمالوف مع أصحابها قبول تبرعات من القلة الذين كانوا (يتزلفون) لتقديم المساعدة للرئيس الجديد.

فقد تعهد رومان أبراموفيتش بـ203 ملايين دولار على سبيل المثال، في حين عرض أليكسي مورداشوف، مالك تكتل الحديد والتعدين سيفرستال، 15 مليون دولار، وقد استخدمت التبرعات لشراء معدات طبية، لكن سيصب جزء من الإيرادات في حسابات مصرفية في الخارج تستخدم لاحقًا لكسب أصول أخرى في روسيا، من ضمنها الأسهم المزعومة في مصرف (روسيا).

بدأت الترتيبات صغيرة نسبيًّا وبمنتهى السرية، لكن بحلول عام 2005م، قال شمالوف إن أصحاب بتروميد جنَوا تبرعات تقدَّر في ذلك الوقت بما يقرب من نصف مليار دولار تضخ من حسابات خارجية في شركة استثمارية جديدة في روسيا، تدعى روزنفيست. وأصبح الاستثمار الرئيس بناء منزل فخم على ساحل البحر الأسود بالقرب من سوتشي، حيث كان الحكام السوفييت يقضون إجازاتهم مترفين، وسبق أن كان لدى بوتين منتجع رئاسي فيه. والبيت سيكون قصرًا (مناسبًا لقيصر)، بتكلفة تقدر بمليار دولار[38].

لم يكن شيء من هذا معلنًا للشعب في ذلك الوقت، لكنه كان معروفًا لدى قليل من رجال الأعمال والمسؤولين الحكوميين، الذين كان لديهم من الحصافة، أو الفساد، ما يكفي للتكتم على يحدث. وهكذا فقد نشأت في روسيا تلك العلاقة الغامضة التي تلتقي فيها الدولة بالعمل التجاري، حيث ستظهر طبقة جديدة من القلة من المحيط الغامض للاقتصاد؛ ومن ماضي بوتين.

يوري كوفالتشوك، الفيزيائي الذي عمل معه بوتين في بعض تجارب الرأسمالية المبكرة في بطرسبورغ، واصل تشغيل مصرف (روسيا)، وهي مؤسسة أنشئت في العهد السوفييتي، وكانت في الجزء الأول من هذا العقد لا تزال أكبر قليلًا من المؤسسات المحلية الصغيرة، تتعامل مع أصول مساهميها دون أي تأثير ملحوظ في النهضة الاقتصادية التي تلت صعود بوتين إلى السلطة. المصرف- مع ذلك- وحَّد كوكبة من الرجال كان بوتين قد صادقهم في

التسعينيات، وبقوا مقربين منه حتى بعد أن قفزت به حظوظه السياسية أعلى بكثير مما كان متوقعًا، ومن بينهم شركاؤه في الريفي التعاوني.

وكما هو حال ثرواتهم نمت الجمعية التعاونية مع صعود بوتين وتوسعت على حساب الجوار، بزعم تعزيز التدابير الأمنية اللازمة، وقد واجه أصحابها تحديات قانونية من الجوار الذين اشتكوا من أن طريق وصولهم إلى البحيرة قد صودر، واشتكت إحداهن من أن رئيس الجمعية، فلاديمير سميرنوف، الذي عيَّنه بوتين رئيسًا لوكالة التصدير النووية، قد أعاق دخولها عندما حاولت أن تمارس حقها في استخدام الطريق المؤدي إلى الشاطئ من خلال عبورها السياج[39]، ومع أنه أشيع قبل نهاية ولايته الأولى أن بوتين باع حصته، لكن لديه خطط أكثر طموحًا من فضاء شخصي خاص به.

بعض مالكي (الريفي)، مثل سميرنوف، تبعوا بوتين إلى موسكو لتولي مناصب عامة في الحكومة، فأصبح أندريه فورسينكو نائب وزير، ثم وزيرًا للصناعة والعلوم والتكنولوجيا، وأخيرًا، في عام 2004م، أصبح وزير التعليم والعلوم، وتولى فلاديمير ياكونين السكك الحديدية الروسية في عام 2005م. آخرون، من بينهم كوفالتشوك ونيكولاي شمالوف، الذي عمل مديرًا في روسيا لمصنع سيمنز الألماني، ولم يتسلم مزيدًا من المناصب، فَقَدَ مصرفهم امتيازات الدخول إلى خزائن الحكومة بعد هزيمة سوبتشاك في وظيفة محافظ منذ ما يقرب من عقد، ولكن مع دخول بوتين بدت الأشياء أكثر إشراقًا.

في ولاية بوتين الرئاسية الأولى ظل أشخاص كثر، مثل كوفالتشوك وشمالوف مع جينادي تيمتشينكو، غير معروفين إلا نادرًا، حتى إن ميخائيل كاسيانوف، أول رئيس وزراء لبوتين، لا يتذكر أنه سمع قط باسم المصرف أو مالكيه في الصفقات الحكومية التي أشرف عليها[40]. وقد ظهر اسم كوفالتشوك حين تواصل مع بوتين فقط في عام 2004م- وعلى سبيل المصادفة في الشهر ذاته الذي أقيل به كاسيانوف- حين نشر المنافس الرئاسي، إيفان رايبكن، إعلانًا في صحيفة كوميرسانت متهمًا بوتين أنه كان شريكًا تجاريًّا مع كوفالتشوك

ومع تيمتشينكو ورومان أبراموفيتش أيضًا، ولكن اختفاء رايبكن الغريب لاحقًا عتَّم على مزاعمه، ولم يكن هؤلاء الأشخاص موضع اهتمام أحد، لأنهم كانوا- بمقياس الشركات الكبرى في روسيا- غرباء ولاعبين صغارًا من المحافظات. أعلن المصرف أرباحًا ضئيلة في العام الذي وصل فيه بوتين إلى السلطة، ولكن- مثل كثير من الأمور في روسيا بوتين- من شأن ذلك أن يتغير قريبًا.

تولى كوفالتشوك منصب رئيس مجلس إدارة مصرف (روسيا) في عام 2004م بعد أحد رجالات القلة الكبار في البلاد، ألكسي مورداشوف من سيفرستال، الذي أودع 19 مليون دولار في المصرف، وأخذ لقاء ذلك 8.8 في المئة من أسهم المصرف، وهذا المبلغ كان يعادل في ذلك الوقت رأسمال المصرف بأكمله[41]. رأى كثيرون أن مورداشوف كان يحاول شراء تأييد بوتين في خضم صراعه مع منافسين تجاريين، فقد تبرع بالأموال لبتروميد لشراء تجهيزات طبية للمستشفى. ومع تنامي موارده اشترى المصرفُ بكل هدوء ما يقرب من نصف الذراع التأميني (سوغاز) لغازبروم، من خلال سوق الأوراق المالية في يوليو/تموز 2004م. إجمالي المبيعات كان 58 مليون دولار، وهو المبلغ الذي قيل إنه أقل من قيمته، وهي أول عملية بيع لشركة غازبروم لأحد أصولها غير الأساسية. وكان مسؤولون ومحللون يساجلون منذ مدة طويلة أن الشركة يجب أن تبيعها، لكن هذا البيع يبدو محيرًا، خصوصًا عندما كانت المزادات مغلقة وظل المشترون وراء الأستار.

تدخل بوتين مباشرة في الصفقة، وأمر أن تحوَّل الأسهم إلى مصرف (روسيا)؛ «بوتين أمر أن تحوَّل إلى مصرف (روسيا)، هذا كل شيء»، هذا ما قاله لاحقًا نائب وزير سابق في ولاية بوتين الأولى، فلاديمير ميلوف. وبدا الارتباك أو الصدمة على الليبراليين في حكومته، أو اختلط عليهم الأمر[42]، حيث إن دور مصرف روسيا في الشراء لم يُعلن حتى يناير/كانون الثاني 2005م، وهو يسيطر اليوم على سوغاز من خلال عدة شركات وهمية، من ضمنها الشركة التي أنشئت في بطرسبورغ عام 2002م وتدعى (أكسيبت)، التي كان يملكها ميخائيل

شيلوموف حفيد خال بوتين، إيفان شيلوموف الذي ساعد على إجلاء أم بوتين في أثناء الغزو النازي.

لأولئك الذين يعرفون، كان المصرف في موقع متميِّز يسمو بعلاقاته إلى الأعلى، واليوم بدأت الأعمال تتدفق ببساطة على المصرف، وسرعان ما أصبحت سوغاز الخيار التأميني المفضل للشركات الحكومية الكبرى مثل السكك الحديدية الروسية التي كان يرأسها ياكونين، وروزنفت ويسيطر عليها حاليًّا إيجور سيتشين، وهذا بدوره غذى التوسع الهائل مع اكتساب مصرف روسيا- على نحو هادئ- مزيدًا من أصول غازبروم، ومن بينها فرعها المصرفي، ومن ثم مقتنياتها الإعلامية. بدأ توسع المصرف كما لو أنه عملية اختلاس نفذت بصبر وسرية تامة، فبنية الملكية فيه محجوبة عن طبقات الشركات الخارجية المكدسة كما دمى تعشيش ماتريوشكا المخبأة، حتى إن بعضهم يشتبه بوجود حصص شخصية فيها لبوتين.

في بداية ولايته الأولى تحرَّك بوتين ببطء ليوقف الاقتصاد الروسي على قدميه، مستفيدًا جدًّا من الارتفاع غير المتوقع في أسعار النفط (والذي أثر في سعر الغاز الطبيعي)، لكن ولايته الثانية مثَّلت التحول الأهم، إذ تزامنت مع رحيل بعض مستشاريه الليبراليين، وتوطيد سيطرة الكرملين على فروع الحكومة، وعلى وسائل الإعلام والأعمال. واليوم، ومع قدرة البلد على الإيفاء بجميع التزاماته، بدأ يوزِّع العائدات على الجيل الجديد من رجال الأعمال المنتظرين، أولئك الذين لم يكن لديهم أي امتيازات في المسار الداخلي لجمع الثروات في التسعينيات، ولم يكن أي منهم مليارديرًا آنذاك يتفاخر بتكديس ثرواته. كانوا جيلًا جديدًا من القلة صُنِّعوا على طراز بوتين: العنيد، وغير المتحيِّز، والسِّري، مخلصون جدًّا للرجل الذي أخرجهم من الغموض النسبي؛ أولئك الذين لم ينضموا إلى بوتين في صفوف الحكومة، وسرعان ما تبعوه في مجال الأعمال.

بعد أن حصلت روزنفت على حصة الأسد من شركة يوكوس، تحولت عقود الاتجار بمعظم نفطها إلى جينادي تيمتشينكو، التاجر الذي تعامل مع بوتين أول مرة في التسعينيات. وعندما

تعلم أركادي روتنبرغ وشقيقه بوريس الجودو مع بوتين، عندما كانوا مراهقين في الستينيات، شكلوا نادي الجودو في بطرسبورغ في عام 1998م، وأسموه (ياوارا نيفا)، وقدم تيمتشينكو الرعاية له، وأصبح بوتين رئيسه الفخري. أنشأ نادي الجودو (judocracy) الذي كان له تأثير في حياة بوتين السياسية بقدر ما أثر فيه عمله في الـ(كي جي بي). أما فاسيلي شيستاكوف، لاعب الجودو أيضًا، ومؤسس النادي الذي تعهد بتوظيف بوتين مدربًا عام 1996م، فدخل السياسة، ونشر الكتب وأشرطة الفيديو عن هذه الرياضة، وشارك بوتين- ظاهريًا- في تأليف أحدها.

عشية تنصيبه عام 2000م أسس بوتين شركة حكومية لتعزيز العشرات من مقطرات الفودكا التي لا تزال الحكومة تمتلك الحصة الضامنة فيها، ثم التفت إلى نادي الجودو للسيطرة عليه، ووضع أركادي روتنبرغ مسؤولًا عما كان يسمى (روسبيريتبروم). في بلد متعطش للمواد المسكرة، تنامت الشركة وأصبحت تتعامل بملايين الدولارات، وسيطرت على نصف سوق الكحول في البلاد تقريبًا، مستفيدة من اللوائح الحكومية الجديدة، والغارات على منافسيها من القطاع الخاص[43]، وقد استغل روتنبرغ وشقيقه بوريس أرباح المشروب القومي الروسي في المصرف الخاص بهم، بنك SMP، الذي بدأ يستثمر بعد ذلك في بناء خط أنابيب من نفس النوع بالضبط الذي فاوض عليه بوتين مع جيرهارد شرودر.

على عكس مخطط الإثراء السريع الناتج عن عمليات الخصخصة في التسعينيات، تراكمت الأصول لدى أصدقاء بوتين على نحو بطيء وتدريجي، ولم تظهر أهميتها إلا في وقت لاحق. وكان بوتين قد مكَّن دائرة أصدقائه للارتقاء باقتصاد البلاد، وتمكن من إثرائهم مع ضمان سيطرتهم على قطاعات الاقتصاد، بدءًا من الموارد الطبيعية، وصولًا إلى وسائل الإعلام، وهو ما عدَّه حيويًا لأمن البلاد. «لم يأخذ أولاد سان بطرسبورغ إلى العمل لسواد عيونهم، لكنه يثق بالناس المجَرَّبين والصادقين»، هذا ما قاله أول مدرب لبوتين في الجودو، أناتولي راخلين، لصحيفة إزفستيا في عام 2007م.

في 26 ديسمبر/كانون الأول 2005م، جمع بوتين مستشاريه لعقد اجتماع خاص داخل الكرملين لمناقشة أشياء من بينها كيفية تقسيم عائدات النمو الاستثنائي لشركة روزنفت. وحول الطاولة البيضاوية الطويلة جلس الرجال الذين لازموه منذ أن كان في بطرسبورغ: ألكسندر ميدفيديف، وأليكسي كودرين، وجيرمان جريف، وإيجور سيتشين، وكان اجتماعًا غير عادي؛ أصغر من اجتماع لمجلس الوزراء، لكن أكبر من اجتماعات منتظمة مخصصة لمناقشة مسائل اقتصادية. أندريه إيلاريونوف، الذي خُفِّض منصبه ذات مرة، كان حاضرًا أيضًا، لكن لم يكن يشعر بالارتياح كثيرًا بسبب التوجهات السياسية الاقتصادية للكرملين. إيلاريونوف الذي أصبح خبيرًا اقتصاديًّا، كان المستشار المشاكس ذا الأعصاب الحديدية، وعمل مستشارًا لجميع الحكومات الروسية منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. كانت أفكاره ليبرالية، وكان من دعاة السوق المفتوحة، ولم يخجل يومًا من إبداء رأيه. التقى أول مرة بوتين في فبراير/شباط 2000م، وكان بوتين وقتها رئيسًا، وفي أثناء اللقاء قدم أحد المساعدين مذكرة يبلغ بها بوتين أن القوات الروسية في الشيشان استولت على بلدة شاتوي، والمعقل الأخير لا يزال يستولي عليه المتمردون، فكان فائرًا، وعندما ردَّ إيلاريونوف قائلًا له إن الحرب غير مشروعة ومدمرة لروسيا، تجادلا ساعة إلى أن أسكته بوتين ببرودة شديدة. منذ ذلك الوقت أعلن بوتين أنه لن يناقش مرة أخرى مسألة الشيشان، وسيكتفي بالمسائل الاقتصادية فقط[44].

في الولاية الرئاسية الأولى لبوتين شعر إيلاريونوف أن المسار الاقتصادي الذي اتخذته البلاد كان مسوغًا، وأعرب عن تأييده لقرارات بوتين بتبني الضريبة الثابتة 13%، وسداد ديون البلاد، وإنشاء صندوق الاحتياطيات الثابت، الذي تضخم على نحو غير متوقع. لكن قضية يوكوس أشارت إلى شيء مختلف، وقال فيها كلامًا كثيرًا، وشعر اليوم أن بوتين لم يعد يأخذ بنصيحته؛ ففي البداية خفَّض رتبته، ثم قلَّص باطراد عدد موظفيه في الكرملين. قال إيلاريونوف في مقابلة مع صحيفة المعارضة الروسية نيو تايمز إن بوتين قد قسَّم من حوله إلى مجموعات متميزة؛ واحدة أسماها (مجموعة الاقتصاد)، تضم جميع مستشاريه

المهتمين بالشأن الاقتصادي؛ والمجموعة الأخرى هي مجموعة (رجال الأعمال)، التي أُستبعد منها المستشارون الرسميون عمومًا، وقال: كان بوتين مع هؤلاء الأشخاص «يؤسس سيطرته على الممتلكات والعوائد المالية»[45]، وبعد أن أعلن بوتين أنه لن يناقش مسألة الشيشان، لم يعد يبدو مهتمًّا في مناقشة خطط روزنفت مع إيلاريونوف.

كان اجتماع مناقشة العرض الأولي العام للشركة- حول سوق لندن للأوراق المالية والبورصات الروسية- أول اجتماع يدعى إليه إيلاريونوف بهذا الشأن، ولكن اتضح له حالًا أن إنجاز الخطط كان في مرحلة متقدمة. وفي هذا اللقاء اقترح إيجور سيتشين رفع رأسمال الشركة بمقدار 12 مليار دولار، ببيع 13% من أسهم الشركة، ثم استخدام العائدات لسداد الديون، والاستثمار في مشاريع جديدة، وقد أيَّد الفكرة مساعدو بوتين الواحد تلو الآخر.

قال جريف: «هذا جيد»، وأكد ميدفيديف أنه تحقق من مشروعية الصفقة، وعندما حان دور إيلاريونوف في الكلام اعترض قائلًا: إذا كانت الدولة ستبيع حصتها من أكبر شركة نفطية، أفلا يجب أن تصب العائدات في ميزانية الدولة؟ دفع بوتين كرسيه إلى الوراء، واحمر وجهه، وعرف إيلاريونوف أن بوتين غير مرتاح من الإشارة إلى الأخطار السياسية المعنية. كان الشيء الوحيد الذي أدين به خودوركوفسكي، وسبب الاستيلاء على أصول يوكوس- وهلل الروس لهذا- بالإجمال عدم تقاسم الأرباح مع المساهمين الأخيرين وهم الشعب الروسي. عرف إيلاريونوف أن المسألة قد حُسم أمرها من قبل الجميع في الغرفة، ولم يقف أحد معه في حجته، فهم يحدقون بصمت في الطاولة، والأسوأ من ذلك- كما قال لهم- أنه لن تكون كل العائدات لدعم أو توسيع روزنفت: فوفقًا للمقترح الذي جرت المصادقة عليه في ذلك اليوم، خصص 1.5 مليار دولار من البيع مكافآت غير محددة لإدارة روزنفت، ومن المفترض أن يشمل ذلك الفريق التنفيذي للشركة وأعضاء مجلس إدارتها، ومن ضمنهم إيجور سيتشين. وقد فوجئ بوتين وأصبح وجهه شاحبًا، وسحب كرسيه إلى الوراء من طاولة المفاوضات، وقال ملتفتًا إلى سيتشن: «إيجور إيفانوفيتش، ما هذا؟». وقف سيتشين منتصبًا

كأنه جندي أمام ضابط غاضب، متلعثمًا بنطق اسم بوتين، وفقًا لإيلاريونوف، ولم يستطع أن يشرح المكافآت.

شكر بوتين إيلاريونوف لمساهمته في المناقشة، وفي اليوم التالي استقال إيلاريونوف، وكان يعتقد أن بوتين لم يكن يعرف عن العلاوات، فانتقد علنًا الاتجاه الذي يأخذ فيه بوتين البلاد. وكتب في مقال افتتاحي عنيف في كوميرسانت: «لقد أصبحت الدولة شركة مساهمة أصحابها الحقيقيون- لكن اسميًّا فقط- هم المواطنون الروس، الذين لم تعد لهم سيطرة عليها»[46]. تسببت معارضة إيلاريونوف بتأجيل الاكتتاب العام، وناقش سيتشين وبوتين الشروط والتوقيت، ولكن ليس مدة طويلة.

عندما أعلن الاقتراح في أوائل عام 2006م، ذكرت روزنفت أنها تأمل في جمع 20 مليارًا، مع أنها خفضت المبلغ في وقت لاحق إلى 10 مليارات دولار، وأعلنت الحكومة وسط جعجعة أنها ستضع السهم الفردي للبيع بالتجزئة من خلال مصرف شبيربنك الحكومي، وغيره، في محاولة لتصوير أن هذه الخصخصة تعود بالفائدة على الروس العاديين، الذين سيسهمون أيضًا في ازدهار الطاقة في البلاد. على الرغم من ذلك كان التركيز الرئيس على تجنيد شركات الطاقة العالمية، ومن بينها شركة بريتيش بتروليوم، وبتروناس، وشركة البترول الوطنية الصينية العملاقة، التي أغراها احتمال أن يكون لها موطئ قدم جديد في سوق الطاقة في روسيا، إن لم يكونوا مثل مساهمي الأقلية. وعندما بدت نتائج الاكتتاب منخفضة، تدخلت القلة في روسيا، ومنهم رومان أبراموفيتش، بعمليات شراء كبيرة، وربما بدفع من الكرملين، وبهذا تصل روزنفت إلى مبتغاها[47].

كان الاكتتاب مثيرًا للجدل مثل قضية يوكوس، ويمثل خطرًا لبوتين شخصيًّا؛ لأنه وصل إلى حد الاختبار لنوع من الرأسمالية التي يديرها؛ فلكي ترتفع الأسهم في لندن لا بد من الكشف الكامل عن الأخطار للمستثمرين، ومن ثم فقد أقرَّ كشف روزنفت الجريمة والفساد في روسيا، وربما تلاحق الدعاوى القضائية المتصلة بيوكوس الشركة على المدى البعيد،

وأوضح كذلك أن بقاء الكرملين شركة هو الحكم النهائي على مصير الشركة. «إن الحكومة الروسية التي لا تلتقي مصالحها مع مصالح المساهمين الآخرين، تسيطر اليوم على روزنفت، وقد ندفع روزنفت إلى الانخراط في ممارسات تجارية قد لا تزيد من قيمة الأسهم للمساهمين»، هذا ما اعترفت به نشرة الكشف[48].

مع أنه لم تنشر العلاوات التي دُفعت وانتقدها إيلاريونوف وظلت طي الكتمان، فقد ظل اهتمام المؤسسات الاستثمارية فاترًا، ولكن يبقى هذا العرض خامس أكبر عرض في التاريخ، فقد ارتفع إلى 10.7 مليارات، وبسعر بيع السهم قدرت روزنفت قيمته بما يقرب من 80 مليار دولار.

كان العرض- ليس من قبيل المصادفة- عشية قمة مجموعة الثماني G8، الذي يقام للمرة الأولى في بطرسبورغ مع بوتين بوصفه البلد المضيف. أعد الكرملين أجندة طموحة تضمنت مكانة روسيا بصفتها ضامنًا لأمن الطاقة، على الرغم من الصراعات مع أوكرانيا، ولاحقًا مع جورجيا وروسيا البيضاء حول الغاز الطبيعي. أثبت نهوض روزنفت أن روسيا قد استقام أمرها مرة أخرى، ووصلت إلى القمة، وشعر بوتين بالثقة، بل وبالغرور الذي قد ينسيه ويلات بيسلان، وعدوى الانتفاضات الشعبية، والانتقادات المتصاعدة- بلا ريب- لروسيا. وصرَّح سيتشين في التقرير السنوي للشركة بأن «القول الفصل هو للسوق»[49].

الفصل السابع عشر

السُّم

كان ألكسندر ليتفينينكو قد مات حقًّا عندما اتُّهم علنًا فلاديمير بوتين بقتله، إذ كانت النظائر المشعة تدمر جسده ببطء خلال ثلاثة أسابيع، وكما لو كانت (قنبلة نووية صغيرة) انفجرت بداخله[1]. الأطباء، الذين اشتبهوا في البداية أنه قد أكل السوشي الملوث، لم يحددوا سبب مرضه الغامض حتى بعد فوات الأوان: جرعة من عنصر البولونيوم 210، كان قد ابتلعها- على ما يبدو- في حانة مغطاة بالألواح الخشبية في فندق مايفير ميلينيوم في لندن يوم 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2006م، بعد اجتماع قصير مع الفريق الروسي الذي يزور لندن، ويأمل في إغرائهم في مشاريعه التجارية الجديدة: المعلومات المتداولة عن السلطة الروسية ورجال الأعمال، التي تتخذ اليوم أهمية جديدة حيث بوتين هو الآمر الناهي فيها. عندما عاد إلى منزله في ذلك المساء، بدأ يشعر بالمرض، وبعد ثلاثة أيام كان في المستشفى، حيث ذبل ذبولًا مؤلمًا، وتوفي ليلة 23 نوفمبر/تشرين الثاني عن عمر يقارب ثلاثًا وأربعين سنة فقط. وفي صباح اليوم التالي ظهر صديقه وزميله، أليكس غولدفارب، أمام ثلة من الصحفيين وكاميرات التلفاز وقرأ بيان ليتفينينكو الذي أملاه في أيام موته:

«أكاد أسمع بوضوح خفق جناحي ملك الموت»، ومضى البيان بلغة إنجليزية أنيقة على نحو غير مألوف، والتي تعلمها ليتفينينكو بصعوبة خلال السنوات التي قضاها في المنفى. «قد أكون قادرًا على الهروب منه، ولكن أود أن أقول لكم إن ساقيَّ لا تتحركان بالسرعة التي أود. أظن أن الوقت مناسب لقول شيء أو شيئين للشخص المسؤول عن مرضي: قد تنجح

في إسكات الرجال، لكن هذا السكوت لن يأتي من دون ثمن، لقد أظهرت نفسك أنك همجي ووحشي بقدر ما زعم نقادك المعادون ذلك. لقد أظهرت أنك ليس لديك أي احترام للحياة والحرية، أو أي قيمة حضارية، وأظهرت نفسك غير جدير بالمكتب الذي تشغله، وأنك غير جدير بثقة الرجال والنساء المتحضرين. قد تنجح في إسكات رجل واحد، لكن عويل الاحتجاج من جميع أنحاء العالم- يا سيد بوتين- سيظل يتردد صداه في أذنيك ما دمتَ حيًّا»[2].

لم يستقر ليتفينينكو في منفاه هادئًا بعد أن هرب بطريقة ماكرة من روسيا في عام 2000م، إذ طاردته الوكالة التي خانها عندما جاهر باتهاماته أمام الجمهور في مؤتمر صحفي سوريالي في عام 1998م، قبل فجر عهد بوتين. لم يندمج اندماجًا كاملًا في الحياة الإنجليزية، وبقي داخل عالم «لندنغراد» المعزول الذي يعج بالمنفيين المهاجرين، وكبار رجال الأعمال المتجولين. لم يختلط اجتماعيًّا بالأغنياء الروس الذين أغرقوا لندن بأموالهم- فقد كانت وسائله متواضعة جدًّا- وإنما مع الدوائر التآمرية الغامضة لأشرس منتقدي بوتين، ومن أبرزهم بوريس بيريزوفسكي، الذي استمر يحيك المؤامرات لتشويه سمعة الرجل الذي حمَّله مسؤولية إخفاقه في تحقيق مصالحه السياسية والمالية.

بتمويل بيريزوفسكي وإلهامه ألَّف ليتفينينكو كتابًا مع يوري فيلشتنسكي، المؤرخ المهاجر في الولايات المتحدة، اتهم فيه الاستخبارات الفيدرالية FSB التي يعمل بها بوتين بأنها تقف وراء تفجيرات عام 1999م، وأنها هي التي دفعت ببوتين إلى السلطة. حمل الكتاب عنوان **جهاز الاستخبارات الفدرالي يفجر روسيا**، وكان منحازًا من سطوره الأولى: «لكن لا أحد سوى المجنون الذي يرغب في جَر روسيا إلى أي نوع من الحرب، فضلًا عن الحرب في شمال القفقاز، وكأن الحرب الأفغانية لن تحدث أبدًا»[3]. نسخة الفيلم التي تلت صدور الكتاب شوهدت سرًّا في موسكو، وانتشرت على نطاق واسع في الخارج. الحملة التي مولها بيريزوفسكي كانت جزءًا من سعيه إلى الإطاحة ببوتين.

أتبع ذلك ليتفينينكو بكتابه الثاني: **مجموعة لوبيانكا الجنائية**، وهو يصوِّر خَلَف الـ(كي جي بي) بأنه أكثر بقليل من مافيا أو تنظيم إرهابي متورط في الفساد والجريمة. كان ليتفينينكو يحرق كل الجسور التي تربطه بماضيه وخدمته في الأجهزة الأمنية، بتهور يصل في بعض الأحيان إلى الجنون. وأصبح شغله الشاغل بوتين وحكمه، ويتداول المعلومات مع قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي)، وأخرى مع وكلاء الاستخبارات في بريطانيا وإسبانيا، وربما في أماكن أخرى، وكان يتوق إلى متابعة أي معلومة مهما كانت صغيرة يسمعها، ولديه الاستعداد لتقبل فرضية أي مؤامرة مهما كانت كبيرة، وكان ينسج المؤامرات أحيانًا بعيدًا عن الواقع معتمدًا على الإشاعات والخيال المتشنج.

في نهاية حياته القصيرة، أثارت فضوله الشائعات التي تتحدث عن مثليَّة بوتين التي تستند في جزء منها إلى حكاية قصيرة لا أساس لها في مذكرات يوري سكوراتوف، المدعي العام السابق، إذ يستذكر أن بوتين أخبره مرة أنه يعتقد بوجود شريط مصور يظهره في لقاء جنسي. وأصبح شريط الفيديو أسطورة بين نقاد بوتين، من بينهم الضباط السابقون الذين عُزلوا عندما تولى بوتين الـ FSB في عام 1998م، الذين يدعون أن نسخًا مختلفة فرزت في الخارج لحفظها، ولكن لا يبدو أن أحدًا منهم قد اطلع عليها، وتختلف الروايات عن لقائه بشاب عام 1984م، عندما تدرب- وهو ناشط- على الأجانب في الـ(كي جي بي)، ثم على اللقاءات الغرامية في وقت لاحق في نفس الشقة التي سجل سكوراتوف فيها الشريط[4]، وفي ذهن ليتفينينكو يتحول الاحتمال بكل سهولة إلى حقيقة مطلقة.

ففي 5 يوليو/تموز، وقبل أقل من أربعة أشهر من تسميمه، ألمح ليتفينينكو إلى الحياة الجنسية لبوتين بعد أن رفع بوتين بخشونة قميص صبي صغير يزور الساحة الحمراء وقبله على معدته، وقد ظهرت مقالته هذه على الموقع الإلكتروني لحركة التمرد في الشيشان، القضية التي تبناها ليتفينينكو على نحو متزايد بعد مصادقة منفي آخر في لندن، وأصبح هذا الشخص المتحدث باسم المتمردين أحمد زكاييف، الذي انتقل إلى منزل في الشارع نفسه الذي يقيم فيه ليتفينينكو في شمال لندن. حذره أوليغ كالوجين، الجاسوس في

المنفى، عندما التقيا قبل أشهر فقط من وفاته، أن المتاجرة بالغمز الذي لا أساس له يمثل خطورة عليه؛ قال له: «ساشا، لقد عشنا ما فيه الكفاية»[5]. ولكن ليتفينينكو، الخائن في نظر الاستخبارات الروسية (FSB)، إذ كان يفترض السلامة في المنفى، فقد فقَدَ أي إحساس بالحذر، حتى ابنته كانت ترى أنه «مجنون بدرجة ما»، وقالت: إن أي حديث له أو نقاش معه سيؤول في النهاية إلى نظام بوتين، وأضافت: «لقد عصف بنفسه حتى خرجت عن سيطرته، وبدا كأنه قد فقد عقله»[6].

تابع ليتفينينكو العمل من أجل بيريزوفسكي، ولكن علاقتهما تضاءلت، وبحلول عام 2006م خفَّض بيريزوفسكي المعونة التي كان يمنحها له لإعالة أسرته، فبحث عن دخل ثابت وقدَّم نفسه على أنه المحقق والباحث في الشركات الذي يمكن أن يقدم النصح في إدارة أخطار الأعمال في روسيا. معرفته بأعمال جهاز الأمن الفيدرالي الداخلية، وهوسه بجمع المواد، ورغبته في المساهمة، أوقعته في متاهة من التحقيقات في قلب روسيا بوتين.

في أبريل/نيسان 2006م سافر إلى إسرائيل للقاء أحد الشركاء السابقين لخودوركوفسكي في شركة يوكوس، ليونيد نيفزلين، الذي قال لاحقًا إن ليتفينينكو أورد معلومات «تسلط الضوء على الجوانب الأكثر جوهرية في قضية يوكوس»[7]، مع أن طبيعة المعلومات التي أوردها لم تكن واضحة بدقة. وبعد شهر سافر إلى إسبانيا، حيث التقى ضباط أمن والمدعي العام الصليبي، خوسيه جونزاليس جرندة، الذي ناقش معه النشاطات والمواقع وعددًا من الشخصيات في المافيا الروسية. وقدم فرضية- أيدها جرندة في وقت لاحق- أن الحكومة الروسية من خلال جهاز الاستخبارات الفيدرالي FSB وفروع المخابرات الخارجية والعسكرية، تسيطر عليها عصابات الجريمة المنظمة، وتستخدمها لتهريب الأسلحة، وغسل الأموال، وتنفيذ الاغتيالات، «وكل ما لا تستطيع الحكومة أن تقبله بصفتها حكومة».

كان جرندة على خُطا المجرمين الروس في إسبانيا، ومن ضمنهم رئيس مافيا شهير يدعى جينادي بتروف، الذي كان ناشطًا في مجال الأعمال حين كان بوتين في بطرسبورغ، وكان مسهمًا لمدة ما في المؤسسة التي وحدت دائرة الأصدقاء المقربة من بوتين (مصرف

روسيا)[8]. أبقى ليتفينينكو على هذه الزيارات سرًّا، وكان يسافر بجواز سفر بريطاني حصل عليه عندما مُنح حق اللجوء، لكن وقتها أقحم نفسه عن قصد في دائرة الأضواء العامة التي كانت حتى وفاته إحدى جرائم القتل الصادمة عند نقاد بوتين.

في ليلة 7 أكتوبر/تشرين الأول 2006م، في عيد ميلاد بوتين الرابع والخمسين، أحد القتلة تتبع آنا بوليتكوفسكايا في رواق شقتها وأطلق عليها أربع رصاصات وهي تقف في المصعد، ثم ألقى المسدس جانبها، ليكون توقيعَه على عقد القتل المكلف به من طرف ثان. وكان القصد من قتلها إحداث صدمة، وقد حدثت. بوليتكوفسكايا لم تخضع قط في تغطيتها الحرب في الشيشان، حتى وإن تحوَّل عنها معظم الروس إذ أصبحت عملية مكافحة تمرد طاحنة تنفذها اليوم القوات الموالية لرمضان قاديروف، نجل الزعيم الموالي لبوتين، أحمد قاديروف، الذي اغتيل في جروزني عام 2004م.

قبل يومين من اغتيال بوليتكوفسكايا، كان قاديروف الأصغر بلغ الثلاثين، وهذا يؤهله من الناحية القانونية لتولي منصب رئيس الجمهورية، وقد عيَّنه بوتين رئيسًا لوزراء الجمهورية، وهو منصب شكلي، لأن قاديروف ومقاتليه لديهم السيطرة المطلقة في الشيشان.

في يوم اغتيالها كانت بوليتكوفسكايا قد انتهت من إعداد مقال عن تعذيب مهاجر شيشاني من أوكرانيا، تعرض للضرب والصدم الكهربائي حتى اعترف بارتكاب جرائم قتل، في مثال آخر للرعب، وإن لم يكن مثالًا استثنائيًّا عن وحشية الحرب الروسية (نشرت صحيفة نوفايا غازيتا، التي عملت فيها، المقال بعد ستة أيام من وفاتها)، حتى إنها تساءلت هل لهذه التقارير عن فظائع الحرب أي تأثير في السكان الذين يدعمون ضمنيًّا التكتيكات القاسية التي تنتهجها الحكومة، من خلال عدم اكتراثهم بها. ووُجِد في حاسوبها مقال آخر بعنوان (**ما الذنب الذي اقترفته؟**)، كانت ترثي فيه ما وصلت إليه الصحافة في روسيا، وكتبت تقول: «لم أكن أسعى أن أصبح في حالتي المنبوذة هذه، التي جعلتني أشعر أنني كما الدلفين على الشاطئ».

انتقدت في ذلك المقال بحدة دعم بوتين لقاديروف الصغير، وكتبت أن بوتين عينه رئيس وزراء الشيشان «متجاهلًا حقيقة أن الرجل معتوه بالكامل، محروم من التعليم، والعقل، أو من أي موهبة تميزه سوى الفوضى والسرقة العنيفة»[9].

مع ذلك، فحتى اليوم أثبتت إستراتيجية بوتين في الشيشان أنها فعالة بلا رحمة، فقد حوصر أصلان مسخادوف، الرئيس المنتخب للجمهورية خلال فترة الاستقلال الوجيزة بين عامي 1996م و1999م، وقُتل، في مارس/آذار 2005م، في قبوٍ لا يبعد أكثر من اثني عشر ميلًا من جروزني؛ وقُتل أيضًا بديله، الزعيم السياسي للتمرد، عبد الحليم سعيدولاييف، في وقت لاحق بعد سنة؛ إذ خانه مُخبر كان قد سخَّره قاديروف، مقابل ثمن جرعة من الهيروين؛ وبعد أشهر، في يوليو/تموز 2006م، وقع انفجار في أنغوشيا، الجمهورية المجاورة للشيشان، قُتل فيه شامل باساييف، القائد العسكري سيئ السمعة، والإرهابي المعروف الذي نظم حصار نورد أوست وبيسلان، وعشرات الهجمات الأخرى.

ادعت الـ FSB أنها عملية خاصة، في حين ادعى المتمردون أنه مجرد حادث، ولكن التأثير كان مسلَّمًا به، فمسلسل القتل قطع رؤوس قيادة التمرد عن جسدها التي قاتلها بوتين منذ اللحظة التي تولى فيها السلطة، وهو ما دفع بأتباعها للاختباء في أعماق الأرض. كانت التكلفة في الدماء والأموال غير عادية، مع آلاف الجنود الروس الذين قُتلوا، وآلاف الشيشان الذين تشردوا أو (اختفوا). قد تكون الوحشية والعنف والإفلات من العقاب تكتيكات سياسية وأمنية قمعية ميزت كل روسيا، ولكنها تضخمت في الجبال وجنوب الحدود، وخلَّفت الحرمان من الحقوق، ومظالم يمكن أن تتفاقم إلى تمرد إسلامي بألوان مختلفة يصعب على السلطات إحباطه.

وبعد فإن تكتيكات بوتين، ودعمه لقاديروف الصغير، نجحت في سحق حركة استقلال الشيشان، وبعد ثلاثة أشهر من وفاة بوليتكوفسكايا، عيَّن بوتين- مستخدمًا سلطته التي فرضها بعد بيسلان- قاديروف الرئيس الجديد في الشيشان، وكان أكثر بقليل من حاكم ولاية مستبد، لكن بوتين رد جميل ولائه للكرملين بمنحه السيادة المطلقة للتصرف في

الشيشان كما لو أنها مزرعة له، وهو ما فعله بقسوة لا ترحم على الأعداء، والنقاد، والناس؛ مثل بوليتكوفسكايا التي كانت واحدة من آخر ضحايا الحرب المنتصرة لبوتين.

في عام 2008م، وفي وقت متأخر جدًّا بالنسبة إليها لممارسة خفة دم لاذعة ضدها، أطلق قاديروف على جزء من الشارع الرئيس في العاصمة المهدمة جروزني- الذي أعيد بناؤه مؤخرًا بأموال هائلة من الميزانية الاتحادية- اسمها، وفي وسط المدينة التي كانت قد سويت بالأرض، وبناء على أوامر من قيادة بوتين فقد أصبح اسم شارع النصر شارع بوتين.

نظرًا لأهمية بوليتكوفسكايا، فقد لاقى قتلها اهتمامًا دوليًّا هائلًا، وصمتًا واضحًا من الكرملين؛ لأنه كان لديها جواز سفر أمريكي، إذ ولدت في نيويورك لدبلوماسيين سوفييتيين في الأمم المتحدة في عام 1958م؛ ومن ثم فقد سلَّم السفير الأمريكي، ويليام بيرنز، احتجاجًا رسميًّا عبَّر فيه عن قلقه، وطالب بإجراء تحقيق شامل في وفاة مواطنة أمريكية. والتقى نائب وزير الخارجية أندريه دينيسوف، الذي بدا مصدومًا من القتل، وأصر على أن «لا أحد في موقع السلطة له أي علاقة بالجريمة»، مضيفًا أن «أفرادًا كثيرين يمكن أن يكونوا مستفيدين من موت بوليتكوفسكايا»[10]، ولكن لم تقل وزارة الخارجية ولا الكرملين أي شيء على الإطلاق. وقليلون مَن لديهم السلطة للتحدث، وخاصة عن حالة حساسة جدًّا كهذه، إلى أن أشار الرئيس نفسه إلى الخط الرسمي الذي سيكون، ولم يتفوه بوتين بشيء إلا بعد ثلاثة أيام، في اليوم الذي دفنت فيه بوليتكوفسكايا حيث هطلت أمطار غزيرة مع آلاف المشيعين الذين اصطفوا لإلقاء النظرة الأخيرة على نعشها.

كان بوتين قد وصل في ذلك اليوم إلى دريسدن، مكان عمله القديم في الـ(كي جي بي)، للقاء أنجيلا ميركل، المستشارة الجديدة التي حلت محل شرودر، مع رجال الأعمال؛ لتشجيع روسيا في التوسع في مجال الطاقة. عندما ظهرا معًا، انضمت ميركل إلى الإدانة الدولية لاغتيال بوليتكوفسكايا، لكن بوتين لم يقل شيئًا في تعليقاته، وقد تطرق للموضوع فقط عندما تبعه أحد الصحفيين الألمان بسؤال عن ذلك، قال بوتين: إنها «جريمة وحشية فظيعة»، لكنه قلل بعد ذلك من شأن العمل الصحفي، وأشار إلى أن الدافع الحقيقي لقتلها هو الإساءة

لسمعة روسيا، وقال: «كانت هذه الصحفية من أشد المنتقدين للسلطات الحالية في روسيا، ولكن- كما يعرف الخبراء، وكما يدرك الصحفيون، وكما أعتقد- كان تأثيرها في الحياة السياسية الروسية طفيفًا للغاية»، إن قتلها وجَّه ضربة كبيرة للسلطات أكثر من أي شيء كتبته. وشرح الموضوع في وقت لاحق من تلك الليلة، عندما التقى مسؤولين روسًا وألمانًا في المنتدى نصف السنوي، المعروف باسم **حوار بطرسبورغ**؛ بأن اغتيال بوليتكوفسكايا قد دبره أعداء روسيا، وأصبح هذا موضوعًا متكررًا: أعداء روسيا، وأعداء بوتين، والتآمر لتشويه سمعته، قال لهم: «لدينا معلومات موثوقة ومتسقة أن كثيرًا من الناس الذين يهربون من وجه العدالة الروسية لديهم فكرة أنهم سيستخدمون شخصًا ضحيةً، لخلق موجة مضادة معادية للروس في العالم»، وهذا هو بالضبط ما سعى ليتفينينكو لفعله، إذ عدَّ بوليتكوفسكايا صديقة له كلما زارت لندن، وتبادلا المعلومات حول الشيشان والأجهزة الأمنية العاملة هناك[11]، وموتها أغضبه.

يوم 19 أكتوبر/تشرين الأول، قبل أقل من أسبوعين من مرضه، حضر أحمد زكاييف حلقة نقاش في لندن حول اغتيال بوليتكوفسكايا، وأعلن أن بوتين نفسه يتحمل المسؤولية، ونهض من بين الحشد ليخاطب الحضور، وبدأ كلامه بإنجليزية متعثرة، ثم تابع بالروسية، وجلست امرأة بجانبه تترجم. وبعد أن أكَّد أنه ليس لديه ما يخفيه، وكرر ذلك عدة مرات، وأن الصحفيين يجب ألا يترددوا في اقتباس تصريحاته، قال إن بوليتكوفسكايا نفسها تلقت تحذيرًا بأن بوتين قد وضعها على قائمة المستهدفين، قال: «أنا أدرك جيدًا أن شخصًا واحدًا فقط في روسيا يستطيع أن يقتل صحفيًّا بوزن آنا بوليتكوفسكايا؛ إنه بوتين، لا أحد غيره».

بعد ثلاثة عشر يومًا، قال إنه جمع (أدلة) ستساعده بكل تأكيد على إثبات الحالة، وتبادل هو والمحلل الأمني الإيطالي ماريو سكاراميلا، الذي تاجر بالأسرار نفسها التي تاجر بها، رسائلَ إلكترونية بعث بها روسي آخر في المنفى يزعم أنها تحتوي على قائمة اغتيالات من جمعية قدامى المحاربين في الـ(كي جي بي) تدعى قائمة الكرامة والشرف، وكان اسم بوليتكوفسكايا مدرجًا في القائمة، وكذلك كان ليتفينينكو وبيريزوفسكي، ومع ذلك

أبقى ليتفينينكو حارسه عندما غادر اجتماع غداء مع الإيطالي ليلتقي روسيَّين أصبحا أكثر المشتبه فيهم في مقتله: أندريه لوجوفوي وديمتري كوفتون.

كان لوجوفوي أيضًا من قدامى المحاربين في قسم الـ(كي جي بي) الذي وفر الحماية للمسؤولين الحكوميين، وكان مسؤولًا أمنيًّا ذات مرة في محطة التلفاز التي يسيطر عليها بيريزوفسكي، ولديه اليوم شركة أمنية تسمى ناينث ويف (الموجة التاسعة)، وبقي على اتصال مع بيريزوفسكي. أما كوفتون فكان صديق الطفولة للوجوفوي، وشغل منصب النقيب في فرع المخابرات العسكرية في الجيش الأحمر السوفييتي في ألمانيا الشرقية، ويمتلك شركة استشارات الأعمال. ليتفينينكو يعرف جوفوي من خلال علاقته مع بيريزوفسكي، وكان حريصًا على إدخاله في دائرة اتصالاته، التي شملت إرينيس، وهي شركة أمنية عمل فيها ليتفينينكو في بعض الأحيان مستشارًا. وتعرَّف جوفوي كوفتون خلال تلك الزيارة في أكتوبر/تشرين الأول، اجتمعا في إرينيس وبعد ذلك في مطعم صيني. كشفت السلطات في بريطانيا في وقت لاحق أن أول محاولة لقتل ليتفينينكو حدثت في شركة أمنية، وذلك باستخدام السم الإشعاعي نفسه[12]، فقد شعر بالمرض بعد ذلك، وتقيأ في تلك الليلة، لكنه تعافى.

والتقى الثلاثة مرة أخرى في نوفمبر/تشرين الثاني، في اليوم الذي مرض فيه مرضًا خطيرًا، كان ليتفينينكو هو من أصر على لقائهم بسرعة في هذا الوقت، قبل الاجتماع المقرر في صباح اليوم التالي، وكان يتوق لنقل ما علمه من الرسائل الإلكترونية التي نقلها له ماريو سكاراميلا عند الغداء. كان اجتماعهم قصيرًا في حانة باين في مايفير ملينيوم؛ لأن لوجوفوي كان مسافرًا مع أسرته، وقد قطع تذاكر لحضور مباراة كرة القدم بين أرسنال وسيسكا موسكو في تلك الليلة في ملعب الإمارات. عندما وصل ابنه إلى الحانة، قدمه ليتفينينكو، ثم غادر لتغيير ملابسه لمشاهدة المباراة. ظن كوفتون أن ليتفينينكو بدا غريبًا مهتاجًا، وربما ليس على ما يرام، قال: «لم يغلق فمه»[13]، وحين كان كوفتون ينتظر لوجوفوي في بهو الفندق، تشبث ليتفينينكو به على غير مريح، قال كوفتون: «كنت واقفًا قريبًا منه»، وأضاف: «لم يتوقف عن الكلام».

بعدما تعرفت السلطات البريطانية نوعَ السم الذي استخدم لقتل ليتفينينكو؛ البولونيوم 210، كانت آثاره موجودة في كل مكان التقى فيه الرجال الثلاثة، ولم تكن آثاره موجودة في المكان الذي التقوا فيه في الأول من نوفمبر/ تشرين الأول، وإنما في لقاءات سابقة لهم في السادس عشر والسابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول، حيث كان السم يلوث الغرف التي أقاموا بها في الفندق، وقاعة المؤتمرات التي اجتمعوا بها (إرينيس)، وعلى المقعد الذي جلس عليه لوجوفوي في ملعب الإمارات، وعلى الوسائد في نادي التعرِّي، وعلى النارجيلة التي استخدمها في مطعم دار مراكش، المطعم الذي زاره لوجوفوي وكوفتون، وكانت آثاره موجودة كذلك في طائرتي الخطوط الجوية البريطانية اللتين تعملان بين موسكو ولندن، وحتى على الأريكة في منزل زوجته السابقة في مدينة هامبورغ بألمانيا، وكان كوفتون زارها قبل أيام فقط من سفره ثانية إلى لندن للقاء ليتفينينكو، وتبعًا لشهادة لم تنشر على الملأ إلا بعد سنوات من وفاته، أنه سأل صديقًا له عن قدرته على إحضار طاهٍ قادر على تقديم جرعة من السم.

سُم البولونيوم 210 يتكوَّن بصورة طبيعية وبكميات صغيرة في القشرة الأرضية، وفي الهواء ودخان التبغ، لكن عندما يصنع يبدو كأنه معدن فضي اللون مطاوع، وكان يستخدم قادحًا للأسلحة النووية، وأُنتج بكميات صغيرة للتخلص من الكهرباء الساكنة في الآلات الصناعية، وإزالة الغبار عن الأفلام وعدسات الكاميرا، ويتحلل عن طريق انبعاث جسيمات ألفا التي تنتشر بوصات قليلة ويمكن إيقافها بسهولة عن طريق ورقة أو جلد شخص، وخطرها يمكن في ابتلاعها فقط؛ فهي مادة يسهل التعامل معها، ولا تمثل أي خطورة، لكنها سامة لدرجة قاتلة، وهي سلاح مبتكر عمومًا. وتأتي سبعة وتسعون في المئة من الإمدادات الصناعية في العالم من أفانغراد، وهي منشأة نووية روسية، تخضع لحراسة مشددة في مدينة ساروف، وفيها صنَّع الاتحاد السوفييتي أول قنبلة ذرية.

كما حدث مع اغتيال بوليتكوفسكايا، كان بوتين مسافرًا عندما انفجر خبر وفاة ليتفينينكو في وسائل الإعلام العالمية المحمومة، وكان هذه المرة في هيلسنكي لعقد قمة مع

الاتحاد الأوروبي التي لم تأت بشيء جديد، وبينما كان يستعد لعقد مؤتمر صحفي تتوَّج فيه هذه الاجتماعات، كما جرت العادة، أعلن المتحدث باسم بوتين ديمتري بيسكوف خبر موت ليتفينينكو، لمعرفته مقدمًا أنه سيسأل، ولا بد من الإجابة. كان بوتين غاضبًا مرتابًا؛ فهو المتهم شخصيًّا بتورطه في وفاة ليتفينينكو[14]، وكان يعتقد هو ومساعدوه أن التوقيت لا يمكن أن يكون مصادفة، بل إنه توقيت استفزازي فقط.

عندما ظهر مع رؤساء وزراء فنلندا وأيسلندا والنرويج، ومع اثنين من كبار المسؤولين في الاتحاد الأوروبي، بدت مظاهر عدم الارتياح على بوتين واضحة؛ كان يتلوى، وغير مستقر، ويحدق في السقف، وأشار مساعدوه إلى الصحفيين، على هامش المؤتمر، أن بوتين أصابته نفحة برد[15]، لكن من وجهة نظر بيسكوف كان يكظم الغضب الذي أحس به.

جميع القادة الذين تحدثوا من المنصة زعموا أن الاجتماعات كانت ناجحة، وأعربوا عن أملهم في استمرار الجهود الدبلوماسية لإقامة علاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة، وبعد أن أنهوا حديثهم كان أول سؤال حول ليتفينينكو: هل لبوتين أن يرد على تهمة أنه المسؤول عن وفاته؟

عادة ما يظهر بوتين ثقة بالنفس زائدة في مؤتمرات صحفية كهذه، لكنه حينها أجاب برعونة: «أن يتوفى أي شخص فهذه مأساة دائمًا»، هكذا بدأ، ثم قدم تعازيه لعائلة ليتفينينكو، وكما تعامل مع جريمة قتل بوليتكوفسكايا، حاول أيضًا أن يقلل من شأن الضحية، ويعتم على الظروف، وقال إن الأطباء البريطانيين لم يشيروا إلى أنه «موت عنيف»، وأشار إلى ضرورة أن تتحمل السلطات البريطانية مسؤولية حماية المواطنين في البلاد. وعرض مساعدة روسيا إذا كان هناك مسوغ لإجراء تحقيق، وحث البريطانيين على عدم «دعم أي توجه لتضخيم أي فضائح سياسية لا أساس لها»، وأما بالنسبة إلى الملاحظة، فتساءل لماذا لم يعلَن ذلك عندما كان ليتفينينكو على قيد الحياة؟ ثم عقَّب: أما إذا كانت قد كُتبت بعد وفاته فليست هناك حاجة إلى التعليق. وأضاف أن «الناس الذين فعلوا هذا ليسوا ملائكة، والسيد ليتفينينكو- للأسف- ليس لازاروس»، وأشار إلى أن «من المؤسف حقًّا أن

توظف هذه الأحداث المأساوية مثل وفاة شخص لاستفزازات سياسية». وكما فعل في قضية بوليتكوفسكايا، سعى بوتين إلى إلقاء اللوم في ملعب آخر هم أعداؤه، ولم يبين في تصريحاته المقتضبة وغير اللبقة أن الروس يستنكرون هذا العمل الذي لا يمكن أن يكون من فعلتهم.

لا يوجد أي دليل مباشر حتى اليوم على تورط بوتين في وفاة ليتفينينكو، أو بوليتكوفسكايا، أو أي من الجرائم الغامضة الأخرى التي لا تزال عالقة وتحمل بصمات الاغتيال السياسي خلال حكمه، لكن بكل الأحوال فإن مكانته اليوم في الغرب انخفضت إلى حد كبير، وقليل من يشكك في ذلك. وعلى أقل تقدير فقد خلق مناخًا جعل من الاغتيال السياسي أمرًا طبيعيًّا على نحو مروِّع.

في أعقاب تسمم ليتفينينكو، برزت حالات قديمة على السطح، واكتسبت فجأة أهمية جديدة؛ فيوري شيشيكوشيخين عضو في البرلمان، وصحفي يعمل أيضًا في صحيفة بوليتكوفسكايا، توفي في عام 2003م بعد مرض مفاجئ يفترض أنه التسمم. وكان كتب مقالًا حول التحقيق المتوقف اليوم، وكاد يظهر على السطح بعد ثلاث سنوات وسط تجدد الدسائس. حالة وفاة غريبة أخرى طالت رجلًا يقال إنه عمل وسيطًا في قضية يوكوس في عام 2004م؛ وهو رومان تسيبوف، أحد معارف بوتين في التسعينيات، توفي بطريقة تنبئ بحالة ليتفينينكو على نحو مخيف: مات بمرض إشعاعي بعد أيام فقط من دعوته لاحتساء كأس من الشاي في مقر الـ FSB في بطرسبورغ[16].

كان تسمم ليتفينينكو يحمل كل تعقيدات رواية جون لو كاريه ومكائدها، وينقصه فقط ترابط الدافع ومناخية انحلال العقدة. وبالعودة إلى موسكو، لم يتصرف لوجوفوي وكوفتون كما لو أنهما مشتبه فيهما، إذ اتصل لوجوفوي مرتين بليتفينينكو بعد أن علم بمرضه، وقبل أن يعرف أحد بحالته، وهذا التصرف لا يمكن أن يأتي من قاتل، وعندما برز اسمه على أنه أحد الذين التقوا ليتفينينكو في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني، جاء بنفسه إلى السفارة البريطانية، ووافق على لقاء الدبلوماسيين ليوضح الحالة، ويعلن استعداده لمقابلة محققين

بريطانيين، وكان الكرسي الذي جلس عليه في السفارة قد تلوث بإشعاعات البولونيوم-210 حتى إن السفارة أغلقت الغرفة[17].

في اليوم التالي لوفاة ليتفينينكو، أجرت إذاعة صدى موسكو لقاء إذاعيًّا معه ومع كوفتون، وأعربا عن صدمتهما من هذه القضية برمتها، واستمرا في حديثهما أشهرًا عدة، نافيَين أي تواطؤ لهما في وفاته، وأصَّرا لاحقًا أنهما ضحيتان مقصودتان، سواء كانا مع ليتفينينكو أو ضده أو بدلًا منه؛ قال كوفتون: «أن تقتله، وبهذه الطريقة المتهورة، شيء عصي على الفهم»، وأصرَّ على أنه لو استؤجر هو ولوجوفوي ليَقْتلا، وأرسلا إلى لندن، لكانا قد أرسلا لملاحقة مطلوبين أكثر على قائمة أعداء روسيا، وليس إلى شخص مثل ليتفينينكو.

في الواقع، كان لوجوفوي قد التقى بيريزوفسكي قبل يوم من تسمم ليتفينينكو، «كان لوجوفوي يلتقي دائمًا بيريزوفسكي وزكاييف معًا، وما دام أن لديه الفرصة لِلقاء أي منهما، فسيسهل عليه قتل الهدف الأكثر أهمية»[18]. في العالم الغامض الذي يسكنون فيه، فإن هذه الحجة المنطقية تمنح مزيدًا من الفهم، وقد بذل بوتين قصارى جهده لتجاهل هذه المسألة، لكن المسؤولين الروس حاولوا بقوة تقويض الرواية التي بدأت تتكوَّن في جميع أنحاء العالم، فعلوا ذلك بحماس يزيد على ذاك الذي أظهروه في التحقيق في جريمة القتل نفسها. وعندما عثر على آثار البولونيوم -210 في جهاز كوفتون، أعلن مكتب النائب العام تحقيقًا معه بتهمة الشروع في القتل، وبعد شهر أُعلن عدم وجود دليل أو حتى تفسير، وأن وفاة ليتفينينكو كانت ترتبط بطريقة ما بالمحاكمات الجارية ضد يوكوس.

عندما ظهر بوتين في مؤتمر صحفي عقد في فبراير/شباط 2007م، رفض أن يكون ليتفينينكو حارسًا في حرس الحدود، إذ إنه غير منضبط، ونكث بولائه لمهنته، وفرَّ من البلاد؛ ومن ثم «فلا حاجة إلى تشغيله في أي مكان؛ فهو لا يخفي أي سر؛ فكل شيء سلبي يتعلق بخدمته وعمله السابق يمكن أن يقوله، تحدث به منذ مدة طويلة، ولهذا لن تجد شيئًا جديدًا فيما سيفعله لاحقًا»، وصرَّح بأن الأعداء الذين يسعون إلى إيذاء روسيا هم من «القلة

الهاربة التي تختبئ في أوروبا الغربية أو في الشرق الأوسط»، وكان يعني بوضوح نيفزلين وبيريزوفسكي، مشيرًا إلى قلَّة الأدلة لدى أولئك الذين اتهموه، وأن لهم يدًا بطريقة ما في وفاة ليتفينينكو، وأضاف: «لكنني لا أعتقد حقًّا بنظريات المؤامرة».

على الرغم من أن روسيا أصبحت أرضًا خصبة للمؤامرات، سواء كانت حقيقية أو متخيلة، فإن حالة وفاة ليتفينينكو، وبوليتكوفسكايا، وآخرين، تتحدى ذلك الانطباع الذي غرِس بعناية بأن بوتين رَأَس عصر التقدم والاستقرار، وتجدُّد الاعتزاز الوطني الذي محقته الفوضى العنيفة للتسعينيات.

كثير من النظريات يركز على نهاية ولاية بوتين الثانية رئيسًا للبلاد، التي كانت- بموجب القانون- تلوح في الأفق، ورأى بعضهم أن عمليات القتل استنهاض لإشعال انتفاضة شعبية قبل الانتخابات في عام 2008م، وبالطريقة نفسها التي عجل فيها مقتل جورجي غونغادزه في أوكرانيا بنهاية حكم ليونيد كوتشما. ورأى آخرون اليد السوداء لمن هم داخل روسيا الذين أرادوا بقاء بوتين في السلطة. بهذا المنطق فإن العار الذي سيقع على بوتين من جرَّاء قتل الناقد في لندن، سيجبره على البقاء في منصبه لضمان حصانته من الملاحقة الجنائية.

وكان بوتين سئل هل ينوي تعديل الدستور، والترشح لولاية رئاسية ثالثة حتى قبل أن يترشح لإعادة انتخابه لولاية ثانية[19]، ولكنه أصرَّ مرارًا أن لا نيَّةَ لديه في تغيير الدستور، أو إزالة شرط المدة من رئاسة قوية، وإن ظهرت مناشدات كثيرة تدعو لفعل ذلك. وكانت البرلمانات الإقليمية اقترحت إجراء استفتاء حول القضية يشمل كل أنحاء روسيا، من بريموريا في الشرق الأقصى إلى الشيشان. وأعلن المتحدث باسم البرلمان الشيشاني، دوكافاخا عبدوروخمانوف، رغبة رمضان قاديروف في أن يكون لبوتين ثلاث ولايات دستورية أو أربع، لا اثنتان فقط، بل يجب أن يحكم مدى الحياة إذا كان ذلك ممكنًا، قال: «يجب ألا يكون عدد الولايات هو من يحدد نهاية رئاسته، إنما السن وحالته الصحية»[20]، ومن ثم فإن أي إشارة من الكرملين، وأي مبادرة ترمي إلى توسيع مدة حكم بوتين، يمكن أن تمرر بسهولة، ولكن بوتين كان يعترض ويرفض ذلك، على الرغم من أنه لم يُثنِهم عن تلك المبادرات بجدية

أيضًا. ولأول مرة على الإطلاق كان للبلد آلية ديموقراطية قانونية لانتقال سلمي للسلطة، لكن حسب تصميم بوتين نفسه، فيستحيل أن نتصور أي شخص آخر في مهمته.

قال بوتين ذات مرة إنه فكر في البديل المحتمل له منذ لحظة توليه منصبه، لكن في ولايته الثانية بدأت مسألة الخلافة تهم بوتين وحاشيته بالطريقة نفسها التي كانت في أيام مرض يلتسين، أو كوتشما سيئ السمعة في أوكرانيا. وكشف عن قدر كبير عندما سئل، في مؤتمر صحفي عقده في ديسمبر/كانون الأول عام 2004م، عن خططه بعد تركه لمنصبه، وهل يفكر في العودة إلى السياسة في الانتخابات التالية، أي في عام 2012م؟ فقال مازحًا: «لماذا ليس في عام 2016؟». تحريفه الخجولة هذا لم يقدم جوابًا شافيًا للسؤال، لكنه اعترف بأنه- كما يلتسين من قبله- بدأ يفكر في (السيد) القادم من انتخابات عام 2008م، والذي كان يدعى على نحو غير مفهوم (الخيط الأساسي) للبلاد.

البحث عن وريث بوتين (الذي أطلق عليه عملية البحث عن خليفة) بدأت جديًّا في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2005م، عندما أعلن الكرملين أن بوتين قد رشّح اثنين من أقرب مساعديه: ديمتري ميدفيديف رئيس أركانه، وسيرجي إيفانوف وزير الدفاع، وكان قد رقّى ميدفيديف لمنصب نائب أول لرئيس الوزراء الذي أنشئ حديثًا، في حين أصبح إيفانوف نائب رئيس الوزراء إضافة إلى وزير الدفاع. وكما هو حال بوتين قبل تعيينه من قبل يلتسين، لم يترشح أي منهما للمناصب، لكن يبدو إيفانوف من بين الاثنين الوريث الأكثر احتمالًا، فقد كان أكبر من ميدفيديف بثلاثة عشر عامًا، وقد ترفَّع إلى رتبة جنرال في الـ(كي جي بي). أما ميدفيديف- على النقيض من ذلك- فكان صبيانيًّا، محاميًا مكتبيًّا، شارك في تأليف كتاب قانوني، وحاضر في كلية الحقوق بجامعة سانت بطرسبورغ قبل أن يلحق ببوتين إلى موسكو بصفته محاميًا موثوقًا به.

ادعى بوتين أنه لن يختار أيًّا منهما، لكن خلال الأشهر التالية كان يبدو أن كليهما يجري إعدادهما للدور، فبدأا بالتسلل إلى الأضواء العامة لتلميع صورتهما، وراحا يقودان (حملة) لا يهم فيها سوى صوت وحيد ولا شيء آخر: صوت بوتين.

كلاهما اليوم يتوليان أدوارًا بارزة في المبادرات السياسية، إذ أشرف ميدفيديف على خمسة مليارات دولار تصرف على (مشروعات وطنية) في مجال الزراعة والإسكان والتعليم والرعاية الصحية؛ أما إيفانوف فأعاد هيكلة الجيش، وفي عام 2006م تولى لجنة جديدة تشرف على المشتريات العسكرية. وبدأا يظهران في التقارير الإخبارية المسائية، وبالتأكيد أكثر من رئيسهم الرمزي، رئيس الوزراء غير المنحاز، الذي يدير الحكومة، ميخائيل فرادكوف، الذي أصبح معروفًا بافتقاره إلى أي أهمية سياسية جوهرية في السنة الأولى من ولايته.

مع تزايد التكهنات واجه الاثنان؛ ميدفيديف وإيفانوف؛ أسئلة متكررة عن تطلعاتهما السياسية، وأصبحا داهيتين في هذه المسألة. وفي بلاط بوتين، لم يجرؤ أحد على أي حملة علنًا، حتى إن كانت تتضمن طموحات سياسية خاصة بهم، وبدلًا من ذلك كانوا يتآمرون.

السيطرة السياسية الحديدية لبوتين تكذِّب الصراع الداخلي الذي يؤثر في اختياره النهائي، وكان امتدادًا للصراع من أجل السيطرة على إعادة توزيع الأصول التي نسَّقها الكرملين بجدية في ولاية بوتين الثانية[21]. وكما هو الحال في أي بلاط فلا بد من ظهور المنافسات؛ فإيجور سيتشين الذي ازدادت سلطته مع اكتساب روزنفت، لم يحب أن يصل أي من مساعدي بوتين إلى الرئاسة، وكان يفضل النائب العام فلاديمير أوستينوف، الذي كان له دور مهم في شؤون يوكوس، والذي كان نجله قد تزوج من ابنة سيتشين، وكلا الرجلين- للأسف- يقال إن نسخة من أحاديثهم وصلت إلى مكتب بوتين في ربيع عام 2006م[22]؛ إذ سجلها خلسة نائب في وكالة مكافحة المخدرات في روسيا، التي كان يرأسها في ذلك الوقت فيكتور شيركيسوف، الزميل السابق لبوتين في الـ(كي جي بي) من بطرسبورغ. في المحادثة المتنصَّت عليها، يقال إن سيتشين أشار إلى أن بوتين قد يكون ضعيفًا، وأوستينوف سيكون البديل المناسب عنه، وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا فالفكرة ليست هنا؛ أوستينوف كان طموحًا بصورة واضحة، وتولى رئاسة اجتماعات النيابة العامة مع (الأثير الرئاسي)، ومن ثم كان الافتراض خطيرًا[23]. بتشجيع من إزالة خودوركوفسكي وبمباركة سيتشين، تعهد علنًا

في مايو/أيار 2006م بمحاكمة «الحالات الجنائية لأصحاب الرتب العليا» التي تشمل مسؤولين حكوميين، وكان لبعضهم سجال ضد ديمتري ميدفيديف.

أقال بوتين أوستينوف في الثاني من يونيو/حزيران، وفاجأ هذا القرار المجلس الاتحادي، الذي لا يزال لديه السلطة النهائية لتثبيت المدعي العام أو إزالته، وإن لم يعِد الاستقلال الذي كان يتمتع به تحت يلتسين بالتعرض لمناقشة ذلك. وفي إشارة إلى مدى التحوُّل الذي حصل في توازن القوى في السنوات السبع منذ فضيحة إزالة يلتسين ليوري سكوراتوف، صوَّت المجلس في اليوم نفسه على تأكيده قرار بوتين. لم يكن هناك أي نقاش، وكان التصويت بالإجماع تقريبًا، مع امتناع اثنين عن التصويت فقط. ألمح سيرجي إيفانوف إلى أن هناك (أسبابًا وجيهة) لمغادرة أوستينوف، لكن لم يقدم بوتين أي تفسير عام، ولم يفهم أحد وقتها أن الطرد كان الموجة الأولى من الاضطرابات السياسية تحت السطح، وتبع ذلك مقتل بوليتكوفسكايا وليتفيننكو. المعركة الخفية على وريث بوتين لم تفتضح أمام الجمهور حتى العام التالي مع التحقيق في مخزن أثاث تري كيتا (الحيتان الثلاثة)، وكانت هذه القضية هي التي يبحث عنها يوري شيكوتشيخن في تقاريره عندما توفي في ظروف غامضة.

في ذروة الضجة التي أثيرت حول التحقيق في ليتفيننكو أرسل بوتين ميدفيديف إلى الاجتماع السنوي لرجال الأعمال والنخبة السياسية في العالم في دافوس بسويسرا، في يناير/كانون الثاني 2007م. وبشيء من الحرج من حصيرة سميكة من الشَّعر البني، والذوق الموسيقي لأوائل الأمريكيين والبريطانيين الذين عملوا في المعادن الثقيلة، قدَّم ميدفيديف صورة السياسي الروسي الأكثر لطفًا من الحالة التي كان عليها بوتين أخيرًا.

كان في ذلك الوقت في الواحدة والأربعين، وكان طفل النخبة المثقفة الذي لا تعرف خلفيته في الأجهزة الأمنية. شب وترعرع عندما مدت البيروسترويكا جذورها، وهو يمثل

الجيل الجديد الذي لم تصلبه كثيرًا الشيوعية والحرب الباردة، حتى إنه تحدث قليلًا بالإنجليزية، التي اكتسبها من ولعه الدائم بموسيقى ديب بيربل.

في كلمته الرئيسة طمأن الحضور إلى أن غازبروم لا خوف عليها- مع أنها بعد أسابيع فقط علقت إمدادها إلى روسيا البيضاء- وادعى أن روسيا لديها النية الصادقة لتكون الشريك الموثوق به في مجال التجارة والاستثمار، على الرغم من دور الكرملين في الضغط على المستثمرين أمثال رويال دوتش شل. وكذلك تبنى الشعار الذي عممه الإستراتيجي السياسي لدى بوتين، فلاديسلاف سوركوف: (الديموقراطية السيادية)، قال ميدفيديف إن الديموقراطية لا تحتاج إلى نعوت، وكان على يقين أن النسخة الروسية هي حقيقية بما يكفي، وأضاف: «لا نريد أن ندفع أي شخص لكي يحب روسيا، لكننا لن نسمح لأحد أن يضرها أيضًا»، وتابع: «سنسعى جاهدين لكسب الاحترام لمواطني روسيا ولكل البلاد، على ألا يتحقق هذا عن طريق استخدام القوة، بل من خلال سلوكنا وإنجازاتنا».

بروز ميدفيديف في منتدى دولي- لكون دافوس طقس مرور للقادة السياسيين الطموحين في كل مكان- مهد له استقبالًا جيدًا وكبيرًا، وبدا أنه تأكيدٌ لظهور وريث بوتين.

دفاع ميدفيديف عن روسيا لا يختلف كثيرًا عن دفاع بوتين، لكن لهجته جعلت الحضور في دافوس يعتقدون أنه سيكون زعيمًا مختلفًا، وبعد أقل من أسبوعين أوضح بوتين في منتدى دولي آخر أنه كان يسير في خط أكثر تشددًا تجاه منتقديه في الغرب، وفي مقدمتهم الولايات المتحدة. كانت الضجة التي أثيرت حول جريمة قتل بوليتكوفسكايا وليتفينينكو قد أثارت غضب بوتين، لكن الدافع المباشر للخطاب الذي كاد يلقيه هو قرار الرئيس بوش التفاوض على إقامة قواعد لنظام الدفاع الصاروخي الأمريكي في بولندا وجمهورية التشيك، ففي رأيه كانوا جميعًا من عجينة واحدة. وقد عارض بوتين بقوة قرار بوش بالتخلي عن معاهدة الحرب الباردة التي تمنع انتشار الدفاعات الصاروخية الوطنية، لكنه لانَ بعض الشيء حين طمأنه بتعهدات لإقامة صداقة جديدة بنَّاءة أكثر بين البلدين، ولكن بدلًا من ذلك جنح البلدان إلى مزيد من الابتعاد.

تريد الولايات المتحدة اليوم أن تضع محطات رادار وصواريخ اعتراضية في خاصرة روسيا، وهذا النشر الأمريكي- من وجهة نظر بوتين وقادته العسكريين- يمثل تحديًا لجوهر الردع النووي للبلاد، وهو الشيء الوحيد الذي نجا من انهيار الاتحاد السوفييتي وحافظ على بقاء مكانة بلاده قوة عظمى في روسيا. رد بنزق على مساعديه: «هذا يكفي بالنسبة إلي»[24].

للتعبير عن غيظه، اختار بوتين منتدى يسمى غالبًا دافوس لعالم الأمن القومي: مؤتمر الأمن السنوي في ميونخ، وفي التجمع الذي أقيم في فبراير/شباط 2007م، عقب الكلمة الافتتاحية للمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، ذهب بوتين إلى المنصة وبدأ تحذيره من القادم: «بنية المؤتمر هذه تتيح لي فرصة تجنب التهذيب المفرط، والمراوغة، والكلام المرضي القائم على الدبلوماسية الفارغة، إنها بنية تسمح لي أن أتكلم عما أعتقده بشأن مشكلات الأمن الدولي، وإذا بدت تعليقاتي جدلية، أو حادة، أو غير دقيقة لزملائنا، فأرجو ألا تغضبوا مني، وعلى كل حال فهذا ليس سوى مؤتمر»[25]، وأعرب- مازحًا- عن أمله ألا يشعل رئيس الجلسة الضوء الأحمر إيذانًا بانتهاء الوقت، وتبع ذلك قليل من الضحك غير المريح، وجاهدت ميركل، التي تجلس في الصف الأمامي، لترسم ابتسامتها.

مضى بوتين في حديثه: إن نهاية الحرب الباردة تركت العالم متأهبًا «بالذخيرة الحية، رمزيًّا أتحدث»، وكان يعني «الأنماط الأيديولوجية، والمعايير المزدوجة، وجوانب نمطية أخرى من تفكير كتلة الحرب الباردة»؛ فانهيار الاتحاد السوفييتي أنهى التقسيم الجيوسياسي في العالم، ولكن ترتب على ذلك ظهور قوة (القطب الواحد)، وخلق انقسامات جديدة وتهديدات جديدة، وزرع الفوضى في جميع أنحاء العالم؛ «عالم يكون فيه رئيس واحد، وسيادة واحدة»، وبدلًا من تخفيف حدة التوتر في العالم فإن «الإجراءات الأحادية الجانب، وكثيرًا ما تكون غير شرعية»، أسفرت عن مزيد من الحروب، ومزيد من الوفيات، أكثر مما كانت عليه في عالم منقسم؛ «أكثر من ذلك بكثير»، وكرر: «أكثر من ذلك بكثير».

وأضاف: «اليوم نشهد استخدامًا مفرطًا للقوة غير خاضع للسيطرة تقريبًا في العلاقات الدولية، القوة العسكرية، القوة التي تغرق العالم بهاوية دائمة من الصراعات، ونتيجة

لذلك ليس لدينا قوة كافية لحل شامل لأي من هذه الصراعات، ومن ثم يصبح إيجاد تسوية سياسية من المستحيل أيضًا. ونحن نشهد ازدراءً أكبر وأكبر للمبادئ الأساسية للقانون الدولي، والمعايير القانونية المستقلة تقترب أكثر فأكثر من النظام القانوني لدولة واحدة»، إذا غابت عن أحدكم هذه النقطة فالمخصوص بها الولايات المتحدة، التي «تجاوزت حدودها الوطنية في كل شيء، وهذا واضح في السياسات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية التي تفرضها على الدول الأخرى. حسنًا، من منكم يحب هذا؟».

كانت ميركل تسمع خطابه بوجه متحجر، وكذلك الوفد الأمريكي الذي يجلس في الأمام إلى يسارها، ومن بينهم وزير الدفاع الجديد للرئيس بوش، روبرت غيتس، واثنان من أعضاء مجلس الشيوخ اللذان كانا بالصفة العادية في التجمع؛ جون ماكين وجو ليبرمان[26]، وفيكتور يوشينكو من أوكرانيا، الذي حارب بقوة في الانتخابات، الجالس إلى اليمين من ميركل. استمر خطاب بوتين اثنتين وثلاثين دقيقة، عرَّى بها الغرب، مقدمًا قائمة بالمظالم من معاهدات الحد من التسلح إلى توسيع حلف شمال الأطلسي، وتطوير الدفاعات الصاروخية، وصولًا إلى أسلحة الفضاء، وقد حدث هذا برأيه بسبب الغطرسة بلا رادع من قوة عظمى عازمة على السيطرة على العالم وفقًا لشروطها، بل إن هناك منظمات دولية أخرى تخضع لمطالبها، حتى إن مفاوضات ضم روسيا إلى منظمة التجارة العالمية تشابكت مع مطالب لا علاقة لها بقدر أكبر من حرية التعبير، ومنظمة الأمن والتعاون الأوروبي- التي انتقدت الانتخابات في ظل بوتين- أصبحت (أداة مبتذلة) تتدخل في الشؤون الداخلية للآخرين.

تفاوتَ رد الفعل في الفندق بين ذاهل وغاضب، وجاء الرد الأمريكي في اليوم التالي؛ إذ دافع غيتس عن الإجراءات الأمريكية، ولما كان ضابط استخبارات سابقًا ومدير وكالة المخابرات المركزية الذي قال إنه قد تطور بعد عقود منذ عام 1989م، وجه لومًا لطيفًا للرجل الذي يبدو أنه لم يتطور، فقال: «حرب باردة واحدة تكفي».

أصبح خطاب بوتين علامة فارقة في علاقات روسيا بالغرب، فسَّره كثيرون باللحظة الحاسمة، وشبهه آخرون بخطاب ونستون تشرشل في عام 1946م الذي قدَّم للعالم عبارة

(الستار الحديدي). كان هذا ما ينوي بوتين فعله بكل تأكيد؛ يريد أن يعزف على وتر الغضب والقلق العالمي من الولايات المتحدة في ظل قيادة جورج بوش: السجن في غوانتنامو، وتسليم السجناء لمراكز اعتقال سرية، وتعذيب المشتبه في أنهم إرهابيون، والحرب على العراق. ربما انتُقِد بوتين لتشديد قبضته في بلاده، وما ارتكب من فظائع في الشيشان وأماكن أخرى، وتسميم ليتفينينكو، لكن كثيرين حول العالم، ومن بينهم بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة، وافقوا على تقييمه، وهللوا علنًا لدولة وزعيم مستعد وقادر على توفير ندٍّ للقوة الأمريكية الجامحة؛ فهذه روسيا وليست فنزويلا أو إيران أو بعض الأعداء الآخرين الذين يتخلون بسهولة عن معاداتهم لأمريكا التي تلحق الضرر بالضعفاء وغير ذوي الصلة، وكتبت الصحيفة الألمانية (زود دويتشه تسايتونج) عن الخطاب الذي ألقاه بوتين بأنه تحذير يستحق أن نفكِّر فيه: «السبب الرئيس لكل الإخفاقات هي الطريقة الأبوية التي يتعامل بها الفائز بالحرب الباردة مع الخاسر»[27].

بوتين لم يغلق باب العمل مع الأمريكيين كليًّا؛ إذ كان يريد أن يعرض آخر مناورة جريئة لاستيعاب صواريخ بوش الدفاعية، ولكنه في السنة السابعة والأخيرة من رئاسته، وقد استعادت روسيا تبجحها الدولي بفضل ارتفاع عائدات النفط والغاز، التي تحدث ميدفيديف عنها بما فيه الكفاية في دافوس، وكان حديثًا ناعمًا مطمئنًا، لكنه بدا اليوم، بعد مرور أسبوعين، ضعيفًا.

كان بوتين يخطط لسياسة خارجية جديدة تكون أكثر تحديًا، بل وحتى أكثر عدائية تجاه الولايات المتحدة بخاصة، ولكن أيضًا- في أعقاب مقتل ليتفينينكو- تجاه بريطانيا. ذهب من ميونيخ لزيارة بعض بلدان الشرق الأوسط؛ في مسعاه لتوسيع قوة روسيا في مجال الطاقة مع أوبك (OPEC)، واصطحب معه في هذه الرحلة سيرجي إيفانوف الذي ترتبط وجهات نظره الصقورية بخطاب بوتين أكثر من خطاب ميدفيديف.

ظهور ميدفيديف لأول مرة في دافوس لاقى ترحيبًا من النخبة الدولية نفسها التي خاطبها بوتين من علٍ حاليًّا وعرَّاها، وبدأ يُنْظَر إليه على أنه الجبهة المتقدمة في السباق

الأولي غير الرسمي للانتخابات الرئاسية المقبلة، لكن بعد عودة بوتين إلى موسكو بأسبوع كان من رُفِّع هو إيفانوف؛ ومن ثم فهناك اليوم نائبان أوليان لرئيس الوزراء، وبدا إيفانوف الأكثر انسجامًا مع مزاج بوتين.

تباكي بوتين في ميونيخ كان له صداه أيضًا في المؤسسة العسكرية والأمنية، وأدى إلى تصاعد التهديدات والأعمال العدائية لا ضد الولايات المتحدة وحدها فحسب، وإنما ضد الأوروبيين أيضًا، وحذر قائد قوات الصواريخ الإستراتيجية الروسية أنه سيُعيد توجيه الأسلحة النووية في البلاد إلى بولندا وجمهورية التشيك إذا مضيا قدمًا في نشر المعدات العسكرية الأمريكية.

وفي أبريل/نيسان أعلن بوتين أن روسيا ستعلق التزامها بمعاهدة القوات المسلحة التقليدية في أوروبا، تلك المعاهدة التي كان التفاوض عليها في نهاية الحرب الباردة من أجل الحد من العربات المدرعة وبطاريات المدفعية، والطائرات الهجومية المنتشرة في جميع أنحاء القارة. كان دور بوتين المتعمد في ميونيخ أشبه بصافرة إنذار لأمة تشاركه المشاعر في الخيانة والحصار، فأطلق العنان لغضب مكبوت تجاه الأجانب، حتى الدبلوماسيين منهم. وعندما نقلت أستونيا نصبًا تذكاريًّا سوفييتيًّا للحرب من حديقة في عاصمتها تالين، واجهت شبكة الحواسيب في البلاد، في أبريل/نيسان 2007م، هجمات إلكترونية معطِّلة، تعقبها المسؤولون الأستونيون في أجهزة الحاسوب في روسيا، فكان من ضمنها أحد عناوين بروتوكول الإنترنت داخل الإدارة الرئاسية لبوتين[28]، وقد وصفت العملية بأنها حرب إلكترونية شنتها روسيا التي تزداد عدائيتها، ولم تعد تحترم سيادة جيرانها، وهذا بالضبط السلوك الذي اتهم به بوتين الولايات المتحدة.

حاصرت (ناشي)، المجموعة الشبابية المتشددة في روسيا التي أنشأها وأشرف على رعايتها الكرملين، سفارةَ أستونيا، واضطر الحراس الشخصيون للسفيرة الأستونية، مارينا كاليجوراند، إلى استخدام رذاذ الفلفل هربًا من الناشيين، الذين هُرعوا عندما غادرت المؤتمر الصحفي في محاولة لتهدئة التوترات بشأن النصب التذكاري، ثم هوجمت سيارتها

عند مغادرتها، وتكرر ذلك مع السفير السويدي الذي حاول زيارة السفارة الأستونية، وقوبلت تلك الخروقات للبرتوكول الدبلوماسي بالتسامح من قبل الشرطة الروسية المتشددة عادة، ومع ذلك لم يتوقف بوتين حتى الآن عن انتقاداته العلنية للهيمنة الأمريكية؛ ففي ذكرى يوم النصر السنوي الذي احتفي به في الساحة الحمراء، في 9 مايو/أيار، قارن الولايات المتحدة بالرايخ الثالث من حيث (احتقار الحياة البشرية)، والرغبة في حكم العالم من خلال الإملاء. وهكذا فإن استقرار العلاقات الدولية والبنية الأمنية التي شيِّدت بعد الحرب الباردة (العصر الذي يبشر بسلام جديد للقارة)، كان يتفكك من جراء التشنج من الوعظ المتبادل.

في هذه المرحلة وصلت دائرة النيابة العامة البريطانية إلى نتائج حاسمة في تحقيقاتها في تسميم ألكسندر ليتفينينكو، وأعلنت في مايو/أيار 2007م أن هناك أساسًا كافيًا لاتهام أندريه لوجوفوي بالقتل، لكن لم تكشف النيابة العامة أدلتها للجمهور، وخلصت النيابة البريطانية إلى أن الكرملين هو وحده المخوَّل بمثل هذه العملية الجريئة والمحفوفة بالأخطار. ورفضت روسيا رفضًا قاطعًا النظر في طلب بريطانيا تسليم لوجوفوي، مستشهدة بدستورها الخاص الذي يمنع تسليم مواطنيها، وبالنفاق البريطاني إذ رفضت مناشدات روسيا العديدة بشأن إحالة بوريس بيريزوفسكي إلى العدالة في روسيا.

في أبريل/نيسان أبلغ بيريزوفسكي صحيفة الغارديان أنه كان يموِّل بكل فاعليَّة الجهود الرامية لانطلاق ثورة جديدة في روسيا في أوساط النخبة السياسية ورجال الأعمال، الذين هم- كما يعتقد- الأمل الوحيد في التغيير، لا الانتخابات المقبلة لخليفة بوتين، وأضاف قائلًا: «من غير الممكن تغيير هذا النظام من خلال الوسائل الديموقراطية؛ لا يمكن أن يحدث أي تغيير دون قوة وضغط»[29]. أعلن الكرملين أن تهديد بيريزوفسكي يعدُّ انتهاكًا لقانون التطرف الجديد وجدد المطالبة بتسليمه.

عقد لوجوفوي مؤتمرًا، بدا احتفاليًّا، أمام الصحافة، وسخر من الاتهام، واتهم بالمقابل جهاز المخابرات الخارجية البريطاني، الذي حاول تجنيده، والفرع الإسباني للمافيا الروسية (على الأرجح ردًّا على اجتماع ليتفينينكو والسلطات هناك)، وبيريزوفسكي هو

نفسه الذي قتل الرجل الذي كان يدعمه ماليًّا ذات مرة، وقال: «هو نفسه كان ملوثًا بمادة البولونيوم- 210؛ لاستخدامها مستقبلًا في فضيحة سياسية»[30].

المشهد زاد الشكوك في روسيا؛ فجريمة ليتفينينكو- كما هو حال جريمة لبوليتكوفسكايا وغيرهما- تعد جزءًا من مؤامرة مدروسة لإملاء نتائج التحول السياسي في روسيا، وكانت الأسئلة الوحيدة المتبقية هي هل كان المتآمرون داخل روسيا أو خارجها؟ وهل كانوا يتآمرون لإبقاء بوتين في السلطة أو لإجباره على التخلي عنها؟

في يونيو/حزيران، بعد يومين من طرد بريطانيا أربعة دبلوماسيين روس ردًّا على رفض روسيا تسليم لوجوفوي، اعتقلت الشرطة البريطانية روسيًّا غامضًا وصل إلى لندن بوثائق مزورة، كان يشتبه بنيته قتل بيريزوفسكي، وطُرد من البلاد[31]. وفي يوليو/تموز كانت مقاتلات سلاح الجو الملكي مضطرة إلى اعتراض القاذفات الروسية TU - 95 الإستراتيجية، التي كانت على ما يبدو تختبر الدفاعات الجوية البريطانية كما كان يفعل الاتحاد السوفييتي في الحرب الباردة، وكأن الدب السوفييتي قد استيقظ بعد عقدين من سباته.

الفصل الثامن عشر

مشكلة 2008م

في يوليو/تموز 2007م توجه بوتين إلى غواتيمالا الصغيرة في مهمة شخصية لتبديد زلة دولية يعود تاريخها إلى عام 1980م، عندما استضاف الاتحاد السوفييتي دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في موسكو وقاطعتها كثير من الدول الغربية احتجاجًا على غزو أفغانستان. كان جلْب الألعاب ثانية إلى روسيا هاجسًا سعى إليه بوتين بقوة منذ محاولة سوبتشاك التي أرادها لبطرسبورغ في التسعينيات، ولأنه رياضي متعطش تستهويه اللياقة البدنية، ولاعب جودو، ومتزلج، وسباح، فقد أحب دورة الألعاب الأولمبية، ورأى في استضافتها- بصفته قائدًا- وسيلة لتأكيد عودة روسيا إلى مكانها الصحيح على المسرح العالمي.

في عام 2001م حين لم يكن قد مضى وقت طويل على توليه الرئاسة، ذهب في رحلة تزلج إلى سانت أنطون في النمسا، يرافقه أحد القلة في عهد يلتسين، فلاديمير بوتانين، وبوريس نيمتسوف، الليبرالي الذي ألقى في البداية بكل ثقله لدعم بوتين. وعندما رأى بوتين المنتجعات التي تقع في مشهد جبال الألب، أعرب عن أسفه لأن روسيا الجديدة لم يكن لديها أي شيء من هذا، وقال لمرافقيه: «أريد الحصول على منتجع شتوي على النمط الأوروبي»[1]، وكان القلة، المدينون لبوتين بالفضل- سواء كانوا كبارًا أم صغارًا- مجبرون على تنفيذ أمنيته، وفي يناير/كانون الثاني 2006م افتتَح مصرفُ (روسيا)، ليوري كوفالتشوك، منتجعًا للتزلج يدعى إيجورا على بعد اثنين وخمسين ميلًا شمالي بطرسبورغ على الطريق السريع المؤدي إلى البيت الريفي أوزيرو، الذي يتقاسمه كوفالتشوك وبوتين، مع سبعة مسارات، مع

أن الانحدار العمودي كان قرابة أربع مئة قدم أو أقل؛ وكذلك وضع بوتانين- الذي تسيطر شركته إنتيروس على عملاق المعادن نوريلسك نيكل، وهي التي جعلته على رأس قائمة المليارديرات الروس- مخططات لمشروع طموح جدًّا على سلسلة التلال التي تدعى روزا خوتر في الجبال فوق منتجع سوتشي على البحر الأسود.

وعندما كان بوتين في إجازته التي اعتاد أن يقضيها بانتظام في المنتجع الرئاسي في سوتشي، زار موقعًا نائيًا فوق قرية جبلية بائسة، هي كراسنايا بوليانا، وهناك ولدت أسطورة؛ (فقد شاهد هذا الطريق مصادفة)، وقد أشار أناتولي باخوموف، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لبلدية سوتشي، إلى أن الطريق الذي يتعرج بجوار نهر مزيمتا محفوف بالأخطار، فقال بوتين: «هذا الجمال وهذه الثروات في كراسنايا بوليانا، يجب أن تكون من حق كل الناس»[2].

لم تكن المشاريع بالنسبة إلى بوتين استثمارات من الناحية التجارية الصرفة؛ بل إنها في الواقع كانت مشكوكًا في جدواها الاقتصادية، فقد كانت مساعيه وطنية أيضًا؛ تبغي تحقيق المصلحة العامة التي يعتقد أنه الوحيد الذي يفهمها، وهو من يقرر ذلك. وما إن أصبحت غازبروم في قبضة بوتين، حتى بدأت بإنشاء منتجع مماثل في واد مجاور بالقرب من روزا خوتر، وكان المشروعان هما الأساس في محاولة بوتين الجديدة التي سافر من أجلها إلى غواتيمالا ليتقدم بها إلى مندوبي اللجنة الأولمبية الدولية.

قُدِّم عَرْض سوتشي للجنة الأولمبية الروسية في عام 2005م، ولكن على الرغم من ذكريات باخوموف المبجلة، لم تنشأ فكرة تنظيم المباريات مع بوتين؛ فطموحه هذا استحوذ من قبله على قادة البلاد لعشرات السنين؛ ففي أعقاب أولمبياد موسكو، ناقش المكتب السياسي سرًّا، برجاله المسنين في الكرملين، إمكانية عقد دورة الألعاب الأولمبية الشتوية، فاستعرضوا أربعة مواقع محتملة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، ثم تبدد الحلم بتعاقب الأمناء العامين في الثمانينيات، ومن ثم وعد البيروسترويكا وما رافقها من اضطرابات[3]. ومن المدن المستعرضة ثلاث: ألمآتا في كازاخستان، وباكورياني في جورجيا،

وتساغكادزور في أرمينيا، وكلها لم تعد جزءًا من روسيا، باستثناء سوتشي، وهو المنتجع المفضل منذ أيام ستالين، لكنه يفتقر إلى أي مرافق حديثة لدورة الألعاب الأولمبية؛ أولها غياب منحدرات للتزلج.

وفي عام 1995م، في أثناء الولاية الرئاسية المضطربة ليلتسين، عرض الروس سوتشي لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية لعام 2002م، لكن لم ينجح العرض حتى بالوصول إلى القائمة القصيرة، وحاول بوتين مرة أخرى في عام 2005م السعي إلى دورة الألعاب الأولمبية الصيفية، وتنافست حينها موسكو ونيويورك ومدريد وباريس ولندن لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الصيفية عام 2012م، وخرجت أخيرًا في الاقتراع النهائي. وقد شكك تقييم اللجنة الأولمبية الدولية في قدرة روسيا على تنظيم مباريات في عاصمتها؛ فكيف يمكن أن تُهيئ روسيا، خلال عامين، سوتشي، المنتجع المتهالك الذي ليس فيه أي منشأة أولمبية قياسية، لتكون جاهزة لدورة الألعاب الأولمبية الشتوية لعام 2014م؟

سوتشي كانت تنافس سالزبورغ في النمسا، وبيونج تشانج في كوريا الجنوبية، ودخلت التصويت النهائي، بعد أن فقدت بفارق ضئيل العرض السابق، وقليلون من صوَّتوا لسوتشي.

عُقدت الجلسة 119 للجنة الأولمبية الدولية في ويستن كامينو رويال في قلب مدينة غواتيمالا، وكان بوتين قد تدرب على إلقاء خطابه على نحو مكثف، وبلغة إنجليزية أقرب إلى الكمال، وفي الصباح كان المتحدثَ الأول من بين المسؤولين المتقدمين بطلبات نهائية، فبدأ قائلًا: «التجمع الأولمبي في سوتشي سيكون أول مركز عالمي للرياضة الجبلية في روسيا الجديدة»، موضحًا أنه استوعب استعراض المكتب السياسي في الثمانينيات، وعواقب تفكك الاتحاد السوفييتي. «اسمحوا لي أن أشير إلى أن روسيا فقدت كل الملاعب الرياضية في الجبال بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، هل تصدقون ذلك؟»، بدا مرتابًا، بل مستاءً من هذا الانعطاف التاريخي القاسي، وسلط الضوء على جمال موقع سوتشي على البحر الأسود، المتاخم لقمم القفقاز، «على شاطئ البحر يمكنكم التمتع بأيام الربيع الجميلة، لكن هناك

في أعالي الجبال يكون شتاء». وتعهد بإنفاق 12 مليارًا لإقامة الملاعب، وهو مبلغ مذهل، يتجاوز ما خططت فانكوفر لإنفاقه في عام 2010م، ووعد أيضًا أن تكون «تجربة آمنة وممتعة، ولا تنسى»، ووعد مازحًا أنه سيخفف الاختناقات المرورية المزمنة في المدينة، ثم أنهى حديثه بالفرنسية الرسمية المتأنقة، شاكرًا اللجنة على النظر في الطلب المقدم.

بعدها غادر الفندق مراهنًا على هيبته وهيبة روسيا كثيرًا في عملية التصويت، لكنه رفض البقاء لحضور التصويت، وكأنه يتوقع أن النتيجة قد لا تكون سعيدة، ويخشى الحرج من أن تحتفي وفود سالزبورغ أو بيونج تشانج بالفوز، فاستقل طائرته الرئاسية عائدًا برحلة طويلة إلى موسكو.

اليوم وقد أصبح بوتين مذمومًا في كثير من الدول الغربية، بعد أن استنكر البلطجة الأمريكية، فإن صوابية موقفه من إراقة الدماء في العراق أكسبته شيئًا من الإعجاب في بعض الأوساط، وهناك من يعتقد أنه كان له دور في التصويت، الذي بدأ حين كان بوتين فوق المحيط الأطلسي[4].

حلت سوتشي في المركز الثاني في الجولة الأولى من التصويت، وحصلت على أربعة وثلاثين صوتًا مقابل ستة وثلاثين لبيونج تشانج، وحصلت سالزبورغ على خمسة وعشرين صوتًا، وخرجت من التصويت في الجولة الثانية. وعندما انتهت الجولة الثانية حصلت سوتشي على أكثر من سالزبورغ في التصويت، وبفارق أربعة أصوات عن بيونج تشانج، ومن ثم فازت روسيا وفاز بوتين. قال جان كلود كيلي؛ بطل التزلج الفرنسي والعضو في اللجنة الأولمبية الدولية، موضحًا بعد التصويت: «كان لطيفًا، تحدث الفرنسية ولم يسبق أن تحدثها، تحدث الإنجليزية ولم يسبق له أن تحدثها. الكاريزما التي تحلى بها بوتين جاءت بأربعة أصوات»[5].

نائب رئيس الوزراء الذي بقي في غواتيمالا، ألكسندر جوكوف، اتصل هاتفيًّا ببوتين على متن الطائرة الرئاسية لإبلاغه باختيار اللجنة، فاتصل بوتين برئيس اللجنة الأولمبية الدولية جاك روج، وشكره على ما وصفه «بالقرار غير المتحيز»، وفي الداخل ارتفعت شعبية بوتين.

وعندما عاد منتصرًا إلى موسكو، نزل من طائرته والتقى جمعًا من الصحفيين في قاعة كبار الشخصيات في مطار فنوكوفو، وصرح قائلًا: «إنه إنصاف لبلدنا من دون أدنى شك». فقط في بلد يائس من اختياره لدورة الألعاب الأولمبية يبدو الحدث غير عادي على الإطلاق. وأعلن جيرمان جريف في مدينة غواتيمالا: «لقد نهضت روسيا من كبوتها!».

ومع حلول الصيف فالخريف، بدأ الخوف يدب داخل جدران الكرملين من أن روسيا دون بوتين قد تصاب بنكسة، وخيَّمت الشكوك على النخبة السياسية والاقتصادية؛ فقد بدأت تلوح في الأفق- وهو في أوج سلطاته السياسية- نهاية ولايته الرئاسية، وتأكيدات بوتين المتكررة بأنه لن يجري تعديلًا على الدستور يتمكن من خلاله من البقاء ولاية ثالثة في النهاية باتت بحكم الأمر الواقع، وقد توصلت النخبة إلى حقيقة غير سعيدة؛ بأن هذه ليست مجرد انعطافات خجولة؛ فقد خلق بوتين مشكلة خاصة به: يريد التمسك الصارم بالقانون، وضمان الانتقال السلس إلى الرئيس الجديد، لكن سيكون هو الوحيد الذي يسيطر عليه. كانت إستراتيجيته استبدادية بلا شك، لكنه سعى إلى غطاء الشرعية، خوفًا من تكرار الثورة الملونة التي يثيرها الأعداء في الخارج، فتدمر النظام الذي أمضى ما يقرب من ثماني سنوات في بنائه.

بدا سيرجي إيفانوف المتسابقَ الأول المفترض في حملة غير معلنة ليحل محل بوتين، يليه ديمتري ميدفيديف، مع أن بوتين بين الفينة والأخرى يلقي بعض التلميحات المغيظة بأن آخرين يمكن أخذهم بالحسبان: ربما صديقه القديم فلاديمير ياكونين في الخطوط الحديدية الروسية العامة، أو حتى- من أجل التنوع- محافظ بطرسبورغ، فالنتينا ماتفيينكو، ولم يجرؤ أحد أن يعلن طموحه لهذا المنصب، الذي يعد اغتصابًا لحق بوتين. شكَّل إيفانوف بهدوء مجلسًا استشاريًّا لإعداد المواقف السياسية[6]، في حين عمل ميدفيديف على (المشاريع الوطنية) التي تؤكد دوره الجماهيري الواضح. كلا الطرفين جمعا أنصارًا غير رسميين ومعارضين في المداولات التي يجب أن تمر من خلال الحكومة، لكن حتى نهاية الصيف، لم يُشر بوتين إلى مرشحه، ولم يكن في عجلة من أمره؛ فوريثه المعين قد يسرق

الأضواء منه ويجعله بطة عرجاء، وهذا ليس غير متخيَّل فقط، وإنما غير مقبول أيضًا. ونتيجة تكتمه أصبحت صفوف البيروقراطيين مشلولة، وغير راغبة في اتخاذ القرارات التي من المقرر أن تستمر إلى ما بعد نهاية رئاسة بوتين، أو تؤثر في مكانها في أي إدارة قادمة[7]، وخلق تكتمه أيضًا توترات خطيرة تسربت بعُوارها إلى الجمهور.

أثار بوتين التكهنات أبعد من ذلك عندما كشف، في 12 سبتمبر/أيلول، عن آخر فصل في مسرحية الديموقراطية الموجهة؛ فقد سار ميخائيل فرادكوف، رئيس الوزراء العملي المخلص منذ عام 2004م، إلى مكتب بوتين في الكرملين والكاميرات تلاحقه، حيث استقال من منصبه على نحو غير متوقع، وقال: «أنا أفهم العمليات السياسية الجارية في الوقت الحالي، أود أن يكون لك مطلق الحرية الممكنة في اتخاذ القرارات»، لم يبدُ بصورة رجل يريد التنحي من مبدأ الإيثار، بقدر ما بدا ممثلًا لم يتمرن على دوره بما يكفي؛ فقد بدا بائسًا ومضطربًا، في حين حاول بوتين أن يبدو مفكرًا ومترويًّا، ثم أجابه: «ربما أنت على حق»، وشكره على خدمته، مع أنه أشار إلى أن بعض الأخطاء قد ارتكبت، وقال من المهم التفكير في كيفية تأثير المرشح الجديد في الوضع السياسي قبل الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/كانون الأول، والانتخابات الرئاسية في مارس/آذار. وبعد ساعات قليلة أعلن على نحو غير متوقع الشخص الذي سيخلف فرادكوف: فيكتور زوبكوف.

قرار بوتين لم يفهمه أحد خارج الكرملين، وقليل من تفهَّمه في داخله، حتى سيرجي إيفانوف لم يعرف أنه قادم[8]، فإذا كان بوتين يحاكي النموذج الذي اتبعه يلتسين في تعيين خليفته، فإنه بتعيين رئيس وزراء جديد عشية الحملة الانتخابية الرئاسية يكون قد اختار رجلًا بتصميمه ذي كفاءة متواضعة. فزوبكوف، الذي ولد في الأشهر الأولى من الحرب الوطنية العظمى كان جزءًا من فريق الرجال الذين زوِّرت سنداتهم مع بوتين في بطرسبورغ في التسعينيات، بعد صفقات المقايضة المبكرة التي نتج عنها فضيحة في شتاء عام 1991م. وهو المدير السابق للمزارع الجماعية، وكان قد ساعد بوتين- مستخدمًا نفوذه بين المزارعين الإقليميين- لاستئناف إمدادات الإنتاج للمدينة الجائعة[9]، وأصبح أحد الشركاء المقربين

من بوتين، وتولى مسؤولية تمكين الضرائب في المدينة، وجاء به في وقت لاحق ومعه إيجور سيتشين لإعداد أطروحات في معهد التعدين في التسعينيات، ولحق ببوتين في وقت لاحق إلى موسكو، حيث رأس سبعَ سنوات جهاز الرقابة المالية الروسية الجديدة، وهو القسم الذي فسح المجال له ولبوتين حصريًا لمعرفة ما يدخل ويخرج من أموال الشركات في البلاد، والمعلومات التي لا تقدر بثمن في تمكين الولاء، ومن ثم الحفاظ على شيء من التوازن بين الإمبراطوريات المالية المتنافسة التي أُسست، وكثير منها مرتبط بالدولة نفسها.

أوضح بوتين في وقت لاحق: «أود أن أؤكد لكم أن فيكتور زوبكوف أساء لهذه الثقة أكثر من مرة»[10]. بعد إعلانه سافر بوتين إلى مناطق تشوفاشيا وبيلغورود ليشاهد كيف تسير (مشاريع ميدفيديف الوطنية) في إحياء زراعة الدولة، تاركًا النخبة السياسية تفكر في مغزى مناورته هذه غير المتوقعة؛ فهل قرر بوتين الوقوف ضد ميدفيديف أو إيفانوف بعد كل شيء؟ هو يريد بالتأكيد الإشارة إلى أن القرار لا يزال مفتوحًا.

في 14 سبتمبر/أيلول قال إن هناك خمسة مرشحين مهمين على الأقل لرئاسة الجمهورية، لكنه لم يكشف عنهم[11].

وبعد يومين من ترشيح زوبكوف الذي صادق عليه بسرعة مجلس الدوما، لم يكن كافيًا لتهدئة الصراع على السلطة الدائر في الخفاء، الذي كان يتكشف طوال عام التكتم الذي فرضه بوتين. هذا الصراع، الذي أصبح يعرف باسم (حرب العشائر)، اندلع بصورة غير متوقعة في 2 أكتوبر/تشرين الأول، عندما اعتقلت مفرزة من جهاز الأمن الفيدرالي بتباهٍ مسؤولًا كبيرًا من وكالة مكافحة المخدرات، الجنرال ألكسندر بولبوف، لدى وصوله إلى مطار دوموديدوفو، ولأن بولبوف سافر بمهمة أمنية خاصة، فقد وقع حين اعتقاله تبادل لإطلاق النار في المحطة.

بولبوف هو أحد قدامى المحاربين المزدان بالنياشين، وشارك في الحرب السوفييتية في أفغانستان، وكان نائبًا بارزًا لفيكتور شيركيسوف، أحد رجال الـ(كي جي بي)، وكان بوتين

قد عرفه في السبعينيات، وبناء على أوامر بوتين كُلِّف بالتحقيق في تهريب مخزن الأثاث تري كيتا الذي استغرق وقتًا طويلًا، وكذلك في قضية ثانية تسمى غراند. وكانت القضية قد بدأت في عام 2000م عندما صادر مسؤولو الجمارك شحنة من الأثاث من الصين، واكتشفوا أن أصحاب تري كيتا قد تهربوا من دفع الرسوم والضرائب بتواطؤ مع مسؤولين كبار في جهاز الأمن الفيدرالي. فلاديمير أوستينوف، النائب العام، أوقف التحقيق، ولكن الجدل لم يتوقف، وترك وراءه على ما يبدو عددًا من الضحايا، منهم يوري شيكوشيكين، النائب في البرلمان الذي كتب عن القضية في صحيفة نوفايا غازيتا. بعد أن طرد أوستينوف، أمر بوتين بمقاضاة أكثر قوة وصلابة، لكن الرجل الذي رَأَس المخابرات الروسية (FSB) أصبح اليوم قيد الاعتقال من قبل الوكالة ذاتها، متهمًا بسلسلة من عمليات التنصت على رجال الأعمال والصحفيين، وبدا منافسو تشيركيسوف وكأنهم داخل بلاط بوتين: الحرس القديم المتحالف مع إيجور سيتشين.

منذ البداية، كان حلفاء بوتين يسعون إلى تغيير التحالفات والطموحات، لكن بوتين كان مضطرًّا إلى إظهارهم موحدين أمام الجماهير. واليوم مع نهاية الرئاسة، تهدد التوترات بالتحول إلى صراعات مفتوحة، ولم تعد مؤسسة سلطة بوتين، من الرجال الذين ثبَّتهم في جميع أنحاء الحكومة، تبدو قوية كما كانت، وبعد القبض على نائب وأربعة ضباط آخرين من وكالته اضطر شيركيسوف إلى التحدث، ربما لأنه لم يعد قادرًا على الوصول إلى الرئيس، حيث يحول دون الوصول إليه منافسه المتحالف مع سيتشين، العميل المتفاني، وحتى الرومانسي، الذي لا يعتذر عن ماضيه في الـ(كي جي بي)، كتب شيركيسوف رسالة استثنائية مفتوحة على الصفحة الأولى من صحيفة كوميرسانت، يفصِّل فيها ما كان حتى ذلك الوقت مجرد تكهنات وشائعات حول الأعمال الداخلية لكرملين بوتين. وتحدث أن الحرب قد اندلعت في صفوف الأجهزة الخاصة، التي كانت خلاص الأمة ولكنها اليوم تلهث وراء التجارة والربح، واتهم جهاز الأمن الفيدرالي باعتقال نائبه للتغطية على تواطئه في مخططات تري كيتا، وكتب: «لا تحاول أن تكون تاجرًا ومحاربًا في الوقت نفسه»، يخاطب بهذا جميع ضباط

المخابرات السابقين والحاليين في بلاط بوتين؛ «إنه لا يمكن أن يحدث؛ إنه إما – أو»[12]. لا يمكن النصر في صراع ضمن صفوف بوتين؛ لأنها حرب ستنتهي بحلٍّ كامل لكل ما بناه بوتين، والغريب أنه لم يطلق عليها دولة، فقد سماها الشركة.

استمر القتال الضروس طوال فصل الخريف، ولم يستطع بوتين أو زوبكوف السيطرة عليه، وفي نوفمبر/تشرين الثاني، عاد التقرير الذي أصبح في طي النسيان منذ مدة طويلة- أو ربما حُجِب قهرًا- عن مخالفات بوتين في فضيحة تصدير في بطرسبورغ منذ ستة عشر عامًا، عاد إلى الظهور. وبدا أن (حرب العشائر) اليوم ترمي إلى تشويه سمعة بوتين، الذي واجه منذ وقت قريب الاتهامات العلنية الأولى بأنه جمع ثروة لنفسه مستخدمًا أقرب أصدقائه من بطرسبورغ- يوري كوفالتشوك وجينادي تيمتشينكو- واجهات، وانتشرت أيضًا شائعات عن انقلاب عسكري في موسكو، تمامًا كما انتشرت في الصيف الماضي من رئاسة يلتسين، مع أنه من غير الواضح هل كان المقصود هو الإطاحة ببوتين أو إسقاط الدستور وإبقائه في منصبه، فنُشرت مناشدة من أجل الهدوء في صحيفة قومية (زافترا) على صورة رسالة من خمسة مديرين سابقين، أو المديرين الإقليميين من الـ(كي جي بي) السوفييتي، من بينهم فلاديمير كرايوشوف، الرجل الذي قاد الانقلاب الفاشل في عام 1991م؛ كتبوا: «ثقوا بتجربتنا. كارثة كبيرة يمكن أن تحدث»[13].

لم يتحدث بوتين كثيرًا عن الصراع، فقد سعى إلى الحفاظ على التوازن بين الفصائل المتنافسة، مع أن بعضهم يشتبه في أنه وراء هذا الصراع للحفاظ على سلطته في نهاية المطاف[14]، فقد انتقد شيركيسوف لِبثِّه «هذه الأنواع من المشكلات»، لكن مضى في توسيع سلطة وكالة مكافحة المخدرات التي يديرها شيركيسوف[15]، واحتفظ لنفسه أيضًا بالخطط النهائية للخلافة، في انتظار نتائج الانتخابات البرلمانية في أوائل ديسمبر/كانون الأول.

الانتخابات الروسية أصبحت شأنًا مفككًا اليوم، تسيطر عليها السلطة المركزية بكل دقة، وتفتقر إلى المنافسة الحقيقية وعنصر التشويق فيها؛ إذ إن حزب السلطة (روسيا

المتحدة) حاز كل مزايا موارد الكرملين لنفسه، تاركًا للمعارضة المتسامحة؛ من شيوعيين وقوميين وديموقراطيين وليبراليين، وحزب جديد يرأسه أحد الحلفاء السياسيين لبوتين من بطرسبورغ، روسيا فقط- قليلًا من الأكسجين كي تتنفس.

نقاد بوتين الليبراليون والديموقراطيون، الذين يقودهم اليوم رئيس وزراء بوتين السابق، ميخائيل كاسيانوف، وبطل العالم السابق في الشطرنج غاري كاسباروف، شنوا احتجاجات حادة، لكنها غير عملية، لكونهم هم ومرشحين آخرين محتملين كانوا غير مؤهلين للاقتراع، بذرائع بيروقراطية. والذي لم يواجه عقبات إدارية كان أندريه لوجوفوي، والذي يغمره الفرح لسوء سمعته بصفته قاتلًا مشتبهًا فيه، وقد انضم إلى لائحة مرشحي الحزب الليبرالي الديموقراطي، مؤكدًا لنفسه مقعدًا في مجلس الدوما، ومن ثم الحصانة من الملاحقة القضائية (التي بدت ضرورية في ظل رفض روسيا تسليمه).

بالنسبة إلى بوتين يمثل قادة المعارضة الجامحون مؤامرة ضد روسيا نفسها، وقد أثبت كاسباروف، الذي تقاعد من الشطرنج عام 2005م ليتفرغ لتخفيف قبضة بوتين على السلطة، أنه سيف المبارزة المثالي، وقد اعتقل لتنظيمه مسيرات احتجاج في موسكو، وبطرسبورغ، وغيرها من المدن، في نهاية الأسبوع الذي سبق الانتخابات البرلمانية، وحكم عليه بالسجن خمسة أيام، وعندما هتف كاسباروف، وهو متعدد اللغات، شيئًا باللغة الإنجليزية وضعوه بخشونة في حافلة للشرطة، وكانت ردة بوتين، الذي أُعجب ذات مرة بانتصار هذا البطل الشاب في عام 1985م، ساخرة، فقال: «عندما اعتقل السيد كاسباروف لماذا صرخ باللغة الإنجليزية بدلًا من اللغة الروسية؟»، سأل مجلة التايم، التي اختارته- على الرغم من تشوُّه سمعته داخل الغرب وخارجه- شخصية العام. «فقط فَكِّر في ذلك، كل هذا الهجوم غايته بلدان أخرى بدلًا من الشعب الروسي، وعندما يعمل السياسي لحشود من دول أخرى بدلًا من الشعب الروسي، فإنه يقول لك شيئًا. إذا كنت تطمح إلى أن تكون قائدًا في بلدك، فكرمى لله تكلم لغتك الخاصة»[16].

بوتين لم يكن قد انضم إلى حزب السلطة (روسيا المتحدة)، لكن مع اقتراب الانتخابات البرلمانية، فقد تربع على عرش مرشحيه، وهو ما يمهد الطريق أمامه ليظل زعيمًا للحزب إذا أراد ذلك، وكان بعضهم يعتقد أنه سيتنحى عن الرئاسة لكن سيستخدم قيادة الحزب ليبقى في النهاية في السلطة السياسية.

حملته الانتخابية للحزب لم تكن بأكثر مما كانت عليه في الانتخابات الخاصة به، لكن ما إن رَأس الدولة حتى قدَّم نفسه في نشرات الأخبار المسائية على أنه المنقذ لروسيا. عشية الانتخابات ألقى خطابًا من خلال التلفاز بدا كأنه خطاب الوداع، وقال بأسلوبه الحازم: «لقد فعلنا أمورًا كثيرة معًا؛ فالاقتصاد ينمو باطراد، والفقر في تراجع، ولو ببطء، ونحن عازمون على تصعيد محاربة الجريمة والفساد». وقدَّم اعترافًا نادرًا بأنه ليس كل شيء يسير على ما يرام، لكن انتقل إلى الأساس المنطقي لرئاسته: «دعونا نتذكر ما بدأناه معًا قبل ثماني سنوات، أي نوع من الحفر كان علينا أن ننتشل البلاد منها؟»، أمام روسيا طريق طويل لا بد من أن تقطعه، نعم، ولكن لا يمكن أن نخضع «لأولئك الذين حاولوا عبثًا أن يحكموا البلاد».

كانت الصيغة متناقضة؛ فمن الذي يقصده؛ يلتسين الذي أوصله إلى الكرملين، أم الشيوعيين من الحقبة السوفييتية؟ برنامج الحزب الشيوعي دعا إلى مزيد من العدالة الاجتماعية لأصحاب المعاشات، ولكنه لم يكن على قطيعة حقيقية مع الطفرة الاقتصادية التي شهدتها رئاسة بوتين. كان أعداء بوتين هم (الآخرون) الغامضون، البرابرة المسعورون على الأبواب الذين يقتحمون الجدران بقصد وحيد هو تدمير روسيا. «اليوم هؤلاء الناس يرغبون في إعادة صياغة خطط تنمية روسيا، لتغيير المسار الذي دعمه الشعب الروسي، والعودة إلى زمن الذل والتبعية، والتحلل».

عقب الإدلاء بالأصوات في 2 ديسمبر/كانون الأول، فاز حزب روسيا المتحدة رسميًّا بـ 64 في المئة من الأصوات، على الرغم من أن عددًا قليلًا يعتقدون في صحة رصيده أو أنه ما زال كما كان من قبل، وكان الإقبال واسعًا على نحو مثير للريبة في بعض المناطق، ومع

ذلك لم ينزل أحد إلى الشوارع- كما كان الحال في أوكرانيا- للمطالبة بإعادة فرز الأصوات أو إعادة التصويت. واليوم، كما حذر كاسباروف في حملته الانتخابية، يستحيل الطعن في الآليات القانونية التي كفلت انتصارًا محتومًا. الأطراف الأخرى من الأحزاب الأخرى بقيادة الشيوعيين تراجعت كثيرًا، على الرغم من أن حزب الديموقراطيين الأحرار أبلى بلاء حسنًا ليفوز أندريه لوجوفوي بمقعد. وبعد يوم من التصويت أعلن بوتين أن النتيجة تشير إلى نضج الديموقراطية في البلاد.

بقي للانتخابات الرئاسية اليوم أشهر فقط، ولا يزال مستقبل بوتين غير واضح، حتى لأقرب المقربين إليه. وهو الآن يواجه اختيارًا مصيريًّا لسيرته السياسية، وأعظم مشروعية له- بعد غزو الشيشان، والازدهار الاقتصادي، والفوز بدورة الألعاب الأولمبية- ستكون انتقال السلطة الذي لم يحدث في تاريخ روسيا منذ مدة طويلة، إلا في عهد بوريس يلتسين الضعيف، وقد تنحى عن منصبه طوعًا، واليوم يقف بوتين في مفترق الطرق نفسه.

بوجود أغلبية دستورية مذعنة يمكنه بسهولة، حتى في تلك الساعة المتأخرة، أن يبقى في منصبه من خلال إعادة النظر في الدستور، وكانت الاحتجاجات في روسيا نادرة، حيث ظلت شعبيته عالية على نحو مدهش، والتنديد الذي سيوجهه بالتأكيد المجتمع الدولي، لن يؤدي إلا إلى تأكيد دعواه بأن أعداء بلاده رفضوا قبول قدرها بصفتها قوة مستعادة؛ أو أنه قد يسلم السلطة لزعيم جديد ويتقاعد، كما فعل يلتسين قبل ثماني سنوات عندما سلمه المهمة على نحو غير متوقع- «اعتن بروسيا»- بعد أن حقق إنجازات تتجاوز توقعات أي شخص في ذلك الوقت.

كان ذلك بعد ثمانية أيام من الانتخابات البرلمانية، وقبل ثلاثة أشهر تقريبًا من الانتخابات الرئاسية، عندما حسم بوتين أمره أخيرًا بشيء من فصلٍ مسرحيٍّ سياسي قبل عطلة الشتاء الطويلة. في 10 ديسمبر/كانون الأول انضم زعيم حزب روسيا المتحدة، بوريس جريزلوف، لقادة ثلاثة أحزاب أخرى في مكتب كرملين بوتين، وكانوا قد تداولوا

المرشحين المحتملين لأعلى منصب في البلاد، ثم أخبر جريزلوف بوتين أنه يريد أن يناقش معه بالتفصيل توصياتهم. بدا الاجتماع تشاوريًّا، لا إقرارَ أمرٍ اتخذه بوتين من قبل، وكانت السياسة المتبعة أشبه بفن أدائي بممثلين غير محترفين. أوضح جريزلوف لبوتين أنه وقادة الأحزاب الآخرين أجمعوا على اختيارهم: لا إيفانوف ولا زوبكوف ولا أي من المرشحين الآخرين الذين لم يكشف عن أسمائهم، ويزكيهم بوتين نفسه، وإنما الرجل الذي بدأ يخبو نجمه في العام الماضي: ديمتري ميدفيديف، الذي يعمل اليوم بإخلاص مع بوتين منذ سبعة عشر عامًا[17].

حدث أن كان ميدفيديف من بين الحضور عندما تراجعت كاميرات التلفاز فجأة لتركز على بوتين، ثم تحولت عنه باتجاه ميدفيديف بجهل مختلق.

> «دميتري أناتوليفيتش، هل تشاوروا معك على ذلك؟».
>
> أجاب: «نعم»، كان يؤدي دوره بكل إخلاص وظيفي لا يختلف عن غيره. «كانت هناك مشاورات أولية وكانت إيجابية، وسنواصل هذه المناقشات اليوم وغدًا».

أظهر بوتين استياءه من وجود «كثير من الأحداث السياسية التي حُشرت في مدة قصيرة من الزمن»، قبل حلول العام الجديد، «لكن الحياة يجب أن تستمر، ويتطلب القانون أن نبدأ حملة الانتخابات الرئاسية»، بدا هادئًا كما لو أن الانتخابات واجب لا بد منه. وبدلًا من إعلان وريثه بصراحة، كما فعل يلتسين، أراد بوتين أن يخلق انطباعًا بأن خياره جاء بموافقة «طيف واسع من المجتمع الروسي»، ممثلًا في قيادات الحزب في هذا الحيِّز، فهو يريد- ومقاليد السلطة في يديه- أن يحافظ على التظاهر بصيغة الخيار الجمعي، وهي الديموقراطية (المدارة)، وليست أمرًا سلطويًّا. مع كل تهديده ووعيده، وسخرية الغرب السوداء منه، لا يزال يحاول التحقق من صحتها، بحيث يكون انتزاع السلطة أمرًا غير دستوري، ومن ثم فقد سعى، بعقليته القانونية، إلى وسيلة يضمن فيها خلافته من داخل حرفية القانون الصارم، إن لم يكن من روحه.

بين عشائر الكرملين، بدا ميدفيديف الخيار الأقل مدعاة للانقسام، وهو المقبول لدى مختلف الفصائل المنضوية تحت سلطة بوتين، ربما باستثناء سيرجي إيفانوف وإيجور سيتشين[18]، ولم يُنظر إليه على أنه يمثل تهديدًا خطيرًا لأي منهم، على الأقل لبوتين نفسه. كان حلفاء ميدفيديف في الحكومة من (الليبراليين) و(الإصلاحيين)، لكنه لم تكن عنده قاعدة للسلطة خاصة به.

كانت عملية انتقال السطلة، التي أدارها بوتين في نهاية رئاسته، معقولة في دولة عظمى ناشئة، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكشف عن مصيره هو. والفصل الأخير من مسرحه السياسي جاء في اليوم التالي، حين خاطب ميدفيديف الأمة على أنه رئيس مفترض قادم من أجل الاستقرار، وفي حال انتخابه، فسيرشح رئيسًا للوزراء... الرئيس فلاديمير بوتين، وباتت تلك الترتيبات تُعرف (بالترادفية)، وطمأنت أولئك الذين كانوا قلقين كثيرًا من رحيل بوتين في الكرملين، أنه بعد ثماني سنوات من رئاسة الدولة، لن يغادر بوتين السلطة.

في 11 أبريل/نيسان 2008م، وقبل أسابيع قليلة من تنصيب ديمتري ميدفيديف رئيسًا للبلاد، نشرت صحيفة شعبية جديدة نسبيًا، هي موسكوفسكي كورسبوندنت، مقالة قصيرة تجرأت على اختبار حدود الحقبة السياسية التي يأمل كثيرون أن يقودها الرئيس الجديد. المقالة كتبها الصحفي المخضرم سيرجي توبول، وتتألف من 641 كلمة، وكانت لهجتها تخلو من الابتذال والافتراءات، بل إنها كانت متعاطفة عندما وصل الأمر إلى مسألة الحياة الخاصة لبوتين. لم تكن صحيحة تمامًا، لكنها كشفت السرية التي كانت تلف حياة بوتين الأسرية مدة ثماني سنوات، وحملت عنوان: (**متلازمة ساركوزي**)، في إشارة إلى طلاق الرئيس الفرنسي الأخير وزواجه من زوجته الثالثة، مغنية البوب كارلا بروني. حياة بوتين الشخصية- كما كتب توبول- كانت حياة معكوسة؛ فقد ظل متزوجًا خلال ولايتَيه الرئاسيتين، ولكن اليوم مع تنحيه عن أعلى منصب «ثمة قليل ما يربط الزوجين»؛ و(التسريح)- كما وصفه توبول- يُعتقه اليوم «ليبحث عن وقت يحسم به أموره الشخصية».

ثم جاءت القنبلة المفترضة بعد أربع فقرات في المادة: انفصل الزوجان سرًّا في فبراير/شباط، وفي يونيو/حزيران خطط للزواج ثانية بحسب (مصادرنا)، وكانت العروس ألينا كابايفا، بطلة العالم في الجمباز الإيقاعي، حائزة الميدالية البرونزية في دورة الألعاب الأولمبية في سيدني عام 2000م، والميدالية الذهبية في أثينا بعد أربع سنوات. لم تكن كابايفا قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت إحدى المشاهير الأكثر جاذبية في روسيا، وبحلول عام 2001م، مع اعتزالها الحياة الرياضية، أصبحت الوجه الجماهيري للحزب السياسي الذي أصبح حزب روسيا المتحدة. وظهرت في انتخابات ديسمبر/كانون الأول عام 2007م مرشحةً على قائمة الحزب، وجاء تجنيدها جزءًا من محاولة جعل الحزب أكثر جاذبية، وحصلت على مقعد في مجلس الدوما عندما اكتسحت الأصوات.

وعلى الرغم من أنه بقي تحت نظر الجمهور ثماني سنوات، فقد احتفظ بوتين بتفاصيل حياته الخاصة من أية معاينة أو مناقشة عامة، وابنتاه خصوصًا كانتا تتواريان في عالم أمني مستور منتشر، خَلَقه خوف والدهما وجنون عظمته، حتى إنه قال مرة لصديقه القديم، سيرجي رولدوغن، الأب الروحي لماشا: «أخذت زوجتي وطفلتيَّ بعيدًا وخبأتهم»[19].

في البداية، حين ضربت الحرب في الشيشان قلبَ موسكو، خشي بوتين على أمنهن، وقليل من تساءل عن دوافعه. وخلافًا لأطفال الروس الآخرين من السياسيين ورجال الأعمال، لم تستخدم بنات بوتين مزاياهن لتعزيز حياتهن المهنية، أو للبحث عن شهرة؛ فقد اختفتا ببساطة، وقبلتا حياة مريحة وإن كانت مقيدة، بعدم الكشف عن هويتيهما. وباستثناء المقابلات المبكرة معهما- بهدف تلميع صورته وتصويره على أنه أب شغوف وقاسٍ- لم يكرر توظيفهما مرة أخرى على طريقة السياسيين في أماكن أخرى، ممن يستخدمون أطفالهم دعائم لهم.

أكملتا دراستيهما في عزلة مع معلمين خصوصيين، مع قدر عال من الحراسة الأمنية، وقد تعلمتا كلتاهما العزف على البيانو والكمان، بتشجيع من رولدوغن وبوتين المهتم

بالموسيقى؛ إذ كان رولدوغن يعتقد أنهما يمكن أن تكونا عازفتين محترفتين «إن كان لهما مصير مختلف». وقد درستا في الجامعة نفسها التي درس فيها والدهما تحت أسماء مستعارة، وحتى معارفهما لم يكونوا على علم بعلاقتهما بزعيم البلاد.

مع الوقت، أصبحت علاقة بوتين بهما أكثر بعدًا؛ فقد ملأت أعباء السلطة كل وقته، وذات مرة سجلت الاثنتان قرصًا مدمجًا صغيرًا لموسيقا شملت كونشرتو باخ في بي ماينور، فكان بوتين يستمع إلى الموسيقى ليلًا، ويُسكت أي شخص يعكّر عليه متعة الاستماع. وبعد أن أصبحتا بالغتين ودخلتا الجامعة لم يعرف أحد خارج أسرتهما عنهما شيئًا.

لم تكن ليودميلا تشعر بالاستقرار المريح أبدًا في الحياة العامة لكونها زوجة سياسي، واقتصر ظهورها على المرحلة الأولى من رئاسة زوجها، إذ أجرت بعض اللقاءات والمقابلات، ورافقت زوجها في زيارات رسمية، فظهرت مع السيدات الأولى في الولايات المتحدة وبريطانيا وأخريات، لكن ضمن الأصول البروتوكولية فقط، ثم بدأ ظهورها يخبو شيئًا فشيئًا.

كانت تشرف على منظمة تدعى مركز تطوير اللغة الروسية، ووقفت نفسها على تعزيز القراءة والتعليم والروابط الموحدة للغة في الوطن الروسي، ولا سيما أولئك الذين وجدوا أنفسهم مهجرين خارج حدود روسيا عندما انهار الاتحاد السوفييتي، وأشار إليهم بوتين في كثير من الأحيان[20]. ثم تبنى بوتين الموضوع بقوة بعد الإهانة التي تعرضوا لها في الثورة البرتقالية في أوكرانيا؛ فأوجد مؤسسة حكومية أسماها (المؤسسة العالمية الروسية) للدفاع عن الشتات، والاحتفاظ بحقوقهم في الوطن الأم، على الأقل من الناحية الثقافية. لم يكن لليودميلا أي تأثير واضح في سياسات زوجها، وحتى في الحياة الخاصة، وقد قال رولدوغن: «لم تكن تتدخل في سياسة بوتين، ولم يطلب بوتين منها ذلك، ونادرًا ما شوهدا في موقف ودي أو حانٍ في الأماكن العامة. وحين يظهران معًا لم يكن يبدو عليهما التوافق، وقد صار ظهورًا أقل في ولاية بوتين الثانية. قد يكونان عاشا حياتهما الخاصة معًا، وتناولا معًا العشاء

مع بناتهما عندما كانوا في المنزل مجتمعين، ونادرًا ما تشاجرا علانية، بحسب رولدوغن، لكن لم يعودا زوجين حميمين.

قبضة الكرملين على وسائل الإعلام، بطبيعة الحال، كان من نتيجتها عدم متابعة حياته الخاصة، حتى الإيجابية منها، وعُدَّت من المحرمات، لا يختلف في ذلك عن معظم القادة الروس والسوفييت السابقين، الذين يصوَّرون- على نحو تقليدي- على أنهم شخصيات بارزة، ومن ثم منعزلة. كان والد الأمة بقدر ما هو والد في عائلته، وهي الصورة التي نحتها الكرملين بلا هوادة.

الفيلم السينمائي الذي ظهر في فبراير/شباط الماضي، كان يبدو أنه محاولة جديدة لتصوير بوتين على أنه زوج مخلص، في وقت كانت فيه الشائعات تثبت ما يخالف ذلك تمامًا، وقد حمل الفيلم عنوان: (**قبلة ليست للنشر**) اقتباسًا من مشهد رجل سياسي بارز يشبه كثيرًا بوتين، يقبِّل امرأة تشبه كثيرًا ليودميلا، أمام مجموعة من المصورين، ويهيب بالصحفيين بعدم نشر اللقاء. المنتجة والمخرجة أولغا زولينا، أصرت على أن الفيلم محض خيال، لكن التفاصيل مستمدة بوضوح من حياة بوتين: خدمته في الـ(كي جي بي) في دريسدن، حادث سيارة ليودميلا، وصعوده غير المتوقع إلى السلطة، وحتى بطل الفيلم حمل اسم بلاتوف، وهو الاسم الحركي لبوتين عندما كان في أكاديمية الـ(كي جي بي)، وهو دلالة معرفية إلى أن حياته كانت مصدر إلهام للمشروع. ولم يبتعد الفيلم عن حياة بوتين إلا في تصوير دور ليودميلا: في الذروة الدراماتيكية كانت تزود بلاتوف بمعلومات معينة عندما تأخر عن المؤتمر الصحفي المهم في الخارج، وتظهر بهذا اتزانها وذكاءها الذي أكسبها حفاوة دائمة من الصحافة. وكان من ضمن تفسيرات الفيلم أنه يهدف إلى «تغذية أوهام المعجبات ببوتين»، وتشير رسالته الأساسية إلى أن المصير السياسي للبلاد يعتمد على استقرار زواج بلاتوف.

الصحفيون الحقيقيون في تجمع الكرملين تعلموا ألا يسألوا ولا يكتبوا عن عائلة بوتين، ومع نهاية ولايته الرئاسية، بات مستحيلًا عدم ملاحظة ما يسميه توبول الشائعات التي نوقشت على نطاق واسع بأنه «ليس كل شيء على ما يرام بين الزوجين»؛ الرئيس والسيدة الأولى، وكتب توبول: «الواقع أن فلاديمير بوتين، مثل أي رجل سليم معافى، لن يبقى غير مهتم بامرأة رياضية جميلة أصبحت معروفة في دائرته الداخلية»، ثم أتى بعد ذلك على (اللغط) عن ارتباطه بغيرها من النساء، ومنهن المذيعة المعروفة لأخبار التلفاز على القناة الأولى، يكاترينا أندرييفا، نجمة كرة السلة السابقة، وألمح إلى الصحفية يلينا تريغوبوفا وقصتها مع بوتين حين اصطحبها إلى مطعم فارغ في سوتشي. أشار التقرير إلى العلاقات الشخصية و(الفضائح) التي ارتكبها قادة آخرون في العالم؛ من ساركوزي إلى بيل كلينتون وفاتسلاف كلاوس رئيس جمهورية التشيك، وأشار إلى أن الشعب الروسي، أيضًا، كان مستعدًّا لقبول طلاق القائد على أنه أمر عادي، بدلًا من الأساطير التي اختلقها الكرملين عن المُواطن القانع.

مثلما كانت مصادر التقرير مزيفة، نفى المتحدث باسم كابابيفا ذلك، والزواج في يونيو/حزيران لم يحدث في الواقع، لكن التقرير خلق ضجة كبيرة في أوساط الصحافة الأجنبية، وروع الصحفيين الروس الذين عرفوا أنه قد ذهب أبعد مما يتجرأ عليه أي صحفي من قبل. نشر المقال على شبكة الإنترنت، التي كانت في ذلك الحين ما تزال خارج سيطرة العقول المدبرة في الكرملين، مختبرًا الدرع الحديدي الذي أُقيم حول حياة بوتين الشخصية. كانت حملة الانتخابات الرئاسية لديمتري ميدفيديف قد وعدت روسيا بانفتاح أكبر، وحرية بفضاء أوسع، وقد نستطيع اليوم التحدث بقضايا كانت خطًّا أحمر فيما مضى.

بعد أسبوع من هدير الشائعات، أصبح من المستحيل على بوتين غض النظر عنها مدة أطول، وكان عليه معالجة المسألة خلال مؤتمر صحفي في إيطاليا، مع سيلفيو برلسكوني، الذي قدم مواد لا تنتهي للصحافة الإيطالية الحرة عن ميوله الشخصية. وكان برلسكوني،

الذي فاز من فوره في الجولة الأخيرة من الانتخابات، يبدي إعجابه الشديد ببوتين وأسلوبه السياسي، وكانت هذه المشاعر متبادلة.

ارتدى بوتين بدلة خاطها خياطُ برلسكوني الخاص، وأصبحا وثيقي الصلة في مجال الأعمال التجارية وعلاقتهما الخاصة، يتفاوضان على الصفقات وتبادل الزيارات والهدايا النفيسة، التي كان من ضمنها السرير ذو الأعمدة الأربعة مع الستائر، الذي كان مخصصًا للقاء برلسكوني مع العاهرة المظلومة باتريسيا داداريو، وقد سماه الزعيم الإيطالي: (سرير بوتين)[21].

في المؤتمر بدأت المراسلة الروسية ناتاليا ميليكوفا، من نيزافيسيمايا غازيتا، التي كانت تعلم أن الشائعات وصلت إلى الصحافة الإيطالية، لكنها ظهرت خائفة بكل الأحوال، بسؤال حول الغرض من الزيارة، ولكنها علقت على الطلاق الذي يشاع، وهل كانت الابنة البكر لبوتين قد انتقلت إلى ألمانيا وتزوجت؟ وبعد أن عزف عن الإجابة برهة من الوقت، أكد أنه لم ينوِ تجنب السؤال الأكثر إثارة. «أول شيء أريد أن أقوله هو الآتي: ليس هناك كلمة حق واحدة في ما قلتِه». كان واضحًا أنه كان على دراية بالتقرير المنشور؛ لأنه ذكر أندرييفا أيضًا، والشائعات عن العلاقات الأخرى، على الرغم من أن المراسلة لم تذكر ذلك، وبعدها حاول أن يلقي الضوء على ذلك، قال: «أعتقد أن أحدًا لن يفاجأ إذا قلت إنني أحب كلًّا منهم، تمامًا كما أحب جميع النساء الروسيات. أعتقد أن أحدًا لن يتأذى إذا قلت إنني شخصيًّا أعتقد أن نساءنا الروسيات هن الأكثر جمالًا والأكثر موهبة، والنساء الوحيدات اللائي يمكن مقارنتهن في هذا الشأن هن النساء الإيطاليات». بعد الترجمة، ذهل الإيطاليون موافقين، كما هز برلسكوني رأسه وأومأ، ثم التفت بوتين واستحال جليدًا: «أنا- بلا ريب- على دراية بالكليشيهات التي يعيشها السياسيون في البيوت الزجاجية، والناس- بطبيعة الحال- من حقهم أن يعرفوا كيف يعيش أولئك المنخرطون بالنشاطات العامة، لكن حتى في هذه الحالة لا بد من وجود بعض القيود».

وتابع: «هناك شيء من هذا القبيل في حياة المرء الخاصة التي يجب ألا يسمح لأحد أن يتدخل بها. وكنت دائمًا أرد بسلبية على أولئك الذين، بأنوفهم المخاطية وخيالاتهم الأيروسية، يتدخلون في حياة الناس الآخرين». ثم غيَّر الموضوع، مشيرًا إلى نمو الاقتصاد في ظل رئاسته، وكانت روسيا قد خفضت عدد الذين يعيشون في فقر مزدوج، والدخول الحقيقية تنمو، وعلى الأقل «لم يسأل أحد عن الشيشان بعد اليوم»، وأثبت جوابه أنه يكشف عن إنجازات عامة هي الأكثر أهمية، وليست حياته الشخصية. وقد هز برلسكوني رأسه حين تحدث بوتين؛ يصادقه على ما يقول، وعندما أنهى صديقه الحديث، وضع كلتا يديه معًا لترسما إطلاق مدفع رشاش، مصوبًا مباشرة على الصحفية الشابة التي طرحت السؤال.

وفي اليوم الذي رجع فيه إلى موسكو، أعلن مالك الصحيفة أنه بصدد إغلاقها، وتحدث عن انخفاض مبيعاتها، لكن لم يصدقه أحد.

عُمق علاقة بوتين مع كابابيفا، أو مع أي امرأة أخرى، سيبقى مجهولًا لأي كان عدا أصدقائه المقربين، لكن كان ثمة تعارف أبعد من التعارف السياسي العابر بين اثنين؛ فقد انتقلت بوضوح إلى دائرة الأصدقاء من بطرسبورغ الذين برزوا خلال ولاية بوتين الثانية. وقبل شهر واحد فقط من ظهور اسمها في علاقة مع بوتين، التحقت بالمجلس الاستشاري لمجموعة الإعلام الوطني التي أُسست حديثًا، وهي شركة قابضة يسيطر عليها يوري كوفالتشوك، الذي توسعت إمبراطوريته المصرفية لتشمل بعض المحطات التلفازية وأبرز الصحف في البلاد.

سيرجي فورسينكو، شقيق وزير التربية عند بوتين، أندريه، ومثله العضو المؤسس في جمعية البيت الريفي أوزيرو، التي كان بوتين عضوًا فيها أيضًا، تولى منصب مدير الشركة، التي استمرت في توسيع حيازتها لوسائل الإعلام لتكون أداة أقوى للدعاية التي تثبِّت سلطة بوتين. إدراج كابابيفا يشير إلى علاقة حميمة مع هذه العصبة، إن لم يكن مع بوتين شخصيًّا، حيث تعمقت هذه العلاقة بهدوء خلال رئاسته. فقط في نهاية ولايته الرئاسية، عندما واجه

مشكلة عام 2008م، رُفع حجاب السرية قليلًا، وقد ظن بعضهم أن الشائعات حول علاقتهما قد تكون إحدى سمات الصراع الجارية.

في فبراير/شباط 2008م، عشية انتخابات ميدفيديف، نشر اثنان من نقاد بوتين البارزين، بوريس نيمتسوف وفلاديمير ميلوف، كتيبًا من ست وسبعين صفحة، يذكر بالتفصيل- أول مرة- العلاقات التجارية التي وحدت دائرة بوتين، ومن ذلك الارتفاع المذهل لثروات يوري كوفالتشوك23. وقد شملت المكتسبات التي حصلوا عليها من المجموعة الوطنية للإعلام- كما يروي الكتيِّب- أصول وسائل الاعلام لغازبروم، التي اشتُريت في عام 2005م بـ166 مليون دولار، والتي قدر قيمتها ميدفيديف نفسه بعد عامين بمبلغ 7.5 مليارات دولار. لم يأت الوزيران السابقان، نيمتسوف وميلوف، من فصيل متطرف من المعارضة الروسية، لكن كافحا ليكون لهما تأثير، وكان يأملان أن يشجع الكتيب على النقاش السياسي، على الأقل قبل انتخابات ميدفيديف، وربما استمع ميدفيديف نفسه إلى سلسلة المشكلات التي يريدون تسليط الضوء عليها.

نيمتسوف، الحاصل على الدكتوراه في الرياضيات، شغل منصب حاكم في نيجني نوفغورود، ونائب رئيس الوزراء في عهد يلتسين، وكان من أوائل المؤيدين لبوتين، حتى إنه تزلج معه على جبال الألب النمساوية حيث بزغ أساس حلم سوتشي الأولمبي. أما ميلوف فكان نائب وزير الطاقة في عهد بوتين. وقد تنامت خيبة الأمل عندهما مع الاتجاهات الاستبدادية التي تلت إصلاحات بوتين في وقت مبكر.

الكتيب بوتين: النتائج، تحدى أُسُس خطابات بوتين الوداعية، التي زعم فيها أنه بعث البلاد من رماد التسعينيات، وقد شبَّه نفسه بالكادح (العبد القادس) الذي يعمل مجدفًا على سفينة شراعية كبيرة. اعترف المؤلفان بالارتفاع المذهل لإجمالي الناتج المحلي GDP ومتوسط الدخل، والانخفاض في البطالة والفقر، لكنهما قالا إن معجزة بوتين الاقتصادية

كانت سراب بوتيمكين، وقد جاءت من ارتفاع أسعار النفط الذي غطى على المشكلات الهيكلية والنمو المذهل للفساد.

عندما تولى بوتين منصبه كانت روسيا في المرتبة 82 في القائمة السنوية لمنظمة الشفافية الدولية للدول الأقل فسادًا، وقد انخفضت منذ ذلك الحين- كما كتبا- إلى المرتبة 143، لتصبح في مرتبة دول مثل أنغولا وغينيا بيساو وتوغو. وبعد أن تسبب الكشف عن 90 ألف دولار خلال رئاسة يلتسين بفضيحة سياسية أدت إلى إقالة أناتولي تشوبايس ومساعديه الآخرين، فإن الممارسين اليوم للفساد- كما كتبا- «يسخرون من هذا المبلغ المثير للشفقة، فما يفعله اليوم موظفو الخدمة المدنية من سرقات يقدر بالمليارات، وبعيدًا عن أعين الناس؛ فأصحاب الحصص الكبيرة يتسترون على عشرات المرتشين السريين»، أصدقاء الرئيس بوتين «يختبئون وراءهم. والمعلومات عن هوية المالكين الحقيقيين تحميها بعناية أجهزة المخابرات، وموضوع الفساد لدى المستويات العليا من السلطة يعد من محرمات الكرملين في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها».

الكتيب- مثل مقالة موسكوفسكي كورسبوندنت- يسعى إلى كسر شيفرة الصمت التي تسود الكرملين في عهد بوتين، وخصوصًا عندما تشمل أكثر الأجزاء سرية من سيرة الرئيس، ومؤلفاه لم يذكرا فقط بالتفصيل صعود كوفالتشوك، وإنما بحثا في إزالة أصول غازبروم وأرباح رومان أبراموفيتش، والجانب المظلم من أعمال وسيط الغاز في أوكرانيا، روس أوكر إنيرجو، والدمج الماكر للصادرات المربحة لغينادي تيمتشينكو، مؤسس غانفور، الشركة التجارية التي مقرها في سويسرا، فضلًا عن أبراموفيتش، وهؤلاء الأباطرة الجدد أصحاب المليارات الذين ظلوا غير معروفين نسبيًّا طوال ثماني سنوات من رئاسة بوتين للبلاد، وقلما ذكروا في وسائل الإعلام، وعندما يُذكَرون تكون هناك تحذيرات كثيرة لمصادر المعلومات.

شركات تيمتشينكو اليوم تتعامل مع عقود ما يقرب من ثلث صادرات روسيا من النفط، من بينها معظم تلك التي تتعامل بها روزنفت منذ أن استحوذت على أصول يوكوس.

تيمتشينكو ذو الشعر الفضي الأجعد، شارك بوتين الحب لأسواق الطاقة والسياسة، وكذلك الجودو، ولكنه ظل بعيدًا عن الأضواء، وظل مشتبهًا في ماضيه الذي يعود إلى الـ(كي جي بي)، وهو ما أنكره لاحقًا. كان يحمل جواز سفر فنلنديًا، إضافة إلى جوازه الروسي، وعاش في بلدة كولوغني في سويسرا، في دارة (فيلا) مطلة على بحيرة جنيف، حيث التقطت له صور قليلة، ولم يجر إلا قليلًا من المقابلات الصحفية (عندما أجرت معه صحيفة وول ستريت جورنال لقاء بعد أربعة أشهر من ظهور الكتيب، وافق على ذلك بشرط عدم تصويره، وعدم الكشف عن موقع شركته)[22].

نفى تيمتشينكو أن يكون له أكثر من تعارف عابر مع بوتين، وأصرَّ زورًا على أنهما ليسا صديقين، بل ورفع دعوى ضد مجلة إيكونوميست لإشارتها إلى عكس ذلك في مقال بعنوان: (**ضع القليل في راحة يدي**)[23]، ولما صارت ثرواتهم في ازدياد، فقد بات من الصعب على أوليغارشية بوتين أن يبقوا سريين. كوفالتشوك وتيمتشينكو ظهرت أسماؤهما لأول مرة معًا على لائحة فوربس للمليارديرات بعد ظهور الكتيب بشهر واحد، وتبعهما الأخوان روتنبرغ بعد وقت قصير.

ستانيسلاف بيلكوفسكي، الشيطاني الملتحي، والمحلل السياسي الذي يرتدي نظارة طبية، كتب تقريرًا عن (الدولة والقلة) عشية الهجوم على يوكوس، ذهب إلى أبعد من ذلك من نيمتسوف وميلوف؛ إذ ادعى أن تيمتشينكو يعمل بمنزلة وكيل وشريك لبوتين، الذي يملك ما لا يقل عن جزء من غانوفر، إلى جانب أسهم في شركة غازبروم وسورجوت. وقدَّر (مجرد تكهن) أن القيمة الصافية لبوتين بلغت 40 مليار دولار، وهو الرقم الذي يقارب التقدير السري لوكالة الاستخبارات المركزية قبل عام، ربما لأن محلليها كانوا يقيِّمون من المصادر نفسها التي أخذ منها ادعاء بيلكوفسكي[24]. وأصر بيلكوفسكي على أن مصادره كانت من داخل الكرملين، وجمعياته السابقة مع إيجور سيتشين وغيرهم جعلت هذا معقولًا، لكنه اعترف أيضًا أنه ليس لديه أدلة موثقة، ومع أن انتقاداته التي وجهها لبوتين على مر السنين لم تمثل خطرًا عليه، ولكنها أعطت بعض المصداقية لهذه المزاعم.

وردَّ بوتين بشيء من الفكاهة، ثم بازدراء كبير، عندما سئل في آخر مؤتمر صحفي له في أثناء رئاسته- وكان قبل شهر من انتخاب ميدفيديف في مارس/آذار- عن مزاعم أن بوتين هو أغنى رجل في أوروبا؟ أجاب: «نعم هذا صحيح؛ أنا أغنى إنسان ليس فقط في أوروبا بل في العالم؛ أجمَعُ العواطف. أنا غني بشعب روسيا الذي عهد لي بقيادة هذا البلد العظيم مرتين، وأعتقد أن هذه أعظم ثروة لدي»، ثم نفى مزاعم بيلكوفسكي التي قال عنها، بعد قراءتها، إنها «هراء»، وأضاف: «كل ما جاؤوا به حفروه من أنوفهم ولطخوا به أوراقهم».

إذا كانت ذيول الثروة الشخصية لبوتين من المستحيل تتبعها، فإن من الصعب على الكرملين دحض دليل الاتصالات المتشابكة بين دائرته من الأصدقاء، ومنهم كابابيفا.

بعد أسابيع فقط من مغادرة بوتين الكرملين، ظهر اسم كابابيفا على كشف ركاب طائرة خاصة أقلعت من سويسرا إلى براغ ثم إلى سوتشي، الموقع المستقبلي لدورة الألعاب الأولمبية، حيث سينفق بوتين جُلَّ وقته، عقب البدء بتنفيذ عقود بناء المرافق هناك، وكان على تلك الرحلة أيضًا فلاديمير كوزهين، الذي عمل منذ عام 2000م رئيسًا لمكتب إدارة الملكية للكرملين، الإدارة التي عمل فيها بوتين أول مرة عندما انتقل إلى موسكو، إضافة إلى اثنين من رجال الأعمال والمقربين من بوتين: ديمتري غوريلوف، صاحب شركة الإمدادات الطبية بتروميد، ونيكولاي شمالوف، الذي جمع التبرعات لها. الشخصان اللذان بقيا غير معروفين لأكثر من عامين هما شامالوف وغوريلوف؛ فقد كانا مساهمين رئيسين في شركة في الخارج تُسمى (روزنفيست) التي أنشئت بناء على تعليمات بوتين في عام 2005م، ومن بين استثماراتها المفترضة كان بناء دارة (فيلا) ضخمة على ساحل البحر الأسود بالقرب من سوتشي، تشبه- كما وصفها أحدهم- تقريبًا «قصرًا مناسبًا لقيصر»، يحيط به جدار وبوابات أمنية، ويتوسطه شعار الدولة الروسية، ويحتوي على ثلاثة مهابط للطائرات الحوامة، ومبنى للخدمات، وصالة ألعاب رياضية، وصالة جمباز، وبيت ريفي، ومدرج، بالإضافة إلى البيت الرئيس. الطائرة الخاصة التي نقلتهم وفريقًا من ثلاثة فنلنديين من

سويسرا إلى سوتشي في ذلك اليوم من مايو/أيار تملكها إيرفكس أفييشن التي كانت آنذاك مملوكة بالكامل لجينادي تيمتشينكو[25].

أن تطفو على السطح كل هذه المزاعم في نهاية رئاسة بوتين أوجدت توقعات- أملًا غامضًا، حقًّا- بأن التحول السياسي يمكن أن يجعل التغيير ممكنًا؛ إذ إن التقرير الذي أعده نيمتسوف وميلوف فُهم على أنه برنامج سياسي للمعارضة في حملة الانتخابات الرئاسية، التي لم تحدث في الواقع، ويدعو البرنامج إلى الإصلاحات التي وعد بها بوتين ولكنه لم يقدمها: معركة ضد الفساد في صفوف الشرطة والمدعين العامين، وقوانين جديدة من قبل المشرعين تحظر صراعات المصالح ورجال الأعمال، وإضفاء الطابع المهني على الجيش، وبناء الطرق الحديثة، وإنشاء نظام رعاية صحية فاعل بعد أن أسهم غيابه في تراجع ديموغرافي للسكان، وتراجع في متوسط العمر المتوقع للرجال، ومع أنه ارتفع اليوم، فإنه أقل بكثير من مستويات أوروبا أو أمريكا الشمالية. ساجلوا بأن بوتين فكر في رفع أسعار الطاقة التي غذّت طفرة لا يمكن إنكارها، وخصوصًا في موسكو، التي تلألأت على نحو غير مسبوق.

حتى مع تعيين بوتين رئيسًا للوزراء، اعتقد كثيرون أنه يعتزم في نهاية المطاف التخلي عن السيطرة السياسية لجيل جديد من القادة. ولكن بوجود ميدفيديف في سدة الحكم، يمكن أن يصبح بوتين روسيا دنغ شياو بينغ، إذ يسلم رسميًّا مقاليد الحكم، ولكنه يسيطر عليها من وراء الأستار؛ لضمان تنفيذ سياساته، كما فعل دينغ خمس سنوات أخرى حتى وفاته في عام 1997م، وكان كثير من الناس المقربين من بوتين يعتقدون ذلك، وهو لم يقل لهم خلاف ذلك، حتى ميدفيديف، الذي أمضى ثماني سنوات إلى جانبه في الكرملين.

أعرب ميدفيديف عن المخاوف نفسها التي ذكرها هذان الناقدان بالتفصيل، وأعرب عن اعتقاده بالحداثة، والانتقال إلى سوق ومجتمع سياسي أكثر تحررًا، أو على الأقل قال ذلك. «الحرية أفضل من اللاحرية»، قالها عدة مرات وكررها، لذلك أصبحت شعار رئاسته، كانت كلمة عادية، لكن بعد ولاية بوتين تعد كافية لتبعث الأمل.

عندما انتشرت فضيحة علاقة بوتين بكابابيفا، نفض مجلس الدوما الغبار بسرعة عن التشريعات التي تشدد قوانين التشهير في البلاد، التي تَعُدُّ «نشر المعلومات الكاذبة عمدًا، والتي تضر بشرف الفرد وكرامته»، تساوي جرائم تشجيع الإرهاب أو جرائم الصراع العرقي، ولم يكتف التشريع بإيقاع العقوبات المدنية على أصحاب التشهير، بل سمح للحكومة بمنع بث الأخبار المسيئة في وكالات الأنباء. وبعد أسبوع ندد أصحاب بوتين بالمقال الذي تناول حالة زواجه، وأقر مشروع القانون بقراءته الأولى بـ 399 صوتًا، وتجرأ نائب واحد فقط على التصويت ضده. مع صدور التشريع بصيغته النهائية انتخِب ميدفيديف رئيسًا للبلاد، وفي واحدة من أولى إشارات محاولة إظهار درجة من الاستقلال، وربما رسم مسار جديد، اعترض عليه في أول فيتو له.

الجزء الرابع

الفصل التاسع عشر

الريجنسي

اليوم في ليلة 7 أغسطس/آب 2008م، كان ديمتري ميدفيديف الرئيس الثالث لروسيا، على مركب شراعي على نهر الفولغا مع زوجته سفيتلانا، وابنهما إيليا، الذي كان في سن المراهقة. لقد كانت عطلة عمل في شهر العطل القصير. وكان ميدفيديف قد قضى يومًا في المدينة القديمة قازان، عاصمة تتارستان، وهي المنطقة التي غزاها إيفان الرهيب في القرن السادس عشر، واطلع هناك على استعدادات الجامعة، والمنافسة الرياضية الدولية الجماعية البيانيالية التي ستقام في صيف عام 2013م، وتعد بروفة لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي بعد ثمانية أشهر. وكان سافر في اليوم الماضي إلى تشوفاشيا، المنطقة المجاورة، حيث ناقش خططًا لإنشاء شبكة من المكتبات الحديثة. وفي صباح اليوم الذي سبقه حضر جنازة المنشق السوفييتي ألكسندر سولجينتسين، الذي توفي في موسكو في 3 أغسطس/آب، وهو الذي نفذ إعادة تأهيل شاملة للثقافة ما بعد الدولة السوفييتية، وكان معجبًا بفلاديمير بوتين[1].

ميدفيديف كان قد مضى عليه في الرئاسة ثلاثة أشهر، ولكنه بدا ببساطة وكأنه يحمل أعباء نائب أول لرئيس الوزراء يفتقر إلى الجاذبية، وليس القائد العام لدولة نووية مسلحة ناهضة، وكان انتخابه في مارس/آذار لا يزيد الشكوك أكثر من تلك التي كانت قبل أربع سنوات في انتخاب بوتين، مع أنه ليس لديه قاعدة سياسية خاصة به، أو أي برنامج سياسي خاص به، وليس لديه تفويض أيضًا من شعب متعطش للتغيير؛ على العكس من ذلك؛ استقرت

رئاسة ميدفيديف على فرضية أن الشعب لا يريد تغييرًا وإنما الاستقرار، ولو أُعطي الناخبون الخيار لاختاروا بكل تأكيد بوتين مرة أخرى، لكن قبلوا به وريثًا لبوتين بناء على رغبة هذ الأخير، وهكذا تأهل ميدفيديف بفوز مقنع في الانتخابات المدارة، التي شهدت معارضين بارزين لحكم بوتين، كان منهم ميخائيل كاسيانوف وغاري كاسباروف، اللذان منعا من تسجيل اسميهما في قائمة الترشيح، لأنهما كانا في انتخابات مجلس الدوما في ديسمبر/ كانون الأول 2007م.

كاسباروف- على الرغم من شهرته وموارده المالية- لم يستطع أن يستأجر قاعة كبيرة تكفي لإقامة مهرجان انتخابي كما هو مطلوب وفق القانون؛ وكان كاسيانوف غير مؤهل؛ بتهمة أن الحملة كانت قد (زورت) أكثر من 13 في المئة من التوقيعات اللازمة لترشحه؛ والمرشح الليبرالي الآخر، أندريه بوغدانوف، لم يواجه أيًّا من هذه العقبات مع توقيعاته، وكان محللًا سياسيًّا وماسونيًّا حرًّا يتمتع بدرجة عالية من الغموض، وقد انتُخِب في العام السابق بصفته المعلم الكبير (غراند ماستر)، للبيت الكبير (غراند لودج) روسيا، وقد دبر الكرملين ترشيحه احتياطًا في حال لم يكلف أحد نفسه عناء الترشح[2].

ميدفيديف أدى الدور المنوط به متحاشيًا الحملة المجزأة، ورفض مناقشة منافسيه، أمثال بوغدانوف العجوز الذي تحدى بوتين في عام 2004م، وآخرين: الشيوعي غينادي زغانوف، والقومي الساخر فلاديمير جيرينوفسكي. وكان- ميدفيديف- يكتفي بالاطلاع على مهام نائبه الوزارية، وقد كرمته القنوات التلفازية الحكومية، مع ظهيره الذي لم يبتعد بتاتًا عن المشهد، فبوتين هو من اختاره، ولذلك لن ينافسه أحد، وهو ولي العهد (تساريفيتش- tsarevich)، الذي ينتظر المباركة الشعبية له.

كانت الحملة السياسية قصيرة جدًّا، حتى إن ميخائيل جورباتشوف وبخ الكرملين علنًا، قائلًا: «هناك أمر خاطئ في انتخاباتنا»، لكنه كان صوتًا أخلاقيًّا لسلطة من الماضي انحسرت وفقدت مصداقيتها، ولم يعره الاهتمام أو يستوعبه إلا قليلون، لكن بكل تأكيد ليست

وسائل الإعلام الحكومية[3]. عندما تم فرز الأصوات، جاء زغانوف في المرتبة الثانية بـ 18 في المئة من الأصوات، وحصل بوغدانوف على أقل من مليون صوت، وهو عدد أقل في الواقع من عدد أوراق الاقتراع التالفة أو الفارغ، ليصبح ميدفيديف من ثم، الذي ليس لديه خبرة سياسية خاصة به، أصغر رئيس منتخب، إذ كان يبلغ فقط ثلاثة وأربعين عامًا، وفاز بـ 71.2 في المئة من الأصوات، وهو الرقم الذي يذكِّر بالنسبة 71.9 في المئة التي حصل عليها بوتين قبل أربع سنوات.

منذ لحظة توليه منصبه في شهر مايو/أيار، كافح ميدفيديف للخروج من ظل الرجل الذي أوصله إلى قمم السلطة، وإذا كان يلتسين قد غاب بكل هدوء عن الأضواء العامة من اليوم الذي عيَّن فيه بوتين، فإن بوتين يمضي، اليوم، بكل ثقة مع تنصيب ميدفيديف، وقد افتتح الحفل في الكرملين بخطاب وداع غير مسبوق، أكد فيه على نحو لا لبس فيه للنخبة المجتمعة في القصر الكبير، أنه ليس لديه النية ليختفي من الساحة العامة.

أمل ميدفيديف أن يترك انطباعًا سريعًا على الساحة العالمية؛ بزيارة ألمانيا، الشريك الأقرب تجاريًّا إلى روسيا في أوروبا، لكن سبقه بوتين بزيارته الرسمية الأولى الخاصة لفرنسا. وقال رئيس لجنة الشؤون الخارجية في المجلس الاتحادي، ميخائيل مارغيلوف، لمسؤول أمريكي، خلال زيارته، إن ميدفيديف طالب موهوب لم يصقل بعد؛ إنه «الطالب الذي تعلم من أساتذته»، لكن «عميد الكلية» يظل بوتين[4]، وقال إن بوتين أراد حقًّا التنازل، ولو تدريجيًّا، عن واجبات رئيس الدولة، والشؤون الخارجية خاصة، لكن ميدفيديف جاهد لتوسيع سلطته على بيروقراطية تكيَّفت بعد ثماني سنوات على الاستجابة لبوتين.

مع ذلك غيَّر ميدفيديف، بمزاجه المعتدل المكتبي، من لهجة الكرملين على الأقل، فخلال حملته الانتخابية، وفي الأسابيع الأولى من ولايته، تحدث عن الحريات المدنية، والتحديث الاقتصادي، وضرورة وضع حد للفساد المستشري، و(العدمية القانونية) التي ميزت السياسة والمجتمع الروسي، وقد كان بوتين تقدَّم بتعهدات مماثلة، لكن ميدفيديف

أثبت أنه أقل عدوانية، وأقل اشتراطات، وبدا حريصًا على تقديم صورة مختلفة للقيادة، لإثبات أن الانتقال كان موضوعيًّا، وليس رمزيًّا بحتًا.وإذا كان بوتين ساكنًا وجافًّا، فقد بدا ميدفيديف لطيفًا ومنفتحًا، وابتهج لاستخدامه الأجهزة الحديثة (أعطاه ستيف جوبز آي فون في عام 2010م)، وأنشأ حسابات خاصة به على مواقع التواصل الاجتماعي، نشر فيها صورًا التقطها هوايةً.

على الرغم من أهمية بوتين رئيسًا للوزراء، بدأ كثيرون يعتقدون أن ميدفيديف سيسعى لتنفيذ إصلاحات ليبرالية أخفق بوتين في تحقيقها، وأحد أولئك الذين وجدوا الأمل في وعد ميدفيديف، وكان محتجزًا في زنزانة في سيبيريا: ميخائيل خودوركوفسكي، وكان وقتها مؤهلًا للحصول على الإفراج المشروط، والتمس محاموه في يوليو/تموز الإفراج عنه في وقت مبكر، إضافة إلى مناشدة أخرى من أمريكي سعى ليخلف جورج بوش في رئاسة الولايات المتحدة: باراك أوباما.

ما إن بدأ تأرجح قارب ميدفيديف الرقراق على نهر الفولغا في تلك الليلة من شهر أغسطس/آب، حتى بدت رئاسته على أعتاب عصر جديد من التفاؤل، ولكن بالمقابل كاد يواجه التحدي الأعظم له وهو لم يصل وقتئذ إلى مئة يوم في منصبه.

في الساعة الواحدة من صباح يوم 8 أغسطس/آب، تلقى ميدفيديف اتصالًا هاتفيًّا من وزير الدفاع أناتولي سيرديوكوف، يخبره أن الحرب قد اندلعت في الخاصرة الجنوبية لروسيا؛ إذ بدأت قوات مسلحة من جورجيا، يقودها ذو الميول الغربية ميخائيل ساكاشفيلي، هجومًا جويًّا وبريًّا على المنطقة الانفصالية في أوسيتيا الجنوبية، وكان التوترات مع أوسيتيا الجنوبية وإقليم أبخازيا قد استمرت طوال العام، وكلتاهما انفصلتا عن جورجيا خلال صراعات عنيفة وقصيرة في التسعينيات عقيب انهيار الاتحاد السوفييتي، وظلتا في طي النسيان الدبلوماسي منذ ذلك الحين، معترفًا بهما على أنهما جزء من جورجيا لكنهما في

الواقع دويلتان مستقلتان تمولهما روسيا وتسعيان إلى التقرب منها، وقد أرسلت روسيا قوات حفظ السلام إلى كلتا المنطقتين تحت راية الأمم المتحدة.

وفي أعقاب إعلان استقلال كوسوفا عن صربيا، في فبراير/شباط 2008م، زاد بوتين المساعدة للمنطقتين، وكان أحد آخر أعماله الرسمية في الرئاسة أن أمر بتعزيز قوات بعثة حفظ السلام الروسية الموجودة في أبخازيا للإشراف على إعادة بناء السكك الحديدية التي كانت ذات يوم متصلة بسوتشي، ولكن منذ سقوطها أصبحت في حالة سيئة، وأصبح مصير المنطقتين ضمن اهتمامه الشديد في الأسابيع الأخيرة من حكمه للبلاد، بعد المواجهة المتوترة في بوخارست مع الرئيس بوش وقادة الناتو الآخرين في مناقشتهم حول دعوة جورجيا (وأوكرانيا) للانضمام إلى التحالف العسكري.

في صيف عام 2008م، تبادلت روسيا وجورجيا الاتهامات بأن الطرف الآخر يعتزم شن غزو لحل ما أصبح يعرف باسم (الصراعات المتجمدة)، وأجرى ميدفيديف سلسلة اجتماعات مع ساكاشفيلي، الذي أعرب عن أمله أيضًا أن تشهد رئاسته تحولًا في المواجهات المفتوحة مع بوتين والتي أعقبت قيام (الثورة الوردية)، ومن ذلك الحظر التجاري في عام 2006م بحجة إلقاء القبض على أربعة عملاء من المخابرات الروسية. اقترح ساكاشفيلي تسويات سياسية للمنطقتين، وبدا أن ميدفيديف في البداية موافق عليها، لكن عندما التقيا في كازاخستان في شهر يوليو/تموز شعر بأن ميدفيديف لم يعد يرغب في مناقشتها، كما لو أن ثمة سيطرة ما عليه من قبل قوى أخرى في موسكو، وهذه القوى هي بوتين[5].

يبدو أن الصراعات لا مفر منها، وقد كان الروس على استعداد لذلك تمامًا، مع أنهم توقعوا أن تكون في أبخازيا لا في أوسيتيا الجنوبية، وكان الجيش قد وضع حقًّا خططًا للتدخل، واعترف بوتين في وقت لاحق أن الخطط وضعت سابقًا للقوات، في وقت مبكر من عام 2006م. في الصيف، وبناء على أوامر ميدفيديف، نفذ قادة القوات تدريبات واسعة في شمال

القفقاز، على مسافة قريبة من أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، الخدعة التي أصبحت إشارة إلى بدء العمليات العسكرية المقبلة في روسيا.

ومع ذلك، كان ميدفيديف في تلك الليلة متفاجئًا ومشككًا في التقرير العاجل الذي عطَّل رحلته النهرية؛ وقال لسيرديوكوف على الهاتف: «يجب علينا التحقق من هذا»، وسأله: «هل أصيب ساكاشفيلي بالجنون؟ قد يكون مجرد عمل استفزازي، وربما يعاني ضغوطًا عصبية، يريد اختبار الأوسيتانيين وأن يرسل لنا نوعًا من الرسائل»، ثم طلب من الوزير أن يتصل به ثانية في وقت لاحق.

غادر بوتين موسكو متوجهًا إلى بكين حيث خطط- وإن لم يكن رئيسًا للدولة- أن يحضر في اليوم التالي حفل افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الصيفية مع عشرات من الزعماء الآخرين، ومن بينهم الرئيس بوش. اتصل سيرديوكوف بميدفيديف بعد ساعة ليقول له إن التقارير كانت صحيحة، وكانت جورجيا قد بدأت بقصف مدفعي على عاصمة أوسيتيا الجنوبية، تسخينفالي، فختم ميدفيديف: «حسنًا، سأنتظر ما يستجد من معلومات».

ادعى أنه لا يستطيع الاتصال مع بوتين في بكين على خط هاتفي آمن، وقد شعر بالحاجة إلى الاتصال ببوتين إذ إنه غير متأكد من زج القوات الروسية في معركة خارج الحدود الروسية للمرة الأولى منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وظل تردده هذا ملازمًا له مدة طويلة، وأخيرًا اتصل سيرديوكوف للمرة الثالثة، وكان قد سقط صاروخ على خيمة كاملة من قوات حفظ السلام الروسية، وأخبره أنه قد «قتل كل من في الخيمة»، لا بد أن يكون هذا من قبيل المبالغة، وهو الخبر الأول من بين عديد من الأخبار التي سوف تتوالى في الأيام التالية[6]، لكن الحقيقة هي أن القوات الروسية وعملاءها من ميليشيا غير نظامية في أوسيتيا الجنوبية كانوا يتعرضون لاعتداء. وبعد أكثر من أربع ساعات من بدء سقوط الصواريخ على تسخينفالي، أصدر ميدفيديف أخيرًا أوامر بالذهاب إلى الحرب؛ فأخبر سيرديوكوف: «ردوا عليهم بالمثل»، ثم سافر على الفور إلى موسكو.

حين وصل ميدفيديف إلى موسكو كانت الكتائب الجورجية تتحرك في أوسيتيا الجنوبية، وبدأت الطائرات الروسية بالقصف لا داخل المنطقة فقط، وإنما في جورجيا نفسها، على أمل إحباط تقدم قواتها مقدمًا. وصل خبر الهجوم الجورجي إلى بوتين في بكين، وكان غاضبًا من ساكاشفيلي في المقام الأول، ولكنه غضب أيضًا من ميدفيديف؛ «لافتقاره إلى سرعة اتخاذ القرار»[7]، ثم تحدث للصحفيين صباحًا، وقدَّم أول تصريح علني بشأن الأزمة، في الصين، وتعهد بأن ترد روسيا على التوغل الجورجي، ثم أجرى اتصالات متكررة بميدفيديف، الذي اجتمع صباح يوم 8 أغسطس/آب ومجلس الأمن الاتحادي[8].

كانت الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم نفسه عندما أدلى ميدفيديف بأول تصريح علني بعد تصريح بوتين، وأعلن أن جورجيا انتهكت القانون الدولي، وارتكبت عملًا من أعمال العدوان التي أزهقت حياة كثيرين من «المدنيين والنساء والأطفال والمسنين، ومن بينهم قوات حفظ السلام الروسية الذين يموتون اليوم في أوسيتيا الجنوبية، والغالبية منهم من مواطني الاتحاد الروسي»، وقال: «وفقًا للدستور وقوانين الاتحاد، وبصفتي رئيسًا للاتحاد الروسي، فمن واجبي حماية أرواح مواطني روسيا وكرامتهم أينما وجدوا»[9]، وبحلول منتصف اليوم اجتاحت القوات الروسية الحدود.

كان الرئيس بوش أيضًا في بكين عندما همس أحد مساعديه في أذنه أن (الهجوم الروسي) قد بدأ في جورجيا[10]، وكان حينها واقفًا في الطابور في حفل استقبال دبلوماسي في قاعة الشعب الكبرى لتحية الرئيس الصيني، هو جين تاو، وكان بوتين واقفًا أمامه أيضًا ليس بعيدًا عنه في الطابور، لكن البروتوكول يقتضي أن يتحدث بوش إلى نظيره الرئاسي أولًا، لذلك انتظر إلى أن عاد إلى الفندق الذي يقيم فيه ليتصل بميدفيديف، وطلب إليه محذرًا وقف الهجوم المضاد، وأضاف قائلًا: «إننا ذاهبون لنكون معهم»، مشيرًا إلى الجورجيين.

ما لم يفهمه الرئيس بوش هو أن الروس يلقون باللوم على إدارته في تأجيج الصراعات، فهو وإن لم يعط الضوء الأخضر لخطة ساكاشفيلي للاستيلاء على أوسيتيا الجنوبية، كما

يتوقع الروس، فقد دعم ساكاشفيلي بالتدريب العسكري، ووعده بعضوية الناتو في قمة بوخارست في أبريل/نيسان، على الرغم من تحذيرات بوتين الشخصية له بأن دعوة كهذه تعد استفزازًا لروسيا. وما لم يفهمه ساكاشفيلي هو أنه على الرغم من بذل جهود كبيرة بغية كسب الأمريكيين، وإشادته ببوش، وإرساله قواته للعمل في العراق، لم تكن الولايات المتحدة ولا حلف شمال الأطلسي على استعداد لمساعدته في الحرب ضد روسيا؛ ومن ثم فقد دفعت جورجيا ثمنًا غاليًا لسوء التقدير هذا.

في حديثه مع بوش، قارن ميدفيديف ساكاشفيلي بصدام حسين، وأخبر بوش أن الجورجيين قتلوا حقيقة 1500 شخص، وهي مبالغة كبيرة[11]، وكان واضحًا اليوم أن روسيا ليس لديها نية للتراجع. واجه بوش في نهاية المطاف بوتين في بكين في ملعب (عش الطائر) حين كانوا ينتظرون افتتاح دورة الألعاب الأولمبية في احتفال تلك الليلة. جلسا في الصف نفسه من مقاعد كبار الشخصيات، وطلب بوش إلى زوجته وملك تايلاند التنحي حتى يتمكن من الجلوس بجانب بوتين لتوجيه تحذير له، فنهض بوتين من مقعده، مع مترجمه الذي مال معه برعونة، وجلس أعلى منه، حتى يضطر بوش الأطول منه أن يجلس على نحو لائق، قال له إن ساكاشفيلي مجرم حرب، فأجابه بوش: «كنت قد حذرتك مرارًا أن ساكاشفيلي دمه حار»، فرد بوتين: «أنا دمي حار أيضًا». كتب بوش في وقت لاحق أنه نظر إلى الخلف محدقًا بالرجل الذي لم يلتق أي زعيم في العالم آخر غيره مثلما التقاه، باستثناء توني بلير، وقال إنه بعد أن كان يأمل في إقامة علاقة جديدة مع روسيا، البلد الذي سيتغلب على المخاوف المتبادلة وشكوك الحرب الباردة، أدرك أنه أخطأ في الحكم على الرجل الذي التقاه للمرة الأولى في سلوفينيا في عام 2001م. قال بوش: «لا، يا فلاديمير، أنت دمك بارد»[12].

بعد اجتماعه بـ(هو جين تاو) صباح ذلك اليوم عقب حفل الافتتاح، غادر بوتين بكين وعاد إلى روسيا، لا إلى موسكو، ولكن إلى المكان الذي ستنطلق منه القوات الروسية الزاحفة، ووصل مساء السبت إلى مقر الجيش الـ58، في فلاديكافكاز، عاصمة أوسيتيا الشمالية، الجمهورية الروسية على المنحدر الشمالي للقفقاز التي سُلخت عن زميلاتها

في الجانب الجورجي بقرار من جوزيف ستالين. وكان هو الذي ظهر على وسائل الإعلام الحكومية يتلقى آخر المستجدات العسكرية من الجنرالات الذين يرتدون الزي العسكري على الأرض، في حين كان ميدفيديف يتلقى توجيهات نادرة من مكتبه في الكرملين.

اتهم بوتين جورجيا بالتجرؤ- بتشجيع من الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي- على التهام أوسيتيا الجنوبية، واليوم ستفقدها إلى الأبد. قال بوتين غاضبًا: «ما يحدث في جورجيا هو إبادة جماعية»، مبالغًا في حقيقة الواقع على الأرض[13]، وكانت الدبابات الروسية في ذلك الوقت وصلت إلى تسخينفالي، ثم تقدمت خارج أوسيتيا نفسها نحو مدينة غوري الجورجية، مسقط رأس ستالين، وحاصرت السفن الحربية الروسية ميناء بوتي، إلى الجنوب من الحدود مع أبخازيا.

القوات الجورجية، على الرغم من سنوات التجهيز الأمريكي والتدريب، انهارت في حالة من الفوضى، غير قادرة على التواصل بصورة فعالة؛ لأن الروس شوشوا تغطية الهاتف الخليوي أو عطلوها، وهو الوسيلة الوحيدة للاتصال، وعليه؛ طلب ساكاشفيلي، الذي أصبح في وضع مهين، المساعدة. فأرسلت الولايات المتحدة ألفي جندي جوًّا إلى جورجيا، كانوا في العراق جزءًا من الحرب الأمريكية هناك، وبعث الرئيس بوش في وقت لاحق مساعدات ومعدات إضافية، لكن اتضح أيضًا أن الولايات المتحدة لن تقف إلى جانب جورجيا عسكريًّا؛ إذ إن أكثر من مئة مستشار عسكري أمريكي من الذين بقوا في جورجيا بعد تدريبات الصيف انسحبوا؛ لتجنب التورط في القتال. أما القوات المتصدعة لجورجيا فتراجعت أمام الزحف الروسي نحو العاصمة تبليسي، التي كانت نفسها تحت القصف، ولم يبق أمام ساكاشفيلي من خيار سوى أن يلتمس السلام.

رجع بوتين- الذي يحظى باحترام ظاهري- إلى تلميذه لكونه القائد العام، لكن النظام بأكمله- البيروقراطيين والجيش والإعلام- تكيَّف مع دوره زعيمًا قياديًّا، ويحاول أن يحافظ على صورة أن ميدفيديف هو المسؤول. وكان بوتين نفسه غير قادر أو غير راغب في التراجع

إلى الخلف، يعطي التعليمات في اجتماعات متلفزة خلال الأزمة، وقد تجاوزها ميدفيديف بكل إخلاص. في العلن سعى بوتين إلى تأكيد مشاركة ميدفيديف البارزة، أما في الجلسات الخاصة فكان يتغطرس ويستبد برأيه، ولا يزال القائد الآمر الناهي.

عندما سافر الرئيس الفرنسي، نيكولا ساركوزي، إلى موسكو للتوسط من أجل وقف إطلاق للنار في 12 أغسطس/آب، وجد ميدفيديف هادئًا ومتفائلًا، وقادرًا على التفاوض، وقد حضر بوتين الاجتماع أيضًا لكنه كان متكلفًا وفظًّا يغلي غضبًا من ساكاشفيلي حتى بدا عِداؤه له عداء شخصيًّا[14]. ضغط ساركوزي على الروس لإنهاء الغزو الذي يبدو اليوم متجهًا بتصميم إلى العاصمة الجورجية وإسقاط رئيسها. وتحدث وزير الخارجية الروسي، سيرجي لافروف، مع وزيرة خارجية بوش، كوندوليزا رايس، كثيرًا مطالبًا بإزالة ساكاشفيلي عن السلطة شرطًا للسلام[15]، وفي حديثه مع السفير الفرنسي قلل من شأن ميدفيديف، حتى عندما اجتمع الزعيمان في الكرملين لحل للنزاع[16]. ساجل ساركوزي أن العالم لا يقبل بإسقاط رئيس منتخب، لكن هذا سيزيد من غضب بوتين؛ الذي قال: «ساكاشفيلي... سأعلقه بالكرات»، وكان قد اشتعل غضبًا على نحو أذهل الرئيس الفرنسي الذي تساءل: «أتريد أن تشنقه؟»، أجاب بوتين: «لمَ لا؟»، بدا مشاكسًا، وقال: «الأمريكيون شنقوا صدام حسين». وأراد ساركوزي أن يهدئ بوتين حين سأله: وهل تريد أن تدخل التاريخ كما دخله بوش[17].

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وبعد أن توجه ساركوزي إلى العاصمة الجورجية لإبرام اتفاق ساكاشفيلي، أعلن ميدفيديف وقف إطلاق النار في اليوم الخامس من النزاع، وقد ظهر وحده في الكرملين، واعتمد لهجة بوتينية ليعلن أن «المعتدي قد عوقب»، وقد بدا شاحبًا ومتعبًا. وعلى الرغم من وقف إطلاق النار، عززت القوات الروسية مواقعها في الفراغ الذي نجم عن هزيمة الجورجيين، في حين انطلقت ميليشيات أوسيتيا الجنوبية بحملة من النهب والسلب لمنازل القرويين الجورجيين داخل المنطقة، وفي كثير من الأحيان تحت أعين الروس[18].

بعد يومين من وقف إطلاق النار، توجهت كوندوليزا رايس إلى جورجيا لتقديم تعهد بالدعم السياسي والإنساني من الولايات المتحدة، فاندفعت المدرعة الروسية شرقي العاصمة، ووقفت على مسافة 25 ميلًا فقط من حدود مدينة تبليسي. القوات الروسية الأخيرة لم تنسحب من الأراضي الجورجية إلا بعد شهرين، وحتى ذلك الحين بقيت التعزيزات خلف أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. وفي 26 أغسطس/آب، حين كان لا يزال يجري مسح مخلفات الحرب، أعلن ميدفيديف أن روسيا سوف تعترف بالمقاطعتين الاثنتين على أنهما دولتان مستقلتان. واستشهد هو وآخرون بسابقة كوسوفا، التي أعلنت من ستة أشهر الاستقلال قبل أن يقول الروس إنها غير شرعية.

على الرغم من العيوب الواضحة في قواتها، فقد غذت الحرب الحماسة الوطنية في روسيا، وضخمتها وسائل الإعلام الرسمية؛ فكانت تمجد أفعال المحررين الروس وتشوه صورة العدو بطريقة لم تشهدها منذ الحرب الوطنية العظمى؛ وكان المجد الذي أسهم به بوتين لا يقل عن المجد الذي أسهم به ميدفيديف، لأنه كان من الواضح للجميع أنه لا يزال الزعيم الأسمى.

شغل ميدفيديف الرئاسة بسلطة ضئيلة؛ لسبب بسيط هو أن بوتين أخذ سلطات الكرملين معه، إضافة إلى أخذ كثير من موظفي الرئاسة لمكتب رئيس الوزراء الكائن في البيت الأبيض في الطرف المقابل من نوفي أربات من الكرملين. بقي ميدفيديف رئيسًا اسميًّا للدولة، وكان مضطربًا في تعامله مع الشؤون الخارجية؛ لأنه كان عليه أن يدقق أي قرارات أساسية مع رئيس وزرائه. وكانت جهود ميدفيديف الخاصة بمحاكاة النغمة العدوانية ورباطة الجأش التي كان يتمثلها بوتين ببراعة، تتسبب له في كثير من الأحيان في الحرج.

في اليوم الذي انتخب فيه باراك أوباما في الولايات المتحدة في نوفمبر/ تشرين الثاني 2008م، احتفى العالم باقتراب نهاية عهد بوش الذي تميَّز بالعداء الأمريكي الجامح، وألقى ميدفيديف أول خطاب وطني له منذ أن تولى منصبه. فبعد العلاقات العدائية في نهاية

رئاسة بوش، التي رأى بوتين أن الولايات المتحدة حرضت في أثنائها على الحرب في جورجيا لتعزيز فرص جون ماكين خصم أوباما، قد تكون هذه لحظة ترحيب بتغيير الإدارات. وعندما تحدث ميدفيديف في قصر الكرملين الكبير، لم يأت على ذكر اسم أوباما، ولكنه ألقى باللوم على الولايات المتحدة التي أججت الحرب في جورجيا، وهدد بنشر صواريخ بالستية في كالينينجراد- الجيب الروسي في أوروبا الشرقية الذي ضمته روسيا كإتاوة بعد الحرب الوطنية العظمى- إذا ما نشر الأمريكيون نظام الدفاع الصاروخي في أوروبا، وبدلًا من أن يظهر ميدفيديف تشددًا في التفكير، بدا غير قادر على تمييز الأشياء، وليس من الواضح هل أُخذ تهديده على محمل الجد.

السياسة الخارجية لروسيا كانت غامضة وغير عملية منذ عهد يلتسين، ولكن مع اثنين من مراكز القوى السياسية أصبحت حتى أكثر من ذلك بكثير. اعتذر ميدفيديف عن تصريحاته خلال زيارته الأولى إلى واشنطن بعد أسبوعين، حيث التقى الرئيس بوش، وإن لم يكن الرئيس الشاب المنتخب، وادعى أنه كان مجرد خطأ غير مقصود تقديم تحذيره الاستفزازي في اليوم الذي كان فيه قادة العالم يهنئون باراك أوباما، وقال على نحو غير متوقع: «مع كل احترامي للولايات المتحدة، لقد نسيت تمامًا الحدث السياسي الهام الذي حدث ذلك اليوم»، وعقب: «ما من غرض شخصي هنا»[19]. وكما هو الحال مع الحرب في جورجيا، بدا ميدفيديف وقد زلت قدمه؛ أو قدم بوتين.

وجاءت الضربة القاضية الثانية للرئاسة الوليدة لميدفيديف بعد أسابيع فقط من انتهاء الحرب في جورجيا. ففي عهد بوتين كان ثمة مفاجأة بالزيادة المطردة في عائدات النفط والغاز التي حفزت الازدهار الاقتصادي في البلاد، وهو ما أدى إلى ارتفاع مبيعات التجزئة في كل شيء؛ من السيارات الأجنبية إلى الأثاث والمواد الغذائية، ونما الاقتصاد بمعدلٍ يقارب الـ 7 في المئة سنويًّا خلال رئاسة بوتين، الذي كان قد سدد الديون الخارجية للبلاد، وجمع مئات المليارات من الدولارات في احتياطيات العملة، وقاوم الضغط لينفق بكل حرية، وأنشأ صندوق الاستقرار الذي يحمي البلاد من أي تراجع، وهو الآن قد تولى منصب رئيس

الوزراء ويتصرف وكأنه إرثه الأكبر الذي لا رجعة فيه. لكن في عام 2008م بدأ الاقتصاد الروسي بالتباطؤ، تزامنًا مع عملية الانتقال السياسي، ولكي يواجه ارتفاع التضخم، سعى رئيس الوزراء الجديد إلى فرض إرادته على السوق وعلى القلة (الأوليغارشية).

وفي يوليو/تموز، بسبب الشكاوى من المديرين التنفيذيين للطاقة من ارتفاع تكاليف الصلب لخطوط الأنابيب، عقد اجتماعًا لصناعة المعادن في نيجني نوفغورود، وكان الغرض منه واضحًا عندما خص به الملياردير، صاحب أكبر مصنع للصلب في روسيا (ميتشيل)، لبيعه الفحم الحجري في السوق المحلية بأسعار مرتفعة أكثر من الخارج ليتجنب الضرائب. (إيجور سيتشين هو الذي لفت انتباهه بسبب الضغط الاقتصادي الذي كانت تعانيه روزنفت). ارتكب إيجور زيوزين، صاحب الشركة- بضغط من العملاء والمنافسين- خطأ بتخطي المؤتمر ومراجعة مستشفى أمراض القلب، فكان رد بوتين قاطعًا، وأشار إلى ضرورة أن تتولى السلطات المناهضة للاحتكار، بل والمدعي العام، التحقيق بشؤون الشركة، وأضاف: «لا ريب أن المرض هو المرض، ولكن أعتقد أنه يجب أن يتعافى في أقرب وقت ممكن، وإلا فسيتعين علينا أن نرسل له الطبيب ونزيل جميع المشكلات»، وفي نهاية اليوم كانت أسهم ميتشيل المتداولة في بورصة نيويورك قد فقدت أكثر من ثلث قيمتها؛ أي ما يقارب ستة مليارات، لتهبط الأسواق المتراجعة أصلًا في روسيا.

أصدر ميتشيل بيانًا على الفور يعبر فيه عن ندمه، ويعِدُ فيه بمعالجة مخاوف رئيس الوزراء، لكن بوتين كان قد بعث برسالة واضحة؛ بأنه ليس لديه النية لرفع يديه عن الذراع التي توجه الاقتصاد الروسي، وسيتدخل كلما شعر بالدافع، مقوضًا جهود ميدفيديف المبكرة لتعزيز المناخ الأكثر جاذبية للاستثمارات، وقد أبدى ميدفيديف ومساعدوه دهشتهم من اعتداء بوتين.

سعى أركادي دفوركوفيتش، أحد كبار مساعديه، إلى تهدئة الأسواق، ولكن بعد ذلك بأيام كرر بوتين اتهاماته بأن ميتشيل كان يتهرب من الضرائب، وهو ما دفع أسهم الشركة للهبوط

مرة ثانية. تصرف بوتين كما لو كانت روسيا التي لا تقهر، جزيرة برخاء متزايد، عصيَّة على العاصفة المالية التي تختمر طوال الصيف منذ أن بلغ سعر النفط ذروته ووصل سعر البرميل الواحد إلى أكثر من 140 دولارًا.

الأزمة الاقتصادية العالمية الناجمة عن أزمة سوق الرهن العقاري في الولايات المتحدة في عام 2008م، بدا أول الأمر أن تهديدها للاقتصاد الروسي ضئيل؛ لأن مصارفها لم تصدر هذا النوع من الرهون العقارية عالية الخطر، التي أصبحت فاسدة، لكن إفلاس مصرف الاستثمار الأمريكي ليمان براذرز في 15 سبتمبر/أيلول- وتراجع أسعار النفط في اليوم نفسه لأقل من 100 دولار للبرميل- انعكست آثاره على أنحاء العالم، وضربت روسيا أكثر من غيرها، ومع نهاية اليوم التالي انخفض المؤشر الرئيس للبورصة بنسبة 17 في المئة. وقد أجبر البيع الناتج عن الذعر على تعليق التداول المتكرر خلال الأسابيع المقبلة، وعلى الرغم من تدخل الحكومة لدعم الأسهم، خسر السوق تريليون دولار في غضون أشهر.

بين أكتوبر/تشرين الأول وديسمبر/كانون الأول تسرب 130 مليار دولار من رأس المال خارج البلاد، في حين استثمر عدد قليل من الروس في الأسهم، مقارنة- على سبيل المثال- بالأمريكيين، الذين شاهد كثير منهم مدخراتهم تتبخر.

ضربت الأزمة الروس بقوة؛ من أفقرهم إلى أغناهم، وانخفض الدخل المتاح على الفور، وخفضت الشركات النفقات، وهو ما أدى إلى هبوط الإنفاق الاستهلاكي، الذي جعل الإنتاج يتقلص أكثر، حتى باتت القلة الميسورة المتبجحة «يرهنون يخوتهم ويبيعون طائراتهم الخاصة»[20]. وتلقى اقتصاد روسيا المزدهر ضربة عنيفة، حتى وجد بوتين نفسه يرأس انهيارًا خطيرًا شبيهًا تمامًا بأزمة عام 1998م، وبدا كأنه خاتمة لعقد الازدهار الذي دعم رئاسته.

في غضون أيام، وافقت الحكومة على 40 مليار دولار لدعم المصارف على صورة سندات ائتمان، و50 مليار دولار قروضًا، لـ 295 شركة تمثل 80 في المئة من اقتصاد البلاد. وكافح المصرف المركزي للحد من تراجع قيمة الروبل، واستنزف ما يقرب من 200 مليار دولار من

احتياطي العملة، ثلث 598 مليار دولار وصلت في أغسطس/آب. السياسات الاقتصادية الكلية المحافظة لبوتين؛ من الموازنات المتوازنة، وبناء الاحتياطيات، وصندوق اليوم العصيب، على الرغم من المناشدات الشعبية من بعضهم في الكرملين للإنفاق بحرية أكبر، أثبتت نفاذ البصيرة.

في تلك المرحلة كان بوتين يشعر بالضغط لإنقاذ القلة الأوليغارشية المفضلة، وإعادة تأميم الشركات المتعثرة التي حان الوقت ليتولى سلطتها بثمن بخس، ومع ذلك وقف مع المستشارين الذين طلبوا توخي الحذر، وطلب سيرجي غورييف، أحد المستشارين الاقتصاديين للحكومة، في وقت لاحق: «تحويل مزيد من سلطة صنع القرار إلى أولئك الذين يعرفون شيئًا عن الاقتصاد، ويمكنهم أن يفعلوا شيئًا من أجله»[21].

الليبراليون المتحالفون مع ميدفيديف، ومن بينهم وزير المالية أندريه كودرين، يبدو أنهم قد انتصروا على المدى القصير، ولم يحدث أيٌّ من التوقعات السيئة بالانهيار الاقتصادي، ومع ذلك كانت الكلفة باهظة. انكمش الاقتصاد الروسي بنسبة 8 في المئة عام 2009م، وهو أسوأ أداء بين أكبر عشرين اقتصادًا في العالم. ولأول مرة تراجعت شعبية بوتين جدًّا؛ متأثرة بالسخط الشعبي في بعض الأحيان الذي امتد إلى الشارع، حيث احتج العمال على عدم دفع أجورهم. في السنوات الثماني التي قضاها رئيسًا للبلاد، كان بوتين دائمًا قادرًا على صرف الانتقادات الموجهة إلى الحكومة، التي يرأسها رئيس الوزراء، واليوم هو من يشغل هذا المنصب، ومن ثم فقد عكس اللوم إلى مكان آخر؛ فهاجم ما عدَّه سببًا خارجيًّا لمشكلات روسيا: الولايات المتحدة.

في أكتوبر/تشرين الأول، اتخذ خطوة غير معتادة حين زار مجلس النواب (الدوما)، واجتمع مع الشيوعيين لكونهم كتلة نيابية، وهي المرة الأولى التي يجتمع فيها بهم خلال السنوات التي قضاها في السلطة، وقد عكست هذه اللفتة خوفه من تأثير الأزمة في

الناخبين- من المتقاعدين والعمال، وأولئك الذين لديهم الحنين إلى العهد السوفييتي- الذين أيدوا تولي حزب المعارضة الوحيد مناصب قيادية.

الزعيم الشيوعي غينادي زغانوف، دعا بإخلاص إلى مزيد من الإنفاق على الصناعات الرئيسة، مثل الصناعات الزراعية، معربًا عن أسفه من تراجع إنتاج روسيا من الحصادات والجرارات إلى ما دون إنتاج روسيا البيضاء، وندد بـ(السياسة النقدية) غير الفعالة لكودرين للسيطرة على تداول الروبل (وانتهز أيضًا الفرصة لمناشدة بوتين التخفيف من مضايقة مرشحي حزبه في الانتخابات الإقليمية)، ومع ذلك كان بوتين قليل الاهتمام بالمقترحات الشيوعية، وقد كان زغانوف هو وفريقه مصدر إحباط له؛ إذ يبعثون له برسالة شعبويَّة.

أشار زغانوف- في خطاب طويل له- إلى أنه عندما اجتاح الولايات المتحدة الكساد العظيم، أرسل فرانكلين ديلانو روزفلت «أفضل مستشاريه الاقتصاديين» إلى الاتحاد السوفييتي لتعلم شيء أو اثنين، ولكن الكارثة اليوم في الجشع الرأسمالي الأمريكي المتهور الذي جاء بالمصائب إلى هذا العالم. بوتين والكاميرات التي تحوم حوله، كان سعيدًا للتوافق على هذه الفكرة، وقال له: «لقد أصبتَ في نقطة مهمة عندما قلت إن الإيمان بالولايات المتحدة زعيمًا للعالم الحر واقتصاد السوق قد اهتز، فضلًا عن اهتزاز الثقة بوول ستريت بكونها مركزًا لهذا العالم»، وأضاف: «إنها لن تُستعاد، وأنا أتفق معك هنا؛ فإن الأمور لن تكون نفسها مرة أخرى».

أبرزت الأزمة نقاط الضعف الهيكلية الكامنة في الاقتصاد الروسي؛ باعتماده على موارد الطاقة، والقاعدة الصناعية المتداعية، والفساد المستشري، وتآكل البنية التحتية (كان البلد لديه بضعة أميال من الطرق المعبدة في عام 2008م، أقل مما كان عليه في عام 1997م)[22]. وقد رأى الاقتصاديون، مثل سيرجي غورييف، أن روسيا يجب أن تتعلم الدروس المستفادة من الأزمة، وتحدث تغييرات ذات مغزى، وقد وافق مستشارو ميدفيديف في الكرملين، مثل أركادي دفوركوفيتش[23]؛ فالاقتصاد الروسي يحتاج إلى سيادة القانون، وحماية

حقوق الملكية والعقود، والمنافسة الحقيقية والشفافية، وبعض القيود على المسؤولين المفترسين والفاسدين الذين أطاحوا بالشركات واستنزفوا أرباحها إلى جيوبهم الخاصة، وإخفاء العائدات غير المشروعة للملكية الأجنبية والحسابات الخارجية السرية، وكان فريق ميدفيديف في الكرملين قد اقترح مسوَّدات لمعالجة بعض هذه القضايا على الأقل.

في أول خطاب وطني له، ألقاه بعد انتخاب باراك أوباما بيوم واحد، دعا إلى تحرير الاقتصاد، وتخليصه من البيروقراطية التي نمت تحت قيادة بوتين، وأضاف أن «بيروقراطية الدولة منذ ما قبل 20 عامًا تسير على النهج نفسه من انعدام الثقة بالفرد الحر والمشاريع الحرة»، وقال في الخطاب، الذي أُجِّل مرتين بسبب الأزمة المالية: «الدولة القوية، والبيروقراطية القوية، ليست هي الشيء نفسه؛ الأولى هي الأداة التي يحتاج إليها المجتمع للتطوير، والحفاظ على النظام، وتعزيز المؤسسات الديموقراطية، أما الثانية والأخيرة فهي خطيرة للغاية»[24].

الأزمتان التوأمان لفصل الصيف والخريف، على أي حال، عطَّلتا التطلعات السياسية لميدفيديف؛ وقد وضع مساعدو ميدفيديف المقربون اللوم على الأزمات في عرقلة برنامجه، لكن بوتين كان العقبة الكبرى. تفحص بوتين مسودات أول خطاب رئيس لميدفيديف في نوفمبر/تشرين الثاني 2008م، وهو ما لم يكن يفعله أي رئيس وزراء عندما كان رئيسًا. أصر على لغة متشددة تجاه الولايات المتحدة والغرب عمومًا، وهذا ما جعل ميدفيديف غير مرتاح، ومن هنا فقد هدد بنشر الصواريخ في كالينينجراد[25].

كان بوتين قلقًا من التداعيات السياسية للانكماش الاقتصادي، ومن ثم فقد أصرَّ على إدراج مقترح آخر في خطاب تلميذه، مقترح مرسوم ليكون صمام الأمان المحتمل في حالة الفوضى الاقتصادية التي تهدد النظام السياسي نفسه، ولم تكن المسودات الأولى تشمله؛ إذ كان بوتين قد اقترحه خلال اجتماعه مع ميدفيديف قبل الخطاب بيوم، وعندما أسقط ميدفيديف ذلك المقترح في خطابه- أسقط جملة واحدة من خطاب يتجاوز ثمانية آلاف

كلمة- لم يعلم حتى أقرب مساعديه بأنه آت[26]. دعا ميدفيديف إلى تعديل الدستور، وهو ما قاومه بوتين دائمًا، وعلى مدى سنوات، على الرغم من المناشدات العديدة؛ مصرًّا على أن ذلك من شأنه أن يقوض الاستقرار السياسي. وكان التغيير المقترح هو تمديد ولاية الرئيس في منصبه من أربع سنوات إلى ست سنوات، وتمديد تعيين أعضاء مجلس الدوما من أربع سنوات إلى خمس. لم يقدم ميدفيديف أي تفسير لهذا التغيير، إلا أن عددًا من الديموقراطيات، مثل فرنسا، مُدَدها الرئاسية أطول، وأصرَّ في وقت لاحق على أن التعديلات والتغييرات الأولى للدستور منذ صياغته في عام 1993م، لم تكن سوى (تعديلات) «لا تغير الجوهر السياسي والقانوني للمؤسسات الحالية». في الواقع، عززت كذلك الرئاسة، وقللت من وتيرة الدورات الانتخابية التي كان بوتين يخشى أن تصبح محورًا لـ (ثورة ملونة).

فاجأ الاقتراح النخبة السياسية، ولا سيما أن أحدًا لم يفهم الهدف من وراء ذلك، وكان من بين التكهنات أن الهدف النهائي هو تمهيد الطريق لعودة بوتين إلى الرئاسة، بعد أن يفجر ميدفيديف مفاجأة بالاستقالة. نُفِّذ التغيير- مثل العمليات الخاصة الأخرى لبوتين- بسرعة وخلسة، وفي غضون تسعة أيام وصل الاقتراح إلى مجلس الدوما، ولم يعترض عليه سوى الشيوعيين، وهم الذين كانوا سندًا مطواعًا قبل أسابيع فقط من معارضته. ومع نهاية العام مرَّ التغيير بمجلسي الشعب والشورى، مع القليل من الجدل، ومن غير مداخلات عليه من الجمهور، من دون شك. حاول الديموقراطيون المحاصَرون حشد الاحتجاجات ضد التعديلات، وكذلك ضد إخفاق الحكومة بتغيير مسار الاقتصاد، لكنها واجهت مضايقات لا هوادة فيها من الكرملين ووكلائه، وخصوصًا فئات الشباب التي رعاها الكرملين.

في ذلك الشتاء الساخط حاول غاري كاسباروف، وبوريس نيمتسوف، وفلاديمير ميلوف، وغيرهم، تأسيس ائتلاف معارض جديد، على أمل استغلال الأزمة الاقتصادية لتلتحم معًا بحركة منشقة، وصفوها بأنها التضامن، بعد الجماعة المعارضة في بولندا، التي أُسست في قتامة عامٍ من الأحكام العرفية، ولكنها ظلت معارضة شديدة الانقسام، تستهلكها

الخصومات الشخصية، ومختلفة على التكتيكات. بعض نقاد بوتين لا يزالون يأملون في العمل داخل النظام لإحداث التغيير، وأراد آخرون أن تشتعل ثورة، ولا يزال آخرون يرفضون الانضمام بسبب كراهيتهم الشخصية لكاسباروف أو كاسيانوف. عقدت (التضامن) في نهاية الأسبوع مؤتمرًا تأسيسيًّا واحدًا في ديسمبر/كانون الأول، ولكن كان لا بد لعقده من ممارسة أعلى درجات الحيطة والسرية بالنسبة إلى الموقع والتوقيت، وكانت الجهود السابقة للاجتماع فسدت عندما ألغيت الأماكن بعد مكالمات هاتفية من السلطات. التكتيكات حتى ضد حركة معارضة هامشية أبرزت قلق الكرملين، ولكن في الوقت نفسه أظهرت قدرتها على إخماد أي محاولة لتنظيم الشعور المناهض لبوتين. عندما اجتمع قادة التضامن أخيرًا في مركز المؤتمرات في ضاحية خيمكي، وصلت حافلة تقل نشطاء من الحرس الشباب، المنتمين لحزب روسيا المتحدة، بقصد مضايقة الحضور؛ وحُمِّلت حافلتهم بالغنم، وكانوا يرتدون القبعات وقمصان الـ(تي شيرت) مع شعار تضامن، وارتدى محتجون آخرون أقنعة وألقوا الموز، وهي أول التلميحات العنصرية إلى الرئيس الأمريكي الجديد، وهو الرئيس الأول من التراث الأفريقي الذي يتولى المنصب؛ وكانت الرسالة فظة، ولكنها واضحة: أن المعارضين لبوتين حيوانات ترعاها اليد الشائنة للولايات المتحدة. دفع النشطاء الخراف من الحافلة، فأصيب كثير منها أو مرض، وراحت تلك الخراف تترنح وتثغو على الرصيف، حيث مات عديد منها[27].

في 30 ديسمبر/كانون الأول قبل عطلة العام الجديد، وقَّع ميدفيديف التشريعات التي غيرت الدستور، وتحول التغيير الأكثر جوهرية في النظام السياسي في البلاد منذ إلغاء بوتين لانتخابات حكام الولايات في عام 2004م؛ من اقتراح إلى واقع في أقل من شهرين، وكان واضحًا في أقل من عام على توليه الرئاسة، أن ميدفيديف كان مجرد شريك صغير (يترادف) في حكم البلاد.

بوتين قد يؤجل ظاهريًّا منصبه في رئاسة الدولة، لكنه يستحوذ عليه باستمرار، وفي ديسمبر/كانون الأول، ذهب بوتين قدمًا في ظهوره السنوي في نهاية السنة، فوصله سبعون

سؤالًا على الهاتف، من مختلف أنحاء البلاد، فحصها بعناية في بث تلفازي حي على الهواء مباشرة، وتعهد بأن آثار الأزمة الاقتصادية سوف تكون ضئيلة للغاية، واعدًا برفع المعاشات، وبمساعدات للعاطلين عن العمل.

قوض أداء بوتين السلطة السياسية لميدفيديف، وهو ما جعل من الصعب عليه ترويض البيروقراطية التي يريد تغييرها. ميدفيديف لم يظهر اعتراضاته علنًا البتة، لكنه أعرب عن الإحباط لمن حوله خصوصًا، وعن استيائه العميق لأقرب مساعديه للتدخلات التي واجهها باستمرار من مكتب رئيس الوزراء. كافح ميدفيديف لحشد المؤيدين من البيروقراطيين، ولكن الموالين لبوتين احتلوا عددًا من الأماكن، حتى داخل الكرملين. وبعد الحرب في جورجيا، أظهرت استطلاعات الرأي السرية أن الجيش الروسي كان «يتعلق بالذريعة المطلقة»؛ من ضباط القيادة إلى القائد الجديد للقوات المسلحة، فالسلطة تقع في نهاية المطاف في البيت الأبيض اليوم، والجميع يفهم ذلك. في كلمات لاذعة من دبلوماسي أمريكي، كان ميدفيديف «يؤدي دور روبن مع باتمان بوتين»[28].

الفصل العشرون

رجل أفعال

محطة الكهرباء الوحيدة التي تزود بلدة بيكاليفو بالتدفئة من أفرانها، أغلقت في 15 مايو/أيار 2009م. وكان صاحب المصنع قد وقَع في ديون لشركة غازبروم بناء على أمر بقيمة أربعة ملايين ونصف مليون دولار، وفي روسيا بوتين لحسابات غازبروم دائمًا الأسبقية. بيكاليفو ذات العشرين ألف نسمة، هي بلدة واحدة أنشئت في عام 1957م شرقي بطرسبورغ، مع مؤسسة واحدة من خدمات الاقتصاد السوفييتي، وكان يتألف من ثلاثة مصانع متشابكة تصنع الإسمنت والبوتاس والألومينا، ومركبًا كيميائيًّا يستعمل في صهر الألومنيوم، وكانت معيشة المدينة بأكملها، في زمن الاتحاد السوفييتي كما هو الحال اليوم، تعتمد على المصانع، واليوم خُصخصت المصانع إلى ثلاث شركات منفصلة كانت تصارع حتى قبل أن تبدأ الأزمة في سبتمبر/أيلول. تعثرت بسبب إرث التخطيط المركزي، والنزاع المعقد على الأسعار في أعقاب الأزمة المالية العالمية، ولم يعد الإنتاج في بيكاليفو كافيًا للحياة اقتصاديًّا[1]. مصنع الإسمنت أغلق أولًا في أكتوبر/تشرين الأول 2008م، وسرَّح مئات العمال، ثم تبعه مصنع البوتاس إذ أغلق في فبراير/شباط، وفي مايو/أيار تلاه مصنع الألومينا، الذي يمتلك أيضًا محطة توليد الكهرباء. واضطر أكثر من 4500 عامل في المصانع الثلاثة إلى أخذ إجازة غير مدفوعة الأجر، أو ترك العمل نهائيًّا. عقب ذلك ناشد حاكم المنطقة- الذي لا يزال يعرف باسم حاكم لينينجراد، على الرغم من تغيير اسم المدينة إلى بطرسبورغ- ديمتري ميدفيديف للتفاوض على القرار في وقت مبكر من فبراير/شباط، ولكن شيئًا من هذا القبيل

لم يحدث، ومن ثم تحوَّل السخط المتصاعد من إغلاق محطة الكهرباء إلى ثورة، وخرج السكان في المدينة إلى الشوارع.

نفى المحافظ الاحتجاجات، قائلًا إن النقابات في البلدة كانت تحرض فقط لإحداث أزمة، وإن كل المدينة أغلقت الماء الساخن للصيانة، وأوضح- كما لو كان إزعاجًا مؤقتًا- «أما بالنسبة إلى الحرارة، حسنًا، لا أعتقد أنها مطلوبة كثيرًا خلال فصل الصيف»[2]. في يوم 20 مايو/أيار، اقتحم بضع مئات من السكان اجتماعًا طارئًا في مكتب رئيس البلدية، مطالبين لا بالمياه الساخنة فقط ولكن أيضًا بوظائفهم وبدفع رواتبهم. ولكن المسؤولين في المدينة ليس لديهم من السلطة على المصانع أكثر مما لدى السكان، فأصحابها أباطرة من ذوي المليارات، ولديهم من المشكلات المالية ما يزيد كثيرًا على مشقة تتعرض لها بلدة نائية في الشمال. وكان من بينهم أحد أكثر الرجال ثراء في البلاد، أوليغ ديريباسكا، وهو من حكم القلة الذي نجا في نهاية عصر يلتسين، وله اليوم مكانة مرموقة في عهد بوتين.

عندما أخفق اقتحام مكتب رئيس البلدية في حل أي شيء، خرج السكان باحتجاجهم إلى الطريق الفيدرالي الرئيس الذي يمتد من فولوغدا إلى نوفايا أدوغا، بالقرب من بطرسبورغ، وأغلقوا الطريق عدة ساعات، وتسببوا بأزمة سير امتدت 250 ميلًا. كان الاحتجاج أحد الاحتجاجات التي اجتاحت البلد؛ من بايكالسك حيث نظم العمال إضرابًا عن الطعام بسبب عدم صرف رواتبهم في مصنع للورق، إلى فلاديفوستوك، حيث اندلعت الاحتجاجات بعد الرسوم الجديدة على استيراد السيارات التي دمَّرت القسم الأكبر من بيع السيارات المستعملة من اليابان. رصد الكرملين علامات الاستياء بانتباه، ونصَّب ميدفيديف وكبار مساعديه برنامجًا على أجهزة الحاسب الخاصة بهم لتعقب الاضطرابات، والتي تبين المناطق المضطربة وفقًا لمجموعة من التدابير التي شملت قياس شعبية رئيس الوزراء الجديد في كل منطقة[3].

بيكاليفو لم تكن أسوأ حالًا من مدن أخرى مكافحة، لكن الاحتجاجات المتصاعدة هناك أصبحت أكثر وضوحًا؛ ودفعت بوتين إلى التصرف، أو ربما جرى التركيز عليها لجعله يتصرف إذا لزم الأمر.

في 4 يونيو/حزيران ذهب بوتين إلى بيكاليفو، واستدعى أصحاب المصانع المغلقة لمقابلته وتوبيخهم علنًا أمام عامة الشعب الذي كان يتابع التلفاز؛ قال لهم موبخًا حين قابلهم- على مرأى ومسمع كل كاميرات التلفاز في الكرملين-: «لماذا لم تعالجوا هذا من قبل؟ تراكضتم كالصراصير عندما قلت إنني قادم». وفي الخارج طوَّق مئات السكان المصنع حيث عقد الاجتماع، منتظرين تحت المطر كلمة تنزل عليهم من السماء. كان بوتين يرتدي معطفًا رماديًّا واقيًا من المطر، وقميصًا حُلَّت أزراره عند العنق، مستندًا إلى الطاولة وهو يغلي ازدراء. «لقد اتخذتم هذا الشعب، الآلاف من الناس، رهائن لطموحاتكم، وعدم مهنيتكم، وربما جشعكم. شيء غير مقبول على الإطلاق».

وأومأ إلى كومة صغيرة من أوراق الاتفاق الذي أنجز قبل وصوله: هل وقَّع الجميع على ذلك؟ كان يحدق في ديريباسكا الملتحي، الذي تضررت ثرواته من جراء الأزمة الاقتصادية، فأجاب أحدهم نعم، ولكن ديريباسكا أومأ بارتباك. في الواقع لم يكن ثمة أية وثيقة تحتاج إلى توقيع، ولكنه استدعاه إلى مقدمة الغرفة ليهينه على مرأى كل الناس، والأهم أمام متابعي التلفاز الذين سيتابعون الأخبار في تلك الليلة، ويتعجبون من قوة إرادة رئيس الوزراء. قذف بوتين بقلمه على الأوراق، فالتقطه ديريباسكا، وتظاهر بالاطلاع على النص قبل أن يخربش موقعًا، وقبل أن يبتعد منصرفًا، نادى عليه بوتين قائلًا: «أعد لي قلمي». وفي الخارج بدأ العمال يتلقون رسائل نصية على هواتفهم، جاءت من مصارفهم، تعلمهم أن رواتبهم غير المدفوعة- أكثر من مليون دولار- ستودع في نهاية اليوم، وكان بوتين قد حرص على ذلك.

قبل عدة شهور، بدا بوتين وكأنه مفصول، إذ كان يعمل في كثير من الأحيان في مكان إقامته في نوفو- أوجاريوفو أكثر مما يعمل في مكتبه الذي جدد حديثًا في مبنى الحكومة، البيت الأبيض، وفوَّض أحد نوابه، إيجور شوفالوف، لمتابعة شؤون الحكومة يومًا بيوم، وقد

استمرت صياغة الميزانية الجديدة للدولة عدة شهور، في حين كان ينتظر البيروقراطيون القرارات التي يبدو أنه لم يكن على عجلة في إصدارها[4]، وعلى الرغم من الأداء الذي أظهره في بيكاليفو، فإنه ظل يقظًا للتهديد السياسي الذي تمثله الأزمة الاقتصادية والوصفة العلاجية لها. في اليوم نفسه الذي اقتحم به بوتين بيكاليفو، حذر ميدفيديف أن الوقت لم يحن بعدُ للاحتفال، مع أنه قد مرَّ أسوأ ما في الأزمة وتم تجاوزه، لكن بوتين هو من يعرف متى يكون الناس بحاجة إلى قليل من العون.

أظهر المشهد أن بوتين لا يرغب أن تفلت مقاليد السيطرة من بين يديه؛ لا لميدفيديف ولا للناس الذين احتشدوا في الشارع، وكان توبيخه لأصحاب المصانع قاسيًا، لكن بدا واضحًا أيضًا أنه لن يسمح للرعاع بأن يؤسسوا سابقة لنشر المظالم ضد الحكومة، وقد كان ديريباسكا يفهم اللعبة، وتقبَّل الإذلال العلني له لأنه يعرف أنه ثمن التميُّز الذي يحظى به بين نخبة الكرملين، حتى إنه لم يكن هو الأسوأ في صفقة إعادة تشغيل المصانع: فالمورِّد الرئيس لمادة النيفيلين التي يحتاجها المصنع في بيكاليفو، سينيت، اضطر إلى بيعها بخسارة، وقد توسط بوتين حتى في تفاصيل تزويدها، التي سلمتها الخطوط الحديدية التي يرأسها الرفيق القديم لبوتين من بطرسبورغ، فلاديمير ياكونين. المورِّد فوسآجرو توسع حالًا في مقتنياتها لتشمل مصنع أباتيت للأسمدة لميخائيل خودوركوفسكي الذي اتهم بسرقته.

كان أهم وأحدث مساهميه الرجل الذي وافق على أطروحة بوتين المثيرة للجدل في عام 1997م، فلاديمير ليتفينينكو، فلا الاتفاق على إعادة فتح بيكاليفو قدَّم شيئًا لحل المشكلة الأساسية مع الإنتاج هناك، ولا نقص الطلب على الألومنيوم، الذي تضاعف مع الأزمة الاقتصادية، لكن ذلك لم يكن المسألة.

كان ديريباسكا قد تلقى بالفعل المليارات على صورة قروض ائتمان لإعادة هيكلة ديونه المتعثرة، وحصل كذلك على قرض إضافي للحفاظ على بقاء الإنتاج مستمرًّا في بيكاليفو، ومع ذلك أكد كبار رجال الأعمال الآخرون وجوب حلٍّ أية أزمات يمكن أن تثير الاضطرابات العامة قبل أن يضطر بوتين إلى التدخل وإضافة نقاط جديدة على خط سير غضبه. وبدلًا من

استخدام الأزمة الاقتصادية فرصة لمعالجة نقاط الضعف الكامنة في اقتصاد البلاد- وهو ما أوضحه ميدفيديف في بيان على الإنترنت في سبتمبر/أيلول أسماه (روسيا إلى الأمام!)- كثف بوتين من دوره موزعًا أخيرًا لموارد البلاد، معاقبًا أولئك الذين عارضوا رؤيته حول كيفية صرف الأموال، ومكافئًا أولئك الذين ساروا على نهجه.

عندما أنشأت الحكومة آلية لتوزيع الأموال من حزمة التحفيز في عام 2009م، قرر بوتين من جانب واحد الشركات التي ستحصل عليها، وكانت هذه هي الطريقة التي يتعامل بها بوتين مع رجال الأعمال، من خلال الاتصالات والصفقات، وليس من خلال اقتصاد متحرر يكون فيه القرار للسوق في اتخاذ القرارات.

السيطرة الشخصية لبوتين على السياسة الاقتصادية سببت الارتباك في بعض الأحيان، حتى حين كان يتبجح في بيكاليفو في مايو/أيار، كان المستشارون الاقتصاديون في الكرملين يضعون اللمسات الأخيرة على اتفاق مع الولايات المتحدة لدفع مساعي روسيا المتعثرة للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، وقد انتقد بوتين نفسه استبعاد روسيا من منظمة التجارة العالمية WTO. وبعد أن حققت المحادثات تقدمًا، أعلن بوتين في وقت لاحق وبعد أيام فقط، وعلى نحو مفاجئ، أن روسيا ستواصل السعي لإقامة تحالف اقتصادي مع روسيا البيضاء وكازاخستان، والانضمام معًا إلى منظمة التجارة العالمية كتلةً واحدة. لم يكن لهذا الانقلاب أي معنى اقتصادي؛ لأن علاقات روسيا في التجارة الخارجية مع أوروبا والولايات المتحدة أكثر مما هي مع غيرهم، ولكن ربط مساعي روسيا بكتلة تجارية لم تتأسس قد يؤخر العضوية إلى أجل غير مسمى، وهو يكشف عن الانقسامات داخل الكرملين. ألكسي كودرين، الذي لا يزال وزيرًا للمالية في حكومة بوتين، حاول ثلاث مرات في ذلك الأسبوع أن يتحدث مع بوتين حول الإعلان، لكن لم يستطع لا هو ولا ميدفيديف أن يقنع بوتين بهذا[5].

بدلًا من الانفتاح الاقتصادي الروسي لمواجهة الأزمة العالمية، استسلم بوتين للغرائز الشعبوية والاكتفاء الذاتي، وهلل له المتشددون الذين يعتقدون أن تقلبات السوق العالمية يمكن التلاعب بها لمعاقبة روسيا، وقد فعل ذلك لأنه يعتقد أنه قد اختار أفضل طريق

للانتعاش. كانت الأزمة الاقتصادية مدمرة لروسيا، لكن تمكنت تدابير الطوارئ في الكرملين من تجنب الانهيار التام، وفي منتصف عام 2009م ارتفع سعر النفط مرة أخرى، وخفَّت بعض الضغوط على الميزانية؛ واستعاد الروبل بعض قيمته، وبدأ سوق الأسهم بتعويض خسائره.

بحلول عام 2010م بدأ الاقتصاد الروسي بالتنامي، يتقدم بقوة أكثر من اقتصادات أوروبا والولايات المتحدة. بعيدًا عن تشجيع تبني التحديث الاقتصادي الكامل، أقنعت الأزمة بوتين فقط أن الأمن الاقتصادي لروسيا يكمن في نظام السيطرة الذي أنشأه على يديه وبقوة إرادته. والتوقعات المتشائمة بأن بوتين ونظامه لا يمكنهم النجاة من الاضطراب الاقتصادي والسياسي ثبت أنها كانت مبالغًا فيها إلى حد كبير.

في 28 سبتمبر/أيلول 2009م التحق الرئيس التنفيذي لشركة غازبروم، أليكسي ميلر، بالمسؤولين المحليين والإقليميين للاطلاع على تلة تطل على وادي إيميريتي جنوب سوتشي، السهل النهري الواسع الذي وافق عليه بوتين بصفته أحد الموقعَين الرئيسَين لدورة الألعاب الأولمبية الشتوية. قبل أقل من خمس سنوات مضت كانوا هناك لحفر الأرض لإقامة محطة جديدة لتوليد الكهرباء، والتي ستصبح أكبر بناء يرى بوضوح على المشهد الساحلي، يتصدره شعار الشركة. ضرورة بناء محطة للطاقة يؤكد مدى التخلف الذي كانت عليه المنطقة؛ فكونها منطقة أحبها القادة السوفييت، خصوصًا ستالين الذي بنى قصرًا ريفيًّا هناك، فإن المنتجعات هبطت إلى حالة سيئة حتى قبل انهيار الاتحاد السوفييتي. ومع أن الازدهار كان يخص فئة المستهلكين المتنامية، فقد اندفع ملايين الروس لقضاء عطلات رخيصة في تايلاند، وتركيا، وسيناء، وأصبحت سوتشي راكدة، تركوها وراءهم غالبًا تغرق في الظلام.

بعد الفوز بدورة الألعاب الأولمبية، قرر بوتين العودة بسوتشي- التي يتذكرها عندما زارها أول مرة في السبعينيات حين كان شابًّا- إلى مجدها السابق، ولم يكن للأزمة الاقتصادية أي أثر في خنق تلك الطموحات، بل كانت ردًّا عليها. مع سوتشي، أحيا التراث السوفييتي العملاق، بمشروع عملاق كتلك المحاولات التي أضفت طابعًا صناعيًّا على الاتحاد السوفييتي، وكانت هذه هي الانتصارات الأيديولوجية لذاكرة بوتين التاريخية؛ بدءًا من

استصلاح الأراضي البِكر إلى تعزيز الإنتاج الزراعي في الخمسينيات، وصولًا إلى الخط الرئيسي بايكال - آمور، أو BAM، في السبعينيات.

كما هو الحال في الحقبة السوفييتية، كان الهدف أيديولوجيًّا بقدر ما هو اقتصادي، ودليلًا على تقدم البلاد وهيبتها في العالم، حتى وإن استهلكت المشاريع موارد هائلة. أصبحت سوتشي أكبر مشروع للبنية التحتية منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، وإن لم يكن المشروع الوحيد: إذ وافق بوتين على 20 مليار دولار لتطوير فلاديفوستوك في الشرق الأقصى، من ضمنه جامعة على جزيرة في الميناء الذي كان منطقة عسكرية مغلقة، وجسر معلق يربط الجزيرة بالمدينة، استعدادًا لقمة اليومين في عام 2012م لدول منطقة آسيا والمحيط الهادئ للتعاون الاقتصادي؛ وأنفق 7 مليارات دولار لإعادة بناء كثير من قازان كي تتمكن من إجراء مسابقة الألعاب الجامعية لعام 2013م، وهي مسابقة تقام كل سنتين، ولا ترقى إلى المرتبة الدولية ولكن لتسويغ خطة إعادة تطوير مكلفة للمدينة. الفورة الناجمة من تأمين دورة الألعاب الأولمبية، شجعت بوتين على استضافة نهائيات كأس العالم عام 2018، واعدًا ببناء الملاعب في المدن الاثنتي عشرة أو ترميمها، ومن ضمنها الموجود في قازان الذي يمكن أن يستخدم للألعاب الجامعية، وآخر في سوتشي الذي يمكن أن يكون موقع الافتتاح والختام في عام 2014م. كل هذه المشاريع تخدم أغراضًا متعددة لبوتين؛ إذ تشهر روسيا بأنها قوة عظمى، وتوفر حوافز اقتصادية لاقتصاد متعثر، وتستغني عن موارد الدولة لأولئك الموجودين في المواقع من أجل مزيد من الأرباح.

كان بوتين مهتمًّا بسوتشي لدرجة الهوس خلال ولايته في رئاسة الوزراء، حتى إن الأولمبياد كانت تسمى المشروع المدلل لديه، فالمشروع ليس مظهرًا من مظاهر قوته فقط، وإنما أيضًا أداة لإبقائه. عيَّن أحد المقربين والأكثر ثقة من المستشارين، ديمتري كوزاك، لإدارة المشروع، وأنشأ شركة حكومية جديدة، هي أوليمبستروي؛ لبناء الأماكن التي تحتاج إليها سوتشي. علق بوتين الرقابة القانونية والتشريعية للبناء بمرسوم، ومن ذلك مسائل التكلفة والأثر البيئي في منطقة حددتها اليونسكو مركزًا يحتاج إلى حماية؛ لكونها «المناطق

الجبلية الكبيرة والوحيدة في أوروبا التي لم تشهد تأثيرًا جوهريًّا لفعل الإنسان عليها»[6]، وأكد أيضًا السيطرة الرسمية على توزيع العقود الممنوحة لبناء الملاعب الأولمبية. ورَأَس مجلس الرقابة في وكالة تنمية الدولة (Vnesheconombank)، التي تنهي تأمين الاعتمادات للغالبية العظمى من المشاريع، التي يقررها مقاولو بوتين أيضًا.

في حفل وضع حجر أساس لغازبروم، لم يُقَل كثير عن الشركات التي ستبني المصنع أو خط الأنابيب، ولم يقَل شيء عن الرجال الذين يمتلكونها، وكان المقاول المكلف ببناء خط الأنابيب يدعى سترويغازمونتازه، ولم يكن له وجود قبل عام. كانت الشركة قد خرجت من الأزمة الاقتصادية في عام 2008م، منتزعة 400 مليون دولار من مختلف الشركات التابعة لغازبروم والمقاولين من الباطن الذين بنَوا شبكة واسعة من خطوط الأنابيب في البلاد. وكان الرجل الذي يقف خلف سترويغازمونتازه، صديق بوتين في لعبة الجودو أيام شبابه، أركادي روتنبرغ، وهو اليوم يستثمر دوره في الشركة الحكومية لحصر الفودكا روسبيرتبروم، محولًا هذا الدور إلى ثروة (أحد مصانعه ينتج علامة تجارية جديدة هي بوتنكا، تصغير ساخر لاسم بوتين، وسرعان ما أصبحت واحدة من العلامات التجارية الأكثر شعبية وربحًا في روسيا[7]).

دخول روتنبرغ مجال الأنابيب جعله من الأثرياء على نطاق جديد، وسرعان ما ذهب عدد من مشاريع توسعة غازبروم إلى شركته؛ ابتداءً من بناء نورث ستريم، خط الأنابيب الذي أوقع جيرهارد شرودر في شرك الفضيحة، إلى خط الأنابيب الذي يوفر الحرارة لمجمع الجزيرة الجديد الذي أقام فيه بوتين في فلاديفوستوك. وفي عام 2010م احتل روتنبرغ وشقيقه بوريس آخر مركزين على لائحة فوربس لأغنى مئة روسي، بقيمة 700 مليون دولار لكل منهما. كان أركادي روتنبرغ منعزلًا، حتى إنه لم يجر أي مقابلة حتى بدأ ثراؤه بين الأثرياء الروس يثير التكهنات حول المصدر الملحوظ لثروته، وقد اعترف في مقابلة مع كوميرسانت[8]: «نحن لم نأت من الشوارع».

مشاريع بوتين العملاقة هي وحدها التي رفعت روتنبرغ، ففي عام 2010م تولى مع ابنه الشركة التي تشيد محطة للطاقة فوق القرية الأولمبية المستقبلية، وحصل على العقد تلو الآخر للألعاب، حتى وصل إلى واحد عشرين عقدًا، بقيمة إجمالية تبلغ نحو 7 مليارات دولار، المبلغ الذي يعادل التكلفة الكاملة لدورة الألعاب الأولمبية الشتوية لعام 2010م في فانكوفر.

لم ينكر أن صداقته مع بوتين ساعدته على الصعود النيزكي، لكنه وصف علاقتهما بأنها من باب الواجب والعبء، وكما قال مدربهم في الجودو؛ مسألة ثقة. قال للصحيفة: «إن معرفة المسؤولين الحكوميين ذوي المستوى الرفيع، لا تصيب أي شخص بأذى، لكن بكل تأكيد لا تساعد أي شخص أيضًا. هذا ليس ضمانًا، وأكرر، بوتين له عدد من الأصدقاء غير أولئك الذين نالوا الشهرة والنجاح اليوم. علاوة على ذلك كل شخص لسبب ما ينسى المسؤولية الكبيرة لمثل هذه الصداقة، وهي بالنسبة إلي مسؤولية حصرًا، فأنا أحاول أن أتصرف بطريقة بحيث لا يمكن أن أخونه أبدًا».

ما دامت حكومة بوتين وزعت العقود دون مناقصات عامة ومراقبة عامة، فقد ذهبت الأغلبية الساحقة لهؤلاء؛ من مثل روتنبرغ الذي رفَّعه بوتين، وفلاديمير ياكونين، رئيس السكك الحديدية الروسية، الذي أشرف على أكبر وأغلى مشروع على الإطلاق: السكك الحديدية التي تربط الساحل بالجبال، حيث ستعقد ألعاب التزلج، والمشروع الذي أطلق عليه (الطريق المشترك)، وكان يعد أعجوبة هندسية تغلبت على التحديات الجيولوجية الضخمة، أما النقاد فقد نظروا إليه على أنه مشروع نفايات ملتبس، خلق كارثة بيئية في أحد الوديان الضخمة الهادئة. السكة الحديدية تحاذي الضفة اليسرى لنهر مزيمتا، واسمه من كلمة (البرية) في لغة الوبخ المنقرضة، التي كانت سائدة في الجبال قبل أن تحتل الإمبراطورية الروسية المنطقة في القرن التاسع عشر. يمتد الطريق السريع بموازاة ذلك، وطريق قديم بمسربين على الضفة اليمنى. ممر النهر يضيق جدًّا في الأماكن التي تدخل فيها السكة الحديدية بأنفاق بطول أربعة وعشرين ميلًا تقريبًا من أصل ثلاثين ميلًا (تبلغ جميعها اثني عشر نفقًا، من بينها نفق يمتد لما يقرب من ثلاثة أميال)، أو تصعد فوق الجسور، ومئات من

الأرصفة النهرية التي تقودك إلى النهر أو إلى ضفتيه، والتي لا يمكن أن تغيِّر من طبيعة النهر الهائجة. وقد شن دعاة البيئة حملة للطعن في المشروع، لكن بوتين علَّق أيضًا القوانين التي توقف العمل به، وتعرض دعاة البيئة المحتجون للمضايقة، وزج بعضهم في السجن.

أجرت السكك الحديدية الروسية عقودًا فرعية مع كثير من الشركات التي ترتبط أيضًا بأصدقاء بوتين، ومن بينها بناء جسر إس كي موست، وقد اشترى أغلبية حصة تلك الشركة في وقت لاحق غينادي تيمتشينكو.

منذ البداية، فسد نظام البناء الأولمبي بسبب التأخير في الإنجاز، الذي تبعه حالًا زيادةُ النفقات، وهو ما اضطر بوتين إلى التدخل ثلاث مرات، يستخدم القوة في بعض الأحيان للمضي قدمًا في المشروع، وقد فصل مديري أولمبستروي؛ زاعمًا استياءه من بطء التقدم في العمل، وارتفاع النفقات. الأولوية التي وضعها بوتين للألعاب دعت إلى تجاوزات ضخمة في النفقات؛ فقد أصبحت أولوية ملحة وليس لها أي رصيد مالي، وكثيرون تجاوزوا الحد المسموح به؛ لأن توزيع العقود كان مبهمًا، ولا مساءلة.

كان هناك أدلة صارخة على الفساد، مع عمولات ضخمة تدفع من العقود، لكن على الرغم من التوبيخ العلني للمسؤولين بسبب تكاليف الفساد وأخطاره، لم يفعل بوتين شيئًا لمعاقبتهم عندما كانت تعرض عليه؛ ففي عام 2009م اشتكى علنًا فاليري موروزوف، رجل أعمال موسكو، من أن فلاديمير ليشيفسكي، المسؤول في مكتب الكرملين لشؤون الرئاسة، قد طلب منه 12 بالمئة من قيمة العقد البالغة 500 مليون دولار لتجديد مستشفى (مصح) تملكه الحكومة في سوتشي، وقد دفع إما نقدًا أو عن طريق شركة خارجية، لكن عندما شعر بالضغط عليه للخروج من الصفقة، ذهب إلى الشرطة الذين رتبوا له شَرَكًا في سليفوفيتسا، مطعم البيرة غير البعيد عن الكرملين، حتى إنه ربط كاميرا خفية في حزامه لتسجيل الدفعة النقدية الأخيرة البالغة خمسة ملايين دولار. أخذ ليشيفسكي الدفعة النقدية، ثم انصرف دون إلقاء القبض عليه، وقد تسببت له هذه الحيلة التي أخفقت بالإحباط، فجاهر بالقضية، وتوجه مباشرة إلى مكتب ديمتري ميدفيديف، وبصورة غير مباشرة توجه إلى الصحافة

البريطانية والروسية، فأحال ميدفيديف القضية إلى التحقيق، لكنها ماتت ببطء بعد عامين[9]، وبدلًا من أن تفتح النيابة العامة تحقيقًا في شركة موروزوف، هرب موروزوف إلى بريطانيا، وشرع يفصل اتهاماته في استمارة مطولة بغية طلب اللجوء السياسي الذي حصل عليه. كان الدرس واضحًا لكل من يجرؤ على تحدي النظام.

الرجل الذي فعل ذلك، سيرجي ماجنيتسكي، توفي في زنزانة سجن ماتروسكايا تيشينا في موسكو 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2009م، وكان قد نقل إلى هناك لتلقي علاج طبي طارئ لالتهاب البنكرياس والمرارة، وكان قد مضى عليه في السجن عام تقريبًا- الحد الأقصى للاحتجاز دون محاكمة- بتهم الاحتيال الضريبي الهائل الذي كشف عنه وأدلى به إلى السلطات، وبدلًا من نقل الرجل المريض إلى مستشفى السجن، اقتاده ثمانية حراس إلى زنزانة انفرادية، وقيَّدوا يديه، وضربوه بالهراوات.

كان وقتها في السابعة والثلاثين فقط، مدقق حسابات، ويفتقر إلى الجاذبية، ولا يوحي بأنه يمثل تهديدًا قويًّا لنظام بوتين؛ فهو يمثل جيل ما بعد الحقبة السوفييتية الذي نشأ في ظل روسيا الجديدة، وتلقى تعليمًا عاليًا ومهنيًّا، وهو أب لطفلين، ومن الذين آمنوا بـ(دكتاتورية القانون) التي وعد بها بوتين، ونهاية (العدمية القانونية) التي تحدث عنها ميدفيديف. بعد إلقاء القبض عليه في عام 2008م، كان واثقًا أن القانون سيحميه في نهاية المطاف، ولكنه بدلًا من ذلك أمضى أسبوعًا تلو الأسبوع ينقل من زنزانة قذرة إلى أخرى، ولم يسمح له برؤية زوجته وأمه سوى مرة واحدة فقط في أثناء الاحتجاز، وقد احتفظ بيوميات دقيقة عن الانتهاكات التي تجشمها، فضلًا عن التدهور المطرد لحالته الصحية، ولتمرير الوقت قرأ المسرحيات المأساوية لشكسبير[10].

سرعان ما أصبح علاجُه في السجن، ثم وفاته، في طي النسيان، كما طوى كثيرين غيره في النظام القضائي البشع في روسيا، حيث قتل خمسة آلاف من السجناء في تلك السنة، لكن ماجنيتسكي كان قد عمل عند راعٍ قوي، ويليام برودر، أحد المستثمرين الأجانب البارزين

في البلاد، وكان في وقت مبكر المشجع لرئاسة بوتين، مؤمنًا بالإصلاحات الاقتصادية التي تعهد بها، ولكن بعد ذلك أصبح أحد خصومه اللدودين.

جمع برودر ثروة استثمرها في أسهم الشركات الروسية، ثم استخدم تلك الأسهم للضغط من أجل الحوكمة الجيدة والشفافية. كان عالي الصوت وعدوانيًّا، وغالبًا ما يقاضي الشركات، مع أنه كان تقريبًا يخسر دائمًا في المحكمة، وكان يشعر أنه يشاطر بوتين هدفًا مشتركًا لجعل الاقتصاد الروسي اقتصادًا تنافسيًّا بعد فساد القلة الأوليغارشية في التسعينيات. في عام 2005م رُفِض إدخاله إلى مطار موسكو وهو ما لم يكن متوقعًا، وألغيت تأشيرته بحجة أنها مسألة تتعلق بالأمن القومي. إستراتيجية الاستثمار العدوانية لبرودر كانت قد تجاوزت بعض الخطوط، ربما شملت تلك التجاوزات شركة غازبروم أو سورجوت، وكلتاهما على صلة وثيقة ببوتين، لكنه لن يعرف أي واحدة منهما بكل تأكيد، وأعرب عن أمله في البداية أن يكون كان خطأ سيعالَج على وجه السرعة، وناشد رجالًا كان يعتقد أنهم حلفاؤه في الكرملين، لكن بحلول عام 2007م، كانت النيابة العامة قد التفتت إلى مكاتب شركته في موسكو، فبدأ برودر بهدوء بتجريد أصول صندوقه الاستثماري، أرميتاج كابيتال، ونقله إلى لندن.

في يونيو/حزيران دهم نحو أربعة وعشرين ضابطًا من وزارة الداخلية المكتب الهيكلي للأرميتاج في موسكو، واستولوا على سجلات الشركة: الشهادات والوثائق والأختام والطوابع للشركات القابضة التي تتكون منها سنداتها ووثائقها.

مع نهاية العام أعيد تسجيل ثلاث شركات لمالكين جدد، في ظروف غامضة، وجميعهم مجرمون مدانون، وقدَّم هؤلاء المالكون طلبات ضرائب مستردة بقيمة 230 مليون دولار، ومُنحت في يوم واحد في ديسمبر/كانون الأول. تحول برودر إلى شركة قانونية في موسكو، فايرستون دونكان، ليعرف ماذا حدث، وكان المحاسب الذي فكَّ النظام المعقد هو سيرجي ماجنيتسكي، وقد أدلى بشهادته أمام لجنة التحقيق الحكومية، محددًا ضباط وزارة الداخلية والمفتشين والقضاة، ومفتشي الضرائب الذين دبروا سرقة أختام الشركة، والتهرب من دفع

الضرائب لاحقًا. فأمرت الوزارة بإجراء تحقيق في السرقة، وعينت المحقق الأول الرئيس الرائد الذي اتهمه ماجنيتسكي بتدبير تلك السرقة، أرتيوم كوزنتسوف، وبعد ثمانية عشر يومًا اعتقل ماجنيتسكي.

وفاة ماجنيتسكي صدمت النخبة في روسيا؛ فقد اعتادوا منذ زمن طويل على التدابير القاسية المتخذة ضد النشطاء السياسيين ورجال الأعمال المارقين، لكن ماجنيتسكي لم يكن أيًّا منهم، حتى وإن كان برودر يمثل تهديدًا لمصالح سلطوية لشخص ما، لكن ماجنيتسكي كان بكل وضوح كبش الفداء. كشفت وفاته عن مؤامرة كبيرة من الانتهاكات وسوء المعاملة حول القضية التي حقق بها، وحول القبض عليه واحتجازه، والإخفاق في معالجة تدهور حالته الصحية، والضرب الأخير الذي أودى بحياته.

ديمتري ميدفيديف، أيضًا، بدا مصدومًا، وقد أوضحت حالات قليلة أيضًا (العدمية القانونية) التي كان يعتقد أنها تعيق مستقبل الاقتصاد الروسي، فأصدر أمرًا للنائب العام بإجراء تحقيق وتأسيس فريق عمل لمراجعة القضية على نحو مستقل، وتعيين محامين حقوقيين بارزين من أولئك الذين همشهم بوتين كثيرًا عندما كان في الكرملين. في ديسمبر/كانون الأول فصل ميدفيديف عشرين مسؤولًا من إدارة السجون، على الرغم من أن معظمهم جاؤوا من مناطق بعيدة، باستثناء أحدهم كان له كل الصلة بعلاج ماجنيتسكي في أثناء الاعتقال. في غضون ذلك سخَّر برودر موارده في تعقب العائدات الضريبية التي تقارب 230 مليون دولار، وكان المحقق الرئيس قد اشترى شقتين تبلغ قيمتهما أكثر من مليوني دولار (سجلتا باسم والديه)، واشترى كذلك سيارة مرسيدس بنز، وسيارة رانج روفر، وسيارة لاند روفر، تزيد قيمة كل واحدة منها على راتبه السنوي الذي لا يتجاوز عشرة آلاف ومئتي دولار.

المرأة التي كانت في مكتب الضرائب والتي وافقت على الحسومات، كان لديها عقار في موسكو، ودارة (فيلا) على شاطئ البحر في دبي، و11 مليون دولار مودعة في الخارج باسم زوجها، بحسب محققي برودر. وإذ لا يزال البيروقراطيون المتورطون يعملون حتى اليوم خلف مكاتبهم الرسمية، فذلك يعني أن اختلاس الأرميتاج تكرر مئات المرات، وربما آلاف

المرات. لم يكشف ماجنيتسكي فقط أعمال الفساد بين عدد قليل من المسؤولين، لكنه كشف أيضًا فساد النظام بأكمله.

بالنسبة إلى ميدفيديف فإن هذه القضية التي جاءت بعد أشهر فقط من شعاره (روسيا إلى الأمام!)، مثّلت فرصة لتكون مثالًا في معاقبة المتورطين في الاختلاس ووفاة محاسب بريء. التحقيق الرسمي، مع ذلك مضى في صمت حتى جعل برودر من القضية قضية دولية مشهورة، بتقديمه التماسًا إلى الكونغرس في الولايات المتحدة والبرلمانات في أوروبا لفرض عقوبات على ستين شخصًا من الذين شاركوا فيها.

عشية الذكرى السنوية الأولى لوفاة ماجنيتسكي، أعلن مكتب المدعي العام خلاصة تحقيقاته، وكانت درامية كأي شيء يشن ميدفيديف هجومًا عنيفًا عليه: أعلنت النيابة العامة منتصرة، أن ماجنيتسكي هو العقل المدبر للاختلاس الذي كشفه هو.

استغرق فريق العمل الذي كلفه ميدفيديف لتقديم تقريره النهائي أكثر من عامين، وقدم معدو التقرير الرئيسون تقريرهم في أثناء لقاء لهم مع ميدفيديف في الكرملين، وخلصوا في تقريرهم إلى أن اعتقاله كان غير قانوني، ووفاته كانت جريمة، والتحقيق ما هو إلا غطاء، والمحاكم متعاونة عن سابق إصرار. اعترف ميدفيديف في الاجتماع أن الجرائم ارتكبت، ولكنه غير قادر على فعل أي شيء حيال ذلك. وفي اليوم التالي رفضت وزارة الداخلية، المسؤولة ظاهريًّا رئيسًا وقائدًا، تقرير الفريق، وعدَّته غير ذي أهمية، ثم أعلن مكتب المدعي العام أنه بعد التحقيق الشامل ستفتح قضية جنائية ضد ماجنيتسكي بتهمة التهرب الضريبي، ولم يسبق أن وضعت السلطات رجلًا ميتًا في قفص الاتهام حتى في أسوأ المحاكمات الصورية (للفزع الكبير) التي حدثت في الثلاثينيات، بل إنهم استدعوا أمه للإدلاء بشهادتها في المحكمة.

الولايات المتحدة، في عهد الرئيس أوباما على وجه الخصوص، كان يحدوها أمل مفرط في رئاسة ديمتري ميدفيديف، ورأت في انتخابه تحولًا تطوريًّا في التنمية السياسية

في روسيا، وقد وعد أوباما بـ(إعادة ضبط) العلاقات بعد النهاية الكارثية لسنوات بوش. وعلى الرغم من واقعيتهم بالهيمنة السياسية التي انتهجها بوتين، خرج أوباما ومساعدوه عن مسارهم لمغازلة ميدفيديف مباشرة، وفقًا للبروتوكول، وأعربوا عن أملهم أن يعيد بناء أسس السلطة السياسية بنفسه مع مرور الوقت. «لدى بوتين قدم واحدة على الطريقة القديمة في ممارسة الأعمال التجارية»، قالها أوباما عن بوتين دون دبلوماسية قبل أسابيع من لقائه المقرر بالزعيم الجديد والزعيم البالغ الأهمية، لكنه مع ميدفيديف يأمل في الانتقال إلى عهد جديد.

لم يكن أحد في البيت الأبيض أو في وزارة الخارجية لديه أية أوهام بأن يعمل ميدفيديف دون موافقة بوتين على المسائل المهمة للدولة، ولكن يبدو أن الاحتضان الأولي يبشر بإعطاء نتائج. في عام 2009م التقى الزعيمان للتفاوض على معاهدة ستارت جديدة، لتحل محل الاتفاق الذي فاوض عليه بوتين مع جورج بوش في عام 2002م، نحو مزيد من خفض الترسانات النووية بين البلدين. ميدفيديف- كما فعل بوتين ذات مرة- ساعد الولايات المتحدة في أفغانستان، وسمح للأمريكيين ببدء سحب الآلاف من العتاد (وليس الأسلحة) من خلال السكك الحديدية عبر الأراضي الروسية[11]، وعندما قُدم دليلٌ على أن إيران وضعت برنامجًا سريًّا لتخصيب اليورانيوم، انضمت روسيا إلى الولايات المتحدة في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وصوتت لفرض عقوبات جديدة على الاقتصاد الإيراني.

تخلى أوباما عن خطط لنشر نظام دفاع صاروخي في جمهورية التشيك وبولندا، وبهذا يكون قد تنازل عن إحدى المكاره لروسيا، وكان قد أثار النشر ذاته الغضب العارم لبوتين قبل خطابه في ميونيخ عام 2007م. وقللت إدارة أوباما من الجهود الأمريكية في دعم التغيير الديموقراطي في أوكرانيا وجورجيا، التي- بكل الأحوال- لم تنجح كثيرًا في أي مكان، وظلت جورجيا حليفًا مقربًا لأمريكا، ولكنها حليف منكسر بعد الحرب في عام 2008م. وفيكتور يانوكوفيتش، الذي انتصر بالتزوير في أوكرانيا في عام 2004م، انقلب، ونجح في استغلال اقتتال خصومه وهزيمة يوليا تيموشينكو في انتخابات نزيهة في فبراير/شباط 2010م، حيث

حوكمت وأرسلت إلى السجن بتهمة- ويا للسخرية- التفاوض مع بوتين على اتفاق يضع حدًّا لمنع الإغلاق الثاني للغاز الطبيعي في فصل الشتاء من عام 2009م. (إعادة الضبط) بدت فعالة، لكن الارتفاع في درجة حرارة العلاقات لم يصل إلى بوتين نفسه، وسرعان ما برَّدت أحداث أخرى هذا التوجه الدافئ.

فقط بعد شهرين من توقيع ميدفيديف وأوباما معاهدة ستارت الجديدة في أبريل/ نيسان 2010م، كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي عن وجود إحدى عشرة خلية نائمة كانت تعيش سرًّا في الولايات المتحدة خلال صعود بوتين إلى السلطة. كانوا، في لغة التجسس، من (المهاجرين غير الشرعيين)، يعيشون كالأمريكيين العاديين في الضواحي، ويعملون في تربية الأطفال بالقرب من بوسطن، ونيويورك، وواشنطن دون حماية الحصانة الدبلوماسية. وفي عام 2009م ذكَّرت الـ FSB الروسية هؤلاء العملاء برسالة مشفرة التقطها مكتب التحقيقات الفيدرالي تتحدث عن «بحث وتطوير العلاقات في دوائر صنع السياسات وإرسال إنتل إلى سي»[12]. الحرف الاستهلالي سي يشير إلى المركز (Center)، الذي يرسلون إليه التقارير، إضافة إلى مناشدات لسداد تكاليف التعليم والإسكان، وما يحتاجه العملاء لعيش الحلم الأمريكي. أبلغ مكتب التحقيقات الفيدرالي الرئيس أوباما بذلك عشية الزيارة الرسمية الثانية لميدفيديف إلى الولايات المتحدة، التي زار خلالها وادي السليكون لترويج الاستثمار والتجارة الخارجية، لكن لم تحدث أية عمليات اعتقال حتى بعد اجتماعات ميدفيديف في البيت الأبيض والغداء الودي مع أوباما في مطعم الهمبرغر الشعبي في أرلينغتون بولاية فيرجينيا. بمساعدة التغطية الإعلامية المسلية لهذه الشبكة غير الفعالة المحتملة من الجواسيس، التي تتمتع بمِنَح الحياة الأمريكية، استبعد مساعدو أوباما أن يكون التجسس ضارًّا إذا كان الهدف منه جمع معلومات يمكن الوصول إليها بسهولة من مصادر عامة، لكن نطاق الجهد المبذول يظهر شدة انعدام الثقة الروسية بالنيات الأمريكية.

عشرة من العملاء اعترفوا بالذنب في يوليو/تموز، أما الحادي عشر فقد هرب إلى قبرص ورجع على ما يبدو إلى روسيا، وعومل الآخرون بطريقة تشبه دراما الحرب الباردة في

مطار فيينا، إذ بُودِلوا بأربعة من الروس الذين سجنوا في بلادهم بتهمة التجسس لحساب الغرب، وإن أصر أحدهم على الأقل أنه لم يكن جاسوسا قط. عند عودتهم اجتمع بوتين سرًّا معهم، وكرَّم أولئك الذين عانوا من حياة السرية التي تصورها ذات مرة لنفسه عندما كان شابًّا.

أنشدوا معًا الأغاني، ومن بينها الأغنية الوجدانية من فيلم الدرع والسيف، الفيلم الذي دفع بوتين في عام 1968م إلى الانضمام إلى الـ(كي جي بي)، وحتى اليوم لا يزال له تأثيره في عزلته المتزايدة التي يشوبها شيء من جنون العظمة. بوتين لا يزال يعرف كلمات تلك الأغاني، وتعلم عزف الموسيقى على البيانو (وهو ما فعله في مزاد خيري بعد بضعة أشهر)، من أين يبدأ الوطن الأم، تتساءل كلمات الأغنية، وبدا الجواب متجذرًا في خلفية بوتين الخاصة[13]:

مع رفاق طيبين وموثوق بهم
يعيشون في ساحة مجاورة

كشف بوتين اجتماعهم خلال زيارة رسمية له في يوليو/تموز إلى سيفاستوبول، ميناء شبه جزيرة القرم الذي كان مقرًّا لأسطول البحر الأسود. كان يحضر مهرجانًا دوليًّا للدراجات النارية، يضم ليل الذئاب، النسخة الروسية من ملائكة الجحيم، وقد اختلطت مشاعر السائقين الوطنية، بالأرثوذكسية الروسية، والخشوع لبوتين. ركب معهم، وإن كان ذلك على دراجة نارية ذات ثلاث عجلات جهزت له خصوصًا، هذا النوع من فرص التصوير أصبح مرة أخرى الأكثر شيوعًا. خيانة المهاجرين غير الشرعيين أغضبته كثيرًا، وتعهد بأن المصدر- الذي بات معروفًا على حد قوله- سيدفع ثمن المعاناة لذلك، وقال: القاعدة العامة «الخونة دائمًا ينتهون نهايات سيئة، يموتون سواء من الإفراط في شرب الخمر أو من تعاطي المخدرات»، ثم أشار إلى سيرجي تريتياكوف، وهو ضابط كبير في الاستخبارات الذي كان قد فر إلى الولايات المتحدة في عام 2000م، وكان معروفًا لدى مشغليه الأمريكيين بأنه الرفيق جي، ومن بين ما أفصح عنه تفاصيل حول رئيس أمن بوتين نفسه، فيكتور زولوتوف.

وقد توفي تريتياكوف قبل أيام فقط من كسر حلقة التجسس، لكن زوجته ظلت تتكتم على خبر وفاته حتى تمكن مكتب التحقيقات الفيدرالي من استكمال تشريح الجثة، التي لم تُظهر أية مؤامرة. كونه رئيس الأنشطة الاستخباراتية في الأمم المتحدة قبل انشقاقه، قد يكون له دور في الكشف عن المهاجرين غير الشرعيين، لكن زوجته نفت ذلك[14].

قال بوتين عن تريتياكوف: «في الواقع، كانت حياته مثل النفايات».

خلقت هذه التناقضات الأسلوبية بين ميدفيديف وبوتين تكهنات لا نهاية لها حول الخلافات الفعلية بينهما ضمن (الترادفية) (tandem). وبسبب توقع بوتين الولاء، لم يتوفر أي دليل بينهما على ذلك، وفي العلن يُصَوَّر الرجلان ومساعدوهما بأنهم وحدة متكاملة، ولهم رؤية مشتركة لمستقبل روسيا؛ «بحكم التعريف، لا يمكن أن يكون هناك أي خلافات بين (ترادفية) ميدفيديف بوتين»، كما أفاد رئيس مجلس الدوما بوريس غريزلوف في عام 2010م[15].

في بداية الرئاسة توصل الرجلان إلى اتفاق لم يطلع عليه إلا قلة، وهو أن يحترما مسؤوليات مكتبيهما المستقبليين، على الرغم من احتفاظ بوتين لنفسه بدور أكبر في المسائل العسكرية والمخابرات من أي رئيس وزراء سبقه[16]، وفي النصف الأول من رئاسته لم يوجه ميدفيديف أي كلمة نقد مباشر تجاه بوتين أو سياساته، وإن أبدى لهجة أكثر ليبرالية في الخطب التي رأى فيها بعضهم أنها تحمل توبيخًا ضمنيًّا، ومع ذلك ازداد في الخفاء التنافس بين المكتبين والفريقين ومركزي السلطة؛ فطوَّر ميدفيديف معسكر المستشارين في الكرملين الذين امتعضوا- كما امتعض هو- من العقبات التي ظهرت أمام سياسات الرئيس ورؤيته لمجتمع واقتصاد أكثر تقدمًا، وما إن علموا أن سلطة ميدفيديف لا تتمدد إلا بالقدر الذي يسمح به بوتين، حتى أصبحت مشاعر الاستياء والغضب ظاهرة بوضوح أكثر، وقد ذكر أحد أقرب مستشاري ميدفيديف ذات مرة، مع أنه رفض قول ذلك علنًا[17]: «كانت

هناك خلافات، وهذا أمر طبيعي»، في القضايا التي تمثل أهمية كبرى له في الواقع، لم يحتفظ بوتين بحق النقض فقط، وإنما كان يملي التفاصيل أيضًا.

في نظر الجمهور أصبح ميدفيديف رجلًا من الكلمات؛ «روسيا إلى الأمام!»، في حين كان بوتين رجل الفعل؛ فعندما أحرق الخبيث موسكو ومدنًا أخرى بالدخان الخانق صيف عام 2010م، كان بوتين هو الذي أنقذها، كما فعل في بيكاليفو، وصاحَبَت الحرائق موجة حرارة، وصعب السيطرة عليها لأسابيع، وهو ما أسفر عن مقتل عشرات الأشخاص وتدمير قرى بأكملها. كان ميدفيديف آنذاك في يوم عطلة على البحر الأسود، وتباطأ في العودة حتى تفاقمت الكارثة، وبدت الحكومة عاجزة عن السيطرة عليها، وذلك ما أثار انتقادات عنيفة على نحو غير عادي. إحدى المدونات المعروفة بألفاظها النابية ونقدها اللاذع تغلبت عليه، نشرت على الموقع الإلكتروني لصدى موسكو، نقدًا حارقًا اضطر بوتين إلى الرد عليه.

كتب المدون، الذي قدم نفسه باسم ألكسندر من قرية بالقرب من تفير (Tver):

> «أين تذهب أموالنا؟»، وشكا من أن القرية افتقدت المعدات الهزيلة اللازمة لإخماد النيران التي التهمت منازل السكان، ثم مضى معقبًا على أحد مقترحات ميدفيديف التي جاءت بتوقيعه- بإنشاء مركز يشبه مركز وادي السليكون للمبتكرات التكنولوجية في ضاحية سكولكوفو في موسكو-: «لماذا في كل عام ننزلق إلى ما هو أبعد من نظام اجتماعي بدائي؟ ما هذا المركز الابتكاري اللعين الذي تتحدثون عنه في سكولكوفو، ونحن نفتقر إلى سيارات إطفاء؟»[18].

لعل السبب الوحيد الذي نالت به تلك المقالة المملة اهتمامًا لافتًا هو أنها انتقدت مشروعًا يتعلق تعلقًا وثيقًا برئاسة ميدفيديف، لا ببوتين نفسه؛ فمقالة لاذعة من هذا القبيل ضد بوتين شخصيًّا يمكن أن تكون مُهلِكة لدى أي وسيلة إعلامية تناقش ذلك صراحة، ولكن كان لها صدى واسع، وكان بوتين يستشعر التحولات في الرأي العام.

بعد تسعة أيام ظهر بنفسه على شاشة التلفاز يقود طائرة برمائية لإخماد الحرائق، وقد هبطت الطائرة في نهر أوكا لتحميل المياه ثم ألقت بحمولتها على مستنقع مشتعل جنوب

شرقي موسكو، سأل بوتين ملتفتًا إلى الطيَّار: «أكان عملًا جيدًا؟»، أجاب الطيَّار: «ضربة مباشرة!»، هذه الصور، بغض النظر عن الشفافية التي أظهرها المستشارون مع وسائل الإعلام في الكرملين والقنوات التلفازية المطواعة، أثبتت فعاليتها بقوة. كان بوتين المشهور الأساسي بواقعية الكرملين، الزعيم الذي لا يمكن الاستغناء عنه، بل و(الأيقونة الجنسية المختارة المتألقة)، حيث بدت أعماله المثيرة هدفًا لردود نسوية لا تحمل بعدًا عاطفيًّا فحسب، وإنما جنسية أيضًا[19]. في حين أن ميدفيديف لم يتمتع بالمداهنة العفوية أو المفتعلة نفسها، فقد اعترض بوتين ذات مرة على عروض تشير إلى عبادة الشخصية، قائلًا إن تجليات تقديس الزعيم في البلاد كانت قد أشيعت على نحو غير لائق في المذهب الستاليني، واليوم يبدو أنه يتبنى هذا أكثر من أي وقت مضى.

إعلانات الدعاية لا تخدم سياسة بوتين وحسب، إنما لها دور في تعزيز غروره أيضًا، وظهر بأنه يأخذ هذا الغرور على محمل الجد، فبعد أسابيع فقط من عيد ميلاده الثامن والخمسين، ظهر بوتين في الأماكن العامة وقد تراكم الماكياج على وجهه، حتى إن الصحفيين لاحظوا ذلك. وكان في كييف هذه المرة، يجري محادثات لدمج مصنع الشركة الأوكرانية للطيران في واحدة من الشركات المملوكة للدولة التي أعيد بناؤها حديثًا في روسيا؛ شركة الطيران المتحدة، وكانت العلاقات مع أوكرانيا قد تحسنت تحسنًا ملموسًا بعد انتخاب يانوكوفيتش في عام 2010م، ولكن بدا بوتين مضطربًا، حتى إنه تجنب النظر إلى كاميرات التلفاز. تحت الماكياج كانت هناك كدمات واضحة تحت عينيه؛ «هي على الأرجح ناجمة عن إسقاط الإضاءة»، وأصرَّ المتحدث باسمه، ديمتري بيسكوف، أن «رئيس الوزراء متعب»، غير أن الكدمات مع ذلك لا يمكن إنكارها، وقد دفعت إلى تكهنات بأن بوتين بدأ بنظام الجراحة التجميلية[20].

التخمين الذي يواجه إنكارًا دائمًا قد يكون ضُخِّم من غير شك، لكن التغييرات في مظهر بوتين أصبحت واضحة في الصور، ولفتت انتباه المسؤولين الأجانب الذين اجتمعوا به، والذين تحدث أحدهم على الأقل بصورة غير رسمية عن أعمال التجميل، فقد اختفت أقدام

الغراب من على صدغه، وتلاشت التجاعيد العميقة في جبهته، والأكياس الملحوظة تحت عينيه، وكان جلده مشدودًا، وانتفخت وجنتاه قليلًا، وصُفِّف شعره الرقيق بعناية، وبدا وجهه مستديرًا، وعيناه أضيق مما كانتا.

أجريت الجراحة التجميلية في تشيليابينسك، وأذاع ألكسندر باخوف سرًّا آخر حين ادعى أنه يعرف الطبيب الذي نفذ هذه العمليات، التي تضمنت رأب الجفن، وقال باستحسان شديد: «هل تريد أن نرى الرئيس عجوزًا مترهلًا؟»[21].

التوترات داخل (الترادفية) أصبحت أكثر وضوحًا في صيف عام 2010م، عندما اندلعت الاحتجاجات على إنشاء طريق سريع جديد من موسكو إلى بطرسبورغ. لم يكن أحد يشك في الحاجة إلى تحسين الطرق، وكان المشروع بقيمة 8 مليارات دولار، فهو من بين المشاريع العملاقة التي وافق بوتين عليها لتحفيز النمو الاقتصادي، ولكن النقاش احتدم لسنوات على الطريق، واليوم من دون سابق إنذار للجمهور جاء المشروع يحمل صفة الأولوية فجأة في يوليو/تموز، وظهرت الجرافات، وبدأت بإزالة الأشجار من غابات خيمكي، المحمية الواقعة على حافة موسكو، التي يسميها كثيرون (رئتَي) المدينة. وهكذا فقد أشعلت الأشغال على الطريق فتيل الاحتجاجات لدى جيران الغابة، الذين انضموا سريعًا إلى الناشطين البيئيين المحليين والأجانب، فأعلن ميدفيديف في أغسطس/آب- تجنبًا لغضب شعبي يشبه ذلك الذي سببته حرائق الصيف- أنه سيعلق أعمال البناء، في حين درست الحكومة الطرق البديلة له.

أصبح الجدل اختبارًا غير متوقع لسلطة ميدفيديف الرئاسية، وقد أخفق الاختبار؛ إذ انتقد عمدة موسكو، يوري لوجكوف، توقف المشروع في صحيفة الحكومة الرسمية، روسيسكايا غازيتا، انتقادًا عامًّا لم يجرؤ أن يتوجه بمثله لبوتين. كان لوجكوف، يعارض ذات مرة الطريق السريع لأسباب خاصة به، واليوم قد تحول إلى داعم له، وكان السبب واضحًا؛ فهو يعرف أن المشروع كان يحظى بدعم بوتين، الذي منح عقد البناء في عام 2008م، وبعد

سنة تنازل عن وضع الغابة بصفة محمية، وسمح بالشروع في العمل. وسواء عرف ميدفيديف أم كان هذا ليس واضحًا له، فقد تصرف كما لو أن لديه القدرة على التدخل اليوم. لوجكوف، الذي رَأَس موسكو ثمانية عشر عامًا، دعا بتحدٍّ لاستعادة «المعنى الحقيقي للحكومة وسلطتها»[22]، وكثير ممن سمعوا هذا الكلام رأوا فيه دعوة لبوتين إلى العودة إلى الرئاسة، وفي ذلك استفزاز لميدفيديف لا يمكن تجاهله.

استجاب مساعدوه في الكرملين؛ فشن التلفاز الحكومي حملة شرسة على العمدة، كتلك التي شنها بوريس يلتسين قبل أكثر من عقد من الزمن على لوجكوف وبريماكوف بعد أن بدأا يتهيأان كقادة ما بعد تحالف يلتسين.

بعد أسبوع من ذلك، استدعى رئيسُ موظفي ميدفيديف لوجكوف، وطلب منه أن يستقيل «ويترك بهدوء»، وعندما رفض أبلغه الكرملين أن يذهب في عطلة أسبوعًا ليفكر في الأمر[23]. ميدفيديف، الذي تبرَّم سرًّا من لوجكوف، لابتذاله وطول لسانه، وأنه كمن «يخرب عشه بيده»، ظهر عاجزًا عن التصرف دون موافقة بوتين. وإذ لم يجرؤ أي من زعماء المعارضة، مثل بوريس نيمتسوف، على الإشارة إلى سلطته، فإن ميدفيديف كان يسعى إلى إثبات سلطته. لكن عندما عاد لوجكوف إلى موسكو، وكتب رسالة إلى ميدفيديف يسخر فيها من طموحاته الديموقراطية، ويطالب بإعادة الانتخابات لرؤساء البلديات والمحافظين (التي ألغاها بوتين)، حصل ميدفيديف أخيرًا على موافقة لفصله. وبعد أسبوعين، أجبر بوتين ميدفيديف على تعيين رئيس موظفي بوتين، سيرجي سوبيانين، رئيس بلدية، وهو محافظ سابق من سيبيريا وليس لديه خبرة أو معرفة بالعاصمة إلا قليلًا.

قد يكون بدا أن ميدفيديف انتصر، من خلال عزيمته على خلع لوجكوف من السلطة، إنما المواجهة توضح أيضًا حدود سلطته بصفته رئيسًا للبلاد، ثم إن البناء والأشغال في الطريق السريع استئنفت في وقت لاحق، كما هو مخطط لها.

المقاول الرئيس، والعرض الوحيد، كانت تملكه سلسلة متداخلة وملتوية من الشركات المسجلة في قبرص وجزر فيرجن البريطانية، وتدعى إحداها كروازيت للاستثمارات، نصفها كان مملوكًا لطرف آخر يدعى أولبون للاستثمار، وكان مالكها الوحيد أركادي روتنبرغ. وحين ضُغط على ميدفيديف لبيان السبب الذي دفع الحكومة لاستئناف العمل، قال متمتمًا: إن هناك «مصالح خاصة» في الموضوع[24].

قيادة ميدفيديف أصابت منتقدي بوتين بخيبة أمل، بل إن القيود المفروضة على سلطته تركته هو نفسه محبطًا، وفي نهاية عام 2010م تفجرت مشاعر الاستياء والغضب لديه لأول مرة عندما وُضع مصير ميخائيل خودوركوفسكي مرة أخرى في الميزان. فمع قرب نهاية مدة سجنه الأولى، أطلقت السلطات تحقيقًا جديدًا ضده، وضد شريكه بلاتون ليبيديف، بهدف إبقائه في السجن. بدأت محاكمته الثانية في عام 2009م، هذه المرة بتهمة اختلاس الأرباح التي تزيد على قيمة النفط الذي استخرجته يوكوس على مدى ست سنوات[25]، واستمرت المحاكمة تسعة عشر شهرًا.

أمام استسلامهم لحكم الإدانة الصادر بحقه سعى محامو خودوركوفسكي لتسليط الضوء على الدوافع السياسية وراء القضية، ودعوا بوتين نفسه ليكون شاهدًا، وكذلك إيجور سيتشين، ووزير المالية ألكسي كودرين، وعشرين مسؤولًا آخرين، ولكن القاضي رفض، وسمح لبعض المسؤولين البارزين بالشهادة، على أمل- على ما يبدو- إظهار بعض الالتزام بالإجراءات القانونية الواجب اتخاذها، وكان من بينهم واحد من أقدم زملاء بوتين، جيرمان جريف، الذي بدا مهزوزًا لدى استجوابه من قبل خودوركوفسكي نفسه من خلال الغرفة الزجاجية حيث يجلس المتهمون. وجاءت اللحظة الحاسمة عندما اعترف جريف بالنقطة التي كانت محور دفاع خودوركوفسكي: من المستحيل أن يسرق ما قيمته سنة من إنتاج النفط في البلاد بأكمله دونما وجود شخص ما في الحكومة يلاحظ ذلك في حينه.

كانت المحاكم في روسيا قد أصبحت مسيسة في ذلك الحين، ومن ثم لم يكن لدى خودوركوفسكي أمل كبير، فكان دفاعه مجرد محاولة لنزع الشرعية عن العملية القضائية، وقد نجح في ذلك؛ فقد كانت النيابة العامة أكثر ارتباكًا وتعقيدًا مما كانت عليه في أول محاكمة له.

ما يثير السخرية تعهدات ميدفيديف بإنهاء (العدمية القانونية) التي مزقتها وقائع أخطاء إجرائية، وصراعات أو تناقضات الاتهامات، التي تفتقر إلى أي مظهر من مظاهر العدالة، وقد أدينت بشدة خارج روسيا بوصفها مؤشرًا على استبدادية الدولة التي أصبحت روسيا عليها.

عشية الحكم تدخل بوتين بقوة معبرًا عن رأيه: «إن حكمي هو أن يجلس اللص في السجن»، صرح بهذا في حديثه السنوي الذي ظهر يوم 16 ديسمبر/كانون الأول، مشيرًا إلى السطر الذي ورد في مسلسل تلفازي شهير عرض عام 1979م بعنوان: (**مكان الاجتماع لا يمكن أن يتغير**). وتحدث عن إدانة خودوركوفسكي السابقة كما لو أنه ثبتت بالفعل إدانته بتهم جديدة، وقارن بينه وبين المصرفي الأمريكي برنارد مادوف، الذي حكم عليه قبل وقت قريب بالسجن 150 عامًا لإدارته أحد أكبر مخططات بونزي في التاريخ.

بدت استجابة بوتين عاطفية بعمق، وبكامل الغضب والسخط الشخصي، بل ذهب إلى أبعد من ذلك وأكثر من التهم نفسها، إذ أشار إلى أن خودوركوفسكي كان قد أمر رئيس أمنه بتنفيذ جريمة قتل رئيس بلدية نفتيوجانسك، حيث تقع حقول النفط الرئيسية ليوكوس. «امرأة واحدة في موسكو رفضت تسليم ممتلكاتها الصغيرة، وقتلوها أيضًا، وبعد ذلك قتلوا القاتل الذي استؤجر لتنفيذ عمليات القتل هذه، وكل ما وجدوه كان قطعًا من دماغه تناثرت في جميع أنحاء مرآبه».

عند هذه النقطة كان على ميدفيديف أن يعترض؛ ولأول مرة ينتقد بوتين علانية، قائلًا: لا أحد؛ لا الرئيس ولا رئيس الوزراء، له الحق في إصدار الحكم قبل تلقيه من المحكمة،

ولكن نصائحه لم يكن لها أي تأثير، فقرار الحكم بالإدانة- في الواقع- كان قد اتخِذَ من قبل المحكمة، بثمان مئة وثمان وسبعين (878) صفحة كُتبت للقاضي كي يقرأها، هذا ما كشفه مساعده في وقت لاحق، واصفًا الاجتماعات المتكررة والضغط المستمر الذي مارسه كبار المسؤولين عليه.

لم تكن المحاكمة أكثر من فضح لخواء تعهدات ميدفيديف، وهو ما يشير إلى نشوء خرق في تعهدات الرجلين، الذي قد يتفاقم ويجعل (الترادفية) بينهما أكثر سوءًا، ومن ثم يضع حدًا لآمال كثيرين. حكم القاضي على خودوركوفسكي بالسجن ثلاثة عشر عامًا، مع أنه خُفِّضت المدة قليلًا في وقت لاحق، وهذا يعني أنه مع احتساب مدة توقيفه فسيبقى في السجن حتى عام 2016م، إلى ما بعد الانتخابات البرلمانية والرئاسية القادمة. فرد خودوركوفسكي بسلسلة من النداءات الشعبية والقانونية، لكنها جاءت عبثًا، فسخر من ميدفيديف لأنه مسلوب السلطة، وأشفق على بوتين من نزعاته الانتقامية. وفي رسالة مفتوحة في **نيزافيسيمايا غازيتا**، كتب أن بوتين «كان عاجزًا عن النأي بنفسه» عن مجذاف سفينة عملاقة يصعب السيطرة عليها وقد بناها بنفسه، السفينة التي تبحر فوق مصائر الناس غير مبالية بذلك، السفينة التي رأى كثير من المواطنين ترفرف فوقها رايات القراصنة السوداء[26].

الفصل الواحد والعشرون

العودة

في اليوم الثاني من خريف عام 2011م اجتمع مندوبو الحزب السياسي الوحيد المهم حقًّا في روسيا في ملعب لوجنيكي، الساحة الرياضية الرئيسة في البلاد، التي شيدت في الخمسينيات في ذروة العظَمة السوفييتية، واحتضنت دورة الألعاب الأولمبية الوحيدة التي أُقيمت في الاتحاد السوفييتي، في موسكو في عام 1980م، وسيجري تجديدها قريبًا لتكون بمنزلة المكان الرئيس لنهائيات كأس العالم في عام 2018م. في ديسمبر/كانون الأول عام 2010م، فازت روسيا في مسابقة استضافة البطولة، على الرغم من المحاولة الباهتة التي كادت تخيب لولا تدخل بوتين شخصيًّا للإشراف على الاقتراح، والاستفادة من مساهمات القلة في البلاد. اتهمت روسيا باللعب في الخفاء في التصويت مع قطر، والتي تقدمت أيضًا بعرض وفازت به لعام 2022م، التصويت الذي سيبقى مصدرًا للجدل وفضيحة للفريق الذي ينظم هذه الرياضة، الفيفا (FIFA). وهناك اتهامات أيضًا بأن روسيا تقدمت بلوحات من مخازن متحف الأرميتاج في بطرسبورغ هدايا للمندوبين الذين سيصوتون في نهاية المطاف للدولة التي سترعى البطولة. وقيل إن إحدى هذه اللوحات كانت لبيكاسو، ولوحة أخرى كانت منظرًا طبيعيًّا وصفه الذي تسلَّمه بأنه «قبيح للغاية»[1].

في ذلك اليوم من شهر سبتمبر/أيلول، احتشد أكثر من عشرة آلاف مندوب من (روسيا المتحدة)، في مدرجات غصت بلافتات الحزب والأعلام الحمراء والبيضاء والزرقاء. كان التجمع لا يشبه الأسلوب الأمريكي لمؤتمر الحزب، إنما استعراض ولاء لحزب ودولة، وقد

لاحظ عدد غير قليل من المراقبين أن المؤتمر له صدى مؤتمرات الحزب الشيوعي القديمة، إذ يتوارد إليه صفًّا فصفًّا الرجال الصلع أو الرجال بالشعر الأشيب، والجنرالات باللباس الرسمي، المرصعة صدورهم بالميداليات من الماضي السوفييتي المجيد، لكن اليوم أصبح المنتج أكثرًا بريقًا؛ أصبح شأنًا تلفازيًّا يولِّف بما يشبه الدعاية السوفييتية بتقنيات الفن والتكنولوجيا الغربية.

كان ذلك قبل شهرين ونصف فقط من أحدث جولة انتخابية برلمانية، سيفوز فيها الحزب بكل الأحوال، وخلف العرض المنسق لم يكن الجميع بخير؛ فسمعة الحزب هبطت بعد إخفاق مجلس الدوما بعمل أي شيء ينفع الروس العاديين خلال دورته الأخيرة، التي كانت فترة مضطربة من الأزمات الاقتصادية والسياسية، وأصبح الحزب اليوم مثار سخرية، ومحط النكات الفاضحة. وأصبح مجلس الدوما غرفة مليئة بالموالين والانتهازيين؛ من الموالين لبوتين والمشاهير، أمثال ألينا كابابيفا، أو أندريه لوجوفوي، الذين جُنِّدوا وانتخبوا على القوائم الحزبية بدلًا من السياسيين ذوي القاعدة الشعبية الواسعة الذين يستجيبون لهم.

في فبراير/شباط 2011م، دعا ألكسي نافالني، المحامي الذي كوَّن جمهورًا يتابع مدونته التي تفضح الفساد المستشري، إلى حملة شعبية لتدمير حزب (روسيا المتحدة)؛ من أجل مستقبل ديموقراطي في البلاد، وقال في مقابلة إذاعية إن الحزب يختزل كل ما هو خاطئ في روسيا، وأضاف، بوصفه محايدًا، أن تسمية الحزب التي أثبتت جاذبيتها، لن يكون مدهشًا استمرارها، ودعا (روسيا المتحدة) بحزب (النصابين واللصوص)[2].

كان نافالني ناشطًا في السياسة الديموقراطية منذ أواخر التسعينيات عندما انضم إلى حزب يابلوكو، لكن أصابه مزيد من الإحباط مع تراجع أهمية الحزب والاقتتال الداخلي فيه، وطُرد من الحزب بعد أن شارك في مارس/آذار في مظاهرة سنوية للقوميين الروس رفضها ليبراليو يابلوكو. بعدها افتتح شركة قانونية بعض الوقت، لكن الشهرة التي اكتسبها ذاعت

فقط عندما بدأ التحقيق في صفقات الشركات الحكومية المبهمة التي هيمنت على الاقتصاد الروسي. كان تكتيكه بسيطًا: شراء أسهم والتحقيق مع المكتتبين، وكونه مالكًا لسهمين فقط من أسهم ترانسنفت، المحتكرة لنقل النفط، فقد أراد أن يعرف لماذا تبرعت الشركة بـ 300 مليون دولار للجمعيات الخيرية في عام 2007م، ثم وزعت مبالغ تافهة على المساهمين[3]، وكشف على ما يبدو عن مخطط للشركة بدفع مبالغ ضخمة للكرملين، وبخاصة لجهاز الحماية الاتحادي، الذي وفر الأمن لموظفي الدولة، ويرأسها الحارس الشخصي لبوتين، فيكتور زولوتوف.

لا يملك نافالني سلطة تحقيق قانونية، لكنه استخدم آخر مساحة حرة للخطاب العام في روسيا، وشبكة الإنترنت، لجمع قائمة افتراضية مصورة للمخالفات، والصراعات على المصالح، والتربح الجشع من خزائن ميزانية الدولة، متوسعًا ما وراء ترانسنفت؛ حيث سلط الضوء على العقود المشبوهة والضخمة التي تنظمها الأجهزة والمؤسسات الحكومية، وسلط الضوء كذلك على النشاطات التجارية الغامضة التي يمارسها نواب الدوما، والممتلكات الفاخرة التي يمكن أن يحصل عليها المسؤولون الحكوميون لأنفسهم ولأطفالهم، على الرغم من رواتبهم الرسمية المتواضعة.

فعل ما فعله سيرجي ماجنيتسكي؛ فقد جمع أجزاء أدلة من السجلات العامة التي أصبحت في متناول كثيرين، وأصبحت على قدر كبير من الشفافية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى المبادرات التي اقترحها ميدفيديف، التي ينص أحدها على نشر جميع المناقصات الحكومية إلكترونيًّا. وأنشأ موقعًا على شبكة الإنترنت، RosPil.ru، أصبح منبرًا للتدقيق بهذه المناقصات، ونجح في خلق فضيحة عامة تجبرهم على إلغاء بعض العقود، على الرغم من قلة الملاحقات القضائية الهادفة التي نتجت عن إفاداته.

استغل نافالني السخط الشديد من مجلس الدوما، ومن النظام، ومن بوتين نفسه، وصنع شهرته، ولم يُخفِ رغبته في قيادة حركة سياسية تقود روسيا إلى طريق آخر. كان

طويل القامة، أشقر، وسيمًا، له فك محفور، وإحساس بالغضب بدا الشخصية السياسية الأولى التي تخرج من المعارضة الصغيرة التي تمتلك سمات تمكنها من أن تصبح منافسة لبوتين نفسه، ولكن هذا لن يستمر طويلًا دون أن يلاحظه أحد، ثم إن الدور الذي اضطلع به ميدفيديف في الإصلاحات الليبرالية لم يكن قد أدى إلى تمكين تحدي نافالني الخطير وغير المتوقع في وصوله إلى السلطة.

حتى محاكمةِ خودوركوفسكي الثانية لم يتناقض ميدفيديف قط مع بوتين، ولم يحدث أن تحداه بتاتًا ولا بأية طريقة كانت، لكن مع اقتراب نهاية ولايته الرئاسية بدأت تطفو على السطح حملة غير معلنة بين المعسكرين الموالين لكل منهما. في يناير/كانون الثاني 2011م، حذر أحد مستشاري ميدفيديف، أركادي دفوركوفيتش، علنًا بأن محاكمة خودوركوفسكي الثانية أضرت بمناخ الاستثمار في روسيا، وهذا يعزز الاعتقاد بأن العدالة في روسيا متقلبة، وتعاني خللًا شديدًا. بعد أسابيع، عاد ميدفيديف إلى دافوس، حيث كان له أول حوار دولي هناك قبل أربع سنوات، حدد فيه خططًا طموحة لتحديث الاقتصاد الروسي، وقد طمأن المستثمرين أنه على الرغم من قضية خودوركوفسكي ستظل بلاده ترحب بالمستثمرين الأجانب ورأس المال. قبل أيام فقط من سفره إلى دافوس، دفع ميدفيديف اتفاق ستارت الجديد للتفاوض مع باراك أوباما من خلال مجلس الدوما، وفي أثناء وجوده في سويسرا، تعهد بإحياء محادثات الدخول في منظمة التجارة العالمية التي لم يعتمدها بوتين في عام 2009م. ومع الانتخابات البرلمانية الجديدة التي من المقرر أن تجرى في نهاية هذا العام، والانتخابات الرئاسية التي تليها بعد ثلاثة أشهر، قدم ميدفيديف مسارًا منافسًا للمستقبل، وقد انجذب المطلعون على بواطن الأمور في الكرملين، أو في الحكومة، إما في اتجاهه أو في اتجاه بوتين.

أول سؤال واجه ميدفيديف في دافوس هو أنه لم يتعرض في خطابه لمسألة حاسمة؛ هي الربيع العربي الذي بدأ في تونس في ديسمبر/كانون الأول 2010م، وألهم الاحتجاجات التي اجتاحت العالم العربي، وما تلاها من إسقاط حسني مبارك في مصر، وتهديد العقيد معمر القذافي في ليبيا. أجاب ميدفيديف أنه لا يقرُّ فقط بالتطلعات الديموقراطية للآلاف الذين

تدفقوا إلى شوارع تونس احتجاجًا على الفساد، والفقر، وانعدام الحقوق السياسية، ولكن يقرُّ أيضًا بأن الحكومات تتحمل مسؤولية معالجة هذه المظالم. وذهب إلى تأكيد أهمية العلاقة بين الشعب والحكومة بطرائق يمكن أن تطبق بالتساوي على روسيا، حيث تمكنت إرادة الشعب من إدارة العملية الانتخابية.

وقال ميدفيديف محاولًا تسخين الموضوع على ما يبدو:

> «عندما أخفقت الحكومات في مواكبة التغيير الاجتماعي، وأخفقت في تحقيق آمال الناس، ترتب على ذلك الفوضى، يا للأسف، هذه مشكلة الحكومات نفسها والمسؤولية التي تتحملها. حتى إذا كانت الحكومات التي في السلطة تجد أن عددًا من المطالب غير مقبولة، فيجب ألا تقطع الحوار مع مختلف المجموعات حولها، وإلا فإنها تفقد الأساس الحقيقي لشرعيتها».

الاحتجاجات في العالم العربي حفزت المعارضة الروسية المحاصرة، على الأقل في فضاء الإنترنت، وبدت تصريحات ميدفيديف متعاطفة مع أمور كان يخشاها بوتين كثيرًا. بدا ميدفيديف مترددًا؛ ذلك أنه لا يريد المصادقة على الاحتجاجات في الداخل، حتى إن نائب الرئيس الأمريكي جوزيف بايدن، تجرأ أن يقتبس منه خلال كلمة ألقاها في جامعة موسكو الحكومية في مارس/آذار 2011م، أعلن فيها أن الروس يجب أن يكون لهم الحقوق نفسها التي يتمتع بها أي شخص آخر، «معظم الروس يرغبون في اختيار قادتهم الوطنيين والمحليين في انتخابات تنافسية»، قال بايدن وهو ما يلمس منه تأييد حملة غير معلنة آخذة بالتكوُّن. «يريدون أن يكونوا قادرين على التجمع بحرية، ويريدون أن تكون وسائل الإعلام مستقلة عن الدولة، ويريدون العيش في دولة تحارب الفساد؛ هذه هي الديموقراطية، وتلك هي مكونات الديموقراطية، لذا أحثكم جميعًا أيها الطلاب هنا: لا تساوموا على العناصر الأساسية للديموقراطية؛ فلستم بحاجة إلى عقد صفقة فاوستية (نسبة إلى فاوست)»[4].

وراء الأستار، استغل بايدن زيارته للضغط على ميدفيديف لدعم قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بأن يأذن بالتدخل العسكري في ليبيا، حيث تحولت الاحتجاجات السلمية إلى انتفاضة مسلحة ضد الدكتاتور معمر القذافي في البلاد، فقد أرادت الولايات

المتحدة والحلفاء في حلف شمال الأطلسي، وبعض الدول العربية، إقامة منطقة (حظر طيران) في أنحاء البلاد؛ لمنع القمع الدموي للمتمردين. فوافق ميدفيديف لدى إقناعه بالتدخل لأسباب إنسانية، رغم معارضة وزارة الخارجية ومسؤولين أمنيين آخرين، رأوا أن تدخل حلف شمال الأطلسي في حملة خارج حدوده سيكون امتدادًا للهيمنة الأمريكية في جزء آخر من العالم. وكان بذلك قد انجرف انجرافًا خطيرًا بعيدًا عن مسار بوتين، جاعلًا من المواجهة أمرًا محتومًا.

قبل أسابيع قليلة كان بوتين قد حذر من أن الثورات في ليبيا وغيرها من البلدان ستثير صعود الإسلاميين المتحالفين مع تنظيم القاعدة، بمساعدة وتحريض من قبل متعاطفين قصيري النظر في الغرب بمحاولة قلب الزعماء المستبدين. لم يكن مخطئًا فيما يتعلق بصعود التطرف، والذي من شأنه أن ينشب في وقت لاحق في ليبيا، وتتفاقم حرب أهلية طاحنة في سوريا، الحليف الأكثر أهمية لروسيا في الشرق الأوسط. كان دعْم بوتين للطغاة المستبدين في ليبيا وسوريا مدروسًا بعناية من منظور مصالح روسيا الجيوسياسية، ومن ضمنها مشاريع الطاقة، وعقد لبناء خط السكة الحديدية الذي يربط بين المدن الساحلية في ليبيا (التي تفاوض بشأنها فلاديمير ياكونين، صديق بوتين)، ومبيعات الأسلحة الضخمة، وفي الحالة السورية؛ القاعدة العسكرية الروسية الوحيدة خارج الاتحاد السوفييتي السابق. في الحقيقة كانت تحذيراته أعمق من ذلك بكثير.

هناك ارتباط قاتم في ذهنه بين التطلعات إلى الديموقراطية وصعود التطرف، بين الانتخابات والفوضى التي ستنتج عنها بكل تأكيد. قال بوتين في بروكسل في فبراير/شباط: «دعونا ننظر إلى الوراء في التاريخ- إذا كنتم لا تمانعون- أين كان يعيش الخميني؛ العقل المدبر للثورة الإيرانية؟ عاش في باريس، ويحظى بدعم معظم المجتمع الغربي، واليوم يواجه الغربُ البرنامج النووي الإيراني. أتذكّر أن شركاءنا كانوا يدعون إلى انتخابات ديموقراطية نزيهة في الأراضي الفلسطينية، ممتاز! فازت بتلك الانتخابات حماس»، وكان

ينظر إلى الانتفاضة في ليبيا- على نحو غريزي وعفوي- على أنها مجرد خطوة أخرى نحو الثورة التي دبرت لموسكو.

أما ميدفيديف فربما لأنه كان شابًا، أو لأنه لم يخدم قط في الأجهزة الأمنية، أو ربما بسبب طبيعته الوديَّة، فإنه لم يكن يشاطره انعدام الثقة القاتم بالغرب، وبالديموقراطية، وبالطبيعة البشرية، وقد أمضى السنوات الثلاث الأولى من رئاسته يتودد لإدارة الرئيس باراك أوباما، واليوم لا يتودد للولايات المتحدة وحسب وإنما للدول ذات العلاقات القريبة من روسيا، من بينها فرنسا وإيطاليا، التي توسلت إليه لمساعدتها على منع ذبح المدنيين في ليبيا. وهكذا، وبناء على تعليماته، امتنعت روسيا عن التصويت عندما صوت مجلس الأمن على قرار الأمم المتحدة رقم 1973، في 17 مارس/آذار، الذي يجيز استخدام القوة العسكرية لمنع «قوات القذافي من التحرك ضد المتمردين في معقلهم في شرقي ليبيا».

أثار قرار ميدفيديف حالة من التمرد بين دبلوماسيي روسيا ومسؤوليها الأمنيين، وأرسل سفير روسيا لدى ليبيا، فلاديمير تشاموف، برقية يحذر الرئيس فيها من فقد حليف مهم لروسيا، فاتخذ ميدفيديف قرارًا بفصله، لكن السفير عاد إلى موسكو، وأعلن على الملأ أن الرئيس يتصرف ضد مصالح روسيا. وعندما شن حلف شمال الأطلسي أولى غاراته الجوية بعد يومين- وكانت الضربات الأولى وابلًا أكثر من مجرد عقاب، وتستهدف تدمير الدفاعات الجوية في ليبيا أكثر شدة مما توقعه كثيرون- بدا ميدفيديف لكثيرين في روسيا أنه تواطأ في حرب أخرى يقودها الأمريكيون.

أحد أقرب مستشاري رئيس الوزراء ادعى لاحقًا أن بوتين لم يقرأ قرار مجلس الأمن قبل التصويت، وأُجِّل ذلك للرئيس لانشغاله بـ(الدبلوماسية الاقتصادية) بدلًا من الشؤون الخارجية، وعندما بدأ القصف فهم بوتين المغزى من هذه الحرب؛ كان الهدف غير المعلن للحرب الجوية للناتو ليس حماية المدنيين الذين وقعوا بين فكي الاشتباكات فحسب، وإنما إضافة إلى ذلك الإطاحة بنظام القذافي، وأعرب عن اعتقاده بأن ميدفيديف قد خُدع، وقال

مستشاره: «قرأ بوتين نص القرار، ورأى أن بعض البلدان تستخدم اللغة المطاطية لكي تتصرف بالطريقة التي تفعلها اليوم»[5]. وقال بوتين لقد انهالت قنابل الناتو على ليبيا، في أثناء جولة له في مصنع للأسلحة، واستنكر قرار الأمم المتحدة، ووصفه بأنه «معيب وغير ملائم»، وأضاف: «إذا ما قرأه أحدنا فسيتضح له على الفور أنه يفوض أي دولة لاتخاذ أية إجراءات ضد دولة ذات سيادة. بكل الأحوال فإن ذلك يذكرني بدعوات القرون الوسطى للحملة الصليبية، عندما يدعو شخص ما أشخاصًا آخرين للذهاب إلى مكان ما لتحرير شخص آخر»؛ وقارن هذه الحرب بالحروب التي شنتها أمريكا في العقد الماضي؛ من تفجير الوضع في صربيا وأفغانستان، ثم بذريعة ملفقة العراق، «واليوم جاء دور ليبيا».

قال المتحدث باسم بوتين إنه أعرب فقط عن رأيه الشخصي، لكنه كان توبيخًا لا لبس فيه لميدفيديف الذي يتعرض لانتقادات بسبب الموافقة على القرار. دعا ميدفيديف على الفور تجمع صحافة الكرملين إلى بيته الريفي خارج موسكو؛ للدفاع عن امتناع روسيا عن التصويت، وانتقاد بوتين بصورة غير مباشرة على الأقل. كان يرتدي سترة الجلد الواقية من الرصاص، وطوقًا من الفراء ضيَّق عليه الخناق، وظهرت عليه الصرامة وشيء من عدم الارتياح، والعصبية أيضًا. قال إن أفعال مجلس الأمن لها ما يسوغها على ضوء الأحداث في ليبيا. بدت لهجته دفاعية؛ فقد كان قرار روسيا بالامتناع عن التصويت «قرارًا حكيمًا»، يساعد على إيجاد الحل لانفجار الصراعات. «كل ما يحدث في ليبيا هو نتيجة للسلوك غير المقبول على الإطلاق للقيادة الليبية، والجرائم التي ارتكبوها ضد شعبهم». حتى عندما أعرب عن قلقه لحجم الحملة التي ينفذها الحلفاء (التي سوف تستمر ثمانية أشهر أخرى) قال إنه حذر من أن لغة بوتين لن تساعد على إنهاء القتال؛ «أعتقد أن ثمة حاجة إلى أن نكون حذرين جدًّا في اختيارنا الكلمات؛ فمن غير المقبول أن نقول أي شيء قد يؤدي إلى صدام الحضارات، الحديث عن (الحروب الصليبية) وغيرها أمر غير مقبول».

ولما كانت ولايته على وشك الانتهاء، ضاعف ميدفيديف من جهوده لإجراء إصلاحات ليبرالية في الاقتصاد، كما لو كان وقته قد بدأ ينفد؛ فقد أصدر مرسومًا- على سبيل

المثال- يقضي بمنع الوزراء من العمل في مجالس إدارات الشركات الحكومية، وهو ما كان محور سياسة بوتين الاقتصادية، وقد كان ميدفيديف نفسه يعمل في مجلس إدارة غازبروم حين كان رئيس الموظفين ثم نائب رئيس الوزراء، لكن هذه الخطوة التي تمنع المسؤولين من ارتداء قبعتين هي محاولة لإضعاف منافسه الرئيس في معسكر بوتين، إيجور سيتشين، الذي شغل منصب نائب رئيس الوزراء ورئيس روزنفت. (بوتين وافق في نهاية المطاف على هذا التدبير، لكنه استثنى غازبروم، حيث أبقى الحليف الوثيق ورئيس الوزراء السابق فيكتور زوبكوف في منصبه). رغبة ميدفيديف بأن يبقى رئيسًا لولاية ثانية كانت واضحة، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يخاطر بالمجاهرة بذلك؛ ربما هو وبوتين كانا يخوضان انتخابات تمهيدية من نوع ما، لكن التصويت الوحيد الذي يهم هو بوتين، وميدفيديف يعرف ذلك.

في مايو/أيار، بعد مضي ثلاث سنوات في منصبه، أجرى ميدفيديف أول مؤتمر صحفي له، وهو ما كان يفعله بوتين كل عام؛ ليمارس تأثيرًا كبيرًا ليثبت سيطرته في السياسة والحكم. وعلى الرغم من ذلك كان ميدفيديف مقلدًا بائسًا لأداءات بوتين، وجاء هذا في وقت متأخر من ولايته، وقد بدا ضربًا من ضروب اليأس السياسي. عقد المؤتمر الصحفي في سكولكوفو، المركز التكنولوجي الذي لا يزال يتطور ويأمل أن يصبح يومًا ما وادي السيليكون الجديد. ومع أنه أعلن الولاء لبوتين، وأشاد بالالتزام المتبادل لمصالح البلاد، قال إن العلاقات مع حلف شمال الأطلسي ليست بهذا (السوء) كما يعتقد، على الرغم من الحرب في ليبيا، وأعلن أن أوكرانيا لها الحق في تحقيق التكامل مع أوروبا، وهو ما قد ينظر إليه بوتين على أنه تهديد كارثي. وردًّا على سؤال حول استبدال الحكام الإقليميين، بدا كأنه يلمح إلى سلطة بوتين الأبدية، قائلًا: على القادة ألا يتمسكوا بالكرسي مدة طويلة، بل عليهم أن يفسحوا الطريق لجيل جديد، كما حدث في تونس ومصر، وقال: «أعتقد أنه أمر مهم؛ لا يستطيع أحد البقاء في السلطة إلى الأبد، الناس الذين لديهم مثل هذه الأوهام عادة ما يصلون إلى نهاية سيئة، وهناك في العالم عدد غير قليل من الأمثلة، وخاصة في الآونة الأخيرة».

مع استمرار الحرب في ليبيا أصبح تعامل الرئاسة مع هذه القضية هدفًا مفتوحًا للانتقادات في وسائل الإعلام، وهو ما يثير الريبة في تحركات بوتين نفسها. وفي مايو/أيار أعلن إنشاء منظمة جديدة هي (جبهة شعب عموم روسيا)، الهدف منها توسيع التحالف السياسي في صلب قوته، وإبعاده عن «حزب النصابين واللصوص»، وفي غضون أيام هُرعت مئات المنظمات والنقابات والجمعيات والمصانع للانضمام، وكان الهدف الوحيد من المشروع ليس تنصيب رئيس للبلاد، وإنما أن يجعل من بوتين (زعيمًا وطنيًّا) يمكن أن يوحدهم.

ضغط ميدفيديف في مقترحاته لإصلاح الاقتصاد، وتحرير رأس المال والابتكار، لكنه لم يكن حاسمًا. والتقى سرًّا سبعةً وعشرين من كبار رجال الأعمال في البلاد، القلة الذين كانوا- كما هو حال الآخرين- ينتظرون القرار الرئاسي (الأولي) بحذر متزايد. ناشدهم دعمَ مقترحاته، وضمنًا ترشيحه، أو قبول الوضع الراهن الراكد، وبعض الحضور فسر تصريحات ميدفيديف على أنها إنذار لهم للاختيار، لكن رسالته كانت مشوشة حتى إن المشاركين كانوا غير قادرين على التأكد من رغبته أو قدرته على المحاربة لشغل المنصب، وبعد ذلك سخروا من نداءاته، حسب ما أفاد أحد الحضور: «هل قررت حقًّا؟»[6].

في يونيو/حزيران، في مقابلة مع صحيفة **فايننشال تايمز**، اعترف ميدفيديف لأول مرة أنه يريد الترشح لولاية ثانية، لكن عليه أن يعترف أن القرار لا يتعلق به وحده، وأضاف: «أعتقد أن أي زعيم يشغل هذا المنصب يجب أن يرغب في الاستمرار»، وأضاف: «لكن السؤال الآخر هو: هل سيقرر أن يرشح نفسه للرئاسة أم لا، لذلك قراره يختلف بعض الشيء عن استعداده لشغل المنصب. هذا هو جوابي»[7].

إذا كان ميدفيديف أراد تأكيد الاستقلال السياسي الحقيقي، فإنه لم يظهره، كان بإمكانه أن يستخدم أي مقابلة له أو أي ظهور ليعلن صراحة نيته الترشح، وربما حتى ضد بوتين نفسه، لتقديم خيار حقيقي للناخبين، ولكنه بدلًا من ذلك، فضَّل عدم الرد على السؤال

المؤلم الذي جرَّ البلاد إلى أزمة سياسية طويلة بحلول صيف عام 2011م، معبرًا عن شكوكه في «مشكلة عام 2008م».

الكوارث غير الطبيعية التي حلَّت بالبلاد بدت أعراضًا على الشلل فيها؛ منها غرق مركب في نهر الفولغا في يوليو/تموز، وعلى متنه أكثر من 120 شخصًا، وحادث تحطم الطائرة التي كانت تقل لاعبي ومدربي إحدى فرق الهوكي المتمرسة في البلاد، لوكوموتيف ياروسلافل. وقد كان من المقرر أن يعقد ميدفيديف مؤتمرًا صحفيًّا بعد أيام في ياروسلافل بلدة الفريق، لكنه بدا نذير شؤم رهيب. وكان كبار الوزراء في ذلك الوقت يخشون حضور هذه المؤتمرات؛ حتى لا ينظر إليهم على أنهم مؤيدون لميدفيديف لا لبوتين.

كاريزما بوتين الفولاذية، وتصميمه المطلق، وقدرته على البقاء فوق محاكمات الحياة الروسية، تمنحه الحصانة من اللوم عند المآسي في مثل هذه الكارثة، أما ميدفيديف فقد بدا مرتبكًا. ولعله كان ثمة مخطط ما؛ فقد وجِّه لميدفيديف اللوم العام بسبب غرق المركب، وتحطم الطائرة، ثم ارتفعت فجأة وتيرة بروز بوتين في وسائل الإعلام الرسمية على نحو ملحوظ، وفي حملة مُدبَّرة على ما يبدو لتسليط الضوء على الفروقات الشخصية، وحتى الجسدية، بين الرجلين؛ ظهر بوتين في المخيم الصيفي لمجموعة من شباب ناشي، وصلَّى في أحد أقدس المواقع الأرثوذكسية الروسية، وغاص في البحر الأسود نحو أنقاض مدينة يونانية قديمة، وخرج على السطح ممسكًا بجرتين. المتحدث باسمه، ديمتري بيسكوف، اعترف في وقت لاحق أن (الاكتشاف) كان مفبركًا، فهناك حاشية لم يلحظها أحد في الصورة المتلفزة لرجل يرتدي بدلة ضيقة مبللة، ولا يزال في كامل لياقته البدنية وفي ريعان شبابه.

في الوقت الذي اجتمع فيه مندوبو روسيا المتحدة في ملعب لوجنيكي في سبتمبر/أيلول، كانت الشكوك لا تزال كبيرة، وحتى مربكة، مع اقتراب انتقال سياسي آخر، حتى إنهم وضعوا البرنامج الانتخابي لحزبهم قبل عشرة أسابيع فقط من الانتخابات، وقتئذ لم يعرف أحد- لا

قادة الحزب، ولا أقرب مساعدي بوتين أو ميدفيديف- هل كان الاختيار قد تم، أم أن الحملة الرئاسية لعام 2012م ستبقى طي النسيان.

داخل الملعب، في صباح يوم ذلك، السبت، استمعت الوفود لخطب تمجد التحول المذهل في الإمبراطورية الأيديولوجية التي فسدت وانهارت وتنهض اليوم من جديد مرة أخرى، يرأسها كما بدا واضحًا رجل واحد: بوتين. وبدا المتحدث باسم مجلس الدوما، بوريس جريزلوف، وكأنه عضو قديم في أباراتشيك (عضو في الحزب الشيوعي السوفييتي)، بوجه عابس مقطب، يقرأ برنامج الحزب بنبرة رتيبة يتعهد فيها بالازدهار وتأمين سبل العيش الكريم.

في الختام، خفتت الأضواء، وصمت الحشد مترقبًا، ومن الجانبين المضيئَين كما في صالات نجوم موسيقى الروك، دخل بوتين وميدفيديف المؤتمر، سائرين جنبًا إلى جنب، تتمايل أكتافهم بوقت واحد، وكانت نظرة بوتين تشي بالطمأنينة المطلقة، الطمأنينة التي يتوق إليها البلد على حد تعبير أنصاره، وليس الزعيم الذي يقبع مرتعدًا وقد تقلصت سلطته. تحدث بوتين أولًا، متمسكًا ببروتوكول الرتبة السياسية، وبدأ بالإشارة إلى «التحديات الضاغطة التي تواجه أمتنا»، ثم تناول القضية الأكثر إلحاحًا في أذهان الوفود. ثم توقف هنيهة ليكشف ماذا ستكون الإجابة، كما فعل في الجلسات الخاصة التي عقدها مع مختلف مساعديه في الأيام السابقة، ثم قال:

> «أنا أدرك أن أعضاء روسيا المتحدة، والأنصار، والمؤتمرين يتوقعون أن يصوِّت الرئيس الروسي ورئيس الوزراء على مقترحات تتناول شكل السلطة، وبنية الحكم في البلاد بعد الانتخابات، أريد أن أخبركم مباشرة بما توصلنا إليه منذ مدة طويلة بشأن الاتفاق على ما سننجزه في المستقبل؛ لقد توصلنا إلى اتفاق قبل عدة سنوات، ومع ذلك نتابع هذا النقاش بصفتنا مراقبين، وقد قلت أنا والسيد ميدفيديف إن الشيء الأكثر أهمية لمن سوف يشغل أية وظيفة، أو يحتل أي منصب، هو نوعية العمل، والنتائج التي نحققها، وكيف يرى شعبنا جهودنا، وما رد فعلهم على مقترحاتنا لتنمية البلاد في المستقبل، وهل يدعموننا».

الكلمات التي تحدث بها بوتين تملأ مجلدات عن فهمه للديموقراطية: ليس على المجتمع أن يقرر قادته من خلال طبيعة الحملة الانتخابية، وإنما بالمصادقة على الذين سبق اختيارهم. وأعلن أن ميدفيديف، وفقًا لـ(التقليد) الذي لم يمض عليه عقد من الزمان، سيتولى اقتراع الحزب في الانتخابات البرلمانية التي تجري في ديسمبر/كانون الأول، ومن ثم (يضمن فوزه الشريف والمتوقع)، وأعقب ذلك التصفيق الذي بدا روتينيًّا، إذ إن بوتين لم يحسم بعدُ مصير أي من الرجلين في (الترادفية).

ثم توجه بعده ميدفيديف إلى المنصة، وقال وهو يبتسم برعونة: «بطبيعة الحال، يسعدني أن أتحدث هنا»، لقد مضى عليه في منصبه أربع سنوات ولم يتقن فن الخطاب السياسي، وقال: «ثمة طاقة خاصة في هذه الغرفة شحنت بالعواطف»، ثم أشاد بالديموقراطية التي في روسيا و«المستوى الجديد من الثقافة السياسية» التي تحققت في البلاد، ولكن حذَّر من أن «الشكلية المفرطة، والبيروقراطية» خطر عليها. كان المؤتمرون يستمعون بعواطف باردة، فقد كانت صلته بالموضوع الذي يتحدث به تبهت مع كل كلمة يقولها. وأضاف: «من شأنها أن تؤدي إلى الركود وتدهور النظام السياسي»، وتابع: «لسوء الحظ، شهدنا هذا في تاريخ بلدنا حقًّا». ثم أوجز البرنامج السياسي بثماني نقاط، كان وعد بها منذ ما يقرب من أربع سنوات، ولم تنجَز: تحديث الاقتصاد والصناعة، وضمان المرتبات والمعاشات، والرعاية الصحية، وتحقيق الاستقرار، ومكافحة الفساد، وتعزيز أنظمة القضاء والعدالة الجنائية، ومكافحة الهجرة غير الشرعية، مع حماية البلاد (السلام بين الأعراق والأديان)، وإنشاء (نظام سياسي حديث)، وبناء الشرطة في البلاد والقوات المسلحة، وتبني (سياسة خارجية قوية ومستقلة وواعية).

بتلك الكلمات قبِل ترشيح بوتين له ليتصدر قائمة الحزب، وتحدث أخيرًا عن الاتفاق الذي ألمح بوتين إلى التوصل إليه قبل سنوات. تحدث ميدفيديف وكأنه رجل يقرأ النعي السياسي الخاص به؛ كانت في الواقع إحدى خطب الاستقالة الأكثر غرابة في التاريخ، كان

يوضح ويدافع عن رؤيته لهذا البلد، حتى إنه تخلى عن المنصب الذي يمكن من خلاله أن ينجز تلك الرؤية.

> «أقترح أن نقرر قضية أخرى مهمة جدًّا تتعلق بصورة طبيعية بالحزب وجميع أبناء الشعب الذين يتابعون السياسة، وهي تحديدًا المرشح لدور الرئيس. في ضوء الاقتراح الذي يقضي أن أكون على رأس قائمة الحزب، هل العمل الحزبي مجدٍ لي؟ وإذا حققت فوزًا جيدًا في الانتخابات فهل لدي الاستعداد للانخراط في العمل الفعلي في الحكومة، أعتقد أنه من الصواب أن يدعم مؤتمر الحزب ترشيح رئيس الوزراء الحالي، فلاديمير بوتين، ليكون رئيسًا للبلاد».

في النهاية، قد لا تكون مفاجأة؛ فالأسهم السياسية لميدفيديف تغرق يومًا بعد يوم منذ أكثر من عام، لكن الصدمة كانت مسموعة في الملعب الكهفي، بحماس جماعي تحول سريعًا إلى عاصفة من التصفيق، موجة إثر موجة. نجح بوتين في خلق حالة من التشويق، ثم كشف عما ينتظره الناس في اللحظة التي اختار توقيتها. وقف أمام مقعده وسط الجمهور، تبهجه الأضواء المسلطة عليه، عيناه متألقتان على الرغم من ابتسامته المشدودة والساخرة والعابرة، ولم يرفع ذراعيه انتصارًا، أو يتصرفْ وكأنه مرشح مُنح فرصة للحصول على منصب أعلى، بل ببساطة هز رأسه هزة العارف ببواطن الأمور، كما لو كانت عودته للرئاسة محتومة.

بعد أن أنهى ميدفيديف حديثه، توجه بوتين إلى المنصة مرة ثانية، وألقى خطابًا طويلًا، غنيًّا بالتفاصيل، مثقلًا بالسياسة التي حدد خطوطها العامة، وخططه لدعم قدامى المحاربين والمزارعين والأطباء والمعلمين والعلماء والجنود. كان أشبه بصواميلَ ومساميرَ للحكم، الذي كان يتوقعه الروس على مدى سنوات من رؤيتهم لإصراره على السياسة القويمة، والقرارات الصائبة، نيابة عن الشعب. تعهد بالتغلب على المصاعب المزعجة للأزمة الاقتصادية العالمية، والتي أكد مرة أخرى بإيجاز أن جذورها «لم تكن في روسيا»، ولم يكد يشير إلى ترشيح ميدفيديف لرئاسة قائمة الحزب أو عودته الخاصة إلى الرئاسة، والتي في

لحظة مفاجئة أصبحت معنِّدة. «لقد دخلنا حقيقة دورة انتخابية طويلة؛ فانتخابات مجلس الدوما ستعقد في 4 ديسمبر/كانون الأول؛ وسيعقبها تأسيس لجانه والهيئات الحكومية، أما الانتخابات الرئاسية فمن المقرر أن تجري في الربيع المقبل. وأود أن أشكركم على استجابتكم الإيجابية على اقتراحي بأن أكون في منصب الرئيس. هذا شرف كبير بالنسبة إلي»، كان يتحدث وكأنه لم يقرر كل شيء بنفسه.

أوضح بوتين أنه قد مضى على الاتفاق سنوات عديدة، وأشار ميدفيديف أيضًا إلى ذلك، وإن كان في واقع الأمر لم يحدث ذلك بهذه الطريقة، وكان ميدفيديف قد راوده الأمل بولاية ثانية على الأقل حتى بداية شهر سبتمبر/أيلول، عندما بدأ سلوكه العلني يشير إلى أنه قد لا يحدث؛ فهو لم يعلم بتفاصيل قرار بوتين النهائي إلا في الليلة التي سبقت الاجتماع الذي عقد في وقت متأخر من الليل في نوفو- أوجاريوفو. عندما طبعت المطابع أوراق الاقتراع للوفود المشاركة لاستخدامها من أجل رفع ميدفيديف لمنصب رئيس الحزب، تركت المساحة المخصصة لاسمه فارغة، ولم تُملأ إلا بعد الإعلان.

ووفقًا لرواية أحدهم، لم يسمح بوتين لميدفيديف حتى أن يخبر زوجته بالقرار الذي اتخِذ[8]، ولو عرف بوتين طوال الوقت أنه يعتزم العودة إلى الرئاسة، فلن يسمح لأحد في الحكومة أو في دائرته الداخلية أن يعرف، فضلًا عن التأثير في نتائج مداولاته، فقد اتخذ القرار الأكثر خطورة في حياته السياسية مع مستشاره الخاص فقط.

كانت ردة الفعل لأحد الموالين لميدفيديف، أركادي دفوركوفيتش، تحمل سخرية المكروب حتى بعد أن تكشفت الأحداث في المؤتمر. وفي مقابلة معه قبل سنة اعترف دفوركوفيتش بأن خطط ميدفيديف، وربما رئاسته كلها، واجهت معارضة من «أولئك الذين اغتنوا في النظام القديم، على عجز الميزانية، والاقتصاد القائم على الموارد»[9]، لم يحدد الأسماء مطلقًا، لكن أشار بوضوح إلى هؤلاء المحتشدين حول بوتين. (اليوم) يغرد من أرض مؤتمر الحزب: «لقد حان الوقت لأتابع القناة الرياضية».

بوتين لم يكلف نفسه مطلقًا عناء شرح الأسباب التي دفعته للعودة إلى رئاسة الجمهورية للكرملين، وقد كان يمكن أن يبقى زعيمًا قياديًّا حتى مع ميدفيديف وهو يمضي ولايته الثانية رئيسًا للبلاد، قد لا يكون هناك سبب واضح غير ذلك، على الرغم من أنه- وفقًا لأنصاره المتحمسين- يرى أن خليفته لم يكن قائدًا قويًّا، وفي الأيام والأشهر التي أعقبت الإعلان، بدأ المؤيدون أنفسهم يتحاملون على ميدفيديف في نقاط الضعف التي أظهرها خلال الحرب في جورجيا، وإخفاقه في وقف حرب حلف الناتو في ليبيا، وحتى حكاية عدم إخبار ميدفيديف لزوجته أشيعت، مع التلميح إلى أنه لا يمتلك من الرجولة ما يكفي ليثق بزوجته بألا تصرَّ عليه للترشح لولاية ثانية؛ هذه التفسيرات سعت إلى تسويغ خطوة بوتين، لكنها لم توضح الدافع عنده، فهو لم يشعر بوجوب فعل ذلك؛ فالمنصب كان منصبه لو أنه أراده، والذي كان في ذهنه- على ما يبدو- تفسير كاف.

أهمية التغيير الدستوري بتمديد الولاية الرئاسية ظهرت على نحو مفاجئ لدى أولئك الذين ساءهم تولي بوتين ولاية جديدة، وبدلًا من أربع سنوات أخرى سيبقى بوتين ست سنوات، حتى عام 2018م، وإذا رشح نفسه لولاية أخرى بعد ذلك- الولاية الرابعة- فسيبقى زعيم روسيا حتى عام 2024م، متجاوزًا بذلك بريجنيف في طول العمر السياسي، وليس غير ستالين بقي في منصبه مدة أطول؛ إذ مكث في السلطة إحدى وثلاثين سنة.

نقاد بوتين، بل وبعض المؤيدين أيضًا، بدؤوا يعدون سنوات حياتهم، ويتصورون أعمارهم حين فرض الكرملين باسم (الديموقراطية الموجهة) زعيمًا آخر قد يظهر في روسيا على نحو يمكن تصوره. والصور التي تعزز عملية إظهار الشيخوخة أصبحت ذاكرة شعبية على شبكة الإنترنت. ونشرت صحيفة المعارضة نوفايا غازيتا رسومًا كاريكاتورية بقلم الرصاص لبوتين في النهاية المفترضة لحياته السياسية؛ بوجه متجعد من الشيخوخة، وشعر منحسر كثيرًا، وقد ترصعت بدلته بمجموعات من الميداليات والشرائط، وبدا كبار مساعديه الذين كانوا من حوله منذ البداية، كأنهم قدامى المحاربين في الحرب الوطنية العظمى، مبجلين ومكرمين لما قدموا من أفعال في الماضي السحيق[10].

أما ميدفيديف، فبعد أن كان أمل الليبراليين والإصلاحيين، واجه من السخرية ما يتفوق بها على بوتين، فقرار تبديل المواقف أصبح معروفًا لدى الناس بالكلمة الروسية التي تعني التبييت في لعبة الشطرنج (rokirovka)، حيث تجري مبادلة موقع الملك بموقع القلعة في معظم الأحيان بهدف ترسيخ الدفاع عن الملك. لم يعد خافيًا على أحد من الذي يمسك بزمام القوة، وأما أولئك الذين كانوا يأملون بأن يضع ميدفيديف في يوم من الأيام نفسه في موقع الزعيم المستقل، فقد كان لهم النصيب الأكبر من الغضب المرير ومن خيبة الأمل. وسواء اتخذ القرار في عام 2008م أو في عام 2011م، أم لم يتخذ، فقد ثبت أن ميدفيديف لم يكن سوى بيدق في مناورة بوتين للتحايل على نص القانون الذي حدد مدة الرئاسة. الروس يسخرون منه بأن أعظم إنجازاته كان الحد من مناطق اختلاف التوقيت في روسيا التي أصبحت تسع مناطق بدلًا من إحدى عشرة منطقة زمنية، والتحول الدائم إلى التوقيت الصيفي.

بعد يوم واحد من الإعلان، أعلن الحليف المفترض، وزير المالية ألكسي كودرين، القطيعة مع ميدفيديف علنًا، قائلًا إنه يرفض أن يبقى في مجلس الوزراء وميدفيديف رئيس للوزراء، وحاول ميدفيديف شرح (قراره) بالقول إنه وبوتين قد وافقا على السماح باستطلاعات الرأي التي قررت من الذي سيرشح نفسه- كما لو أن في روسيا انعكاسات حقيقية لثقة الناخبين- لكنه جعل الأشياء أكثر سوءًا باستخدامه الولايات المتحدة المكروهة معيارًا للمقارنة؛ إذ قال: من غير المعقول أن نتصور أن باراك أوباما وهيلاري كلينتون، لكونهما من حزب واحد سيتنافسان، وأضاف: «فكلاهما على حد سواء من الحزب الديموقراطي، لذلك اتخذوا قرارًا يستند إلى من هو القادر على تحقيق نتائج أفضل»، قال ذلك خلال أقل من أسبوع بعد المؤتمر، وأضاف: «لقد اتخذنا القرارات نفسها»، والحقيقة أن هذا تجاهل تمهيدات الديموقراطية الساخنة عام 2008م الذي لم يثر سوى السخرية[11].

بوتين الذي بدا أنه يحترم خطاب الدستور الروسي ويعلي من شأنه، أخطأ في حسابات رد الفعل على عودته؛ فقد غدا أكثر عزلة وبعدًا عن المشاعر الشعبية التي كان يعتقد أنه

يفهمها حدسيًّا؛ فالحديث عن النجاحات التي كثيرًا ما اقترنت بالاستقرار الذي جاء بالرخاء على الرغم من الأزمة الاقتصادية، لم يعد كافيًا لتهدئة الجيل الجديد الذي عدَّ هذه من المسلمات، وكانت فوضى التسعينيات ذكرى بعيدة، وأكثر الذين استفادوا من طفرة بوتين ينتظرون منه ثقافة سياسية أكثر حداثة، واليوم أكثر انفتاحًا كذلك.

أبقى الكرملين على قبضته الحديدية على البرامج التلفازية، إلا أن الفيديوقراطي في أوج سحره أصبح لا معنى له، وموضوعًا للهجاء الذي كان سمة من سمات الأدب الروسي منذ جوجول، وقد انتشرت معارضة التبييت الشطرنجي في الساحة، ولا تزال إلى حد بعيد أبعد من تلاعب الكرملين. الإحباط والغضب من عودة بوتين ملأ وسائل التواصل الاجتماعي على الإنترنت؛ من تويتر، ويوتيوب، وفيسبوك ونسخته الروسية، فكونتاكتي، وتحولت العداوة إلى انتفاضة، وإن كانت اليوم انتفاضة افتراضية. كان مهندسو التمرد لا يتناسبون والطبقة المثقفة، فهؤلاء يمتلكون المال والدهاء الفني، ويسبحون بسهولة في وسائل الإعلام التي طمست حدود الاتصال التقليدية. كان يطلق عليهم (قوارض الإنترنت) وقد أنتجوا تيارًا بدائيًّا من التنديد والاحتجاج والسخريات التي تطلق النكات والتهكمات التي تنال من بوتين، وتصرفاته الغريبة، وجراحته التجميلية الواضحة، وإذلاله لصاحبه القديم، بطرق لم تتجرأ وسائل الإعلام الرسمية على فعلها منذ زمن بعيد.

وسرعان ما انتشر الاستياء عندما ظهر بوتين في حلقة مباراة (المعركة النهائية) في الملعب الأولمبي في موسكو في نوفمبر/تشرين الثاني، حيث استقبل هناك بصيحات الاستهجان والتصفير، على الرغم من محاولة أنصاره في الكرملين الإشارة على نحو غير مقنع إلى أن غضب الجمهور كان يوجه إلى الأمريكية التي خسرت المباراة، أو بسبب الطوابير الطويلة للحمامات، وظهر مقطع فيه تعديلات كثيرة في نشرات الأخبار المسائية مع صيحات الاستهجان من دون صوت، ولكن انتشار الفيديو الأصلي على الإنترنت، التقطه ألكسي نافالني، الذي أعلن بابتهاج أن الاستقبال الفظ لبوتين من قبل الجماهير يعدُّ (نهاية

حقبة)[12]، فقد واجه بوتين الناخبين الغاضبين من قبل، لكن في هذه الحالة جاءت صيحات الاستهجان من الجماهير التي تشمل- كما يفترض- مؤيديه المتحمسين.

كان نَشْرُ معارضي بوتين ذلك العرض غير اللائق، يتحدى خرافة أن معارضة بوتين موجودة فقط في النخبة القليلة من المثقفين (الإنتليجنسيا)، كما كانوا يسمونها ذات يوم، أو من الجيل الجديد الذي يستهويه التكييف الجديد من الغرب.

مع أنباء عودته إلى الكرملين تراجعت شعبية بوتين في الواقع إلى أدنى مستوياتها منذ عام 2000م، والحزب الذي أنشأه الإستراتيجيون تراجع أيضًا إلى أبعد من ذلك، فقد رفضته جحافل نقاده المتزايدة بوصفه نسخة معدلة من الحزب الشيوعي السوفييتي، لكن على نحو أسوأ، وبفساد أكبر. وبحلول الوقت الذي جرت فيه الانتخابات البرلمانية في ديسمبر/ كانون الأول، أصبح واضحًا أن أساس سلطة بوتين قد تهدَّم؛ فالنماذج التي نجحت منذ عام 2000م لم تعد كافية، وتأسيس الكرملين لحزب (معارض) جديد يضم رجال أعمال مؤيدين، أُطلق عليه (القضية الصائبة)، ويهدف إلى ضخ ما يشبه الخديعة في سياسة البلاد، أصبح مهزلة عندما منع أنصار زعيمه الملياردير ميخائيل بروخوروف، من حضور مؤتمر الحزب الذي عقد أساسًا لترشيحه. لم يعط أحد الحزب أي فرصة للفوز، ولكن ميدفيديف أقنع بروخوروف بتولي سياساته ليواجه دسائس العقل السياسي المدبر للكرملين، فلاديسلاف سوركوف، الذي نحاه جانبًا[13].

بروخوروف، رجل الأعمال الذي اشترى شبكات نيوجيرزي (وفي وقت لاحق بروكلين)، واتحاد كرة السلة الوطني في عام 2010م، كان يفترض بسذاجة أن يمارس استقلاله السياسي؛ فادعى أن سلطة بوتين غير متجانسة، وأن أنصاره داخل صفوفها، لكن الإطاحة به بدا واضحًا أنها لن تكون، قال: «في روسيا كل المعارك تحدث في الداخل»[14].

جاءت الانتخابات البرلمانية- كما سابقاتها- لتكشف عن حالة تقزيم، وعن أحزاب معاقبة من قبل الحكومة، ذلك أنها أصبحت أشبه بتجهيزات رمادية للوضع السياسي

الراهن، وأصبحت تعرف باسم (المعارضة للنظام)، اسميًّا تراقب السلطة، لكنها خاضعة لها كليًّا: زوغانوف عن الشيوعيين، جيرينوفسكي عن الحزب الليبرالي الديموقراطي، والنسخة المعدلة للقوميين، الذين يُعرفون اليوم بـ(فقط روسيا) بقيادة سيرجي ميرونوف، معاوِن بوتين الذي (نافسه) عام 2004م. أما الأحزاب الصغيرة الأخرى التي قد تمثل تحديًا، مثل يابلوكو، أو حزب بوريس نيمتسوف، فخنقتهم البيروقراطية الانتخابية أو القانونية، وضايقتهم أو منعتهم من التسجيل إطلاقًا، وحتى لو استطاعوا أن يوصلوا الحزب إلى الاقتراع، فإن معارضي بوتين الحقيقيين كانوا متنوعين ومنتشرين على الهامش السياسي في كل مكان، ولأكثر من عقد من الزمان، فقد أخفقوا في التوحد خلف أي حزب أو أي قائد، بعضهم وصل إلى حد مقاطعة الانتخابات، لكن حثهم نشطاء مثل نافالني على التصويت بأي طريقة ولأي كان، ما عدا (حزب النصابين واللصوص)؛ فالهدف اليوم ليس الفوز، وإنما فضح الانتخابات في روسيا التي أصبحت بوتيمكين المحتال.

بقي بوتين دفاعيًّا لدرجة بدا غافلًا عن السخط الخطير الذي يشتعل تحت وهم روسيا التقدم والازدهار. «من المبكر إعداد جنازتي» هذا ما قاله لحشد من الفالداي الذين تجمعوا قبل أسبوع من التصويت، متجاهلًا الأسئلة المتملقة أو الطيعة للحضور[15]، وكان مصير (روسيا المتحدة) مسألة أخرى. شعبيته تراجعت، وأظهرت النتائج أنه سيفقد الأغلبية الدستورية، بل قد لا يحصل على أغلبية على الإطلاق، والبيروقراطيون والنبلاء الذين اعتمدوا على نظام بوتين، يسكنهم على نحو متزايد شبح الثورة البرتقالية، واليوم الربيع العربي، الذي أطاح بالقوي تلو الآخر مثل أحجار الدومينو، وفجأة ظهرت جيوش التخريب في كل مكان؛ فكان مبارك في السجن، والقذافي قد قُتل، والأسد محاصر بالتمرد المسلح الذي حطم سوريا على طول خطوط التصدع الدموية، لكن بوتين لن يكون هو القادم.

تجلى قلق الكرملين بالجهود الجبارة التي بذلها لضمان حضور جماهيري كبير والتصويت لمصلحة (روسيا المتحدة)، وحتى قبل يوم الانتخابات، سجلت منظمة حقوقية تطلق على نفسها غولوس (Golos)- وهي تسمية ناتجة عن دمج كلمتي التصويت والصوت

(vote and voice) - آلاف الانتهاكات لقوانين الانتخابات في البلاد. وبتمويل من المنظمات الأجنبية الداعمة للديموقراطية، شرحت غولوس الانتهاكات على الخريطة الإلكترونية التي سرعان ما تعرضت لفيروس حيث التقطتها بعض الصحف الموالية وبعض مواقع الشابكة (الإنترنت). قال بوتين لعمال الصلب في بطرسبورغ إن مراقبي الانتخابات كانوا عناصر من قوى أجنبية حاولوا زعزعة الاستقرار في البلاد، حتى إنه قارن غولوس بيهوذا، وعلى الفور غُرِّمت المجموعة التي نشرت خريطتها بتهمة انتهاك قانون الانتخابات الذي تقرر تعزيز سلطته، واعتقلت مديرتها عدة ساعات في مطار موسكو في الليلة التي سبقت الانتخابات، ولم يطلق سراحها إلا بعد أن تنازلت عن حاسوبها المحمول، وتعرض موقع تلك المنظمة على الشابكة لهجوم إلكتروني أدى إلى إغلاقه تمامًا تزامنًا مع بداية التصويت، وحدث الشيء نفسه مع مواقع أخرى، من ضمنها الموقع الشعبي لإذاعة صدى موسكو، الذي بقي خارج الخدمة- وبالتأكيد لم يكن ذلك مصادفة- حتى أغلقت صناديق ومراكز الاقتراع[16]. في الكرملين الذي تصرف ذات مرة كما لو أن الإنترنت تسريب غير مؤذٍ للنخبة الفاسدة، يتحرك اليوم بقوة للحد من نفوذه.

مع أن كل الانتخابات السابقة لروسيا بوتين قد شابتها تجاوزات وتلاعب واحتيال، فإن الغش الذي وقع في 4 ديسمبر/كانون الأول كان أكثر من ذلك بكثير، وكان مثيرًا للسخرية. وعلى رغم جهود السلطات، تكشف الشابكة اليوم عن أدلة انتهاكات تنشر للرأي العام، وإذا لم يكن بإمكان مراقبي الانتخابات الرسميين أن يكونوا في كل مكان، فإن هواة الفيديو الذين اتخذوا من الهواتف المحمولة وسيلة للتصوير نشروا أشرطة فيديو على الشابكة تظهر كيف يحشو الموالون صناديق الاقتراع بالبطاقات، وأتوا بآلاف الناخبين الذين شحنوهم بالحافلات من مركز اقتراع إلى مركز آخر، بل ويستخدمون الحبر السري على بطاقات الاقتراع. كذلك صور ناشط متطوع فيديو ورفعه على يوتيوب على الفور، يظهر رئيس مركز انتخابي طاعن في السن في مركز الاقتراع رقم 2501 في موسكو، كان جالسًا إلى طاولة وأمامه كومة من بطاقات الاقتراع وشرع يضع عليها إشارة بكل إخلاص. خلص المراقبون

الدوليون من منظمة الأمن والتعاون الأوروبي إلى أن واحدًا من ثلاثة مراكز اقتراع شهد نوعًا من النشاط المشبوه، ولا يعدُّ هذا إلا نسبة مئوية صغيرة للمكان الذي كان فيه المراقبون حاضرين[17].

الاستخفاف الكبير بالانتخابات أثار غضبًا عارمًا عندما أظهرت النتائج غير الرسمية أن حزب (روسيا المتحدة) قد حصد أقل بقليل من 50 في المئة من الأصوات، وهذا يعد كافيًا- إذا ما أخذنا بالحسبان الأحزاب التي لم تصل إلى عتبة الفوز بمقاعد في البرلمان- لتمكينها من الاحتفاظ بالأغلبية في مجلس الدوما الجديد. كان واضحًا أنه حتى مع تقلص النتيجة كانت هناك عملية احتيال تطلبت تواطؤ آلاف من الناس لتحقيقها، بدءًا من مسؤولي الانتخابات، مثل فلاديمير تشوروف زميل بوتين في الـ(كي جي بي) من بطرسبورغ، إلى العاملين في الدولة الذين أجبروا على الاقتراع؛ خوفًا، أو كان لهم مصلحة في ذلك، وصولًا إلى موظفي مراكز الاقتراع، وانتهاء بصحفيي وسائل الإعلام الحكومية الذين جاهدوا لأن يقدموا كل ذلك بكل جديَّة. حتى بوتين عندما ظهر ليعلن النصر مع ميدفيديف في مقر الحملة الانتخابية (لروسيا المتحدة)، بدا أقل حماسة؛ فحجم التزوير في نهاية المطاف كان كافيًا لتحريك الآلاف وفرض اللامبالاة السياسية التي واكبت صعود البوتينية، وما أنتجته من ركود بيروقراطي مقيت.

في الليلة التي تلت الانتخابات، وما إن أعلنت النتائج الرسمية، حتى عقد حزب المعارضة الصغير سوليدارتي (التضامن) مظاهرة في كريستي برودي بالقرب من وسط موسكو. الاحتجاجات الدورية للحزب تضم عادة بضع مئات من المتظاهرين، الذين كانوا أقل عددًا دائمًا من ضباط الشرطة المنتشرين للمراقبة من كثب. هذه المرة، على الرغم من الأمطار الباردة، ظهر الآلاف منهم، واستجابوا للنداءات من خلال الشابكة، وكان المتحدث تلو الآخر يمسك بالميكروفون يقدم مطالبه وإنذاراته. الناس هناك متنوعو المذاهب الفكرية؛ بعضهم من زعماء المعارضة القديمة؛ من قدامى المحاربين من الجلاسنوست (glasnost) والليبراليين من سنوات يلتسين، وآخرون لم يسبق لهم قط المشاركة في مظاهرة احتجاج

من قبل. كان المتحدث الذي لفت الانتباه كثيرًا هو ألكسي نافالني، الذي أسهمت حملته ضد الفساد- إلى حد بعيد- في فورة النشاط. كانت لديه شعبية هائلة على الإنترنت، لكنه اليوم يقف هنا ويهتف من مكبر الصوت إلى الحشد الذي يلوح بالأعلام واللافتات المصنوعة يدويًّا بشعارات مثل (اللص- بوتين)، واللافتة التي لا يمكن تخيلها (روسيا من دون بوتين)، وزأر قائلًا: «هم يسموننا مدونين صغارًا أو قوارض الإنترنت، نعم أنا من قوارض الإنترنت، وسأكون على رقاب هؤلاء الوحوش!»[18].

ألقي القبض على نافالني وعشرات المتظاهرين الآخرين والمنظمين وهم يغادرون الحديقة في مسيرة احتجاج نحو مقر اللجنة الانتخابية، وسجن خمسة عشر يومًا بتهمة مقاومة الاعتقال، لكن الاحتجاجات التي بدأت بالتضخم استمرت، واحتشد في السبت التالي عشرات الآلاف في ساحة بولوتنايا، على الجانب الآخر من النهر مقابل الكرملين، وقد أثبتوا أنهم محتجون غير عابئين بالاعتقالات، وغير عابئين بالمظاهرات المضادة التي نظمتها مجموعة شباب ناشي، التي أنشئت بعد الثورة البرتقالية في أوكرانيا لهذا الغرض فقط؛ وغير عابئين بتهديدات مبطنة من السلطات، ومن ضمنها تحذير يمكن السلطات من انتقاء الشباب في سن التجنيد وزجهم في الجيش.

بعد أسبوعين، يوم 24 ديسمبر/كانون الأول، احتشد ما يقرب من مئة ألف، وهذه المرة في الشارع الذي يحمل اسم أندريه ساخاروف، الفيزيائي النووي والمنشق السوفييتي الذي تضاءل إرثه بنصرة المجتمع الديموقراطي آنذاك. كان نافالني هناك هذه المرة، بعد خمسة عشر يومًا في السجن، وقد أشرف على حشد من المؤيدين وهم يهتفون باسمه في ظلام مساء ثلجي. قال إنه دخل السجن في بلد وخرج منه ليجد بلدًا جديدًا، وتجاوز تزوير الانتخابات البرلمانية، ومضى إلى الانتخابات الرئاسية التي من المقرر إجراؤها في 4 مارس/آذار، فقال لهم: «ماذا سيحدث في الرابع من مارس/آذار؟ إذا حدث ذلك فستكون خلافة غير قانونية للعرش»[19].

وكانت الاحتجاجات هي الكبرى في عهد بوتين، وكانت في الواقع هي الكبرى منذ احتجاجات عام 1991م التي تصدت لانقلاب أغسطس/آب. وامتدت الاحتجاجات إلى مدن أخرى، تجذب طيفًا واسعًا من المجتمع: الموظفين الحكوميين، والعمال المتقاعدين، والطلاب، والعمال الذين ملؤوا مكاتب الشركات الجديدة التي جاءت بها الرأسمالية، ولأن الاحتجاجات كانت سلمية فقد جعلت الكرملين أكثر رعبًا.

في البداية لم يتكلم بوتين كثيرًا، وتجاهل ادعاءات الاحتيال، لكنه استقبل احتمال حدوث انتفاضة شعبية بسخرية جليدية لاذعة، وبعد ثلاثة أيام من التصويت تحدث بوتين إلى منظمي حملته الانتخابية الرئاسية المقبلة، وقال إنه يضع مسؤولية الاحتجاجات الجارية على وزيرة الخارجية هيلاري رودهام كلينتون، التي انتقدت سير الانتخابات، وقال: «إنها تمهد لبعض اللاعبين في بلادنا، وترسل لهم إشارة»، وأضاف: «لقد تلقوا الإشارة، وبدأ العمل النشط بدعم من وزارة الخارجية الأمريكية»، وحتى عبارة (العمل النشط) هو بالأساس مصطلح تعلمه من الـ(كي جي بي)، فالاحتجاجات في اعتقاده لم تكن من أهل البلد ولا عفوية، بل عملية استخباراتية. وفي عرضه السنوي المتلفز الذي بث في ديسمبر/كانون الأول، ذهب إلى أبعد من ذلك؛ فقد سخر من الشرائط البيضاء التي وضعها المتظاهرون رمزًا لقضيتهم، قائلًا إنها تذكره بالواقي الذكري المعلق على معاطفهم.

وقارن المتظاهرين بقرود الغابة، القرود البرية لدى روديارد، في كتاب كيبلينغ **كتاب الأدغال**، الذي عرض بصورة مسلسل تلفازي سوفييتي عندما كان بوتين في سن المراهقة. لا يمكنك أن تكون عاقلًا مع هذه القرود، لكنهم يخافون من ثعبان كا (Kaa) الذي هزمهم في نهاية المطاف بطاقته المنومة، وقال بوتين بابتسامة شقي: «أحببت كيبلينغ منذ أن كنت طفلًا».

وعلى الرغم من لامبالاته فإن البيروقراطية الواسعة التي ترزح تحت بوتين بدت تترنح، ويبدو أن ازدراءه شجَّع هؤلاء المحتجين وجذب إليهم كثيرين، وقد رفعوا هذه المرة في

مسيراتهم الواقيات الذكرية منتفخة كالبالون، مع ملصقات وحيوانات محنطة تصور القردة والسعاديين، وبوتين بصورة ثعبان كا (Kaa) الذي يخنق الدولة.

الوحدة المزعومة للحكومة بدأت تظهر بداخلها علامات الانقسام، فادعى ميدفيديف أولًا أن أشرطة الفيديو الفيروسية التي تظهر حشو صناديق الاقتراع كانت مزورة، لكن وعد بأن تحقق السلطات في أي ادعاء في وقت لاحق، ووعد المتحدث باسم مجلس الدوما، بوريس غريزلوف، بالسماح لأعضاء من أحزاب المعارضة أن يرأسوا اللجان في البرلمان، على أمل تهدئة الغضب من هيمنة حزب

(روسيا المتحدة)، ثم استقال من منصبه تحت الضغط. وخفض الكرملين من مرتبة (الكاردينال الأشيب)، فلاديسلاف سوركوف، الإستراتيجي الذي كان له الفضل في اعتماد (الديموقراطية الموجهة) التي كانت محط غضب المحتجين، وكان قبل أيام فقط قال إن المتظاهرين يمثلون «أفضل جزء من مجتمعنا، أو بعبارة أدق، الجزء الأكثر إنتاجية».

رفض الصحفيون في NTV، المملوكة لشركة غازبروم، البث على الهواء، إذا رفضت القناة تغطية احتجاجات العاشر من ديسمبر/كانون الأول، ولأول مرة تخضع وسائل الإعلام المهيمنة في الكرملين بسماحها بتقديم عرض جماهيري للمعارضة يظهر على قنوات التلفاز في جميع أنحاء البلاد (دون الإشارة إلى أن الغضب موجه ضد بوتين)[20].

أعضاء نخبة بوتين والأكاديميون، والخبراء الإستراتيجيون السياسيون والبيروقراطيون، وحتى رجال الدين من الكنيسة الأرثوذكسية، الذين كانوا دائمًا مخلصين لبوتين، بدؤوا بإثارة تساؤلات حول التزوير، ومنهم ألكسي كودرين، الذي تحدث في مسيرة 24 ديسمبر/كانون الأول، ودعا رؤساءه السابقين لجعل النظام خاضعًا أكثر للمساءلة.

قليلون- حتى المتظاهرون منهم الذين تحدوا البرد- يعتقدون أن الاحتجاجات ستنجح في إحداث انتخابات جديدة، أو حتى في إجراء تحقيق ذي مغزى في عملية التزوير، ولا يزال

قليلون يشككون في إمكانية إعادة انتخاب بوتين في مارس/آذار، لكن لأول مرة يحوم الشك حول حكم بوتين.

تراجع سوق الأوراق المالية الروسية بعد الانتخابات، وكما هو الحال في كل أزمة يتسارع هروب رأس المال، وتسلل الخوف إلى النخبة، وعلى رأسها أولئك الذين استثمروا في قيادة بوتين. فلاديمير ليتفينينكو، عميد معهد التعدين في بطرسبورغ الذي كتب فيه بوتين أطروحته، أعرب عن مشاعر كثيرين منهم، فقد ظل على مقربة من تلميذه السابق، وأصبح رجلًا ثريًّا من التعويض الذي قدِّم له على حد زعمه لقاء العمل الاستشاري الذي قدَّمه للحكومة مقابل أسهم له في فوزأغرو (PhosAgro)؛ الشركة التي اسْتُولِي على أصولها الأساسية من الإمبراطورية المالية لميخائيل خودوركوفسكي بعد إدانته، وكانت قبل أشهر فقط قد أُشهرت في سوق لندن للأوراق المالية. خوفه اليوم يعكس خوف بوتين من الماضي: الخوف من التجمهر، والحشود الهائجة في الشارع التي تطالب بالاحترام والعدالة، فالرعاع يسقطون أولئك الذين هم في السلطة، ويمرغون الشوارع بالدم، وقال حين تضخمت الاحتجاجات: «أخشى فظاعة الشارع؛ هذه انتفاضة؛ هذه ثورة وليست تنمية، مع كل الآثار السلبية للاضطرابات في الشارع. هذا هو المسار إلى المجهول، أنا على يقين أن هذه كارثة، وسنبذل كل ما بوسعنا لمنع وقوعها في بلدي»[21].

الجزء الخامس

الفصل الثاني والعشرون

الاستعادة

كان الظهور الجماهيري الأول لفرقة بازي رايوت في أكتوبر/تشرين الأول عام 2011م، بعد شهر من ظهور الاحتجاجات، وقد صوروا أنفسهم في مواقع مختلفة داخل مترو موسكو، وفي نقطة معينة فوق سقالة العمال، وكانت تغطي وجوههم أقنعة معينة، ويغنون في الساحة الحمراء بصوت عال أغاني تدعو للإطاحة ببوتين. وفي ديسمبر/كانون الأول قدموا عروضهم في الساحة الحمراء نفسها، فوق لبنويي ميستو؛ المنصة الحجرية التي بنيت في القرن السادس عشر لقراءة مراسيم القياصرة، وقدم ثمانية أعضاء منها أغنية (بوتين بوَّل على نفسه)، مستوحاة من خوف الحكومة وارتباكها الواضح في مواجهة الاحتجاجات، وقد كررت الأغنية موعظة ألكسي نافالني في الليلة الأولى للاحتجاج، وأضافوا إليها أيضًا أغنية (شغب في روسيا)، و(ها نحن موجودون).

في البداية لم تُبدِ السلطات كثيرًا من الاهتمام لهذه المجموعة، وكثيرًا ما تعرضوا للاحتجاز والمساءلة، لكنهم كانوا حريصين على إعطاء أسماء وهمية، وغالبًا ما يفرج عنهم بعد ساعات من احتجازهم. وقد غزت أشرطة الفيديو الخاصة بهم العالم الافتراضي، حيث تكتسب حركة احتجاج روسيا اليوم مزيدًا من الزخم. كانت احتجاجات المجموعة، وحتى اسمها- كان يقدَّم باللغة الإنجليزية؛ لأن التعبير المعادل لها باللغة الروسية بدا أكثر ابتذالًا وفظاظة- يناسب المزاج الثوري المتمرد الذي استمر في فصل الشتاء واستمر إلى العام الجديد وموسم الانتخابات الرئاسية، وبدت أركان الكرملين ترتعد أمامها، وعلى الرغم من

كل التوقعات، فقد كان ثمة بصيص أمل بطريقة ما أن تعيق هذه الاحتجاجات إعادة انتخاب بوتين الذي حدد في مارس/آذار.

قال هنري كيسنجر، بعد وقت طويل من اجتماعه ببوتين في موسكو، في يناير/كانون الثاني 2012م، وكانت الاحتجاجات لا تزال مستمرة: «يبدو أقل زهوًا اليوم»[1]. وكان هذا المخضرم في السياسة الواقعية يجتمع بانتظام ببوتين منذ وصوله إلى السلطة. ويتذكر بوتين بإعجاب اللقاء الأول الذي جمعهما في مطار بطرسبورغ في التسعينيات حيث استقبله هناك، وقد امتدحه ذلك الرجل العجوز قائلًا: «كل الشرفاء كانت بدايتهم في المخابرات». عدَّ بوتين كيسنجر مستشارًا يمكن الوثوق به، فهو من احترمه واحترم المصالح الوطنية لروسيا، بصرف النظر عن الحالة المتغيرة للعلاقات مع الولايات المتحدة. كيسنجر المحارب البارد العجوز، الذي دعا دومًا لتعميق التعاون مع روسيا، أبدى إعجابًا به مرة أخرى: «بوتين ليس ستالين الذي يشعر أن عليه أن يدمر أي شخص يمكن في لحظةٍ ما أن يختلف معه في المستقبل»، وقال ذات مرة: «بوتين شخص يريد أن يجمع السلطة اللازمة لإنجاز مهمته العاجلة»[2]. وحالما بدأت حملة إعادة انتخاب بوتين، كانت المهمة العاجلة هي تطويق احتجاجات الشوارع، وقد أحس كيسنجر أن عزيمة بوتين الفولاذية المعتادة قد تضاءلت قليلًا.

كان الكرملين لا يزال يرأسه اسميًّا ديمتري ميدفيديف، الذي عرض في البداية تنازلات لنزع فتيل غضب المحتجين؛ تشمل إعادة الانتخابات الإقليمية التي ألغيت من قبل بوتين في عام 2004م، وتخفيف القيود على تأسيس الأحزاب السياسية الجديدة، وكذلك تأمين دمغة في ورقة الاقتراع الرئاسي، وحتى الكنيسة الأرثوذكسية دعت الحكومة لمعالجة تلك المظالم الموجودة في الشوارع، وقال زعيم الكنيسة البطريرك كيريل، في مقابلة مع التلفاز الحكومي يوم عيد الميلاد الأرثوذكسي، في 7 يناير/كانون الثاني، إن حملة قمع المحتجين ستكون مضللة كتلك التي كانت سائدة في الحقبة السوفييتية، وكان ذلك بيانًا مذهلًا من مؤسسة

تحالفت تحالفًا وثيقًا مع السلطات[3]، وأبدى قادة كنائس آخرون تعاطفًا مماثلًا، وتقدموا للتوسط بين الحكومة والمحتجين.

ثم تحولت فجأة لهجة الكنيسة؛ فقد دعا بوتين قبل أقل من شهر قادة جميع الأديان في البلاد، الأرثوذكسية واليهودية والبوذية والإسلام والروم الكاثوليك والأرمن الكاثوليك، وحتى السبتيين، والعقيدة الإنجيلية التي كافحت ولم تحظ باعتراف رسمي بها أو دعم لها، إلى دير دانيلوف في موسكو. أغدق كيريل- بصفته المضيف- الثناء على بوتين، وتلاه رجال دين آخرون من الحاخامات، واللامات، والمفتين. ذكر كيريل مصاعب التسعينيات قبل أن يظهر بوتين على الساحة، وقارن بين العصر الراهن وعصر المشكلات في مطلع القرن السابع عشر، وغزو نابليون في عام 1812م، وغزو هتلر عام 1941م، وقال: «كيف كانت بداية الألفية وقتها؟ بمعجزة إلهية، وبمشاركة فاعلة من قيادة البلاد، تمكنًا من الخروج من الأزمة الشاملة الرهيبة»، ثم تحدث مباشرة إلى بوتين ليشكره على «دوره الكبير» في تصحيح «هذا التطور الملتوي من تاريخنا»[4].

دعم الكنيسة لبوتين، مباهاة كان أم عقيدة راسخة، لم يكن مفاجئًا، لكنه في دولة علمانية لها دستور يفصل رسميًّا الكنيسة عن الدولة، وفي ذروة موسم الانتخابات المضطرب، يثير الغضب. وسرت شائعات بأن الكرملين ضغط على البطريرك وغيره للوقوف مع بوتين، وانتشرت في صحافة المعارضة مقالات تعيد نشر الشائعات القديمة حول انتماء كيريل لـ(كي جي بي)، ومشاريعه التجارية في استيراد التبغ في التسعينيات، وتجاربه مع الكماليات الدقيقة، ومن ذلك البيت الريفي الكبير، واليخت الخاص، والساعات باهظة الثمن (نفى امتلاك الأخيرة إلى أن ظهرت صورة رسمية له بساعة فاخرة على طاولة صقيلة). الكنيسة التي طالما قُمِعت بشدة ذات مرة، انبثقت من جرَّاء انهيار الاتحاد السوفييتي بصفتها واحدة من المؤسسات الأكثر احترامًا في البلاد، والتي يعدها كثير من أتباعها مؤسسة تتخطى السياسة في البلاد، واليوم يقود كيريل المؤمنين مباشرة في تحالف مع الدولة. وبعد شهر

واحد فقط من تعبيره عن تعاطفه مع المتظاهرين، يشتكي اليوم من «الصرخات التي تثقب الأذن، من أولئك الذين استهوتهم ثقافة الاستهلاك الغربية التي تعارض التقاليد الروسية».

انقلاب كيريل كان فاضحًا، وأثار غضب النقاد، لكنه يعكس بزوغ الرواية المركزية لعودة بوتين، وهي الرواية التي لا تعود بجذورها إلى الحقبة السوفييتية، والحنين إليها، وإنما إلى الماضي القيصري الأكثر بعدًا، الذي ورد في عديد من الكتابات، وأهمها ما كتبه الفيلسوف السياسي إيفان، الذي اقتطف بوتين من كتاباته في خطاباته منذ عام 2005م، مواجهًا بها الاضطرابات. بوتين لم يصور نفسه فقط الضامن للمكاسب التي تحققت بعد الحقبة السوفييتية، وإنما أيضًا زعيمًا للأمة بصورة أعمق؛ فقد كان حاميًا لقيمها الاجتماعية والثقافية.

في سلسلة من سبعة تصاريح خص بها حملته الانتخابية، ونشرت مرات عديدة في صحف رائدة، أوجز الخطوط العريضة لرؤيته الجديدة المحافظة بصورة صارخة للبلد التي تستقي من «النموذج الحضاري» لروسيا، والذي يتعارض تمامًا مع القيم الغربية المنحطة التي يمثلها اليوم شريحة واسعة من المحتجين ضد حكمه في الشوارع، وقد اختار هجومًا مضادًّا كان فاعلًا بدرجة كبيرة.

في ذروة الاحتجاجات في ديسمبر/كانون الأول ويناير/كانون الثاني، أشارت استطلاعات الرأي إلى أنه قد لا يحصل على نصف الأصوات، وهو ما سيفرض جولة ثانية، لكن بحلول فبراير/شباط بدأت شعبيته في الصعود مرة أخرى؛ فقد بقيت أجهزة الإعلام في الكرملين في خدمته، تصوره السيد الثابت لدولة تقبع تحت الحصار، وكان خصومه ضعيفين جدًّا، أو متطرفين، يساعدهم المخربون في الداخل وأسيادهم في الخارج، ممن عزموا على تدمير الأمة. كذلك كان وصولُ السفير الأمريكي الجديد، مايكل ماكفول، واجتماعه بقادة المعارضة في هذا التوقيت السيئ، في يومه الثاني في السفارة، مادةً مغذية للتلفاز الحكومي الذي صور الاحتجاجات كما لو أنها توغل غربي. أرادت المعارضة المواجهة، فقال بوتين في نهاية هذا

الشهر، حتى إلى حد ارتكاب جريمة قتل: «أنا أعرف ذلك»، قالها وهو يشير إلى الدفاع الذي نشر لأول مرة بعد وفاة آنا بوليتكوفسكايا وألكسندر ليتفينينكو، واستخدم فيه لغة وجهت ذات مرة ضد المتمردين في الشيشان؛ وأضاف: «إنهم يبحثون عن ضحية مقدسة، أو شخص مشهور؛ سيضيِّعونه- إذا سمحتم لي بهذا التعبير- ومن ثم يلقون باللوم على الحكومة»[5].

قبل يوم واحد، كشفت شبكة تلفاز القناة الأولى عن اعتقالٍ، لم يعلن منذ أسبوعين، لاثنين من المشتبه فيهما في أوكرانيا، زُعِمَ أنهما خططا لاغتيال بوتين، أو ربما غيره من كبار المسؤولين؛ من خلال تفجير موكب السيارات في موسكو. ومع اقتراب الانتخابات بدا الخيار الذي تواجهه روسيا صارخًا ووجوديًّا، كما لو أنه يفترض أن يكون: بوتين أو الهاوية.

كما هو الحال في الانتخابات السابقة، لم يشارك بوتين مباشرة في حملته الانتخابية، إنما كانت واجباته الرسمية على نحو متزايد المشاركة في المواضيع العسكرية علنيًّا؛ ففي يناير/كانون الثاني، في الذكرى السنوية لرفع الحصار عن لينينجراد، زار المقبرة التي ادعت منظمة البحوث أن شقيقه فيكتور دفن فيها في أثناء الحرب، وبعد أيام زار مركز العلماء في مركز ساروف (حيث يصنَّع البولونيوم العالمي 210)، وتعهد بتجهيز عشرة أفواج جديدة من الصواريخ الجديدة القادرة على ضرب عمق أوروبا. وفي فبراير/شباط أعاد الحشد الجماهيري الوحيد في ملعب لوجنيكي تسمية عطلة الجيش الأحمر القديمة بـ(يوم المدافعين عن أرض الآباء)، وذكرت القنوات الحكومية أن الحضور بلغ 130 ألفًا، على الرغم من أن سعة الملعب كانت 80 ألفًا فقط، وكثير من الحضور كان من موظفي الحكومة، وجاء بعضهم من مدن بعيدة، لكن كل ما يهم هو البانوراما التي عرضت مرارًا وتكرارًا على شاشات التلفاز في البلاد. سار بوتين إلى المنصة الزرقاء المغطاة بالسجاد في خط الوسط، وكان يرتدي سترة سوداء لدرء الثلوج الخفيفة، ويمسك بالميكروفون، ثم صرخ برعونة- وحده وسط بحر من الأعلام واللافتات-: «هل نحن نحب روسيا؟»، وكان يتخبط حول المسرح، وقد انفجر الغضب المختزن بداخله. ناشد الجمهور «ألا ينظر إلى ما وراء البحار، ولا يهرع إلى اليسار أو إلى الجانب، وألا يخون الوطن، وأن يكون معنا، ويعمل لروسيا ويحبها كما نفعل من

كل قلوبنا». وكما فعل كيريل في لقائهما، استحضر معركة بورودينو التي انهزم فيها نابليون في ضواحي موسكو، فكان نداء لمقاومة الأجنبي الذي يعد تراثًا مقدسًا في البلاد، حتى إنه استشهد بالقصيدة الشهيرة لميخائيل ليرمونتوف التي نشرت في الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لبورودينو، التي يدعو فيها عقيد رجاله للموت في سبيل الدفاع عن الوطن:

«يا رجال، هل موسكو ليست لنا؟
إذن سوف نموت بالقرب من موسكو
كما فعل إخوة لنا
وقد نذرنا أنفسنا للموت».

بعد قرنين من الزمان استمرت المعركة من أجل روسيا، وأرعد بوتين مختتمًا، وعلى وجهه المشدود تكشيرة: إنما النصر «في جيناتنا».

بحلول ليلة 4 مارس/آذار أصبح نصر بوتين محققًا، وكما توقع الجميع تقريبًا؛ فاز بـ 63 في المئة من الأصوات في الجولة الأولى، وهي- وإن كانت أقل مما كانت عليه في الانتخابات السابقة، سواء بالنسبة إليه أو إلى ميدفيديف- لا تزال أغلبية صلبة. زغانوف، في شوطه الرابع، جاء في المرتبة الثانية وبفارق كبير، كما جرت العادة، فحصل على 17 في المئة. ولنزع فتيل الاتهامات التي شابت الانتخابات البرلمانية، أمر بوتين بتثبيت الكاميرات تقريبًا في كل مراكز الاقتراع في البلاد، لكن الأدلة على التزوير، ومن ذلك التصويت الدائري وحشو صناديق الاقتراع، ألقت مع ذلك ظلالًا من الشك على رصيده. حسب بعض التقديرات، الملايين من الأصوات أضيفت إلى مجموع أصوات بوتين، على الرغم من أن أقسى منتقديه يعترفون بأنه حصل على دعم من معظم الروس. فاز بوتين في كل منطقة من مناطق البلاد باستثناء موسكو، ومركز النخبة الساخطين، حيث كان فوزه لا يزال بنسبة 47 في المئة. وفي مسقط رأسه بطرسبورغ، حيث انتشرت هناك فورة من النشاط السياسي بعد التصويت في ديسمبر/كانون الأول، فحصل على 59 في المئة.

أعلن بوتين النصر في كلمة مقتضبة له في ساحة مانيج، وكانت أبراج الكرملين خلفية تلفازية مثالية له. تجمع حشد كبير أمام منصة صغيرة، كثير منهم من خارج موسكو، كما جرى في تجمعه الانتخابي الوحيد، حين حشدوا في حافلات إلى منطقة آمنة ليطل عليهم بوتين. كان هؤلاء هم أناس بوتين، وليسوا محبي العصرنة، المثقفين والراديكاليين وليس الذين تخلوا عن جذورهم وأصالتهم، الذين سيعيدون روسيا عن تقاليدها وجذورها الضاربة في التاريخ.

قال بوتين في تلك الليلة بعد أن قدَّمه ميدفيديف: «لقد أشرنا إلى أن شعبنا قادر على معرفة الغث من السمين»، وأضاف: «إن الرغبة الحقيقية تتمثل في تحقيق الحداثة على الرغم من الاستفزازات السياسية التي لها هدف وحيد: تدمير روسيا دولةً، واغتصاب السلطة». عندما كان يتحدث انهمرت الدموع على خديه، لأول مرة في مناسبة عامة منذ جنازة أناتولي سوبتشاك قبل اثني عشر عامًا، ويبدو أنه عرض عاطفي حقيقي، لكن الكرملين أصر في وقت لاحق أنها كانت بفعل رياح شديدة.

تركت الانتخابات معارضي بوتين مكتئبين ومشوشين، وتحول المزاج الاحتفالي للاحتجاجات الكبيرة الأولى إلى يأس؛ فقد توحَّد المتظاهرون على قضية، أو على مجموعة متنوعة من القضايا، لكن ليس على إستراتيجية لتحقيق هذه الأهداف، وأصبح من الواضح أن شيئًا لم يتغير، وربما لا شيء سوف يتغير، إلا في المفاهيم المجردة لمجتمع ديموقراطي تعددي، الذي يمكن أن ينشأ إذا كانت هناك (روسيا من دون بوتين)، كان هناك مخطط لوقفة احتجاجية في ساحة بوشكين مساء اليوم التالي، على مسافة أقل من ميل من الكرملين، لكن ما الفكرة اليوم من وراء ذلك؟

وبدلًا من الجماهير التي نهضت لاحتجاجات مبكرة، فقد حضر هذه المرة ربما عشرون ألفًا، وقال نافالني في تلك الليلة: «لقد بالغنا في تقدير قوتنا». مع انقضاء الساعتين المخصصتين للاحتجاج، والتي رأت السلطات أنها كافية لتطلق بعدها البخار لتفريق

المتظاهرين الذين بقوا محتشدين في الساحة ولا يتجاوز عددهم ألفي شخص، وكانوا غير متأكدين هل عليهم الاستجابة لدعوات نافالني، والزعيم المعارض الأكثر عدوانية سيرجي أودالتسوف، بالبقاء في الشوارع، أو حتى نصب خيمة احتجاج كما فعل الأوكرانيون في كييف عام 2004م، أو كما فعل المحتجون في القاهرة قبل عام، ولكن حسم ذلك قوات مكافحة الشغب إذ اجتاحت المكان، والهراوات تهتز بأيديهم؛ وألقي القبض على أكثر من 250 شخصًا، وأصيب العشرات، ثم ظلت شوارع موسكو فارغة.

استمرت الاحتجاجات في الأسابيع والأشهر المقبلة، ولكن مع كل احتجاج كان الزخم يتضاءل. كان كثير من الروس يريدون إنهاء النظام الذي أصبح فاسدًا ومهزلة كبرى، لكنَّ عددًا قليلًا جدًّا، حتى من نقاد بوتين الأشد تحمسًا، أرادوا الثورة التي من شأنها أن تفرض التغيير. في ذروة تلك الاحتجاجات، قارن سيرجي ماركوف، أحد الإستراتيجيين السياسيين في الكرملين، المتظاهرين بالأطفال المدللين، الذين يطلبون لعبة من أبيهم الصارم، كما هو حال الكرملين؛ قال: «ليس من الصواب أن تخرج لتشتري لعبة لطفل، بل أن تصرفه إلى شيء آخر»[6].

عودة إلى شهر فبراير/شباط، حين وصلت عازفة الغيتار يكاترينا ساميوستيفتش إلى كاتدرائية المسيح المخلص لأداء دورها في مجموعة بازي ريوت، أحست أن خطأ ما حدث في خطتهم السرية؛ إذ وصل المصورون في وقت مبكر إلى الكنيسة، وكانت استجابة الحراس سريعة وكأنهم يتوقعون وصولهم، ومن ثم فقد أعربت يكاترينا (كاتيا) لصديقاتها عن أنها تشتبه في وجود تسريبات من أحد المصورين الذي جاؤوا بهم لتسجيل أدائها، أو ربما بدأت الـ FSB برصدها من خلال أشرطة الفيديو الفيروسية الخاصة بهم في أثناء الحركة الاحتجاجية. وحين غادروا الكنيسة وجدوا أيضًا صحفيين ينتظرونهم في الخارج[7]. لم تكن متأكدة، لكن ربما جرى ترتيب لذلك؛ وفي كلتا الحالتين بدا واضحًا أن السلطات زادت اهتمامها بهذه العروض المثيرة وأرادت أن تضع حدًّا لها.

بعد يوم من نشر الفيديو، ندد المتحدث باسم الكنيسة، القمص فسيفولود شابلن، بهذا العمل، وعده خطيئة قاتلة، وجريمة ضد الله. وأعلنت النيابة العامة على الفور أنها ستفتح تحقيقًا، ولم يمض كثير من الوقت قبل أن تأتي قوة كاملة للدولة لتوقف هذا الشغب. وفي اليوم الذي سبق إعادة انتخاب بوتين، ألقت الشرطة القبض على ثلاث نساء ورجل، وفي اليوم التالي ألقوا القبض على اثنتين أخريين من النساء. كانت الشرطة لا تزال غير متأكدة من هوية الجماعة، فأُطلق سراح أربعة منهم، لكن وجدوا اثنتين من اللواتي كُنَّ في الكاتدرائية في ذلك اليوم من شهر فبراير/شباط: ناديجدا تولوكونيكوفا، وماريا أليوخينا. ألقي القبض على كاتيا بعد أسبوعين، في 16 مارس/آذار، ولم توجه لهنَّ تهمة الشغب، الانتهاك الصغير الذي لا يترتب عليه عادة أكثر من دفع الغرامة، ولكن وجهت لهن تهمة أعمال الشغب التي تمارسها مجموعة منظمة بدافع الكراهية الدينية، وبنية مبيتة لجعل سلوكهن مثالًا يحتذى. لائحة الاتهام اللاحقة اتهمتهن بتقويض (الأسس الروحية) لا للكنيسة فقط، وإنما (للدولة) أيضًا، والحكم عليها قد يصل إلى الحبس سبع سنوات. أرادت الفتيات من المشارِكات في فرقة بازي رايوت أن يلفتن الانتباه إلى التواصل والمشاركة بين الكنيسة والدولة، وكُن على وشك أن يعرفن أنهن محقات في ذلك. احتجزت الثلاث دون كفالة، على الرغم من أن ناديجدا وماريا كانتا أمهات لأطفال صغار.

الاعتقالات، وخطورة الاتهامات، أثارت موجة غضب جديدة مشوبة اليوم بالاستياء من عدم قدرة الاحتجاجات على أن تفعل أكثر من تشويه الفوز السهل لبوتين في الانتخابات. وأصبحت النساء الثلاث من المشاهير العالميين، وكن موضع إعجاب؛ لتحدِّيهن النظام الاستبدادي، وقد أعلنت منظمة العفو الدولية عدَّهنَّ من سجناء الضمير، ودافع موسيقيون بارزون (مؤمنون لا أكثر) - مادونا، وبِت تاونشيند، وبول مكارتني- عن قضيتهنَّ. أما في روسيا فقد ثبت أن مصيرهن سيكون فيه من التعقيد أكثر من ذلك بكثير: فقد قسَّم احتجاجهن المعارضة ومزقها بتواطؤ من الكرملين، الذي فعل كثيرًا لتشويه سمعتهن أكثر من أي شيء آخر في أعين الجمهور الواسع. ألكسي نافالني، الذي ينظر إليه الليبراليون

بحذر؛ لبعض آرائه القومية، ندد باحتجازهن، ولكنه وصف حيلتهن بالحمقاء، وكتب في مدونته[8]: «أنا لم أكن لأحبَّ ذلك- بألطف تعبير- لو كنت في تلك اللحظة في الكنيسة وجاءت بعض الفتيات المجنونات وبدأن يركضن حول المذبح»، وبدلًا من إثارة السجال في السياسة كما كنَّ ينوين، فقد غذت القضية الحرب الثقافية داخل المجتمع بطريقة يفضلها بوتين بكل تأكيد، وظلت الكنيسة من المؤسسات الأكثر احترامًا في روسيا، على قدم المساواة مع الرئاسة نفسها؛ فأكثر من 70 في المئة من الروس يقدمون أنفسهم بهويتهم بالأرثوذكسية، حتى وإن كان الإيمان لدى بعضهم ضعيفًا، وقلما مارسوا طقوس الكنيسة أو حضروها.

لقيت (صلاة الفاسقين) تفاعلًا، ودفعت بالمؤمنين للدفاع عن الكنيسة، على الرغم من فضائح فسادها وسلوكها التجاري، إذ كان الاعتقاد هو أن تكون مؤمنًا يعني أن تكون وطنيًّا، وأن تكون وطنيًّا يعني أن تكون مؤمنًا.

في أبريل/نيسان، يوم الأحد، بعد عيد الفصح، استجاب عشرات الآلاف لدعوة البطريرك للمشاركة في مظاهرة خاصة في كنيسة المسيح المخلص، وتضخم الحشد ليصل إلى خمسة وستين ألفًا، وفقًا للتقديرات الرسمية. حتى لو كان هذا الرقم مبالغًا فيه، فقد كانت المظاهرة أكبر من أي احتجاجات ضد بوتين، التي استمرت في التراجع بعد فوزه في الانتخابات. ظهر كيريل من الكنيسة في ذلك اليوم في موكب من الأساقفة والكهنة يحملون الرموز التي دُنِّست في العهد السوفييتي، ومن بينها واحدة ثُقبت بالرصاص يعود تاريخها إلى العشرينيات. لا يمكن مقارنة (هجوم المضطهدين) على الدين اليوم بالقمع السوفييتي، كما قال، إنما الليبرالية في الغرب كانت تهديدًا؛ لأنها تُعد «عين الكفرِ وتدنيسِ المقدسات، والسخرية منها»، لكونها «تجليًا قانونيًّا لحرية الإنسان، بوصفه شيئًا يجب الدفاع عنه في المجتمع الحديث». لم يذكر فرقة البازي رايوت، لكنهن تحولن إلى رمز للعدوى التي تتسرب من خلال حدود روسيا. أما بالنسبة إلى القساوسة فقد دعوا إلى الصفح عن النساء الثلاث في السجن، وكان من بينهم من يستشهد برحمة اليسوع، في حين كان يدعوهن كيريل «خائنات الغفارة» (الغفارة: رداء الكاهن).

عشية تنصيب بوتين يوم 7 مايو/أيار، خطط قادة الاحتجاج لتنظيم تجمُّع آخر مُرخَّص له في ساحة بولوتنايا، بمحاذاة النهر مقابل الكرملين حيث سيسلِّم ميدفيديف السلطة التي كان لا يمتلكها كليًّا. كان الجو دافئًا مع بداية فصل الربيع، وهذا يزيد بكل تأكيد عدد الحشود، وكذلك ملاحقة فرقة (البازي رايوت) قضائيًّا. احتشدت أعداد كبيرة من الناس في الساحة التي أغلقتْ فجأة كتائبُ من ضباط الشرطة المدخل المؤدي إليها، وقد خلق هذا زحامًا كبيرًا من المتظاهرين الذين تكدسوا في الشوارع، ومن بقوا خارج المحيط المغلق نظموا اعتصامًا وحدهم، بل إن شخصًا منهم نصب خيمة، وهي نذير شؤم لرجال الشرطة الذين تلقوا الأوامر بعدم السماح بأن يُرى هذا النوع من التخييم في الثورة البرتقالية. ظلَّ الاحتجاج سلميًّا بعض الوقت، لكن عندما بدأت الشرطة تصطاد المتظاهرين لاعتقالهم، تحولت إلى مشاجرة، وبدأت الحشود المندفعة تدافع عن المعتقلين، وردت الشرطة بالتلويح بالهراوات، فرد بعض من في الحشد برمي قطع الإسفلت، وكان بوريس نيمتسوف يصرخ: «روسيا ستكون حرة»، من على قمة بارزة، عندما اقتاده الضباط، وعندما ألقي القبض على نافالني بالقرب من المسرح، وبَّخ الضابط الذي قبض عليه، وسُجل قدحه من خلال ميكروفون كان يتقلده لتسجيل فيلم وثائقي عن الحركة المناهضة لبوتين، قال له: «سأضعك في السجن في وقت لاحق»، وقد بصق على اسم بوتين ورفاقه من رجال الأعمال؛ أركادي روتنبرغ، وجينادي تيمتشينكو، وتعهد أنهم سيكونون على قائمة المطلوبين عندما يصل إلى السلطة[9].

بحلول المساء انتهى الاحتجاج بأكثر من أربع مئة معتقل، وأصيب العشرات، من بينهم تسعة وعشرون ضابطًا، ظهروا في مقابلتهم في التلفاز الرسمي وهم مستلقون على العربات في المستشفى، في مشاهد يعتقد كثيرون أنها مسرحية لا أكثر. وعبَّر السكرتير بوتين الصحفي الدمث، دميتري بيسكوف، الذي عرف عنه نقل مشاعر سيده في الكرملين، عن خيبة أمله من أن الشرطة تصرفت على هذا النحو من ضبط النفس، وقال: «كنت أود أن يتصرفوا معهم بقسوة أكبر»[10].

استمرت الحملة في اليوم التالي على الرغم من إخلاء شوارع وسط موسكو من حركة السير استعدادًا لحفل التنصيب، وكان ضباط الشرطة يجوبون العاصمة ويقبضون على العشرات، كثير منهم دون سبب واضح سوى أنهم كانوا يرتدون وشاحًا أبيض. ودهمت سرية من قوات الداخلية ما أصبح يعرف باسم المقر غير الرسمي لحركة المعارضة، وكان مطعمًا فرنسيًّا يدعى جان جاك، وهو من الأمكنة التي نشأت في موسكو خلال سنوات الازدهار الاقتصادي، وأصبحت أماكن حداثية تشبه العاصمة الأوروبية النابضة بالحياة، يرتادها الشباب المبدعون من موسكو الذين يطلبون البيرة الأجنبية والنبيذ وفقًا لقوائم كتبت على السبورة. مع نهاية اليوم اعتقل أكثر من سبع مئة شخص حول موسكو، واقتيد عشرات الشبان الذين ارتادوا أماكن مثل مطعم جان إلى أماكن التعبئة في الجيش، تمامًا وفق لما حذروا منه عندما بدأت الاحتجاجات أول مرة. قال أوليغ أورلوف من جوار النصب التذكاري: «أعتقد أن هذا لإظهار من هو السيد»، وقالت منظمة حقوق الإنسان: «لقد أتانا قيصر جديد»[11].

بدأ حفل تنصيب بوتين في منتصف النهار بحضور شخصيات مرموقة، وبُثَّ الحفل إلى الأمة رسميًّا، كما كان من قبل؛ لكن في هذه المرة احتشدت الكاميرات في مكتب بوتين رئيس الوزراء في البيت الأبيض، ثم تبعته أسفل الدرج المغطى بالسجاد إلى المدخل الرئيس حيث كانت سيارة مرسيدس بنز بانتظاره، وتابعت كاميرا جوية ستَّ دقائق موكب الدراجات النارية للشرطة الذي يرافق سيارة بوتين، ودراجتين أخريين تفتح لها الطريق إلى الكرملين، حيث كان ميدفيديف بانتظاره، بعد أن استعرض حرس الشرف. مر الموكب بالشوارع التي لم تفرغ فقط من حركة السير وإنما من الناس أيضًا على نحو مخيف، فلا مَن شاهَد ولا مَن لوَّح ولا مَن هلل في ذلك الصباح المشمس؛ لم يجرؤ أحد أن يكون في الخارج.

في عام 2000م، أدى بوتين أول قسم دستوري على خلفية عدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي، والحرب في الشيشان، أما تنصيبه الثاني فقد جاء أكثر هدوءًا، وجاء في ظل تلك الحرب وسط تشديد على الحريات السياسية وتفكيك شركة يوكوس، ولكن جاء أيضًا في خضم الانتعاش الاقتصادي الذي شهده الروس أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البلاد.

تولى ميدفيديف اليمين الدستورية في عام 2008م في وقت تأمل فيه روسيا أن تتجاوز تاريخها المضطرب، وتنقل السلطة إلى جيل جديد من القادة، الذين يعرفون فقط روسيا الحديثة لا الاتحاد السوفييتي، واليوم عاد بوتين لأداء القسم مرة ثالثة، وتعهد أن يخدم البلاد ويحميها ست سنوات أخرى، ولكن تغيَّر هو والبلد، وعاد إلى السلطة من خلال تقسيم البلاد، وتأجيج الخوف من الأعداء في الداخل الذين يريدون الاستيلاء على السلطة وقلب كل ما أُنْجِزَ منذ أن أدى القسم الأول. عاد إلى السلطة لأنه جعل نفسه الخيار الحقيقي الوحيد في الاقتراع، فلم يعد رئيسًا لكل روسيا، وإنما للغالبية التي يحظى بها فقط، وكانت المعارضة الدواء المر.

استعاد المشوار الطويل في قصر الكرملين الكبير الذي دخله قبل اثني عشر عامًا، وكان المرشحون المهزومون هناك، وإن لم يكونوا في المقدمة، كان ميخائيل جورباتشوف، وزعماء أجانب أمثال سيلفيو برلسكوني، الصديق اليوم الذي تولى ثلاث مرات رئاسة وزراء إيطاليا تقريبًا، ويماثله في الأقدميَّة، لكن كانت حياته السياسية قد وصلت إلى نهايتها وسط دوامة من التحقيقات في أمواله وحياته الجنسية.

تحدث ميدفيديف أولًا بإيجاز قائلًا إن الاستمرارية كانت أساسية لمستقبل روسيا، وعلى نحو مميز، كما فعل يلتسين ولم يفعل بوتين، اعترف بعيوب رئاسته؛ قال: «نحن لم ننجح في كل ما كنا نأمله، ولم ننجح في استكمال كل شيء خططنا له». بدا بوتين هادئًا ورزينًا؛ فاليوم تقدم به السن، وشدَّ وجهه بالجراحة التجميلية، وشعره الخفيف تراجع أكثر، ولكنه وهو في التاسعة والخمسين ظل نحيفًا ورشيقًا، ثم بدأ كلمته قائلًا: «أرى أن معنى حياتي وغرضها هو أن أخدم بلدنا وأخدم شعبنا، الذي يعطيني الإلهام والمساعدة التي أحتاج إليها»، وقال إن السنوات المقبلة ستكون حاسمة في شكل البلاد التي ستصبح عليها روسيا؛ روسيا التي قال إنها استعادت (الكرامة كأمة عظيمة)، وسوف تكون مركز الثقل لجميع أوراسيا، «اليوم يرى العالم كيف تنهض روسيا من جديد».

بعد تصريحاته المقتضبة غادر المنصة وحده متجهًا مباشرة إلى ليودميلا، التي وقفت بجانب زوجة ميدفيديف والبطريرك كيريل خلال الحفل، وبدا عليها الوجع للحظات، وكان اختفاؤها من الحياة العامة مصدرًا للتكهنات والتعاطف والسخرية. وقف بوتين على بعد خطوتين منها، ثم استدار وعاد إليها، واستند إلى حبل أحمر وطبع قبلة على خدها، ثم غادر.

إذا كان ثمة توقع بأن تأتي الولاية الثالثة لبوتين بنهج أقل سلطوية أو ليونة، فهذا قد تبدد على الفور؛ إذ بدأت السلطات تحقيقًا واسعًا في المشاجرة في بولوتنايا التي يصفها المسؤولون اليوم بالشغب الجماهيري، بل وبمحاولة انقلاب، ووجهت التهم الجنائية لسبعة وعشرين شخصًا ليسوا قادة في حركة الاحتجاج، وليسوا متطرفين، لكنهم أناس عاديون انضموا إلى الاحتجاج برغبة شديدة كي تُسمع أصواتهم، وكان من بينهم طلاب، وصحفي مستقل، ومدير مبيعات، وفنان، وعامل مترو الأنفاق، ومساعد صحفي لأحد المعارضين القلائل لمشرعي القوانين في مجلس الدوما. وقد تمكن ناشط ملاحق، اسمه **ليونيد رازفوزهاييف**، من الهرب إلى أوكرانيا، ولكن ألقى القبضَ عليه هناك عملاء ملثمون، وأعادوه إلى موسكو، وادعى أنه اختُطِف وعُذِّب[12]. المتهمون عوقبوا بسنوات في السجن، وغالبًا ما كانت تستند الأحكام إلى أدلة واهية من أشرطة الفيديو، وشهادة من رجال شرطة مكافحة الشغب المصابين والمتضررين.

لم تحدث اعتقالات جماعية بعد تنصيب بوتين، ولا إرهاب عظيم ضد المنشقين، ولكن كان ثمة تزايد ثابت وانتقائي في ضغط النيابة العامة على أولئك الذين وقفوا ضده، واستخدمت السلطات تحقيق بولوتنايا ذريعة للتحقيقات في جميع أنحاء البلاد لسنوات قادمة، حتى في الحالات التي كانت لها صلة قليلة بالمشاجرة في ذلك اليوم، ومن بينها واحدة في عام 2013م ضد اثنين من نشطاء حقوق الإنسان في أوريل، على بعد مئات الأميال من موسكو[13].

عندما خطط زعماء المعارضة لتنظيم تجمع جديد يوم 12 يونيو/حزيران الذي يصادف عطلة استقلال روسيا عن الاتحاد السوفييتي في عام 1990م، اقتحمت فرق من محققي شرطة موسكو بيوت أبرز قادة المعارضة، ومن بينهم ألكسي نافالني، وبوريس نيمتسوف، وإيليا ياسين، وكسينيا سوبتشاك، النجمة التلفازية، والعضو البارزة في المجتمع، وابنة المستشار السياسي لبوتين، الرجل الذي حظي ذات مرة بالترحيب لكونه رمزًا للديموقراطية الوليدة في روسيا. وقد أكد دورَها في الاحتجاجات- التي نظر إليها بعضهم بشيء من الريبة بسبب شهرتها، وثروتها، واتصالات عائلتها مع الرجل الذي في القمة- عمق المعارضة التي يواجهها بوتين في بعض الأوساط لدى عودته إلى الكرملين. قالت كسينيا سوبتشاك لمحطة تلفازية بعد تفتيش شقتها وكانت ترتجف: «لم أكن أعتقد يومًا أنني سأقول هذا، من حسن الحظ أن والدي ليس هنا ليشاهد ما يحصل»[14].

استدعي جميع قادة الاحتجاج في اليوم التالي لاستجوابهم، على الرغم من أنه كان يوم عطلة؛ لمنعهم من حضور التجمع. وشجع نافالني الاحتجاج على وسائل التواصل الاجتماعي، ونشر رسائل ساخرة على تويتر حتى عندما كان ينتظر التحقيق، وأظهر أكثر من خمسين ألفًا تأييدهم، ولم يخِفهم الاعتقال والتفتيش، وتعهدوا من خلال مكبرات الصوت بالحفاظ على الزخم، فازداد الضغط، على الرغم من المضايقات التي تعرضت لها الشخصيات البارزة في الحراك، وخاصة المشاهير مثل سوبتشاك التي أوصلت رسالة بأن العلاقات شخصية ببوتين لا توفر الحماية لمن انتفض ضده، وكانت كما لو أنها إشارة سُرِّبت من خلال صفوف البيروقراطية.

خوّلت الشرطة والنيابة العامة، والنواب الجدد في مجلس الدوما والاتحاد، بوقف انتشار عدوى تحدي بوتين بأي وسيلة؛ ومن ثم ففي غضون أسابيع من تنصيبه، أقر مجلس الدوما بسرعة قانون زيادة غرامات متنوعة على المشاركين في الاحتجاجات غير المصرح بها، من 5 آلاف روبل إلى 300 ألف روبل، أي ما يقرب من عشرة آلاف دولار في كل مرة، وأكثر

بأضعاف من متوسط الراتب الشهري، ومنعت مدينة موسكو عرض شرائط بيضاء على السيارات، وأقر مجلس الدوما قانونًا يعطي السلطات الحق بإغلاق المواقع بزعم أنها تنشر معلومات غير مناسبة للأطفال، وأخرى تمنع نشر (دعاية مثليي الجنس). وفي يوليو/تموز صدر قانون جديد يطلب من المنظمات التي تتلقى تمويلًا أجنبيًّا أن تسجَّل على أنها (وكالات أجنبية)؛ وهي عبارة ذات أصداء مؤرقة منذ عصر الاضطهاد السوفييتي، وقانون آخر يسمح بإنزال أقصى العقوبات؛ بالسجن عشرين عامًا لمن «يقدم مساعدة استشارية لمنظمة أجنبية»؛ لأنها تعمل ضد الدولة. وردًّا على سؤال من اللجنة الخاصة به لحقوق الإنسان حول قسوة التشريع وسعة نطاقه، قال بوتين إنه سيراجعه شخصيًّا، ثم وقَّع عليه ليصبح قانونًا في اليوم نفسه، ولم يستهدف فقط الجماعات السياسية علنيًّا، مثل غولوس، وإنما استهدف أيضًا آخرين مثل برنامج مراقبة البيئة في شمال القفقاز، الذي حاول رصد الأضرار البيئية التي نجمت عن البناء الأولمبي في سوتشي.

في أكتوبر/تشرين الأول، وسَّع الدوما تعريف الخيانة لتشمل أي شخص يسرب- ولو عن غير قصد- (أسرار الدولة) إلى دولة أجنبية أو منظمة دولية، وحتى لو كانت المعلومات متاحة للجمهور فيمكن أن يُتهم ويُحكم عليه بأنه خائن.

كان التضييق يزداد أكثر، حتى بات التلميح في نقاش ما يمكن أن يعاقب عليه القانون، ما دام أن مجلس الدوما والمجلس الاتحادي يصدران القانون تلو القانون، وأصبح الافتراء- الذي لم يجرِّمه ميدفيديف- جريمة مرة أخرى، فقد ازدادت عقوبات الافتراء والتشهير، خاصة ضد المسؤولين الحكوميين، وجُرِّم كل تجديف «وتطاول على المشاعر الدينية»، مستوحى من فرقة نساء البازي رايوت، أما أولئك المنشقون فليس أمامهم سوى العقاب.

جُرِّد أحد نواب مجلس الدوما الذي تجرأ على الانضمام إلى المحتجين، من حصانته وولايته، وطردت أم كسينيا سوبتشاك، ليودميلا ناروسوفا، من مقعدها الذي تشغله في المجلس الاتحادي عشر سنوات، على الرغم من علاقتها ببوتين.

فورة التشريع خلطت تدابير القمع السلطوي القاسية بالنداءات الوطنية والدينية، وكانت النتيجة شرابًا مسكرًا فعالًا، وحربًا ثقافية ولدت في قلب رئاسة بوتين الجديدة. كانت محاكمة فرقة البازي رايوت أول معركة كبرى، حيث افتتحت في 30 يوليو/تموز، وهو اليوم الذي وقَّع فيه بوتين على قانون بخصوص القذف وقيود الإنترنت. في أول أقوال لهن من داخل صندوق زجاجي مغلق يحيط به الحراس وكلب مزمجر، اعتذرت الشابات الثلاث عن التسبب بالإساءة، لكنهنَّ أصررن على أنهن لم يتلفظن بأي كلمة تحمل عداء دينيًّا، بل إنه احتجاج سياسي تحميه حرية التعبير، وكان هذا جوهر الدفاع الذي لم يتوقعه أحد أن ينتشر. وقد شاب المحاكمة مخالفات قضائية وجهود مضنية لكي يشير المحامون إلى (الضرر المعنوي) الذي نتج عن هذا الأداء الوجيز، ومورست الضغوط على الشهود الذين لم يكونوا هناك وإنما شاهدوا الفيديو فقط. واشتكت إحدى محاميات الدفاع، فيوليتا فولكوفا، أن المتهمات لم يسمح لهن بمراجعة الأدلة ضدهن، لأنها تشمل مئات الساعات من أشرطة الفيديو التي لم يسمح لهن بمشاهدتها في مركز الاعتقال، وأضافت أن وثائق الادعاء زُوِّرت، ولم يسمح لها ولزملائها بلقاء سري مع موكلاتها ولو مرة واحدة، كذلك مُنع خبراء شهود الدفاع من الإدلاء بشهاداتهم؛ فقد تجاهلت المحكمة ببساطة اعتراضات الدفاع. قالت فولكوفا: «ثمة شعور اليوم أننا لسنا في روسيا القرن الحادي والعشرين، ولكن في عالم بديل آخر، في خرافة مثل **أليس في بلاد العجائب**، كما هو حال أليس في القفص الزجاجي». وقالت- لتقلل من شأن ادعاء النيابة العامة بأن ثواني قليلة من الاحتجاج يمكن أن تحطم مرتكزات كنيسة مضى عليها آلاف الأعوام-: «لا بد لهذا الواقع السخيف أن يختفي وينهار كما ينهار بيت من ورق»[15].

محاكمتهن الصورية تعيد إلى الأذهان تلك المحاكمات في عصر ستالين أو بريجنيف، وهذه المرة مع تحريف للحقائق وتوثيق للشهادات شفاهة أو مكتوبة على شبكة الإنترنت. على الرغم من أن النيابة العامة بذلت قصارى جهدها لتصوير النساء الثلاث على أنهن منحرفات وغير متعلمات، فإنهن أبدين استعدادًا وشجاعة ومعرفة كبيرة في التاريخ والفكر الديني؛ ففي أقوالهن الختامية أشرن إلى الثورات الفكرية والأخلاقية للمفكرين من

سقراط إلى يسوع، ومن دوستويفسكي (الذي واجه ذات مرة محكمة إعدام وهمية) إلى سولجينتسين. وفي ختام أقوالها قارنت ماريا أليوخينا السجن بـ(روسيا مصغرة)، حيث يفقد الناس الإحساس بأنفسهم كأي شيء آخر، فهم لا شيء سوى ضحايا تعساء تحت رحمة إدارة السجن.

زادت المحاكمة من الغضب الدولي من التحول السلطوي الأوسع الذي اتخذه بوتين، وكان يطارده كلما سافر إلى الخارج، وقد أدلى بأول تصريحات علنية له بشأن هذه القضية عندما زار لندن خلال دورة الألعاب الأولمبية الصيفية عام 2012م، والألعاب الأخيرة التي عقدت قبل تلك في سوتشي، وادعى أنه لم يثر هذه المسألة مع رئيس الوزراء البريطاني، ديفيد كاميرون، على الرغم من أن مساعدي رئيس الوزراء قالوا إنهم ناقشوا القضية في الواقع. أخطاء بوتين، واستخفافه بالحقائق، أصبح من الصعب تجاهلها. قال ردًّا على سؤال حول المحاكمة: «أنت تعرف، لا شيءَ جديدًا بخصوصها، لا أريد في الواقع أن أعلق على ذلك، لكن أعتقد إذا تحدثت هؤلاء السيدات الشابات عن إسرائيل، ودنَّسن شيئًا هناك- كثيرون منكم يعرفون أن هناك بعض الشباب الأقوياء- فغالبًا لن يمر ذلك مرور الكرام»، لو قدمن ذلك العرض في مسجد في شمال القفقاز، فالشرطة لن تعتقلهن في الوقت المناسب كي تنقذهن من مصيرهن الأسود. وأعرب عن أمله في ألا يكون الحكم (قاسيًا جدًّا)، على الرغم من أن مسألة الحكم لم تكن في موضع شك على الإطلاق.

في 17 أغسطس/آب وقع ما لم يكن مفاجئًا لأحد، إذ أدينت الثلاث، ورفض القاضي مرافعة الدفاع بأن ما فعلنه هو احتجاج سياسي ضد قادة الدولة. كانت النيابة العامة قد طلبت الحكم بالسجن ثلاث سنوات، لكن بات من المؤكد أن تصريحات بوتين أثرت في قرار القاضي بالحكم عليهن بالسجن عامين فقط. تجمع المئات من أنصار الفرقة خارج المحكمة، في حين اجتاح الآخرون موسكو، ووضعوا أقنعة ملونة على التماثيل، وكانت الشرطة مستعدة ولا ترحم، فحتى قبل قراءة الحكم، أُخرج غاري كاسباروف من مؤتمر صحفي مرتجل على درج المحكمة، وتعرض للضرب حين أجبرته الشرطة على الدخول في شاحنة

لها، وحالما انتشر نبأ الحكم، اندلعت اشتباكات حول مبنى المحكمة مع الشرطة التي اعتقلت العشرات. هذا كله كان يُبَث على شاشات التلفاز الحكومي، وهو ما أجج المشاعر المناهضة للغرب التي أصبحت العنصر الرئيس في الهجوم المضاد للكرملين.

في كلمتها الختامية إلى المحكمة، استشهدت ناديجدا بأنشودة سولجينتسين- وبكل شجاعة- عن قوة الكلمة في روايته **الدائرة الأولى**؛ قالت: «أنا أعتقد- كما سولجينتسين- أن الكلمة سوف تخترق الإسمنت»، ولكن قضية البازي رايوت قسمت المعارضة وقزمتها، وأصبح الحماس الكبير للاحتجاجات، اليوم مخنوقًا، ومتراجعًا تحت الأرض، أو لم يعد له وجود. وقد تكون نساء البازي رايوت أصبحن نجومًا عالمية، ولكن الحركة التي وُلدن من رحمها عانت كثيرًا، والفنانتان المؤديتان اللتان كانتا في الكاتدرائية، وحُدِّدت هويتاهما فقط بـ(بالاكلافا) و(سيرافيما)، غادرتا البلاد بعد صدور الحكم.

في أكتوبر/تشرين الأول، التمست النساء الثلاث التخفيف من عقوبتهن، حتى ديمتري ميدفيديف، الذي عيِّن اليوم في منصب رئيس الوزراء، قال إنه على الرغم من استيائه من احتجاجهن، فإنه يعتقد أن استمرار حبسهن غير ذي فائدة وغير ضروري. كُنَّ رهن الاحتجاز منذ سبعة أشهر على أي حال. كانت كاتيا قد وكلت محاميًا جديدًا، وبدلًا من محاولة تسويغ الاحتجاج، قالت إن قناعتها يجب أن تكون على عكس ذلك؛ لأنها لم يكن لديها الوقت للعزف حتى على الغيتار قبل أن تندفع قبالة سوليس soleas. وجادل محاميان آخران أن تصريحات بوتين وميدفيديف قد أضرت بالمحاكمة، ومن ثم هنالك ما يسوغ تعليق المحاكمة أو إعادتها. قبل القاضي بحجة كاتيا، وأطلق سراحها بناء على حكم مع وقف التنفيذ، في حين رفض التماس ناديجدا وماريا. ويشتبه بعضهم أن كاتيا ربما توصلت إلى اتفاق منفصل، أو ربما يريد أن يظهر الكرملين أن القضاء كان في الواقع حرًّا في تداول القضية بكل إنصاف، وقليل من يعتقد أن كاتيا قد ربحت الطعن بناء على أسس موضوعية.

بعد الإفراج عن كاتيا غابت عن الرأي العام، صحيح أنها لا تزال تلتقي بعض أعضاء البازي رايوت في موسكو، لكن لم يعودوا يعرضون شيئًا، وكانت متأكدة أنهم باتوا تحت المراقبة. في مقهى النباتيين في موسكو وبعد إطلاق سراحها، أوضحت أن المغزى من أدائهم شُوِّه بشدة لأغراض سياسية في الكرملين، غير أنها اعترفت أيضًا أن الجمهور الأوسع لم يكن ليتقبل الرسالة[16]، فالشعب الروسي لم يكن مستعدًّا لتحدي النظام الذي سيطر ببطء على المجتمع، ولم يكن بوتين هو الشرير في النيابة العامة ضدهم، كما تعتقد؛ إنه ببساطة يمثل وجه مجتمع محافظ وأبوي بامتياز؛ والشرير هو التناغم المذهل لهذا النظام في الثقافة وفي السياسة، الذي جعل أي انحراف في الفكر مخاطرة كبيرة جدًّا في التفكير. وقالت: «إن المشكلة ليست في أن الجميع يعتقدون ببراءتنا، وأن التهم الموجهة ضدنا غير قانونية، وأن بوتين وحده سيئ، يُجري مكالمات هاتفية ويصدر الأوامر في القضية؛ المشكلة هي أن الجميع يعتقدون أننا كنا مذنبات».

الفصل الثالث والعشرون

وحيدًا على أوليمبوس

بلغ بوتين الستين من عمره في أكتوبر/تشرين الأول 2012م، وهو سن التقاعد الرسمي للرجال الروس، لكن هذا الحد ليس له تأثير في الرئيس أو غيره ممن يشغلون المناصب العليا، لكن ديمتري ميدفيديف حين كان رئيسًا حرص على خفض سن التقاعد من خمسة وستين إلى ستين، وكانت الفكرة هي (التجديد) في الطبقة البيروقراطية المتضخمة؛ بإيجاد متسع للشباب لتترقى في المناصب. ومع اقتراب عيد ميلاد بوتين، وتجاوز بعض أقرب الحلفاء إليه في الحكومة السن القانونية للتقاعد، رفع سن التقاعد إلى السبعين. بدا تعديلًا طفيفًا، لكنه جزء من النمط المعاكس، خطوة خطوة لخلع الإرث الرئاسي الذي خلَّفه ميدفيديف؛ فبالإضافة إلى خفض سن التقاعد، وعدم تجريم القذف، استعاد بوتين المنطقتين الزمنيتين اللتين حذفهما ميدفيديف، ونقض قراره- الذي لم يحظ بشعبية- بوقف تغيير الساعة مرتين في السنة. وهكذا فما صنعه ميدفيديف من إصلاحات سياسية رآها بعضهم تنازلات في الاحتجاجات التي ظهرت في شتاء 2011-2012م، والتي سنها بقانون هو أحد آخر أعماله حين كان رئيسًا؛ تُخفف اليوم، ولن تشمل انتخابات قادة المناطق سوى أولئك الذين يرشحهم الكرملين.

على الرغم من بقاء ميدفيديف رئيسًا للوزراء وزعيمًا لحزب (روسيا الموحدة)، يبدو أن الكرملين ينوي أن يخرج ميدفيديف خارج دائرة القادة المهمين في البلاد، كما لو أن رئاسة بوتين لم تنقطع؛ فبدأ الكرملين يقلل من منجزات ميدفيديف، ويراجع التاريخ على

النمط السوفييتي ليؤكد أن بوتين هو المسؤول في نهاية المطاف عن هذه المنجزات. في أغسطس/آب، وفي الذكرى السنوية الرابعة للحرب في جورجيا، ظهر على موقع يوتيوب فيلم وثائقي غامض من سبع وأربعين دقيقة، وبدأ ينتشر على نطاق واسع؛ وقد حمل اسم (اليوم المفقود). زعم الفيلم- مستشهدًا بأقوال لقادة عسكريين كبار- أن تردد ميدفيديف في الساعات الأولى من الحرب نتج عنه ارتفاع ضحايا الحرب بين أوسيتيا والقوات الروسية.

كان هذا الفيلم في العلاقات العامة السوداء، يقوم عليه إستراتيجيو وسائل الإعلام الروسية الأخفياء ليضعفوا تأثير المعارضين السياسيين والمنافسين في مجال الأعمال، واليوم يُستَغل ضد ربيب الخدمة الطويلة لبوتين؛ ميدفيديف. تفاصيل الفيلم كانت متناقضة، وكاذبة بوضوح في بعض الأماكن، ومشوشة في أماكن أخرى. وهو يتحدث بصورة أساسية- بموسيقى تصويرية غريبة- عن ميدفيديف الذي تسبب في مقتل ألف شخص، مع أن عدد القتلى من جميع الأطراف في الحرب كان 884 شخصًا. جاءت أقسى الانتقادات في الفيلم من الجنرال يوري بالويفسكي، الذي تنحى أصلًا من منصبه قبل شهرين من بدء الحرب، وادعى أن الجورجيين شنوا هجومهم في أوسيتيا الجنوبية قبل ساعات من إعلانهم شن الهجوم، وأن ميدفيديف لم يتصرف إلا بعد أن تدخل بوتين شخصيًّا من الصين في أثناء افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الصيفية، وأضاف الجنرال: «حتى جاءت ركلة في المؤخرة»؛ هي الركلة الأولى من بكين، ثم جاءت الركلة الثانية، مباشرة من فلاديمير فلاديميروفتش، «الجميع- إذا ما أردنا أن نستخدم العبارة الملطفة- كان يخشى من شيء».

مصدر الفيلم لم يُعرف أبدًا، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها عنه؛ ففي ظل العلاقات العامة السوداء لا يكشَف عن الهوية؛ فقد نشر هذا الفيلم على حساب يوتيوب تابع لشخص يدعى أصلان جودييف، ويعود إلى شركة إنتاج تدعى ألفا، رغم عدم وجود أستوديو بهذا الاسم في روسيا. وقد ربطت النسخة الروسية من مجلة فوربس الفيلم بقناة تلفازية تتبع المجموعة الوطنية للإعلام، المملوكة جزئيًّا والتي يسيطر عليها مصرف (روسيا)، والمسهم الرئيس فيه صديق بوتين القديم يوري كوفالتشوك[1]. حالما بدأ الفيلم بالانتشار، تساءل مراسل

صحافة الكرملين عن بوتين، الذي تبنى الفيلم كثيرًا مما يؤكده، ومن ذلك الادعاء بأنه اتصل مرتين بميدفيديف من بكين، وهذا يتعارض مع السرد الذي جاء به ميدفيديف. ونظرًا إلى سيطرة الكرملين الشديدة على الأسئلة التي يطرحها تجمع الصحافة، فإن حقيقة السؤال الذي طرحه مراسل وكالة الأنباء الحكومية (ريا نوفوستي) تشير إلى أن بوتين أراد لفت الانتباه إلى الفيلم، إذ كان يمكنه أن يتنكر بسهولة بأسوأ التلميحات أمام مساعديه القدامى، وصديقه وسلفه، لكنه لم يفعل.

الاقتتال الداخلي بين الحاشية الذي سبق عودة بوتين إلى الرئاسة تصاعد بعد ضغط ميدفيديف للمضي قدمًا في خطط لخصخصة أسهم الدولة في مئات الشركات، لكنه لم يجد لديه السلطة الأكثر استقلالية في التصرف، أكثر مما كان عليه في السنوات الأربع السابقة. ظل منافسوه في ديوان بوتين: سيرجي إيفانوف، الذي كان وقتها رئيس موظفي الكرملين، وإيجور سيتشين، والحرس القديم الآخرون، الذين ربما أصبحت مصالحهم المالية في الشركات المملوكة للدولة أكثر وضوحًا. وكان ميدفيديف قد أعلن بالفعل أنه لا يستبعد خوض انتخابات الرئاسة مرة أخرى في عام 2018م، وهو موقف قد يُغضب آخرين في الكرملين، فقد حمَّله كثيرون مسؤولية الاحتجاجات التي شوشت عودة بوتين.

لم تمض أشهر فقط على تولي ميدفيديف منصب رئيس الوزراء حتى استهلكت المواقف السياسية التي كان قد تبناها، وهي قليلة أصلًا، بسبب ظهور الفيلم، والتراجع عن عدد من مبادراته، حتى إن مشروعه المكلف لبناء وادي السيليكون على أطراف موسكو واجه فجأة تحقيقات جنائية بحجة أن المسؤولين التنفيذيين في المشروع زودوا حركة الاحتجاج بالمال. انتقاد عمل ميدفيديف في رئاسة الوزراء بدأ يتسرب حتى في وسائل إعلام الكرملين الودية، في حين انتقد بوتين نفسُه بقسوةٍ ميزانية الحكومة وبطئها في إقامة المشاريع الطموحة للغاية- بعضهم قال إنها أهداف رمزية- التي أصدر بها مرسومًا في بداية ولايته الجديدة لتحسين السكن والتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، والبحث العلمي، ومتوسط العمر المتوقع للحياة.

تشويه إرث ميدفيديف امتد ليطول الشؤون الخارجية كذلك، وقد أشار بوتين بعد أيام من تنصيبه إلى أن (إعادة الضبط) التي تُدافع عنها إدارة أوباما قد انتهت، وأبلغ بفظاظة البيت الأبيض أنه لن يحضر قمة الدول الثماني العظمى G8 التي ستعقد بالقرب من واشنطن في وقت لاحق من ذلك الشهر، لا رفضًا للولايات المتحدة فقط، ولكن أيضًا لقادة الدول الأخرى التي كان يتودد إليها، وبعث ميدفيديف بدلًا منه؛ بحجة أنه مشغول بتأسيس الحكومة الجديدة. لم يرحب أحد في البيت الأبيض بعودة بوتين إلى الكرملين، ولكن كان أوباما قد أرسل مستشاره للأمن القومي، توماس دونيلون، إلى موسكو بعد انتخابه على أمل الحصول على دعم روسيا لمواصلة تخفيض الأسلحة النووية، ولحل الحرب الأهلية المرعبة التي استهلكت سوريا. في مارس/آذار، واجه أوباما حملة إعادة انتخابه الخاصة، فحاول أن يطمئن ميدفيديف أنه وبوتين يمكن يحرزا تقدمًا في التغلب على معارضة روسيا للدفاعات الصاروخية في أوروبا، لكنه كان بحاجة إلى الانتظار إلى ما بعد الانتخابات. تبادلهما لوجهات النظر في اجتماع قادة العالم حول الأمن النووي، برز للعلن عن غير قصد على ميكروفون مفتوح.

قال أوباما لميدفيديف: «يمكن أن تحل كل هذه القضايا، ولا سيما قضية الدفاع الصاروخي، لكن لا بد أن يمنحني بعض الوقت»[2].
أجاب ميدفيديف: «نعم فهمت عليك، وأفهم رسالتك بشأن الفضاء. الفضاء بالنسبة إليك...».
أوضح له أوباما: «هذه الانتخابات الأخيرة لي، وبعد انتخابي سيكون عندي مزيد من المرونة».
رد ميدفيديف: «فهمت، وسأنقل هذه المعلومات إلى فلاديمير».

زلة أوباما دفعت منافسه الجمهوري، ميت رومني، ليصرِّح أن روسيا «هي العدو الجيوسياسي رقم 1 بالنسبة إلينا»، وهي أسوأ من كوريا الشمالية بتسليحها النووي، وأسوأ من إيران التي تطمح إلى برنامج نووي؛ لما توفره من حماية لـ(أسوأ الجهات الفاعلة في العالم)؛ من خلال استخدامها لحق النقض الفيتو في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

لم يخطر على بال أوباما أن تصريحه الذي وعد فيه أن يكون أكثر مرونة بعد انتخابه سيدفع بوتين إلى أن يتشدد أكثر من أي وقت مضى؛ ففي شهر يونيو/حزيران، حين التقى أوباما بوتين على ساحل ولاية باجا في كاليفورنيا لحضور قمة مجموعة العشرين، لم يبذل أي منهما الجهد ليخفي ازدراءه للآخر. أبقى بوتين أوباما منتظرًا أكثر من نصف ساعة، وعندما ظهر الاثنان معًا بعد لقائهما، لم يبتسما أو حتى يتحدثا معًا، بل كان كل منهما يحدق في الأرض وهما يجيبان عن أسئلة الصحفيين، إضافة إلى أنهما لم يحرزا أي تقدم في أي من القضايا الصعبة المختلف عليها، وخاصة تدهور الصراع في سوريا. كان مساعدو أوباما قد وضعوا خطة للتفاوض على نفي الرئيس السوري بشار الأسد، ولكن كان هذا على افتراض أن الأسد سيتنحى عن منصبه، وأن بوتين سيتولى إقناعه بذلك. وقد أوضح بوتين- واضعًا في حسابه (استسلام) ميدفيديف في الأمم المتحدة بخصوص ليبيا في عام 2011م- أنه لن يسمح للولايات المتحدة أن تقود أي تدخل أجنبي آخر لإسقاط زعيم سيادي، بغض النظر عن عدد الأرواح التي ستزهق في صراع وحشي متزايد. ظلت حكومة الأسد آخر الحلفاء لروسيا في الشرق الأوسط، فهي التي تشتري الأسلحة الرئيسة منها، وتستضيف قاعدة بحرية روسية في البحر الأبيض المتوسط في طرطوس، لكن كان أهم ما يشغل بوتين هو منع الولايات المتحدة- من وجهة نظره- من إطلاق العنان لقوى التطرف مرة أخرى.

قلل بعض المسؤولين في واشنطن وغيرها من العواصم من شأن حملة بوتين السياسية المناهضة لأمريكا، وعدوها مناشدة ساخرة للمقاومة الوطنية ضد الأعداء الخارجيين لروسيا، لكنهم أساؤوا تقدير مدى عمق هذه القضية في تفكير بوتين في ذلك اليوم. خيبة الأمل الدولية كانت واضحة من خلال استقبال عودته إلى رئاسة الجمهورية، وثمة ذعر من حملة القمع العنيفة للاحتجاجات والاستنكارات لمحاكمات بازي رايوت والمتظاهرين في بولوتنايا، كل ذلك أسهم في تعزيز رأي بوتين بأن الغرب يعارضه ويقف ضد مصالحه، ومن ثم يعارض روسيا نفسها.

لغة بوتين اليوم عكست أسوأ مراحل الحرب الباردة، وتعضدها وتضخمها دائرة الأقوياء الذين يهيمنون على مجلس الوزراء، وتدفع إلى الهامش الأصوات الأكثر اعتدالًا الذين تجمعوا حول ميدفيديف، حتى ظهرت استعادة (العملاء الأجانب)، كما تشير تسمية الكرملين؛ التي تتجه إلى من ينظر اليوم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان، أو الجهود كتلك التي بذلها نافالني لفرض مساءلة الحكومة؛ لكونها جريمة ترتكب ضد سيادة الدولة.

نافالني، فوق كل شيء شارك في زمالة القيادة العليا في جامعة ييل، وكان هذا كافيًا اليوم ليوضع في دائرة الاشتباه.

في صيف عام 2012م، أعاد المدعي العام فتح تحقيق جنائي ضد نافالني، بتهمة (اختلاس) 500 ألف دولار من الأخشاب في منطقة كيروف، حين عمل مستشارًا غير مدفوع الأجر للحكومة في المنطقة. جاء ذلك بعد أسبوع من نشر أدلة تشير إلى أن رئيس لجنة التحقيق، ألكسندر باستريكين، لديه أعمال وشقة في جمهورية التشيك. وسرعان ما توسعت التحقيقات في صفقات أخرى متورط فيها نافالني، وهو ما اضطره إلى قضاء كثير من وقته وطاقاته في الدفاع عن نفسه في المحكمة.

المعارضة التي ظهرت ضد مبادئ بوتين في شتاء 2011- 2012م تراجعت ببطء من الشوارع، والحشود تراجعت في حجمها وحماسها عندما ضغط الكرملين بمزيد من القسوة ضد منتقديه، وكثير من معارضي بوتين؛ من قوارض الإنترنت (الهامستر)، ومحبي موسيقى الجاز، و(الشرائح المبدعة)، الذين احتشدوا وراء نافالني، تراجعوا وعادوا إلى الإنترنت، حيث يثورون وليس بأيديهم حيلة.

في سبتمبر/أيلول، كانت هناك علامة أخرى تدل على تدهور العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة على وجه الخصوص، فقد أنهى الكرملين فجأة عمل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID في روسيا. وكانت هذه الوكالة دعمت غولوس والمنظمات المدنية

الأخرى المنخرطة في العملية السياسية، ودعمت أيضًا عددًا من البرامج المعتدلة سياسيًّا، ومن ضمنها تطوير القروض العقارية ومكافحة الإيدز.

وفي أكتوبر/تشرين الأول، وسَّع قانون جديد تعريف الخيانة ليشمل تمرير (المساعدات المالية والمادية والتقنية والاستشارية أو غيرها) لدولة أجنبية، أو منظمة دولية، وقد وجهت تهمة الخيانة هذه لأي ناقد للحكومة له اتصال مع المنظمات غير الحكومية الأجنبية NGO. المنظمتان الأمريكيتان البارزتان اللتان تدعمان الحملات الانتخابية: المعهد الديموقراطي الوطني والمعهد الجمهوري الدولي، اضطرا إلى مغادرة البلاد، وغادرت كذلك مجموعات مماثلة من أوروبا، لئلا يواجه موظفوها أو الجهات المتواصلة معها اتهامات قد تودعهم عشرين عامًا في السجن.

دخل الوضع بعدها في دروة متبادلة؛ كما يقول المثل «غنِّ لي فأغني لك»؛ فكل ما تفعله دولة ما يقابل برد فعل مضاعف في دولة أخرى؛ ففي عام 2012م، اعتمد الكونغرس الأمريكي- على الرغم من معارضة البيت الأبيض الذي كان لا يزال يأمل في الحفاظ على مظهر من مظاهر التعاون مع بوتين- قانونًا جديدًا يحمل اسم سيرجي ماجنيتسكي؛ يفرض حظر السفر وعقوبات على المسؤولين الروس المتورطين في مقاضاته ووفاته. وقد تتبعت النيابة العامة الأمريكية في النهاية بعضًا من العوائد غير المشروعة البالغة 230 مليون دولار التي لم يكشف عنها ماجنيتسكي لأربع وحدات سكنية فاخرة، وغيرها من الممتلكات التجارية في مانهاتن، كانت المحكمة قد استولت عليهم، وقد اشترتها شركة عقارية قابضة في قبرص، باستخدام الأموال المغسولة من خلال شركات وهمية في الجمهورية السوفييتية السابقة مولدوفا[3].

أغضب قانون ماجنيتسكي بوتين، الذي نفى معرفته بتفاصيل قضية ماجنيتسكي، وفي الوقت نفسه قال إن الولايات المتحدة تسعى لمعاقبة روسيا بغض النظر عن موت مدقق الحسابات في السجن، وأضاف: «لو لم يكن ماجنيتسكي موجودًا لبحثوا عن ذريعة أخرى».

في البداية ردَّ الروس بفرض عقوبات على ثمانية عشر مسؤولًا أمريكيًّا متورطًا في احتجاز السجناء وتعذيبهم في سجن خليج غوانتنامو وأماكن أخرى، وكما هو حال الدعاية السوفييتية في الماضي، استخدم بوتين هذه المتوازيات- لم تكن في محلها أحيانًا- ليبعد الانتقادات عن روسيا، لكن ذهب اليوم إلى أبعد من ذلك؛ فاقترح تشريعات تفرض عقوبات على القضاة والمسؤولين المتورطين في الإساءة للأطفال الروس الذين تبناهم الأمريكيون، وهو موضوع كان مصدر توتر دوري مع الولايات المتحدة، وقد حُلَّ من خلال اتفاق ثنائي يتيح مزيدًا من الإشراف على العملية.

وسط الضجة التي أثيرت حول عقوبات ماجنيتسكي ذهب الدوما إلى أبعد من ذلك؛ بتمرير تشريع يحظر جميع عمليات تبني الأمريكيين للأطفال الروس، وكان التصويت النهائي عليه بالإجماع تقريبًا، على الرغم من أن التشريع كان ساخرًا وقاسيًا، حتى إن أعضاء حكومة بوتين اعترضوا عليه. كانت دور الأيتام الروسية مليئة بالأطفال الذين هم بحاجة ماسة إلى العائلات- حسب بعض التقديرات بلغ تعدداهم 800 ألف- في بلد ظل يعد التبني وصمة عار، ومن ثم كان نادرًا. وكان الأمريكيون قد اعتمدوا تبني ما يقرب من 50 ألف طفل منذ عام 1999م، والحظر سوف يجمد بعض عمليات التبني التي لا تزال جارية. كان الانتقام الروسي غير متماثل، بل غير متوازن، ومرتدًّا سلبيًّا على الذات؛ فالأمريكيون استهدفوا البيروقراطيين الفاسدين في فرض العقوبات، أما روسيا اليوم فتستهدف أيتامها هي.

قبل يوم واحد من تصويت الدوما النهائي على مشروع القانون، واجه بوتين أسئلة حادة غير معتادة خلال مؤتمره الصحفي السنوي، فسئل ثماني مرات لماذا أضرَّ بمصالح الأطفال في نزاع سياسي مع الولايات المتحدة؟ فقَدَ بوتين رباطة جأشه تحت وطئة أسئلة عدائية غير متوقعة، فقال بغضب مركزًا على نقطة واحدة، إن الولايات المتحدة كانت غير مبالية بما جرى من انتهاكات بحق الذين تبنتهم من الروس. وادعى أن المسؤولين الأمريكيين رفضوا استفسارات من الدبلوماسيين الروس عن التحقيق في حالات تعرض فيها الأطفال الروس لسوء المعاملة؛ وقد ردَّ غاضبًا على أحد الصحفيين: «هل تعتقد أن هذا أمر طبيعي؟»، ثم

عقَّب: «كيف يمكن أن تكون طبيعيًّا إذا تعرضت للإذلال؟ هل تحب ذلك؟ هل أنت مازوشي؟». وبعد أسبوع، على الرغم من تدفق غير عادي للاحتجاجات في البلاد، وقع بوتين التبني ليصبح قانونًا.

في عيد ميلاد بوتين الستين يوم 7 أكتوبر/تشرين الأول 2012م، شهدت مختلف أنحاء البلاد احتفالات بطريقة تكاد تكون عبادة لشخص، وهو ما كان يشير إليه دائمًا على أنه أمر مقيت، ولكنه لم يبدُ أقلَّ من ذلك. وفي الأيام التي سبقت ذلك، أُقيم معرض لوحات فنية في موسكو بعنوان يخلو من السخرية، **بوتين: أكثر رجل قلبه طيب في العالم**، وكذلك أنتجت مجموعة من الشباب المنتسبين لحزب (روسيا المتحدة) فيلمًا من أربع دقائق، مشحونًا جنسيًّا بنساء حسان يكررن مآثره الأكثر شهرة: من ركوب الخيل في الجبال، إلى قيادة طائرة نفاثة مقاتلة، وانتهاء بقيادة سيارة لادا صفراء في سيبيريا، وكانت هناك قراءات شعرية، ومسابقات في كتابة المقالات لتلاميذ المدارس. كان لهذا المَعلَم صدى سياسي في التاريخ السوفييتي، حيث يبدو مصير البلد ومصير الزعيم متشابكين. فعيد ميلاد ستالين الستين في عام 1939م عُدَّ عيدًا وطنيًّا، وطغى على حرب الشتاء مع فنلندا، ونال وسام ميدالية لينين. حتى أدولف هتلر أرسل برقية مع أطيب تمنياته «لمستقبل مزدهر لشعوب الاتحاد السوفييتي الصديق»، وحصل نيكيتا خروتشوف على الجائزة نفسها في يوم عيد ميلاده الستين في عام 1954م، في حين أعطي ليونيد بريجنيف شرف بطل الاتحاد السوفييتي.

وجاءت ستون بوتين دون أي ميدالية، بِضَجَّة جوفاء، وعلى الرغم من المداهنة الرسمية كان هناك شعور غير ملموس بالخوف بين مؤيديه ومنتقديه، من إدراك عصره وفنائه، وشعور أنه أصبح لا غنى عنه، لكن لا أحد يمكن أن يبقى إلى الأبد. في سبتمبر/أيلول ظهر في قمة منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ في فلاديفوستوك يعرج بوضوح، غير أن الكرملين لم يكن راغبًا على ما يبدو في توضيح السبب. (كان يعاني من شد عضلي في ظهره حين كان يلعب هوكي الجليد، التي لعبها حديثًا، كما أوضح مساعد بارز لاحقًا).

بعد سنة صاخبة نجا بوتين من موجة من المسيرات التي لطخت إعادة انتخابه، لكن الريبة التي طالت صحته كشفت القلق الذي يتخلل النظام. بدا الزعيم يصارع لاستعادة الحيوية التي كان يتمتع بها في رئاسته الأولى، وكان كمن عاد إلى السلطة دون هدف واضح، كما لو أن انتخابه ليس وسيلة لتحقيق غاية، وإنما غاية في حد ذاتها.

في طريقه إلى القمة حلَّق بطائرة شراعية ذات محرك، وهو جزء من برنامج الحفاظ على عودة الكركي المهدد بالانقراض في بر سيبيريا. وكثيرًا ما سحر بوتين أنصاره بلقاءات مختلفة مع الحيوانات البرية (بعضها كان مخدرًا)، لكن الشيء المثير أن هذه الألعاب البهلوانية الخائبة لم تكن مقنعة كثيرًا. وكان قد توقف عنها في أثناء الثورة على انتخابه، وربما أصيب بالإحراج من (اكتشافه) الجِرار القديمة المزروعة في البحر الأسود، ولكنها استؤنفت اليوم؛ فقد عاد الإستراتيجيون إلى الأساليب التي كانت مجدية مدة طويلة؛ إذ ارتدى بوتين بذلة بيضاء بقد ممشوق، والتحق بطيار الطائرة الشراعية ليرشد الكراكي التي وقعت أسيرة قرب نهر أوب في سيبيريا الغربية نحو أرض الاستراحة الشتوية في الجنوب. الطائرة مزودة بكاميرات، ونفذت محاولتين قبل أن تلحق بها الطيور، وبحسب ما ورد فقد دفع بوتين لطائرة شراعية، وقضى ساعات في التدريب، لكن الحدث يثير السخرية بوصفه شكلًا من أشكال القرن الحادي والعشرين للقديسين السوفييت.

وصف الإستراتيجي غليب بافلوفسكي هذه الألعاب البهلوانية الأخيرة لبوتين بأنها أفعال انعكاسية وغير مقنعة، كما لو أن الأفكار الجديدة نفدت من الكرملين، وكان بافلوفسكي قد أسهم بما لم يسهم به أي شخص في تكوين الصورة السياسية لبوتين من خلال المثيرات التلفازية التي جعلت منه زعيمًا سياسيًّا إلى الدرجة التي أصبح عليها، لكن بعد أن عاد إلى مكتبه ثانية، لم يكن لديه طريقة أخرى يقود بها البلاد، ومن ثم فبدلًا من التركيز على قضايا محافظة، أصبحت الكراكي اليوم دعامة أخرى لغرور بوتين. قال بافلوفسكي: «لقد ذهب الزعيم إلى السينما ولم يعد أبدًا، وبدا نادمًا»[4].

استمر عرض السيرة المقدسة في عيد ميلاد بوتين نفسه، فبينما كان يحتفل سرًّا مع بعض الأصدقاء المقربين والعائلة في المقر الرسمي في بطرسبورغ، نظمت جميع قنوات التلفاز برامج خاصة له؛ وفي برنامج إخباري أسبوعي (روسيا)، شبهه ديمتري كيسليوف بستالين، وكان بمنزلة إطراء له؛ وقال: «فيما يتعلق بنطاق نشاطاته، لا يمكن أن يقارن بوتين السياسي بأسلافه في القرن العشرين إلا بستالين فقط»، قال هذا في برنامج من ثلاث عشرة دقيقة امتدح فيها ارتفاع الرواتب والمعاشات التقاعدية، وإحياء الجيش، واستعادة التكافؤ النووي مع الولايات المتحدة[5]. وبثت محطة NTV خمسين دقيقة وثائقية حاولت من خلالها أن تعيد تقديم الرجل الذي أصبح وحده تقريبًا في مركز اهتمام الرأي العام اثني عشر عامًا، وأرادت أن تظهر بتملُّق- من خلال برنامج بعنوان: (**بوتين الزائر**)- أن بوتين لا تعرفه سوى الدائرة المقربة منه، مع أن البرنامج لم يأت بجديد إلا قليلًا. مقدم البرنامج، فاديم تاكمنيف، تابع الرئيس خلال أسبوع عمل، من مكتبه في نوفو أوجاريوفو إلى الكرملين، إلى زيارته الرئاسية إلى طاجيكستان، وفي سلسلة من المقابلات التي أجريت على مدى أسبوع، عبَّر بوتين مجددًا عن وجهات نظره في انتخابه، وفي منتقديه، وفي الفساد، وفي السياسة الخارجية، رافضًا أن تكون الانتقادات مجرد مضايقات[6]. قال: «قادة حركة الاحتجاج (أمثال نالافني، الذي لا يستطيع بوتين أن يتفوه حتى باسمه) كانوا (القش) الذي سيرمى بعيدًا، ليفسحوا المجال أمام (الجاذبية المثيرة للشعب) كي تظهر في الحياة السياسية والعامة». والفساد كان مبالغًا فيه، وبكل الأحوال ارتفع متوسط الدخل السنوي للروس من أقل من 1000 دولار سنويًّا عندما تولى منصبه إلى ما يقارب 10.000 دولار اليوم. «من المهم للغاية أن يكون التصور الذاتي لأي شخص يعيش على هذه الأرض أنه لا يعيش فقط في هذه المنطقة، إنما هو مواطن ينتمي لدولة قوية تحظى باحترام العالم»، وأضاف: «الشيء الأكثر أهمية أن روسيا وحدها التي تمتلك تكافؤًا نوويًّا إستراتيجيًّا مع الولايات المتحدة».

تجاهل بوتين في جوابه ما يتعرض له الروس من إذلال يومي وغضب حين يُجبرون على دفع الرشا لأية خدمة عامة تقريبًا، والكسب الهائل غير المشروع الذي جعل نافالني

متخصصًا في فضحه، والتصنيف العالمي الكئيب لمنظمة الشفافية الدولية التي وضعت روسيا في المرتبة 133 من 176 بلدًا في ممارسة الشفافية. قبل يومين فقط كانت محطة NTV قد بثت فيلمًا وثائقيًّا يتهم المتظاهرين الذين خرجوا إلى الشوارع بالتآمر لقلب نظام الحكم، وهذه المرة بمساعدة من القلة في جورجيا وأسيادهم في الغرب. صورت الأفلام الوثائقية بوتين بصورة وطني بسيط صادق في عمله، يتفانى دون كلال أو ملل في شؤون الدولة، في حين أن منتقديه هم غرباء لا يريدون سوى الفوضى. وسط الأدلة المضاعفة للفساد والمحسوبية التي أغنت أصدقاء وحلفاء له، كان بوتين يعيش حياة متواضعة فيها شيء من الزهد تقريبًا، وفي منزل- على الرغم من كل ما فيه من مرافق ووسائل راحة- متواضع، ولم يُعرض إلا القليل من التباهي بالثروة. وكانت آخر ورقة بيضاء أعدها بوريس نيمتسوف وحلفاؤه هي عن الفساد وثروة من هم في الدائرة الداخلية لبوتين، وتذكر مساكن في عشرين دولة وضعها الرئيس تحت تصرفه، تسعة منها شيِّدت في أثناء وجوده في السلطة، فضلًا عن عشرات اليخوت والطائرات، مع أن هؤلاء النقاد اعترفوا أن اهتمام بوتين بزخارف الثروة أقل من اهتمامه بالزخارف التي تحيط بالسلطة.

على الرغم من أن برنامج (**بوتين الزائر**) تبجيلي، فإنه يقدم رسمًا تخطيطيًّا لروتابة العمل الرئاسي الرسمي في اثني عشر عامًا منذ استقالة يلتسين، الذي بتصميمه ظل لغزًا للروس العاديين. أيام بوتين كتبت على صورة سلسلة من اللقاءات والاحتفالات المجردة من الأحاسيس والعواطف.

يبدأ بوتين صباح يومه متأخرًا (استيقظ الساعة 8:30 في اليوم الثاني من مشروع تاكمنيف)، فيشرع في ملفاته الموجزة، والمصنفات اليومية التي تصله من الـ FSB وجهاز المخابرات الخارجية، بعد ذلك- كما في معظم أيام الأسبوع- يكون لديه متسع من الوقت؛ فيتجه أولًا إلى آلات رفع الأثقال في صالة للألعاب الرياضية في مكان إقامته، ويشاهد البرامج الإخبارية التلفازية، ثم يمارس السباحة مسافة كيلومتر في مسبح داخلي له. وتحل الظهيرة قبل أن يتناول بوتين وجبة الإفطار، وهي وجبة بسيطة من العصيدة (حساء

الشعير) وبيض السمان النيء، والجبن المنزلي الصنع، الذي يرسله البطريرك كيريل من مزارع الكنيسة الخاصة، وعصير البنجر والفجل. ومن ثم فهو يبدأ عمله في وقت متأخر، ويستمر لساعات متأخرة من الليل. وكثيرًا ما كانت لقاءاته مع وزراء تُعقَد حين يستعد معظم الناس للنوم؛ فكان الوقت منتصفَ الليل تقريبًا حين صرف تاكمنيف ليلتقي رئيس مكافحة المخدرات، فيكتور إيفانوف، ووزير الدفاع أناتولي سيرديوكوف، الذي كان عليه أن ينتظر في غرفة الانتظار كما هو حال تاكمنيف. قال بوتين إن وزراءه دائمًا على خط الهاتف، لكنه لا يزعجهم إلا حين يجب عليه فعل ذلك.

وقال ردًّا على سؤالٍ إنه لا يثق في وسائل الإعلام لأنها منحازة، وهذا ما دفع الكرملين إلى السيطرة بهوس على جميع القنوات تقريبًا، وادعى أنه يفضل المعلومات التي يتلقاها من لقاءاته مع رجاله، مثل سيرديوكوف وإيفانوف، التي رأى «أن فيها مزيدًا من الكمال ومزيدًا من الدقة». لا يوجد على طاولة مكتبه حاسوب يربط بينه وبين شبكة الإنترنت التي يميل إليها، فقد يجد معلومات أخرى يمكن أن تتحدى ما أصبح وجهة نظر عالمية مقيدة، يعززها البلدان التي نادرًا ما تجرأت على تحديه.

على الرغم من اللهجة المتزلفة، كان الفيلم الوثائقي يشبه فيلمًا آخر في ألمانيا جاء توقيته ليتزامن مع حفل تنصيبه قبل خمسة أشهر، وقد نجحوا في الكشف عنه؛ كلاهما أظهراه محاطًا باستمرار بمساعديه وحرَّاسه ولا أحد آخر؛ يعمل *وحده*، ويسبح *وحده*، ويتناول وجبة الإفطار *وحده*، ولم يظهر أحد من عائلته في كلا الفيلمين؛ لا زوجته ولا ابنتاه؛ ماريا التي بلغت آنذاك السابعة والعشرين، وكاتيا التي كانت في السادسة والعشرين، ولا أي من أصدقائه. وكان يبدو أن أقرب مرافقيه هو كلب أبرادور الأسود، كوني، الذي كان *ينتظره*، على ما يبدو، على حافة المسبح حتى يكمل تمرينه.

في فيلم الـ NTV، الإشارة الوحيدة إلى ميدفيديف كانت حين دخل أقرب مساعديه الذي لا يزال رئيس وزرائه، وكان بوتين يشير إلى الدراجة الحمراء الترادفية (دراجة ذات مقعدين

أحدهما خلف الآخر)، وكانت متوقفة وحيدة خارج صالة الألعاب الرياضية، وقال إنها هدية من ميدفيديف، وأوضح وهو يمارس رفع الأثقال، مازحًا، أن الدراجة تبدو غير مستخدمة.

يعتقد أحد نقاد التلفاز أن الوِحدة التي يرغبها القائد كانت اختراعًا غير موفق، وترمي إلى إقناع المشاهدين بأنه لم يكن تلك الشخصية الفاسدة ذات الإحساس المتبلد التي صنعها المحتجون وشكلت انطباعًا عنه، إنما هو شخصية جماهيرية متفانية نذر نفسه لخدمة الأمة.

ظلت حياة بوتين الشخصية سرية للجميع سوى أولئك الذين عرفوه جيدًا، وهي دائرة صغيرة وسرية، دائرة كانت منسجمة على نحو ملحوظ على مدى السنوات، لكن أيضًا كانت انعزالية على نحو متزايد، فكل شيء يعلمه الروس عن حياة بوتين جاء من هذا القبيل، بالتلميحات الصغيرة، وبالقدر الذي يسمح الكرملين بظهوره للعلن، وبترتيب منه، فهناك دائمًا قيود، وهناك أيضًا نظرة ثاقبة في بعض الأحيان.

كان بوتين يميل إلى العمل في وقت متأخر من الليل، وقد أساء لسمعته ترْكُه لزواره ينتظرون ساعات، حتى أصدقاؤه كان عليهم أن ينتظروا إلى ساعات متأخرة حتى يلتقيهم. وقد أشار إيجور شادخان، منتج الفيلم الذي أجرى مقابلة معه قبل عقدين من الزمن، وكان آخر لقاء معه، إلى أنه لقاءه ببوتين كان في وقت متأخر، في الساعة الواحدة صباحًا، بعد انتظار ساعات في طابور من المسؤولين والمديرين التنفيذيين الذين تهافتوا مرة واحدة إلى مكتبه[7].

لم يعد لدى بوتين ذلك المزاح السهل الذي استهوى شادخان خلال عام 1991م، فقد أطلق نكتة، ولكن بوتين لم يضحك. وفي مقابلة له في عام 2013م قال له: «بالمناسبة؛ إن ستالين أيضًا كان محبًا للعمل في الليل»؛ عاكسًا درامية سولجينتسين في المونولوجات الداخلية لستالين في: **الدائرة الأولى**.

وصف شادخان بوتين اليوم بأنه «متعب لدرجة مخيفة»، ووحيد، وجامد في عقيدته، مشكك وخائف حتى من البطانة التي حوله من الذين «يريدون الانتقام ما إن يتنحى؛ لأن كثيرين منهم كان يعتمد عليه على نحو مذلٍّ».

هؤلاء الذين كانوا يحتلون المدار الخارجي من حياة بوتين- من وزراء ورجال أعمال ومعارف- اليوم قلما يلتقون به؛ إذ يبدو أنه قد تغير، حتى جيرمان جريف، أحد مستشاريه الليبراليين منذ أن عملا معًا في بطرسبورغ، راقب زميله القديم مدة طويلة لكن لم يستطع أن يفهم تطور شخصيته بسهولة، وردًّا على سؤال هل تغير بوتين، أجاب- بعد توقف غير مريح، باحثًا عن إجابة غير مسيئة-: كل ما أريد قوله أن (السلطة تغير الناس)[8]. وقد وجد بعض من كانوا مقربين منه أنفسهم مستبعدين.

وصفت أرملة أناتولي سوبتشاك، ليودميلا ناروسوفا، بوتين بأنه رجل تغيَّر منذ أن كان زوجها يدعوه مازحًا بـ ستيرليتز (Stirlitz)، العميل المزدوج في مسلسل الجاسوس الذي يحمل اسم: (**سبع عشرة دقيقة في الربيع**). قالت للصحيفة بعد أن أطيح بها من المجلس الاتحادي في خريف عام 2012م:

> «لديه روح الفكاهة؛ على الأقل كان معتادًا عليها». كان المنفى السياسي هو الثمن الذي دفعته لكونها صوتًا معارضًا نادرًا للقوانين التي تُضيق الخناق على المتظاهرين، وكانت ابنتها كسينيا من بينهم[9]. قالت ناروسوفا: «تدمير الأوهام التي تنتابني لا تطول فلاديمير، فالذي أعرفه أنه شخص صادق ومحترم ومتفانٍ، لكن لحاشيته؛ إن لدي شعورًا بالاشمئزاز من الذين يحيط نفسه بهم»؛ فقد أصبح لا يرى «الحد الأدنى من المعايير الأخلاقية» لدى القادة السياسيين الذين اعتمد عليهم، «ألا يفهمون- لأنهم صغار، ونتنون، وجشعون- أنهم ما إن يكذبون حتى لا يمكن أن يعيدوا الثقة بهم مرة أخرى؟ هم يكذبون بعضهم على بعض، كانوا يكذبون عليه، ولكن مع ذلك كان يعتمد عليهم».
>
> وقالت: يحدث في السلطة شيء يسمى (التبرنز) (bronzo veniye) الذي يشير إلى الإحساس المتضخم بأهمية الذات، الإحساس الذي يتصلب كنصب تذكاري لكن لمن هو أدنى من مستوى البشر. وأشارت إلى اجتماع سوبتشاك الأخير مع بوتين، عندما توجه إلى

كالينينجراد ضمن حملة انتخابه عام 2000م، وقال له محذرًا: «فولوديا، لا تصبح متبرنزًا»، ومع ذلك يبدو أنه أصبح متبرنزًا متخشبًا.

حين كان رئيسًا للوزراء استمر بوتين في العيش في مقره الرسمي في نوفو أوجاريوفو، لكن عندما عاد إلى رئاسة الجمهورية كان يعيش وحده. تزوجت ابنته الكبرى ماريا من الهولندي جوريت فاسين (Jorrit Faassen)، الذي انضم إلى الطبقة التنفيذية في شركة غازبروم، وكان ارتباطه بأسرة بوتين قد شاع على العلن فقط بعد تعرضه لحادث سير في نوفمبر/تشرين الثاني 2010م، عندما كان يقود سيارته من نوع بي إم دبليو على الطريق الرئيس المزدحم، قاصدًا رابلييوفكا مليارديرز ضاحية النخبة في موسكو. بعد الاصطدام الوشيك مع سيارة المرسيدس التي تحمل المصرفي الشاب، ماتفيه يورين، خرج عدد من حراسه الشخصيين من شاحنة فولكس فاغن، وانهالوا بالضرب على فاسين، ولم تتولَّ التحقيق في الهجوم شرطة السير، وإنما جهاز الأمن الرئاسي، وخلال أسابيع لم يعتقل فقط الحراس الشخصيون، وإنما اعتقل أيضًا يورين نفسه، وقد أدينوا بالاعتداء بالضرب، وحكم عليهم بالسجن أربع سنوات ونصفًا، ثم تضاعفت لاحقًا بأحكام بتهمة الاختلاس والتزوير الذي فكك إمبراطوريته المصرفية.

تزوج جوريت من ماريا سرًّا ولم يكن واضحًا بالضبط أين ومتى؟ وإن كانت ثمة شائعات عن إقامة حفل زفاف في جزيرة يونانية في عام 2012م، وقبل أن يحتفي بوتين بعيد ميلاده الستين رزقا بطفل، وأصبح بوتين الجد، وهو ما لم تتناوله الصحافة الروسية[10].

كذلك لم يعرف عن ابنته الشابة كاتيا إلا قليل، ويقال إنها تخصصت في الدراسات الآسيوية في الجامعة، وأشيع أنها كانت منذ مدة طويلة على علاقة عاطفية بابن أميرال كوريا الجنوبية، حتى إنها تزوجته، مع أنه اتضح فيما بعد أن ذلك ليس صحيحًا. وقيل إنها أحبت الرقص التنافسي، وأصبحت نائبًا لرئيس الاتحاد العالمي للرول تحت اسم كاترينا فلاديميروفنا، ومن الواضح أن الاسم الذي اتخذته يعود إلى اسم العائلة لأمها ليودميلا.

في نهاية عام 2012م، وفي سن السادسة والعشرين، أصبحت مديرة صندوق التنمية الفكرية الوطنية، وهي منظمة لبناء مركز الأبحاث التكنولوجية الفائقة بمبلغ قدره 1.6 مليار دولار على أرض جامعة موسكو الحكومية[11]. وضم مجلس أمناء الصندوق عددًا من حلفاء بوتين المقربين، واليوم هم من التنفيذيين الأثرياء في مؤسسات الدولة، ومن بينهم إيجور سيتشين وسيرجي شيميزوف. وقيل إنها قد تزوجت كيريل شمالوف، ابن نيكولاي شمالوف، الذي كان عضوًا في جمعية البيت الريفي (أوزيرو) لبوتين، وقد انضم كيريل أيضًا إلى صفوف التنفيذيين في شركة غازبروم بعد تخرجه في الجامعة نفسها التي تخرجت فيها كاترينا، ثم أصبح مسؤولًا تنفيذيًّا، ثم أصبح من المسهمين في سيبور (SIBUR)، أكبر شركة للبتروكيماويات في البلاد، ثم تملك جزءًا منها جينادي تيمتشينكو. وهكذا بدا أن العلاقات المتشابكة التي تعتمد على المحاباة في دائرة تحالفات بوتين وأصدقائه، بدأت تنزل لتطول الجيل الجديد.

في غياب المعلومات الرسمية أو حتى الموثوقة حول الحياة الخاصة لأسرة بوتين، تفاقمت الشائعات، ومعظمها تأتي من مجموعة الثرثرة أو المجموعة المتآمرة على الشابكة، فكانت هناك تكهنات حول صحة ليودميلا، منها تكهنات بإصابتها بنوبات من الاكتئاب أو الإدمان. كان العيش المفضل لديها في دير قرب بسكوف، منفية مثلما كانت زوجات القياصرة على مر التاريخ. كانت الحقيقة معروفة أكثر لرجل الشارع. قال سيرجي رولدوغن، أحد أقدم أصدقاء بوتين، إن الزوجَين ظلا وديين معًا، ولكن البعد والتباعد تزايد إلى جفاء. وكان بوتين يمضي مزيدًا من وقته مع دائرة الأصدقاء نفسها التي حافظ عليها منذ طفولته، ومن الـ(كي جي بي)، ومن الشركات التي تجذرت في التسعينيات. وكان يشعر بالراحة بين هؤلاء الأصدقاء، يستضيف الأحزاب في مقر إقامته في موسكو في وقت متأخر من الليل، أو في الخلوات الرسمية التي ذكرها بوريس نيمتسوف بالتفصيل في تقريره عن المقتنيات الرئاسية. قال رولدوغن: لم يناقش في هذه التجمعات الأعمال التجارية على الملأ، كانت تجري تلك المحادثات بصورة شخصية؛ واحدًا تلو الآخر، ونادرًا ما تكون سياسية. وركزت المناقشات

على نحو متزايد في موضوعات التاريخ والأدب، إذ كان اهتمام بوتين قد ضعف، وكان لديه قليل من الصبر على المواضيع المتعبة، ولكنه كان متعطشًا للحصول على معلومات جديدة.

كشف رولدوغن كيف أنه بعد قراءة ترجمة باسترناك لمسرحية الملك لير، سأل بوتين أصدقاءه عن معرفتهم-كما كتب باسترناك في تعليقاته على الترجمة- بأن الإلهام التاريخي للقصة يعود إلى القرن التاسع. كان يدعو المطربين، مفضلًا المغنين أمثال جريجوري ليبس وفيليب كركوروف، لإقامة الحفلات الخاصة، وكان الضيوف، وحتى المضيف، يمكن أن يصلوا في كل الأوقات؛ بالسيارة أو المروحية؛ فقد طلب ذات مرة من رولدوغن استضافة الموسيقيين من دار الموسيقى في بطرسبورغ، حيث يتولى صديقه القديم اليوم منصب المدير الفني. الموسيقيون الثلاثة، عازف الكمان، وعازف البيانو، والكلارينيت، عزفوا لموزارت، ويبر، وتشايكوفسكي، فانفعل بوتين، وبمكرمة من القيصر دعاهم للعزف مرة أخرى في الليلة التالية لنفس المجموعة الصغيرة من الأصدقاء. وقد شملت هذه التجمعات أمثال يوري كوفالتشوك وجينادي تيمتشينكو، ولكن نادرًا ما كانت تشمل زوجة بوتين.

ظلت هواجس بوتين منحصرة في العمل والرياضة، وأصبحت له هواية جديدة هي هوكي الجليد في عام 2011م، بعد أن شارك في بطولة الشباب، وكانت هذه الرياضة قد جذبت أيضًا أصدقاءه تيمتشينكو والإخوة روتنبرغ، بوريس وأركادي، الذي يملك فرقًا محترفة في دوري الهوكي للقارات في روسيا. قضى بوتين الساعات في تعلم التزلج والتعامل مع العصا، وهذا يدل على ذلك الحماس الذي أظهره في تعلم فنون الدفاع عن النفس عندما كان مراهقًا، ولعب المباريات في الساحات التي أفرغت من الجميع واقتصرت على الضيوف المدعوين؛ وهم بعضٌ من زملائه ومعلميه من عمالقة الهوكي، مثل سلافا فيتيسوف وبافل بوري، وكذلك أصدقاء مثل روتينبيرغز، ووزراء في الحكومة نفسها، وحتى الرئيس البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو، وكان الحراس الشخصيون من حرسه الخاص، وحرس ميدفيديف- وإن لم يكن ميدفيديف بنفسه- يملؤون الفِرَق.

قبل توقيت بدء دورة الألعاب الأولمبية أصدر بوتين مرسومًا يقضي بإنشاء نادي الهواة للرجال فوق سن الأربعين، الذي توسع ليشمل لاعبين من جميع الأعمار، وكان من وجهة نظره جزءًا من إعادة إحياء البلاد من خلال الرياضة واللياقة البدنية. وسرعان ما فتحت مباريات الهواة للجمهور، وأصبحت تُذكر في التقارير الإخبارية التي تتابع حثيثًا البراعة المتزايدة للرئيس على الجليد، الذي يرتدي الرقم 11، ويسجل بسهولة مذهلة ستة أهداف في مباراة واحدة! كان يلعب الهوكي ليلة أول احتجاجات جماعية في ديسمبر/كانون الأول عام 2011م مستخفًّا بها، وفي يوم تنصيبه في عام 2012م، غادر بوتين الكرملين وهو رئيس جديد ليلعب مباراة استعراضية ضد عمالقة الهوكي المتقاعدين، وكان من بين المتفرجين اثنان من السياسيين المتقاعدين؛ سيلفيو برلسكوني وجيرهارد شرودر. وسجل بوتين هدفين أحدهما هدف الفوز الذي جاء من ضربة جزاء في الوقت الإضافي[12].

في حفل تنصيب بوتين شوهدت ليودميلا لآخر مرة معه علنًا على الرأي العام، وقبل ذلك كانا قد ظهرا معًا في يوم الانتخابات في مركز الاقتراع، حيث كان بوتين يلقي النكات بحدة معها وعليها. وعندما أبرز أحد العاملين معلومات المرشح التي نشرت على الحائط، قال بوتين إنه لم يكن بحاجة إليها، ولكنها- أي ليودميلا- ربما تحتاجها، ثم قال: «إنها ليست جاهزة لأن تسرع»[13].

أصبح غيابها في رئاسة بوتين الجديدة صادمًا، وأثار شائعات جديدة عن انفصالهما، فقد كانت غائبة بوضوح في قداس عيد الفصح في تلك السنة، عندما ظهر بوتين مع ميدفيديف وزوجته، يرافقه رئيس بلدية موسكو سيرجي سوبيانين. أيضًا تجنب بوتين عيد ميلادها الخامس والخمسين عشية عيد الميلاد الأرثوذكسي في 6 يناير/كانون الثاني 2013م، إذ كان في سوتشي، حيث منح جيرار دوبارديو جواز سفر (حتى يستطيع تجنب دفع الضرائب في فرنسا)، وقضى بعض الوقت في التزلج على المنحدرات الأولمبية التي جُهِّزت حديثًا[14].

لم يظهرا معًا على الملأ مرة أخرى حتى يونيو/حزيران، عندما ظهرا بعد العمل الأول (لا إزميرالدا) من أعمال الباليه الثلاثة التي قدمت في الكرملين، وهناك طرح عليهما سؤال من صحفي وقح لا يمكن إلا أن يكون مدبرًا كهذا العرض الذي كانا يحضرانه. «هل أحببتِ إزميرالدا؟»؛ بهذا السؤال بدأ المراسل من قناة أخبار روسيا وانتظر الرد[15]، وبعد أن أدلى بوتين وزوجته ببعض الملاحظات المبتذلة حول الموسيقى (الجميلة)، وحركات الراقصين (الهوائية)، تطرق المراسل بلطف للموضوع الذي سيكون- تحت أي ظرف- محط إثارة غضب بوتين: «قلما تظهران معًا، وثمة شائعات أنكما لا تعيشان معًا، فهل هذا صحيح؟».

سحب بوتين نفسًا طويلًا، وحملق في ليودميلا، وبعد لحظة أجاب: «هذا صحيح؛ كل نشاطي وكل عملي جماهيري، جماهيري على الإطلاق؛ قد يحلو لبعضهم هذا وقد لا يحلو لآخرين، وبعضهم قد يعارضه تمامًا»، ثم خاطبها رسميًّا باسم ليودميلا أليكساندروفانا، وهي الطريقة التي لا يتكلم بها أحد إلا عن شخص غريب أو كبير في السن، وكانت هي ملزمة بدور (المراقب)، ثم قال: «لقد مرت ثماني سنوات، أو تسع، نعم، تسع سنوات، وهذا باختصار كان قرارًا مشتركًا». كانا واقفيَن متباعدين وعلى نحو غير ملائم، وقد ظهرت ليودميلا متألمة، وبوتين فولاذيًّا. ردت ليودميلا: «زواجنا انتهى لأننا قلما نلتقي، ففلاديمير فلاديميروفتش منهمك في عمله، وأطفالنا كبروا، وهم يعيشون حياتهم الخاصة، ونحن نعيش حياتنا أيضًا»، ثم أعربت عن شكرها له لأنه «لا يزال يساندني ويساند أطفالنا»، وقالت إنهما سوف يبقيان أصدقاء. وفي الوقت الذي كان فيه كثير من السياسيين والمسؤولين الروس يتباهون بأن أطفالهم يعيشون أو يدرسون في الخارج، انتهز بوتين الفرصة ليؤكد أن طفلتيه بقيتا في روسيا.

بدا المراسل مرتبكًا؛ فهل هذا يعني أنهما انفصلا حقًّا؟ ولكنها أكملت: «يمكن أن تعده طلاقًا حضاريًّا».

تزامن قرار بوتين برفع الغطاء عن حياته الشخصية مع الانعطاف الاجتماعي المحافظ في سياساته، يقرع طبول الإيمان الروسي والأخلاق في سعيه من أجل تعريف فكرة الدولة والدفاع عنها.

بالنسبة إلى القسم الأكبر من الروس كانت ردة فعلهم غير مبالية، ولم تكن تعاطفية؛ والمفاجأة كانت في التوقيت فقط؛ إذ إن الطلاق لم يصبح رسميًّا إلا في العام المقبل. أثار انفصالهما في الوقت ذاته عاصفة من التكهنات بأن بوتين يستعد للزواج مرة أخرى، وربما من ألينا كابايفا، التي أشيع أنها أنجبت طفلًا منه في عام 2010م (وطفلة في عام 2012م). كابابيفا ظهرت على غلاف النسخة الروسية من مجلة فوغ في يناير/كانون الثاني عام 2011م، ترتدي ثوب بالمين مبهرًا، وقد نفت مرارًا أن يكون عندها أطفال (الصبي الذي ظهر في حياتها قالت إنه ابن أخيها)، وظهرت شائعات عن أشياء أخرى تشمل الجاسوسة النائمة آنا تشابمان، والمصورة الرسمية لبوتين يانا لابيكوفا عارضة الأزياء السابقة والمنافسة في مسابقة ملكة جمال موسكو. كان هناك دائمًا حلقة مفقودة في الشائعات، وقد رفضها المتحدث باسم بوتين، ديمتري بيسكوف، جملة وتفصيلًا.

ستانيسلاف بيلكوفسكي، الإستراتيجي والصحفي الذي يكتب أعمدة صحفية، ادعى أن الشائعات عن وجود حب في حياة الرئيس هي من اختراع آلة العلاقات العامة في الكرملين، ظهرت لتحسين صورة بوتين وتعزيزها. نشر بيلكوفسكي كتابًا باللغة الألمانية يصوره على أنه زعيم منعزل لا يثق بأحد، وكلابه أقرب إليه من أي شخص آخر، حتى من أصدقائه. الكتاب بعنوان **بوتين.. تكهنات مخلوطة بين الإشاعات والحقيقة**، ويذكر فيه تفاصيل دقيقة- على سبيل المثال- حول حياة بناته، حتى إنه يصعب عليك تمييز إحداهما عن الأخرى، بالقدر الذي يصعب عليك معرفة حقيقة الحياة الخاصة لبوتين، حتى إن بيلكوفسكي نفسه لم يكن متأكدًا، ونأى بنفسه عن الصورة النفسية التي استخلصها[16]. بدا بوتين فيه من الواقعية أكثر من الأعمال السياسية المثيرة التي أنجزها. وبعد مضي أكثر من اثني عشر عامًا عليه في دائرة الضوء العام، أصبح شخصية فيها مزيد من البعد، بعيدة عن الناس بعد الأمناء

العامين أو القياصرة الذين سبقوه، وشخصية قوية ومجهولة، كما هو حال السلطة المراوغة التي تحدث عنها كافكا في روايته كلام.

قال غليب بافلوفسكي: «أنت تعرف أن الكتاب لا يتناول بوتين، نحن نتحدث عن بوتين كثيرًا. بوتين هو الصفر عندنا، الفارغ، الشاشة التي نسلط عليها رغباتنا وحبنا وكراهيتنا»[17].

الفصل الرابع والعشرون

بوتينغراد

في فبراير/شباط 2013م، اجتمع بوتين بوفد كبير من المسؤولين الروس وأعضاء اللجنة الأولمبية الدولية في سوتشي مدة يومين قبل سنة تمامًا من حفل الافتتاح المقرر، ولم يكن يظهر عليه أنه سعيد.

خمس سنوات من البناء حوَّلت المنتجع الساحلي الناعس إلى حالة أفضل كما يرى مساعدو بوتين، وإلى دمار كما يرى منتقدوه؛ فالموقع الدائري للحلبات الأولمبية الرئيسة في وادي إيميريتنسكايا جُفِّف ودرِّج، ونظِّف من مئات المنازل المتواضعة والبيوت التي بُنيت على مصبات الأنهار لتعشش فيها الطيور المهاجرة. ارتفعت الحلبات من السهل كما لو أنها أجسام غريبة أنيقة وحديثة بالمقارنة ببقايا الكلاسيكية الجديدة من الماضي السوفييتي المجيد لسوتشي.

وقد ظهرت في الوادي عدة ندوب، من تناثر مخلفات البناء، ورافعات البناء التي تدور ليلًا ونهارًا. وتكاثف البناء على نحو متساو على الجبال في كراسنايا بوليانا، حيث زحف نهر مزيمتا المعكَّر إلى السكك الحديدية والطرق السريعة غير المكتملة. كان حجم العمل في الجبال وعلى طول الشريط الساحلي الضيق لسوتشي مذهلًا: مئتا ميل من الطرق الجديدة، وعشرات الأنفاق والجسور، وثماني محطات للسكك الحديدية الجديدة، وواحد وثلاثون موقفًا أصغر، ومحطة توليد كهرباء جديدة بنتها غازبروم، وشبكة من محطات فرعية أصغر،

ومطار وميناء بحري جديدان، بناهما أوليغ ديريباسكا، رجل الأعمال الذي وبَّخه بوتين في بيكاليفو في عام 2009م، وعشرات الفنادق الجديدة، والمدارس والعيادات؛ كان في ذلك الوقت أكبر مشروع بناء على هذا الكوكب. وهذا العمل الذي تنفذه روسيا لا يقارن إلا بذلك الذي نفِّذ لإعادة إعمار المدن التي دمرتها الحرب الوطنية العظمى.

وطلب أناتولي باخوموف، رئيس بلدية سوتشي، بإنشاء مشروع عملاق لحفر نفق يربط الطريق الالتفافي السريع الثاني للتخفيف من أزمة السير الخانقة في المدينة، وهو ما كان اقترحه ستالين قبل أكثر من نصف قرن، لكن اليوم فقط، في عهد بوتين، آن له أن يتحقق. قارن فلاديمير ياكونين، الصديق القديم لبوتين، مشروع السكك الحديدية، الذي بلغت كلفته ما يقارب 10 مليارات دولار، بمشروع أقدم منه لتوحيد الدولة: السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، الذي بني في فجر الإمبراطورية الروسية من قِبل القيصر ألكسندر الثالث وابنه نيقولا الثاني[1].

كان بوتين منذ البداية متحمسًا بقوة لهذا المشروع الأولمبي، فقد منح العقود (في كثير من الأحيان دون مناقصة)، وصادق على المخططات، وضبط مواعيد البناء، وكان يزور سوتشي على نحو متكرر، سواء في الزيارات الرسمية أو الخاصة التي يقصد بها بيته الريفي في بوشاروف روشيا، أو إلى بيته الجديد الذي بنته غازبروم في الجبال. أكثر من أي مشروع عملاق آخر، كانت سوتشي ترمز إلى الثروة المتزايدة في البلاد ومكانتها الدولية، وانتصارها على الإرهاب والانفصال في شمال القفقاز المضطرب، الذي من فوق تلاله الجبلية هناك ستنطلق المباريات.

كانت لدورة الألعاب الأولمبية بالنسبة إلى بوتين هدف يتجاوز حدود السياسة، وأعرب عن اعتقاده بأن تكون المسكِّن لهذا البلد الذي عانى كثيرًا خلال العقود السابقة، وقد قال ذات مرة لمجموعة من الصحفيين الأجانب: «بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وبعد الظلام، وبعدَ- دعونا نكون صادقين- الأحداثِ الدامية في القفقاز، أصبح الموقف العام في روسيا

سلبيًّا للغاية ويدعو إلى التشاؤم، علينا أن نتصرف جميعًا بهدوء، وندرك أننا نستطيع أن ننجز مشاريع على نطاق واسع، وفي الوقت المحدد، وبجودة عالية، لا أقصد بالمشاريع فقط الدفاع القوي المحتمل، وإنما أيضًا التطور في المجال الإنساني، ومن ضمنه تحقيق إنجازات كبرى في الرياضة». وتحدث عن (الألعاب الأولمبية)، قائلًا إنها سترفع من «معنويات الأمة».

حتى نقاد بوتين اعترفوا بأهمية هذا المسعى، وإن لم يتفقوا معه كاملًا؛ فقسطنطين ريمتشكوف، الناشر ورئيس تحرير صحيفة **نيزافيسيمايا غازيتا المستقلة**، قارن إعمار سوتشي ببناء سان بطرسبورغ القيصرية في القرن الثامن عشر من قبل بيتر الرهيب، لا لكي تحل محل موسكو عاصمة للبلاد، وإنما لخروج البلاد من حالة التخلف؛ قال: «لقد تعلمنا في المدرسة كيف بنيت المدينة على العظام، وكم الذين تمتموا وهم يلتقطون أنفاسهم، وكم الذين كان عليهم أن يحلقوا لحاهم، وكم حزنت موسكو لأن بطرسبورغ أنشئت في مكان متعفن ومليء بالمستنقعات»، وأضاف: «هنا، بالنسبة إلى بوتين، بطرسبورغ تخصه. انظروا كيف بنى سوتشي في كراسنودار! ستمر خمسون عامًا أو ستون- لا أدري- حتى يسموها بعد ذلك بوتينغراد»[2].

كما هو حال الصناعات الإستراتيجية في البلاد، فقد وجَّه بوتين المشاريع الكبرى إلى الناس الذين يثق بهم أو يسيطر عليهم ليجعلهم أكثر ثراء، ولن يتسامح مع أية معارضة، وأي تأخير؛ حتى إنه بعد أن غادر الصحفيون وبخ منسوبيه المجتمعين خلال جولة تفقدية غير متاحة للتصوير في عام 2012م، قائلًا: «سأخبركم عن الإخفاقات التي ستنتج من عدم التزامكم بالمواعيد النهائية. لا أريد أن أُخيف أحدًا، لكن سأتحدث معكم لأنكم الناس الذين عرفتهم منذ سنوات عديدة».

كان البناء لا يزال يعاني من التأخير والكوارث، والفضيحة: تجاوزات في التكاليف، والحوادث، والسرقة، والفساد، وسوء المعاملة. في عام 2009م دمرت عاصفة شتوية قوية ميناء الشحن الذي أشيد لتفريغ مواد البناء، إضافة إلى آلاف الأمتار من الأسوار المانعة

التي تحيط بالموقع، ومن ثم فقد ترتب على بوتين أن يفصل ثلاثة مديرين على التوالي من الشركة المقاولة الرئيسة أوليمبستوروي قبل أن يعلق عمل الرابع.

تدفق عشرات الآلاف من العمال الوافدين الذين يتقاضون أجورًا زهيدة من مولدافيا وأوكرانيا وآسيا الوسطى، وهو ما أثار استياء الروس في المنطقة، وقد أسيء معاملة كثيرين منهم بفظاعة، إذ كانوا يتقاضون مبالغ ضئيلة، وتُسلب بعض أجورهم، ويُرحَّلون إلى بلدانهم، فضلًا عن موت العشرات في الحوادث[3].

بوتين يريد أولمبيادًا تكون رمزًا لروسيا وقد كانت. وكان كل مشروع ابتلي بالفساد يزيد التكاليف إلى أرقام خيالية بحيث أصبح من الصعب تجاهلها، أو إخفاؤها. في عام 2013م، وفي وقت مبكر، وجِّهت تهمة لديمتري كوزاك في سوتشي، وهو المساعد المقرب لبوتين، ويشغل اليوم نائب رئيس الوزراء، انزلقت تلك التهمة إلى تصريحات علنية بأن تكلفة تجهيز سوتشي ارتفع من 12 مليار دولار التي وعد بها بوتين اللجنة الأولمبية الدولية إلى 51 مليار دولار، وهو رقم مذهل؛ فكانت الألعابَ الأولمبية الأكثر نفقة على الإطلاق، فهي أكثر من سبعة أضعاف المبلغ الذي أنفقته فانكوفر لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في عام 2010م، وأكثر مما صرفته بكين لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الصيفية، وهي أكبر من ذلك بكثير، في عام 2008م. كان الرقم له حساسيته من الناحية السياسية في بلد فيه الاقتصاد لا يزال في حالة صراع، حتى إن أوامرَ صدرت لكوزاك ووزراء آخرين بعدم ذكر هذا الرقم مرة أخرى. هذا التبذير أثار السخط؛ فقد قدرت النسخة الروسية من مجلة إسكواير (الكياسة) أن ما أنفق على مهندسي الجبال الذين تولوا شق الطريق السريع المشترك والسكك الحديدية يمكن أن يعبد الطريق بسنتيمتر من الكافيار الأسود، وست سنتيمترات من الترفلز الأسود، وباثنين وعشرين سنتيمترًا من كبد الإوز، من بين غيرها من الكماليات[4].

عزا المسؤولون المعنيون ارتفاع النفقات الهائل إلى الظروف الجيولوجية الصعبة، أو مطالب اللجنة الأولمبية الدولية، لكن عمليًّا كانت نفقة كل مشروع أكثر بكثير من نفقة

المشاريع المماثلة التي بنيت في أماكن أخرى، وصدرت تقارير واسعة الانتشار بأن المقاولين ضخموا أسعارهم على كل صعيد لدفع رشا لمسؤولين، بحسب ادعاء فاليري موروزوف في عام 2010م، وخط الأنابيب الذي نفذته شركة أركادي روتنبرغ تحت البحر الأسود لتزويد الألعاب بالطاقة كلَّف أكثر من 5 ملايين دولار للكيلومتر الواحد، مقارنة بـ 4 ملايين دولار لخط أنابيب نورد ستريم في بحر البلطيق (الذي تزيد تكلفته مرات عديدة على متوسط الكلف الأوروبية)[5].

أطلق بوريس نيمتسوف على سوتشي اسم (مهرجان الفساد)، في يونيو/حزيران 2013 في أحدث تقرير له حول الفساد في عهد بوتين، مقدرًا قيمة الهدر بنصف الـ 51 مليار دولار، أو أن هذا النصف قد سرِق. واعترف مسؤولون روس أن مبالغ هائلة قد فُقدت، فقد أشار ديوان التدقيق في تقاريره إلى أن ما قيمته 500 مليون دولار أنفِقت ولا يُعرف مصيرها، وقد أخفى الديوان تقاريره الربعيَّة على الفور، وعدَّها من أسرار الدولة، ولم توجه أية تهمة جنائية بتاتًا، وبالتأكيد ليست ضد أي من حلفاء بوتين، الذين أصبحوا من كبار الأثرياء من الأولمبياد.

إن ارتفاع النفقات، وفرضية سرقة جزء كبير من الأموال، جعلت كثيرين يشككون في جدوى انعقاد دورة الألعاب الأولمبية. كان رد الفعل عنيفًا من قبل عدد من المدن المضيفة ذات الخبرة، لكن في روسيا كانت تأتي النفقات في وقت مشؤوم؛ فما زال الاقتصاد الروسي يعتمد اعتمادًا كبيرًا على الموارد الطبيعية، وبعد أن خرج من أسوأ ما في الأزمة الاقتصادية، توقف مرة أخرى؛ فقد تباطأ النمو من 3 في المئة عام 2012م إلى أكثر بقليل من 1 في المئة في عام 2013، والطفرة الاستهلاكية التي غذتها أسعار النفط لم تترجم إلى خدمات حكومية أفضل.

انخفضت شعبية بوتين- وهو قياس لا يمكن اعتماده بدقة بسبب سيطرة الدولة على وسائل الإعلام- في عام 2013 إلى أدنى مستوى يسجله منذ أن أصبح رئيسًا لأول مرة في عام

2000م، ووفقًا لتقرير إحدى الوكالات فقد ارتفعت شعبية بوتين في الشهر الذي تلا الحرب في جورجيا، حتى وصلت إلى 88 بالمئة، لكن بدأت تتعثر اليوم لتنخفض إلى 60 بالمئة[6]. وقليل ممن استطلعت آراؤهم موافقون على توجهات البلاد، أو على سياسات الرئيس، وبالتأكيد ليسوا موافقين على البيروقراطية الجشعة وغير الفعالة التي يبدو أنها عصيَّة حتى المراسيم بل وعلى بوتين.

في ذلك اليوم من شهر فبراير/شباط، وعلى سفوح كراسنايا بوليانا، كان بوتين يغلي من الإحباط في أحدث جولة تفقدية له في الأماكن التي تصارع لتكون جاهزة في الموعد المحدد. وفي هذه الجولات- كما قال رئيس بلدية باخوموف- كان بوتين نادرًا ما يثني على ما أنجز من أعمال؛ كان الناظر الذي وضع التوقعات ثم غضب لعدم الوفاء بها. تحدث باخوموف عن هذه اللقاءات بشيء من الرعب من قوة إرادة بوتين، فقد أصبح بوتين عازمًا اليوم على إبداء مشهد عام لاستيائه؛ فارتدى معطفًا أسود، ووقف وسط مجموعة من كبار مساعديه في مركز التزلج الذي أنجز حديثًا. وكان رئيس اللجنة المنظمة لسوتشي، ديمتري شيرني شينكو، يشرح ترتيبات الجلوس عندما حوَّل بوتين الكلام إلى مرفق آخر على نحو غير متوقع، وهو القفز على الثلج، الذي كاد يكون أسوأ سمعة من بين المرافق الأخرى التي تعرضت للهدر والتأخير.

أشرف أحمد بلالوف على المشروع الذي يطلق عليه غورنايا كاروسيل (جبل الكاروسيل)، وهو نائب رئيس اللجنة الأولمبية الروسية الذي يمتلك الأرض التي يقع عليها المشروع، وله أسهم في الشركة المتعاقَد معها لتنفيذ البناء، وقد باع الأسهم جميعها لأخيه. كان بلالوف رجل أعمال من داغستان وعمل في مجلس الدوما، وكان مقربًا من ديمتري ميدفيديف وفريقه الاستشاري، وعيِّن في اللجنة الأولمبية خلال رئاسة ميدفيديف، إضافة إلى المشروع الذي كان يأمل ميدفيديف أن يعيد تطوير منطقة شمال القفقاز من خلال بناء سلسلة من منتجعات التزلج على الجليد، وبناء منتجع في الشيشان، بوصفه وسيلة لترويض

آخر فلول التمرد في المنطقة؛ بإيجاد فرص اقتصادية لهم. تعرقل مشروع القفز على الثلج لسوء الموقع، وضبابية التصميم، وتقنيات البناء التي- بحسب دعاة البيئة- تسببت في انزلاق الأراضي في عام 2012م وطمرت كامل الموقع تقريبًا. الجدران الاستنادية الجديدة التي تُبْنى كانت مكلفة، فضلًا عن كلفة الطريق المؤدي إلى الموقع الذي لم يلحظ في العقد الأصلي. ميزانية المشروع التي بدأت بـ 40 مليون دولار تضخمت إلى أكثر من 260 مليون دولار، وعلى الرغم من أنه لم يبق إلى عام واحد لانطلاق الألعاب، فلا يزال الموقع موحلًا، ولم يتم الانتهاء من البناء، وقد تناثرت فيه المواد والركام.

أعضاء الوفد المرافق لبوتين بدا عليهم عدم الارتياح، وبدا أن تشيرنيشينكو لا يعرف كيف سيردُّ على استفسارات بوتين عن التأخير. تفرَّس بوتين الرجال من حوله، حتى تقدم ديمتري كوزاك إلى الأمام للشرح، من خلال استجواب بوتين له تبين أن المشروع متأخر عامين عن موعده المحدد، فطلب بوتين أن يعرف من المسؤول، وأجاب كوزاك: «الرفيق بلالوف»، في حين هرع الوفد المرافق بعصبية للالتفاف حوله، «وماذا يفعل كل هذه الأيام؟»، تلعثم كوزاك، وادعى أنه لم يكن يعلم.

التفت بوتين وحدَّق في الآخرين، فقال أحدهم إنه يدير اليوم شركة شمال القفقاز للمنتجعات، وعضو أيضًا في اللجنة الأولمبية الروسية، التي على رأسها ألكسندر جوكوف، الذي يقف أيضًا بينهم.

> سأله: «إذًا هو نائبك، أليس كذلك؟»، كان جوكوف يهز برأسه فقط في حين يضغط عليه بوتين بلا هوادة. «وهل نائب رئيس اللجنة الأولمبية في البلاد يشارك في هذا النوع من البناء؟».
>
> تدخل أحدهم من الخلف قائلًا: «يملك شركة بناء من نوع ما»، فالتفت بوتين مرة أخرى إلى كوزاك، حتى بدا كأنه شاهد متردد أمام المدعي العام.
>
> سأل بوتين كوزاك: «هل هناك زيادات في نفقات بناء المنشأة؟».

طأطأ رأسه، وكان على ما يبدو غير مستعد لهذا الاستجواب، أو ربما مجرد حالة عصبية ألمت به، ثم فصَّل النفقات عمومًا ومصادر التمويل، فألح بوتين على الأرقام الدقيقة، وعندما قدمها كوزاك كررها بوتين بقرف.

«حسنًا فعلتم يا شباب!»، قالها بسخرية باردة جدًّا، وهذا بلا ريب سيأخذ مكانًا بارزًا في التلفاز الحكومي. «دعونا نتحرك»، والتفت وتابع سيره.

في اليوم التالي بناء على أوامر بوتين أقيل بلالوف من جميع مناصبه، وبدأ سلسلة من التحقيقات في عمله في منتجعات شمال القفقاز، ومن ضمنها نفقاته الضخمة في السفر إلى دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في لندن في عام 2012م. هرب بلالوف وشقيقه ماغومد بسرعة من البلاد، وظهر مدة قصيرة في أبريل/نيسان في عيادة في مدينة بادن الألمانية، حيث قال إن مستويات الزئبق مرتفعة في دمه، ويشتبه أنه سُمم عمدًا، وقد زعم الأطباء في وقت لاحق أن السم في جسده هو الزرنيخ والموليبدينوم[7]. انتقل الشقيقان بعد ذلك إلى لندن، في حين عهد بوتين بمهمة استكمال منشأة القفز على الثلج إلى سبيربنك، برئاسة جيرمان جريف.

بوتين عرف جريف منذ التسعينيات، وعلى الرغم من انتقاداته غير المباشرة والمتقطعة لسياسات بوتين (مثل الإدلاء بشهادته في محاكمة خودوركوفسكي، على سبيل المثال)، فإن بوتين كان يثق بأنه سينجز المهمة الموكلة إليه.

لم يكن مشروع القفز على الثلج هو المشروع الوحيد الذي تأخر تنفيذه وزاد عن الميزانية المرصودة له، وقد شكك بعضهم في أن بوتين ركز على هذا المشروع خاصة لأن أصحابه كانوا مرتبطين بفريق ميدفيديف، ومن ثم فقد كانت القدرة على الإنفاق متوافرة[8]، ورأى آخرون أن ذلك هو دليل انقضاض بوتين على الفساد الذي يلتهم روسيا، أو على الأقل كَشفه، لينهي الانتقادات المتزايدة للمشروع الأولمبي، غير أن العدالة تبقى انتقائية؛ فلم تكن هناك أية ملاحقات قضائية ذات معنى، حتى في حالة بلالوف؛ فقد استشرى الفساد وأصبح ذا

طابع مؤسسي، وهذا ما جعل منه أداة للاختيار والإكراه. أي شخص يمكن أن يحاكم عند الضرورة، لأن الجميع متواطئون تقريبًا، وحتى لو أنهم ليسوا كذلك فيمكن أن توجه لهم التهم بأي حال من الأحوال؛ فخطر الفساد حام على رؤوس الجميع، ومن ثم روَّض الجميع.

في قضية بلالوف كان قلق بوتين على حلمه الأولمبي أقل من اهتمامه بمواجهة الفساد، ومن ثم أرسل تحذيرًا عامًّا إلى أولئك المشاركين في الحلم بوجوب الانتهاء في الوقت المحدد. عندما زار مركز القفز على الثلج مرة أخرى في ديسمبر/كانون الأول، وهذه المرة كان جريف ضمن الحضور، كان قد انتهى، على الرغم من أنه كان- في نهاية المطاف- بخسارة كبيرة لسبربينك وبحدها الأدنى[9].

في 23 يونيو/حزيران 2013م هبطت طائرة الإيرفلوت في مطار موسكو قادمة من هونج كونج، تحمل ما يمكن أن يحمل بوتين على أن يقول ساخرًا: «يا لها من هدية لنا بعيد الميلاد!»، على متن الطائرة كان إدوارد سنودن، المقاول الشاب المصاب بخيبة أمل كبيرة؛ المقاول في وكالة الأمن القومي الذي سلَّم صحيفة **الجارديان والواشنطن بوست** عشرات الآلاف من الوثائق السرية للغاية، التي تشرح بالتفصيل المراقبة الأمريكية الواسعة للهواتف وشبكات الحواسيب، وغالبًا بالتعاون مع حلفائها في كندا، وبريطانيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، ومن ثم كان مطلوبًا من قبل الولايات المتحدة بتهمة التجسس بعد الفضائح التي عرضها.

تسلل سنودن من هونج كونج بعد لقاء مع المسؤولين في القنصلية الروسية هناك، يصحبه محام لموقع ويكيليكس، وكان يأمل في تغيير الطائرة في موسكو ليتابع إلى كوبا، ولكن وزارة الخارجية سحبت جواز سفره في محاولة لقطع رحلته، وكانت لهذه الخطوة نتائج عكسية عندما غض الصينيون النظر عن ترحيله إلى موسكو. لدى وصوله إلى مطار شيريميتيفو تقطعت به السبل، وأصبح بلا أوراق رسمية، ونتيجة لذلك أمضى الأسابيع الخمسة المقبلة في فراغ دبلوماسي، وتحت المراقبة المباشرة من قبل جهاز الأمن الفيدرالي.

في واشنطن، ذعر المسؤولون، وطلبوا من روسيا وضعه على متن طائرة للولايات المتحدة، كانوا قلقين من الخطر الداهم الناتج عن تقاسم كل ما يعرفه سنودن مع الروس، وبدا بوتين متلذذًا بنكهة اغتنام الفرصة غير المتوقعة لإدانة الأمريكيين. أعلن بوتين أن سنودن لم يرتكب أية جريمة على الأراضي الروسية، وذلك خلال زيارة له إلى فنلندا بعد ذلك بيومين، معترفًا بوجود سنودن في صالة الانتظار في المطار. وقال: كان سنودن من المدافعين عن حقوق الإنسان، ومن الذين «ناضلوا من أجل حرية المعلومات، اسأل نفسك: أتحتاج إلى وضع هؤلاء الأشخاص في السجن أم لا؟»، وقال إنه لا يريد المتاعب لنفسه كثيرًا بتفاصيل قضية سنودن، وتركها لمدير جهاز الأمن الفيدرالي، ألكسندر بورتنيكوف، الزميل القديم الذي التحق في العام نفسه الذي التحق فيه بوتين في الـ(كي جي بي) في لينينجراد في عام 1975م. «على أي حال، أنا شخصيًّا أفضل عدم الخوض في مثل هذه الأمور، لأنه كمن يجز شعر خنزير صغير: كثير من الصراخ وقليل من الشعر».

بعد سنوات من تلقيه الانتقادات من الولايات المتحدة بسبب سجله في مجال الحقوق، كانت السخرية لطيفة. أشادت وسائل الإعلام الروسية بسنودن بصفته بطلًا، وقارنته بأندريه ساخاروف، فقد كانت اعترافاته ضد الولايات المتحدة فيها من النبل كما اعترافات ساخاروف ضد الاتحاد السوفييتي. أمضى ثلاثة أسابيع منسيًّا في منطقة ترانزيت محددة، وقد سمح الكرملين له بمنبر للقاء المحامين وقيادات منظمات حقوق الإنسان، ومن بينهم ثلاثة من هيومن رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة الشفافية الدولية، الذين هاجم المحققون الروس مكاتبهم في جزء من مطاردة (العملاء الأجانب).

قرأ سنودن بيانًا مكتوبًا قائلًا إنه سيسعى إلى الحصول على اللجوء السياسي بدلًا من العودة إلى بلد ينتهك قوانينه بنفسه، قال: «قبل أكثر من شهر تقريبًا كان لدي عائلة، ومنزل في الجنة؛ عشت في راحة كبيرة، وكان لدي القدرة– من دون أي مذكرة بحث أو استيلاء– أن أقرأ اتصالات أي شخص ومتى أشاء، تلك هي القدرة على تغيير مصائر الناس»[10].

كانت ملحمة أوديسة سنودن انقلابًا دبلوماسيًّا واستخباراتيًّا بالنسبة إلى بوتين، على الرغم من أن مدى تعاون سنودن مع وكالات الاستخبارات الروسية ظل مجهولًا، وكان متنازعًا عليه من قبل أنصاره، فإن FSB كانت تراقب من كثب هذه (الهدية) غير المتوقعة. «هو في الواقع محاط من قبل هؤلاء الناس»، قال أندريه سولداتوف، الصحفي الذي كتب كثيرًا عن وكالات الاستخبارات الروسية، واشتكى في وقت لاحق أن سنودن لم يستطع أو لا يريد أن يلتقي الصحفيين الروس المستقلين مثله[11].

قضية سنودن أكدت شكوى بوتين من الهيمنة والخيانة الأمريكية، ونفاق الإدارات الأمريكية الثلاث التي تعامل معها. ما كشف عنه سنودن شوه سمعة الرئيس أوباما، وانتقص من سياسته الخارجية، ووتر العلاقات حتى مع حلفاء له مثل ألمانيا، عندما علمت المستشارة أنجيلا ميركل أن المحادثات الهاتفية الخاصة بها سُجِّلت، وخففت أيضًا من تقارير الصحفيين، مثل سولداتوف وزوجته إيرينا بوروغان، حول المراقبة الروسية الواسعة لمواطنيها من خلال برنامج يسمى SORM، أو نظام التدابير التحقيقية الفعالة؛ فقد وصفوا SORM بـ«شبكة جورج أورويل التي تنتهك الخصوصية والقدرة على استخدام الاتصالات لمعارضة الحكومة»[12].

وسَّع الجهد من وصول أجهزة المخابرات إلى ما هو أعمق بعيدًا في الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، التي كانت حتى وقت قريب خالية من التدخل الحكومي، وتضاعف عدد الاعتراضات منذ عام 2007م، والتجسس على اتصالات زعماء المعارضة مثل بوريس نيمتسوف وألكسي نافالني، وتسريبها لوكالات الأنباء والمنظمات الصديقة للكرملين؛ فنظرًا إلى إفصاحات سنودن، كيف للولايات المتحدة أن تعترض على حالة المراقبة المتنامية لدى روسيا؟

بات من المؤكد أن إدارة الهجرة في روسيا قد منحت حق اللجوء المؤقت لسنودن في 1 أغسطس/آب، وبموافقة بوتين، وبهذا يصرح له بالعيش، وحتى العمل في البلد؛ فخرج

سنودن من بوابة الترانزيت، وبدأ حياة جديدة في ظلال موسكو. وكان هذا القرار الذي علم به البيت الأبيض من وسائل الإعلام قد دق المسمار الأخير في (إعادة ضبط) العلاقات التي تابعها أوباما مع ميدفيديف، والتي اندثرت منذ عودة بوتين إلى الرئاسة.

بعد أسبوع ألغى أوباما خططًا لعقد اجتماع منفصل مع بوتين قبل انعقاد قمة العشرين G20 التي كان من المقرر عقدها في بطرسبورغ في سبتمبر/أيلول، فقد ازداد إحباط أوباما من بوتين، وأعلن في مؤتمر صحفي أنه لا جدوى من لقاء بوتين اليوم لبحث خلافاتهما بشأن السياسات ووجهات النظر العالمية؛ من النزاعات حول الدفاع الصاروخي، وحول الاضطرابات في الشرق الأوسط، والحملة على المعارضة في روسيا، وحظر التبني الأمريكي، وتمرير قانون جديد يمنع توزيع (دعاية مثليي الجنس) على الأطفال، فضلًا عن تصاعد الموجة المضادة لأمريكا في التلفاز الرسمي وفي التصريحات الرسمية. وصف أوباما بوتين بالمتجهم والمتغطرس، وهذا التهكم أغضب بوتين، بحسب أحد مساعديه. قال أوباما: «لقد أصابه هذا النوع من السأم، كان كما لو أنه طفل ملول في المقاعد الخلفية للصف الدراسي». كان مساعدو أوباما قد أقنعوا أنفسهم بأن بوتين يتوق للاحترام الذي تستلزمه تلك الاجتماعات بين زعيمين دوليين، لكن بوتين لم يهتم بالقدر الذي كانوا يفترضونه، وأعلن المتحدث باسم بوتين، ديمتري بيسكوف: «لا يمكنك أن ترقص التانغو وحدك»[13].

في غضون أسابيع، أثبتت الأحداث في سوريا أن بيسكوف على حق؛ ففي أغسطس/آب انهال وابل من الصواريخ المحملة بغاز الأعصاب على إحدى ضواحي العاصمة السورية دمشق، وهو ما أسفر عن مقتل 1400 شخص، وكان أوباما قد حذر قبل عامين من أن استخدام الأسلحة الكيميائية من قبل الحكومة السورية سيعد تجاوزًا لـ(خط الأحمر)، ويمكن أن يدفع لرد عسكري أمريكي، وخلال أسبوع وضعت وزارة الدفاع الأمريكية خططًا لضربة صاروخية انتقامية ضد الجيش السوري. لم يقل بوتين شيئًا علنًا، ولكن سارع المسؤولون الروس إلى تعكير النقاش، ليلقوا ظلالًا من الشك على أدلة بأن قوات الرئيس السوري بشار الأسد كانت هي المسؤولة، وقال بوتين لرئيس الوزراء البريطاني، ديفيد كاميرون، إنه لا يوجد أي دليل

«على أن هجومًا كيميائيًّا قد وقع»، وإذا كان الأمر كذلك فمن الذين نفذوه؟ كان بوتين لا يُكِنُّ سوى قليلٍ من التعاطف الشخصي مع الأسد، ولكن ما يعارضه بشدة هو هجوم أمريكي آخر في الشرق الأوسط، وكان مقتنعًا منذ البداية أن الولايات المتحدة تنتظر أية ذريعة لمهاجمة الأسد وإسقاطه، وكان أكثر تصميمًا على الحل من أوباما، الذي قرر معاقبة سوريا لاستخدامها الأسلحة الكيميائية الأكثر فتكًا منذ الحرب بين إيران والعراق في الثمانينيات.

مع اقتراب الضربات الجوية الأمريكية التي لم يبق على تنفيذها سوى ساعات فقط، عكس أوباما الموقف فجأة؛ قائلًا إنه سيسعى إلى الحصول على تفويض من الكونغرس قبل شن الهجوم، وإن التحالف الذي يأمل بتأسيسه لم ينجح حتى مع الحلفاء المقربين منه مثل بريطانيا وألمانيا، اللتين رفضتا التصديق على الضربة. وفي الوقت الذي اجتمع فيه قادة دول مجموعة العشرين في بطرسبورغ في سبتمبر/أيلول، كان موقف أوباما الدولي مضطربًا اضطراب (الخط الأحمر) الذي حدده لاستخدام الأسلحة الكيميائية. كان بوتين معزولًا لدفاعه عن القمع الوحشي للأسد، ولكن اليوم انضم إليه قادة آخرون يصرون على أن أي تدخل يتطلب تفويضًا من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، حيث احتفظ بوتين بميزة حق النقض الروسي. حتى البابا فرنسيس أرسل رسالة إلى بوتين يحث القادة «على وضع الحل العسكري غير المجدي جانبًا»[14].

بعد شهر من إلغاء خطة اللقاء المنفصل مع بوتين، سحبه أوباما جانبًا في قصر قسطنطين خلال قمة مجموعة العشرين G20، وجلس الاثنان على كرسيين يرافقهما فقط المترجمون، وهناك قدَّم بوتين اقتراحًا لإجبار سوريا على التخلص من المخزونات الكيميائية بإشراف التفتيش الدولي، ووافق أوباما، وعندما أصبحت أعلنت الفكرة على الملأ لم يبق سوى قليلٍ من التأييد لأي عمل عسكري تقوده الولايات المتحدة.

بوتين الذي كان مذمومًا لثقل يده بعد إعادة انتخابه، أصبح اليوم بطلًا تفادى التصعيد الكارثي المحتمل للحرب، وحتى عندما استمر أوباما في مساعيه للحصول على موافقة

الكونغرس لتنفيذ عمل عسكري محتمل، يهدف في جزء منه إلى مواصلة الضغط على حكومة الأسد لكي تمتثل للتفتيش؛ صاغ بوتين مقالًا نجحت شبكة العلاقات العامة الأمريكية في الكرملين (كيتشوم) بنشره في صحيفة نيويورك تايمز في 12 سبتمبر/أيلول، قال فيه إن الولايات المتحدة هي التي هددت النظام الدولي الذي أنشئ بعد الحرب الوطنية العظمى؛ وتدخلاتها في أفغانستان والعراق وليبيا أثبتت أنها «غير فعالة وغير مجدية»، وإن روسيا لا تريد حماية نظام الأسد بقدر ما تريد حماية القانون الدولي، ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فقط هو الوحيد الذي يفوض باستخدام القوة ضد دولة أخرى؛ فأي هجوم أمريكي على سوريا، أو أي شيء آخر- كما قال- «سيكون بمنزلة عمل عدائي». واختتم رافضًا ادعاء أوباما «بالاستثنائية الأمريكية»، التي تحدث عنها في خطاب متلفز لشرح قراره بعدم قصف سوريا في النهاية. وكتب بوتين: «أيًّا كانت الدوافع، فمن الخطورة القاتلة تشجيع الناس على أن يعدوا أنفسهم استثناء». وأنهى قائلًا: «نحن جميعًا مختلفون، ولكن عندما نطلب بركات الرب، فيجب ألا ننسى أن الله خلقنا متساوين»[15].

المقالة ونبرتها التعليمية، وتلميحها الذي لا يخفى إلى إعلان الاستقلال، أغضبت المسؤولين في واشنطن، وأشار عدد منهم إلى غطرسة روسيا في عدم سعيها إلى الحصول على تفويض في تدخلها في جورجيا عام 2008م، واستمرارها في تزويد جيش الأسد بالأسلحة التي تسمح بسحق الثوار، وتضمنت مقالة بوتين أيضًا الادعاء الذي لا أساس له بأن الثوار السوريين استخدموا على الأرجح أسلحة كيماوية، وسوف تستخدم هذه الأسلحة بعد ذلك على إسرائيل.

إذًا، قدمت مناورة بوتين لأوباما قشة العذر التي جعلت من شن الولايات أمرًا ليس سهلًا، فأوباما يواجه كذلك معارضة في الكونغرس. وبدأت قناة NTV تبث بوجوب منح الزعم بوتين جائزة نوبل لمساعيه في تفادي غارة جوية أمريكية. وفي الخطاب الروسي المسيطر عليه، بدا ذلك مستغربًا، ولكن موقف بوتين لاقى استحسانًا في الولايات المتحدة أيضًا، حتى وإن جاء معظمه من المحافظين الذين يسرهم رؤية أوباما كزعيم سقيم، مهزوم

على الساحة العالمية. بعد شهر وضعت مجلة فوربس بوتين في مرتبة الشخص الأكثر نفوذًا في العالم، متجاوزًا أوباما للمرة الأولى، ومع أن هذه التصنيفات لا معنى لها، فإن وسائل الإعلام الروسية كررتها مرارًا. كتب محررو مجلة **فوربس**: «لو شاهد أي منا المباراة الدولية للشطرنج حول سوريا، وما فعلته وكالة الأمن القومي (NSA) من تسريبات، فسيكون لديه فكرة واضحة عن الديناميات المتحولة للسلطة الفردية»[16]، ودعا المدون الأمريكي مات دردج بوتين بـ(زعيم العالم الحر).

لكن ثمة انتصار دبلوماسي أكبر حجمًا لبوتين على الطريق؛ هذه المرة في أوكرانيا؛ فبعد سنوات من المفاوضات التي بلغت ذروتها في خريف عام 2013م، أوشكت أوكرانيا على توقيع اتفاق شراكة مع الاتحاد الأوروبي، بمعاهدة تعمق العلاقات التجارية والسياسية بينهما.

كان رئيس أوكرانيا، فيكتور يانوكوفيتش، منذ انتخابه في عام 2010م، قد حافظ على علاقات وثيقة مع روسيا، وأبقى بلاده تدور في فلك روسيا، وحين بدأت شعبيته بالتلاشي قبل الانتخابات القادمة في عام 2015م، أحيا إمكانية تعزيز العلاقات مع أوروبا، وهو ما تدعمه المعارضة بقوة في البلاد، ودفع قدمًا بالإصلاحات السياسية التي كانت شرطًا لتوقيع الاتفاقية مع الاتحاد الأوروبي. وكان الأوروبيون يتفاوضون على اتفاقيات مشابهة مع مولدافيا وجورجيا وأرمينيا على أمل السماح لهم بالدخول إلى السوق الأوروبية المشتركة.

بالنسبة إلى الدبلوماسيين في عواصم أوروبا، فإن دمج هذه الاقتصادات، مع إمكانية الحصول على عضوية كاملة في المستقبل، يمكن أن يوسع على نحو مطرد الفضاء الأوروبي الآمن والمسالم، وهي الفكرة القديمة التي أصبحت مادة الإيمان في القرن الحادي والعشرين، ولكن بالنسبة إلى بوتين فإن توسُّع أوروبا لتشمل أوكرانيا يرتقي إلى مستوى الاعتداء على روسيا، الذي سيتبعه- في رأيه- مزيد من الاعتداءات من قبل حلف شمال الأطلسي. وكانت علاقات روسيا الخاصة بالاتحاد الأوروبي قد توقفت وعُرقلت بسبب شكوك عدد من الدول الأوروبية، وخاصة تلك التي كانت ذات مرة في فلك الاتحاد السوفييتي، حول

سياسات الطاقة وحقوق الإنسان، وقد أخفقت قمة يكاترينبورغ، في مايو/أيار، في التوصل إلى اتفاق يسمح بحرية السفر لمسؤولي الحكومة الروسية بغير تأشيرة دخول، وسط جدل حول جواز اعتماد (عقوبات ماجنيتسكي) الأمريكية في القارة.

كانت جهود بوتين الخاصة لجعل أوكرانيا متعلقة تعلقًا وثيقًا بروسيا، التي اقترحها لأول مرة ليونيد كوتشما عشية الثورة البرتقالية في عام 2004م، قد حققت تقدمًا طفيفًا، ومنعت الانقسامات السياسية الداخلية في أوكرانيا. وبعد عشر سنوات من رؤية بوتين للتجارة التي جوهرها إنشاء كتلة تجارية واقتصادية مع موسكو، تطورت إلى تجاوز حدود الاتفاقات الجمركية التقنية، بالتفاوض مع روسيا البيضاء وكازاخستان. وكان أحد الإعلانات السياسية الأولى التي أصدرها عام 2011م بعد إعلان عودته إلى الكرملين، هو إنشاء معاهدة أوسع لتوحيد الاقتصادات التي جنحت كثيرًا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد سماه بوتين بالاتحاد الأوراسي، مستثنيًا دول البلطيق الثلاث، المتخفِّيَة اليوم في الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي. وقد تصور بوتين الكتلة لا على أنها مجرد ثقل يوازي الاتحاد الأوروبي، وإنما إمبراطورية جديدة في حد ذاتها، إمبراطورية تجسر الجزء الأوروبي من روسيا والسهوب الشاسعة التي تمتد من البحر الأسود إلى آسيا الوسطى وسيبيريا.

كان الاتحاد الأوراسي أيديولوجية ترسخت بين بوتين والحاشية الداخلية المحيطة به، أيديولوجية افتقدت البراغماتية التي ميزت حكم بوتين حتى ذلك الحين. كانت الأوراسية في روسيا فلسفة محافظة جدًّا طمرتها تحت الأرض (أو في الخارج) الأيديولوجية الأممية للاتحاد السوفييتي، وقد عادت للظهور في عقد التسعينيات، لتمزج الأفكار الدينية المَلَكية في المنافي كما هو حال إيفان إليين، الفيلسوف الذي يقتطف بوتين من أقواله، مع النظريات الجيوسياسية التي جاء بها فلاسفة أمثال هالفورد ماكيندر، صاحب (نظرية هارتلاند) التي جعلت أوراسيا (منطقة محورية) في المعركة من أجل السيطرة على (الجزيرة العالمية)، وهي المساحات اليابسة الأوروبية والآسيوية والأفريقية. هذه الأفكار التي تصدرتها المقالات والكتب التي كتبها إستراتيجيون محافظون أمثال ألكسندر دوغين، انتشرت من هوامش

النقاشات الأكاديمية، وأصبحت أكثر بروزًا، وتداولها أقرب المقربين من بوتين، ونوقشت في وقت متأخر من الجلسات الليلية، وظهرت على نحو متزايد في التصريحات العلنية، ليس فقط لبوتين وإنما لمستشاريه الأكثر قوة.

تزامنت الجيوسياسيات هذه مع نشوء المحافظيَّة في السياسة المحلية التي تناصر وتحمي قيم الكنيسة الأرثوذكسية، وكذلك الإسلام، وتمخض عنها قوانين جديدة جعلت القدح والذم جريمة، وحظرت نشر (دعاية مثليي الجنس) للأطفال.

فلاديمير ياكونين، أحد المقربين من بوتين، رأى في الجهود الساعية لفرض القيم الثقافية الغربية جبهةً جديدة في صراع جيوسياسي تاريخي بين قوى البر والبحر مع روسيا (قوة المساحات الشاسعة من الأرض)، تدافع عن وجودها ضد الولايات المتحدة (القوة البحرية الجديدة)، وهذا يشبه كثيرًا نظرية ماكيندر. وقد وصف الهيمنة الأمريكية على الجغرافيا السياسية والمالية العالمية بأنها مؤامرة لقمع أي منافسين محتملين، وهو ما جعل الاتحاد الأوراسي- كما يعتقد- يمثل تهديدًا للغرب؛ «روسيا كانت وستظل منافسًا جيوسياسيًّا لمصالح الحضارة الأنجلوسكسونية»[17].

المفارقة في الأيديولوجيا الجديدة هي أن النخبة الروسية، وخاصة أولئك الذين يستطيعون تحمل تبعاتها، أصبحوا اليوم غربيين تمامًا، يقضون الإجازات ويمتلكون العقارات في الدول التي كانوا يشتمون قيمها، حتى ابن ياكونين عاش في لندن، وأطلق مدونة تسخر من ألكسي نافالني. «ألقى إيفانوفيتش ياكونين في حضن الغرب البغيض الذي يخلو من القيم الروحية، بعائلته، التي تعد أعز ما يملك، إذا ما استثنينا حبه لفلاديمير بوتين»[18].

في سبتمبر/أيلول، وبعد أن خرج من فوره منتصرًا انتصارًا دبلوماسيًّا بشأن الأسلحة الكيميائية السورية، وصف بوتين (دول اليورو الأطلسية) بالدول الخطيرة التي تبتعد على نحو خطير عن جذورها المسيحية؛ «إنهم يتنكرون للمبادئ الأخلاقية ولجميع الهويات التقليدية: القومية والثقافية والدينية، وحتى الجنسية. إنهم ينفذون سياسات تساوي بين

الأسر الكبيرة وبين الشراكات الجنسية، أو بين من يعتقد بالله وبين من يعتقد بالشيطان، وقد وصلت تجاوزات الصواب السياسي إلى النقطة التي يتحدث فيها الناس بجدية عن تسجيل الأحزاب السياسية التي تسعى إلى تشجيع ممارسة الجنس مع الأطفال»، والأسوأ من ذلك- قال بوتين- أن هذه الدول أرادت تصدير هذه الأفكار الخطيرة، فكانت «الطريق المباشر إلى الانحطاط والبدائية، وهو ما أدى إلى أزمة ديموغرافية وأخلاقية عميقة».

كانت أوكرانيا من أهم الدول التي أمل بوتين أن يضمها إلى الاتحاد الأوراسي؛ لعمق علاقاتها التاريخية والاجتماعية والدينية مع روسيا؛ فكثير من الأوكرانيين من ذوي الأصول الروسية انقطعوا- في رأي بوتين- عن وطنهم الأم في (أكبر كارثة جيوسياسية) في القرن العشرين، واليوم تحولت أوكرانيا نحو أحضان الاتحاد الأوروبي، وبتشجيع من الأوروبيين والأمريكيين، على حساب الاتحاد الأوراسي. وكان واضحًا تمامًا لبوتين أن هيلاري رودهام كلينتون، في ديسمبر/كانون الأول 2012م، حذرت من أن الاتحاد الأوراسي مجرد محاولة لإخضاع جيرانه في تحالف جديد شبيه بالاتحاد السوفييتي، «وعلينا أن نفكر في طرق فاعلة لإبطاء هذا الاتحاد أو منعه»[19].

أعطت مجموعة الاتحاد الأوروبي مهلة لأوكرانيا لكي تصادق على اتفاقية التجارة قبل القمة التي ستعقد في ليتوانيا في نوفمبر/تشرين الثاني، وكان بوتين قبل ذلك بشهور قد بذل جهودًا جبارة لإقناع أوكرانيا بالمقاومة؛ فقد زارها مرارًا كما كان يفعل قبل الثورة البرتقالية في عام 2004م، ولكي يسلط الضوء على الروابط الدينية التي تربط أوكرانيا بروسيا، حضر حفلًا في كييف يحيي ذكرى معمودية الأمير فلاديمير عام 988م، وكان ذلك في يوليو/تموز 2013م، قال بوتين: «نحن جميعًا هنا الورثة الروحيون لما حدث هنا قبل 1025م سنة»، قالها بوتين وقد ظهر مع يانوكوفيتش في دير الكهوف، أحد أقدس المواقع الأرثوذكسية. واستخدم الروافع الاقتصادية أيضًا؛ فبعد أسابيع من الذكرى، حظرت روسيا استيراد القطارات الأوكرانية، والحلوى التي تنتجها روشن، والحلويات التي يملكها أحد القلّة والوزير السابق بيترو بوروشينكو، الذي يفضل الاندماج الأوثق في أوروبا. وفي أغسطس/آب أوقفت روسيا

تقريبًا جميع البضائع التجارية عبر حدودها مع أوكرانيا من خلال التنفيذ الصارم للقواعد الجمركية للاتحاد بين روسيا وروسيا البيضاء وكازاخستان. كانت طريقة مبتذلة جدًّا في توصيل فكرة أن تحقيق المستقبل الاقتصادي لأوكرانيا سيكون أسهل بكثير إذا ما انضمت أوكرانيا إلى الاتحاد الروسي لا الأوروبي.

سافر مبعوث بوتين إلى أوكرانيا، و(المنافس) الرئاسي السابق، سيرجي جلازييف، إلى يالطا في سبتمبر/أيلول، وحذر في مؤتمر صحفي من أن احتضان أوروبا لأوكرانيا سيوصل إلى الانتحار، وقال متشائمًا: «إن التوقيع على هذه المعاهدة سيؤدي إلى اضطرابات سياسية واجتماعية»[20]، وزوَّد في وقت لاحق يانوكوفيتش بالترجمة الروسية لألف صفحة من اتفاق الاتحاد الأوروبي (الذي لم يترجمه الأوكرانيون على ما يبدو)، وحذره من أن اعتماده يعني أن روسيا سوف تضطر إلى إغلاق حدودها لتجنب تدفق السلع الأوروبية.

قيل إن بوتين كان يكره يانوكوفيتش، الذي يفرض قوته الجسدية ولكنه زعيم بلا مبادئ، وقد شعر أنه كان يخونه مع الأوروبيين، وقد اجتمع بوتين به في أواخر أكتوبر/تشرين الأول، ومرة أخرى في مطلع نوفمبر/تشرين الثاني، وأوضح له ببرود شديد أن أي اتفاق مع الاتحاد الأوروبي سيكلف أوكرانيا ثمنًا باهظًا، وهي الخسائر التي سبق أن أحست بها؛ لأن التمكين الجمركي سوف يتضاءل مقارنة بمليارات الدولارات التي ستخسرها أوكرانيا نتيجة الوجع الاقتصادي الذي ستعانيه البلاد من جرَّاء العوائق الجديدة على السوق الروسية والأسعار المرتفعة للغاز الطبيعي.

بعد آخر هذه الاجتماعات لاحظ الشركاء الأوروبيون في المفاوضات تغيُّرًا في سلوك يانوكوفيتش، فاشتبهوا أن يكون بوتين قد هدد بأكثر من الوجع الاقتصادي؛ بالكومبرومات التي لا يريدها معلنة على الملأ. نهاية يانوكوفيتش، من خلال الصفقات السرية التي أثرته وعائلته، والمقربين منه من رجال الأعمال، جعلته يشعر بالخطر. لم يكن ابتزازًا، كما أصرَّ أحد كبار مستشاري الكرملين في وقت لاحق، ولكنه التحليل الواعي لمدى عمق التشابك بين

اقتصاد البلدين. اليوم في لقاءاته مع الأوروبيين، أصرَّ يانوكوفيتش أن أوكرانيا سوف تخسر 160 مليار دولار في التجارة مع روسيا وارتفاع أسعار الطاقة، وهو رقم غير منطقي؛ إذ إنه يساوي تقريبًا الناتج المحلي الإجمالي للبلاد[21]، وكانت آخر حيلة يائسة دفع بها يانوكوفيتش لإقناع الأوروبيين لتحلية عرضهم، لكن الأوروبيين رفضوا، فكان لبوتين أن انتصر.

في 21 نوفمبر/تشرين الثاني، قبل أسبوع من القمة في ليتوانيا، صَعقت حكومة يانوكوفيتش نظراءها الأوروبيين، وكثيرين في أوكرانيا، بإعلان أن أوكرانيا سوف تدعم الاتفاق، وهو انقلاب على محادثات مكثفة استمرت شهورًا. أثار إعلان يانوكوفيتش الغضب لدى الأوكرانيين الذين يتصورون علاقات أوثق مع أوروبا بصفتها التطور الحتمي من الماضي السوفييتي لبلادهم. احتشد في تلك الليلة نحو ألف متظاهر في ساحة كييف الرئيسة، ميدان الاستقلال، وأصدر يوليا تيموشينكو بيانًا يحث فيه الناس على الرد؛ وذلك بالنزول إلى الشوارع «لأنه انقلاب»، وفي اليوم التالي ازدادوا بضعة آلاف[22]، وبنهاية الأسبوع ازدادت الحشود ونصبت الخيام، تمامًا كما فعلوا بعد الانتخابات المزورة في عام 2004م؛ لكن هذه المرة لم تكن الأعلام التي رفرفت في الشوارع برتقالية اللون، وإنما زرقاء مع دائرة من النجوم الصفراء؛ رمزًا لشعار الاتحاد الأوروبي. أطلقوا على احتجاجهم اسم (الميدان الأوروبي)، وقد عكس الاحتجاج تنازع الأفكار بين ستة وأربعين مليون شخص من سكان البلاد. المتظاهرون سرعان ما صبُّوا غضبهم على تمثال لينين الذي ما زال قائمًا في نهاية الطريق الرئيسة في كييف. لم يكن لينين مجرد مفارقة تاريخية؛ كان مظهرًا للهيمنة المتبقية من موسكو.

لم يفعل يانوكوفيتش كثيرًا لنزع فتيل الاحتجاجات في البداية، قانعًا بالانتظار حتى بداية فصل الشتاء. وفي وقت مبكر من ديسمبر/كانون الأول، في الوقت الذي تكثفت فيه الاحتجاجات، سافر إلى الصين ليروج الصفقات التجارية التي تعبِّر عن أمله في تهدئة الغضب بسبب رفض الشراكة الاقتصادية مع الأوروبيين. وتوقف في سوتشي للقاء بوتين في طريق العودة، وهناك حصل على صفقة سرية لم تعلن حتى 17 ديسمبر/كانون الأول،

عندما ظهرا مرة أخرى معًا في الكرملين، فأعلن بوتين أن روسيا ستمنح أوكرانيا تدفقات نقدية بقيمة 15 مليار دولار من خلال اختيار صندوق الثروة الوطنية الروسي لشراء السندات الأوكرانية، وخفضت غازبروم الغاز الطبيعي من 400 دولار لكل متر مكعب إلى 268 دولارًا. وأكد بوتين ماكرًا أنه لم يصرَّ على انضمام أوكرانيا إلى الاتحاد الأوراسي شرطًا، مع أن عديدين يشتبهون بأنه ويانوكوفيتش اتفقا على أن يكون هذا في وقت لاحق، ما إن يهدأ الغضب الشعبي.

قدم بوتين مذكرة خاصة من خططه للاحتفال بالذكرى السنوية السبعين لتحرير سيفاستوبول، مدينة الميناء الساحلية في شبه جزيرة القرم، من النازيين في عام 1944م، بحيث تجري هذه الاحتفالات في 9 مايو/أيار 2014م، مع أن الظروف لا يمكن أن يتوقعها أحد في شتاء ذلك اليوم في موسكو. بوتين يبدو مرة أخرى قد هزم خصومه، وحقق نصرًا دبلوماسيًّا على الأوروبيين.

قبل دورة الألعاب الأولمبية سعى بوتين إلى التحلي بالشهامة في بلده؛ فبعد عام من القمع الشديد والقوانين القمعية الجديدة، أشار الكرملين إلى ذوبان الجليد في صيف 2013م، وفي يوليو/تموز أدانت المحكمة في كيروف نافالني بتهم الاختلاس، ولكن بعد ليلة مشوشة شملت احتجاجات ومشاورات محمومة بين الكرملين والمحكمة، أطلق أسره مع وقف التنفيذ فقط، ثم سمح الكرملين لنافالني أن يؤسس حملة، كانت خلسة في البداية لكن سرعان ما أعلنها بصفته مرشحًا في الانتخابات البلدية في موسكو في أغسطس/آب ضد الرئيس الحالي، سيرجي سوبيانين، وكانت هي الحملة الأولى لهذا المنصب منذ أن ألغى بوتين انتخابات قادة المناطق بعد بيسلان في عام 2004م. وجاء سوبيانين، بعد إقالة يوري لوجكوف في عام 2010م، على أمل أن يقيم شرعية سياسية خاصة به، واستقال في وقت مبكر ليفوز في مكتب تعهَّد أن تكون فيه انتخابات حرة ونزيهة. وعلى الرغم من المضايقات المألوفة اليوم من منافسيه، واستخدام الموارد الحكومية نيابة عن الرئيس الحالي، كانت الانتخابات قد كشفت بكل تأكيد أنها من أكثر الانتخابات عدلًا في روسيا لأكثر من عقد من الزمان، وهذا ما

أشار إليه حتى منتقدو بوتين. أطلق نافالني حملته الانتخابية على غرار ما شاهده في مسلسل تلفازي أمريكي (السلك)؛ حيث كان يلقي الخطب الانتخابية في الأماكن العامة، في جميع أنحاء المدينة بطريقة قلما استخدمها المرشحون في روسيا من أجل الأصوات.

فبعد سنتين من تناقص الاحتجاجات الشعبية التي لم تتمكن من إضعاف قبضة بوتين على السلطة، بدا اليوم واثقًا بما يكفي لتخفيف بعض الضغوط التي فرضها لخنق المعارضة. وعند فرز الأصوات في سباق العمدة فاز سوبيانين، لكن حصل نافالني على 27 في المئة من الأصوات، وهي نتائج محترمة كانت أعلى بكثير مما توقعته استطلاعات الرأي، وهكذا جعل من نفسه أبرز زعيم معارض في البلاد، غير أنه لم يكن الشخص الذي يمكن أن يمثل تهديدًا قويًّا أو وشيكًا على السيطرة السياسية لبوتين.

استمر ذوبان الجليد في ديسمبر/كانون الأول، عندما صادق مجلس الدوما- بتوجيه من بوتين- على قانون يمنح العفو لآلاف السجناء. وقد أدين كثيرون منهم بتهمة ارتكاب (جرائم) اقتصادية تفرض عليهم تجريدهم من الممتلكات أو الشركات، وضمت قائمة المشمولين بالعفو مشاهير السجناء السياسيين، كذلك اثنتين من أعضاء بازي رايوت، ناديجدا تولوكونيكوفا وماريا أليوخينا، سُرِّحتا قبل أشهر قليلة من انتهاء مدة أحكامهن، كذلك سُرِّح عدد قليل من المتهمين في احتجاجات ميدان بولوتنايا، ثم عفت المحاكم عن ثلاثين من نشطاء السلام الأخضر الدولية الذين اعتقلوا في سبتمبر/أيلول 2013م بعد أن احتجت سفينتهم (آركتك سنرايز) في أعالي البحار ضد أول منصة للنفط البحري الروسي في بحر كارا.

غير أن أكبر مفاجأة للجميع كانت إطلاق أسر ميخائيل خودوركوفسكي في أكتوبر/ تشرين الأول، وكان قد أمضى العام العاشر له في السجن، وكانت النيابة العامة الروسية قد أعلنت أخيرًا أنها تتابع قضية جنائية أخرى ضده، ولهذا قد يبقى مسجونًا. وبعد عامين من المفاوضات السرية التي توسطت فيها ألمانيا، عبدت له الطريق إلى فك أسره، وكان جزءٌ من

الصفقة أن يلتمس خودوركوفسكي العفو من بوتين في رسالتين كتبهما في نوفمبر/تشرين الثاني، لم يعلن عنهما، على الرغم من أن بوتين طالب في البداية أن يعترف خودوركوفسكي بالذنب، ووافق على قبول دعوته العفو عنه لأسباب إنسانية، وذلك لتدهور الحالة الصحية لوالدته، وقال بوتين في المؤتمر الصحفي السنوي له في ديسمبر/كانون الأول: «لقد أمضى حتى اليوم أكثر من عشر سنوات في الحبس وهذا عقاب مهم»، اليوم ظهر العفو الأوسع، بعد فوات الأوان، وقد هُندِس ليفرج عن الرجل الذي يعد اعتقاله انعطافة مظلمة في التاريخ الحديث للبلاد حين ألقي القبض عليه في عام 2003م.

بعد ساعات قليلة من حديث بوتين في موسكو أوقِظ خودوركوفسكي في الساعة الثانية صباحًا في كاريليا، حيث أمضى السنوات الأخيرة من اعتقاله، ووضع على متن طائرة نقلته أولًا إلى بطرسبورغ ومن ثم إلى برلين، المنفى الآخر عن روسيا الجديدة. وفي اليوم التالي ظهر عند نقطة تفتيش متحف تشارلي، وقد وقف نفسه على أبطال الحرب الباردة المنشقين، وضحايا التقسيم الذين يمثلهم جدار برلين.

قُصَّ شعره الذي كان أكثر بياضًا، إذ غزاه الشيب، وبدا كمن خرج «من البرد والظلام إلى غرفة مضاءة زاهية وفيها من الدفء أكثر من اللازم»، كما كتب الصحفي الذي كان هناك، أركادي أوستروفسكي. وبدا خودوركوفسكي، الذي قضى كثيرًا من وقته في القراءة والكتابة في السجن، غير منكسر ولا شاعر بالمرارة[23]. «طوال هذه السنوات كانت جميع القرارات التي اتخذت بحقي من رجل واحد: فلاديمير بوتين. حتى اليوم يصعب أن أقول إنني شاكر؛ لقد فكرت بالكلمات التي تعبِّر تمامًا عما أعتقد به؛ أنا سعيد لقراره، وأعتقد أن هذا كل شيء».

كان أحد شروط فك أسره أن يوافق على عدم الانخراط في الحياة السياسية عامًا، مع أنه تعهد أن يكون ناشطًا في تأسيس المجتمع المدني في روسيا من بعيد، وقال: «المشكلة الروسية لا تتعلق في شخص الرئيس، المشكلة هي أن أغلبية مواطنينا لا يفهمون أنه

يجب عليهم أن يكونوا مسؤولين عن مصيرهم؛ إنهم سعداء جدًّا أن يفوضوا فلاديمير فلاديميروفتش بوتين، مثلًا، وبعد ذلك سوف يعهدون بالبلد إلى شخص آخر، وأعتقد أن هذا لبلدٍ كبير مثل روسيا هو المسار إلى الطريق المسدود».

لم يكن القصد من إطلاق خودوركوفسكي طرد أحد المنشقين بقدر ما هو عمل رحيم وخيِّر من القيصر، وكثيرون رأوا- ومنهم خودوركوفسكي والنساء من بازي رايوت- أن العفو جاء جزءًا من جهود الكرملين لاتخاذ بعض الإجراءات التي تخفف من الانتقادات الدولية المتزايدة قبل دورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، التي يفصلهم عنها أقل من شهرين. فضَغْطُ بوتين على أوكرانيا، وتعزيز القوانين ضد المعارضين السياسيين، والتشريعات المتعلقة بالمثليين، وتصريحات بعض النواب والمسؤولين، وفضائح الاستعدادات المكلفة لتجهيز الأماكن في سوتشي، والعمليات التأديبية في مكافحة الإرهاب في القفقاز التي أدت إليه؛ كل هذا كان يواجه هجومًا لاذعًا. وقد أخذ زعماء العالم، من بينهم باراك أوباما، وأنجيلا ميركل، وديفيد كاميرون، يوضحون بجلاء أنهم لن يحضروا المباريات؛ خشية أن ينظر إلى حضورهم على أنه تأييد لحكم بوتين، ومن ثم فتلميع صورة روسيا بالتأكيد كان جزءًا من الدافع وراء الإجراءات التي اتخذها بوتين، وأثبتت أيضًا قدرته الفريدة على إخضاع فروع السلطة وتطويعها لإرادته، كما خضعت بلدان أخرى.

منح بوتين العفو بالطريقة نفسها التي منح بها عقود بناء سوتشي للأباطرة الذين حازوا ثقته، وبطريقة يستطيع فيها من غير نقاش أن ينفق 15 مليار دولار من صندوق اليوم الأسود للأمة لإبقاء حكومة يانوكوفيتش تحت نفوذ موسكو. كان خودوركوفسكي على صواب؛ لقد فعل بوتين ما فعل على عاتقه الشخصي لأن الناس قد (عهدوا) له بالحكم، ليكون الزعيم القمة وقيصر الديموقراطية المزيفة. اليوم لا تجد أحدًا، بدءًا بالروس العاديين ووصولًا إلى الأباراتشيك (الرفاق) الذين تواطؤوا معه في النظام السياسي والاقتصادي الذي بناه، يمكن أن يتحمل المسؤولية في تغيير الأمور.

في ليلة 7 فبراير/شباط 2014م، افتتح بوتين- بجملة قصيرة واحدة منصوص عليها في الميثاق الأولمبي- دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي. لم يكن كل شيء حينها قد اكتمل في الوقت المناسب، على الرغم من الجهود الفائقة التي استمرت حتى بعد أن بدأت الأحداث الرياضية: فالأرصفة غير المنتهية غُطيت على عجل، ومخلفات البناء كانت مخبأة وراء لوحات زرقاء واضحة، إضافة إلى أن عددًا من الفنادق لم تستَكمل، وخاصة تلك التي بقيت للصحفيين الأجانب، كل ذلك هدد بتحويل الحدث إلى كارثة علاقات عامة، وأصبحت حملة محاصرة الكلاب الضالة عن طريق إماتتها ببطء، أبرز موضوع في وسائل الإعلام ما قبل الافتتاح. فضلًا عن هذا فبعد الإنفاق الضخم لإعادة بناء سوتشي، والتحسب من تهديد الإرهاب، كان قد وقع في نهاية ديسمبر/كانون الأول تفجيران انتحاريان في فولغوغراد راح ضحيته أربعة وثلاثون شخصًا.

كان ثمة نوع من الشماتة في بعض تغطيات الاستعدادات القاسية والمغرورة في روسيا، وكان ثمة أيضًا قلق دولي حقيقي من القوانين الجديدة الرجعية في روسيا- وخاصة تلك المتعلقة بالقذف و(دعاية مثليي الجنس)- وخنق الاحتجاجات التي استمرت حتى في أثناء حفل الافتتاح.

قبل يومين من بدء الألعاب، نشر أكثر من مئتي كاتب من ثلاثين بلدًا رسالة مفتوحة في صحيفة الجارديان تدعو إلى إلغاء القوانين التي تحد من حرية التعبير والتي أصدرها بوتين بعد عودته إلى الرئاسة، وكان من بين الموقعين أربعة فائزين بجائزة نوبل: غونتر غراس، وورل سوينكا، وألفريدي يلينيك، وأورهان باموك.

تظاهر بوتين باللامبالاة من الانتقادات الصغيرة والكبيرة، ولكن قيل إنه غضب منها، وفي مقابلة مع صحيفة كوميرسانت، رفض المتحدث باسمه، ديمتري بيسكوف، الشكاوى من الفساد والهدر، وعدها من المبالغات[24]، وقال: تعالوا إلى سوتشي وانظروا إلى ما تم بناؤه، وكان ذلك هو الدليل الكافي على أنه «على أقل تقدير ليس كل الأموال قد سرقت». ثم روى

حديثًا مع (شخص حكيم جدًّا)، بدا واضحًا أنه بوتين: «قال هذا الشخص الحكيم: هل تعرف متى سوف يحبنا الجميع ويتوقفون عن انتقادنا لأي سبب كان، وغير ذلك؟، سألته: متى؟ فقال: عندما نحل جيشنا، وعندما نتنازل عن مواردنا الطبيعية لهم، وعندما نبيع كل أرضنا إلى المستثمرين الغربيين؛ فقط في هذه الحالة يتوقفون عن انتقادنا».

في الواقع، تضاءل النقد حالما بدأت الألعاب، وكان حفل الافتتاح الفخم هو التعبير المبهر عن مثالية بوتين الروسي، وقد أخفق رئيس القناة الأولى، كونستانتين إرنست، في تغطية الحدث على الرغم من أنه هو الذي أخرج تغطية مسيرات يوم النصر السنوية في الساحة الحمراء، والمؤتمرات الصحفية السنوية لبوتين.

أطلق على المشهد (أحلام روسيا)، واستمر نحو ثلاث ساعات، وقد بدأ مع فتاة شابة تدعى ليوبوف، أو الحب بقراءة الأبجدية السيريلية. مع كل حرف جاء إسقاط يمثل مشاهير الفنانين والمخترعين والأماكن: Б لبايكال، C لسبوتنيك، П للجدول الدوري لمندلييف، وهلم جرًّا. وكان بعض المهاجرين الذين وصمت أعمالهم ذات مرة بالانحراف أو بالخيانة، ومن بينهم شاغال، وكاندينسكي، ونابوكوف، قد أعيد تثبيتهم اليوم في البانتيون من التاريخ الروسي المجيد. بعد ذلك استعرضت ليوبوف التاريخ الواسع في البلاد، والجغرافيا، ومن إمبراطورية بطرس الأكبر (الحرف И ل IMPERIYA) إلى الحرب والسلام، تقدمه بأداء باليه مبهر، من قباب البصل لكاتدرائية سانت باسيل إلى الترويكا المتألقة التي جعل جوجول منها كناية عن روسيا في (النفوس الميتة): «روسيا، إلى أين أنت تسرعين؟ أجيبي! لكنها لا تجيب بأي جواب».

لم يتجاهل الحفل البلاشفة، والإرهاب، أو معسكرات العمل (الغولاغ) تمامًا، لكنه لم يركز عليها. كان الحفل تجلِّيًا لـ(الفكرة القومية) التي هي في صلب التفكير السياسي لبوتين، تلك التي عدَّلت بطريقة ما ماضي البلاد المضطرب إلى حالة أفضل، وحوَّلت قوس التاريخ إلى شيء يمكن أن يفاخر به الناس، ولا يخجلون منه. وكان الخلل الوحيد في الحفل

حين تكشفت خمس رقائق ثلج مضيئة لحلقات الشعار الأولمبي فلم تنجح واحدة منها، ولكن منتجي التلفاز البارعين استعاضوا عنها بسرعة بصورة واحدة من البروفة، ولم يعرف أحد من مشاهدي التلفاز الروسي ما حدث. الرحلة الأخيرة للشعلة الأولمبية اجتازت البلاد مع السرد الرفيع لهذه الألعاب، من أعماق بحيرة بايكال إلى الفضاء الخارجي، وشملت بعض الرياضيين الأولمبيين الشهيرين في روسيا، وكان من أبرزهم الفائزة بالميدالية الذهبية في أثينا عام 2004م، ألينا كابابيفا.

حقق الأولمبياد الغرض السياسي الذي أراده بوتين، فحتى ألكسي نافالني، الذي نشرت منظمته لمكافحة الفساد موقعًا تفاعليًّا عن نفايات التايتنك، وجد نفسه مندمجًا بحفل الافتتاح، وقال متحدثًا عنه: «إنه جميل جدًّا، وجامع جدًّا». وطالما جرى تركيز الانتباه على الرياضة كما أصرَّ دائمًا بوتين ومساعدوه؛ حتى تخفف دورة الألعاب الأولمبية من بعض الانتقادات العنيفة له ولحكمه.

كان بوتين نفسه يتنقل من فعالية إلى أخرى، مبتهجًا بالرياضة والاهتمام والتقاط الصور التذكارية مع الرياضيين، وقد شرب البيرة مع الملك الهولندي ويليم ألكسندر، بل وزار فريق الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يجعله متفاخرًا أنه على الرغم من خلافاته السياسية مع الولايات المتحدة، رحب بمشاركتهم، وأنه رجل أكبر من أوباما، الذي امتنع عن الحضور؛ فقد حقق حلمه: كانت روسيا في مركز الاهتمام العالمي، وغنية، ولا غنى عنها، أمة موحدة تستضيف العالم. روسيا، في رأيه، حققت المجد والاحترام الذي حققه الاتحاد السوفييتي عندما كان في ريعان شبابه؛ عندما كان غاغارين في الفضاء، وعندما كان الجيش الأحمر هائلًا ويُخشى ويُحسب حسابه.

غير أن هناك تحت المشهد والرياضة تيارًا من القلق والخوف؛ فالوحدة الوطنية المعروضة في سوتشي مهما كانت حقيقية، لم تقدم شيئًا لتخفيف قبضة الدولة القوية عن خنق أية علامة معارضة. فالاحتجاجات في أوكرانيا، التي لم تتبدد خلال فصل الشتاء،

ترددت أصداؤها في موسكو مثل زلزال بعيد، صوته ضعيف ولكن شؤمه يهز الأرض. وفي الأسابيع التي سبقت الألعاب، انتقل بوتين في خطوة استباقية لحجر أي عدوى اندلاع موجة جديدة من الاحتجاج داخل روسيا. وفي ديسمبر/كانون الأول أصدر مرسومًا يحوِّل بموجبه ريا نوفوستي (RIA Novosti) التي حصلت في ظل حكم ميدفيديف على الاحترام؛ لتوازنها وتنوع وجهات النظر التي تعرضها، إلى منظمة أنباء حكومية. وفي يناير/كانون الثاني أسقط مزودو خدمات الكابل المحطة التلفازية الليبرالية التي تدعى دوزت (المطر)، بعد أن طرحت في استطلاع على الإنترنت تساؤلًا، لو استسلم الجيش الأحمر في لينينجراد وتراجع بدلًا من تحمُّل حصار استمر 872 يومًا على حساب مليون قتيل، أكان يمكن أن ينقذ مزيدًا من الأرواح؟ بعد أن أعيد بناء المثالية الأولمبية في تاريخ روسيا عند بوتين، يبدو أن الكرملين عازم على إسكات أي شخص يعارض ذلك.

في تحدٍّ للميثاق الأولمبي الذي يحث على حرية التعبير، ألقت الشرطة القبض على عشرات الأشخاص، من بطرسبورغ إلى القفقاز، حاولوا الاحتجاج لسبب ما يوم حفل الافتتاح. وفي منتصف الألعاب، حكمت محكمة في كراسنودار على ناشط من نشطاء البيئة في شمال القفقاز بالسجن ثلاث سنوات، في حين اعتُقِل أعضاء آخرون من الجماعة لمنعهم من تقديم تقرير كانوا قد أعدوه من قبل عن الضرر البيئي الذي أحدثه البناء في سوتشي. واجتمعت نساء بازي رايوت والتمَّ شملهن في سوتشي مع أغنية احتجاجية جديدة: «يا بوتين سوف نعلمك حب الوطن»، وجرى على الفور التعامل معهن؛ بضربهن بالسياط من قبل الفرسان القوقازيين البارعين في ركوب الخيل، ثم اعتقلتهن الشرطة بدعوى أنهم يحققون في واقعة سرقة من الفندق الذي يُقمن فيه.

وظهر فيلم وثائقي عن الكيمياء الحيوية للخيانة على قناة (روسيا)، في ذروة الألعاب في 18 فبراير/شباط، يساوي بين المعارضة في روسيا والقائد السوفييتي الجنرال أندريه فلاسوف، الذي تعاون مع النازيين بعد إلقاء القبض عليه في عام 1942م. عندما انتهت محاكمة ثمانية من الذين ألقي القبض عليهم في احتجاج بولتنايا في عام 2012م بإدانتهم

وإصدار أحكام بالسجن عليهم في ذروة الألعاب، ألقي القبض على 212 شخصًا في الشوارع خارج مبنى المحكمة، وعند الإعلان عن الأحكام الصادرة بحقهم بعد ثلاثة أيام، كان هناك مزيد من الاحتجاجات والاعتقالات لـ 232 شخصًا آخرين، وكان من بينهم ألكسي نافالني للمرة الثانية، ونساء من بازي رايوت.

كان بوتين قد استثمر كثيرًا في دورة الألعاب الأولمبية؛ ومن ثم فأي انتقاد لها، وأي احتجاج يتساءل عن فائدتها، كان يُعدُّ قدحًا (شتمًا) وعملًا من أعمال الخيانة ضد دولة ناشئة. وفي عمود على موقع (Yezhednevny Zhurnal)، كتب الساخر فيكتور شيندروفيتش، الذي أوقف تصويره لبوتين عرض دميته كوكلي على الهواء في عام 2000م، متأملًا في الفخر الذي شعر به خلال دورة الألعاب الأولمبية، يرافقه قلق من أن شعوره ذاك قد يكون تعزيزًا لسلطة بوتين فقط وتشجيعًا له. وتساءل هل يستطيع ناقد مثله أن يهتف ببراءة للفريق الروسي الذي حصل على أول ميدالية ذهبية من فريق التزلج، والتي جاءت بعد الأداء المبهر (والتصويت المشكوك فيه من قبل الحكَّام) لشابة متسابقة في الخامسة عشرة من عمرها، يوليا ليبيتسكايا. وأوضح عمود شيندروفيتش أيضًا أنه استمتع بـ(متزلجة على الجليد)، لكنه ذكَّر القراء بحماس ألمانيا لهانز فولكي النجم الأولمبي في دورة الألعاب الأولمبية في برلين عام 1936م: «شاب مبتسم وسيم، يرمز إلى شباب ألمانيا الجديدة! لكن شيئًا ما يمنعنا من التمتع بفوزه اليوم»[25].

ولم يوضح مصير فولكي بصراحة، لكنه ذكر داخاو وقصف كوفنتري، وحصار لينينجراد، ومجزرة غير معروفة في خاتين قرب مينسك، عاصمة ما يعرف اليوم بروسيا البيضاء؛ حيث أعدمت القرية بأكملها بوحشية في عام 1943م ردًّا على هجوم حزبي على قافلة من كتيبة الشرطة المساعدة الـ118 للنازيين. كان فولكي أحد ضباط الكتيبة وقتل في الهجوم. وكانت المجزرةُ النازيةُ جريمةَ حرب سيئة السمعة، وقد جعلها الاتحاد السوفييتي معلنة للجميع، ويتذكرها قراء شيندروفيتش بكل تأكيد. وكتب قائلًا: «ليس خطأ من هانز،

بطبيعة الحال، لكن تبين أنه أسهم». أراد شيندروفيتش أن يكون استفزازيًّا، وربما على نحو مفرط، ولكن إشارته إلى النازيين أثارت ردود فعل غاضبة في وقت تصور فيه روسيا احتجاجات الشوارع في أوكرانيا على أنها ليست أقل من انتفاضة نازيين جدد. وكان الرد سريعًا ومتوحشًا.

استنكار ما عرضه شيندروفيتش نشر مطبوعًا وعلى الهواء، ففي اليوم التالي لظهور عموده، بثت قناة (روسيا) شريط فيديو ظهر فيه مستمنيًا في السرير مع امرأة لم تكن زوجته[26]. وبعد أسابيع قليلة، أغلق الموقع الإلكتروني للمجلة، إضافة إلى بوابات المعارضة Grani.ru وKasparov.ru.

الكرملين، بعد أن تجاهل إلى حد كبير الروح التحررية في الإنترنت، حان الوقت ليفهم التهديد الذي يمثله؛ فشدد الخناق عن طريق لوائح تنظيمية ضد تعزيز (التطرف)، واليوم يستحضرها بقوة أكثر من أي وقت مضى في عهد بوتين. الحملة ضد المعارضة- حملة استنكارات كاملة لا يمكن أن تكون إلا بتنسيق من قبل المتعاملين مع وسائل الإعلام من الكرملين- أوجدت شعورًا عامًّا كما لو أن البلاد تُعبَّأ للحرب مرة أخرى.

الفصل الخامس والعشرون

روسيا لنا

لم يتوقع بوتين أن الأزمة التي انفجرت قبل أولمبياد سوتشي قد انتهت، مع أنه كان يتوقعها قبل ست سنوات، عندما حذر الرئيس بوش من أن حلف شمال الأطلسي يجب ألا يعمل على ضم عضوية أوكرانيا، ومع ذلك أمر بوتين بإعادة تنظيم القوات الروسية التقليدية لمعالجة الخلل الذي كشفته الحرب في جورجيا في عام 2008م، ومع أنه راقب هو ومستشاروه بحذر التشنجات السياسية في كييف الناجمة عن رفضها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، فإنه لم يكن يعتزم أن يسير ببلاده إلى الحرب، ولم يكن مستعدًّا في البلاد لذلك، ولم يتشاور مع الدبلوماسيين في البلاد أو القادة العسكريين، وبالتأكيد ليس مع المشرعين المنتخبين، الذين لم يعد لديهم أي تأثير في الطريقة التي يحكم بها. وفي ليلة 18 فبراير/شباط، بعد انحسار احتجاجات الشوارع في كييف، وبعد أن أنقذ بوتين الاقتصاد المتداعي ليانوكوفيتش بـ 15 مليار دولار، اندلعت موجة من العنف عندما حاولت شرطة مكافحة الشغب إخلاء الشوارع المحيطة بميدان الاستقلال، وبحلول منتصف الليل كان أكثر من عشرين شخصًا قد لقوا حتفهم، وجلُّهم من المتظاهرين، وكان بعضهم من ضباط الشرطة. وقبل فجر اليوم التالي أصبحت هناك حرب مفتوحة في وسط المدينة بين الشرطة والمتظاهرين، تبادلوا فيها إطلاق النار، وسرعان ما ارتفع عدد القتلى لأكثر من مئة في أسوأ أعمال عنف في المدينة منذ الحرب الوطنية العظمى.

التقارير التي وصلت إلى بوتين في الكرملين، ومن ثم على شبكات التلفاز الروسية، صورت الاشتباكات كما لو كانت عصيانًا مسلحًا، وبتحريض من الدبلوماسيين الأمريكيين والأوروبيين الذين لم يشجعوا فقط المحتجين، وإنما يزودونهم بالطعام والكعك أيضًا.

منذ نوفمبر/تشرين الثاني تطورت المظاهرات السلمية، التي انطلقت على نطاق واسع تأييدًا للاتفاق مع الاتحاد الأوروبي، إلى حركة أوسع تنادي بإسقاط النظام الفاسد ليانوكوفيتش. كان في الساحة جماعات متطرفة- ملثمون مسلحون من مجموعتين قوميتين شرستين؛ سفوبودا وبرافي سيكتور- وقد أقنعت بوتين أن يانوكوفيتش فقد سيطرته على قوى الفوضى والفاشية. بوتين لم يفهم المظالم الأساسية التي أبقت غالبية المحتجين في الشوارع خلال تلك الأشهر من فصل الشتاء، والتوق إلى الخروج من قبضة فاسدة لزعيم جشع، والتطرف الذي نشأ عندما ذهبت معظم مطالبهم الأساسية أدراج الرياح، وكان يعتقد أن بإمكان الرئيس شراء الذمم ومن ثم شراء الشعب معه، كما فعل في روسيا خلال أربعة عشر عامًا بسخاء اقتصادي وظِّف في اللحظات الحرجة. وكما كتب الكاتب جيمس ميك عندما تحوَّل المحتجون في كييف إلى العنف في ذلك اليوم من فبراير/شباط، «هذا هو المثل الأعلى للساخر كامل السخرية، فلاديمير بوتين، المثل الأعلى الوحيد للساخر الكامل الذي يمكنه أن يكونه: أن الناس لم يعد لديهم أية مُثل»[1].

هرع دبلوماسيو الترويكا الأوروبية؛ وزراء خارجية فرنسا وألمانيا وبولندا، إلى كييف في 20 فبراير/شباط للتوسط لإيقاف العنف حول الميدان. ولما كان بوتين منشغلًا بدورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، فإنه لم يقل شيئًا في البداية، وهذا ما ترك رد فعل روسيا في حالة من الشائعات والخلط. دان وزير الخارجية الروسي، سيرجي لافروف، جهود الأوروبيين، ووصفها بأنها «مهمة غير مرحب بها» حتى وإن كان يانوكوفيتش نفسه قد جلس يستضيف الوزراء. وما إن توصلوا إلى تسوية سياسية كانوا يأملون أن تضع حدًّا لإطلاق النار في الخارج؛ من خلال إجراء انتخابات رئاسية مبكرة في عام 2014م، فضلًا عن منح العفو عن المتظاهرين، حتى أوقف يانوكوفيتش المحادثات ليهاتف بوتين، وقد رجع في ذلك الوقت إلى موسكو، فعلى

الرغم من كل الجهود التي بذلها للتظاهر بالاستقلالية، فإنه لا يستطيع عقد أي اتفاق دون موافقة بوتين. أخبر بوتين أنه سيوافق على التنحي لإجراء انتخابات جديدة، وأنه سيأمر بانسحاب شرطة مكافحة الشغب من المتاريس التي تحترق غير بعيد عن مكتب الرئاسة، فرأى بوتين في ذلك تنزُّلًا مهينًا، ومؤشرًا خطيرًا على الضعف في مواجهة الغوغاء.

ادعى بوتين أنه أبلغ يانوكوفيتش بأنه سيكون عنده فوضى، «سيكون هناك فوضى في العاصمة».

قبل يانوكوفيتش تسوية الأوروبيين على أي حال، وأُعلنت في الساعة الثانية من بعد ظهر 21 فبراير/شباط، وفي ذلك المساء بدأ حلفاء يانوكوفيتش السياسيون بالتخلي عنه، وتبددت سلطته على الشرطة وقوات الداخلية وسط تقارير موثوقة تفيد بأن مخبأ للأسلحة قد نُهب من مراكز الشرطة في غرب أوكرانيا وهو في طريقه إلى العاصمة[2].

وبعد أن أصدر بيان تهنئة لفريق التتابع البياتلون للسيدات لفوزه بأول ميدالية ذهبية للبلاد في سوتشي، غادر يانوكوفيتش العاصمة، فسافر أولًا إلى شرقي أوكرانيا، ثم سافر إلى شبه جزيرة القرم، قبل أن ينتهي به المطاف في ملجأ سري في جنوبي روسيا، ضمن عملية خاصة أمر بها بوتين يوم 23 فبراير/شباط بعد لقاء ليلة كاملة مع مستشاريه[3]. بعد يانوكوفيتش حُلَّ الاتفاق الذي توصلوا إليه لإنهاء القتال حتى قبل أن يدخل حيِّز التنفيذ. البرلمان الأوكراني، مع الموالين ليانوكوفيتش بعد أن انفصلوا عنه، صوَّت على الفور على (عزل) يانوكوفيتش، في إجراء مشكوك فيه من الناحية القانونية، ثم انتخب النواب قيادة برلمانية جديدة، وعُيِّن رئيس مؤقت لحين عقد انتخابات جديدة، وكان أول عمل تمارسه القيادة البرلمانية الجديدة هو جعل الأوكرانية اللغة الرسمية، مستثنية بذلك اللغة الروسية التي أقرتها حكومة يانوكوفيتش. وأوقف القائم بأعمال الرئيس الجديد، ألكساندر تورتشينوف، المقترح، لكن ليس قبل أن يؤجج الانقسام العرقي في أوكرانيا، الذي ما زال قائمًا منذ ما يقرب من ربع قرن من الاستقلال.

في موسكو، أكدت الأحداث في كييف أنها أسوأ ما يخافه بوتين: ما حدث لم يكن انتفاضة شعبية ضد زعيم ضعيف فقد مصداقيته، إنما ثورة اختطفها القوميون الأوكرانيون والراديكاليون التي قارنها بالجندي النازي أرنست روم، الذي جاء دعمه من أعداء روسيا؛ الأوروبيين والأمريكيين[4].

رَأَس بوتين مراسم حفل الختام في سوتشي ليلة 23 فبراير/شباط، بعد أن وضع أولًا إكليل الزهر على قبر الجندي المجهول في موسكو في ذلك الصباح. دورة الألعاب الأولمبية تلك لم تتحدَّ فقط التوقعات الكارثية الكبرى، بل انتهت بفوز الرياضيين الروس بأغلب الميداليات الذهبية التي بلغت ثلاث عشرة، ومعظم الميداليات الأخرى التي بلغت ثلاثًا وثلاثين؛ فكانت لحظة مجد روسيا، بعد سنوات من الإعداد، ولكن طغت التشنجات في أوكرانيا على كل شيء؛ فالحدث الرياضي الذي استمر ستة عشر يومًا، وكانت له الأهمية الرمزية والأيديولوجية عند بوتين وروسيا، تأتي الانتفاضة في أوكرانيا لتحمل معها مزيدًا من الإهانة لروسيا، ورأى بعض أنصار بوتين أنه قد جرى التحريض عليها بالفعل لتلطيخ هذه اللحظة التاريخية. قضى بوتين ساعات قبل حفل الاختتام يهاتف أنجيلا ميركل، ويشتكي من أن الأوروبيين لم يجبروا يانوكوفيتش على توقيع الاتفاق، مثلما أجبروه على البقاء في كييف.

لم يقل بوتين شيئًا في العلن عن أوكرانيا في سوتشي في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، عندما استضاف اللجنة المنظمة لتناول طعام الإفطار، حيث زيِّنت روسيا بالميداليات وزرعت ثلاث وثلاثون شجرة، واحدة لكل ميدالية. لم يقل شيئًا، في الواقع، لتسعة أيام أخرى، حتى حين وضع مقترحًا لعملية سريَّة في صباح ذلك اليوم من 23 فبراير/شباط، المقترح الذي لا يعلم به حتى وزراؤه.

في يوم 25 فبراير/شباط، التقى مجلس الأمن الوطني للمرة الثانية منذ اندلاع العنف في كييف، والذي يضم اثني عشر عضوًا، من بينهم ميدفيديف، ووزراء الدفاع، والشؤون الخارجية والداخلية، وقادة مجلسي الشعب والبرلمان، وقادة المخابرات الخارجية، وجهاز

الأمن الفيدرالي. كان أحدهم فالنتينا ماتفيينكو، رئيسة المجلس الاتحادي، التي برزت في الاجتماع، وأعلنت أنه يستحيل أن تتدخل روسيا عسكريًّا في أوكرانيا لوقف الفوضى.

لم تعرف هي ولا كثيرون في الكرملين أن روسيا لديها حقًّا النية لفعل ذلك، فبوتين يريد معاقبة أوكرانيا بتقطيع أوصالها، وفي اليوم التالي أعلن عن مناورات عسكرية مبكرة احتشد فيها عشرات الآلاف من الجنود في غرب روسيا، فضلًا عن مقرات قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي. التمرين خطط له ليستمر عدة أشهر، لكن التوقيت سمح للكرملين بإخفاء النشر المفاجئ للآلاف من قوات العمليات الخاصة للنخبة الروسيَّة، وكانت السرية ضرورية، فضلًا عن الإنكار. بوتين لم يكن متأكدًا من معرفة ردود الفعل الدولية، وفي مقدمتها حلف الناتو، وأراد قبل كل شيء أن يختبر عزيمة زعماء العالم قبل أن يقرَّ خطته.

قبل الفجر يوم 27 فبراير/شباط، استولت قوات خاصة من روسيا، وقوات من مقرات أسطول البحر الأسود، وقواعد أخرى في شبه جزيرة القرم، على برلمان القرم الإقليمي، والمباني المهمة الأخرى في شبه الجزيرة، إضافة إلى مطارين. كانت القوات مجهزة تجهيزًا جيدًا وتسليحًا ثقيلًا، لكن بدلاتهم العسكرية لا تحمل أي شارة؛ فقد أُمر الجنود بإزالتها. وخلال أربع وعشرين ساعة هبطت آلاف القوات الإضافية في المطارات وانتشروا، وتمكنوا من تأمين شبه الجزيرة دون أي عنف جوهري يذكر، على الرغم من بعض المواجهات المتوترة مع القوات الأوكرانية المصدومة، الذين تلقوا الأوامر بعدم المقاومة في ظل الفوضى السياسية في كييف. القوات الخاصة الروسية أصبحت تعرف باسم (الرجال الخضر قليلًا) أو (الناس المهذبين)، مع النفي الروسي غير المقنع على نحو متزايد بأي تورط. عقدت جلسة عاجلة في البرلمان الإقليمي، وكانت خلف أبواب مغلقة، وانتخبت حكومة جديدة وصرحت- في انتهاك للقانون الأوكراني- أن الاستفتاء سيجري في 25 مايو/أيار لإعطاء القرم مزيدًا من الحكم الذاتي.

حتى أنصار بوتين كانوا مصابين بالدهشة، فقد تصرف بوتين بعد مشاورات منحصرة في دائرة مصغرة من مساعديه، تشمل الأشخاص الذين يثق بهم، الأشخاص الذين كانوا إلى جانبه منذ أن التحقوا جميعًا بالـ(كي جي بي): سيرجي إيفانوف، ونيكولاي باتروشيف، وألكسندر بورتنيكوف. شاطروه عمق أفكاره وشكوكه بطموحات حلف الناتو، وغضبه من إدانة الدول الغربية التي سارعت إلى تبني الحكومة الجديدة التي أُسست بعد انسحاب يانوكوفيتش. كانت هناك أصداء غريبة للقرار الذي اتخذ عام 1979م بغزو أفغانستان، القرار الذي اتخذته أيضًا دائرة منعزلة من القيادة السوفييتية خلف ادعاءات كاذبة. سرية القرار أربكت المؤسسة السياسية في البلاد، وأكدت أن القرار اليوم بات في يد بوتين أكثر من أي وقت مضى.

منذ عودته عام 2012م، ضيَّق بوتين من نشر المعلومات التي تصل إليه؛ فاستبعد الدبلوماسيين، ووزراء الاقتصاد، أو غيرهم من الذين يمكن أن يقدموا النصح عن العواقب المحتملة للأشياء التي تتكشف. أفعال بوتين اليوم تركت المتحدث باسمه، وحتى وزير خارجيته سيرجي لافروف، يكرران الأكاذيب وينفيان وجود أي قوات روسية في القرم، حتى عندما استولت على المواقع الإستراتيجية، واحدًا تلو الآخر. عندما اجتمع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في جلسة طارئة في نيويورك يوم 27 فبراير/شباط، في اليوم التالي بعد ظهور (الرجال الخضر قليلًا)، كان السفير الروسي، فيتالي تشوركين، غير مستعد لشرح حتى الحقائق الأساسية لما يحدث؛ لأنه- على ما يبدو- لم يكن يعلم بها. وفي اليوم نفسه، عاد يانوكوفيتش إلى الظهور أخيرًا في روسيا، بعد أسبوع من هروبه من كييف، وعقد مؤتمرًا صحفيًّا سورياليًّا في مركز للتسوق في روستوف في (دون) جنوب روسيا، ليس بعيدًا عن الحدود الأوكرانية، وادعى فيه أنه لا يزال الرئيس الشرعي لأوكرانيا، في وقت كان فيه المحتجون والصحفيون يمشطون تركته الرئاسية خارج كييف، ويقدمون الأدلة على بذخه الشخصي وفساده المهني. قال يانوكوفيتش إنه يؤيد وحدة أراضي البلاد، ويعارض أي تدخل عسكري من قبل روسيا، وهو أيضًا لا يعلم أن بوتين أطلق حملة عسكرية.

بعد يوم من ظهور يانوكوفيتش، قدم بوتين اقتراحًا للمجلس الاتحادي يسمح باستعمال القوة العسكرية في أوكرانيا، وعلى الفور عقدت رئيسة المجلس، فالنتينا ماتفيينكو، التي استبعدت قبل ثلاثة أيام أي تدخل، جلسة طارئة، يوم السبت، وبحماس لافت وافقت على طلب بوتين. وبعد (نقاشات) ساخنة استنكر فيها الواحد تلو الآخر شر أوكرانيا والولايات المتحدة، صوَّت تسعون عضوًا من الحاضرين من أصل (166) على تفويض بوتين بغزو جارتهم، بعد أن غزاها. إلا أنه بعد ذلك، وفي 2 مارس/آذار، استدعى بوتين يانوكوفيتش إلى مقر إقامته خارج موسكو، وأجبره على صياغة رسالة وتوقيعها، مؤرخة في يوم سابق، أي قبل تصويت المجلس الاتحادي على التفويض، يطلب فيها من روسيا التدخل. جاء في الرسالة: «أوكرانيا على شفا حرب أهلية، البلاد في حالة من الفوضى»، وقد مزجت الرسالة الحقيقة الساطعة بجنون العظمة المغروسة في المستشارين المقربين من بوتين. وجاء فيها أيضًا: «بتأثير الدول الغربية هناك أعمال عنف وإرهاب مفتوحة، والناس مضطهدون هناك لأسباب سياسية ولغوية. وأود في هذا الصدد أن أطلب من الرئيس بوتين، رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، أن يستخدم القوة العسكرية للاتحاد الروسي لتوطيد الشرعية والسلام والقانون والنظام والاستقرار، والدفاع عن الشعب في أوكرانيا»[5].

في اليوم الذي أُجبر فيه يانوكوفيتش على التوقيع على الرسالة، عقد بوتين سلسلة من المكالمات الهاتفية مع زعماء العالم الذين توتروا يريدون أن يفهموا بالضبط ماذا يحدث، وكان الأكثر أهمية مكالمة مع أنجيلا ميركل. قبل يومين فقط، كان قد أخبرها أنه لا توجد قوات روسية في شبه جزيرة القرم، لكن يقر اليوم بوجود مثل هذه القوات، الشيء الذي لا يمكن أي مسؤول روسي أن يصرح به علنًا باستثناء بوتين، الذي أعلنه في أبريل/نيسان، بعد ستة أسابيع من الحقيقة[6].

كرر بوتين تحذيره من أن الروس في أوكرانيا يواجهون العنف هناك، وهو ما اضطره إلى التصرف، وتحولت ميركل- الزعيم الذي لا يزال أفضل المحاورين لبوتين في القارة- اليوم بشدة ضده، فهاتفت بعد ذلك باراك أوباما حتى في الوقت الذي كان يهاتف فيه بوتين،

وعندما تحدثا، خرجت عن نهجها الحذر من الأزمة، واتخذت موقفًا أكثر صرامة بكثير. الولايات المتحدة حذرت، وسرعان ما تبعها الاتحاد الأوروبي وغيره من مجموعة الدول الثمان G8 الأعضاء، بأن روسيا تواجه احتمال فرض عقوبات عليها، وتخاطر بمكانتها الدولية إذا كانت لها مطامع إقليمية في شبه جزيرة القرم.

إستراتيجية بوتين في هذه المرحلة تكشفت عشوائيًّا، حتى بالنسبة إلى مرؤوسيه؛ فكان يتخذ القرارات منفردًا وارتجالًا، وبعد أن حضر المناورات العسكرية المبكرة في كيريل لوفسكي شمالي موسكو، عاد إلى موسكو يوم 4 مارس/آذار، وتحدث لأول مرة علنًا عن الأزمة التي تعصف بأوكرانيا- والعالم- خلال الأسبوعين السابقين. التقى مع مجموعة صغيرة من الصحفيين من تجمع الكرملين في نوفو أوجاريوفو، وخلافًا للمؤتمرات الصحفية السنوية المنظمة بعناية، نظم هذا على عجل، فكان إعداده سيئًا، وبدا الخلط في إجاباته، وفي بعض الأحيان كانت مشوشة، وبدا غير مرتاح، فقد كان يتراخى أحيانًا ويتلوى أحيانًا أخرى على مقعده؛ فبعد أن أعلن أن يانوكوفيتش هو الرئيس الشرعي الوحيد في أوكرانيا، عاد ليقول إنه لا يوجد زعيم شرعي في أوكرانيا يمكن التحدث معه. («أعتقد أنه ليس له مستقبل سياسي»، وأضاف فيما يتعلق بيانوكوفيتش: «عليه أن يتنازل، وقد أخبرته بذلك»)؛ والتغيير في السلطة في أوكرانيا «ضروري ربما»، لكن ما حدث في كييف كان «استيلاء مسلحًا على السلطة»، كما «الجني؛ ما إن تهيأت له الفرصة حتى خرج من القمقم»، وغمرت العاصمة بالقوميين، ومرتدي الصليب المعقوف «أشباه الفاشيين»، والمعادين للسامية، ثم أضاف: «ليس لدينا أعداء في أوكرانيا».

أثار مرة أخرى مسألة حروب أمريكا في أفغانستان والعراق وليبيا، التي كانت حاضرة جدًّا في ذهنه في هذه الأزمة. كان رد فعل أوباما في الواقع بطيئًا على الأحداث في أوكرانيا، إذ كان منصرفًا إلى الأزمات في الشرق الأوسط، ولكن بوتين مقتنع أن الأمريكيين حرضوا على الاضطرابات أكثر من الأوروبيين؛ «في بعض الأحيان أشعر أنهم في مكان ما، وفي ذلك

المستنقع الضخم في أمريكا، يجلس الناس في المختبر ويجرون التجارب، كما لو أنهم يجرونها على الفئران، دون أن يفهموا الواقع وعواقب ما يفعلون».

اعترف- على نحو غير مباشر- أن روسيا عززت قواتها في مقار أسطول البحر الأسود في سيفاستوبول، ولكن عندما ضُغط عليه بأن الجنود ذوي اللباس العسكري الروسي- مع أنهم لا يضعون الشارات العسكرية- هم من يحتلون مباني رئيسة، زعم أنهم «وحدات الحماية الذاتية المحلية»، وأضاف: «يمكنك الذهاب إلى المتجر وشراء أي نوع من الزي الرسمي».

أعرب بوتين عن دعمه لحق الشعوب في شبه جزيرة القرم بإجراء استفتاء، لكنه شدد على أنه لم يدرس إمكانية انضمام القرم لروسيا، وفي وقت لاحق بعد يومين، مع تنامي المعارضة الدولية، أعلن برلمان القرم الجديد فجأة أنه قد سارع خططه، وسيجري الاستفتاء على مصير شبه الجزيرة خلال عشرة أيام، في 16 مارس/آذار. وعلى الرغم من معارضة ذوي الأصول الأوكرانية، وتتار القرم، الذين قمعوا ذات مرة بفظاعة في عهد ستالين، ولم يسمح لهم بالظهور ثانية إلا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كانت نتائج الاستفتاء اليوم مجرد إجراء شكلي. في اليوم التالي- على الرغم من إنكار بوتين قبل أيام فقط- أوضح الكرملين بشدة أن شبه جزيرة القرم عادت إلى الوطن الأم، عندما التقى قادة مجلس الدوما والمجلس الاتحادي بوفد من شبه جزيرة القرم، وخرجت مظاهرة حاشدة في الساحة الحمراء رفرفت فيها الأعلام الروسية واللافتات، وحمل عدد من اللافتات عبارات تقول: «القرم أراض روسية». كانت الشعارات- مثل البعثة الجديدة لفلاديمير بوتين- مكثفة وأقرب إلى تعاويذ تبعث على الفخر والغضب في وقت واحد، وكانت رد بوتين على ما عدَّه سنوات من تصاعد عدم الاحترام لروسيا. سوف تصبح صرخة بصدى عميق مستهجن، مع أن بوتين كان مجبرًا عليها من جرَّاء تسلسل الأحداث غير المتوقعة، ولم يتوقع لها أن تحدد شرعيته وشرعية روسيا لسنوات قادمة: **القرم لنا!**

في 18 مارس/آذار، بعد يومين من الاستفتاء الذي أقيم تحت حراب الرشاشات الروسية، واستُنْكر على نطاق واسع لأنه كان مهزلة، ظهر بوتين في قصر الكرملين الكبير أمام النخبة السياسية في البلاد- النخبة التي تقف علنًا خلفه- وأعلن أن شبه جزيرة القرم، وبصورة منفردة سيفاستوبول، أجزاء جديدة للاتحاد الروسي. وأضاف مستحضرًا المكان الأسطوري الذي تعمَّد فيه الأمير فلاديمير، وبذلك تنجب روسيا نفسها: «كل شيء في شبه جزيرة القرم يتحدث عن فخرنا وتاريخنا المشترك»، واستحضر المعارك من بالاكلافا إلى سيفاستوبول، التي ترمز إلى «المجد العسكري الروسي وبسالته المميزة». صفق الجمهور وهتف مقاطعًا كلمته مرارًا، وبعضهم انهمرت الدموع من عيونهم.

ظهر بوتين في وقت لاحق من ذلك المساء في مسيرة وحفل موسيقي في الساحة الحمراء، نظم ليكون احتفالًا وطنيًّا يستحق أن يصبح عطلة مقدسة، وقال للحشد النابض: «بعد رحلة طويلة وصعبة وشاقة في البحر، تعود شبه جزيرة القرم وسيفاستوبول إلى ميناء وطنهم، إلى الشواطئ الأم، إلى ميناء الوطن، إلى روسيا!». ومن بين الأغاني التي صدحت في تلك الليلة أغنية عاطفية سوفييتية تسمى: (فالس سيفاستوبول)، وقد كتبت بعد الحرب الوطنية العظمى في عام 1953م، أي بعد سنة من ميلاد بوتين، ومعظم الروس من سن معينة ومزاج معين يمكن أن يغنوها بكاملها:

عدنا إلى الوطن
على حافة الأرض السوفييتية
مرة أخرى، كما كان من قبل، تزهر الكستنا
ومرة أخرى، كنت في انتظاركم...
على طول الجادات سوف نتمشى
وكما كنا في الشباب، سوف نغني.

كانت آخرُ دولة تضم أراضي دولة أخرى هي العراق عام 1990م، عندما اجتاحت جيوش صدام حسين الكويت، وقد دفع حينها الغزو العراقي، وضم الكويت للعراق، إلى إدانة عالمية،

وفي نهاية المطاف إلى تأسيس تحالف عسكري بقيادة أمريكية وبرعاية الأمم المتحدة، ومن غير أي اعتراض من الاتحاد السوفييتي، فطَرَد العراقيين من الكويت في وقت لاحق، بعد سبعة أشهر فقط، وقد فهم بوتين ذلك، وكان يعلم الأخطار التي أقدم عليها باستيلائه على أراض أجنبية. حتى عام 2008م عندما اقتحمت روسيا جورجيا وأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا كانت أراضي متنازعًا عليها، وكانت فيها قوات حفظ السلام الروسية، ويهاجمها الجيش الجورجي. كانت شبه جزيرة القرم جزءًا لا جدال فيه من أوكرانيا، ومع ذلك لم يواجه بأي تهديد عسكري أو أمني. بوتين، في غضون أيام، لم ينتهك فقط سيادة دولة مجاورة، بل وقلب ما افترضه كثيرون بأنه نظام غير قابل للتغيير لمرحلة ما بعد الحرب الباردة؛ أجل الحرب الباردة التي ترسخت بعد التفكك العنيف ليوغوسلافيا في التسعينيات، الحرب التي أمل كثيرون في أوروبا أن تؤذن ببداية عهد جديد من التعاون والتكامل السلمي بعد أعمال العنف الدامية التي شهدها القرن العشرون، وكان بوتين نفسه دعا مرارًا وتكرارًا إليه، واستنكر استخدام القوة بصورة منفردة من قبل الولايات المتحدة وحلفائها بوصف ذلك تهديدًا للنظام الدولي الذي يحمي حقوق الدول ذات السيادة من الهجوم. وقد أدلى بهذه الحجة قبل أشهر فقط من دراسة باراك أوباما لتوجيه ضربة عسكرية ضد سوريا لاستخدامها الأسلحة الكيميائية.

بوتين يفهم ما سيكون عليه رد الفعل على الضم، لكنه يحسب أيضًا أن العالم لن يجرؤ على التحرك كما تحرك ضد صدام حسين في عام 1990م؛ فالعراق كان دولة ضعيفة، أما روسيا فدولة نامية عظمى، والغرب لن يعمل ضد روسيا- بالتأكيد ليس نيابة عن أوكرانيا- تمامًا كما لم يتصرف في عام 2008م للحفاظ على وحدة أراضي جورجيا. روسيا لم تعد الاتحاد السوفييتي الواهن الذي يُشفق عليه، وكان بوتين مستعدًّا للعمل فيما يعده وحده المصلحة الوطنية للبلاد. استولى على شبه جزيرة القرم من أوكرانيا لأنه يعتقد أنه قوة عظمى لديها السلطة القانونية والأخلاقية لفعل ذلك، كما كانت الولايات المتحدة تفعل مرارًا منذ نهاية الحرب الباردة.

العملية التي أمر بها بوتين في شبه جزيرة القرم عكست الدروس المستفادة التي تعلمها الجيش من الحرب في جورجيا، وكذلك الفوائد من التحديث العسكري الذي أشرف عليه منذ كان رئيسًا للوزراء؛ فقد تضاعفت الميزانية العسكرية الروسية تقريبًا منذ عام 2005م، لتصل إلى ما يقدر بـ 84 مليار دولار في عام 2014م، ولم تتقدم عليها إلا الولايات المتحدة والصين، لكنها كانت من حيث النسبة المئوية من الناتج المحلي الإجمالي أكثر إنفاقًا من أي اقتصاد كبير[7]. لم تظهر آثار التحديث في الأسلحة الجديدة، ومن بينها السفن والطائرات المقاتلة التي أصبحت تتحدى على نحو متزايد الأسلحة الأمريكية والدفاعات الجوية للناتو، فحسب؛ ولكن أيضًا في التدريب، وتجهيز قواتها، ومعظمها من النخبة، مثل تلك التي أمر بتوجيهها إلى أوكرانيا.

أظهر الاستيلاءُ على شبه جزيرة القرم أن روسيا لديها قدرة أكثر من غيرها من الدول المجاورة لها في أوروبا، وتمتلك آلة عسكرية جبارة لا تحمد عقباها، وهي الأكثر قوة منذ تفكك الجيش الأحمر. مزجت القوة الصلبة في القوة الناعمة، والسرعة والتخفي، والتشويش والدعاية الضخمة التي ترمي إلى إظهار أن تلك القدرات لا يمكن التعامل معها بسرعة في حال أُطلقت.

في الوقت الذي أقرَّ فيه بوتين أن القوات الروسية سيطرت على كامل شبه الجزيرة قبل الاستفتاء على وضعها، كان الضم قد أصبح أمرًا واقعًا، وعلى الرغم من الاحتجاج الدولي فإنه ليس هناك ما يشير إلى قلب الطاولة.

سارع بوتين إلى تسويغ الضم، وردد الحجج التي وجدت صداها في المؤسسات الدبلوماسية والعسكرية، ومن ثم في وسائل الإعلام التي يسيطر عليها الكرملين، وقال إن شبه جزيرة القرم كانت ذات يوم جزءًا من الإمبراطورية الروسية التاريخية، وإنها كانت تدار في زمن الاتحاد السوفييتي من موسكو حتى تركها نيكيتا خروتشوف لجمهورية أوكرانيا الاشتراكية في عام 1954م، فلا تزال مرسى لأسطول البحر الأسود في روسيا الجديدة،

والحكومة الجديدة في أوكرانيا غير شرعية، وشعب شبه جزيرة القرم صوتوا تأييدًا للاستقلال عن أوكرانيا، وهم يواجهون خطرًا وشيكًا من الفاشيين الطامعين. وأحيانًا كان يلجأ إلى تأكيد معادلة أخلاقية بأن الولايات المتحدة غزت بلدانًا أخرى فلماذا لا يمكن أن تفعل روسيا ذلك؟ كان المسوِّغ الأكثر شؤمًا لدى كثيرين أنه تدخل لحماية (أبنائنا) الروس في شبه جزيرة القرم؛ وبهذا فهم ليسوا مواطني روسيا، لكنهم روس- كما أشار في كثير من الأحيان- وجدوا أنفسهم كرهًا في (دول أجنبية)، عندما انشقت هذه الدول عن الاتحاد السوفييتي في عام 1991م.

لسنوات مجَّد الوطن الروسي؛ ذلك المجتمع الذي اتحد متجاوزًا الحدود من خلال اللغة والثقافة والإيمان، لكن لم يسبق له قط أن استخدم فكرة لتكون مسوغًا لعمل عسكري. كانت حجة لها متوازيات غير مريحة مع تلك التي استخدمها أدولف هتلر في عام 1938م للمطالبة بالنمسا، وطالب في وقت لاحق بمقاطعة السوديت في تشيكوسلوفاكيا من أجل المجتمع الشعبي (فولكسجينوسين). والسؤال المطروح اليوم: أين تقف سياسة بوتين؟ هناك أجزاء مهمة أخرى من أوكرانيا يقطنها سكان روس من أصل روسي، وبالمثل في كازاخستان وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة الثلاث التي هي اليوم في حلف شمال الأطلسي ويحميها وفق معاهدة الدفاع المشترك المنصوص عليه في المادة 5 من ميثاق الحلف: ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا.

قليلون من يعتقدون أن بوتين يستطيع أن يخاطر بمواجهة عسكرية مع حلف الناتو من خلال مهاجمة إحدى الدول الأعضاء، لكن لا أحد على ما يبدو متأكد أن حسابات بوتين ستكون منطقية تمامًا بعد اليوم.

في غضون أيام من ضم شبه جزيرة القرم، بدأ المحتجون في شرقي أوكرانيا- الذين حُرِّضوا أو انضم إليهم وكلاء المخابرات الروسية والمقاتلون المتطوعون- بالاستيلاء على المباني الإدارية في عدة مدن، وفي عاصمتين إقليميتين؛ هما دونيتسك ولوهانسك، نددوا

بالسلطات المركزية الجديدة في كييف، وأعلنوا إنشاء (جمهوريات شعبية)، مُحددين استفتاءاتهم الخاصة في شهر مايو/أيار. لم تتكشف الأحداث إلا عندما حذر مسؤولون في المناطق بما سيفعلونه بعد الاضطرابات السياسية التي وقعت في عام 2004م، بدعم من المواطنين عبر الحدود في روسيا. تشمل كلتا المنطقتين أعدادًا كبيرة من المواطنين ذوي الأصول الروسية، على الرغم من أنهم ليسوا الأغلبية المطلقة، الذين كانوا في تعاطفهم السياسي أقرب إلى روسيا بوتين منهم إلى كييف، خاصة بعد الاضطرابات في شتاء 2013- 2014م. وكانوا أكثر عرضة لدعاية الكرملين التي تسيطر على وسائل الإعلام، والتي كانت متاحة على نطاق واسع في شرقي أوكرانيا، والتي صورت أولئك الذين هم اليوم في السلطة على أنهم قوميون مسعورون ينكرون الحقوق الأساسية للروس، ويقمعونهم، بل ويعذبونهم ويقتلونهم.

ومع أنه لم يصل إلى حد التعبير عن الدعم الصريح للاحتجاجات، فقد ندد بوتين مرارًا بالسلطات الأوكرانية، وأعاد الحق لروسيا في حماية مصالح العالم الروسي، وخلال أسابيع استخدم مصطلح نوفوروسيا (روسيا الجديدة)، لاستحضار الحق التاريخي لروسيا في جزء من الأراضي الأوكرانية ممتد من أوديسا إلى الحدود الروسية التي استولت عليها الإمبراطورية الروسية في القرن الثامن عشر من الإمبراطورية العثمانية المتداعية. خطوط التصدع العرقي التي هزت أوكرانيا كما هزت دولًا أخرى نتيجة التفكك الفوضوي للاتحاد السوفييتي تتمزق اليوم، وربما إلى غير رجعة.

الأمريكيون والأوروبيون أصابتهم الدهشة من هذا التحرك في شبه جزيرة القرم، كما دهشوا من قبل من جرَّاء سفك الدماء في كييف، ومن الرحيل المفاجئ ليانوكوفيتش في فبراير/شباط[8]، وكان رد الفعل الدولي الأولي لقرار الضم- والاضطرابات في شرقي أوكرانيا- مرتبكًا ومضطربًا من مكائد بوتين، ومن السهولة المذهلة التي استولت فيها آلاف القوات الخاصة الروسية على أكثر من عشرة آلاف ميل مربع من الأراضي التي يسكنها نحو مليوني شخص. في الأيام التي سبقت الاستفتاء في شبه جزيرة القرم، اعتقدت الولايات

المتحدة والقادة الأوروبيون أن الضغط الدبلوماسي يثمر، وعندما جرى الاستفتاء، حسبوا أن التلويح بالعقوبات الاقتصادية- والتوبيخ الدولي- سيكون رادعًا بما يكفي.

في 17 مارس/آذار، بعد يوم من الاستفتاء، فرضت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي عقوبات على ما يقرب من عشرة مسؤولين في روسيا وفي شبه جزيرة القرم، ولكنها شملت فقط أمثال فالنتينا ماتفينكو من المجلس الاتحادي، والإستراتيجي السياسي في الكرملين فلاديسلاف سوركوف، الذي، على الرغم من كونه شخصية بارزة، ليس له أي تأثير في القرارات التي يتخذها بوتين اليوم، وهذا ما دفع بوتين ألا يصغي إلى الردود الأولية؛ فلم يتجاهل فقط التحذيرات القوية والمتزايدة من باراك أوباما، الذي تدهورت العلاقة به بعد حظر التبني، وإدوارد سنودن، وسوريا، وإنما تجاهل أيضًا تحذيرات من قادة أمثال أنجيلا ميركل، التي ظلت نظيرته في القارة التي يُعهد إليها بالحفاظ على علاقات وثيقة مع روسيا. وكان متوترًا في حديثه مع ميركل، فقد استنكر الإجراءات الأوروبية الشنيعة ضد روسيا، وأنها وثقت بأوباما لاعتقادها بأن بوتين يعيش اليوم (في عالم آخر)[9].

تعنت بوتين ثبت أنه توحيدي إذ حشد المعارضة الدولية ضده؛ فقد طردت روسيا من مجموعة الثمان التي كان من المقرر أن تعقد قمتها السنوية في صيف عام 2014م في سوتشي التي بنيت حديثًا، وبعد يومين من الضم كثفت الولايات المتحدة من العقوبات، تلاها الاتحاد الأوروبي؛ ولكن هذه المرة استهدفت العقوبات المقربين من بوتين؛ بقصد تغيير سلوكه من خلال معاقبة أصدقائه الذين جمعوا ثرواتهم خلال رئاسته، وكان من بينهم شركاؤه القدامى في الجودو؛ أركادي وبوريس روتنبرغ، وفلاديمير ياكونين، ويوري كوفالتشوك، وأندريه فورسينكو من جمعية أوزيرو، وجينادي تيمتشينكو. وبدأت تطفو على السطح ادعاءات نقاد بوتين منذ سنوات، وأكدت وزارة الخزانة في واشنطن أن بوتين نفسه كان له استثمارات في شركة تيمتشينكو، وغونفور و«ربما عنده إمكانية الدخول إلى أموال غونفور». واتهم الأمريكيون مصرف كوفالتشوك (روسيا) بأنه (المصرف الشخصي) لكبار المسؤولين في الكرملين، ومن بينهم بوتين[10]. منعت العقوبات المستهدفين من السفر إلى الولايات

المتحدة، وجمدت أصولهم، ومنعت الشركات الأمريكية من التعامل معهم، وقيدت أنشطتهم التي تعتمد على الدولار بصورة فعالة في أي مكان تقريبًا.

ستستمر العقوبات الأمريكية والأوروبية في التوسع، وتستفرد بمزيد من المسؤولين والشركات، ومن بينها مصرف روتينبيرغز، وإس. إم. بي. الاختصار الروسي لمصرف طريق بحر الشمال الذي يغطي القطب الشمالي، وقطاعات كاملة من الاقتصاد، ومن ضمنها روزنفت وخططها الطموحة لاستخراج النفط من منطقة القطب الشمالي.

مع ذلك لم يكن لهذه العقوبات الجديدة تأثير واضح أكثر من تلك التي فرضت على مساعدي بوتين الذين يدورون في فلك سلطته الخارجية، وفي الواقع ليس هناك تأثير ملموس، وكأنما لا توجد عقوبات على الإطلاق؛ فعزيمة بوتين لا يمكن تحديها حتى من أقرب الناس إليه؛ فكل أولئك الذين فرضت عليهم العقوبات- من مسؤولين كبار أو صغار، والأصدقاء المقربين أو المعارف، ووكلاء النفوذ أو الشماعات- مدينون له جميعهم بمواقعهم في النظام، إذ كانوا النخبة الجديدة لعهد بوتين، وهم جميعًا فوق القانون، وتحميهم عدالة رجل واحد، واعتمدت سلطتهم وثرواتهم على سلطته وولائهم له. قال فلاديمير ياكونين، الذي رأى في العقوبات إهانة شخصية له، إن صديقه القديم لا يفسح مجالًا لأي شخص أن يحاول ثنيه عن أي قرار يتخذه في ما يعده مصلحة عليا لروسيا، بل ويعد أي جهد من هذا النوع عملًا من أعمال الخيانة؛ قال ياكونين: «لن ينسى ذلك أو يغفره لأحد»[11]، ومن ثم فلم يتجرأ على المعارضة أحد من هؤلاء الذين يواجهون العقوبات، بل أعربوا- الواحد تلو الآخر- عن ولائهم وتضامنهم مع الزعيم، معلنين استعدادهم لتقديم أي تضحية ضرورية في تلك المواجهة. قال جينادي تيمتشينكو: «عليك أن تدفع ثمنًا لكل شيء في هذه الحياة»، وهو أقلهم ثراء، حيث تمكن من بيع أسهمه في غونفور لشريكه قبل يوم من إعلان العقوبات، مشيرًا إلى أن لديه معلومات من الداخل بتهديد يلوح في الأفق، فتحرك بسرعة لحماية أصوله من الحجز. اعترف تيمتشينكو أن طائرته غلف ستريم جاثمة على الأرض لأنه لم يعد قادرًا على شراء قطع غيار لها، وأن بطاقات الائتمان لزوجته أصبحت معلقة، وأنه لم يعد قادرًا على

قضاء عطلته في أوروبا مع أسرته وكلبه رومي، سليل كوني التي يحبها بوتين. وأضاف: «لكن بإمكان المرء أن يطرح جانبًا أعباء الأعمال والمضايقات الشخصية عندما تكون مصالح الدولة على المحك، فهذه تبدو تفاهات على خلفية المشكلات العالمية»[12].

الاحتجاجات كتلك التي تجسدت في سيمفيروبول وغيرها من مدن شبه جزيرة القرم انتشرت في فبراير/شباط من خلال أوكرانيا، وفي أوديسا وقعت مواجهة عنيفة في مايو/أيار بين المحتجين المؤيدين للروس ومؤيدي الحكومة في وسط المدينة، انتهت بحريق في البيت القديم لنقابات العمال، أسفر عن مقتل ثمانية وأربعين شخصًا. الاستفتاءات التي أجريت في ذلك الشهر في جمهورتي دونيتسك ولوهانسك نظمت على عجل، وباتت مشكوكًا فيها من الناحية القانونية كتلك التي جرت في شبه جزيرة القرم، وأعلن جهاز الأمن الأوكراني أنه استولى على تسجيل لأحد زعماء التمرد، ديمتري بويتسوف، من الجيش الأرثوذكسي الروسي، يشكو فيه أنه لا يستطيع الإشراف على التصويت لوجود قوة كبيرة من القوات الأوكرانية، ووجود أسلحة في المنطقة، وأنه «لا يمكن أن نفعل ذلك بصورة قانونية ما دام هؤلاء الزناة موجودين هنا». وكان رجل على الطرف الآخر من الخط يدعى ألكسندر باركاشوف، وهو من النازيين الجدد، ذوي السمعة السيئة في روسيا، الذين انضموا في عام 1993م للمدافعين عن البيت الأبيض في موسكو في تحدٍّ لمراسيم بوريس يلتسين، وطلب منه أن يمضي قدمًا ويجعل النتيجة- لنقل مثلًا- 89 في المئة، فصرخ باركاشوف في وجهه: «هل تنوي جمع الأوراق؟ هل أنت مجنون داعر؟»[13].

بعد فرز الأصوات جاءت النتيجة بحسب ما أوصى تمامًا؛ 89 في المئة، في حين تجاوز رصيده في لوهانسك 96 في المئة. وأعقب الاستفتاءات تصاعد أعمال العنف وصدامات، وانحدرت البلاد إلى حرب مفتوحة، كان الرئيس العام لهيئة الأركان الروسية، فاليري غيراسيموف، يتوقع ذلك على ما يبدو في العام قبل الماضي، عندما صاغ عقيدة عسكرية جديدة بعد عودة بوتين إلى الرئاسة، في رد فعل على الانتفاضات في العالم العربي. كتب الجنرال غيراسيموف[14]: «في القرن الحادي والعشرين شهدنا اتجاهًا نحو ضبابية الخطوط

الفاصلة بين حالتي الحرب والسلام؛ فلم تعد تعلن الحرب، فما إن تبدأ حتى تمضي وفقًا لقالب غير مألوف. تجربة النزاعات المسلحة ومن ضمنها تلك المرتبطة بالثورات الملونة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط تؤكد أن دولة مزدهرة تمامًا يمكن في غضون أشهر، وحتى أيام، أن تتحول إلى ساحة شرسة للنزاعات المسلحة، فتصبح ضحية للتدخل الأجنبي، وتغرق في شبكة من الفوضى، وكارثة إنسانية، وحرب أهلية»، وهذا ما حدث.

وقد ثبت أن ضم شبه جزيرة القرم لم يكن مجديًا، لكنَّ تحول الوضع في شرقي أوكرانيا إلى مزيد من التعقيد، والشكوك بنيَّة بوتين، شوش جهود المتمردين. وقد عمد الرئيس المنتخب حديثًا- الذي حلَّ محل المنفي طواعية يانوكوفيتش، بيترو بوروشينكو، تاجر الشوكولاته- بإصرار على التمسك بالمناطق المتمردة في شرقي البلاد أكثر مما استطاعته الحكومة المؤقتة في قضية شبه جزيرة القرم في مارس/آذار. وأردف الجيش الأوكراني بالميليشيات غير النظامية التي أُسست في أثناء الأحداث في الميدان، وشن هجومًا مضادًّا، وتحرك لاستعادة السيطرة على الأراضي التي لم تعد تسيطر عليها الحكومة، ومع كل يوم يمر يتحول القتال إلى حرب أهلية.

ابتعد بوتين- رسميًّا على الأقل- كثيرًا عن هؤلاء المطالبين بالاستقلال في دونيتسك ولوهانسك، ومع تشديد العقوبات أكثر ربما مما كان يتوقع، طالب بتأجيل التصويت على الاستقلال. أعرب الأمريكيون والأوروبيون عن أملهم بأن تجدي العزلة الدبلوماسية لروسيا، وتشديد العقوبات عليها، في تغيير الخيارات أمام بوتين، وقد أجبرته حقًّا هو وغيره من المسؤولين على النفي بشدة تورط روسيا.

كان المتمردون مع ذلك يحظون بتأييد واسع من روسيا، سواء بصورة رسميَّة أو غير رسمية، وكان قادتهم في البداية من أصول روسية، ومن ضمنهم ضباط سابقون أو ربما ضباط عاملون في الاستخبارات العسكرية، مثل إيجور غيركن، الذي استخدم اسمًا حركيًّا إيجور ستريلكوف. الميليشيات التي أسست- التي لم يكن لكثير منها قيادات واضحة- ضمت

مقاتلين محليين و(متطوعين) من روسيا الذين أصر الكرملين، على نحو غير مقنع، على ضمهم إلى الانتفاضات لمجرد رغبة أخوية منهم للدفاع عن الوطن الروسي. قاتل بعضهم في صراعات سابقة على هامش انهيار الإمبراطورية السوفييتية في التسعينيات في وقت مبكر، مثل أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية في جورجيا، وقطعة من الأرض في مولدوفا، معروفة باسم ترانسنيستريا. وقد عزز وجودهم القوات الخاصة الروسية وضباط المخابرات والقوات النظامية لاحقًا، أُرسلوا بصفتهم (متطوعين) من قبل قادتهم مع وعد بزيادة رواتبهم، وطلب منهم الاستقالة من الجيش وعدم ارتداء أي شارات روسية بناء على أوامر الكرملين. لم يرغب بوتين أن يخاطر بتدخل روسي مفتوح، وأخفى التشويش حجم النشاط الروسي الذي يكفي لإثارة البلبلة، وتسبب- كما تمنى- بانقسام وجدل داخل أوروبا حول كيفية الرد بقوة. وكما توقع غيراسيموف فقد خلطت الصراعات في شرقي أوكرانيا الخطوط الفاصلة بين الحرب والسلام، وبين المحرض والمدافع.

واصل الكرملين إنكار وجود المقاتلين الروس والأسلحة في أوكرانيا مدة طويلة حتى مع عودة الجثث الأولى للجنود الروس، التي دفنت بسرية كما دفنت جثث الذين ماتوا دفاعًا عن الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، واستمر ذلك حتى بعد أن قبض على جنود روس داخل أوكرانيا وطافت بهم السلطات هناك.

يوم 6 يونيو/حزيران سافر بوتين إلى فرنسا لحضور مراسم إحياء الذكرى السبعين لنزول الحلفاء في النورماندي في يوم D، وكان واضحًا أنه منبوذ. وكانت دول مجموعة السبع- بعد أن طردت روسيا- اجتمعت هذا الأسبوع في بروكسل بدلًا من سوتشي، وقد شُمِل بوتين في المراسم التذكارية تحية لمساهمة الاتحاد السوفييتي في هزيمة النازيين، لكن تدخل روسيا في حرب جديدة لطخ حتى تلك المجاملة، فقد أصيب القادة الأوروبيون بمزيد من الإحباط مع نفي بوتين لذنبه، وإصراره على أن الحل الممكن لم يكن إلا بقرار سياسي، بالمقابل كان محبطًا أيضًا من الجهود الأوكرانية لاستعادة السيطرة على المناطق في الشرق. اختبرت أنجيلا ميركل وفرانسوا هولاند رغبته المعلنة للتوصل إلى حل سياسي سلمي

في أوكرانيا من خلال التوسط بمحادثات سلام. وللمرة الأولى منذ أن بدأت الأزمة، التقى بيترو بوروشينكو في نورماندي، بصفته وكيلًا لمناطق المتمردين الذين تنصل من تقديم أي دعم لهم في القتال، ومع ذلك، اشتدت المواجهات بين القوات الحكومية والمتمردين بالأسلحة الثقيلة، ومن ضمنها قذائف الهاون والمدفعية.

بعد شهر، التقى بوتين مرة أخرى بميركل في البرازيل قبيل نهائي كأس العالم بين ألمانيا والأرجنتين، وحضر بصفته زعيم الدولة المضيفة لبطولة عام 2018م، الحدث الكبير المرتقب الذي أطلق من أجله مشروع بناء ملعب ضخم جديد، المشروع الذي كان عرضة لتساؤلات تتعلق بمخالفات تحيط بالعرض الفائز لروسيا[15]. حتى عندما التقيا مرة أخرى للتفاوض ثانية لإعادة وقف إطلاق النار، كانت هناك تقارير جديدة تتحدث عن معدات روسية تعبر الحدود، وبعد يوم واحد أسقطت طائرة شحن عسكرية أوكرانية AN - 26 من ارتفاع أكثر من عشرين ألف قدم على الحدود الروسية بالقرب من لوهانسك، وجاء إسقاطها بعد تدمير طائرة نقل عسكرية أخرى في أثناء هبوطها في يونيو/حزيران، فكان مؤشرًا على زيادة القوة النارية للمتمردين، وبعد يومين انفجرت طائرة مقاتلة سوخوي بصاروخ متطور أرض جو من النوع الذي لم يكن من المعروف أن المقاتلين غير النظاميين يمتلكونه.

بعد ظهر يوم 17 يوليو/تموز نشر الموقع الإلكتروني الذي يستخدمه إيجور ستريلكوف مذكرة يعلن فيها إسقاط طائرة AN- 26 أخرى، هذه المرة بالقرب من قرية تورز، وتقع بين دونيتسك والحدود الروسية، وقال البيان المنسوب إلى ستريلكوف، بلهجة المنتصرين: «لقد حذرناهم ألا تحلق طائراتهم (في سمائنا)»[16]. الأوكرانيون ادعوا لاحقًا أن المكالمات الهاتفية الملتقطة بين مقاتل وضابط مخابرات روسي تؤكد إسقاط الطائرة. لم تكن طائرة عسكرية أوكرانية، على الرغم من أن حطام الطائرة التي أسقطت ينتمي إلى طراز بوينغ 777 وعلى متنها 283 راكبًا و15 من أفراد طاقم الخطوط الجوية الماليزية للرحلة رقم 17 من أمستردام إلى كوالا لمبور، وقد سقطت أجسادهم وسط الحطام على عدة أميال مربعة من الأراضي الزراعية، المزروعة بالقمح.

بكل المقاييس، إلا بالمقياس الروسي، فإن صاروخ أرض جو من بطارية محمولة معروفة باسم 9K37 بوك، هو ما أسقط الطائرة وهي تحلق فوق منطقة دونيتسك. والشهود، ومن بينهم صحفيون من وكالة أسوشيتد برس، شاهدوا البطارية تتحرك في القرى المجاورة، في حين تتبعت تقارير لاحقة وحدة تابعة للجيش الروسي، وبخاصة لواء الصواريخ الثالث والخمسين المضاد للطائرات الذي يتخذ من مدينة كورسك مقرًّا له، وقيل إن الوحدة عبرت الحدود من روسيا في الليلة قبل الماضية وعادت مرة أخرى وعلى متنها ثلاثة فقط من صواريخها الأربعة. وخلص التحقيق الأولي من قبل حكومة هولندا أيضًا إلى أن الطائرة انفجرت في الجو، والأضرار التي لحقت بخزان الوقود تناسب انفجار صاروخ مثل بوك، لا صاروخ من طائرة مقاتلة، وهذا ما أكدته على الفور وزارة الدفاع الروسية[17].

بوتين، الذي كان عائدًا من رحلته إلى البرازيل، تحدث هاتفيًّا مع ميركل وأوباما في ذلك اليوم عندما وقعت المأساة، لكنه أدلى بتصريح مقتضب، ولم يقل شيئًا عن المصدر الواضح للصاروخ؛ فلم يؤكد التورط الروسي ولم ينفه، لكنه وجَّه اللوم في هذه المأساة إلى استئناف القتال في شرقي أوكرانيا، ليشير إلى خطأ الحكومة الأوكرانية في محاولتها استعادة أراضٍ يديرها متمردون مسلحون، وقال في كلمة تلفازية استثنائية، سُلِّمت في الساعات الأولى من صباح يوم 21 يوليو/تموز: «لا ينبغي لأحد، وليس لأحد الحق أن يستخدم هذه المأساة لتحقيق أهدافه السياسية الخاصة».كان يبدو متعبًا وشاحبًا، يقف غير متوازن في مكتبه، وقد احمرت عيناه، وتابع: «هذا النوع من المآسي يجب أن يجمع الناس بدلًا من أن يفرقهم. كل أولئك المسؤولين عن الوضع في المنطقة يجب أن يتحملوا المسؤولية الكبرى تجاه شعوبهم، وشعوب الدول التي قدمت ضحايا في هذه الكارثة». غير أنه حتى اليوم لم يحمِّل نفسه المسؤولية في أي دور له في هذه المأساة، أو في الصراع المميت المتزايد الذي يقتل الآلاف ويهجر مئات الآلاف من منازلهم في القارة التي طالما حلمت بوضع تاريخها الدموي وراءها.

العالم- أو معظم الدول الغربية على الأقل- أصبح صفًّا واحدًا ضد بوتين بعد الرحلة رقم 17؛ فالصحيفة الشعبية البريطانية (ذا صن) صرَّحت أنه (صاروخ بوتين)، وحتى

وكالات أنباء عرفت برصانتها حددت المسؤولية بطريقة لا تقبل الشك. لولا بوتين لما ضُمت شبه جزيرة القرم، ولما اندلعت حرب في شرقي أوكرانيا، ولمَا تناثر حطام الطائرة في حقول القمح؛ تلك هي حرب بوتين، وتلك هي أقصى الجهود التي يبذلها دعاة الكرملين لتعكير المياه، بنشرهم ادعاءات كاذبة ونظريات تآمرية، لم تقدِّم شيئًا لتفادي اللوم، حتى إن لم يفهمها هو، فالآخرون من حوله يفهمونها. كان يمكنه أن يكبح جماح قادة متمردين، وأن يسحب القوات والمعدات الروسية لتسهيل التحقيق الدولي في إسقاط الطائرة، ويحيل المسؤولين عن مقتل 298 شخصًا إلى العدالة، ومع ذلك لم يكن مطلوبًا منه اليوم سوى الإقرار بالإخفاقات التي منيت بها رئاسته، والجرائم المثيرة الأخرى، والفساد الذي أُسس على نظام الولاء الذي أنشأه.

بوتين جعل من نفسه رمزًا لعودة روسيا، ويجب أن تتحقق الفكرة دون أي اعتراف بالخطأ. فقط حين تكون السلطة هي المعبود يمكن أن يكون الزعيم جزءًا لا يتجزأ من الدولة؛ «هنالك بوتين، وهنالك روسيا»، حتى إن الرجل الذي جاء بعد فلاديسلاف سوركوف عام 2011م بصفته إستراتيجيًّا سياسيًّا في الكرملين، فياتشيسلاف فولودين، قال في عام 2014م: «لا بوتين – لا روسيا»[18].

الخلاف بين روسيا والغرب بدا اليوم لا رجعة فيه، وقد كان متعمدًا، وسَّعت الولايات المتحدة عقوباتها قبل يوم واحد من إسقاط طائرة الرحلة 17، وفي أعقاب الحادث أرادت المعارضة في أوروبا أن تكثف عقوباتها، فتبخرت أيضًا. قطاعات كاملة من الاقتصاد، من ضمنها الخدمات المصرفية والطاقة، شملتها العقوبات بالمقاطعة، ولم تقتصر فقط على المسؤولين والأصدقاء المقربين لبوتين. وبحلول منتصف عام 2014م، وصلت قيمة رؤوس الأموال الهاربة التي خرجت من البلاد إلى 75 مليار دولار، في سعي إلى الحصول على ملاذات آمنة في الخارج، وبحلول نهاية العام غادرت البلاد 150 مليار دولار. تراجع الاقتصاد، وتراجعت الاستثمارات بشدة وذوت، وتحطمت قيمة الروبل، على الرغم من جهود المصرف المركزي لدعمه، وانخفضت أسعار النفط التي نسبها بوتين إلى المؤامرة بين

الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، والتي أحدثت توترًا في الميزانية واستنزفت الاحتياطيات التي وفرها بوتين خلال السنوات التي قضاها في السلطة، ودخلت روسيا في أزمة اقتصادية سيئة كتلك التي عصفت بالبلاد في عام 1998م وعام 2009م، ومن ثم باتت تكتيكات بوتين مرة أخرى ذات مردودات سيئة. هلل كثيرون في الغرب لرؤيتهم الأزمة الاقتصادية دليلًا على الألم الذي ألحقته إجراءات بوتين، لكن العزلة عضدت أيضًا وجهة نظر بوتين بأن الأزمات الاقتصادية والدبلوماسية التي تواجهها روسيا جزء من مؤامرة واسعة لإضعاف روسيا؛ أي لإضعاف حكمه.

في اليوم التالي لإسقاط طائرة الرحلة 17، أصدرت محكمة العدل الدولية في لاهاي أخيرًا أحكامها في القضايا المرفوعة من قبل المسهمين من شركة يوكوس حول مصادرة الشركة، مطالبة روسيا بدفع أكثر من 50 مليار دولار عن الأضرار، مستشهدة بدفاع بوتين الخاص عن مزاد جوهرة التاج للشركة قبل عشر سنوات على أنه دليل على تواطؤ الحكومة[19].

كل خطوة ضد روسيا يعتقد اليوم، ساخرًا، أنها هجوم عليه، ويحسبها ضده، ولكن أفعاله كذبت شعوره بالضيم والخيانة، الذي تشحذه الأزمة التي تكشفت في اللحظة نفسها التي حققت فيها روسيا حلمها الأولمبي. كان منيعًا في وجه التهديدات بفرض العقوبات أو العزلة الدولية؛ لأنه يعتقد اليوم أن آراء روسيا، ومصالحها، لن تحترم أبدًا، ويشعر أنه لم يحترَم كفاية، وخاصة بعد عودته إلى الكرملين في عام 2012م بعد أربع سنوات من الغياب والعمل رئيسًا للوزراء.

كان بوتين يشعر أنه غير مخطئ في تصرفاته ضد القرم، وفي وقت لاحق في شرقي أوكرانيا، ومن ثم لم يعد يهتم كيف سيرد الغرب، وأصبح هناك تغيير في سلوك بوتين الحاد بعد إسقاط طائرة الرحلة 17، وفقًا لصديقه القديم، سيرجي رولدوغن: «لقد لاحظت أنه بقدر ما يستثار يصبح أكثر صرامة». كانت الاضطرابات السياسية في أوكرانيا قد أثرت في بوتين شخصيًّا وبصورة عميقة، وكأنها سخرية من المدرسة التي أجبرته على الاندفاع فجأة

وبسرعة. ميركل- بحسب رولدوغن- أغضبته حين استهانت بمخاوفه من المتطرفين في صفوف الحكومة الجديدة في أوكرانيا، ومن تهديدات الأقلية الروسية في البلاد، والفظائع التي ترتكبها القوات الأوكرانية ضد المدنيين. كان الجميع يريدون لومه على الصاروخ الذي دمر الطائرة، ولكن ماذا عن الفظائع التي ترتكبها الحكومة الأوكرانية ضد أولئك الموجودين في شرقي أوكرانيا من ذوي الأصول الروسية؟ إن كان قد تحلى بالصبر مع ميركل وزعماء آخرين، فهو اليوم منزعج، وإن كان قد ساوم في وقت ما، فهو اليوم ثابت لا يتزعزع. أوضح رولدوغن: «كل هذا سبب إزعاجًا له وجعله أكثر لامبالاة، إن لم نقل أكثر عدوانية، هو يدرك أننا سنحلها بطريقة ما، لكنه لا يريد أن يساوم أحدًا بعد اليوم».

بالنسبة إلى بوتين فإن المواقف الشخصية أصبحت سياسة؛ فالبراغماتية التي تحلى بها في ولايتيه الرئاسيتين الأوليين ولَّت منذ مدة طويلة، لكن الاضطراب اليوم في أوكرانيا يشير إلى انفصال جوهري عن المسار الذي اتبعه منذ أن سلمه يلتسين الرئاسة على نحو غير متوقع في مطلع الألفية الجديدة. على مدى أربعة عشر عامًا في السلطة، ركَّز على استعادة روسيا لمكانتها بين القوى العالمية من حيث الاندماج في الاقتصاد العولمي، مستفيدًا ومستغلًّا المؤسسات المالية للسوق الحرَّة- مصارف، وسوق أسهم، وغرف تجارة- ويفيد كذلك كبار رجال الأعمال المقربين منه، وعموم الشعب الروسي بطبيعة الحال. اليوم يريد أن يثبت قوة روسيا مع اعتراف من الغرب أو من دونه، متجنبًا قيمه (العالمية)، وديموقراطيته، وسيادة قانونه، وعدَّه شيئًا غريبًا على روسيا، وهي أشياء لا يعتزمون أن تشمل روسيا ولكن لإخضاعها، فقد كتب الروائي فلاديمير سوروكين بعد قرار الضم: لقد أصبحت الدولة «رهينة المراوغات النفسية لزعيمها، أصبحت كل مخاوفه، ومشاعره، ونقاط ضعفه، وعقده؛ هي سياسة الدولة؛ فإذا كان مصابًا بجنون العظمة فعلى البلد كله أن يخشى الأعداء والجواسيس، وإذا كان لديه أرق فيجب على جميع الوزارات أن تعمل في الليل، وإذا كان ممتنعًا عن المسكرات فيجب أن يتوقف الجميع عن الشرب، وإذا كان في حالة سكر فيجب

على الجميع أن يسكروا ويرفعوا الكؤوس معه، وإذا كان لا يحب أمريكا، التي خاضت عشيقته الـ(كي جي بي) ضدها الحروب، فيجب على كل الأمة أن تكره الولايات المتحدة»[20].

المعارضة لبوتين- والبوتينية- ظلت قائمة، لكن الأحداث التي وقعت عام 2014م قادت إلى أبعد من ذلك؛ نحو هوامش المجتمع؛ فالقادة الذين كانوا يمثلون تحديًا له، أو قد يكونون ذات مرة هكذا، أصبحوا اليوم تحت الحصار أكثر من أي وقت مضى، وقد غادر بعضهم حتى قبل الأحداث في أوكرانيا، ومنهم غاري كاسباروف، الذي خشي اعتقاله الوشيك بعد أن هاتفت لجنة تحقيق ألكسندر باستريكين لوالدته، وتحدثت معها عندما كان مسافرًا؛ فالمكالمة الهاتفية من اللجنة اليوم تشير إلى التحذير بالقدر نفسه الذي كانت فيه الـ(كي جي بي) تقرع على باب المنزل ذات يوم[21]. أعقب كاسباروف عدد آخر من المطاردين من قبل المحققين: الخبير الاقتصادي سيرجي غورييف، الذي كان مستشارًا عند ميدفيديف، والمصرفي السابق من المصرف المركزي، سيرجي أليكساشينكو، وأحد نواب ألكسي نافالني الذي عمل في حملته المناهضة للفساد، فلاديمير أسكوروف، الذي حصل على حق اللجوء السياسي في بريطانيا، وبافل دوروف، مبتكر النسخة الروسية من الفيسبوك، ويدعى فكونتاكتي مثال الجيل الجديد الديناميكي من الروس، حيث باع ما تبقى له من حصته في الشركة وغادر البلاد، قائلًا في وقت لاحق: «لأنني بوضوح من المؤمنين بالأسواق الحرة، فإنه يصعب علي فهم التوجه الحالي للبلاد»[22].

توفي بوريس بيريزوفسكي، الرجل الذي ادعى أنه سيكون سلف بوتين، وأصبح العدو اللدود له، توفي خارج لندن في عام 2013م، منتحرًا ظاهريًّا، حيث وجد مشنوقًا بحبل في الحمام، وقد لازمته- حين كان مضطربًا- الشكوك التي لم تهدأ بأن حياته ستنتهي بطريقة شائنة.

وغيَّر ميخائيل خودوركوفسكي، الذي حصل على العفو من بوتين في شتاء عام 2013م، إقامته وانتقل إلى سويسرا، وأعاد افتتاح مؤسسته (روسيا المنفتحة) مرة أخرى لتعزيز

الديموقراطية في روسيا، وقدم نفسه على أنه زعيم محتمل للحكومة المؤقتة التي ستعمل ذات يوم حكومة انتقالية نحو روسيا الجديدة، لكنه لم يجرؤ على العودة إلى البلاد.

في روسيا، كل من تحدى سيرة الكرملين في أوكرانيا نُبذ؛ فالمؤرخ البارز أندريه زوبوف، عزل من منصبه في معهد موسكو الحكومي للعلاقات الدولية لمقارنته ضم شبه جزيرة القرم بضم هتلر للنمسا في عام 1938م، وهو الحدث الذي أعقبته الحرب وأدى في النهاية إلى سقوط الرايخ الثالث. قال مناديًا في صحيفة (فيدوموستي): «يا أصدقاء... التاريخ يعيد نفسه»[23]. كان إقصاؤه سريعًا وحادًّا كإقصاء الكاتب الساخر فيكتور شينديروفيتش لمرثاته ذهبية المتزلج في دورة الألعاب الأولمبية.

المحرر المؤسس في صحيفة فيدوموستي، ليونيد بيرشيدسكي، أعلن منفاه الخاص في عمود كتبه، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تحدث إلى جيل من المثقفين الذين رأوا أن روسيا بوتين لم تعد متوافقة مع الحريات النسبية التي ترعرعوا عليها. وكتب في صحيفة موسكو تايمز أنه لم يكن فأرًا مذعورًا ليتخلى عن سفينة روسيا الغارقة: «أنا البحار الذي ما إن يشاهد القبطان يغيِّر مساره نحو ميناء ذي سمعة سيئة- ومن مكبرات الصوت يعلن نيته- حتى أُنزلُ بكل هدوء، ومن دون هلع، قارب النجاة، وأبدأ بالتجديف نحو الميناء الذي كنا جميعًا قد قررنا الإبحار نحوه»[24].

بقي آخرون يقاتلون في معركة تزداد عزلة ضد بوتين والقوى القومية التي أطلق لها العنان، منهم أليسكسي نافالني، الذي اعتقل إثر احتجاجه على أحكام قضايا بولوتنايا في ختام دورة الألعاب الأولمبية في سوتشي، وأمضى معظم سنة 2014م تحت الإقامة الجبرية حبيس شقة صغيرة له من العهد السوفييتي في مجمع سكني جنوبي موسكو.

وكان زعيم المعارضة الوحيد الذي خرج من القاعدة الشعبية للمجتمع الذي لم يكن مدينًا للكرملين ولديه ما يكفي من الجاذبية للفوز بالاستقلال عن نفوذه، مُنع شهورًا عدة من لقاء أي شخص سوى أقاربه، ومنع من استخدام الإنترنت، الوسيلة التي استخدمها بصورة

فعالة حتى جعل من نفسه مصدر تهديد لنظام بوتين. بتركيب معدات مراقبة حول شقته بوقاحة تامة، أمضى أيامه يلعب (غراند ثيفت أوتو)، ولم يبق لديه سوى حضور جلسات المحكمة، برفقة حراس من الشرطة، ولم تكفَّ النيابة العامة عن فتح قضايا جديدة، ومنها (سرقة) ملصق في الشارع كان هدية، وقضية أخرى أوصلت شقيقه أوليغ إلى السجن؛ وبات ظهوره في المحكمة أكثر وأكثر انتظامًا؛ فظلال الكرملين ظلت تلاحقه كما لاحقت من قبله المنشقين عنه.

قال داخل شقته في نهاية عام 2014م بعد تخفيف شروط اعتقاله إلى حد ما- معلقًا على ضم بوتين لشبه جزيرة القرم، والشيطنة الدولية التي تلت ذلك-: «ما الذي كسبناه؟ اليوم- بكل أمانة- لا أحد يحبنا». حتى أوكرانيا، الحليف الطبيعي، تكره اليوم روسيا إن لم يكن الروس.

ألقت الحرب بظلالها على حملة نافالني في مكافحة الفساد، والتي ما فتئت تفضح الروابط الإقطاعية الجديدة بين السلطة والمال، وأصبحت حربًا ضد كل شيء غربي، حتى أولئك الذين يدعون إلى مزيد من الانفتاح السياسي والشفافية. لقد أصبحت الشغل الشاغل للمجتمع، حتى النشرات الجوية المسائية التي يشاهدها نافالني على شاشة التلفاز كانت تحذر من أن الحالة في شرقي أوكرانيا «تميل إلى السخونة». قال نافالني إن بوتين أدخل البلاد في «حرب دائمة»، ومن ثم «تعبئة دائمة»؛ لقد حشَّد البلاد وراء مصير واضح خسرته ذات مرة، بغض النظر عن التكلفة في المكانة الدولية. ومع ذلك، فعقب كل قرار كارثي يصدره يصبح بوتين أكثر قوة، ولا سيما في بلد يعيش حالة الحرب، حتى بدت مواقفه لا تتكرر. كان ثمة تناقض لم يفهمه نافالني وآخرون في الداخل والخارج وقد قال عند استقالته: «على صعيد تقوية نظامه أفلح بذلك بوتين، وعلى صعيد المصالح الإستراتيجية لروسيا فقد خسرنا جميعًا»[25].

بوريس نيمتسوف، الذي انتخب لعضوية المجلس الإقليمي في ياروسلافل، واصل حملته ضد بوتين، معتمدًا على حصانته القانونية في المقعد التشريعي لتوفير قدر من الحماية له. وعبَّر عن سخطه من الحرب من خلال مدوناته على فيسبوك وتويتر، واصفًا بوتين بالغول الذي يحتاج إلى الدم لكي يبقى، وأن بوتين أبدى مقاومة ضد الأدلة المتزايدة على أن الروس كانوا يقاتلون ويموتون في أوكرانيا. وشكا من أن العقوبات الدولية والعزلة الدبلوماسية لا تزال غير فاعلة كثيرًا، ويريد جهودًا دولية أقوى لإنهاء نظام بوتين، وليس التفاوض معه. قال نيمتسوف: «هو ليس في عزلة»، وأضاف: «يتحدث إلى ميركل، ويتحدث إلى الجميع». واصل نيمتسوف بشجاعة يجمع الدلائل الواحد تلو الآخر في مفكراته، كتلك المتعلقة بغازبروم، والفساد في سوتشي، ثم إنه حاول أن يوثق تورط الروس في قتالهم شرقي أوكرانيا بناء على أوامر بوتين، سعيًا منه إلى أن يوقظ الضمير السياسي للشعب الروسي على الجرائم التي ترتكب، وسوف يسمي هذه الجرائم ببساطة (حرب بوتين)، ولن يتوقف عندها، على الرغم من ذلك[26].

وذات ليلة من فبراير/شباط 2015م، تعرض لإطلاق نار أودى بحياته حين كان يسير على الجسر المؤدي إلى الساحة الحمراء، فمات على مرأى من الكرملين، وكانت وفاته كوفاة بوليتكوفسكايا في عام 2006م، ضحية حرب كبرى. لم يكن ذلك تصرفًا عنفيًّا عشوائيًّا، ولكنه عملية اغتيال نفذت على درجة عالية من التنظيم، وفي أحد الأماكن الأكثر حراسة على هذا الكوكب. اتهم المقاتلون الشيشان باغتياله، وبالخصوص المجموعة المقربة من رمضان قاديروف، الرجل الذي اعتمد عليه بوتين في إعادة السيطرة على المنطقة التي كانت مهددة بالانفصال عن روسيا، ويعمل حكمه الوحشي اليوم دون ضوابط. المتحدث باسم بوتين الذي لا يعرف التعب، دميتري بيسكوف، قال: ليكن معلومًا أن بوتين صدم بهذه المأساة، لكن تأثير نيمتسوف أيضًا لم يكن كبيرًا.

كما هو الحال مع اغتيال بوليتكوفسكايا أو ألكسندر ليتفينينكو أو سيرجي ماجنيتسكي، قد لا يكون بوتين متورطًا شخصيًّا، أو ربما ليس له علم بذلك، كما يصر أنصاره، ومع ذلك كان من الصعب أن نساجل بأن حقبة بوتين لم تغسل بدم أشد منتقديه.

في 31 يوليو/تموز عام 2014م تجمَّع بعض أغنى أغنياء روسيا في موسكو في مقر اتحاد كرة القدم الروسي للتعامل مع نتيجة غير متوقعة من ضم بوتين لشبه جزيرة القرم، وكان من بينهم مسؤولون في الاتحاد، وكذلك أصحاب فرق محترفة أبرزهم: سيرجي جاليتسكي، صاحب سلسلة من الأسواق التجارية ونادي كراسنودار لكرة القدم، وسليمان كريموف، الملياردير الذي يملك أنجي ماخاتشكالا في داغستان، وفلاديمير ياكونين، الذي رعت سككه الحديدية الروسية لوكوموتيف موسكو، وكان على جدول الأعمال تصويت اللجنة التنفيذية للمؤسسة على استيعاب ثلاثة أندية في شبه جزيرة القرم في الاتحاد الكروي الروسي، والأندية التي تجمعت هناك وكان عندها تحفظات من خطر العقوبات التي يمكن أن تمتد إليهم ولأنديتهم، ويمكن أن يمنعوا من السفر إلى الغرب، وأن يطردوا من المسابقات في أوروبا. قال جاليتسكي شاكيًا: «ليس لدي أي شكوك أننا جميعًا سوف نقع تحت العقوبات»، جاء هذا المقال نقلًا عن حديث متبادل سُجِّل خلسة وسرِّب إلى صحيفة نوفايا غازاتا[27]. أعرب عن إحباطه من أن كل شيء بناه على مدى ربع قرن- سلسلة المتاجر التي تسمى ماغنيت التي يعمل بها 250 ألف شخص، وتبلغ قيمتها 30 مليار دولار- يمكن أن تضيع. شاركه من كانوا في قاعة مؤتمر اللجنة القلق، إضافة إلى خوفه من إغضاب (الرئيس التنفيذي). جاليتسكي وآخرون كانوا يأملون حقًّا تجنب اضطرارهم إلى التصويت، وناقشوا على نحو موارب الحاجة إلى ذلك، وإن كان ثمة بيان يصدر عن وزير الرياضة، فيتالي موتكو، فيمكن أن يكون مفيدًا مثلما كانت كلمة بوتين نفسه. لا أحد منهم يريد أن يوضع على سجل العقوبات نتيجة التصويت مع إصرار رئيس الاتحاد؛ كما أنهم لم يرغبوا في المخاطرة بعصيان بوتين في عدم تصويتهم.

قال: «من الواضح أنني سأستعد للمعاناة»، لكنه لن يفعل ذلك إلا إذا كان خيار (الرئيس التنفيذي) بهذا الشأن واضحًا، وصرَّح جاليتسكي: «بعد ذلك سوف أكون جاهزًا لتدمير كل ما بنيته في أكثر من خمسة وعشرين عامًا».

وعندما عبَّر الرئيس والمالك المشارك في (سسكا موسكو)، يفجيني غينر، عن عدم رغبته، التفت إليه بنزق رئيس النقابة وياكونين، واصفين موقفه بالموقف (الرديء)؛ قال له ياكونين: «بلدنا تحت العقوبات، ورئيسنا يقف وحيدًا على الحافة، وأنت تتحدث عن شد البلاد إلى نقطة يمكن أن يفرضوا من خلالها عقوبات إضافية؟ وهم سوف يفعلون ذلك بصرف النظر عما تفعله، حتى إن زحفت أمامهم على بطنك سيفعلون ذلك! هل تفهم؟ لذلك إما أن تخرج من هذا البلد، أو تتصرف على نحو ملائم، كأي مواطن في هذا البلد».

بعد تسعة أيام من توضيح بوتين لأمنياته، وافقت اللجنة التنفيذية للاتحاد على ضم الأفرقة الثلاثة الجديدة في الدوري الروسي للمحترفين، وقال سيرجي ستيباشين، سلف بوتين في رئاسة الوزراء وعضو اللجنة التنفيذية للاتحاد اليوم، محذرًا: «لا حاجة أصلًا إلى التوجيهات؛ شبه جزيرة القرم أساسًا أرض روسية».

باتت شبه جزيرة القرم الصرخة الجديدة التي من حولها تتوحد الأمة خلف بوتين، وهي الحجة التي أنهت كل نقاش. الضم رفع شعبيته فوق 85 في المئة، وحالة الحصار التي تبعته- ضُخِّمت من قبل دعاة الأورويليان (نسبة إلى جورج أورويل) على التلفاز الرسمي- كانت دعمًا مستدامًا لشعبية بوتين في البلاد لأشهر قادمة. بعد ربع قرن من الانفتاح الاقتصادي والثقافي منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، بدأ ينظر معظم الروس مرة أخرى إلى العالم الخارجي وكأنه العدو على الأبواب، الذي يخافونه ويجب مقاومته. ذهنية الحصار تسوغ أية تضحيات؛ و«عندما يشعر الروسي بأية ضغوط خارجية، فلن يتخلى عن قائده مطلقًا»، هذا ما قاله أحد نواب رئيس وزراء بوتين، إيجور شوفالوف، الذي يُعَد أحد الليبراليين في حكومته[28]، وأضاف: «إننا سنبقى على قيد الحياة رغم الصعاب في البلاد؛ نأكل كمية أقل من الطعام، ونستخدم كمية أقل من الكهرباء».

الخوف من اللوم، أو ما هو أسوأ، أسكت بكل تأكيد الأصوات المعارضة، لكن بوتين استعاد مكانه في قمة السلطة، بوصفه الزعيم الذي لا جدال عليه في بلد لم تعد الديموقراطية فيه إلا في زيف الانتخابات الدورية.

بعد عودته إلى السلطة في عام 2012م عاد بلا هدف واضح سوى ممارسة السلطة ذاتها، فقد وجد بوتين اليوم العامل الموحد لأمة متنوعة كبيرة وطالما بحث عنه؛ وجد غرضًا ألفيًّا (للألف الثالثة) للسلطة التي يشغلها، الغرض الذي صاغ به بلاده أكثر ما صاغه أي زعيم آخر حتى اليوم في القرن الحادي والعشرين، فلم يُعِد الاتحاد السوفييتي ولا الإمبراطورية القيصرية، لكنه صاغ روسيا الجديدة بخصائص وغرائز كل منهما على حد سواء، ونصب نفسه أمينًا عامًّا ومليكًا لا يستغنى عنه، في بلد استثنائي أيضًا؛ «لا بوتين، لا روسيا»، لقد وحَّد البلاد وراء زعيم وحيد يمكن أن يتخيله اليوم أي شخص؛ لأنه كان- كما في عامي 2008م و2012م- لا يرغب في ظهور أي بديل له.

عندما (اختفى) عن الرأي العام عشرة أيام في مارس/آذار 2015م، بدت النخبة السياسية مشلولة، وامتلأت وسائل الإعلام بتكهنات محمومة؛ هل بوتين مريض؟ هل هناك انقلاب؟ هل يواجه صراعًا داخليًّا على السلطة نتجت عن اغتيال نيمتسوف، الذي اقتُفِي أثر قاتليه إلى الشيشان التي احتفظ بها في فلك روسيا تحت زعامة رمضان قاديروف؟ كان ثمة شائعات جديدة أنه أصبح أبًا لطفل آخر من ألينا كابابيفا، التي استقالت من مقعدها في مجلس الدوما، وانضمت إلى المجموعة الوطنية للإعلام، التي يسيطر عليها مصرف (روسيا) وصديق بوتين القديم، يوري كوفالتشوك، في حين أن آخرين كانوا على قناعة بأنها مجرد جولة جديدة من العلاج الطبي في الظهر، أو الجراحة التجميلية. أيًّا كان التفسير فقد أثبت غيابه المقتضب وغير المنطقي عن الرأي العام، في نهاية المطاف، أنه وحده الذي يوفر الاستقرار الذي يبقي نظام النهب غير العملي في مكانه، ويبقي كذلك فصائل نخبة بوتين في توازن ثابت.

اليوم حكم بوتين لم يكن مستمرًّا أكثر مما كان حتميًّا، ومع ذلك بدا نظامًا قاسيًا، ولن يواجه أي تحد واضح لسلطته قبل الانتخابات الرئاسية المقرر إجراؤها في عام 2018م. ويمكن بموجب القانون أن يبقى ست سنوات أخرى بعد ذلك، وإذا تنحى عام 2024م فلن يكون قد بلغ بعد الثانية والسبعين من العمر، وقد توفي بريجنيف في مكتبه في الخامسة والسبعين، وستالين في الرابعة والسبعين. وربما يسلِّم السلطة لزعيم جديد، ربما لميدفيديف مرة أخرى، أو لأي عضو آخر من الدائرة الداخلية، وهذا الأمر يعود إليه في نهاية المطاف؛ فمصير روسيا اليوم يتداخل مع مصيره، والاندفاع إلى الأمام، كما الترويكا في **النفوس الميتة** لجوجول، يقود إلى المصير المجهول، ربما بوتين نفسه لا يعرف إلى أين، سوى أنه إلى الأمام، متهور، غير تائب، شجاع. «الهواء يلعلع، يتحطم إلى شظايا، وينذر بالرياح»، كتب جوجول عن الترويكا[29]، «كل شيء على هذه البسيطة إلى زوال، تبدو عليه الريبة، دول وأمم أخرى تتنحى لتفسح الطريق لغيرها».

شكر وتقدير

في كتابة هذا الكتاب، أنا مدين بشدة لكثير من الناس ومؤسستين كبيرتين؛ فهذا الكتاب ببساطة ما كان ليجد طريقه إلى النور لولا صحيفة نيويورك تايمز، حيث كان لي شرف العمل فيها منذ عام 1989م، وأنا شاكر للمحررين الذين أرسلوني مراسلًا من موسكو في عام 2002م، ومرة أخرى في عام 2013م، الذين منحوني إجازة لكتابة الكتاب، وأخص بالذكر المحررين التنفيذيين: جو ليليفيلد، وهاويل رينز، وبيل كيلر، وجيل أبرامسون، ودين باكيوت، والمحررين للشؤون الخارجية روجر كوهين، وسوزان شيرا، وجو كان. وقد كان العمود الفقري لهذا الكتاب ليس فقط من التقارير التي كتبتها لصحيفة تايمز، وإنما أيضًا مما كتبه الزملاء السابقون والحاليون في مكتب موسكو: ستيفن إيرلانغر (الذي كان أول من أجرى مقابلة مع فلاديمير بوتين للصحيفة في أبريل/نيسان 1992م)، وفرانك كلينس، وسيرج شميمن، وفيليسيتي بارانغر، وسلستين بولن، ومايكل سبكتر، وأليساندرا ستانلي، ومايكل غوردون، ومايكل واينز، وصابرينا تافرنيز، وسونيا كيشكوفسكي، وسيث مايدانز وايرين آرفيدلوند، وراشيل ثومر، وكريس تشيفرز، وأندرو كرامر، ومايكل شوارتز، وكليف ليفي، وإلين بيري، وأندرو روث، وديفيد هيرزينهورن، وباتريك ريفيل، وأخيرًا، جيمس هيل، الذي صوره من بين تلك الصور المدرجة في الصفحات السابقة.

لا شيء من عملنا كان ممكنًا من دون موظفي المكتب، لا سيما: ناتاشا بوبينوفا، وأوليغ شيفتشينكو، وبافل تشيرفياكوف، وألكسندرا أوردينوفا، وخصوصًا المترجمين الرائعين، حلالي المشكلات، ورفاق السفر، والأصدقاء: نيكولاي خاليب وفيكتور كلمينكو. وأود أيضًا

أن أشكر ماريا غونتشاروفا لمساعدتها في سلسلة من المقالات في عام 2014م عن الركائز الاقتصادية لحكم بوتين، التي كتبتها بالاشتراك مع زملائي جو بيكر وجيم ياردلي.

أما المؤسسة الأخرى فهي مركز وودرو ويلسون الدولي للباحثين في واشنطن العاصمة، الذي وفر لي مكانًا للدراسة والكتابة في معهد كينان التابع له، حيث كانت الأجواء جادة، وغير حزبية، وبهيجة تمامًا. أشكر مدير المركز، جين هارمان، وكذلك بلير روبل، وروبرت تواك، وويل بوميرانز، مساعدي البحوث هناك، وغريس كينيلي. وموظفي مكتبة المركز: جانيت سبايكس، وداغني جيزاو، وميشيل كاماليتش، الذي وجهني ليس فقط من خلال أكوام مجموعات جورج كينان، ولكن أيضًا في مكتبة الكونغرس، التي تمنح الباحثين والعلماء في المركز سهولة الوصول الخاص إليها. لقد اعتمدت في البحث على أملوت شونفيلد في برلين ودريسدن، ونوح سنيدر في موسكو، وبريون ماك ويليامز، صديقي القديم، المؤلف والمترجم، ورفيق ألبانيا، وحمام الساونا، وكذلك المصادر الغامضة، في حين كان يتصرف خبيرًا في الفروق الدقيقة في اللغة والثقافة الروسية. وآخرون قرؤوا كل الكتاب أو أجزاء منه، وشاركوا بآرائهم ورؤاهم ومشورتهم وتشجيعهم، ومنهم نينا خروتشوفا، وجيرالدين فاغان، وفرانك براون، وناثان هودج، وماكس ترودوليوبوف، وروري ماكفاركهار.

وقد استشرت عددًا من الخبراء الآخرين بالروسية، ومعظمهم قد نشروا كتبهم الخاصة حول مواضيع مدرجة هنا، ومنهم أندرس آسلوند، وهارلي بالزر، وكارين داويشا، وكليفورد جادي، ومارك غالوتي، وثين غوستافسون، وفيونا هيل، وأوليج كالوجين، وديفيد كرامر، وأندرو كوتشينز، وكليف كوبشان، وأندريه ميروشنيشينكو، وروبرت أورتنغ، وبيتر ريداواي، وأندريه سولداتوف، وديمتري ترينين.

كان هناك عدد من المسؤولين في روسيا والولايات المتحدة الذين قدموا معلومات بشرط عدم التعريف بهم، وأنا أقدر ثقتهم. مصدر آخر على مر السنين – وشخصية من شخصيات هذا الكتاب – كان بوريس نيمتسوف، الذي اغتيل في فبراير/شباط 2015م

بالقرب من الكرملين، تمامًا عندما كنت على وشك الانتهاء من هذا الكتاب، وكان أحد الوطنيين الروس. أدعو الله أن تسود العدالة.

أنا مدين بدين واحد للاري ويسمان، الوكيل الأدبي الذي وصل قبل أكثر من عقد من الزمان وزرع البذرة التي نمت في هذا الكتاب. وأود أيضًا أن أشكر المسؤولين في ألفريد أ. كنوبف الذين وافقوا على نشر هذا الكتاب، والذين ساعدوا على ترابط أجزائه معًا، خصوصًا المحرر اللطيف، أندرو ميلر، وكثيرين ممن دعموني بطريقة ما، سواء كان دعمهم كبيرًا أم صغيرًا، والذين أتردد في تسميتهم خوفًا من السهو عن أي منهم، ولكن من ضمنهم بوريس شختمان، الذي كان أول من درسني الروسية، وسفيتا برودنيكوفا، التي لم تكل من محاولاتها أن تجعل لغتي الروسية أفضل بروح لا يمكن كبتها. وزملائي من صحيفة نيويورك تايمز ومن غيرها: كاثرين بيلتون، وآلان كويل، وآلان كوليسون، وبيتر فين، ونيكول غاويتي، وإيزابيل غورست، ونيك كوليش، وألبينا كوفاليوفا، ومارك مازيتي، وآنا نمتسوفا، وأركادي أوستروفسكي، وشارون واينبرغر.

أخيرًا، أشكر زوجتي، مارغريت كزافييه مايرز، وبناتنا: إيما ومادلين، الذين تحملوا عددًا من المتاعب في المشاركة في هذا الجهد، ولمن قد خصصت هذا الكتاب.

ملاحظات

اقتباس

فيودور دستويسفكي، الإخوة كارامازوف، ترجمة أندرو آر. ماكان درو (نيويورك: بانتام بوكس، 1970) ص: 34-35.

الفصل الأول: إنسان العصر السوفييتي

1. تاريخ إصابة فلاديمير سبيريدونوفيتش بوتين وتفاصيل الوحدة التي عمل فيها نقلتها الوكالة الرسمية الروسية، في أثناء زيارة تذكارية قام بها بوتين إلى ساحة المعركة في عام 2004، وقد تغيَّر اسم الوكالة لتصبح سبوتنيك في عام 2014؛ انظر إلى: http://sputniknews.com/onlinenews/20040127/39906137.hotmail.
2. مايكل جونز، لينينغراد: حالة الحصار (نيويورك: بيسك بوكس، 2008)، ص: 139.
3. غيفوركيان، وناتاليا، وناتاليا تيماكوفا، وأندري كولسنيكوف، الشخص الأول: الصورة الشخصية المذهلة التي رسمها الرئيس فلاديمير بوتين، نيويورك: بابلك أفيرز، 2000 ص: 7 - يذكر بوتين بأن شبابنا احتفظوا بالمواقع المتقدمة في أثناء الحرب، وهذا ليس صحيحًا.
4. شهادة محاكمات نورمبيرغ، .http://avalon.law.yale.edu/imt/02-22 -46.asp Anna Reid, Leningrad: الحصار الملحمي للحرب العالمية الثانية، 1941-1944 (نيويورك: ووكر، 2011)، واستشهدت كذلك بالنظام، ص: 135. إضافة إلى تاريخ الحصار لجون وريد، انظر كذلك إلى هاريسون إي. ساليسبيرغ، الأيام التسع مئة:

حصار لينينغراد (نيويورك: هاربر ورو، 1969) وأليكس آندر ويرث، روسيا في الحرب بين عامي 1941–1945 (نيويورك: أي. بي. داتون، 1964) الجزء الثالث.

5. ريد، ص: 114.
6. غيفوركيان وآخرون، ص: 3.
7. كريستوفر أندرو وفاسيل متروخين، السيف والدرع : أرشيف متروخين والتاريخ السري للكي جي بي (نيويورك: بيسك بوكس، 1999) ص: 99.
8. غيفوركيان وآخرون، ص: 6.
9. أوليغ إم. بلوتسكي، فلادمير بوتين: قصة حياة (موسكو: العلاقات الدولية، 2004) ص: 83.
10. ويرث، ص: 308.
11. ماكس هاستنغز، الجحيم: العالم في الحرب، 1939–1945 (نيويورك: ألفريد أي. كنوف، 2011) ص: 169 يشير هاستنغز إلى أن الامتياز أبعد المعاناة بمعظمها).
12. غيفوركيان وآخرون، ص: 5 الترجمة الإنجليزية تشير خطأً إلى شقيق ماريا بطرس، في حين أن بوتين لم يسمِّ أخيه. النقيب هو إيفان إيفانوفيتش شيلوموف. ماريا كان لها أخ بيوتر الذي توفي على الجبهة في الأيام الأولى للحرب.
13. غيفوركيان وآخرون، ص: 6 بوتين نفسه سرد هذا القصة مرارًا وتكرارًا، وإن كان ذلك بتغيير التفاصيل التي يستحيل التحقق منها. في عام 2012 أخبر هيلاري رودهام كلينتون أن والده قد وجد ماريا في كومة من الجثث، وقد تعرف عليها من خلال حذائها، وطالب بأخذ جثتها، واكتشف أنها لا تزال على قيد الحياة. روت كلينتون هذه الحكاية في هارد سي أويسيز (نيويورك: سيمون وشوستر، 2004) ص:243.
14. غيفوركيان وآخرون، ص: 8، 9.
15. جونز، ص: 249. وانظر كذلك إلى ويرث، ص: 309، ونيزيفيسيموي فوينوي (مراجعة عسكرية مستقلة) 14 مارس (آذار) عام 2003.

16. جونز، ص: 141.
17. غيفوركيان وآخرون، ص: 8-9.
18. يقدم لنا ريد عن لينينغراد التاريخ المروع لحصارها، كما فعل هاستينغز في كتابه الجحيم، ص: 164-171. انظر أيضًا إلى سالزبوري، وجونز.
19. نيقولاي زينكوفيتش، موسوعة بوتين (موسكو: أولمابرس، 2006 ص: 363.
20. في عام 2012، وجدت مجموعة في سانت بطرسبرغ سجلًا عن وفاة شقيقه، ودفنه في السجن، فقد سبق أن قال بوتين أنه لا يعلم عنه شيئًا، على الرغم من أنه يذكره في غيفوركيان وآخرين، وفي الشخص الأول، وفي صحيفة نيويورك تايمز في 28 يناير (كانون الأول) عام 2012.
21. يمكن العثور على أسماء أعمام بوتين الذين قتلوا في الحرب في كتالوج على الإنترنت عن ضحايا الحرب، على الموقع الآتي: www.obd-memorial.ru. ريتشارد ساكوا، عن بوتين: خيار روسيا (لندن: روتليدج، 2004)، يصف الخسائر التي تعرضت لها عائلة والدة بوتين.
22. الروس يستخدمون الاسم الأول للأب: فلاديمير سبيريدو - نوفيتش، هو ابن سبيريدون؛ فلاديمير فلاديميروفيتش، ابن فلاديمير؛ وما إلى ذلك، فاستخدام كل من الاسم الأول واسم الأب هو علامة على الاحترام والشكلية.
23. ريد، ص: 402.
24. غيفوركيان وآخرون، ص: 3.
25. المصدر نفسه، ص: 17.
26. انتشرت شائعات لسنوات عديدة أن بوتين ولد من امرأة أخرى، وتخلت عنه في وقت لاحق ليتبناه أقارب بعيدون، فلاديمير وماريا بوتين. كما انتشرت شائعات في عام 2008 عندما ادعت امرأة في جورجيا أنها والدته، لكن ليس هناك أي أدلة على مصداقيتها.

27. روى بوتين هذه القصة في مناسبات عديدة وتفاصيل مختلفة، وبطبيعة الحال، هو لا يتذكر نفسه، ومن ثم اعتمد على القصة التي روتها له والدته، وتحدث عن هذه الرواية في تصريحات له للصحفيين خارج الكاتدرائية في عيد الميلاد لعام 2000. انظر إلى: http://www.youtube.com/watch?feature=player_detailpage&v=u3d_yxlhmjk.

28. ساكوا، ص: 3.

29. غيفوركيان وآخرون، ص: 11 حين تذكر بوتين جاره، لم يبدِ إعجابه بما يكنه جاره من وفاء له، لم يبدِ إعجابه بما يكنُّه جاره من إيمان، مشيرًا إلى أنه كان يدندن باللغة العبرية. وجدت أن صبري قد نفد، ولا بد أن أسأل عن هذه الدندنة، فشرح لي عن التلمود، لكن سرعان ما مللت من حديثه.

30. المصدر نفسه. ص:10.

31. المصدر نفسه. ص: 18.

32. المصدر نفسه. ص: 16.

33. المصدر نفسه. ص: 11.

34. فيكتور بوريسنكو، اشتقّت من موسكوفسكي كومسوموليتس، 1 أغسطس آب 2003، ومن ألن سي لينتش، فلاديمير بوتين، والكفاءة السياسية الروسية، (واشنطن، دي سي: بوتوماك بوكس، 2011) ص: 14.

35. غيفوركيان وآخرون، ص: 18.

36. المصدر نفسه، ص: 18.

37. المصدر نفسه، ص: 19.

38. موسكوفسكي كومسوموليتس، أغسطس، 1 آب 2003.

39. أجريت له مقابلة في عام 2012 في فيلم وثائقي ألماني، بوتين، والتي عرضت لاحقًا على قناة NT في حفل تنصيب بوتين لولاية ثالثة في 7 مايو 2012.

40. موسكوفسكي كومسوموليتس، 1 آب 2003.

41. فيرا غورفيتش، ذكريات رئيس المستقبل، موسكو: العلاقات الدولية، 2001) ص:31

42. فاديم كوزهفنيكوف، السيف والدرع (لندن: ماجيبون وكي، 1970).
43. كوميرسونت، 25 يوليو تموز 2010.
44. غيفوكيان وآخرون، ص: 22
45. كريس هاتشنز مع ألكسندر كوروبكو، بوتين (ليستر، الولايات المتحدة: ماتادور، 2012) ص: 26.
46. غيفوركيان وآخرون، ص: 23.
47. انظر إلى: http://www.scotsman.com/news/international/mccartney-rocking-back-11385940
48. موسكوفسكي كوكومسوموليتس،1 أغسطس، آب 2003.
49. بلوتسكي فلاديمير بوتين: أيستوريا شيزني، ص: 180.
50. غيفوركيان وآخرون، ص: 21.
51. كومسومولسكايا برافدا، 4 أكتوبر 2007، كشف مينا يوديتسكايا في مقابلة أن بوتين قد قدَّم لها شقة سكنية خلال زيارة رسمية له إلى إسرائيل، حيث هاجرت بعد وقت قصير من إنهاء دراستها. انظر إلى: www.kp.ru/daily/23979.3/74288
52. نيويورك تايمز، 20 فبراير شباط 2000.
53. غيفوركيان وآخرون، ص: 22، قال فيرا غورفيتش في مقابلة أجريت معه: لم تكن الفتيات موضع اهتمام فولوديا، وإنما كان موضع اهتمام عندهن.
54. انظر إلى /http://english.pravda.ru/society/stories/04-03-2006/76878-putin-0.
55. غيفوركيان وآخرون، ص:22.
56. لينش، ص: 23، ماشة جيسين، رجل بلا وجه: الصعود غير المرجح لفلاديمير بوتين (نيويورك: ريفيرهيد بوكس، 2012) ص: 55.
57. روى بوتين قصة معطفه، ورحلته إلى غاغري في مقابلة له مع الصحفيين في أبخازيا في 12 أغسطس، آب 2009، وهي متوافرة على الموقع الإلكتروني: www.kremlin.ru أو en.kremlin.ru، إضافة إلى تصريحاته العامة كافة، وما لم يذكر

منها خلاف ذلك، يمكن العثور عليها من خلال البحث في هذه المواقع، إما من خلال اليوم الذي عرضت فيه أو من خلال الموضوع، وفي اللغتين الروسية والإنجليزية. كلمة تحذير واحدة: الإصدارات باللغة الإنجليزية لبعض الخطب أو التعليقات يمكن أن تكون محورة أو محررة، وخاصة في التعليقات المثيرة للجدل.

58. غيفوركيان وآخرون ص: 32.
59. المصدر نفسه. ص: 36.
60. المصدر نفسه. ص:41.
61. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: تاريخ حياة.
62. غيفوركيان وآخرون، ص: 40.
63. المصدر نفسه، ص: 42.

الفصل الثاني: قلب دافئ، ورأس بارد ويدان نظيفتان

1. غيفوركيان وآخرون، ص: 32.
2. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: تاريخ حياة، ص: 89-288.
3. جي. مايكل وولر، الإمبراطورية السرية: الكي جي بي في روسيا اليوم (بولدر، CO: منشورات ويستفيو، 1994) ص: 14–17.
4. يوري سي. بورتسوف، فلاديمير بوتين (موسكو: فينكس، 2001) ص: 74.
5. بلوتسكس، فلاديمير بوتين: تاريخ الحياة، ص: 105.
6. أي. أي. موخين، حضور السيد بوتين والذين معه (موسكو : غنوم آي دي، 2002) ص: 27.
7. أندرو وميتروخين، ص: 5.
8. فلاديمير أوسولتسيف، سوسلوزيفيتس: الرفيق: الصفحات المجهولة من حياة الرئيس (موسكو: إكسمو، 2004) ص: 18، أوسولتسيف الذي يكتب تحت اسم مستعار، يشير إلى عمل بوتين في المديرية الرئيسة الخامسة بطريقة غير مباشرة، ولا يتطرق إليها في مذكرات التمجيد الأخرى التي تتناول الزمن الذي أمضياه معًا

في درسدن. نفى بوتين أن يكون قد عمل ضد المعارضين، ولكن تفاصيل ذكريات أوسولتسيف لم يستطع أحد نفيها على الإطلاق.

9. كوينراد دي وولف، منشق من أجل الحياة: ألكسندر أوغورودنيكوف والصراع من أجل الحرية الدينية في روسيا، ترجمة نانسي فوريست فلاير (غراند رابيدز MI: وليم بي. إيردمانز، 2013) ص: 17-111.
10. غيفوركيان وآخرون، ص: 40، لاحظ محررو النسخة الإنجليزية أن وصف بوتين للمخبرين لم يظهر في مقالات الصحف الروسية استنادًا إلى المقابلات التي أجريت معه.
11. أوليج بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة (موسكو، منشورات أوسموس،2002)، ص: 95.
12. المصدر نفسه، ص: 113.
13. يوري بي. شيفتز، محطة واشنطن: حياتي بصفتي جاسوسًا للكي جي بي في الولايات المتحدة (نيويورك، سيمون وتشوستر، 1994)، ص: 84
14. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة.
15. غيفوركيان وآخرون، ص: 52.
16. المصدر نفسه، ص: 44.
17. أندرو ومتروخين ص: 5.
18. بورتسوف، ص: 77، وانظر كذلك إلى كالوجين، مقتبس من لينش.
19. أندرو ومتروخين، ص:214.
20. كريستوفر أندرو وأوليغ غورديفسكي، كي جي بي: القصة الداخلية لعملياتها الخارجية من لينين إلى غورباتشوف (نيويورك: هاربر كولينز، 1990) ص:615.
21. غيفوركيان وآخرون، ص: 39.
22. المصدر نفسه، ص:56. اسم خطيبته الأولى ليودميلا خمارينا ذكرها فلاديمير بريبلوفسكي في موقعه الإلكتروني http://www.anticompromat.org/putin/

hmarina.html، وورد ذكرها في كارين داويشا، حكومة اللصوص لدى بوتين: من الذي يملك روسيا (نيويورك: سيمون وشوستر، 2014)، ص: 142.

23. غيفوركيان وآخرون، ص: 57.
24. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 15.
25. بورتسوف، ص: 80.
26. ليودميلا بوتينا تقدم لنا شرحًا مطولًا عن تجاربها وتوددها لبوتين في بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة.
27. غيفوركيان وآخرون، ص: 58.
28. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 57.
29. المصدر نفسه ص: 57–58.
30. المصدر نفسه 58–60.
31. المصدر نفسه، 59–60.
32. المصدر نفسه، 43–44.
33. غيفوركيان وآخرون، ص: 59–60.
34. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة. ص:53.
35. نيويورك تايمز، 20 فبراير شباط 2000.
36. أندرو وغورديفسكي، ص:612.
37. غيفوركيان وآخرون، ص: 68.
38. أندرو وغورديفسكي، ص:61.
39. غيفوركيان وآخرون، ص:53.
40. أندرو وميتروخين/ ص: 416.
41. غيفوركيان وآخرون ص:63.
42. أندرو وغورديفسكي. 614.
43. لقاء المؤلف مع سيرجي رولديوجين، سبتمبر أيلول 2014.

44. غيفوركيان وآخرون، ص: 55.

الفصل الثالث: الضابط المتفاني لإمبراطورية تحتضر

1. غاري بروس، الشركة: القصة الداخلية لستاسي (أكسفورد: منشورات جامعة أكسفورد 2010) ص: 12.
2. غيفوركيان وآخرون، ص: 73.
3. أندرو ومتروخين، السيف والدرع، ص:72-271.
4. مقابلة أجراها الكاتب مع هربرت فاغنر، عمدة درسدن السابق ومدير متحف ستاسي.
5. أوسولتسيف، ص: 50؛ لماذا يغريك الغرب؟ أوسولتسيف يتذكر قولًا للألمان ((لديكم بالفعل الجنة كاملة)).
6. المصدر نفسه، ص: 123.
7. المصدر نفسه، ص: 105، يقول أندرو وجورديفسكي: إن الضغط الذي مارسه رؤساء مقرات الكي جي بي كان كبيرًا جدًّا لدرجة أنه في التقارير المتعلقة في موضوعات معينة، غالبًا ما ينسبون هذه التقارير إلى معلومات حصلوا عليها من عملاء لم يكشف عن أسمائهم، وهم في الواقع حصلوا عليها من وسائل الإعلام، أو أنهم يخترعون أحيانًا تفاصيل يعتقدون أنها سترضي المركز. (ص: 618).
8. أوسولتسيف، ص: 68.
9. المصدر نفسه، ص: 49.
10. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 234، 238.
11. غيفوركيان وآخرون، ص: 75.
12. أوسولتسيف. ص: 64.
13. اللقاء الذي أجراه الكاتب مع هورست جميلش، دريسدن، يناير 2013.
14. أوسولتسيف. ص: 124–228.

15. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 49-251.
16. المصدر نفسه، ص: 86–256.
17. التقرير عن الجاسوس بالكوني BALCONY قام بنشره إريش شميدت إبنبوم، وهو صحفي كتب بشكل مسهب عن الحزب الديموقراطي الوطني، (BND) وستاسي، في بيرلينر تسايتونج في 31 أكتوبر 2011، خلال سنوات عديدة من رئاسة بوتين. كما يتوافر تقرير مطول عن أنشطة بوتين في ألمانيا باللغة الألمانية على الموقع الآتي: http://www.geheimdienste.info/texte/beutezug.pdf. لم يتم التحقق من صحة الحساب، كون التقارير التي يرتكز عليها تقارير سرية للغاية.
18. أوسولتسيف ص: 110.
19. المراسلة مع أوي مولر، وهو ضابط ستاسي سابق تحول إلى محلل.
20. المقابلة التي أجراها المؤلف مع سيغفريد داناث، دريسدن، نوفمبر، كانون الأول،2012.
21. يتضمن كتاب بلوتسكي الطريق إلى السلطة صورة جماعية لضباط المخابرات الألمانية والروسية في دريسدن. يجلس ماتفيف في الوسط وبوتين بعيدًا إلى يمينه. انظر إلى الصورة المدرجة.
22. صرح أوسولتسيف بهذا التعليق في مقابلة له مع دير شبيجل، 20 أكتوبر 2003، قبل أن ينشر مذكراته.
23. أوسولتسيف، ص: 130.
24. المصدر نفسه، ص: 211.
25. المصدر نفسه، ص: 185.
26. بورتسوف، ص: 83.
27. أندرو وغورديفسكي، ص: 535.
28. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة.
29. نيويورك تايمز، 7 أكتوبر 1989.

30. غيفوركيان وآخرون، ص: 77–85.
31. بلوتسكس، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 61-260.
32. المصدر نفسه، ص: 260، غيفوركيان وآخرون، ص: 79.
33. غيفوركيان وآخرون، ص: 79 مع أن الترجمة فيها شيء من عدم الدقة.
34. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 63-261.
35. مقابلة المؤلف مع سيغفريد داناث.

الفصل 4 : الديموقراطية تواجه مجاعة الشتاء

1. غيفوركيان وآخرون، ص: 80.
2. المصدر نفسه، ص: 79.
3. ماركوس ولف مع آنا ماكلفوي، الرجل من غير وجه: السيرة الذاتية لأكبر جاسوس لدى الشيوعية (نيويورك: تايمز بوكس، 1997) الصفحة 5، 224.
4. جون أو كولر، ستاسي: القصة التي لم تروَ عن الشرطة السرية الألمانية (بولدر، كو: منشورات ويستفيو 1999) ص: 23. يقول إن مكان موت بوهيم كان في مكتبه، في حين أن التقارير الإخبارية إنه في شقته.
5. المقابلة التي أجراها المؤلف مع هورست جمليش في دريسدن يناير، كانون الثاني 2013.
6. أجريت المقابلة له في فوينو- بروميشلني كوريور، في 14 فبراير شباط عام 2005، vpk-news.ru/ المقالة رقم 3728. بوتين في تذكره لتدمير الملفات يشير إلى انفجار الفرن؛ فليس من الواضح ما إذا كان يتذكر الحادث أو أنه مجرد تكرار للحكايات – ربما كان مبالغ فيها – التي سمعها.
7. زوشولد الذي أجرى معه المقابلة مارك فرانشيتي في صحيفة صنداي تايمز، في 19 مارس / آذار 2000. جرى التشكيك في جوانب التقارير الإخبارية عن جهود

تجنيد بوتين الأخيرة في درسدن، في حين أن التقارير الإخبارية الأخرى تخلط بين الأساطير والحقيقة، ولكن تقرير زوتشولد لم يكن موضع تنازع.

8. آدم تانر، رويترز، 26 مايو أيار 2000.
www.russialist.org/archives/4327.html#2

9. المقابلة التي أجراها المؤلف مع سيرجي رولدوجين، في شهر سبتمبر أيلول 2014.

10. المقابلة التي أجراها المؤلف مع يورغ هوفمان في دريسدن في كانون الأول نوفمبر عام 2012.

11. غيفوركيان وآخرون، ص: 87،

12. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة. ص: 271.

13. غيفوركيان وآخرون، ص: 86.

14. فيونا هيل وكليفورد جي. غادي، السيد بوتين: العامل في الكرملين (واشنطن، دي سي: منشورات معهد بروكينغس، 2013) ص: 27-123. يساجل الباحثون إن خدمة بوتين في ألمانيا الشرقية جعلته كالغريب الذي لم يستوعب حمضه النووي التغيرات في المجتمع خلال تلك السنوات الحرجة، وفي الوقت نفسه كانوا يبالغون في عزلته الفكرية في درسدن، والعديد من الروس الذين شهدوا التغييرات بشكل مباشر، انتهت بهم آراؤهم إلى ما يشبه ذلك.

15. غيفوركيان وآخرون. ص: 89.

16. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة. ص: 86-281.

17. أوليغ كالوجين، مسؤول التجسس: الاثنان والثلاثون عامًا التي قضيتها في الاستخبارات والتجسس ضد الغرب (نيويورك: بيسك بوكس، 2009) ص: 336.

18. أولغا بي. بين، جامعة الاستقلال الذاتي في روسيا الاتحادية منذ عهد البروسترايكا (نيويورك: روتيلج فالمر 2003) ص: 40-139.

19. غيفوركيان وآخرون، ص: 85.

20. نيويورك تايمز، 30 آذار (مارس) عام 1989.

21. أناتولي سوبتشاك، من أجل روسيا الجديدة: قصة عمدة سان بطرسبورغ الخاصة حول النزاع على العدالة والديموقراطية (نيويورك: النشر الحر، 1999) ص: 10.
22. المصدر نفسه، ص: 13.
23. المصدر نفسه، الفصل الثالث، متلازمة تبليسي.
24. روبرت دبليو أورتونغ، من لينينغراد إلى سانت. بطرسبورغ (نيو يورك: منشورات القديس مارتن 1995) ص: 130، يقدم أورتونغ تاريخًا دقيقًا للتحول السياسي في المدينة قبل عام 1991 وبعده؛ بوتين، على الرغم من أنه كان مساعدًا لسوبتشاك، إلا أنه لا يظهر في الكتاب، وهذا يدل على دوره الهامشي في وقت مبكر.
25. المقابلة التي أجراها الكاتب مع أوليغ كالوجن، في أكتوبر تشرين الأول عام 2012.
26. غيفوركيان وآخرون. ص: 88–89. الترجمة تشير بشكل غير صحيح إلى ميركوريف رئيسًا، بدلًا من رئيس الجامعة، كما هي الحال في الأصل، وتجعل من الأشياء المشينة تناسب الجمهور اللطيف.
27. اللقاء الذي أجراه المؤلف مع كارل م. كاتلر، في يناير كانون الثاني 2013.
28. سوبتشاك، ص:10.
29. المقابلة مع كاتلر.
30. سوبتشاك، ص: 59-158.
31. اقتبس ليشتييف من بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 310– 311.
32. أسوشييتد برس، نوفمبر، تشرين الثاني 1990.
33. ليزا أ. كيرشنباوم، إرث حصار لينينغراد، 1941–1995: أسطورة، وذكريات، وآثار. نيويورك: منشورات جامعة كامبريدج، 2006 ص: 69-268.
34. أورتونغ، ص: 137.
35. أندري بيونتوفسكي، ستاسي كرمى للرئيس. روسيا جورنال، يناير (كانون الثاني) 17–23، 2000، نقلًا عن مقابلة تلفازية مع سيرجي ستيباشين، وهو جنرال في وزارة الداخلية في لينينغراد، ورئيس وزراء روسيا المستقبلي.

36. غيفوركيان وآخرون، ص: 91.
37. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 319.
38. سوبتشاك، ص: 178. ديفيد ريمنك، ضريح لينين. الأيام الأخيرة للإمبراطورية السوفييتية (نيويورك: راندوم هاوس، 1993) يروي الانقلاب بوصفه مهزلة، ويتضمن تفاصيل دور سوبتشاك، ص: 63-462 و468- 469.
39. أورتنغ، ص:143.
40. نيويورك تايمز، 10 سبتمبر (أيلول) 1991.
41. سان بطرسبورغ تايمز، 17 أغسطس (آب) 1991.
42. سوبتشاك، ص: 180.
43. قصة ليودميلا في بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة. ص:319.
44. غيفوركيان وآخرون، ص: 93-94.
45. ريمنيك، ص: 482.
46. نيويورك تايمز 10 سبتمبر (أيلول) عام 1991.
47. خدمة معلومات الإذاعة الأجنبية، نقلًا عن صحيفة الإبلاغ سمينا، 25 أكتوبر 1991.
48. غيفوركيان وآخرون، ص: 91.
49. غيفوركيان وآخرون، ص: 94.
50. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة. ص:310-311.
51. المصدر نفسه، ص: 337.

الفصل 5 : الجواسيس تأتي من البرد

1. تم إجراء مقابلة مع شادخان في العدد رقم 21 من ميشبوخا، وهي صحيفة بلوروسية متخصصة بالموضوعات اليهودية، <www.mishpokha.org
2. أورتونغ، ص: 200.
3. غيفوركيان وآخرون، ص: 96.

4. شادخان في محادثة مسائية بثت في 7 أكتوبر (تشرين الأول) 2002. تضمن الفيلم مقاطع من مقابلة بوتين في عام 1991.
5. ميشبوخا، العدد رقم 21.
6. ترجمة رواية سبع عشرة لحظة من ربيع 1945، تأليف يوليان سيميونوف التي نشرتها دار فريدونيا بوكس، في أمستردام، 2001.
7. مقابلة شادخان في محطة موسكو نيوز، 9 فبراير، شباط 2000.
8. "Vercheny Razgovor" 7 أكتوبر تشرين الأول 2002.
9. تشاس بيك (ساعة الذروة)، 25 نوفمبر 1991.
10. "Vercheny Razgovor" 7 أكتوبر تشرين الأول 2002.
11. إنترفاكس، 4 أكتوبر (تشرين الأول) 1991، وأورتونغ أيضًا، ص: 145.
12. غيفوركيان وآخرون، ص: 81، كان كيسنجر يقصد خدمته بوصفه جنديًّا في الاستخبارات العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية، التي كانت مختلفة تمامًا، لكن بوتين غالبًا ما كان يروي الحكاية.
13. الولادة الجديدة لسان بطرسبورغ. التايم، 14 أكتوبر (تشرين الأول) 1991.
14. مايكل مكفول، الثورة الروسية غير المكتملة (إيثاكا، نيويورك: منشورات جامعة كورنيل، 2001) ص: 8-182.
15. أورتونغ، ص: 202.
16. يغور غيدار، انهيار الإمبراطورية: دروس لروسيا الحديثة (واشنطن دي سي: منشورات معهد بروكينغس، 2007) ص: 239.
17. يوري فلشتينسكي وفلاديمير بريبيلوفسكي، المؤسسة: روسيا والكي جي بي في عصر الرئيس بوتين (نيويورك: إنكاونتر بوكس، 2008)، ص: 83. أعاد المؤلفون طبع مرسوم سوبتشاك، المؤرخ في 24 كانون الأول (ديسمبر) 1991.
18. غيفوركيان وآخرون، ص: 101.

19. كارين داويشا في كتابها: الفساد الحكومي المستفحل لدى بوتين، ص 32-126، تشرح الكثير من العلاقات بين الجريمة المنظمة والكازينوهات، على الرغم من أن مدى تواطؤ بوتين ما زال غير واضح.
20. غيفوركيان وآخرون ص: 102.
21. فيلشتنسكي بريبيلوفسكي، ص: 72.
22. Vercheny Razgovor، 7 أكتوبر (تشرين الأول) 2002.
23. سمينا، 1 أبريل (نيسان) 1992.
24. ديمتري فاسيليفيتش كاندوبا، سانت بطرسبورغ، 1990–1996، /www.gramota.net materials/3/2011/6-3/21.html
25. نيويورك تايمز، 27 أبريل (نيسان) 1992.
26. فلشتينسكي وبريبيلوفسكي، ص:. 78 قال ياكونين في مقابلة أجريت في كانون الثاني (يناير) 2014: إنه اجتمع لأول مرة مع بوتين عندما أسس لأعمال في مركز الأعمال الدولي الذي أنشأه سوبتشاك.
27. غيفوركيان وآخرون، ص: 99.
28. تم نشر تقرير سالي وغلادكوف على الموقع الإلكتروني المناهض لبوتين: //:http .anticompromat.org/putin/salye92.html
29. سانكت بيتيربورغسكي فيدوموستي، 14 مايو (أيار) 1992، أُعيد طبعه من قبل خدمة معلومات البث الأجنبي.
30. كريستيا ماكراكيس، أغوته الأسرار: جاسوس العالم التكنولوجي عند ستاسي.
31. أدرجت الصورة في الملفات التي قدمت بناءً على طلب الوكالة الألمانية التي تشرف على أرشيف ستاسي، المفوض الاتحادي، أو BSTU، تم تضمين الصورة (انظر إلى الإدراج في ملف Mfs BV Dresden، رقم AKG 10852)، كارين داويشا أدخلت الصورة أيضًا في الصفحة رقم 54 في الفساد الحكومي لبوتين.
32. نيويورك تايمز، 5 أبريل (نيسان) 1992.

33. اللقاء الذي أجراه المؤلف مع كاج هوبر في فبراير (شباط) 2013.
34. غيفوركيان وآخرون، ص: 10.
35. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 357.
36. غيفوركيان وآخرون، ص: 97.
37. جويس لاسكي ريد، وبلير آ. روبل، ووليم كرافت برومفيلد، ومحررون. سانت بطرسبورغ، 1993–2003: العقد الديناميكي (واشنطن، دي سي. سانت بطرسبورغ المحافظة 2010)، ص: 8.
38. هيل وغادي، ص: 165.
39. فاينانشال تايمز، 14 مايو (أيار) 2008.
40. كتب الكثير عن ارتباط بوتين بالـ SPAG بالرغم من الرفض الرسمي، فقد ظل بوتين في مجلس إدارة الشركة إلى أن نُصِّب رئيسًا، انظر إلى: http://www.newsweek.com/stain-mr-clean-152259 إضافة إلى الفساد الحكومي المستفحل لداويشا، ص: 42-132.
41. ثين غوستافسون، عجلة المستقبل: الصراع من أجل النفط والطاقة في روسيا (كامبريدج، MA: منشورات بيلكناب ضمن منشورات جامعة هارفارد 2012)، ص: 127. انظر أيضًا إلى داويشا؛ وريتشارد ساكوا، أزمة الديموقراطية الروسية: الدولة المزدوجة، الحزبيّة وخلافة ميدفيديف (نيويورك: منشورات جامعة كامبريدج، 2011)، ص: 174.
42. تيموثي جي. كولتون، يلتسن: الحياة (نيويورك: بيسك بوكس، 2008) ص: 277.
43. أوبشايا غازيتا (الصحيفة الشاملة) الطاعون الذي أصاب منزليك الاثنين تفشى في بطرسبرغ الاسبوع الماضي، 1 أكتوبر (تشرين الأول) 1993.
44. كولتون، ص: 278، أثبتت الأوامر الخطية الصادرة عن القائد العام أهمية وضع سلطة قانونية للعسكريين يتصرفون على أساسها، فميخائيل غورباتشيف لم يصدر أوامر خطية عندما أذن باستخدام القوة في جورجيا وليتوانيا وأذربيجان

من قبل، انظر إلى روبرت باريلسكي؛ الجندي في السياسة الروسية: الواجب، والديكتاتورية والديموقراطية في ظل غورباتشوف ويلتسن (نيو برونزويك، نج: صفقة ناشرين، 1998).

45. المسؤول الجدير فريميا، 10 أغسطس (آب) 1999.

46. غيفوركيان وآخرون، ص: 96.

47. مقابلة سوبتشاك الأخيرة، مع أركادي سونوف، قال فيها: إنه يعرف كيف يصبح الرجل الذي لا يمكن الاستغناء عنه، روسيان سوشيال ساينس ريفيو 41، رقم 2 (مارس - نيسان 2001): 91.

48. روي ميدفيديف، فلاديمير بوتين: أربع سنوات في الكرملين (موسكو: فريميا 2004) ص:42.

الفصل 6 : سوء إدارة الديموقراطية

1. صحيفة كوميرسانت 1995.
2. المقابلة التي أجرتها راشان سوشيال ساينس ريفيو مع سوبتشاك.
3. بلوتسكي، في فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، وصف تاريخ الحادث الذي أخطأ بوتين في وقت لاحق بأنه حدث عام 1994.
4. ليودميلا تروي الحادث وعواقبه في غيفوركيان وآخرون، ص: 10-104، وأيضًا في بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة.
5. غيفوركيان وآخرون، ص: 108.
6. كشفت صحيفة وول ستريت جورنال خلفية التحذير لدى ستاسي والصفقات التي أجرتها مع بوتين في سانت بطرسبرغ، بما في ذلك العلاج الطبي ليودميلا بعد حادث السيارة في 23 فبراير (شباط) 2005؛ انظر أيضًا إلى موسكو تايمز، 25 فبراير (شباط) 2005.
7. أورتونغ، ص: 12-210.
8. لوس أنجلوس تايمز، 17 أغسطس (آب) 1994.

9. نيويورك تايمز 25 يوليو (تموز) 1994.
10. أناتولي سوبتشاك، عشرات السكاكين في الخلف (موسكو: فاغريوس، 1999)، ص: 88.
11. غيفوركيان وآخرون، ص: 111.
12. سوبتشاك، ص: 88.
13. المصدر نفسه، ص: 76. وأيضًا في لوس أنجلوس تايمز عدد 16 مايو (أيار) 1996، سوبتشاك يدين أشكال الجريمة المنظمة المرتبطة بمعارضيه.
14. غيفوركيان وآخرون، ص: 11.
15. آمي نايت، جواسيس بلا أقنعة: ورثة الكي جي بي (برينستون: NJ: منشورات جامعة برينستون، 1996) ص: 54.
16. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص:78 ؛ وأيضًا نيزافيسيمايا غازيتا، 7 فبراير (شباط) عام 1996.
17. بوريس فيشنيفسكي، وهو صحفي وسياسي مع حزب يابلوكو، يروي تفاصيل لي ذراع بوتين ذراع على الموقع الإلكتروني: http://www.yabloko.ru/Publ/200/2006_03/060321_kasp_vishn.html. انظر أيضًا تيموثي ج. كولتون، ومايكل ماكفول، الخيار الجماهيري وإدارة الديموقراطية: الانتخابات الروسية لعام 1999 و2000 (واشنطن العاصمة: منشورات معهد بروكينغز، 2003) ص: 172.
18. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص: 79.
19. روبرت دبليو أورتونغ، تحرير مع دانيال ن. لوسير وآنا باريتسكايا، جمهوريات وأقاليم الاتحاد الروسي. دليل السياسات والسياسات العامة والقادة (أرمونك، نيويورك : M. E. شارب، 2000) ص: 476.
20. غيفوركيان وآخرون، ص: 112.
21. زينكوفتش، ص: 556.

22. ستروب تالبوت، يد روسيا: مذكرات الدبلوماسية الرئاسية (نيويورك : دار راندم، 2002) ص: 200–201.
23. روزماري ميلور، من خلال الزجاج الداكن: التحقيق في إدارة سانت بطرسبورغ، المجلة الدولية للبحوث الحضرية والإقليمية، رقم 3 سبتمبر (أيلول) 1997، ص: 482.
24. كولتن ومكفول، ص: 172.
25. المصدر نفسه.
26. هيل وغادي ص: 79-175، وأيضًا فليشتنسكي بريبيلوفسكي، ص: 60–61.
27. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص: 19.
28. الصحف الروسية، 8 سبتمبر (أيلول) 1999 http://gazeta.lenta.ru/daynews/09-08-1999/30bio.html.
29. هيل وغادي، نقلًا عن ألكسندر راهر، ص: 187 وغيفوركيان وآخرون ص: 113.
30. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص: 92.
31. موسكو نيوز، 6 يونيو (حزيران) 1996.
32. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص: 92–93.
33. غيفوركيان وآخرون، ص: 113.
34. نيويورك تايمز، 4 يونيو (حزيران) 1996.
35. سوبتشاك، عشرات السكاكين في الظهر، ص: 92–93.
36. غيفوركيان وآخرون، ص: 113.
37. فليشتنسكي بريبيلوفسكي، ص: 61.
38. داويشا، ص: 95.
39. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 377.
40. المصدر نفسه، ص: 365.
41. غيفوركيان وآخرون، ص: 122؛ فلشتينسكي وبريبيلوفسكي لاحظ تاريخ الحريق على ص: 106.

42. المصدر نفسه. ص: 121.

43. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 380.

44. روى بوتين القصة إلى لاري كينغ على شبكة سي إن إن في 8 سبتمبر (أيلول) عام 2000، transcripts/0009/08/lkl.00.html، وإلى الرئيس جورج دبليو بوش في عام 2001. يكتب بوش ((أعاد خلق اللحظة على نحو دراماتيكي حين كشف العامل عن يده وظهر الصليب)). وقال: ((لقد كان كما لو أنه من المفترض أن يكون)). جورج دبليو بوش، قوة القرار (نيويورك: كراون، 2010)، ص: 196.

الفصل 7: طريق غير متوقع نحو السلطة

1. بوريس يلتسن، مذكرات منتصف الليل، (نيويورك: بابلك أفيرز، 2000) ص: 16- 17.

2. المصدر نفسه. ص: 21.

3. ديفيد م. كاتس، وفريد وير، النموذج الروسي من غورباتشوف إلى بوتين: زوال النظام السوفياتي وروسيا الجديدة (نيويورك: روتليدج، 2007)، ص: 61-260؛ وبول كليبنيكوف، عرّاب الكرملين: انحدار روسيا في عصر رأسمالية العصابات (أورلاندو، فلوريدا: هاركورت، 2000)، الفصل الثامن.

4. كليبنيكوف، الفصل الثامن يشير إلى تقرير مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن: الجريمة المنظمة الروسية: مشروع الجريمة المنظمة العالمية، 1997.

5. يلتسن، ص: 70.

6. نيويورك تايمز، 28 حزيران، يونيو 1996.

7. يلتسن، ص: 61-62-70.

8. المصدر نفسه، ص: 32.

9. أجرت صحيفة نيويورك تايمز استطلاعًا للرأي في أثناء التصويت في 4 يوليو (تموز) 1996.
10. تيم ماكدانيل، آلام الفكرة الروسية (برينستون، ن ج : منشورات جامعة برينستون، 1996)، ص 163..
11. هيل وغادي، ص: 5-204.
12. غيفوركيان وآخرون، ص:.94-192 في مقابلاته التي أجراها من أجل الكتاب ناقش بوتين تشوبايس مطولًا؛ اعترف بمهاراته بوصفه مسؤولًا، لكنه استخفَّ في برنامج الخصخصة لديه، والتراجع عن قراره في تعيين بوتين لأول مرة في موسكو؛ قال: ((بالطبع لا أستطيع أن أقول إنني شعرت بسعادة غامرة في ذلك الوقت))، وأضاف: ((لكنني لم أشعر بالغضب تجاهه)). وأشار إلى أن تشوبايس يتمتع بسجل ائتمان سيئ. يعني أن رصيده الجماهيري - ثقة الجمهور فيه - منخفض.
13. المصدر نفسه، ص: 127.
14. سانت بطرسبورغ تايمز، 12 أبريل (نيسان) 2002.
15. غيفوركيان وآخرون، ص: 128.
16. المقابلة التي أجراها المؤلف مع ديمتري بيسكوف في مارس (آذار) 2014.
17. غيفوركيان وآخرون، ص: 28-127.
18. مؤتمر بورودين الإخباري الذي عقد في 11 مارس (آذار) 1997، نسخة من أخبار البث الدولي الرسمي للكرملين ؛ أيضًا فلشتينسكي وبريبيلوفسكي، ص: 15 -111.
19. كولتون، ص: 327.
20. المصدر نفسه، ص:255.
21. بيتر بيكر وسوزان غلاسر، صعود الكرملين: روسيا فلاديمير بوتين ونهاية الثورة (نيويورك: سكريبنر، 2005) ص: 48؛ وكذلك مقابلة المؤلف مع جون إيفانز، القنصل العام الأمريكي في سانت بطرسبرغ. أكد بورودين في وقت لاحق علاقاته

الوثيقة مع بوتين، وادعى أنه ربما بدافع الأمل في الحفاظ على الذات جاء ببوتين إلى موسكو.

22. ألينا V. ليدينيفا، هل يمكن تحديث روسيا؟ سيستيما، شبكات السلطة، والحوكمة غير الرسمية (كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، 2013)، ص:7- 9.

23. تم إجراء مقابلة مع بوتين عندما غادر سانت بطرسبورغ عام 1996، وتحديدًا في مطار بول كوفا في أثناء صعوده إلى الطائرة متوجهًا إلى موسكو، وقد بث شريط المقابلة في شهر ديسمبر (كانون الأول) عام 2012 على القناة التلفازية كالاماري. www.iarex.ru/news/32524html

24. فليشستينسكي وبريبيلوفسكي، ص: 113.

25. مقابلة كالاماري.

26. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 70-369.

27. المصدر نفسه، 397.

28. غيفوركيان وآخرون، ص: 128 وبلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص: 368.

29. فليشستينسكي وبريبيلوفسكي ص: 112.

30. مقابلة مع نوفايا غازيتا، 27 ديسمبر (كانون الأول) 1999.

31. موسكوفسكي نوفوستي، 11 أغسطس (آب) 1998.

32. فليشستينسكي وبريبيلوفسكي، ص: 115.

33. كوميرسانت، 15 أبريل (نيسان) 1997.

34. أنترفاكس، 14 أبريل 1997.

35. أنترفاكس، 24 أبريل (نيسان) تلفاز روسيا، 24 مايو (أيار) 1997، كما رصدتها هيئة الإذاعة البريطانية وراديو روسيا في 17 سبتمبر (أيلول) 1997.

36. هيل وغادي ص: 9-204.

37. ظهرت الحكاية التي كتبها بوريس نيمتسوف بعد وفاته، بعد أربعة أيام من اغتياله في 27 فبراير (شباط) في مقالة غير مؤرخة: http://wwwglavpost.com/post/3mar2015/History/18080-boris-stal-preemnikom.html.

38. لاحظت حكومة الولايات المتحدة أن هذا الجانب من شخصية بوتين حين قارنته بديمتري ميدفيديف الذي يمتع بسمعة أكاديمية كبيرة، وقد ورد التحليل في أحد الكابلات الحكومية لوزارة الخارجية، وقد تسرب عن طريق ويكيليكس في 2010. http://cablegatessearch.net/cable.php?id=07Moscow5800.

39. غوستافسون، ص: 247.

40. وصف فلاديمير ليتفيننكو جذور أطروحة بوتين مع الزميل المؤلف أندرو إي. كرامر الذي شارك في المخطوط. انظر أيضًا هارلي بلزر، كتابات فلاديمير بوتين الأكاديمية وسياسة الموارد الطبيعية الروسية، مشكلات ما بعد الشيوعية 52، [رقم 1 كانون الثاني (شباط) 2006] 48.

41. أثبتت أطروحة بوتين الأصلية لسنوات أنه من الصعب على الباحثين تعقبها. ظهرت ترجمة إنجليزية لأطروحة بوتين في كتاب أوبسالا السنوي لقانون أوروبا الشرقية (لندن: ويلدي، سيموندز & ومنشورات هيل، 2000 ترجمها كاج هوبر؛ المحامي السويدي وخبير التحكيم الذي تفاوض مع بوتين في سانت بطرسبورغ في تسعينيات القرن الماضي،
عندما كان بوتين نائبًا لرئيس البلدية. في عام 2005، حصل هوبر على إذن من بوتين لنشر الترجمة. الترجمة في مجلة القانون الأوراسي 2، رقم 1 (2008) وفي المقابلة، وصف هوبر النص بأنه ممل وقال: ((لم يكن ممتعًا ترجمته)).

42. ابنة ليتفيننكو المبعدة، أولغا أصبحت متورطة في نزاع الحضانة مع والدها بشأن ابنتها. انظر إلى http://ester-maria.com/olga. هارلي بلزر، في فرضية بوتين وسياسة الطاقة الروسية، بوست سوفييت أفيرز 21، العدد الثالث. (2005) 215 أشار إلى أن أليكسي كودرين من الممكن أنه شارك في كتابة الأطروحة أيضًا.

43. هيل وغادي، ص: 22، ونيويورك تايمز الأول من مارس (آذار) 2012.

44. لم يتم الإعلان عن الانتحال على نطاق واسع حتى عام 2006. الباحثان من معهد بروكنغز في واشنطن، إيجور دانشينكو وكليفورد غادي، وجدا النسخة الأصلية في مكتبة موسكو، وأجريا لها مسحًا ضوئيًا في مكتبة موسكو، وتم مقارنتها بالنسخة الروسية من كتاب الملك وكلياند التي ذكرها بوتين في المراجع. لم يستطيعا هما ولا غيرهما من الأساتذة تحديد الشخص الذي كتب الأطروحة، غير أن هناك إجماعًا على أنها منتحلة، برغم المدخلات التي جاء بها بوتين والمصادقة النهائية عليها. انظر عرض بروكينغز على الموقع الإلكتروني: http://www.brookings.edu/events/2006/03/30putin-dissertation. غادي تقاسم نسخة مع المؤلف.

45. لينش، ص: 36.

46. هارلي بالزر، فلاديمير بوتين وسياسية الطاقة الروسية ناشيونال إنترست، الأول من ديسمبر (كانون الأول) 2005.

47. جون هلمر، الآفاق القانونية لقانون مناجم الصلب الأمريكي في مشروع الذهب الروسي. الصحيفة التجارية 18 نوفمبر (تشرين الثاني) 1997.

48. زابسكي- معهد غورني، ملاحظات معهد التعدين، يناير (كانون الثاني) 1999، أعيد طباعتها وترجمها هارلي بالزر في الكتابات الأكاديمية وسياسات الموارد الطبيعية الروسية لدى فلاديمير بوتين، مشكلات ما بعد الشيوعية 52، العدد رقم 1. (يناير وشباط 2006): 52. وجاءت هذه المقالة متداخلة على نطاق واسع مع أطروحة بوتين، وكانت موضوعاتها أكثر شمولًا من أطروحة بوتين، وأكثر تمثيلًا للسياسات التي يتبعها.

49. ليتيراتورنايا غازيتا، 26 نوفمبر (تشرين الثاني) 1997.

50. روسيسكايا غازيتا، 21 مايو (أيار) 1997.

51. المقابلة التي أجرتها أنترفاكس مع سوبتشاك. 18 يناير (كانون الثاني) 1997.

52. موسكو تايمز، 3 أكتوبر (تشرين الأول) 1997.

53. إيتار تاس 4 أكتوبر (تشرين الأول) 1997.

54. يلتسن، ص: 234.
55. روسيسكايا غازيتا، ص: 232.
56. غيفوكيان وآخرون، ص: 19-118.
57. يلتسن، ص: 234، 329.

الفصل 8 السباحة في النهر نفسه مرتين

1. غيفوركيان وآخرون، ص: 128.
2. روي ميدفيديف روسيا ما بعد العهد السوفييتي: رحلة في عهد يلتسن، ترجمة جورج شريفر (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 2000) ص: 288.
3. يلتسن، مذكرات منتصف الليل، ص: 88.
4. ميدفيديف، ص: 285.
5. يلتسن، ص: 110.
6. المصدر نفسه، ص: 113.
7. كليبنيكوف، ص: 242.
8. المصدر نفسه، ص: 278.
9. غيفوركيان وآخرون، ص: 129.
10. أنترفاكس، 4 يونيو (حزيران) 1998.
11. ميدفيديف، ص: 294.
12. أندري سولداتوف وإيرينا بوروغان، والنبالة الجديدة: عودة الدولة الأمنية في روسيا، والإرث الدائم للكي جي بي. (نيويورك: بابلك أفيرز، 2010) ص: 12- 13.
13. يلتسن، ص: 327.
14. سولداتوف وبوروغان، ص: 25.
15. أليكس غولدفارب مع مارينا ليتفيننكو، وفاة المنشق، تسمم ألكسندر ليتفيننكو وعودة الكي جي بي (نيويورك، فري برس، 2007) ص: 135-136.

16. مقابلة بيريزوفسكي في جيسن، رجل بلا وجه، ص: 15.
17. يلتسن، ص: 326.
18. غيفوركيان وآخرون، ص: 130.
19. إن تي في، 3 سبتمبر (أيلول) 1997، كما كتبتها وترجمتها بي بي سي، وقال ألكسندر زانوفيتش المتحدث باسم الاستخبارات الروسية إن الشائعات كاذبة، وتهدف إلى غرس انعدام الأمن، وخلق حالة من عدم الاستقرار. وخلال ستة أسابيع من تعيين بوتين رئيسًا لمجلس الأمن الفدرالي، كان عليه أن ينكر الشائعات التي تتحدث عن قرب إقالته.
20. غيفوركيان وآخرون، ص: 130.
21. ليودميلا تروي المحادثة في غيفوركيان وآخرون، ص: 132.
22. أيترتاس 27 يوليو (تموز) 1998.
23. غيفوركيان وآخرون، ص: 132.
24. كوميرسانت، 30 يوليو (تموز) 1998.
25. يلتسن، ص: 328. بوتين في هذه المقابلة مع كوميرسانت قبل ثلاثة أيام، قدم رواية مختلفة قليلًا في مسألة الرتبة، قائلًا: ((كان الأمر متعلقًا بقرار يلتسن. ومضى بالقول، صدقًا إن الرتبة لم تزعجني؛ فالرئيس أبدى ثقته بي، وكان هذا واضحًا. بعد حصولي على الدرجة منذ ثلاث وعشرين سنة خلت، التحقت بالكي جي بي في عام 1975 بوصفي موظفًا صغيرًا، واليوم صعدت إلى أعلى هرم الجهاز، فإذا طلب مني الرئيس أن أكون أول مدير مدني في الأمن، فسوف أقبل هذا العرض)).
26. حتى كتابة هذه السطور، رجلان فقط شغلا هذا المنصب بعد بوتين؛ هما نيقولاي باتروشيف والكسندر بورتنيكوف، وكلاهما صديقان لبوتين يحملان رتبة عسكرية في الجيش.
27. غولدفارب وليتفينيكو، ص: 163.
28. يلتسن، ص: 329.

29. غيفوركيان وآخرون، ص: 131.
30. يلينا تريغوبوفا، قصة حفار الكرملين (موسكو: مارجنيم، 2003) ص: 161.
31. سيغودنيا، 26 أغسطس (آب) 1998 وموسكو تايمز 28 أغسطس (آب) 1998.
32. تمت مناقشة القضية في المؤتمر المشترك الذي عقد في 3 مايو (أيار) عام 1999، في بوغوتا، كولومبيا بمناسبة اليوم العالمي لحرية النشر، انظر: archives-trim.un.org/webdrawer/rec/504045/view/item-in-KAAPressmatters-General1999.pdf
33. كولتون، ص: 416
34. إنترفاكس، 1 سبتمبر (أيلول) 1998.
35. أسوشيدتد برس، 13 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
36. يلتسن، ص: 328.
37. ميدفيديف يقدم صورة عن سيرته الذاتية على الصفحات 35 - 323.
38. آندرو وميتروخين، السيف والدرع، ص: 13.
39. غيفوركيان وآخرون، ص: 133.
40. كولتون، ص: 419.
41. كومرسانت، 13 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
42. سولداتوف وبوروغان، ص: 17.
43. نسخة من المؤتمر الصحفي الذي أقامه المركز الدولي للكرملين لبث الأخبار الرسمية. 17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
44. كوميرسانت، 17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
45. كتابة ليتيفنكو في الميل أون سنداي، 25 نوفمبر (تشرين الثاني) 2006.
46. غولدفارب وليتفينكو ص: 136.
47. المركز الدولي للكرملين لبث الأخبار الرسمية. 19 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
48. آرغيومنتي آي فاكتي 9 ديسمبر (كانون الأول) 1998، كما كتبتها وترجمتها هيئة الإذاعة البريطانية في أنحاء العالم كافة.

49. المقابلة التي أجراها ستاروفويتوفا على قناة تي في 6 في موسكو، 19 سبتمبر (أيلول) 1998. كما كتبت وترجمت من قبل هيئة الإذاعة البريطانية.
50. مقابلة المؤلف مع رسلان لينكوف، نيويورك تايمز، 22 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002.
51. نيويورك تايمز، 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
52. نيويورك تايمز، 24 نوفمبر (تشرين الثاني) 1998.
53. واشنطن بوست 6 ديسمبر (كانون الأول) 1998.
54. يلتسن، ص: 11-210.
55. إنترفاكس، 18 ديسمبر (كانون الأول) 1998.

الفصل 9 المساومة (الكومبرومات)

1. إيرينا ليسنفسكايا، مديرة قناة رين التلفازية، ونقلت صحيفة كومرسانت في 19 مارس (آذار) 1999.
2. كومرسانت 19 مارس (آذار) 1999.
3. يلتسن مذكرات منتصف الليل، ص: 223.
4. المصدر نفسه، ص: 222، 236.
5. واشنطن بوست، 8 مارس (آذار) 1999.
6. ديفيد هوفمان، أوليغارتشس (القلة): الثروة والسلطة في روسيا الجديدة (نيويورك: بابلك أفيرز، 2002) ص: 459.
7. يلتسن، ص: 227.
8. أسوشيدتد برس، 17 مارس (آذار) 1999.
9. يوري سكوراتوف، تنوع التنين (موسكو: ديكتف برس، 2000) ص: 235.
10. المصدر نفسه، ص: 147.
11. المصدر نفسه، ص: 236.

12. نيويورك تايمز، 20، 1998.
13. سكوراتوف، ص: 7–8
14. يلتسن، ص: 225. بالنسبة إلى الأوجاع المكشوفة كلها والجدل القائم حول هذه المسألة، أهمية ذلك اللقاء بين سكوراتوف ويلتسن لا يختلف اختلافًا جوهريًا؛ فقط في النبرة وفي السياق الذي جاء فيه. وبالرغم من اقتطاع نسخة بوتين، إلا أنها تظهر في (غيفوركيان وآخرون، الشخص الأول)، ص 99-198، وتتفق معهما أيضًا إلى حد كبير.
15. الجماهيرية التي تحظى بها لعبة الشطرنج في روسيا جعلتها لعبة لها رمزيتها السهلة في العمل السياسي؛ فالعنوان الذي حملته مذكرات سكوراتوف (اختلاف التنين) يعد إحدى العتبات الرئيسة في الدفاع الصقلي، فقد أشار يلتسن إلى أن هزائم حكومته المتكررة هي أقرب ما تكون إلى التحصين في لعبة الشطرنج، وهي الخطوة التي يتبادل فيها الملك والقلعة الأماكن؛ فالمصطلح روكيروفكا في اللغة الروسية سوف يستخدم لاحقًا في أهم معارك بوتين.
16. نيويورك تايمز، 24 مارس (آذار) 1999.
17. يلتسن، 236.
18. نيويورك تايمز، مارس (آذار) 22، 1999.
19. كتاب اليد الروسية الذي ألفه ستروب تالبوت، يعرض تفسيرًا مباشرًا وممتازًا للدبلوماسية بين الولايات المتحدة وروسيا خلال حرب كوسوفو. انظر إلى الفصلين 12 و13.
20. المصدر نفسه، ص: 336.
21. المصدر نفسه، ص: 335.
22. بعد سنوات، استنتج ستروب تالبوت أن بوتين كان يكذب في الواقع؛ إن ما صعقني وصعق زملائي كان رباطة الجأش والصلف والجرأة التي يكذب بها بوتين. انظر إلى ستروب تالبوت، صنع فلاديمير بوتين، بوليتيكو، 19 آب (أغسطس) 2014.

23. شهد المؤلف هذا المشهد الكوميدي كونه انتقل جوًّا إلى مطار بريشتينا على متن طائرة هليكوبتر تابعة لحلف شمال الأطلسي من مقدونيا.
24. ويسلي ك. كلارك، شن الحرب الحديثة: البوسنة، كوسوفو ومستقبل الصراع (نيويورك: بابلك أفيرس، 2001) ص: 394
25. تابلوت، يد روسيا، ص: 47-273.
26. يلتسن، ص: 74-273.
27. المصدر نفسه، ص: 276.
28. المصدر نفسه، ص: 275.
29. إنترفاكس، 19 مايو أيار 1999.
30. كوموسمولسكايا برافدا، 8 يوليو تموز 1999.
31. ميدفيديف، ص: 314.
32. يلتسن، ص: 329.
33. كولتون، ص: 430، 586 ف. يقول كولتون إن ابنة يلتسن والمستشار تاتيانا اللذين ناقش معهما المسائل جميعها ذات الأهمية السياسية، لم يناقش معهما المسألة مسبقًا. ويذكر تالبوت أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك زار موسكو في 2 أغسطس (آب)، ثم اتصل في وقت لاحق بالرئيس بيل كلينتون ليناقش معه الملاحظات حول زيارته، والتي ركزت على التهديد من إيران، وكان باراك قد أبدى أعجابه بستيباشين، لكنه علم أنه سيتم استبداله قريبًا بشخص يسمى بوتين.
34. أسوشيدتد برس، 18 يوليو (تموز) 1999.
35. غيفوركيان وآخرون، ص: 138.
36. يلتسن، ص: 331.
37. نيويورك تايمز، 10 أغسطس (آب) 1999.
38. زينكوفتش، ص: 364.
39. غيفوركيان وآخرون، ص: 41-139.

الفصل 10 في المبنى الخارجي

1. نيزافيسيمايا غازيتا، 14 يناير (كانون الثاني) 2000.
2. كولتون، ص: 433.
3. المصدر نفسه، ص: 432.
4. ماثيو إفانجيليستا، الحروب الشيشانية: هل ستذهب روسيا في طريق الاتحاد السوفييتي؟ (واشنطن، دي سي: منشورات معهد بروكينغس، 2002) ص: 90–96، ومن الواضح أن قوة باساييف الرئيسة نجحت في الانسحاب من داغستان دون وقوع خسائر كبيرة، وهذا ما يعزز من نظريات المؤامرة بأن مقاتلي باساييف سمح لهم بالمرور الآمن بوصفه جزءًا من مؤامرة واسعة لإطلاق الحرب الشيشانية الثانية، إلا أن هذه النظريات تتجاهل شدة القتال في داغستان، كما يتضح من تدمير القرى، ويفترضون أيضًا أن الهجوم الروسي المضاد كان على الأرجح ذا فاعلية أكبر مما كان عليه.
5. تقرير قناة NTV، في 27 أغسطس (آب) 1999، كما كتبته وترجمته هيئة الإذاعة البريطانية.
6. نيويورك تايمز، 8 سبتمبر (أيلول) 1999.
7. موسكو تايمز، 11 سبتمبر (أيلول) 1999.
8. تالبوت، ص: 359.
9. المصدر نفسه، 359-60.
10. أيترتاس، 13 سبتمبر (أيلول) 1999.
11. نيويورك تايمز، 20 سبتمبر (أيلول) 1999.
12. أيترتاس، 10 سبتمبر (أيلول) 1999، موسكو تايمز 11 سبتمبر (أيلول) 1999.
13. ورد هذا الاقتباس في نيويورك ريفيو أف بوكس، 22 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002.
14. موسكو تايمز، 17 سبتمبر (أيلول) 1999.

15. إنترفاكس، 23 سبتمبر (أيلول) 1999، هذه واحدة من أكثر الكلمات شهرة في الحياة السياسية لبوتين، موضوع الاقتباس الذي لا نهاية لها، وحتى الدراسة الأكاديمية؛ فمن الصعب الترجمة الحرفية وهناك الكثير من الاختلافات الموجودة. استخدم بوتين فعل zamochit، وهو ما يعني حرفيًا (غمر أو بلل). في اللغة الجنائية الدارجة، يشير هذا الفعل إلى (إراقة الدماء)، وكلمة موكا (mocha) هي أيضًا تدل على البول؛ لذلك كلمة مخلفات تبدو الكلمة الأنسب. وتابع يستخدم الكلمات الروسية ذات الأصل الفرنسي، باردون (العفو) وفعل سورتير (sortire)، وهذا الأخير من فعل غادر (to leave) أو خرج (go out)، والتي تعني في العامية الروسية المبنى الخرجي أو المرحاض، وكانت الدلالة المبتذلة لها مفهومة على نطاق واسع. انظر إلى كولتورا التي نشرتها جامعة بريمن في ألمانيا، تشرين الأول (أكتوبر) 2006، ص: 3.

www.kultura-rus.uni-bremen.de/kultura_dokumente/ausgaben/englisch/kultura_10_2006_EN.pdf

16. كتبت العديد من الروايات حول الأحداث في ريازان، كانت تختلف في التحليل النهائي، لكن لا تختلف في التفاصيل؛ كتاب ديفيد ساتر: الظلام في الفجر: صعود الدولة الجنائية الروسية (نيو هافن، CT : منشورات جامعة ييل، 2003) تضمن إعادة بناء دقيقة للقضية، وأيضًا يعتقد جون بي دنلوب أن التفجيرات كانت من تدبير الحكومة لتبرر الحرب الثانية في الشيشان. انظر تفجيرات موسكو في سبتمبر 1999: تفحص الهجمات الإرهابية الروسية في مستهل حكم فلاديمير بوتين (شتوتغارت : إيبدم، 2012).

17. سولداتوف ووبوروغان، ص: 111.

18. موسكو تايمز، 25 سبتمبر 1999.

19. إيفانجلستا، ص: 68. يساجل إيفانجلستا بأن بوتين فقد الفرصة في استغلال الانشقاق بين مسخادوف وباساييف قبل أن تبدأ الحرب الثانية.

20. نيويورك تايمز، 30 سبتمبر (أيلول) عام 1999.
21. تشارلز كنغ، شبح الحرية: تاريخ القفقاز (أكسفورد، منشورات جامعة أكسفورد، 2008) ص: 238.
22. فريميا، 27 سبتمبر، 1999.
23. روسيا TV.، 20 أكتوبر 1999، كما كتبته هيئة الإذاعة البريطانية.
24. بريماكوف على القناة السادسة، نسخة من البث الرسمي الدولي للكرملين في الأول من أكتوبر (تشرين الأول) 1999.
25. يلتسن، ص: 338، 344.
26. غولدفارب وليتفينيكو، ص: 191.
27. هوفمان، ص: 70-461
28. نيويورك تايمز، 14 أكتوبر 1999.
29. نيزافيسيمايا غازيتا، 19 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999.
30. كولتون ومكفول، ص: 56.
31. سيفودنايا، 25 نوفمبر (تشرين الثاني) 1999.
32. يلتسن، ص: 361.
33. فريميا، 27 سبتمبر (أيلول) 1999.
34. كولتون، ص: 434.
35. يلتسن، ص: 6، في (غيغوركيان وآخرون) ص: 204، بوتين يذكر لنا ردة فعل مشابهة: ((أنا لست جاهزًا لهذا)).
36. يلتسن، ص: 355، 56.
37. تالبوت، ص:7.
38. يلتسن، ص:7–8
39. المصدر نفسه.
40. أنترفاكس، 30 ديسمبر (كانون الأول) 1999.

41. التقرير الشامل لمنظمة هيومن رايتس ووتش عن الشيشان متوافر على موقع المنظمة www.hrw.org
42. أنترفاكس، 30 ديسمبر (كانون الأول) 1999.
43. خطاب يلتسن وما تلاه من خطابات لبوتين ترجمت وأرشفت على الموقع الرسمي للكرملين http://archive.kremlin.ru
44. بلوتسكي، فلاديمير بوتين: الطريق إلى السلطة، ص:417.
45. غيفوركيان وآخرون، ص: 138.
46. تقرير NTV 25 ديسمبر (كانون الأول) 2001.
47. نشر الكتاب في ألمانيا تم تغطيته على نطاق واسع من قبل وسائل الإعلام في ذلك الوقت، انظر سانت بطرسبورغ تايمز، 23 فبراير (شباط) 2001، وقد نشر في وقت لاحق أيضًا في روسيا تحت عنوان صداقة بيكانشايا كما في spicy " وracy، مما يعكس وجهة النظر الغربية لزواج بوتين.
48. غيفوركيان وآخرون، ص: 206.
49. المصدر نفسه، ص: 189.
50. يلتسن، ص:14.
51. المصدر نفسه، ص: 366.
52. غيفوركيان وآخرون، ص: 45-144.

الفصل 11 لتصبح البرتغال

1. ساكوا، بوتين: خيار روسيا، ص: 43.
2. ساكوا بوتين: خيار روسيا يتضمن ترجمة ص: 62-251.
3. المصدر نفسه، ص: 44
4. نيويورك تايمز، 5 فبراير (شباط) 2000.
5. كولتون ومكفول، ص: 77-176. نقلت صحيفة نيويورك تايمز عن فاسيلي ساروديوبتسيف، محافظ تولا، في 6 يناير (كانون الثاني) 2000.

6. مقابلة مع نتاليا تيماكوفا، وهي واحدة من الثلاثة الذين أجروا المقابلات في مارس (آذار) 2013. صحفية سابقة بدأت عملها في المكتب الصحفي لبوتين عندما كان رئيسًا للوزراء في عام 1999، وظلت تعمل ناطقة رسمية لدى رئيس الوزراء الحالي.
7. انظر مقالة ريتشارد تورنس في لاسكي وربل وبرومفيلد، سانت بطرسبورغ 1992-2003.
8. ألكسندر أوسلون، أغلبية بوتين بوصفها حقيقة اجتماعية، مارس (آذار) 2001. صندوق الرأي العام.
9. الرسالة متوافرة على الموقع الرسمي للكرملين http://archive.kremlin.ru/ eng، ونشرت كذلك في الصحف ازفيستيا وكومرسانت وكوموسمولسكايا برافدا.
10. حتى الآن، تتضارب التقديرات لمجموع الخسائر الروسية في الحرب؛ فالخسائر بين الشيشان والمتمردين والمدنيين حتى الآن غير معروفة.
11. مايكل غوردون همهمات من غروزني، مجلة نيويورك تايمز، فبراير (شباط) 2000.
12. في مقابلة تلفازية عندما أسر بابيتسكي، تعهد بوتين بدعم حرية الصحافة، ولكنه وصف أيضًا وسائل الإعلام الروسية بأنها تسعى لمصالحها الخاصة وليس للدولة. وفي وقت مبكر، كان بوتين يفهم ماذا تعني السيطرة على الرأي العام من خلال السيطرة على المعلومات، وقد عدَّ هذه السيطرة درسًا أساسيًا في حياته المهنية في كي بي جي؛ فالخدمة في الاستخبارات هي أساسًا خدمة معلومات، فهو أولًا وقبل كل شيء عمل إعلامي. أجرت اللقاء شبكة ORT في 7 فبراير 2000، يمكن الوصول إليها في أرشيف الكرملين.
13. نيويورك تايمز، 3 فبراير (شباط) 2000.
14. نيويورك تايمز، 8 فبراير (شباط) 2000.
15. مقابلة أجرتها هيئة الإذاعة البريطانية في 5 مارس (آذار) 2000.
16. بن جده، الإمبراطورية الهشة: كيف وقعت روسيا في حب فلاديمير بوتين (نيو هافن، CT: منشورات جامعة ييل، 2013) الفصل الثاني.
17. موسكو تايمز، 9 سبتمبر (أيلول) 2000.

18. ميدفيديف ص: 360.
19. ساتر في كتابه ظلام في الفجر يقدمه على أنه ألكسي بنييف، ص:30، وقد أنكر بنييف في وقت لاحق على شاشة التلفاز بأنه هو من أبلغ الصحيفة القصة.
20. نوفايا غازيتا، 10 مارس (آذار) 2000.
21. موسكو تايمز، 17 آذار 2000.
22. غيفوركيان وآخرون، ص: 44-143.
23. موسكوفسكايا برافدا، 22 يوليو (تموز) 1999.
24. نيويورك ريفيو أوف بوكس، 13 أبريل (نيسان) 2000، وقال سوروس: إنه لا يستطيع أن يعتقد تمامًا أن الانفجارات نفذت لتبرير الحرب..، وكتب قائلا: ((لقد كان عملًا شيطانيًا جدًا))، لكنه أضاف أنه لا يستطيع أن يعلن أن هذا غير ممكن على الإطلاق. من وجهة نظر بيريزوفسكي، التفجير يسهل عليك فهم الأشياء جيدًا؛ فهذه الهجمات لا تساعد على انتخاب رئيس يمنح الحصانة ليلتسن وأسرته فحسب، بل ستعطي أيضًا، بيريزوفسكي، سيطرة على بوتين. وحتى الآن لم تظهر أي أدلة تناقض هذه النظرية.
25. كولتون ومكفول، ص: 191.
26. مقابلة الكاتب مع ميخائيل كازيانوف، مارس (آذار) 2013.
27. فلستينسكي وبريبيلوفسكي، في المؤسسة، وفي الدولة، لا يوجد أي دليل، أنه لم يكن وحده عندما توفي. وهما يشيران إلى أن مساعده بوتين هو من سممه: ص 63-461. هذا يبدو غير معقول، لكن نقاد بوتين بحلول عام 2000 بدؤوا العثور على أنماط من حالات الوفاة المفاجئة.
28. نيويورك تايمز، 10 أغسطس (آب) 1996.
29. يلتسن، ص: 383.
30. المصدر نفسه، 384.
31. غيفوركيان وآخرون، ص: 61-153

32. سيرجي بوغاتشيف، المصرفي ورجل الأعمال الذي كان مقربًا من بوتين وأصبح بحلول عام 2010 في منفاه الذاتي، قال في مقابلة له مع المؤلف في لندن في شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام 2014، بأن لودميلا ظلت منغمسة في الأعمال التجارية خلال مدة الرئاسة لزوجها لكن كان هذا بصورة غير معلنة، وأكد هذا ضابط الاستخبارات الأمريكي السابق الذي فضل عدم الكشف عن هويته، إنما لا يوجد أي دليل على أي استثمارات أو أصول ظهرت على العلن.
33. نوفايا غازيتا، 28 يناير (كانون الثاني) 2009.
34. مقابلة المؤلف مع فلاديمير ياكونين، يناير (كانون الثاني) 2014.
35. داويشا، ص: 96.
36. موقع الكرملين، مقابلة مع ORT، 7 فبراير (شباط) 2000.
37. غيفوركيان وآخرون، ص: 159.
38. دانيال ترسمان، العودة: الرحلة الروسية من غورباتشوف إلى ميدفيديف. (نيويورك: فري برس، 2011) ص:232.
39. هوفمان، ص: 479.
40. المصدر نفسه، الفصل السابع يقدم تاريخ السيرة الذاتية.
41. كليبنيكوف، ص: 54-153، ينكر بيريزوفسكي دائمًا بأنه قد طلب من كورزاكوف أن يرتب موضوع الاغتيال.
42. لوس أنجلوس تايمز، 3 يونيو (حزيران) 2000، ونيويورك تايمز، 18 يونيو (حزيران) 2000.
43. انظر مقابلة بوتين مع راديو مايك، 18 مارس (آذار) 2000.
44. تابلوت ص: 7 يقدم تقييمًا لرئاسة بوتين المبكرة : لم أكن متأكدًا إذا كان يخفي عددًا كبيرًا أو قليلًا من تحركاته المستقبلية التي كان يفكر فيها؛ يبدو أن لديه موهبة لكونه في المكان المناسب وفي الزمن المناسب ومع حامٍ محق، فقد تم ترقيته إلى موقع يتجاوز تجربته أو إمكاناته الظاهرة التي تؤهله لهذا، فقد كان حاذقًا على الصعيد التكتيكي، لكن أتوقع أن يكون مرتبكًا على الصعيد

الإستراتيجي، ما زلت أنظر إلى بوتين على أنه شرطي سائب حظي بعمل كبير جدًّا يتطلب الكثير، وأكثر من قضية سحب الحظ.

45. نيويورك تايمز، 29 أغسطس (آب) 2000.

46. رسائل كوليزنكوف لم يعثر عليها حتى شهر أغسطس (آب)؛ حينما بدأ استخراج الجثث الأولى من الغواصة، فالملاحظات التي دوَّنها تعبِّر عن شجاعته وحبِّه لزوجته، جددت آلام الروس، وكان لها صدى عميق في ثقافتهم. في عام 2007 سجلت فرقة الروك، ويوري شيفشيو أغنية مؤثرة استنادًا إلى هذه الرسائل: الكابتن كولسنيكوف كتب لنا رسالة.

47. موسكو تايمز، 2 سبتمبر (أيلول) 2000.

48. غولدفارب وليتفينينكو، ص: 2009.

49. المصدر نفسه، ص: 210-2011.

50. هومان، ص: 488. مصدر هوفمان هو بيريزوفسكي، وقد اختلفت نسخة اجتماعهم الأخير في بعض التفاصيل مع كل قول، ولكن لم تختلف في الجوهر.

51. بيتر تروسكوت، كورسك: القصة الحقيقية لأسوأ كارثة في الغواصات الروسية (لندن: سيمون & ششوستر، 2004) ص، 85.

52. نشرت موسكو تايمز نسخة مترجمة من الاجتماع الذي جرى بتاريخ 12 سبتمبر (أيلول) عام 2000، وهو متوافر على الموقع الإلكتروني: http://www.themoscowtimes.com/news /article/face-the-nation-putin-and-the-kursk-families/258935.html

53. كومرسانت، 24 أغسطس (آب)، العنوان الرئيس للمقالة كان: كيف أخذ فيديابيفو.

54. انظر روبيرت برانون، العلاقات العسكرية المدنية الروسية (فارنهام، المملكة المتحدة، دار أشجيت للنشر، 2009) الفصل السادس.

55. هيل وغادي، ص: 208.

56. اللقاء الذي أجراه المؤلف مع سيرجي بوغاشيف، لندن في ديسمبر (كانون الأول) 2014.

الفصل 12 : روح بوتين

1. باكر وغلاسر، ص: 122.
2. كوندوليزا رايس، لا شرف عاليًا: مذكرات سنواتي في واشنطن (نيو يورك: كراون، 2011) ص: 75. تتذكر رايس في وقت مبكر في مذكراتها اجتماعها مع بوتين في عام 1992، عندما زارت سانت بطرسبورغ بوصفها أستاذة في جامعة ستانفورد لمناقشة إنشاء جامعة أوروبية مع أناتولي سوبتشاك. استضاف اللقاء سوبتشاك الذي بدا بالنسبة إليها كأنه لقاء يحضره تولستوي أو بوشكين، ورجل واحد بدا بعيدًا عن المكان، يرتدي بدلة تناسب البيروقراطية السوفييتية رفيعة المستوى، هو فلاديمير بوتين، (ص:16).
3. أرشيف الكرملين، 11 سبتمبر (أيلول) 2001.
4. بوش، ص: 196.
5. كارين هيوز، عشر دقائق من العادي (نيويورك: فايكنغ، 2004) ص: 128.
6. بوش، ص: 196.
7. انظر: georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2001/06/20010618 html.
8. نيويورك تايمز، 16 يونيو (حزيران) 2001.
9. طعام الفطور مع ديفيد فروست، هيئة الإذاعة البريطانية، 5 مارس (آذار) 2000.
10. ديل آر. هيرسبرنغ، الكرملين والقيادة العليا: تأثير الرئيس في الجيش الروسي من غوباتشوف إلى بوتين (لورانس: منشورات جامعة كانساس، 2006) ص: 180.
11. ديمتري ترينين الإصلاح العسكري، هل يمكن أن ينطلق في ظل قيادة بوتين؟ صحيفة الديموقراطية 22 مارس (آذار) عام 2001.
12. من الموقع الإلكتروني للكرملين، 9 فبراير (شباط) 2000، رجع بوتين إلى العبارة التي قالها مرة أخرى بعد خمس سنوات في مقابلة له مع التلفاز الألماني في 5 مايو (أيار) 2005، الناس في روسيا يقولون إن أولئك الذين لا يأسفون على انهيار الاتحاد

السوفييتي ليس لديهم قلوب، وأولئك الذين يأسفون عليه ليس لديهم عقول؛ فنحن لا نندم على هذا، علينا أن نواجه الحقيقة، وندرك أن علينا التطلع إلى الأمام وليس إلى الخلف؛ لن نسمح للماضي بأن يجرنا ويعيق تقدمنا. وقد استخدم الجنرال ألكسندر ليبيد عبارة مشابهة تقريبًا في مذكراته: ((حياتي وبلدي)) التي نشرت عام 1997، وقد بدا واضحًا أن بوتين ليس أول من صاغ هذه العبارة.

13. نيويورك تايمز، 3 فبراير (شباط) 2003، حضر بوتين الذكرى السادسة لانتصار ستالينغراد لكنه تجنب ذكر اسمها، في الذكرى السابعة تبنت المدينة الاسم القديم لها في احتفالية تقام سنويًا لمدة ستة أيام، تخليدًا لذكرى النصر، وقد أبدى بعض الملاحظات حول الاسم القديم؛ قال: ((إن ستالينغراد، بطبيعة الحال، ستبقى دائمًا رمزًا لصمود الشعب الروسي، ورمزًا لوحدة الشعب الروسي)). فولغا-ميديا، www.vlg-media.ru/society/vladmir-putin-pozdravil-volgogradcev-2222.html.

14. إزفستيا، 5 ديسمبر (كانون الثاني) 2000 تم الدخول من خلال قائمة روسيا لدى جونسون، http://russialist.orh

15. كومسمولسكايا برافدا، 7 ديسمبر (كانون الأول) عام 2000.

16. كومرسانت 21 مارس (آذار) 2001.

17. إزفستيا، 9 نوفمبر (تشرين الثاني) 2000 في مقابلة من الصحفيين بما في ذلك المؤلف في ديسمبر (كانون الأول) 2006، قال إيفانوف أنهما التقيا في عام 1977 لكنه أضاف: ((غير أنني لا أريد الدخول في التفاصيل)).

18. توماس غومارت، العلاقات المدنية العسكرية الروسية: إرث بوتين (واشنطن دي سي : مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، 2008) ص:52.

19. تلفاز روسيا 28 مارس (آذار) كما نقلته وترجمته هيئة الإذاعة البريطانية.

20. نيويورك تايمز، 20 فبراير (شباط) 2008. قامت سويسرة بتوقيف أداموف بناءً على مذكرة اعتقال صادرة عن الولايات المتحدة عام 2005، لكن الروس رفضوا تسليمه إلى الولايات المتحدة؛ خشية أن يبوح ببعض الأسرار النووية، بدلًا من

ذلك اتهمه الادعاء الروسي باستغلال منصبه، وتمت إدانته في محكمة روسية في فبراير (شباط) 2008. وأطلق سراحه بعد ذلك بعقوبة مع وقف التنفيذ بعد شهرين، وبدأ في التقاعد الهادئ بعيدًا عن الأضواء العامة.

21. إزفستيا، 29 مارس (آذار) 2001.
22. أسوشيدتد برس، 14 سبتمبر (أيلول) 2001.
23. شرويدر ضغط على بوتين للتدخل في واحدة من المحاكمات الأكثر شهرة التي خرجت بها الحرب - إحدى المحاكمات القليلة جدًّا. عشية انتخاب بوتين، قام الكولونيل يوري بودانوف، وهو قائد مقلد بالأوسمة، باختطاف امرأة شيشانية؛ إليزا كونغاييفا التي كانت قد بلغت ثمانية عشر عامًا؛ أخذها إلى مقره، وادعى أنه يريد استجوابها، وضربها، واغتصبها، ثم خنقها حتى الموت.
24. بيغي نونان وصف المشهد في زاوية كتبها في صحيفة وول ستريت في 20 يونيو (حزيران) 2001.
25. بوش، ص:431.
26. المصدر نفسه، ص: 200، رايس. 97.
27. هيوز ص: 284، 85.
28. بيتر بوميرانتسيف: راسبوتين بوتين، لندن بوكس، 20 أكتوبر، 2011، لينتا أيضًا لديها سيرة ذاتية مفصلة عن حياته وأعماله: http://lenta.ru/lib/14159273/full.html.
29. موسكو تايمز، 4 أبريل (نيسان) 2002.
30. هيومن رايتس ووتش: سُحق تحت التعذيب، والاختفاء القسري، وعمليات القتل خارج نطاق القضاء خلال عمليات السحق في الشيشان، 2 فبراير (شباط) 2002.
31. بافيل كي. باييف: حرب بوتين في الشيشان؛ من الذي يحدد المسار؟ برنامج عن نهج جديد في الأمن الروسي، نوفمبر (تشرين الثاني) 2004. www.ponarseurasia.org/sites/default/files/policy-memos-pdf/pm_0345.pdf.
32. مقابلة بافلوف في نيزافيسيمايا غازيتا، في 9 سبتمبر 2002.

33. نيويورك تايمز، 23 أغسطس (آب) 2002.
34. موسكو تايم، 26 سبتمبر 2002.
35. انظر: الإرهاب في موسكو، فيلم وثائقي بريطاني عرض في عام 2003 على القناة الرابعة في بريطانيا وفي HBO في الولايات المتحدة، الاسم الحقيقي لـ موفسار هو سالاموف، لكنه اعتمد الاسم الأخير باراييف بعد موت عمه.
36. ريا نوفستي، 12 أكتوبر 2002. وقد أُبلغ خطأ عن مقتله أيضًا في أغسطس (آب) 2001.
37. مقابلة من موظف روسي كبير كان في الكرملين مع بوتين أثناء الأيام الثلاثة هذه، متحدثًا بشرط عدم الكشف عن هويته.
38. سولداتوف وبوروغان ص: 36-135
39. إرهاب في موسكو، الفيلم الوثائقي البريطاني الذي عرض في عام 2003 (انظر: n. 33) كما ظهرت روايات قوية في: صعود الكرملين لدى بيتر بيكر، وسوزان غلاسر. وفي: تقدم بوتين لدى بيتر تروسكوت؛ سيرة الرئيس الروسي الغامض، فلاديمير بوتين (لندن: سيمون & شوستر، 2004)؛ وفي مذكرات روسية: القصة الأخيرة لحياة صحفي، الفساد والموت في روسيا بوتين، للكاتبة آنا بوليتكوفسكايا (نيويورك: راندوم هاوس، 2007).
40. مقابلة NTV مع محتجزي الرهائن في 25 أكتوبر (تشرين الأول) في اليوم الثاني للحصار كما بثته هيئة الإذاعة البريطانية، وقد منعت وزارة الاتصالات قناة NTV من بث الصوت؛ لأنها بثت صوت المقابلة أثناء الحصار، ولهذا لم تعرض سوى الصور، ما أدى إلى إزعاج الإرهابيين.
41. مقابلة الكاتب مع ميخائيل كازيانوف، وأنغوس روكسبيرغ، الرجل القوي: فلاديمير بوتين والصراع على روسيا (لندن: I.B. Tauris, 2012) ص: 70.
42. أجرى يافلينسكي مقابلة مع راديو ليبرتي، 28 أكتوبر 2002.

43. آنا بوليتكوفسكايا، هل الصحافة تستحق الموت من أجلها؟ (نيويورك: ميلفيل هاوس، 2011) ص: 229.
44. نيويورك تايمز، 1 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002.
45. سولداتوف وبوروغان، ص: 142.
46. نيويورك تايمز، 27 أكتوبر (تشرين الأول) 2002.
47. كان هناك ارتباك بين التقارير حول عدد الإصابات في الأيام الأولى بعد الحصار، لكن العدد النهائي الموثوق به للضحايا يحتفظ به من قبل منظمة نورد أوست Nord-Ost التي تمثل الضحايا: www.nost.org.
48. المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان حكمت في ديسمبر (كانون الأول) من عام 2011 بأن روسيا انتهكت حقوق 64 ضحية بعدم تقديم الإسعافات الطبية المناسبة لهم، وطالبت بتعويض يقدر بـ 2 مليون. المحكمة لم تصدر حكمًا بأن الإنقاذ نفسه انتهك كل المعايير الدولية.
49. نيويورك تايمز، 13 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002.

الفصل 13: الآلهة نامت على رؤوسهم

1. إزفستيا، 25 فبراير 2000.
2. غستافسون، ص: 283.
3. ميخائيل خودوركوفسكي ونتاليا غيفوكيان، السجن والإرادة (موسكو: هاوارد روك، 2012) ص: 29-228.
4. ريتشارد ساكوا، جودة الحرية: خودوركوفسكي، بوتين وشؤون ياكوس (أكسفورد، منشورات جامعة أكسفورد، 2009) ص: 143.
5. خودوركوفسكي وغيفوركيان، ص: 356.
6. المقابلة التي أجراها المؤلف مع أندريه إلاريونوف، أبريل (نيسان) 2013، المواجهة بثت تلفازيًا، وانتشرت على نطاق واسع في الصحافة، وأيضًا تحدث

عن اللقاء غوستافسون وساوكا وبيكر وغلاسر، وأيضًا تصف المؤلفة المشاركة لـ (خودوركوفسكي)، ناتاليا غيفوركيان هذا اللقاء، في السجن والإرادة، ص:. 52

7. مقابلة الاريونوف.
8. بيكر وغلاسر، ص: 282.
9. أُجريت المقابلة مع فيكتور غيراشينكو في نوفايا غازيتا، 10 يوليو (تموز) 2008، تجدها في موقع خودوركوفسكي، www.khodorkovsky.com.
10. غوستافسون، ص: 247.
11. ساكوا، جودة الحرية، ص: 97.
12. نيويورك تايمز، 31 مايو (أيار) 2001.
13. غوستافسون، ص: 320.
14. المصدر نفسه، ص: 233.
15. المصدر نفسه، ص: 234.
16. شكلت الأمم المتحدة لجنة مستقلة للتحقيق في برنامج النفط مقابل الغذاء، انظر: http://www.cfr.org/corruption -and-bribery/independent-inquiry-committee-report-manipulation-un -oil—food-programme/p9116.
17. تشارلز دولفر، اختبِئ وابحث (لعبة الغميضة): البحث عن الحقيقة في العراق (نيويورك: بابليك افيرز، 2009 (ص: 44.
18. بوش، ص: 233.
19. بيكر وغلاسر، ص: 216.
20. يذكر بوش المحادثة في خطة هجوم بوب وودوورد، ص: 5-404.
21. نيويورك تايمز، 25 مارس (آذار) 2003.
22. نيويورك تايمز 16 يناير (كانون الثاني) 2003.
23. نيويورك تايمز، 23 أبريل 2003.
24. مقابلة كازيانوف، مارس (آذار) عام 2013.
25. نيويورك تايمز، 2 أيار 2003.

26. ساكوا، جودة الحرية، ص: 91.
27. المصدر نفسه، ص:91.
28. غوستافسون، ص: 296.
29. ساكوا، جودة الحرية، ص: 144.
30. المصدر نفسه، ص: 144.
31. المقابلة التي أجراها الكاتب مع كبير الموظفين في الكرملين في أبريل نيسان 2013. الموظف نفسه أبلغ عن رواية مشابهة للمراسلين في موسكو في صيف 2003، حينما كشفت القضية واصفًا إياها بأنها اعتداء منظم بكل وضوح مع أن الأشخاص مجهولين.
32. انضم صاحب المؤلف إلى مراسلين آخرين، مقرهم موسكو لإجراء المقابلة في نوفو - أوغاريوفو في 19 سبتمبر (أيلول) 2003.
33. ساكوا، جودة الحرية، ص: 89.
34. غوستافسون، ص: 304.
35. خودروكوفسكي وغيفوركيان، ص: 56.
36. غوستافسون، ص: 299-300.
37. مقابلة خودروكوفسكي مع نيويورك تايمز، أكتوبر (تشرين الأول) 2003.
38. جون براون مع فيليبا أندرسون: ما وراء الأعمال، (لندن، فونيكس، 2011) نقلًا عن ديفيد ريمنيك، غولاغ لايت، نيويورك، 20 ديسمبر 2010.
39. يمكن الاطلاع على نسخة المقابلة المنشورة في 5 أكتوبر (تشرين الأول) عام 2003 على الموقع الإلكتروني: www.nytimes.com
40. المقابلة مع كبير الموظفين السابق في الكرملين، أبريل (نيسان) 2013.
41. أنطون دريل نقلًا عن صحيفة نيويورك تايمز، 1 نوفمبر (تشرين الثاني) 2003.
42. نيويورك تايمز، 28 أكتوبر (تشرين الأول) 2003.
43. المقابلة مع كبير الموظفين السابق في الكرملين، أبريل (نيسان) 2013.

44. ميخائيل كاسيانوف مع يفغيني كيسليوف، بيز بوتينا (موسكو: نوفايا كازيتا، 2009) ص: 222.
45. نيويورك تايمز، 1 تشرين الثاني 2013.
46. المقابلة التي أجريت مع كبير الموظفين في الكرملين، أبريل (نيسان) 2013.
47. انظر قرار محكمة التحكيم الدائمة في 18 يوليو (تموز) 2014، يوكوس يونيفيرسال ليميتد ضد الاتحاد الروسي، ص: 64.
48. نيويورك تايمز، 7 ديسمبر (كانون الأول) 2003.
49. ريا نوفستي، 9 أبريل (نيسان) 2005.
50. إكسبريس غازيتا، 16 أغسطس (آب) 2006، www.eg.ru/daily/animal/8134.
51. ((إن الكلب لا يزعجك، أليس كذلك؟))" سأل بوتين المستشارة أنجيلا ميركل عندما زارت سوتشي في عام 2007، على الرغم من أنه كان على علم بخوفها من الكلاب، ثم جلس كوني عند قدمي ميركل، وعبرت عن عدم ارتياحها الواضح،. ثم أخبرت ميركل في وقت لاحق المسؤولين الأمريكيين عما جرى في هذا اللقاء، بما في ذلك تصريحات بوتين خارج الكاميرا التي فسرتها بأنها إشارة إلى المعلومات الاستخباراتية عنها: ((أنا أعرف كل شيء عنك)).
52. بوش، ص: 433. بعد ذلك أعاد بوش عرض القصة على رئيس وزراء كندا ستيفن هاربر، الذي أجاب: ((أنت محظوظ لأنه لم يظهر لك سوى كلبه)).
53. نيويورك تايمز، 8 ديسمبر (كانون الأول) 2003.
54. نيويورك تايمز، 8 ديسمبر (كانون الأول) 2003.

الفصل 14: سنة الكوارث

1. انظر: www.newru.com 19 أبريل (نيسان) 2005.
2. زار المؤلف شقة المرأة، وتعقب أجزاء من قصصهم في سبتمبر (أيلول) 2004. نيويورك تايمز، 10 سبتمبر 2004.

3. بول جي مورفي، في: ملائكة الله: النساء الشيشان في الحرب، (أنابوليس، دكتوراه في الطب: منشورات المعهد البحري، 2010)، يصف مصير النساء الأربع، ويشير إلى أن روزا ناغاييفا لم تكن الانتحارية في محطة المترو، بل كانت مع مريم تابوروفا في بيسلان.
4. واشنطن بوست، 27 أكتوبر (تشرين الأول) 2003.
5. غوستافسون، ص: 264.
6. فيدوموستي، 12 يناير (كانون الأول) 2004.
7. كاسيانوف، ص: 226.
8. فلاديمير رايزخوف، صحيفة الديموقراطية، 15، العدد الثالث، (يوليو تموز 2004).
9. نيويورك تايمز، 9 يناير (كانون الثاني) 2004.
10. ايتار تاس 13 فبراير (شباط) 2004.
11. غولدفارب وليتفينكو، ص: 308.
12. انترفاكس، 10 فبراير (شباط) 2004.
13. نيويورك تايمز، 3 فبراير (شباط) 2004.
14. كومرسانت، 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2006.
15. نيويورك تايمز، 6 مارس (آذار) 2004.
16. تقرير بعثة مراقبة الانتخابات لدى Osce.
17. بيكر وغلاسر، ص: 325.
18. كاسيانوف، ص: 241.
19. المصدر نفسه، ص:241.
20. آنا بوليتكوفسكايا، روسيا بوتين (لندن: منشورات هارفيل، 2004) ص: 274.
21. فيدوموستي، 2 مارس (آذار) 2004.
22. نوفويا غازيتا، 11 أكتوبر 2007. فرادكوف أصبح رئيس جهاز الاستخبارات الخارجية في عام 2007، مؤكدًا خلفيته المفترضة.
23. فلشتنسكي وبريبيلوفسكي، ص: 80.

24. الإذاعة الدولية الرسمية للكرملين، 16 مارس (آذار) 2004.
25. فريما نوفوستي، 15 مارس (آذار) 2004.
26. ريزهكوف، ص: 54-57.
27. فيدوموستي، 29 مارس (آذار) 2004، أعاد خودروكوفسكي تنزيل الرسالة بما في ذلك الترجمة على موقعه الإلكتروني: www.khodrokovsky.com
28. التفسير الأكثر موثوقية وشمولية للحصار في بيسلان هو إعادة البناء المروع لدى سي. جي. شيفرز الذي ارتكز على مقابلات مع الرهائن، المدرسة، يونيو (حزيران) 2006 ص: 140.
29. نيويورك تايمز، 10 مايو (أيار) 2004.
30. نيويورك تايمز، 12 مايو (أيار) 2004.
31. نيويورك تايمز، 2 سبتمبر (أيلول) 2004.
32. أسلامبيك أسلاخانوف، المستشار الرئيس لبوتين بشأن الشيشان، نقلًا عن بيكر وغلاسر، ص: 23.
33. هاتشينز وكوروبكو، ص: 292.
34. سولدتاتوف وبوروغان، ص: 159.
35. كومرسانت، 3 سبتمبر (أيلول) 2004.
36. ليدينيفا، ص: 36 نقلت عن مسؤول لم يكشف عن اسمه، وقد أجبر على تكرار الكذب عن عدد الرهائن، وكغيره من الأشخاص، أصيب بكسر جرّاء حصار بيسلان. وقالت : ((لقد أصبح شخصًا مختلفًا عندما عاد من بيسلان)).
37. بوليتيكوفسكايا، هل تستحق الصحافة أن تموت من أجلها؟ ص: 251-252.
38. سولداتوف وبوروغان، ص: 157.
39. نيويورك تايمز، 4 سبتمبر 2004.
40. المصدر نفسه.
41. سولداتوف وبوروغان ص: 159.

42. المصدر نفسه، 162.

43. نيويورك تايمز، 4 سبتمبر (أيلول) 2004.

44. الخطاب الكامل لبوتين كما ترجمته نيويورك تايمز، 5 سبتمبر (أيلول) 2004.

45. موسكوفسكيا نوفوستي (موسكو نيوز) 17 – 23 سبتمبر (أيلول) 2004.

46. المقابلة التي أجراها المؤلف مع إلكسندر دروزدوف، المدير التنفيذي لمركز يلتسن في موسكو يونيو (حزيران) 2014.

47. ماري مندراس، السياسات الروسية : تناقض الدولة الضعيفة (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 2012) ص: 185. في اجتماع فالداي السنوي الذي عقد في أعقاب الهجوم، أدلى بوتين بتعليق مماثل؛ واستحضر جدل الانتخابات الذي توسط فيه بين كاراشاييفو وشيركيسيا بصفته رئيس مجلس الأمن لدى يلتسن بوصفه مثالًا على مدى خطورة الانتخابات، وفقًا لما ذكره كليفورد كوبشان الذي كان أحد الحاضرين.

48. نيويورك تايمز، 15 سبتمبر (أيلول) 2004.

الفصل 15: عدوى البرتقال

1. نيويورك تايمز، 20 ديسمبر (كانون الأول) 2004.

2. جي. في. كوشيو، إساءة استخدام السلطة في مكتب الرئيس. (إن. بي. أرتيميا برس، 2013) ص:149.

3. روكسبيرف ص: 108، 109.

4. المصدر نفسه، ص: 116.

5. المصدر نفسه، ص: 129.

6. آندرز أسلند، كيف أصبحت أوكرانيا ديموقراطية وسوقًا اقتصادية (واشنطن دي سي: معهد بيتر جي. بيترسون للاقتصاد العالمي، 2009) ص: 170.

7. انظر: إنه الغاز- الأعمال المضحكة في تجارة الغاز التركمانية الأوكرانية، تقرير من غلوبال ويتنس، متوافر على الموقع الإلكتروني، www.globalwitness.com.uk.
8. كييف بوست، 29 تموز 2004.
9. كوشيو، ص: 136.
10. بوريس فولودارسكي، مصنع الكي جي بي للسم: من لينين إلى ليتفيننكو (مينيابوليس: زينيث برس، 20) ص: 98.
11. أسلوند، ص: 180.
12. النسخة الكاملة من لقاء بوتين المطول تجده على الأرشيف الرقمي للكرملين، 27 أكتوبر (تشرين الأول) 2004.
13. مارك ماكينون، الحرب الباردة الجديدة: الثورات والانتخابات المزورة، وسياسات خطوط الأنابيب في الاتحاد السوفييتي السابق (نيويورك: كارول وغراف، 2007) ص: 181.
14. نيقولاي بيتروف وأندري رايابوف: الدور الروسي في الثورة البرتقالية، في أندرس أسلوند ومايكل ماكفول، ومحررو الثورة في لون البرتقال: أصول انطلاق الديموقراطية في أوكرانيا (واشنطن دي سي : مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي. 2006) ص: 158.
15. المصدر نفسه، ص: 157.
16. نيويورك تايمز، 22 نوفمبر (تشرين الثاني) 2004.
17. روكسبيرف، ص: 138.
18. نيويورك تايمز، 3 ديسمبر (كانون الأول) 2005.
19. مقابلة المؤلف مع فيكتور يوشينكو 2006.
20. كييف بوست، 29 أكتوبر (تشرين الأول) 2009.
21. ريا نوفوستي، 24 فبراير (شباط) 2005.
22. بيتر بيكر، أيام النار: بوش وتشيني في البيت الأبيض (نيويورك: دبلداي، 2013) ص:383.

23. بوش، ص: 432.

24. رايس، ص:366.

25. نيويورك تايمز، 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2005.

26. هذا المقطع من الترجمة الرقمية للصحيفة الروسية في باريس Возрождение (or Revival)،، نشر في 27 يونيو (حزيران) 1925. الترجمة والمؤلف غير معروفة، وظهر في: www.freerepublic.com/focus/news/30343571/posts هيل وغادي يناقشان إليان في السيد بوتين، ص: 106- 107، كما فعل جيرالدين فاغان في: الإيمان في روسيا- السياسة الدينية بعد الشيوعية (لندن، روتيلدج، 2013).

27. نيويورك تايمز، 3 يوليو (تموز) 2005.

28. نيويورك تايمز، 17 مايو (أيار) 2005.

الفصل 16: مؤسسة الكرملين

1. المقابلة مع كبير الموظفين السابق في الكرملين، الذي تحدث بشرط عدم الكشف عن اسمه في أبريل (نيسان) 2013. ويساجل كل من ثين غوستافسون وريتشارد ساكوا بأن دور بوتين في الاعتداء على ياكو كان فيه القليل من سبق الإصرار ومن الارتجالية، أكثر مما صوره *منتقدوه*، بالرغم من أن النتيجة ظلت على حالها دون أي تغيير.

2. عجلة الثروة لغوستافسون، يقدم لنا تاريخًا رائعًا لصناعة النفط في الاتحاد السوفييتي وروسيا ومزاد ياكوس. انظر الفصل الخامس: معجزة النفط الروسي.

3. نقلًا عن بيكر وغلاسر، ص: 347.

4. بعد قرن من الزمان في يوليو تموز 2014، قضت محكمة التحكيم الدائمة بأن القضية كانت جهدًا متعمدًا ومستمرًا لتدمير يوكوس، والسيطرة على أصولها، والقضاء على خودوركوفسكي بصفته معارضًا سياسيًّا محتملًا. انظر: حكم المحكمة في 18 يوليو (تموز) 2014 يوكوس يونيفرسال ليميتد ضد روسيا الاتحادية.

5. ساكوا، جودة الحرية، ص: 92. يساجل بأن بوتين لم يبادر الاعتداء على الادعاء العام، لكن كان مقتنعًا من الآخرين بأنه ضروري. كما وصف المكتب السياسي، بأنه هو من يقف خلف تفكيك يوكوس، ص: 106.
6. يصف غوستافسون تاريخ روزفلت في عجلة الثروة، الفصل الثامن البطل النفطي العارض لروسيا : صعود روزفلت.
7. نيويورك تايمز، 28 أكتوبر (تشرين الأول) 2004.
8. غوستافسون، ص: 343.
9. المصدر نفسه.
10. انظر: غوستافسون، الفصل الثامن.
11. نيويورك تايمز، 20 ديسمبر (كانون الأول) عام 2004.
12. نيويورك تايمز، 21 ديسمبر 2004.
13. موسكو تايمز، 29 ديسمبر (كانون الأول) 2004.
14. بوتين نفسه أقرَّ بهذا في مقابلة له مع صحفيين إسبانيين في 7 فبراير (شباط) عام 2006، وهي متوافرة في أرشيف الكرملين الرقمي.
15. غوستافسون، ص: 348.
16. استشهدت محكمة التحكيم الدائمة بتصريح بوتين بصفته دليلًا دامغًا على أن المزاد مؤامرة كبرى، انظر: حكم المحكمة في 18 يوليو (تموز) 2014، يوكوس يونيفيرسال ليمتد ضد روسيا الاتحادية، ص: 330. انظر كذلك فايننشال تايمز، الفافيل بلوغ، 28 يوليو (تموز) http://wwwftalphaville.ft.com/2014/07/28/1910622/yukos-putins-loose-lips/
17. أنصار خودروكوفسكي هم من وضعوا الترجمة أثناء المحاكمة على الموقع الإلكتروني: http://mikhail_khodorkovsky_society_three.blogspot.com/2005/04/final-statement-in-meshchansky-court.html.

18. ريتشارد ساكوا: بوتين والقلة : قضية خودروكوفسكي ويوكوس (لندن: أي. بي. توريس، 2014) ص: 107.
19. أسوشيدتد برس، 25 يونيو (حزيران) 2005.
20. روى كرافت الضغط من البيت الأبيض في التصريحات التي جاءت لصالح الأعمال الخيرية تكريمًا له في قاعة كارنيجي في نيويورك، كما ذكرت صحيفة نيويورك بوست، في 15 يونيو (حزيران) 2013.
21. مجلة بوسطن كلوب، 19 مارس (آذار) 2007.
22. برقية دبلوماسية أرسلها السفير الأمريكي وليام بيرنز، المؤرخ في 2 أبريل (نيسان) 2007، وكشف عنها موقع ويكيليكس في عام 2010.
23. تريسمان، ص: 115.
24. موسكو تايمز، 19 أبريل (نيسان) 2005.
25. مارشال آي. غولدمان، بتروستيت: سلطة بوتين وروسيا الجديدة (أكسفورد: منشورات جامعة أكسفورد، 2008). ص: 124.
26. بوريس نيمستوف وفلاديمير ميلوف، هما مسؤولان حكوميان سابقان وزعيما معارضة، شككا بشدة في بيع سلسلة من التقارير الموثوقة التي بدأت تظهر في عام 2008. انظر تقرير بوتين وغازبروم الذي نشر أصلًا في نوفايا غازيتا، في 28 أغسطس (آب) و4 سبتمبر (أيلول) 2008، وانظر أيضًا أندرس أسلوند، في الثورة الروسية الرأسمالية: لماذا نجح إصلاح السوق وفشلت الديموقراطية (واشنطن دي سي: معهد بيتر جي. بيترسون للاقتصاد الدولي، 2007)، ص: 253 وفي كتابات ومقابلات أخرى، يقول إن العديد من صفقات غازبروم كانت فاسدة.
27. البرقية الدبلوماسية المؤرخة في 2 أبريل (نيسان) 2007، نشرها موقع ويكيليكس.
28. نقلًا عن إدوارد لوكاس، الحرب الباردة الجديدة: روسيا بوتين وتهديد الغرب (نيويورك، بالجريف ماكملان، 2008) ص: 168. في فصل سياسة خطوط الأنابيب يصف بشؤم العواقب الجيوسياسية المترتبة على صعود غازبروم.
29. صحيفة وول ستريت، 16 ديسمبر (كانون الأول) 2005.

30. توم باور، النفط: المال والسياسة والسلطة في القرن الحادي والعشرين (نيويورك: غراند سنترال بابلشنغ، 2009) ص: 375.
31. نيويورك تايمز، 6 أكتوبر (تشرين الأول) 2006.
32. باور، ص: 387.
33. نيويورك تايمز، 22 ديسمبر (كانون الأول)، و29 ديسمبر (كانون الأول) عام 2006. حضر المؤلف الاحتفال الذي أعاد مشروع سخالين إلى سيطرة الكرملين.
34. البرقية الدبلوماسية، 8 ديسمبر (كانون الأول) 2008، أوكرانيا: فيرتاش عرض قضيته على USG التي سربها موقع ويكيليكس.
35. كوشيو، ص: 65. مؤسسة جيمستاون، أوراسيان ديلي مونيتور، 25 مارس (آذار) 2009، الروابط الغريبة بين سيمون موغيليفتش وفلاديمير بوتين.
36. مارغاريتا إم. بالماسيدا، الاعتماد على الطاقة، السياسة والفساد في الاتحاد السوفييتي السابق: السلطة الروسية، وأرباح القلة (أوليغارتش) والسياسة المفقودة للطاقة في أوكرانيا، 1995–2006 (لندن: روتليدج، 2008) ص: 137.
37. ترايسمان، ص:116.
38. إن الفضائح بشأن القصر ومزاعم التمويل والاستثمارات الأخرى لم تظهر على العلن حتى ديسمبر (كانون الأول) عام 2010، عندما كتب أحد المعنيين، سيرجي كولسينيكوف، رسالة مفتوحة إلى ديميتري ميدفيديف، كشف عنها في زاوية كتبها ديفيد أغناطيوس في واشنطن بوست، ومقالات لاحقة في صحيفة نوفايا غازيتا في فبراير (شباط) عام 2011 (http://en.novayagazeta.ru/politics/8779.html) وقد أكدت صحيفة فاينانشال تايمز في 30 نوفمبر (تشرين الثاني) 2011 جوانب الصفقات، على الرغم من رفض الكرملين.
39. صحيفة وول ستريت، 25 سبتمبر (أيلول) 2007.
40. المقابلة التي أجراها المؤلف مع ميخائيل كاسيانوف في يونيو (حزيران) 2014.
41. لينتا، السيرة الذاتية لكوفالشوك على الموقع http://lenta.ru/lib/14149560.

42. نقلًا عن فوربيس روسيا، 2008.
43. صاغ مارك غاليوتي العبارة في الموقع: http://inmoscowsshadows.wordpress.com/2013/08/10/the-rise-of-the-russian-judocracy/
44. مارك لورانس شراد، فودكا السياسة: الكحول، الاستبداد والتاريخ السري للدولة الروسية (أكسفورد: منشورات جامعة أكسفورد، 2014)، الفصل 22.
45. المقابلة التي أجراها الكاتب مع أندريه إيلاريانوف، أكتوبر (تشرين الأول) 2012، وأغسطس (آب) 2014.
46. إيلاريانوف نقلًا عن نيو تايمز، نيوتايمز الروسية، 4 نوفمبر (تشرين الثاني) 2011.
47. إعيد نشرها في نيويورك تايمز، 4 فبراير 2011.
48. غوستافسون، ص: 354.
49. دفتر الشروط موجود على الموقع الإلكتروني للشركة: http://www.rosneft.com/attach/0/58/84/rosneft_prospectus.pdf
50. التقرير السنوي لروزنفت في 2006 : http://www.rosneft.com/attach/0/58/80/a_report_2006_eng.pdf

الفصل 17: السم

1. نيويورك تايمز، 25 نوفمبر (تشرين الثاني)، قصة تسمم ليتفينينكو هنا أحد أكبر عمليات القتل التي تغطى بشكل مكثف تاريخيًا، وجاءت هذه التغطية من التقارير التي كتبها المؤلف وزملاؤه في موسكو ولندن، وبخاصة ألان كويل الذي كتب فيما بعد جاسوس المحطة الأخيرة: حياة وموت الكسندر ليتفينينكو، قصة حقيقية من التجسس والخيانة والجريمة (لندن: دوبلداي، 2008 (وقصص أخرى كانت مفيدة تشمل وفاة الماعرض المنشق من قبل أليكس غولدفارب ومارينا ليتفينينكو، استنادًا إلى علاقاتهم الشخصية معه؛ ملف ليتفيننكو: حياة وموت جاسوس روسي كتبه مارتن سيكسميث (نيويورك: منشورات سانت مارتن، 2007) ومتاهة بوتين:

الجواسيس، والقتل، والقلب المظلم الجديد روسيا كتبه ستيف ليفين (نيويورك: راندوم هاوس، 2008).

2. غولدفارب وليتفينينكو، ص: 330.
3. نشر الكتاب باللغة الإنجليزية بعد مقتل ليتفيننكو بعوان تفجير روسيا: المؤامرة السرية لإعادة إرهاب الكي جي بي (نيويورك: إنكاونتر بوكس، 2007) الاقتباس من الصفحة الثالثة.
4. سكوراتوف، ص: 147، هذه الشائعات سمعها المؤلف من ضابط سابق في كي جي بي، ومن ضابط في الاستخبارات الروسية الذي كان من بين أولئك الذين طردوا خلال مدة بوتين وهو مدير لجهاز الأمن.
5. اللقاء الذي أجراه المؤلف مع أوليغ كالوجين في أكتوبر 2012.
6. تم إجراء مقابلة معه في كويل ص: 209.
7. كويل، ص:239.
8. ظهرت لقاءات ليتفيننكو ووجهات نظر غريندا في البريقيات التي كشف عنها موقع ويكيليكس لأول مرة، بتاريخ 31 أغسطس (آب) 2009، و8 فبراير (شباط) 2010، وقد تحدث عنهم لوك هاردينغ بالتفصيل في المطرود: هبوط صحفي في دولة المافيا الروسية (نيويورك: بالجريف ماكميلان، 2012)، ص: 39-235.
9. بوليتكوفسكايا هل الصحافة تستحق الموت من أجلها؟ ص: 5.
10. البرقية الدبلوماسية من ويكيليكس مؤرخة في 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2006.
11. ليفين، ص: 125.
12. تم الكشف عن تفاصيل المحاولة الأولى لتسميم ليتفينينكو في مكتب إيرينيس، في التحقيق العام الذي أقيم في بريطانيا في عام 2015، ويمكن الاطلاع على محاضر التحقيق على الموقع الإلكتروني: www.litvinenkoinquiry.org.
13. أجرى المؤلف مقابلة مع لوغوفوي وكوفتون في موسكو، في مارس (آذار) 2007 مع آلان كويل. نيويورك تايمز، 18 مارس (آذار) 2007.
14. روكسبيرف، ص: 177.

15. فاينانشال تايمز، 25 نوفمبر (تشرين الثاني) 2006.
16. ساكوا، أزمة الديموقراطية الروسية، ص: 186، وصحيفة سانت بطرسبورغ أيضًا، 28 سبتمبر (أيلول) 2004.
17. مقابلة المؤلف مع مسؤول دبلوماسي بريطاني، أبريل (نيسان) 2013.
18. مقابلة المؤلف مع لوغوفي وكوفتون، 18 مارس (آذار) 2007.
19. أول مرة تناول فيها مسألة الولاية الثالثة ورفضها كانت في ديسمبر (كانون الأول) 2003. نيويورك تايمز، 19 ديسمبر (كانون الأول) 2003.
20. هذاالمصدر ومصادر أخرى حول الصراع على خلافة بوتين، يأتي من تقارير المؤلف في ذلك الوقت، حيث نشر مقالًا بعنوان (ما بعد بوتين)، في مجلة نيويورك تايمز، 27 فبراير (شباط) 2007.
21. السفير الأمريكي وليام جي. بيرنز، شرح نظرية استخدام إعادة توزيع الأصول لمساعدة المرشحين في 2 أبريل (نيسان) 2007، وجاء بصيغة برقية بعث بها إلى واشنطن، وقد كُشف عنها من قبل ويكيلكيس التي سبق ذكرها.
22. نوفويا غازيتا، 11 أكتوبر (تشرين الأول) 2007.
23. ساكوا، أزمة الديموقراطية الروسية، ص: 188، 189.
24. روكسبيرف، ص:195. روكسبيرف صحفي سابق، عمل لصالح شركة علاقات عامة كيتشوم التي استخدمها الكرملين لتلميع صورة روسيا، وهي تجربة محبطة يرويها في كتابه.
25. متوافر في أرشيف الكرملين على الشبكة العنكبوتية، 10 فبراير (شباط) 2007. هذا الخطاب من أشهر الخطابات التي ألقاها بوتين، ويظهر كذلك في أشرطة فيديو عديدة على الشبكة.
26. نيويورك تايمز، 11 فبراير (شباط) 2007.

27. اقتباس وترجمة دير سبيجيل، 12 فبراير 2007، / http://www.spiegel.de international/the-world-from-berlin-a-calculating-simulation of-the-cold-war-a-465811.html.

28. نيويورك تايمز، 29 مايو (أيار) 2007.

29. الغارديان، 12 أبريل، 2007.

30. نيويورك تايمز، 1 يونيو (حزيران) 2007.

31. نيويورك تايمز، 19 يوليو (تموز) 2007.

الفصل 18، مشكلة عام 2008.

1. بوريس نمستوف يروي هذه الحكاية في لقاء له مع المؤلف في ديسمبر (كانون الأول) 2013.

2. مقابلة المؤلف مع أناتولي باخوموف، عمدة سوتشي، في ديسمبر (كانون الأول) 2013.

3. لكسندر جوكوف الذي قابله المؤلف في يناير (كانون الأول) عام 2014، روى مداولات المكتب السياسي حول المواقع الأولمبية في المستقبل، والتي لم يكشف عنها إلا بعد سنوات في تقرير رفعت السرية عنه.

4. أسوشيدت برس، 1 يوليو (تموز) 2007.

5. أسوشيدت برس، 4 يوليو (تموز) 2007.

6. ساكوا، أزمة الديموقراطية الروسية. ص:163.

7. روكسبيرف، ص: 208.

8. المصدر نفسه، ص: 211.

9. هيل وغادي، ص: 181-182.

10. المصدر نفسه، ص:182. ريتشارد ساكوا كان حاضرًا أيضًا، انظر أزمة الديموقراطية الروسية، ص: 178.

11. ساكوا، أزمة الديموقراطية الروسية، ص: 178.
12. كومرسانت، 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2007.
13. كما ترجمها إيخو موسكفي، 30 أكتوبر (تشرين الأول) 2007.
14. وقد كشفت ويكيليكس نسخة من هذا التحليل في برقية من السفير الأمريكي ويليام بيرنز، بتاريخ 18 أكتوبر (تشرين الأول) 2007. كتب: في غياب المؤسسات السياسية، غِراء النظام الذي أنشأه بوتين هو السلطة الشخصية، وولاء أولئك الذين عينهم في المراكز الرئيسة، لقد حاول بوتين الحفاظ على تلك السلطة من خلال الحفاظ على هؤلاء الفرسان لمواصلة التأثير في التوازن.
15. ساكوا، قضية الديموقراطية الروسية، ص: 197.
16. تايم، 19 ديسمبر (كانون الأول) 2007. النسخة الكاملة للمقابلة تجدونها على: http://content.time.com/time/specials/2007/printout/0,29239,1690753_1690757_1695787,00.html.
17. يمكن الاطلاع على نسخة من الاجتماع المنظم من أرشيف الكرملين على الشبكة، 10 ديسمبر (كانون الأول) 2007.
18. يرى ريتشارد ساكوا أن سيشين، فضل حتى النهاية ولاية ثالثة لبوتين، مع أن سيشين المنعزل الشهير لم يبدِ آرائه علنًا. أزمة الديموقراطية الروسية، ص: 272.
19. مقابلة المؤلف مع سيرجي رولدوغين، سانت بطرسبورغ، سبتمبر (أيلول) 2014.
20. مايكل س. غورهام، بعد الشعارات الجديدة: اللغة، والثقافة، والسياسة في روسيا من غورباتشوف إلى بوتين (إيثاكا، نيويورك: منشورات جامعة كورنيل، 2014)، ص: 157.
21. جوليا أ. كاسيداي، وإميلي د. جونسون، عبادة الشخصية لعصر ما بعد الحداثة، لدى المحررة هيلينا غوسيلو، بوتين أيقونة شهرة وثقافة (لندن: روتلدج، 2013،) ص:. 43 فيلم قبلة من السجل ظهر للبيع في قرص مدمج في عيد الحب (الفالنتاين) 2008، على الرغم من أن تصويره كان منذ سنوات عديدة، وحقيقة

عدم ظهوره في دور السينما إما لأنه محفوف بالمخاطر السياسية أو، كما أشار بعض النقاد إلى فظاعته التي لا توصف.

22. نشرت الصحيفة إسبريسو مقتطفات من المحادثات التي سجلتها داداريو سرًّا خلال اللقاء الدافئ مع برلوسكوني في 20 يوليو 2009، وطبقًا للبرقيات الدبلوماسية التي نشرها ويكيليكس، أصبح الدبلوماسيون الأمريكيون على علم بعلاقة الإعجاب المتبادلة بين بيرلسكوني وبوتين، مشيرين إلى أنه كان عليهم أن يرفضوا بصرامة جهود الوساطة لبرلسكوني عندما تدهورت العلاقات مع الولايات المتحدة.

23. ظهر بوتين أيضًا على موقع نمتيسوف nemtsov.ru، ترجمة ديفيد إيسيل التي استشهد بها هنا تظهر في: La Russophobe blog، larussophobe.wordpress.com/2008/03/31/boris-nemtsovs-white-paper-in-full/, under the title “Putin: The Bottom Line.”

24. صحيفة وول ستريت، 11 يونيو (حزيران) 2008.

25. ظهرت المقالة حول تيمشينكو وشركته غونفور في مجلة الإيكونوميست في 29 نوفمبر (تشرين الثاني) عام 2008، وبعد أن رفع تيمشينكو دعوى ضد التشهير، قدمت المجلة توضيحًا في 30 يوليو (تموز) 2009، قائلة إنها تلقت تأكيدات من غونفور بأن لا فلاديمير بوتين ولا غيره من الشخصيات السياسية الروسية لها أي ملكية في شركة غونفور.

26. كشف المؤلف عن وجود دراسة لوكالة الاستخبارات المركزية وصلت إليه من مسؤولين حكوميين أميركيين على دراية بثروته، مع أنه لم يعلن عنها مطلقًا، ولم تناقش بأي تفاصيل. الادعاءات الأولى التي قدمها بلكوفسكي حول ثروة بوتين كانت في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة دي فيلت الألمانية، التي نشرت المقابلة في 12 نوفمبر (تشرين الثاني) 2007، وأعادت نشرها في ديسمبر (كانون الأول) صحيفة الديلي تلغراف، ثم أصبحت في متناول الجميع.

27. ذكر بوريس نيمتسوف تفاصيل الرحلة لأول مرة في مدونته في 18 ديسمبر (كانون الأول) 2010، عندما كان يدافع ضد دعوى التشهير التي رفعها عليه تيمشينكو؛

بسبب وصف نيمتسوف له كصديق لبوتين في ورقة لاحقة عن الفساد في روسيا: b-nemtsov.livejournal.com/93781.html وأيضًا وصفت رويترز الرحلة، وبناء القصر في مقال كان جزءًا من سلسلة تحقيقات تسمى رفيق الرأسمالية، 21 مايو (أيار) 2014، وجاءت الادعاءات - جنبًا إلى جنب مع أدلة دامغة - من أحد الشركاء وهو سيرجي كولسنيكوف الذي أصبح معروفًا في أواخر عام 2010، من خلال الرسالة المفتوحة التي وجهها إلى ديميتري ميدفيديف حول هذا المخطط، وقد وصف وقتها القصر في العديد من المقابلات، بما في ذلك المقابلة التي أجرتها معه صحيفة فاينانشال تايمز، في 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2013. كارين داويشا هي بدورها فصلت الفضيحة في كتابها الفساد الحكومي المستفحل عند بوتين، ص: 295–304؛ كما فعل بن يهوذا في الإمبراطورية الهشة، ص: 116.

الفصل 19 الوصاية على العرش

1. انظر مقابلة سولجينتسين في دير شبيغل قبل عام من وفاته، في 23 يوليو (تموز) 2007. http://www.spiegel.de/international/world/spiegel-interview-with-alexander-solzhenitsyn-i-am-not-afraid-of-death-a-496003.html.
2. نيويورك تايمز، 28 يناير (كانون الثاني) ساكوا أزمة الديموقراطية الروسية ص: 279.
3. نيويورك تايمز، 29 يناير (كانون الأول) 2008.
4. من رسالة دبلوماسية لمسؤول كبير في وزارة الخارجية مؤرخة في 20 يونيو (حزيران) 2008، تم تسريبها من قبل ويكيليكس.
5. نيويورك تايمز، 17 يوليو (تموز) 2008.
6. روكسبيرف، ص: 237.
7. تبعًا للتحقيقات اللاحقة من قبل الاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمن والتعاون الأوربي، توفي جنديان فقط في إطلاق النار الأولي، في حين أصيب آخرون.

8. يوري أوشاكوف السفيير الروسي السابق الذي عاد إلى موسكو ليعمل بصفة مستشارًا في مكتب رئيس الوزراء، نقلًا عن برقية دبلوماسية من السفير الأمريكي في روسيا جون بيرل، مؤرخة في 26 أغسطس (آب) 2008، وتم تسريبها من قبل ويكيليكس.
9. لا يزال توقيت مكالمات بوتين مع ميدفيديف مسألة خلاف. أكد ميدفيديف أنه أصدر الأمر ببدء العمل العسكري قبل أن يتحدث مع بوتين، بيد أن بوتين ومسؤولين آخرين قالوا كانت هناك اتصالات متكررة بين الاثنين في الصباح الباكر، مع دفع بوتين الى استجابة أكثر قوة.
10. خطاب ميدفيديف أثناء الرئاسة تم أرشفته كذلك في أرشيف الكرملين الرقمي، 8 أغسطس (آب) 2009.
11. بوش، ص: 434.
12. وفقًا لتقرير الاتحاد الأوروبي الذي ألقى اللوم على كل من روسيا وجورجيا، فقد بلغت الخسائر لجميع الأطراف في القتال 844 شخصًا، وأفادت أوسيتيا الجنوبية عن 365 حالة وفاة، بمن فيهم العسكريون والمدنيون؛ فقدت جورجيا 170 جنديًا و14 ضابط شرطة و228 مدنيًا؛ وفقدت روسيا 67 شخصًا، وأصيب مئات عديدة، وشرد الآلاف من ديارهم في أوسيتيا الجنوبية وأجزاء من جورجيا.
13. بوش، ص: 435.
14. ريا نوفوستي، 10 أغسطس (آب) 2008.
15. نيويورك تايمز، 21 أغسطس (آب) 2008.
16. رايس، ص: 688.
17. البرقية الدبلوماسية التي أرسلها جون آر. بيرل في 26 أغسطس (آب) 2008، وتم تسريبها من قبل ويكيليكس.
18. أبلغ مستشارك ساركوزي، جان ديد ليفيت عن هذه المحادثة في صحيفة لو نوفيل أوبسرفاتور، وعلى الرغم من أن المتحدث باسم بوتين نفى تلك المحادثة في البداية، إلا أن المقابلة بأكملها تم نشرها في وقت لاحق على الموقع الإلكتروني

لمكتب رئيس الوزراء: http://archive.premier.gov.ru/eng/premier/press/world/1182/print/.

19. تقرير هيومن رايتس ووتش عن النزاع، داخل اللهب (2009) ص: 130. وأبلغت المنظمة عن ارتكاب جرائم حرب من جانب جميع أطراف النزاع، ودعت إلى إجراء تحقيقات لم تحدث حتى الآن.
20. نيويورك تايمز، 16 نوفمبر (تشرين الثاني) 2008.
21. سيرجي غورييف وأليه تسيفينسكي، التحديات التي تواجه الاقتصاد الروسي بعد الأزمة، في أندرس أسلاند، وآخرون، محررون، روسيا بعد الأزمة الاقتصادية العالمية (واشنطن دي سي: معهد جي بيترسون للاقتصاد الدولي، والدراسات الإستراتيجية والدولية، 2010)، ص:. 17 تقدم الدراسة لمحة عامة عن الأزمة، وما أبدته الحكومة من استجابة والعديد من التفاصيل المذكورة تجدها هنا.
22. المصدر نفسه، ص: 24.
23. أندرز أسلاند، وسيرجي غورييف، وآندرو كوتشينز، دورة روسيا: قابلة للتطبيق في المدى القصير لكن غير مستدامة على المدى الطويل، في أسلاند وآخرون، محرران، روسيا بعد الأزمة الاقتصادية العالمية ص: 259.
24. روكسبيرف، ص: 280.
25. نيويورك تايمز، 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 2008.
26. الانحراف في برنامج ميدفيديف استند إلى مقابلة مع مساعد كبير له، تحدث بشرط عدم الكشف عن هويته. تفحص الخطاب وعدم ارتياح ميدفيديف من اللغة التي أدخلت، تم وصفها في برقية وزارة الخارجية من قبل السفير الأمريكي، بتاريخ يوم الخطاب، والذي كشف عنه موقع ويكيليكس.
27. نيويوك تايمز، 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 2008.
28. قصة الحادث مع الفيديو بمكن أن تجدوها على الموقع: www.theother russia.org، في منشور مؤرخ في 14 أكتوبر (تشرين الأول) 2008.

29. برقية وزارة الخارجية من قبل رئيس البعثة بالنيابة في موسكو، إريك روبين، بتاريخ 19 نوفمبر (تشرين الثاني) 2008، تم تسريبه من قبل ويكيليكس.

الفصل 20: رجل الأفعال

1. ستيفن فورتيسكو، بوتين في بيكاليفو، الدراسات السلافية الأسترالية وأوروبا الشرقية 23، العدد الأول والثاني من عام 2009.
2. تم الاطلاع على تصريحات المحافظ على الموقع الإلكتروني: www.theotherrussia.org، في 21 مايو (أيار) 2009. انظر أيضًا إلى آنا أروتونيان، سحر بوتين: داخل عبادة السلطة الروسية (نورثامبتون، MA: منشوات فرع أولايف، 2014)، والذي يفرد فصلًا كاملًا عن تأثير بيكاليفو؛ ونيويورك تايمز، 5 يونيو (حزيران) 2009.
3. دانيال تريسمان، السياسة الروسية في زمن الاضطرابات الاقتصادية، في أسلاند وآخرون، روسيا بعد الأزمة الاقتصادية العالمية، ص: 54.
4. تم مناقشة تقارير بوتين في الأشهر الأولى من عام 2009، في برقية وزارة الخارجية مؤرخة في 4 مارس (آذار) 2009، وكشف عنها موقع ويكيليكس.
5. ناقش المسؤولون أنفسهم الخلافات الداخلية حول قرار بوتين تعليق محادثات منظمة التجارة العالمية مع المسؤولين الأمريكيين والأوروبيين المحبطين، على النحو المفصّل في برقية وزارة الخارجية المؤرخة بـ 19 يونيو (حزيران) 2009.
6. انظر موقع اليونسكو: whc.unesco.org/en/list/900.
7. سشراد Schrad ص: 56 -354.
8. كومرسانت، 28 أبريل (نيسان) 2010.
9. أبلغ عن إغلاق التحقيق في اتهامات موروزوف دون أن تعلق عليها ريا نوفوستي في 12 أبريل (نيسان) 2012. شرح موروزوف بالتفصيل اتهاماته في مقابلة مع نوفايا غازيتا، نشرت في 4 يونيو (حزيران) 2010. كما ظهرت تجربة موروزوف أيضًا في فيلم وثائقي، ألعاب بوتين، الذي صدر في عام 2014، وكان لدى المؤلف نسخة من التماس الحصول على اللجوء السياسي، الذي منح في نيسان (أبريل) 2010.

10. تفاصيل قضية سيرجي ماغنيتسكي هي من إعادة إعمار لدى إلين باري في صحيفة نيويورك تايمز في 23 ديسمبر كانون الأول 2010، إلى جانب مقابلات مع ويليام براودر والوثائق التي قدمها إلى المؤلف، فضلا عن كتابة الملاحظة الحمراء: القصة الحقيقية حول التمويل المرتفع، وكفاح رجل واحد من أجل العدالة. (نيويورك، سيمون وشوستر 2015).
11. أنجيلا ستنت، حدود الشراكة: العلاقات الأمريكية الروسية في القرن الحادي والعشرين (برينستون: منشورات جامعة برينستون، 2014) ص: 231.
12. أصدر مكتب التحققيقات الفيدرالي مئات الوثائق المتعلقة بالتحقيق الذي أطلق عليه اسم " قصص شبح العمليات" على موقعه الإلكتروني: website: http://vault. fbi.gov/ghost -stories-russian-foreign-intelligence-service-illegals/.
13. كومرسانت، 25 يوليو تموز 2010.
14. بيتر إيرلي الذي كتب السيرة الذاتية لـ تريتياكوف وأسماها: كومريد جي: الأسرار غير المعلنة عن الجاسوس الرئيس الروسي في أمريكا بعد نهاية الحرب الباردة (نيويورك: بيركلي بوكس، 2007)، وكان يعدُّه صديقًا له، أبلغ عن ظروف وفاته على موقعه على الإنترنت: www.pete Earley.com/2010/07/09/sergei-tretyakov-comrade-j-has-died/. بعد ذلك بعام، حاكم الروس ضابط استخبارات آخر، ألكسندر بوتيف، وحكم عليه غيابيًا بتهمة خيانة الخلايا النائمة من العملاء.
15. تمت مقابلته في غازيتا- روسيا في 30 آذار 2010.
16. وصف العديد من المسؤولين الذين عملوا عند أحد الزعيمين أن الطرفان اتفقا أن يحترم كل طرف مسؤولية الآخر كرئيس ورئيس وزراء، على الرغم من أن الجميع متفقون أن بوتين يتمتع بالسلطة المطلقة.
17. مسؤول كبير قابله المؤلف في أبريل (نيسان) 2013.
18. ظهرت المدونة على الموقع: top-lap.livejournal.com/1963.html.

19. انظر هيلينا غوسيلو، في Vip Objet d'Art، ص: 8؛ وجوليا أ. كاسيداي وإميلي د. جونسون، عبادة الشخصية لعصر ما بعد الحداثي، ص: 43، سواء في هيلينا غوسيلو، بوتين بوصفه شخصًا مشهورًا، أو في الأيقونة الثقافية.
20. غازيتا. روسيا، 28 أكتوبر (تشرين الأول) 2010.
21. ملاحظات الطبيب حول الجراحة التجميلية لبوتين ظهرت في أكتوبر 2012 على الموقع: -http://tecrussia.ru /starplastica/308-vladimir-putin-plasticheske operacii-foto.html
22. روسياسكايا غازيتا، 6 سبتمبر 2010.
23. ظهر خطاب لوزكوف في راديو أوروبا الحرة / راديو الحرية في 29 سبتمبر (أيلول) 2010، http://www.rferl.org/conteText_Of_Yury_Luzhkovs_Letter_To_ President_Medvedev/2171682.html
24. انظر التقرير عن المشروع الذي قدمته CEE BankWatch، وهي منظمة غير حكومية تروج لحوكمة الشركات، على العنوان: at http://bankwatch.org/public -privatees/moscow-st-petersburg-motorway-section -partnerships/case-stu -15–58-km-deal-involvi
25. ساكوا، في بوتين والأليغارتش (القلة)، تفاصيل المحاكمة الثانية خودوركوفسكي، ص 45-136.
26. نيزافيسيمايا غازيتا ديسمبر (كانون الأول) 24 2010..

الفصل 21 العودة

1. في 30 نوفمبر (تشرين الثاني) 2014، نشرت صحيفة التايمز اللندنية ملفًا كتبه ضباط المخابرات السابقون عن المناقصات لبطولة كأس العالم 2018 و2022؛ كانت لجنة المناقصة البريطانية قد رشت المحققين بعد أن تقدمت بطلب للحصول على بطولة عام 2018، وقد تم التحقيق في اتهامات الفساد في

المناقصات ورفضها من قبل الفيفا، وهي الهيئة الإدارية الدولية للرياضة، وسط جدل كبير، ولكن في مايو (أيار) 2015، أعلن المسؤولون الأمريكيون والسويسريون أن المناقصات كانت محورًا للتحقيق المترامي الأطراف الذي قد يجبر على إعادة النظر في مناقصات الفوز لروسيا وقطر.

2. في مقابلة إذاعية على فينام FM، 2 فبراير (شباط) 2011، متوافرة على: www.stolica.fm/archive-view/3626.
3. نيويورك 4 أبريل (نيسان) 2011.
4. At www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/03/10/vice-president-bidens-remarks-moscow-state-university
5. مسؤول أمني تحدث مع المؤلف في مقابلة له في موسكو في ديسمبر 2013 فضل عدم الكشف عن أسمه.
6. فيدوموستي، 31 يوليو (تموز) 2011.
7. نشرت صحيفة الفاينانشال تايمز النسخة الكاملة للقاء في 19 يونيو (حزيران) 2011.
8. يذكر أن القرار النهائي حول عودة بوتين إلى الرئاسة وصفه ثلاثة أشخاص كانوا على دراية ببعض التفاصيل، بالرغم من أن التفاصيل الكاملة لاجتماعهم النهائي في الليلة التي سبقت ترشيح ميدفيديف لا يعرفها سوى الرجلين في الغرفة.
9. وصف برنامج التحديث لدى ميدفيديف، ودافع عنه مطولاً في مقابلة موفقة جدًا في صحيفة وول ستريت في الأول يوليو (تموز) 2011.
10. نوفايا غازيتا، 26 سبتمبر (أيلول) 2011.
11. نيويورك تايمز، 30 سبتمبر (أيلول) 2011.
12. آروتونيان، ص: 207.
13. وصف بروخوروف تجنيد ميدفيديف له، في مقابلة في نيويورك تايمز، 17 سبتمبر (أيلول) 2011.
14. نيويورك تايمز، 13 ديسمبر (كانون الأول) 2011.

15. وفقًا لسيرج شميمان الذي كان من بين الحضور. نيويورك تايمز، 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 2011.
16. انظر: globalvoicesonline/2011/12/05/Russia-election-day-ddos-alypse؛ للحصول على وصف دقيق للهجمات الإلكترونية قبل الانتخابات وفي أثنائها.
17. شريط فيديو للرجل العجوز الذي كان يملأ أوراق الاقتراع تناقلته وسائل الإعلام، الروسية على نطاق واسع وفي صحيفة نيويورك تايمز6 ديسمبر (كانون الأول) 2011، التقرير النهائي لبعثة المراقبين التابعة لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا بشأن الانتخابات تجدونه على الموقع: www.osce.org/odihr/86959.
18. نقلًا عن www.op ndemocracy.net، بقلم أولغا برينينجر، 28 مارس (آذار) 2013.
19. نيويورك تايمز، 22 ديسمبر 2011.
20. كومرسان، 10 ديسمبر (كانون الأول) عام 2011.
21. المقتبسات من مقابلة ليفينيكو أخذت عن صحيفة نيويورك تايمز في شهر مارس (آذار) 2012، زميلي أندريه كرامر عمل مشاركة في النسخة كاملة.

الفصل 22 عودة الملكية

1. ديمتري أوزلانر، حالة الـ Pussy Riot، وخصائص روسيا ما بعد العلمانية، الدولة والدين والكنيسة 1 (2014): 24. دراسة أوزلانر للقضية ودور الكنيسة والدولة في روسيا تقدم لنا خلفية مفيدة، والترجمات التي قام بها أبريل فرنج، (Pussy Riot, Pussy Riot! A punk Prayer for Freedom) (نيويورك: النشر النسوي، 2013)، الذي يتضمن بيانات الجماعة وشهاداتها في المحكمة؛ مارك بينيتس، يركل الكرملين: المعارضون الجدد في روسيا يريدون الإطاحة ببوتين (لندن: ونوورلد، 2014)؛ ومريم إلدر، ماذا تعني مجموعة Pussy Riot اليوم؟ بزفيد، 7 فبراير (شباط) 2014. هناك الكثير من الترجمات من أغاني المجموعة، وقد اختار المؤلف تلك الأغاني التي تبدو أقرب إلى المعنى المقصود.

2. المقابلة التي أجراها المؤلف في واشنطن دي سي في فبراير (شباط) 2012.
3. كيسنجر في مقابلته مع التايم حول قضية إعلانه شخصية عام 2007 متوافرة على موقعه: Henrykissinger.com
4. نيويورك تايمز، 8 يناير (كانون الأول) 2012.
5. رويترز، 8 فبراير (شباط) 2013.
6. موسكو نيوز، 1 مارس (آذار) 2012.
7. نيويورك تايمز، 8 ديسمبر (كانون الأول) 2011.
8. مقابلة الكاتب يكاترينا ساموستفيتش مارس (آذار) 2013.
9. المنشور الأول لنافالني عن مجموعة Pussy Riot، بتاريخ 7 مارس (آذار) 2012، تجده في navalny.livejournal.com / 690551.html
10. قدم أندريه زولوتوف الابن وصفًا تفصيليًا للخدمة الخاصة لريا نوفوستي، 23 أبريل 2012. ولم يعد متوافرًا على الموقع الإلكتروني للوكالة، التي تم تغيير اسمها إلى سبوتنيك، وتم إعادة طبعته، على الرغم من ذلك على الموقع: www.angelfire.com/pa/ImperialRussian/news/481news.html.
11. بينيتس، ص: 164.
12. نيويورك تايمز، 7 مارس (آذار) 2012.
13. المصدر نفسه.
14. نيويورك تايمز 6 ديسمبر (كانون الأول) 2012.
15. هيومن رايتس ووتش: قوانين الاستنزاف، نشرت في أبريل (نيسان) عام 2013.
16. نيويورك تايمز، 12 يونيو (حزيران) 2012.
17. مجموعة Pussy Riot، ص: 55
18. المقابلة مع يكاترينا ساموستيفتش، مارس 2013.

الفصل 23 وحيدًا في الأولمبياد

1. لا يزال هناك جزء من الفيلم متوافر لمدة سبع دقائق على الموقع: http://rutube.ru/video /eddef3b31e4bd f29de4db46ebdd4e44/. Forbes reported on the film and its mysterious p oduction at http://www.forbes.ru/sobytiya/vlast/85216-kto-zdes-glavnokomanduyushchii.
2. انظر: http://abcnews.go.com/blogs/politics/2012/03/president-obama-asks-medvedev-for-space-on-missile-defense-after-my-election-i-have-more-flexibility/.
3. http://www.justice.gov/usao/nys/pressreleases/September13/PrevezonHoldingsForfeiturePR.php.
4. نوفايا غازيتا، 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2012، ترجم إلى الإنجليزية على الموقع: http://en.novayagazeta.ru/politics/55288.html.
5. المراقبة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية، 9 أكتوبر (تشرين الأول) 2012.
6. زيارة بوتين، NTV السابع من أكتوبر (تشرين الأول) 2012 www.ntv.ru.novosti/348821.
7. بلومبيرغ بزنز ويك، 27 أغسطس (آب) 2013.
8. مقابلة مع المؤلف، أبريل (نيسان) 2013.
9. مقابلة ليودميلا ناروسوفا ظهرت في نوفايا غازيتا. 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2012.
10. كشف سيرجي رولدوجين، عراب ماريا، عن زواج حفيد بوتين وولادته في مقابلة جرت في سبتمبر (أيلول) 2013، وقد أبلغت إذاعة هولندا العالمية عن الحادث الذي وقع لجوريت فاسن في 12 يناير (كانون الثاني) 2011، http://www.rnw.org/archive/russias-mysterious-dutch-businessman وللمزيد من التفاصيل عن المشكلات القانونية لماتفيل يورن انظر: http://sobesednik.ru/

kriminal/matvei-urin-sgorel -na-erunde and http://rapsinews.com/judicial_ news/20140528/271420339.html.

11. ظهرت تفاصيل ارتباط يكاترينا بوتينا بجامعة موسكو الحكومية في تقرير لصحيفة روسية (RBK) في يناير (كانون الثاني) عام 2015. /http:// top.rbc.ru/business 28/01/2015/54c8b4659a794730dbef8851 وقد قدمها الصحفي أوليغ كاشين لأول مرة على أنها ابنة بوتين على موقعه الإلكتروني: /http://kashin.guru/2015/01/29 /ona وأكدت هويتها في وقت لاحق وكالة رويترز في 29 يناير (كانون الثاني) 2015، وبلومبيرغ في 30 يناير (كانون الأول) 2015.

12. نشرت صحيفة الغارديان في 9 مايو (أيار) 2012 فيديو عن أبرز المباريات على موقعها الإلكتروني : /http://www.theguardian.com/world/video/2012/may/09 vladimir -putin-ice-hockey-russia-video.

13. نيويورك تايمز، 6 مايو (أيار) 2012.

14. ديلي بيست، 13 يناير (كانون الثاني) 2013.

15. استعرضت صحيفة دير شبيغل الكتاب. /http://www.spiegel.de/international europe/war بلكوفسكي نأى بنفسه عن بعض استخلاصاته في مقابلة له في موسكو في سبتمبر (أيلول) 2014.

16. نوفويا غازيتا، 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2012.

الفصل 24 بوتين غراد

1. مقابلة أجراها الكاتب مع فلاديمير ياكونين، في يناير (كانون الثاني) 2013. وأيضًا تم إدراج تفاصيل بناء سوتشي، بما في ذلك مقابلات معه ومع أناتولي باخوموف، في مجلة نيويورك تايمز، في 22 يناير (كانون الثاني) 2014.

2. في مقابلة أجرتها صدى موسكو، 11 نوفمبر (تشرين الثاني) 2013.

3. انظر: السباق إلى الحضيض، تقرير قدمته هيومن رايتس ووتش نشر في 6 فبراير (شباط) 2013 ومتوافر على موقعها.
4. أسكواير، 7 يوليو (تموز) 2010، متوافر على wsquire.ru/sochi-road.
5. قام بوريس نيمتسوف وليونيد مارتينوك بتفصيل العديد من التجاوزات في التكاليف، في كتيب بعنوان: الألعاب الأولمبية الشتوية في المناطق شبه الاستوائية: الفساد والإساءة في سوتشي، الذي صدر في 20 مايو (أيار) 2013، وتم تحديثه في 6 ديسمبر (كانون الأول) 2013. ترجمة كاترين آ. فيتزباتريك وهو متوافر على الموقع الإلكتروني: www.interpretermag.com/winter -olympics-in-the- sub-tropics-corruption-and-abuse-in-sochi وقد أسماه نيمتسوف (مهرجان الفساد)، في مقابلة له مع المؤلف في ديسمبر (كانون الأول) عام 2013.
6. يعد مركز ليفادا أحد أهم مراكز وكالات الاقتراع الأكثر دقة، تتبع تصنيف بوتين طوال حكمه، بعد أن وصل معدل شعبيته إلى الذروة في عام 2008، حيث وصلت إلى 88 بالمئة، انخفضت إلى 61 في نوفمبر (تشرين الثاني) 2013. /www.leada.ru .indeksy
7. إنترفاكس، 29 أبريل (نيسان) 2013.
8. تاتيانا ستانوفايا: احذر ميدفيديف، معهد روسيا الحديثة، 6 ماس (آذار) 2013.
9. ذكرت وكالة أسوشيتد برس في 4 فبراير (شباط) 2015 أن سبيربانك حول التزلج إلى الحكومة، وشطب قرض بقيمة 1.7 مليار دولار.
10. تم تسريب تصريح سنودين من قبل موقع ويكيليكس في 12 يوليو (تموز) 2013.
11. نقلًا عن نيويورك تايمز، 1 نوفمبر (تشرين الثاني) 2013.
12. صحيفة وورلد بوليسي، خريف 2013.
13. مقابلة أجراها معه المؤلف، نقلًا عن نيويورك تايمز، 2 أغسطس (آب) 2013.
14. متوافر على موقع الفاتيكان: /http://w2.vatican.va/conte t/francesco /en letters/2013/documents/papa-francesco_20130904_put n-g20.html

15. نيويورك تايمز، 12 سبتمبر (أيلول) 2013.

16. على الموقع: http://www.forbes.com/sites/carolinehoward/2013/10/30/the-worlds -most-powerful-people- 2013/

17. مقابلة مع المؤلف، يناير ومارس 2014.

18. موسكو تايمز، 8 أكتوبر (تشرين الأول) 2013.

19. انظر: راديو أوروبا الحرة، راديو الحرية، 7 كانون الأول 2012، www.rferl.org/ content /clinton-calls-eurasian-integration-effort-to-resovietize/24791921. .html

20. الغارديان، 22 سبتمبر (أيلول) 2013.

21. ديرشبيغل نوفمبر (تشرين الثاني): http://www.spiegel.de/international/europe /war-in-ukraine-a-result-of-misunderstandings-between-europe-and-russia -a-1004706-2.h- الملاحظات التي أبداها كبير مستشاري بوتين في موسكو في ديسمبر (كانون الأول) من عام 2013، مفضلًا عدم الكشف عن اسمه.

22. نيويورك تايمز، 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 2013.

23. الأكونومست، 23 ديسمبر (كانون الأول) 2013.

24. كومرسانت، 6 فبراير (شباط) 2014.

25. الجريدة اليومية، 10 فبراير (شباط): http://ej.ru/?aote&id=24384.

26. ليونيد بيرشيدسكي، دورة الألعاب الأولمبية عودة إلى الثمانينيات في روسيا، بلومبرغ، 17 فبراير (شباط) 2014.

الفصل 25 : روسيتنا

1. جيمس ميك، الرومانسيون والواقعيون، لندن ريفيو أف بوكس، 20 فبراير (شباط) 2014.

2. نيويورك تايمز، 3 يناير (كانون الثاني) 2015.

3. كشف بوتين عن الأمر السري الذي أصدره بإخلاء يانوكوفيتش من شبه جزيرة القرم، إلى جانب تفاصيل أخرى حول الأزمة مع أوكرانيا، خلال مقابلة أجراها معه تلفاز وثائقي على قناة روسيا الحكومية، التي تم بثها في 15 مارس (آذار) 2015، بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لقرار الضم. جاءت المقابلة بعنوان: القرم: الطريق إلى الوطن الأم، متوافرة على الإنترنت في أماكن مختلفة، بما في ذلك: http://en.krymedia.ru/politics/3373711 --Documentary-Crimea-Path-to- Motherland-Call-and-Warning.

4. قام بوتين بإجراء مقارنة في أول تصريح علني له حول الأحداث في أوكرانيا ف 4 مارس (آذار) 2014.

5. ممثل روسيا لدى الأمم المتحدة قرأ الرسالة في اجتماع لمجلس الأمن في 3 مارس (آذار) 2004.

6. أندرياس رينك، كيف أضاع بوتين برلين IP Journal المجلس الألماني للشؤون الخارجية 29 سبتمبر (أيلول) 2014. كذلك نقلت وكالة رويترز في 20 مارس (آذار) 2014 عن اعتراف بوتين لميركل.

7. انظر: معهد ستوكهولم الدولي لبحوث السلام؛ الاتجاهات في النفقات العسكرية العالمية، 2014، وهو متوافر على الموقع الإلكتروني: / books.sipri.org/files/FS SIPRIFS1504.pdf

8. نيويورك تايمز، 13 مارس (آذار) 2014.

9. أعلنت وزارة الخزانة في الولايات المتحدة عن جولة ثانية أكثر أهمية من العقوبات في 20 مارس (آذار) 201، أي بعد أربعة أيام من ضم القرم، .http://www.treasury gov/press- enter/press-releases/Pages /jl23331.aspx.

10. مقابلة المؤلف مع فلاديمير ياكونين في مارس (آذار) 2014.

11. أجرت وكالة تاس مقابلة مطولة مع تيمشنكو، وقد نشرت في 4 أغسطس (آب) 2014 على موقعها: tass.ru/en/Rusia/743432

12. تم تناقل التسجيل الصادر عن جهاز الأمن الأوكراني على نطاق واسع في وسائل الإعلام الأوكرانية والدولية، والذي عرف بإس بي، وهو جزء من حرب المعلومات التي قامت بين الجانبين. على الرغم من أن المتمردين نفوا تثبيت نتائج الاستفتاء، فإن التسجيل نفسه لهؤلاء المتورطين لا يبدو أنه محط نزاع حقيقي. النسخة المترجمة تبدو على الموقع الإلكتروني: http://ukrainianpolicy.com/sbu-audio- / links-donetsk-republic-to-russian- involvemen

13. ناقش مارك غاليوتي العقيدة التي لاحظها القليل في وقت النشر، وأشار إلى أهميتها في أحداث أوكرانيا عام 2014 في تحليل شمل هذه الترجمة في: https:// inmoscowsshadows.wordpress.com/2014/07/06/the-gerasimov-doctrine-and-russian-non-linear-war/.

14. في مايو (أيار) عام 2015، أعلن المدعون العامون في الولايات المتحدة وسويسرا عن اعتقال كبار المسؤولين في الفيفا، بوصف ذلك جزءًا من تحقيق دام سنوات في الرشوة التي قدمت في مناقصات كأس العالم. وأدت الفضيحة إلى إجبار رئيس الفيفا؛ سيب بلاتر على الاستقالة، وندد بوتين بالولايات المتحدة بشكل خاص، قائلًا إن التحقيق ((محاولة سافرة أخرى من جانب الولايات المتحدة لتوسيع تشريعاتها ليشمل دولًا أخرى)).

15. تمت إزالة منشور ستريلكوف عن فكونتاكتي في وقت لاحق، ولكن ظلت نسخ منه موجودة على الشبكة بما في ذلك النسخة المترجمة: http://www.interpretermag. com /was-col-strelkovs-dispatch-about-a-downed-ukrainian-plane-authentic/.

16. التحقيقات الماليزية والهولندية في تحطم الرحلة 17، من المتوقع أن يكون قد تم الانتهاء منها في نهاية عام 2015، وقد أشارت الدلائل بشكل دامغ إلى تورط الجيش الروسي في العملية: https://www.bellingcat.com/ wp -content/uploads/2014/11/ Origin-of-the -Separatists -Buk -A -Bellingcat-Investigation1.pdf and http:// interpretermag.com/evidence -review-who-shot-down-mh17

17. العبارة باللغة الروسية بسيطة، مع أن ثمة صعوبة في ترجمتها حرفيًا، لهذا هناك ترجمات مختلفة لها؛ نعم لروسيا ونعم لبوتين، لا لبوتين ولا لروسيا. http:// .izvestia.ru/news/578379

18. انظر: حكم محكمة التحكيم الدائمة، 18 يوليو (تموز) 2014، ياكوس يونيفيرسال ليميتد، ضد روسيا الاتحادية، ص: 330، http://www.pca-cpa.org.

19. نيويورك ريفيو أف بوكس، 8 مايو (أيار) 2014.

20. مقابلة أجراها الكاتب مع غاري كاسباروف في ماكاو، يونيو (حزيران) 2014، بوصفها جزءًا من تقرير معد لصحيفة نيويورك تايمز حول مساعيه ليصبح رئيسًا للاتحاد الدولي للشطرنج، أو 6 أغسطس (آب) 2014.

21. نيويورك تايمز، 2 ديسمبر (كانون الأول) 2014.

22. فيدموستي، 1 مارس (آذار) 2014.

23. موسكو تايمز 18 يونيو (حزيران) 2014.

24. مقابلة المؤلف مع ألكسي نافالني، ديسمبر (كانون الأول) 2014.

25. تم الانتهاء من تقرير نيمتسوف بعد وفاته، من قبل زملائه في المعارضة، وقد صدر في ربيع عام 2015، وهو متوافر باللغة الإنجليزية على الموقع الإلكتروني: .http://www.4freerussia.org/pu in.war/

26. نوفايا غازيتا، 11 أغسطس (آب) 2014: http://novayagazeta.ru/ .politics/64784. html

27. نيويورك تايمز، 24 يناير (كانون الثاني) 2015.

28. نيكولاي غوغول، دي د سولز، ترجمة ريتشارد بيفار ولاريسا فولوخونسكي (نيويورك: فينتاج، 1996) ص: 253.

الألبوم

بوتين مع والدته ماريا في يوليو 1958 عندما كان عمره خمس سنوات.

في سبتمبر 1960، بدأ بوتين الدراسة في المدرسة رقم 193 في مدينة لينينغراد التي لم تكن تبعد كثيرًا عن المكان الذي ترعرع فيه في باسكو لين، كان عمره ثماني سنوات تقريبًا؛ لأن أمه أخَّرت التحاقه بالمدرسة.

كان بوتين في المدرسة الابتدائية في لينينغراد، طالبًا مختلفًا (شرسًا، ومتهورًا، ومشاغبًا في الصف)، وقد وصفته المعلمة فيرا غوريفتش بالدوَّامة؛ لأنه كان يسير في الصف ويلف في دوائر، وقد تحسَّنت دراسته عندما التحق بصف الفنون القتالية. يظهر بوتين في الصف الخلفي، الثاني من اليسار.

التحق بوتين بجهاز الاستخبارات السوفيتي -الكي جي بي- في العام 1975، وعُيِّن في مدينة لينينغراد ، وعمل أولًا في مكافحة التجسس، ثم التحق بالدائرة الأولى المسؤولة عن مراقبة التجسس الأجنبي.

قضى بوتين عشر سنوات من العمل مع الكي جي بي في لينينغراد، وكان يرتقي في صفوف الجهاز ببطء، وفي العام 1985، أرسله الجهاز إلى ألمانيا الشرقية؛ حيث عمل في مركز حدودي في مدينةٍ دريسدن. يبدو هنا مع رئيسه يوري ليشكييف الذي أُرسل أيضًا إلى ألمانيا الشرقية، ولكن إلى المقر الرئيس المهم في برلين الشرقية.

عمل جهاز الكي جي بي عن قرب مع الجهاز السري سيئ السمعة لألمانيا الشرقية المسمى ستاسي. في هذه الصورة التي التقطت في يناير من العام 1989، يبدو بوتين الذي كان حينها برتبة مُقدَّم، مع زملائه في جهاو ستاسي، ومع ضباط ألمانيين وسوفييتيين، في حفل استقبال في المتحف في دريسدن. يظهر بوتين في الصف الأول واقفًا، الثاني من اليسار. يظهر في الصف الخلفي، الثالث من اليسار، ضابط استخبارات ألماني؛ ماثياس وارنغ الذي أصبح لاحقًا صديقه الشخصي والتجاري. يظهر في الصف الخلفي أيضًا، السابع من اليسار، زميل بوتين في الكي جي بي؛ سيرجي شيميزوف الذي صعد مع بوتين في العمل الحكومي والتجاري.

في 28 يوليو 1983، وبعد مدة خطوبة طويلة، تزوَّج بوتين ليودميلا شكريبنيفا التي كانت تعمل مضيفة في شركة طيران إيروفلوت وكانت تعيش في كالييننغراد.

ولدت طفلة بوتين الأولى؛ ماريا، في موسكو في العام 1985. يظهر بوتين ولودميلا مع صديقيهما سيرجي وايرينا رولدوغن.

ولدت ابنة بوتين الثانية؛ كاترينا (إلى اليسار) في دريسدين في العام 1986.

بعد سقوط جدار برلين، عاد بوتين إلى لينينغراد في العام 1990، وهو لا يزال يعمل مع الكي جي بي، وعمل مستشارًا عند أناتولي سوبتشاك؛ أحد قادة أسوأ حركات الديموقراطية في الاتحاد السوفييتي. عند انهيار الاتحاد السوفييتي بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في العام 1991، أصبح سوبتشاك رئيس بلدية مدينة سانت بطرسبيرغ، وأصبح بوتين نائبه المكلف بالشؤون الاقتصادية الخارجية.

صار أليكساندر ليتفيننكو (العقيد السابق في جهاز الكي جي بي، والضابطً في وكالة الأمن الفيدرالي الروسي إف إس بي التي خلفت الكي جي بي) من الناشطين المبلغين عن الفساد في الوكالة التي كان بوتين يرأسها. ظهر لتفينينكو في مؤتمر صحفي في العام 1998، إلى جانب ضباط آخرين، وكان بعضهم يخفون هويتهم، ويلبسون أقنعة ونظارات شمسية، واتهم الوكالة بممارسة عمليات ابتزاز واغتيال، ثم هرب لتفينينكو إلى لندن؛ حيث صار ناقدًا شرسًا للكرملين، لكنه تعرَّض للاغتيال في نوفمبر 2006 بمادة البلوتونيوم المشعة-210 التي أرجع المحققون مصدرها إلى روسيا.

في 27 أغسطس 1999، وبعد أشهر قليلة فقط من تعيين الرئيس بوريس يلتسين له رئيسًا للوزراء، طار بوتين إلى جمهورية داغستان، إلى الجنوب من روسيا؛ لمنح ميداليات لجنود ورجال شرطة روس ومحليين الذين صدّوا هجومًا من الانفصاليين الشيشانيين؛ كان هذا القتال بداية لحرب روسيا الثانية في الشيشان بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

في 31 ديسمبر 1999م، استقال يلتسين من الرئاسة وعيَّن رئيس الوزراء رئيسًا بالوكالة إلى حين إجراء الانتخابات بعد ثلاثة أشهر. في الصورة، يقف أليكساندر فولوشين؛ كبير موظفي الرئاسة الذي بقي في منصبه في حكم بوتين إلى أن انشق عن الكرملين في العام 2003. بعد لحظات من التقاط هذه الصورة، التفت يلتسين إلى بوتين وقال له: ((حافظ على روسيا)).

بوتين وكلبه المفضل؛ كوني، من فصيلة الليبرادور، في أثناء مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز في أكتوبر 2003. كثيرًا ما ظهر الكلب معه في أثناء اللقاءات الرسمية في مسكنه؛ إما لإضفاء لمسة إنسانية أو للتخويف، مثلما حدث مع المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل التي تخاف الكلاب، عندما أخذ الكلب يحوم حولها في أول لقاء لها مع بوتين.

في العام 2003، شن الكرملين هجومًا قانونيًا ضد شركة ياكوس النفطية ورئيسها ميخائيل خودوروكوفسكي؛ أحد أعضاء النخبة الذي جمع ثروة في التسعينيات، واتُّهم بالتزوير والتهرب الضريبي، وأُدين في العام 2005 بعد محاكمة وصفت بأنها مسيَّسة، وقد حوكم وأدين مرة أخرى في العام 2010، لكن بوتين عفا عنه في العام 2013 قبل الألعاب الأولمبية الشتوية في سوشي.

ركَّز بوتين بإصرار على مصادر روسيا الطبيعية بوصفها وسيلة لاستعادة ازدهار البلاد ومكانتها، وقد استعان بأقرب حلفائه الذين خدم معظمهم معه في بطرسبيرج، وعيَّنهم رؤساء على أكثر الأصول أهمية. هنا يظهر وهو يصافح أليكسي ميلر؛ أحد مساعديه من حكومة أناتولي سوبتشاك، الذي أصبح رئيس شركة غازبروم العملاقة. في الوسط، يبدو إيغور سيشن، أحد أقرب مساعدي بوتين، الذي أصبح رئيسًا لشركة النفط الوطنية -روزنفط، وقد عُدَّ سيشن العقل المُحرِّض على الهجوم على شركة يوكوس.

ابتعد بوتين عن تقليد تمجيد الشخصية وعبادة الفرد، لكن الكرملين صوَّره نموذجًا للرجل الروسي العادي، وهو يمارس أنواع الرياضة المختلفة أو أي أنشطة أخرى في الخلاء. التقط هذه الصورة مصور الكرملين الرسمي في أثناء إجازة بوتين في سيبيريا في صيف العام 2007. وقد أصرَّ المتحدث الرسمي باسمه في العام 2013، أن بوتين لم يقصد أبدًا أن يصور من دون قميص.

بعد أشهر من عدم اليقين والشلل السياسي قبل نهاية رئاسته الثانية، عيَّن بوتين مساعده ديمتري مدفيديف رئيسًا في ديسمبر 2007. وقام مدفيديف الذي لم يترشَّح مثل بوتين للمنصب من قبل، بتعيين بوتين رئيسًا للوزراء. من خلال ذلك المنصب، ظل بوتين قائدًا للبلاد من العام 2008–2012. يظهر مدفيديف في هذه الصورة، وهو يلقي خطابًا أمام حزب روسيا الموحدة في نهاية العام 2007، بينما يظهر بوتين على المنصة وهو يستمع.

في أثناء حكم بوتين، برز بعض أقرب أصدقائه من هامش العمل التجاري الإقليمي ليصبحوا من أكثر الشخصيات المؤثرة والأغنى في روسيا، ومن هؤلاء: يوري كافالشيك، وجينادي تمشنكو، وأركادي روتنبيرغ من رفاق بوتين القدامى في لعبة الجودو، أما الذي يظهر هنا مع بوتين في جنازة مدربهما في الستينيات فهو أناتولي راخلين.

اكتسب أليكسي نافالني؛ المحامي الذي تحول إلى مدوِّن، شهرة كبيرة لحملاته على الإنترنت ضد الفساد والمحسوبية في حكم بوتين، وقد برز في عامي 2011 و2012 بوصفه قائدًا لأكبر المظاهرات ضد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، ووجهت إليه تهم مختلفة عُدَّت بأنها محاولة لإسكاته. الملصق على جهاز الحاسوب يقول: بوتين لص.

في العام 2013، خرج بوتين وزوجته من عرض لرقص الباليه، وأعلنا أنهما ينويان الطلاق بعد زواج استمر لنحو 30 عامًا، وكانت لودميلا قد اختفت عن الأضواء في مدة رئاسة بوتين الثانية.

انتشرت شائعات عن علاقة بوتين بلاعبة الجمباز الأولمبية ألينا كابايفا التي أصبحت عضوًا في مجلس النواب الروسي-الدوما. تظهر هنا في العام 2005 بعد منحها وسام الدولة. على الرغم من أن عمق العلاقة بينهما ظل غامضًا لسنوات، إلا أنها كانت قريبة من حلقة بوتين الداخلية من الأصدقاء، وعملت مع الشبكة الإعلامية التي يسيطر عليها يوري كافالشيك.

في أعقاب فصل القرم عن أوكرانيا وضمّها في العام 2014، بلغت شعبية بوتين ذروتها في الداخل، على الرغم من أنه كان معزولًا خارجيًّا لإخلاله بالنظام القائم الذي حافظ على السلام مع أوروبا بعد نهاية الحرب الباردة، وقد ظهرت صورته على الأعلام في مظاهرة في الساحة الحمراء في مارس 2014، وكان شعارها: ((نحن معًا)).